

تاريخ الأندلس


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

منشـــورات جامعـــة دمشـــق
كلية الآداب والعلوم الإنسانية



تاريخ الأندلس

تأليف

الدكتور
سهيل زكار
أستاذ في قسم التاريخ

الدكتورة
فايزة محمد الكلاس
أستاذ مساعد في قسم التاريخ

جامعة دمشق


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المحتوى

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة ...

ازداد الاهتمام في السنوات الأخيرة بتاريخ الأندلس ، بسبب الكشف عن بعض المصادر ، ولا سيما بعد ظهور نتائج الحفريات الأثرية ، حول ما كان قبل الفتح الإسلامي للأندلس ، فقد أظهرت الحفريات بأن جل مدن الأندلس قد جاء تأسيسها للمرة الأولى على أيدي العرب الفينيقيين ، وأن الأندلس كانت بلداً عربي الحضارة والسكان حتى العصر الروماني ومن بعده ، وفي أيام العصر الروماني أثر الأندلسيون حضارياً في تاريخ روما مثلما فعل الشاميون ، ولا سيما أيام الأسرة الحمصية ، ومثير للانتباه أن العرب أطلقوا بعد فتح الأندلس على إشبيلية اسم حمص ، لأنه في إقليم إشبيلية قامت مدينة قادس الفينيقية الواسعة الشهرة ، وإلى الغرب من حمص الشام كانت مدينة قادش ، أيضاً العظيمة الأهمية قبل الإسلام بقرون مديدة .

وإذا كان التاريخ خبراً ورؤية ، يمكننا على ضوء المعطيات الجديدة أن نفهم أسباب سرعة ظهور الشخصية العربية للأندلس بعد الفتح مثلما حدث بالنسبة لبلاد الشام ، أي أن الأندلس حافظت حتى الفتح على شخصيتها العربية الفينيقية ، ويساعدنا هذا على فهم أسباب التشابه بين صيغ بعض الأسماء الأندلسية والشامية ، بوجود لاحقة «الواو والنون» بكل اسم مثل : عبدون ، وحفصون ، وسحنون ،

وقاسيون ، وكانون ، وشمعون ، وغير ذلك كثير .

ومن منطلق الرؤية والاجتهاد في إطار النص بات من المطلوب العمل مجدداً بتاريخ الأندلس ، وتقديم المحصلات إلى الطلبة ، لينالوا المعرفة .

والبحث في تاريخ الأندلس ليس بكاء على فردوس مفقود ، بل هو أصيل في تاريخ العرب والمسلمين ثقافياً وبشرياً وحضارياً ، وتاريخ الأندلس هو الرباط المتين الذي يربط الآن أهل الشام بملايين المغتربين العرب في العالم الجديد ، لأنه مثلما يشعر الإنسان عندما يزور الأندلس أن الأرض تتكلم العربية حتى الآن ، وعلى هذا الأساس جاء اكتشاف العالم بفضل المعرفة العربية ، كما أن المواريث الحضارية العربية التي حملها المهاجرون هي عربية أندلسية من كافة الجوانب ، وعلى هذا لم ينته الوجود العربي ، وسقطت غرناطة سياسياً ، وبقيت حية حضارياً ، والحضارة أهم من السياسة، وللحضارة البقاء والتأثير ، لا سيما في هذا العصر الذي كثرت فيه الأحاديث عن حوار الحضارات أو صراعاتها .

نتمنى لخطتنا النجاح والأخذ بها وتطويرها ، ونرجو أن تحصل الفائدة من هذا الكتاب الذي لا شك أنه يأخذ بمقاليد البحث في تاريخ الأندلس نحو ميادين أرحب من ذي قبل وأرقى ، والله الموفق للسداد ، وله الحمد والشكر ، والصلاة والسلام على النبي المصطفى وعلى آله وصحبه وسلم .

الدكتور
سهيل زكار

الدكتورة
فايزة محمد الكلاس

- دمشق ١٠ محرم ١٤٢٤هـ الموافق ١٣ آذار ٢٠٠٣م -

الفصل الأول

من الفتح حتى نهاية عصر الولاة


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

● توطئة:

شكّل حكم موسى للمغرب حدثاً حاسماً في تاريخه ، فقد نقل هذا الوالي المجرب النشـاط العسـكري إلى أقصى المغرب ، إلى حيث وصل عقبة من قبل ، وتمكن بهذا النشـاط من الحصول على طاعة جميع قبائل المغرب وإعلان قبولها للإسلام ، كما أنه اسـتطاع تصفية جميع ما تبقى من جيوب المقاومة في المدن والقلاع والحصون ، ولم يقتصر نشاطه على البر فقط ، بل قامت بعض قواته بغارات على سواحل صقلية وشبه الجزيـرة الإيـبيرية ، وبعدما دان المغرب جميعه لموسى ، وبعدما تجمعت لدى موسى الإمكانـات البشرية والمادية ، وبعدما غدا بإمكانه تجنيد بعض القوات من البربر الذين دخلـوا في الإسلام إلى جانب قواته ، شرع في تنفيذ خطط جديدة تتواءم مع أهداف الخلافـة بالسيطرة على البحر المتوسط وأسلمته ، وتماشياً مع ما تفرضه الجغرافية على التاريخ ، فما من قوة وحّدت المغرب إلا وحاولت السيطرة على شبه الجزيرة الإيبيرية، من منطلق استراتيجي لأن قوى شبه الجزيرة عندما كانت تخفق في التوسع داخل القارة الأوروبية كانت تنعطف نحو الشمال الأفريقي [١] .

---

[١] تاريخ خليفة : ١/٣٩٢ . ٣٩٧ ، ٤٠٠ . البلاذري : ٢٩٩-٢٣٢ . ابن عبد الحكم : ٢٠٣-٢٠٤ الرقـيق : ٢٨-٣٠ . البيان المغرب : ١/٣٢-٤٣ . الاستقصا : ١/٩٥-٩٧ . تاريخ المغرب العربي : ٢٠٦-٢١٧ . المغرب عبر التاريخ : ٩٧-٩٩ . قادة الفتح : ١/٢٢١-٢٤٠ .

فتح الأندلس والتوسع في أوروبة

من المقرر أن فتح الأندلس قد جاء مثل غيره من الفتوحات العربية تنفيذاً لخطط الفتح التي اعتمدت في أيام الخليفة الوليد ، واستهدفت فيما استهدفته السيطرة على حوض البحر المتوسط وعلى منفذيه : مضيق جبل طارق والبوسفور ، ومع ذلك إن هذا الفتح يختلف بعض الشيء عن الفتوحات الأخرى ، ولهذا السبب نحن بحاجة للبحث فيه ضمن أطر خاصة وموازين ذاتية ، ذلك أنه إذا كانت الفتوحات في آسية وأفريقيا أعمال توسع للدولة العربية ونقلاً للإسلام إلى أراضٍ متاخمة للأراضي الإسلامية ومتصلة بها ومتداخلة معها ، فإن ما تم هنا هو الانتقال من قارة إلى قارة ، ويواجهنا هنا سؤال هام : لماذا قصر العرب فتوحاتهم على الشريط الجغرافي المقطون بسكان بيض البشرة ، ولماذا لم يتوسعوا في وادي النيل للوصول إلى الحبشة ، ثم لم يتوسعوا داخل إفريقيا السوداء بعد إكمال سيطرتهم على الشمال الأفريقي ؟

وقبل أن نقدم الإجابات المعلّلة لهذا السؤال ، من المفيد الإشارة إلى أن هناك من ذهب في أيامنا إلى القول إن العرب لم يفتحوا بلاد الأندلس ، ولم يكن هناك أعمال عسكرية بقيادة طارق أو موسى ، بل الذي حدث هو توسّع حضاري وعقائدي ، والحجج المقدمة هنا فيها ثغرات كبيرة وإغفال لحقيقة أن فتح الأندلس مثل غيره من الفتوحات ما كان لينجح ويكتب له الاستمرار والعطاء بدون الإسلام عقائدياً وحضارياً وثقافياً ونظماً .

وجاء إنكار عملية الفتح في كتاب حمل عنوان «العرب لم يغزوا الأندلس رؤية تاريخية مختلفة» [1] ، وهذا الكتاب ترجمة ممسوخة لكتاب ألّف بالإسبانية وصدر عام ١٩٧٤م لباحث إسباني اسمه «إغناسيو أولاغي» ، وتولى الترجمة بتصرف واختصار إسماعيل الأمين . ومن الواضح أن المترجم يمتلك معلومات فقيرة جداً عن التاريخ العربي بشكل عام والتاريخ الأندلسي بشكل خاص ، ولهذا عجز عن ضبط جلّ الأسماء العربية ، واستهدف الترويج عن طريق الإثارة على قاعدة مخالفة المألوف ، وليس من أجل خدمة الحقيقة العلمية ، كما أنه لا يمتلك خبرة بعلم التاريخ عند العرب في المشرق أو في الأندلس ، مع جهل تام بما حدث خلال العصور الوسطى الإسلامية .

وإذا ما عدنا للإجابة على السؤال المطروح عن فتح الأندلس نجد ابن خلدون يروي في تاريخه «أن البربر ارتدوا اثنتي عشرة مرة من طرابلس إلى طنجة ، ولم يستقر إسلامهم حتى أجاز طارق موسى بن نصير إلى الأندلس ، بعد أن دوخ المغرب ، وأجاز معه كثيراً من رجالات البربر وأمرائهم برسم الجهاد ، فاستقروا هناك من لدن الفتح ، فحينئذ استقر الإسلام بالمغرب وأذعن البربر لحكمه ، ورسخت فيهم كلمة الإسلام وتناسوا الردة» .

هذا وفي الوقت الذي جعل فيه ابن خلدون فتح الأندلس حلاً لمشاكل المغرب نجد قبله الرقيق القيرواني يجعل هذا الفتح يقوم لحماية المغرب من مخاطر هجوم يأتي عن طريق الأندلس ، فجاءت ـ هكذا حملة المسلمين على الأندلس بمثابة هجوم وقائي ، كما أسلفنا وليس توسعاً مثل بقية الفتوحات .

إن في كل من هذين التعليلين الكثير من الصواب ، إنما يمكن أن يضاف إليهما تعليلات أخرى يجلها المؤرخ المعاصر ويستخرج أدلتها من سياق الحوادث ، فبالإضافة

---

[1] ط. دار رياض الريس لندن ١٩٩١ .

لسياسة العرب تجاه البحر المتوسط نلاحظ أن التوسع في الشمال الأفريقي كان حركة تحرير للجزء الأفريقي من الوطن العربي ، الذي تمتد جذور وجوده في أعماق التاريخ ، وتحددت معالمه وترسخت بفضل الإسلام ، وتعليل هذه الظاهرة مرتبط بانشطار العالم الإسلامي إلى شطرين : عربي وأعجمي ، ثم إن العرب لم يتوسعوا داخل أفريقية السوداء لأسباب اقتصادية واجتماعية بشرية حضارية ، ثم هناك مشكلة التصور الجغرافي والمعرفة بأقاليم الأمم الأخرى وبلدانها ، فلقد كانت أفريقيا السوداء عالماً مجهولاً بالنسبة للعرب ، كما أنه كان عالماً في غاية الفقر ، والتعقيدات ، يحتاج نشر الإسلام بين شعوبه الوثنية إلى وقت طويل وجهود متواصلة ، يضاف إلى هذا أن فتحه كان سيكون على درجة كبيرة من الصعوبة بالنسبة للعرب الذين اعتادوا على الأرض المكشوفة والأقاليم المعتدلة ، فهناك من يقول : يعيش العربي حيث يعيش الجمل وحيث ينبت الزيتون ، هذا وكان للعرب تجارب مريرة غير مشجعة حينما حاولوا التوسع في أراضي النوبة والتوغل في وادي النيل ، وبالمناسبة انتشر الإسلام في أفريقيا بفضل قوة وفعالية معطياته العقائدية والحضارية مع نظمه ، ولهذا جاء هذا الانتشار بدون تعريب ، لكن الذي حدث بالأندلس كان تعريباً كاملاً لقرون طويلة .

وفي الوقت الذي كان فيه العرب يجهلون إلى حد كبير أفريقيا السوداء كانت لديهم معلومات جيدة عن أوروبا وخاصة عن الأندلس وصقلية وبعض جزر المتوسط، فمنذ أن فرغ العرب من بناء قوتهم البحرية في عهد عثمان بن عفان أخذت أساطيلهم تجوب البحر المتوسط وتعمل الغارات وتخوض المعارك ضد أساطيل بيزنطة وغيرها ، ولهذا كانت لديهم معلومات عن الأحوال السياسية والاجتماعية والبشرية والاقتصادية والدينية لشبه الجزيرة الإيبيرية وصقلية ، والواقع أن هذه الأوضاع هي التي دعتهم إلى العبور إلى شبه الجزيرة الإيبيرية ، وهي التي سببت لهم النجاح ، وهنا نجد أنفسنا بحاجة للقيام باستعراض لأحوال شبه الجزيرة الإيبيرية وتاريخها قبل الفتح الإسلامي وأيام حدوثه .

كانت شبه الجزيرة الإيبيرية تحت حكم الفيزقوط (القوط الغربيون) الذي كانوا قد دخلوها في سنة ٤١٤م ، وذلك بعد هجرة القندال إليها ، وقد تملكوا المنطقة الشمالية الشرقية من البلاد ، ثم مدوا نفوذهم عليها جميعاً وتسببوا في هجرة الوندال إلى الشمال الأفريقي ، ومن الواندال نالت الأندلس تسميتها (قندلسيا) وكان القوط مثل غالبية القبائل ذات الأصل الجرماني ، يؤمنون بالنصرانية إنما تبعاً للعقيدة الأريانية ، التي اختلفت عن غيرها من العقائد بنظرتها إلى طبيعة السيد المسيح وتأليهه ، هذا في حين كان السكان المحليون (الهسبوروما) يؤمنون بالكاثوليكية ، لذلك كان الوفاق منعدماً بينهم وبين الفيزوقوط ، ولم يكن في شبه الجزيرة الأيبيرية وحدة وطنية أو اجتماعية ، وفي عام ٥٨٩ اعتنق ملك الفيزقوط الكاثوليكية ، وهكذا أمكن بعد ذلك قيام دولة موحدة تسيطر على جميع شبه الجزيرة الأيبيرية ، أي إسبانية اليوم مع جزء من جنوب فرنسا الحالية .

في هذه البلاد كان هناك طبقة من النبلاء العليا احتكرت لنفسها السلطات الزمنية مع الكنيسة ، وكانت الدولة دولة ملكية ، لكن المؤسسة الملكية فيها كانت ضعيفة ، لأن الملك كان ينتخب من بين رجالات طبقة النبلاء وبواسطتهم ، وهكذا لم يكن هناك قانون ثابت للملكية ، ولا مبدأ مقرراً لوراثة العرش ، وقد جرت بعض المحاولات من قبل عدد من الملوك لتأمين العرش لأبنائهم بعد موتهم بوساطة إشراكهم في الحكم أيام حياتهم أو بالتنازل عن العرش ، ولم تمر هذه المحاولات دون معارضة شديدة من قبل النبلاء أصحاب المطامع والنَّزعات السلطوية والاستقلالية ، مما كان يسبب الاضطرابات الدائمة والقلاقل المستمرة ، وكان هناك مؤامرات مستمرة لتولي الحكم بعد وفاة الملك .

يضاف إلى كل ما ذكر أن ملوك الفيزقوط كانوا يعانون من الضعف بسبب طبيعة جيوشهم وأحوالها ، فقد كان ـــ نظرياً ـــ على كل حر قادر على حمل السلاح

القيام بخدمة الملك ، لكن بسبب تركيب طبقة النبلاء وعلاقاتها بالعرش وأسباب أخرى نجد أن الملوك من الفيزقوط ، كانوا يواجهون منذ القرن السابع صعوبة في جمع جيش قادر .

وإلى جانب النبلاء ، تشكّل شعب شبه الجزيرة من الأحرار الذين انحدروا من أصل إسباني ــ روماني ، أي كانوا نتاج المستعمرات الرومانية وفي إسبانيا أيام الإمبراطورية الرومانية ، وبالإضافة إلى طبقة الأحرار وجد الكثير من الأقنان والفلاحين الفقراء التعساء ، وكان هناك ظلم اجتماعي واستغلال ، وبالتالي كانت هناك شكوى مع تذمر دائم ، ولا شك أن هذا سهّل عملية الفتح العربي الإسلامي ، حيث نظر الناس إلى المسلمين كمحررين ، ويرجّح أن أخبار ما أحدثه الإسلام في الشمال الأفريقي مع مؤثرات إسلامية قوية قد وصلت إلى شبه الجزيرة الإيبيرية قبل وصول الفاتحين ، ولهذا ساعد بعض الأسبان العرب ، وقبلوهم و لم يقاوموهم ، كما كانت الكنيسة الإسبانية مستبدة تتميز بالطغيان والجهل وشدّة التعصب ، وكانت المدن الإسبانية أيام الفيزقوط تعيش في أحوال متردية ، ذلك أن هؤلاء المتسلطين كانوا قوماً بدائيين مهملين للتجارة والصناعة والثقافة ، بل لكل ما هو متصل بالحضارة ، وكان في المدن الإسبانية جاليات كبيرة من اليهود ، وقد أساءت السلطات الإسبانية مع الكنيسة معاملة اليهود ، ونظرت إليهم نظرة سوء وأصدرت عدة قوانين وقرارات لتنصير اليهود ، وهكذا جعلتهم في أوضاع أصبح فيها من المستحيل عليهم متابعة ممارسة العمل بالتجارة وغيرها من صناعات المال ، وقيل : جعل هذا يهود إسبانيا يتآمرون مع يهود شمال أفريقيا ضد الحكم الفيزقوطي ، لكن لم يكن لهؤلاء اليهود أي سلطان أو نفوذ من أي نوع على السلطات العربية في المغرب ، إنما يلاحظ أن يهود إسبانيا قدموا للعرب ما احتاجوا إليه من معلومات عن إسبانيا ، وبعدما نزل العرب إلى البر الأندلسي وقهروا الفيزقوط قدم اليهود لهم بعض المساعدات المفيدة وعملوا

بمثابة أدلاء لجيوشهم .

وحين نستعرض أخبار العرش الإسباني قبيل الفتح نجد حسب المواريث الجرمانية أباً وابناً يحكمان شبه الجزيرة الإيبيرية منذ عام ٦٨٧م ، وقد أراد الابن واسمه ويتزا أن يخلفه أحد أولاده واسمه أخيلا فقام بتعيينه دوقاً على القسم الشمالي الشرقي من المملكة ، وعندما مات ويتزا في عام ٧١٠م رفض فريق من النبلاء الاعتراف بأخيلا ، وقيل إنهم انتخبوا رودريك (ويسمى عند العرب لذريق) ملكاً ، ومع هذا احتفظ أخيلا بدوقيته حتى أنه ضرب نقوده الخاصة ، وعدَّ رودريك مغتصباً ، وسعى إلى خلعه عن العرش واعتلائه لنفسه .

وخاض رودريك ضد أخيلا أكثر من معركة ، وعندما نزل المسلمون في شبه الجزيرة الإيبيرية كان رودريك منشغلاً في الحرب بالشمال ، هذا وحين تتحدث المصادر العربية عن فتح الأندلس نرى بعضها يذكر أن أخيلا ، أو واحداً من إخوانه ، اتصل بطارق بن زياد الذي كان معسكراً في طنجة مع قوة مؤلفة من اثني عشر ألف مقاتل ، وقال له : «إن أبي مات ووثب على مملكتنا بطريق (أي نبيل) يقال له لذريق، وبلغني أمركم فجئت إليكم أدعوكم إليها (إسبانيا) وأكون دليلكم عليها» ولاقت هذه الدعوة أذناً صاغية من طارق وقوَّت عزيمته «على غزو الأندلس ، واستنفر البربر... وجعل يحمل البربر في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس ، ولا يشعر بهم أهل الأندلس ، ولا يظنون إلا أنها تختلف بمثل ما كانت تختلف به من منافعهم ومعايشهم ومتاجرهم ، فجعل ينقلهم فوجاً فوجاً إلى ساحل الأندلس ... فلما لم يبقَ إلا فوج واحد ركب طارق ومن بقي معه فجاز إلى أصحابه ، فنَزل بهم جبلاً من جبال الأندلس حريزاً منيعاً ، فسمي ذلك الجبل من يومئذ جبل طارق ، فلا يعلم إلا به ، وموسى بن نصير بأفريقية لا يعلم شيئاً من هذا» ، وتذكر روايات أخرى أكثر عدداً أن الذي اتصل بالعرب هو حاكم سبتة البيزنطي واسمه إليان (يوليان . جوليان)

وأنه هو الذي حرَّض المسلمين على غزو شبه الجزيرة الإيبيرية لأسباب شخصية بحتة ، فهـو قـد أراد أن ينـتقم من رودريك لأنه كان قد أودعه في بلاطه ابنته ، فاعتدى رودريـك علـيها ودنس شرفها ، فعادت إلى أبيها فشكت إليه ما بليت به ، وبما أن يوليان كان في وضع لا يملك فيه من القوة ما يكفي لينتقم من رودريك ، فقد حرَّض العـرب على حربه ، وأمدهم بما أرادوه من معلومات عن الأندلس ، وقدَّم لهم سفناً عَبَروا بها إلى شاطئ الأندلس .

وتكمـن مشكلة هذه الرواية في طابعها الخيالي ، فيوليان كان بيزنطيا ، إن تبع الـبلاط فلبلاط القسطنطينية ، وهكذا هو لم يتبع بلاط رودريك إن وجد لديه بلاط وكـان من غير المعقول لبيزنطي في الشمال الأفريقي أن يرسل ابنته إلى عند الفيزقوط البدائيين ، ويترك القسطنطينية البلد الحضاري المتقدم ، ولنتذكر أن سبتة مدينة ساحلية مغربـية ، وأن أرض المغـرب بأكمـلها دانت بالطاعة للعرب ، وعلى هذا إن وجد يوليـان فقـد أصبح من أتباع الدولة العربية ، يضاف إلى ذلك أن العرب ملكوا قوة بحرية خاصة بهم منذ قرابة سبعة عقود من الزمن ، وخاضوا بهذه القوة عدداً كبيراً من المعـارك وهاجموا صقلية وفتحوا قبرص وغيرها من جزائر المتوسط ، هذا البحر الذي بدأ يتحول إلى بحر شامي إسلامي .

ولقـد شـك بعض المؤرخين الحديثين في أن تكون شخصية يوليان شخصية تاريخـية ، علماً بأننا حين نرجع إلى أخبار عقبة بن نافع نسمع باسم شخصية بيزنطية اسمها إليان ، اتصلت به قرب طنجة وأمدَّته بمعلومات عن بحر الأندلس «بأنه محفوظ لا يرام» كما أمدته ببعض المعلومات عن بربر السوس الأدنى .

ونحـن إذا ما عدنا إلى القصة الأولى يصعب علينا أن نصدق قيام طارق بالعبور إلى شـبه الجزيـرة الأيبيرية دون الرجوع إلى رأي موسى بن نصير وأوامره ، ثم أيضاً يصـعب علينا أن نتصور أن يُقدِمَ موسى على المغامرة بغزو شبه الجزيرة الإيبيرية دون

أخــذ موافقة الخليفة في دمشق ، ولعل الذي حصل هو أنه تجمع عند العرب معلومات جـيدة عن أحوال الأندلس ، كما تلقوا دعوات ووعود بالعون من قبل التجار اليهود وســواهم ، كمــا شجعهم الوضع المتردي في شبه الجزيرة الإيبيرية سياسياً واجتماعياً ودينياً ، وكانت هناك عمليات فتوح على جميع الجبهات وفق خطط سبق وضعها .

وقــيل عــن موســى بــن نصير حبه الشديد للغنائم ، وشهوة طاغية للشهرة واكتساب المجد ، لذلك حين وجد نفسه وقد دان له المغرب ، وتجند في صفوف قواته عــدد كبير من البربر ، أراد أن يقوم بمغامرة مربحة ، فكان أن أخذ موافقة دمشق ، ثم قــام عام ٩١هـــ ــ ٧١٠م بإرسال أحد قادته واسمه طريف بن مالك على رأس قوة تــتألف مــن أربعمــئة مقاتل للقيام بغارة استطلاعية على شواطئ جنوب إسبانية ، ونجحــت غارة طريف التي وقعت في مكان ما يزال يحمل اسم طريف ، وعاد طريف يحمــل الغــنائم والمعلومات ، وشجعت المعلومات موسى على الإقدام ، ومع ذلك لم يترك موسى جانب الحذر ، فقام غي عام ٩٢ هـــ ــ ٧١١م بإرسال طارق بن زياد، وكان قائداً بربرياً أدخله موسى في قواته ، قام بإرساله على رأس سبعة آلاف مقاتل ثم أمــده بخمســة آلاف مقاتل آخرين من البربر لغزو شبه الجزيرة الإيبيرية ، ولم يرسل موسى جنداً عرباً مع طارق ، لأنه أراد ألا يضحي بعربه ، وأن ينتظر فإن كان النصر استغله لصالحه وصالح جنده العرب ، وهذا ما كان .

في هذه المقولة وصمٌ لموسى بالانتهازية واللامسؤولية ، وقصرِ النظر لأن إرسال الجند البربر لوحدهم والتغرير بهم يدل على انعدام الشعور بالمسؤولية ، وأن هؤلاء إذا مــا أخفقوا وقتلوا سيثور أهليهم وقبائلهم وموسى الذي كان شيخاً مجرباً ما كان له ليقدم على مثل هذا العمل ، ثم أين أمراء جيشه وأعوانه من التابعين المسلمين الأتقياء ، وهــل لنا أن نتجاهل رقابة إدارة دمشق وصرامتها ؟! وهكذا نقرأ في مخطوط مجهول المؤلــف حمــل عــنوان «ذكر بلاد الأندلس» ، «لما انتهى ملك الأندلس إلى لذريق

القوطـــي ، وانتهت خلافة المسلمين إلى الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وكان الوليد حازماً فاضلاً مواظباً للجهاد ناظراً في ضبط ثغوره ومصالح رعيته ، فلما ولي واستقام لـــه الأمر ، أمر قواده بغزو الروم في البر والبحر ، وولى على أفريقية موسى بن نصير اللخمي ، فخرج موسى غازياً من إفريقية إلى طنجة ، فلما وصل إلى بلد طنجة فرت قبائل البربر أمامه إلى المغرب والسوس الأقصى خوفاً منه ، فسار في إثرهم يفتح البلاد والحصـــون ويؤمـــن من آمن ويقتل من كفر حتى فتح جميع بلاد السوس الأقصى ، ثم رجع إلى أفريقية وقد استقام لـــه أمر المغرب ، وترك والياً على طنجة مولاه طارق بن زيـــاد وبصـــحبته ... من العرب واثني عشر ألفاً من البربر وكانوا قد أسلموا وحسن إسلامهم ، وترك معه جماعة من القراء والفقهاء يعلمون البربر القرآن وشرائع الإسلام، فأقـــام طارق بن زياد بطنجة ففتح الأندلس ، وكان طارق من البربر من قبيل جنْزه ، وكـــان محباً في الجهاد ، فعزم على غزو الأندلس ، فدعا برجل اسمه طريف ويكنى أبا زرعة ، فعقد له على أربعمئة رجل ومائة فارس ، وجوزهم إلى الأندلس في أربع سفن برسم الجهاد والتطلع على أحوال الأندلس ومن بها ، فجاز أبو زرعة ، ونزل بطريف، وبه عرفت طريف إلى اليوم ، فلما نزل بطريف أغار على الخضراء ، فغنم وسبى وقتل ورجـــع إلى طنجة ، فأخبر طارقاً بسعة البلاد وكثرة نعمها وخيراتها ، فأخذ طارق في إنشـــاء السفن والاستعداد إلى الجواز إليها ـــ يعني الأندلس ـــ برسم غزوها ، فجاز إلـــيها في شهر رمضان المعظم سنة اثنتين وتسعين للهجرة في جيش من اثني عشر ألف مقـــاتل : عشرة آلاف من البربر وألفين من العرب وسبعمئة من السودان ... وقيل إنه لمـــا جـــاز طارق وجيوش المسلمين نزلوا في أصل جبل طارق ، وهو جبل الفتح ، ثم صعد إلى الجبل فبنى بقمته حصناً منيعاً ، فتحصن به هو ومن معه من المسلمين» .

عـــلى هـــذا لم تكن العملية مغامرة فيها تغرير ، بل تمت وفقاً لتحضير طويل ، ففـــي طنجة تعرّب الجند البربر وحسن إسلامهم ، وجازوا إلى الأندلس ومعهم ألفين

مـــن العرب وسبعمئة من السودان ، وذكر السودان لـــه دلالاته التي قد تفيد أنهم قد جُـــنّدوا مـــن أطـــراف السوس الأقصى أو غير ذلك من الأطراف ، وأنه توفر لدى المسلمين ما احتاجوا إليه من وسائل العبور .

هذا وفي بعض مصادرنا العربية المتأخرة ، خاصة نفح الطيب للمقري أن طارقاً عـــبر مـــع جنده على سفن قدمها له يوليان ، وبعد العبور قام طارق بحرق السفن أو بخرقها ، ثم وقف بجنده خطيباً بعربية على درجة عالية من الوضوح والفصاحة ، وكان مما قاله : «البحر من ورائكم والعدو من أمامكم وليس لكم والله إلا الصدق والصبر» .

وشكّك الباحثون في أيامنا هذه في صحة هذه القصة وقالوا إنها مصنوعة ، ولعل صانعها استعارها من قصة مشابهة وردت في الأغاني في أثناء الحديث عن غزو الأحباش للـــيمن ، هـــذا وإن كنا نشكك بصحة حرق السفن أو خرقها لا نستبعد قيام طارق بالخطبة في جنده ، لأن الجيوش الإسلامية كان من عادتها وجود المذكرين فيها ، وقيام الخطباء بحض الجند وتشجيعهم وشحذ هممهم .

ونقرأ في سراج الملوك للطرطوشي ، وهو مؤلف أندلسي صنّف كتابه في مصر في القـــرن الخامس الهجري / الحادي عشر للميلاد : «ولما عبر طارق مولى موسى بن نصـــير إلى بـــلاد الأندلـــس ليفتحها ، وموسى إذ ذاك بأفريقية ، خرجوا في الجزيرة الخضـــراء وتحصنوا في الجبل العظيم ، فطمعت الروم فيهم ... ولقيهم طارق ، وعلى خـــيله مغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك ، فاقتتلوا ثلاثة أيام أشد قتال ، فرأى طارق ما الناس فيه من الشدة ، فقام فحضهم على الصبر ، ورغبهم في الشهادة وبسط في آمـــالهم ثم قال : أين المفر البحر من ورائكم والعدو من أمامكم ، فليس إلا الصبر مـــنكم ، والنصر من ربكم ، وأنا فاعل شيئاً فافعلوا كفعلي ، فوالله لأقصدن طاغيتهم فإمـــا أن أقـــتله وإمـــا أن أقتل دونه ،فاستوثق طارق من خيله ، وعرف حلية لذريق وخيمـــته وعلامته ، ثم حمل مع أصحابه عليه حملة رجل واحد ، فقتل الله لذريق بعد

قتل ذريع في العدو ، وحمى الله المسلمين فلم يقتل منهم كثير شيء ، وانهزم الروم» .

ومهما يكن من أمر لقد نزل طارق في جنوبي الأندلس في نيسان ، أو مايس من سنة ٧١١م ، وكان التوقيت قد اختير بشكل دقيق ، فقد كان رودريك آنذاك غائباً في الشمال ومعه قواته ، وقد خلّف وراءه بعض الحراسة على الشاطئ ، يقول ابن الكردبوس : في نص فريد : «ووجد بعض الروم وقوفاً في موضع وطيء كان قد عزم على النُّزول فيه إلى البر ، فمنعوه منه ، فعدل عنه ليلاً إلى موضع وعر فوطأه بالمجاذف وبرادع الدواب ، ونزل منه في البر وهم لا يعلمون ، فشن غارة عليهم وأوقع بهم وغنمهم ورحل نحو قرطبة» .

وهكذا تمكن طارق وجنده من تأسيس قاعدة لهم في منطقة الجزيرة الجنوبية ، وشرعت القوات المسلحة في أعمال الاستطلاع البعيدة والإغارة على المناطق الداخلية، وبذلك انتشرت أخبارهم في أرجاء شبه الجزيرة كلها ، وحين سمع رودريك بخبر طارق أسرع نحو الجنوب فالتحم مع المسلمين في معركة في ١٩ تموز ، أي بعد انقضاء قرابة الثلاثة أشهر على وصولهم ، وهي فترة لا شك أنها كانت كافية بالنسبة لهم لإكمال خططهم ومشاريعهم وجلب النجدات والمؤن والمعدات وشراء الأعوان أو العملاء .

واستمر القتال بين رودريك والمسلمين قرابة الأسبوع ، وتُعرف المعركة باسم معركة وادي لكة ــ أي وادي البحيرة ــ ويقال أن قسماً من جنده تخلى عنه أيام القتال ، وكانت المعركة معركة حامية اقتتل فيها الطرفان «قتالاً شديداً ، فوقع الصبر حتى ظن الناس أنه الفناء ، وتواخذوا بالأيدي ، وضرب الله عز وجل وجوه أعدائه ، فانهزموا ، وأدرك لذريق فقتل بوادي الطين وركبت آثارهم ، وكان الجبل وعراً ، فكان البربر أسرع منهم على أقدامهم ، ووضعوا فيهم السيف» لعدة أيام فأبادوهم .

لقد قضى طارق في هذه المعركة على القوة العسكرية الرئيسية للفيزقوط ، كما

دمّر نظامهم وأجهز على جهاز مؤسسة الحكم في شبه الجزيرة الإيبيرية ، ولا شك أنه لاحظ أن الأندلس أصبحت بلداً مفتوحاً أمامه ، لن يحول بينه وبين تملّكها قوة لها أثر يذكر ، فاندفع أولاً نحو مدينة قرطبة فأخذها ، ثم قرر الاندفاع نحو طليطلة (توليدو) عاصمة البلاد ، وأهم المراكز الاستراتيجية فيها ، ونال في تلك الأثناء بعض المساعدات المحلية ، كما واجه بعض المقاومة ، واحتل طارق طليطلة دون مقاومة كبيرة ، وبعد ذلك أرسل بعثات استطلاعية نحو سرقسطة (ساركوزا) .

وكان موسى بن نصير يتابع أخبار طارق ، وقد اتخذ استعداداته للتدخل ، وهكذا عندما بلغه ما تحقق لطارق من انتصارات تحرك هو بدوره من إفريقية (تونس) نحو طنجة ، ثم عبر على رأس قوة عربية تعداد قوامها ثمانية عشر ألفاً من الرجال ، وكان ذلك في تموز سنة ٧١٢م ، وهنا لم نسمع بأخبار مشكلة تعلّقت بوسائل العبور من سفن وسوى ذلك .

واندفع موسى نحو مدينة إشبيلية فافتتحها بعد مقاومة ، ثم افتتح مدناً أخرى صغيرة ، وبعد ذلك اتجه شمالاً ضد بقية من القوط كانت قوية تجمعت بعد انسحابها في ماردة ، حيث تحصنت وظلت تقاوم الحصار الإسلامي حتى يوم الفطر لسنة ٩٤هـ ـــ ٣٠ حزيران لسنة ٧١٣م .

وبعد ما اتجه موسى نحو ماردة يرجّح أنه التقى بطارق ، ولعل هذا اللقاء وقع في جهات طلبيرة ، وتعطي مصادرنا هذا اللقاء لوناً درامتيكياً خاصاً ، حيث تذكر غالبيتها أن موسى عاتب طارقاً ووبّخه ، لا بل ونريد بضربه له أو بصفعه ، وتحليل الأحداث يدلنا على أن شيئاً من هذا لم يحصل ، وكل الذي كان لم يتجاوز عتاباً لطارق على توغله دون الوقوف عند أوامره ، فترضّاه طارق بقوله : «إنما هذا الفتح لك وإنما أنا مولاك» ، وما مسيرة موسى وطارق بعد ذلك إلى طليطلة إلا دليل المعاتبة فقط من رئيس إلى مرؤوسه حيث أمضيا شتاء ٧١٣-٧١٤م ، وفي هذا الوقت

بالذات بدأت أولى الأعمال التنظيمية للبلاد المفتوحة ، وضرب موسى أول النقود الإسلامية في أوروبا .

ومن طليطلة أرسل موسى التابع علي بن رباح مع مولى الخلافة مغيث الرومي إلى دمشق ليخبرا الخليفة الوليد بن عبد الملك بأخبار الفتح ، وفي السنة التالية سار موسى ومعه طارق شمالاً فافتتحا سرقسطة ، ومن المحتمل أنهما أرسلا من هناك حملة استكشافية وصلت حتى أربونة ، لأن المملكة الفيزوقوطية كان من ضمنها أراضٍ من جنوبي شرقي فرنسا ، بما في ذلك أماكن واقعة على البحر المتوسط .

ويبدو أن موسى ارتأى هنا أن مشاكل المناطق الغربية لشبه الجزيرة الإيبيرية كانت أكثر إلحاحاً وأهمية ، ولهذا تحرك نحو هذه المناطق فتوغل في منطقة أستوريش الساحلية ، وكان في تلك الأثناء قد قام طارق باحتلال ليون وأستورقة كما أخضع أرغون ، وتشير بعض المصادر إلى أن موسى أخذ يعد العدة للتوغل في داخل أوروبا ، وذهب بعض المعاصرين إلى القول أنه كان يفكر في خطة للوصول إلى القسطنطينية وحصارها وبالتالي فتحها ، يقول المؤرخ الفرنسي رينو في كتابه عن غزوات العرب وفتوحاتهم في فرنسا وإيطاليا وسويسرا : «إن خطة موسى بن نصير كانت تقضي بأن يعود هو وجيشه إلى دمشق عن طريق ألمانيا ومضيق القسطنطينية وآسيا الصغرى بحيث يحيط بالبحر الأبيض من كل جانب ويصبح بحيرة إسلامية توفر طرق المواصلات بين مختلف الولايات الإسلامية» .

وهناك من يرى أن هذا القول ضرب من الخيال يشير بالبنان إلى جهل القائلين فيه بجغرافية أوروبا ، لأن موسى كان يعرف ما لديه من قوات ، وكان لا يعرف ما وراء البيرنيه من أراضٍ وشعوب ، ولا يدرك مدى قوتها وفق رأيهم .

ومع قوة هذه الحجة ، علينا أن نتذكر أنه بعد موسى ببضع قرون تمكنت جحافل الصليبيين من العبور من أوروبا الغربية ووصلت إلى فلسطين على الرغم مما

لاقــته مــن مقاومــة ، أضف إلى هذا أنه إثر وفاة الوليد بن عبد الملك أرسل أخوه وخليفته سليمان حملة برية وبحرية لحصار مدينة القسطنطينية ، ومما لا شك فيه أن قِطَع الأســطول التي اشتركت في هذه الحملة مع المعدات وربما القوات جرى إعدادها منذ أيــام الوليد ، ففكرة الفتح هذه كانت موجودة ، ثم إن امتلاك المسلمين للمعلومات الكافــية عن أوضاع أوروبا أمر لا ريب فيه ، لهذا يمكننا ترجيح إمكانية تفكير موسى بمــتابعة الفــتح ، ويقول رينو : «من المؤكد أن المسيحية قد واجهت أعظم الخطر في ذلــك الوقــت ، وإن المرء ليرتعش عندما يفكر فيما كان يمكن أن يحدث لو لم يقع الشقاق في وقت مبكر بين المنتصرين» .

وقصــد رينــو هنا بمسألة الشقاق ، ما روى عن حدوث خلافات بين موسى وطارق ثم المشاكل التي وقعت فيما بعد في بداية عصر الولاة ، وتذكر المصادر العربية أن موســى بعدما «انتهى إلى أربونة أراد لقاء ملك الفرنجة ، فأخذ حنش الصنعاني ــ وكان من كبار التابعين ــ بلجامه وقال سمعتك أيها الأمير تقول حين فتحت طنجة : لم يكن لعقبة ولا لأبي المهاجر من ينصحهما ، حتى أتيت أنصحك اليوم ، فأرجع فقد توغلت بالمسلمين» .

ولا شك أن رينو ارتعش تعصباً ، مع أن عدم فتح أوروبا حرمها من نعمة نور التوحــيد والحضارة والقيم الإسلامية وأبقاها تعيش في ظلام العصور الوسطى لقرون مديدة ، أضف إلى هذا أن جل أوروبا لم يكن مسيحياً بعد بل كان وثنياً .

والــذي حدث أنه في نهاية صيف ٧١٤م تم استدعاء طارق وموسى إلى دمشق ، ونحــن لا نملك معلومات مؤكدة عن أسباب هذا الاستدعاء ، ويرجح أن الوليد بن عبد الملــك أراد أن يعــرف من موسى أخبار ما فتح الله على المسلمين ، ويدرس معه خطط المســتقبل ، ولعلــه أراد أيضاً أن يحاسبه على ما حصّله من غنائم وما أنفقه ، يضاف إلى هــذا وهو الأهم أن الوليد يمك أن يكون قد خشي من النَّزعات الاستقلالية لدى موسى،

خاصة بعد ما رآه يعين ولده عبد الله على أفريقية وولده عبد الملك على المغرب ، ثم ولده عبد العزيز على إشبيلية ليحكم شبه الجزيرة الإيبيرية منها ، وبعدما سمع عن تصرفات موسى التي تشابه تصرفات الملوك وعن إنفاقه كميات كبيرة من الأموال ، متذكرين في هذا المقام أن موسى كان زبيري الهوى ، شارك في معركة مرج راهط ضد مروان بن الحكم ، أي أن استمراره قد يشكل قوة سياسية تفرق الدول ووحدتها

خلاصة القول سار موسى مع مولاه طارق من شبه الجزيرة الإيبيرية في خريف ٧١٤م ، وكان بصحبته قافلة كبيرة أفرط الكتاب العرب في وصف ما حوته من أموال وتحف وجواهر وجوار حسان وزعماء بربر وقوط وإسبان .

وتتحدث المصادر غير الشامية ، وبالتالي غير القريبة من مصدر الخبر أنه بعدما جاوز موسى مصر وكان «بالعريش جاءه كتاب الوليد يستعجله ، وجاءه كتاب سليمان يأمره بالتربص ، وكان سليمان ولي عهده ، وكان الوليد مريضاً يدير أمور الخلافة من غوطة دمشق ، فأسرع موسى ولم ينظر في كتاب سليمان ، ودفع الأموال إلى الوليد ... فلما رأى ذلك طارق دخل على الوليد وهو مريض ... وأخبره أن موسى تعدى في أموال المسلمين وأنفقها ... فصدقه الوليد... وكذّب موسى وأمر بحبسه .. ولم يلبث الوليد إلا ثلاثة أيام حتى مات ...

وبويع لسليمان بن عبد الملك بالخلافة حين توفي الوليد ، فسخط على موسى ، وقال له : يا يهودي كتبت إليك فلم تنظر في كتابي ، هلم مائة ألف ، قال : يا أمير المؤمنين قد أخذتم جميع ما في يدي ، فمن أين لي بمائة ألف ؟ قال : لا بد من مائتي ألف دينار ، فاعتذر إليه ، فقال : لا بد من ثلاثمائة ألف ، وأمر بتعذيبه ، وعزم على قتله ، فلجأ موسى بن نصير إلى يزيد بن المهلب فاستجار به ، وكانت ليزيد ناحية من سليمان فاستوهبه دمه ، فقال : يؤدي ما عنده» .

والثغرات في هذه الرواية كثيرة ، فمحورها من حيث المبدأ مسألة الخلاف بين طارق وموسى ، ومحاولات طارق للانتقام من موسى باتهامه بالتصرف بالأموال وغير ذلك ، ثم كيف لنا أن نصدق توقعات سليمان بن عبد الملك وفاة الوليد الذي كان دون الخمسين من عمره ، إلا إذا اعتقدنا بأنه تآمر على حياته ، وهذا ما لم يرد ذكره، أضف إلى هذا أن سليمان بن عبد الملك الذي كان يعيش في فلسطين بعيداً عن دمشق لم يمتلك جهازاً إدارياً ولم يتمتع بأية صلاحيات حتى يراسل الولاة والقادة ويتدخل بشؤون الخلافة ، وأكثر ثقة من هذه الرواية ما أورده ابن عساكر في تاريخه في ترجمته الموسعة لموسى ،قلت أكثر ثقة لأن موسى قضى السنوات الأخيرة من حياته في دمشق، والمصادر الشامية لهذا مرجحة على غيرها ، وفي رواية ابن عساكر ليس لطارق بن زياد سوى إشارة عرضية ، ولم يعرف رواة ابن عساكر على كثرتهم وقدمهم شيئاً عن خلاف بين طارق وموسى ، أو عن كتابة سليمان لموسى وغير ذلك ، فهناك إجماع على أن موسى «سار متوجهاً إلى الشام حتى قدم على الوليد وتحين يوم الجمعة ، فلما جلس الوليد على المنبر أتى موسى بن نصير وقد ألبس ثلاثين رجلاً تيجاناً على كل رجل منهم تاج وثياب ملك ذلك التاج ، ثم دخلوا المسجد في هيئة الملوك ، وأمر بملوك الجزائر أكابر الروم فهيئوا وأبناء ملوك البربر وملوك الأسبان ، وأقبل موسى بن نصير بالثلاثين الذين ألبسهم التيجان حتى دخَل بهم مسجد دمشق والوليد يخطب ، فلما رآهم نهض إليهم ، فأقبل حتى سلّم على الوليد ، ووقف الثلاثون على يمين المنبر وشماله بالتيجان ، فأخذ الوليد في حمد الله والثناء عليه والشكر بما أيّده وفتح عليه ونصره ، وأجاز موسى بجائزة عظيمة ، وأقام موسى بدمشق حتى مات الوليد» .

ويرجح أن وصول موسى إلى دمشق قد كان بُعيْد اكتمال بناء الجامع الأموي ، هذا ولم يترجم ابن عساكر مؤرخ الشام لطارق بن زياد ، غير أنه ذكر أن سليمان بن

عبد الملك طالب موسى بن نصير ببعض الأموال وعندما حج سليمان سنة سبع تسعين، حج معه موسى ، فمات موسى بالمدينة في هذه السنة ، وقيل توفي بوادي القرى» وهو ابن ثمان وسبعين سنة ، وذلك أنه ولد سنة تسع عشرة .

هكذا كانت نهاية موسى ، ولا ندري بشكل أكيد ما حل بطارق ، ولا شك أن الزمن قد طواه بعدما طوى موسى لكن ما كان للتاريخ أن يطوي أخبار جليل ما حققاه من فتوح [1] .

● عصر الولاة:

دعا العرب البلاد الجديدة التي فتحوها باسم الأندلس ، وكما سلف بنا القول يعتقد أن هذا الاسم صدر عن كلمة Vandalicia نسبة إلى الغزاة من قبائل الفندال ، وقد استخدم هذا ليشمل ما فتحه العرب وحكموه من شبه الجزيرة الإيبيرية ، وهو يطلق الآن على الجزء الجنوبي الشرقي من إسبانيا حيث عاش بقية العرب في الفترة بين القرن الثالث عشر والخامس عشر الميلادي .

وجادل بعض الذين بحثوا في تاريخ الأندلس وقالوا أن العرب لم يتركوا الأندلس بعدما فتحوها ، الأمر الذي تخيله بعض الذين دعوهم إليها وحرضوهم على فتحها ، وإثارة هذه المسألة فيها مغالطة وتشويه فالعرب ذهبوا إلى الأندلس فاتحين مجاهدين في

---

(١) ان عبد الحكم : ٢٠٤-٢١١. تاريخ خليفة : ١/٤٠٤-٤٠٩ . الطبري : ٦/٤٦٨-٤٨١ . الأغاني: ٣٠٤/١٧ . ابن القوطية : ٢٨-٣٧ . أخبار مجموعة : ٢-١٩ . الرقيق : ٤١-٥٧ . البلاذري : ٢٣٢ . سراج الملوك : ٥٠٦-٥٠٧ . ابن عساكر : ١٧/٢٠٥و-٢٠٨و . المعجب : ٩-١٢ . جذوة المقتبس : ٤-٦ . ابن الكردبوس : ٤٢-٥٢ . ابن الشباط : ١٣١-١٣٥ . ذكر بلاد الأندلس : ٤٤ ـ و.ظ . البيان المغرب : ١/٣٦-٤٣، ٢/٥-٢٩ . ابن خلدون : ٦/٢٢٠ . نفح الطيب : ١/٢١٤-٢٥٩ . الاستقصاء : ١/٩٦-..ب . رينو : ٣٩-٤٤ . أرسلان : ٢٨-٤٧ . جوليان : ١/٣٢١-٣٢٣ . دوزي : ١٣١-١٣٤ . تاريخ المغرب العربي : ٢١٤-٢٢٧ .

سـبيل الله ولم يذهـبوا كمرتـزقة ، وليس في تاريخهم ما يشير إلى أنهم تقبلوا فكرة الارتزاق ، والذي أشرف على فتح الأندلس هو الخلافة الأموية التي كانت أعظم دولة في عصـرها وأكـثرها رقـياً وتنظيماً وثقافة ، لهذا تحولت الأراضي المفتوحة في شبه الجزيرة الإيبيرية لتشكل جزءاً من ولاية من ولايات الإسلام ، وقاعدة لمزيد من الفتوح في أوروبا الغربية وجزائر المتوسط ، والولاية التي غدت الأندلس جزءاً منها هي ولاية أفريقـية أو المغـرب ، وشملت الآن الشمال الأفريقي مع شبه جزيرة إيبيريا ، وكانت الدولة العربية دولة تمتد من حدود الصين إلى شواطئ عدن ، ومن شواطئ المتوسط في بـلاد الشام حتى جنوب فرنسا ، وكانت هذه الدولة الشاسعة هي التي جمعت لأول مـرة في الـتاريخ أراضي وشعوب من القارات الثلاث للعالم القديم تحت لواء أسرة واحـدة وعقـيدة توحيد واضحة الأسس والمعالم ولغة مقدسة فيها حيوية وإمكانات العطاء غير محدودة ، محققة بذلك للمرة الأولى الأممية العقائدية .

ومعـروف أن هـذه الدولة قد أديرت من قبل خليفة كان مقره الرسمي مدينة دمشـق ، لكـن عـلى الرغم من ذلك ، ولأسباب مختلفة ، كان بلاط هذا الخليفة متحركاً ، وكان النظام الإداري لهذه الدولة بسيطاً في طور التطور ، لكن بكفاءة عالية وحزم وسداد ، وكان كل شيء في هذه الدولة الشاسعة متعلقاً بالخليفة ، وتميَّز الخلفاء مـن بني أمية بشكل عام بالرجولة وبالقدرات الإدارية والسياسية المتميزة وكان لكل منهم جهاز استشاري واسع الخبرة والفهم ، ومع هذا تأثر إشراف الخليفة على الإدارة والسـلطات في الولايـات بطبيعة العصر وبما تولد عن أحوال المواصلات وعن حال العلاقـات بـين الخلـيفة وبين القوى الفعالة التي أحاطت بعرشه ، أو كان لها وزنها السياسـي والعسكري ، ونعني بها القبائل العربية وأشرافها ، ولم يسد الوئام بين هذه القبائل وعاشت دوماً في صراعات أطلق عليه اسم العصبيات القبلية .

وعين الخلفاء عدداً من الأعوان لممارسة بعض الوظائف المختلفة بالدولة ، وكان

أهم هذه الوظائف وظيفة أمراء الجند ، وكان قائد كل جيش يتحول بعد انتهاء عملية من عمليات الفتوح قام بها ، إلى حاكم مدني يعاونه جهاز إداري يتولى أمور المال والقضاء وغير ذلك من الوظائف ، وكانت الخلافة تعين أحياناً الجباة والقضاة ، أو تترك أمر تعيينهم إلى القادة ، وكان كل واحد من هؤلاء القادة يعرف بالعامل أو الوالي ويحمل لقب أمير ، ونظراً لطبيعة الدولة والعصر كان كل واحد من الولاة حاكماً مستقلاً إلى أبعد الحدود .

وفي الدولة الإسلامية منح حق المواطنة للمسلمين ، وعرفت الجماعات غير المسلمة باسم الذمة ، وكان للذمة أوضاع خاصة وإدارة شبه ذاتية ، فقد أديرت الشؤون الداخلية لكل طائفة من طوائف الذمة من قبل رئيس الطائفة ، الذي غالباً ما كان رجل دين ، وكان على كل فرد من أهل الذمة دفع ضرائب محددة عن النفس والأملاك مقابل حماية الدولة له ورعايته من جميع الجوانب .

وشكل العرب نواة المسلمين في كل ولاية جديدة ، وكان هؤلاء العرب بالوقت نفسه هم الجند ، وعلى هذا غالباً ما انحصر حق المواطنة في كل ولاية جديدة بالعرب ، والمستعرض لتاريخ الولايات المشرقية وغيرها يرى كم هو حجم المشاكل التي قد تولدت بعد دخول أعداد من السكان المحليين في الإسلام ومطالبتهم بحقوق المواطنة الكاملة .

وكان لكل واحد من الجند وعيالاته عطاء خاص كان هو الأعلى في العالم في حينه وذلك مع نصيب محدَّد شرعياً في الغنائم ، كما كان يحق للحاكم منح ــ أو إقطاع ــ بعض الأراضي ذات الوضع الخاص للمسلمين ، وعلى هذا شكَّل العرب منذ البداية شريحة عليا في السلم الاجتماعي في كل ولاية واستمروا كذلك حتى بعد توقف حركة الفتوحات ، حيث حازوا ملكيات الكثير من الأراضي الغنية ، وتحول الأشراف منهم إلى ملاك كبار ، وحين صار قادة الجند ــ مع بعض الجند ــ ملاكاً

انصـــرفوا عن التفرغ لخدمة مهنتهم الأولى ، وغدا العطاء بالنسبة إليهم ليس بذي بال أو كـــبير اعتبار ،وبات كل واحد منهم يعمل جاهداً في سبيل زيادة رقعة أملاكه على حساب أملاك غيره ، وخلق هذا تنافساً أو صراعاً داخلياً صرف الطاقات نحو الداخل وحولها عن الخارج .

وجعل ما ناله الجند وما تمتعوا به رجالات هذه الفئة لا يشجعون سكان البلاد المفـــتوحة عـــلى الدخول في الإسلام ، لا بل وجدت حالات حيل فيها دون الدخول بالإسلام ، وقد دفع تملك الأراضي الجند إلى سكنى المدن ، ونظراً لاستمرار الحاجة إلى جـــيش وقـــوات مقاتلة فقد قام مبدأ قبول تجنيد غير العرب في الجيش إنما على أساس قـــاعدة الولاء ، فقد بات على غير العربي أن ينال النسب العربي بعد دخوله بالإسلام على أساس عرفي اسمه الولاء وكان الولاء موجوداً قبل الإسلام ، ثم تطور بعده تطوراً خاصـــاً ومـــنح الولاء والإسلام المولى حق المواطنة إنما بدرجة أدنى من درجة المسلم العربي الصريح ، ونَشَدَ الموالي رفع درجتهم وطالبوا بالمساواة ، وكانت هناك حركات وثورات سعت نحو هذا الهدف .

وإذا كانـــت هـــذه الحالة العامة في جميع ولايات الدولة الأموية ، فإن الحالة في الأندلس قد اختلفت بعض الشيء ، ذلك أن كلاً من موسى وطارق بن زياد كانا من المـــوالي والجـــيوش التي تولت فتح الأندلس كانت عربية وبربرية وهكذا كان الفتح إســـلامياً صرفاً ، فأكثرية الذين تحمَّلوا أعباء الفتح الأولى كانوا من البربر المسلمين ، ساعدهم العرب وشاركوا في قطف الثمار ، وهكذا شارك العرب منذ البداية البربر ، وعلـــيه صارت أسس الصراعات الأولى ليس صراعاً عربياً عربياً على قاعدة العصبية ، بل صراعاً عربياً بربرياً ، ثم ترافق هذا بصراع عربي عربي على قاعدة العصبية ، وكان لهـــذا دوره المقرر لمصير الوجود الإسلامي في أوروبا ، يضاف إلى هذا أن أوضاع بلاد

الأندلــس الخاصة وما أحاط بها من قوى فرضت على العرب إعطاء بعض التنازلات حــتى وإن خالف ذلك الرائج من أحكام الإسلام وقواعده ، فبعد أن نزل العرب في شبه الجزيرة الإيبيرية تعذّر عليهم في البداية فتح مدينة المرسية التي عرف صاحبها آنذاك باسم تدمير Theodemir ، وقاوم تدمير العرب ورفض الدخول بالإسلام ، كما رفض دفع الجزية وقبل حكم السيف ، وبعد ما هزمه المسلمون لم يعاملوه معاملة المقهور بل عقدوا معه معاهدة سنة ٧١٣م تعهد المسلمون فيها بالمحافظة لــه على نفسه وماله مع رعيــته وأموالهــم مع السماح بممارسة الحرية في العقيدة والعبادات ، وهو أمر يلفت النظر في بعد نظرهم وقبولهم لفكرة الحرية واحترام المعاهدات .

وكان سليمان بن عبد الملك قد عزل ولاة الوليد بن عبد الملك واستبدلهم بولاة جــدد وهكذا عزل موسى بن نصير وعين مكانه محمد بن يزيد مولى قريش والياً على أفريقــية ، ويــروى أنه بعدما تسلم ابن يزيد منصبه كتب سليمان إليه «أن يأخذ آل موســى بن نصير وكل من التبس بهم حتى يوفوا ثلاثمائة ألف دينار ، ولا يرفع العذاب عــنهم ، فقبض على عبد الله بن موسى فحبسه في السجن» ثم قتله بناء على تعليمات أخرى وردت إليه من الخليفة .

وكــان عــبد العزيز بن موسى يحكم الأندلس منذ رحيل أبيه ، وقد اتخذ عبد العزيز إشبيلية قاعدة لحكمه متخلياً بذلك عن طليطلة العاصمة القوطية للبلاد ، وذات أفضــل موقــع حصين متوسط لحكم شبه الجزيرة الإيبيرية ، وقام عبد العزيز بإكمال أعمــال أبــيه الحربــية في الأندلس ، كما أكمل تنظيمات الولاية الإدارية ، وتذكر مصادرنا أنه تزوج بامرأة فيزقوطية اختلفوا في تحديد اسمها الحقيقي ، واتفقوا على أنها عرفت باسم «أم عاصم» ، وذهب بعضهم إلى القول إنها كانت أرملة رودريك الملك الفيزقوطي المقتول ، وقال بعضهم الآخر إنها كانت ابنته ، ومهما كان وضع هذه المرأة ومنزلــتها الاجتماعية ، فإن زواج عبد العزيز منها لــه عدة دلالات أولها أن العرب

الذين عبروا إلى الأندلس فاتحين لم يجلبوا معهم أهليهم أو زوجاتهم ، أي أن الفتح هنا تميز عن سواه في أنه لم يأخذ شكل هجرة بشرية ، وعلى هذا تزوج الجند العرب من نساء الأندلس المحليات ، وسيكون لهذا آثاره الواضحة على حوادث مستقبل الأندلس والتكوين الاجتماعي هناك كما سنرى .

وقيل : «بلغ عبد العزيز بن موسى ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته ، فخلع طاعة بني مروان وخالفهم ، فأرسل إليه ــ سليمان ــ يتهدده فلم يرجع إلى الطاعة» ، وهنا راسل سليمان وجوه العرب في الأندلس وطلب منهم قتله ، فاغتاله أحدهم وهو يؤدي صلاة الصبح ، وكان ذلك في سنة ٩٧هـ ــ ٧١٦م .

نستطيع القول إن اغتيال عبد العزيز بن موسى أنهى مرحلة الفتح من تاريخ الأندلس وابتدأت مرحلة جديدة عرفت باسم عصر الولاة ، وقد دام هذا العصر أكثر من أربعين سنة توالى على الحكم خلالها قرابة العشرين من الولاة ، حكم بعضهم أكثر من مرة ، كما حكم ثلاثة منهم لمدة زادت عن خمس سنوات لكل واحد منهم ، وكانت ولاية بعضهم قصيرة جداً ومؤقتة حيث غالباً ما تسلموا مناصبهم بعد مصرع أحد الولاة المعنيين بحرب خارجية جهادية أو في فتن أهلية ، وقد تبع هؤلاء الولاة لوالي القيروان في ولاية أفريقية وارتبطوا به لكن نظراً لبعد الشقة ما بين الأندلس والقيروان عاش هؤلاء الولاة في الأندلس شبه مستقلين ، لكن هذا الاستقلال لم ينج ولايتهم من انعكاسات ما كان يجري في الشمال الأفريقي بشكل خاص وفي دار الخلافة بشكل عام ، ومع أن الفتح الإسلامي للأندلس قد ربط هذا الجزء الأوروبي بعالم المشرق الآسيوي إلا أنه استمر يتأثر من جميع الجوانب بما كان يجري في الغرب ويؤثر فيه . وعندما اغتيل عبد العزيز بن موسى لم يكن قد تم للمسلمين إخضاع جميع أجزاء شبه الجزيرة الإيبيرية ، ففي الشمال الغربي من البلاد بقيت مساحات واسعة لم

يدخلها العرب ، كما أن بعض أطراف البلاد كان الحكم الجديد فيها غير راسخ القواعد ويحتاج إلى تدعيم .

هذا ولما كان الفتح الإسلامي في الأندلس لم يمر دون إحداث أصداء واسعة في الغرب مع ردات فعل عنيفة ، فقد كان على ولاة الأندلس بعد عبد العزيز أن يكملوا السيطرة على أراضي شبه الجزيرة الإيبيرية ، وأن يدعموا الحكم الإسلامي حيثما كان ضعيفاً وكان عليهم تمتين الوشائج ووسائل التعاون مع الشمال الأفريقي وبقية أجزاء العالم الإسلامي بشرياً واقتصادياً وعسكرياً بالدرجة الأولى ، لأن إمكانات العالم الإسلامي وحدها التي كانت كافية لمواجهة إمكانات أوروبا الغربية وعداءها لهم ، فقد توجَّب على مسلمي الأندلس متابعة أعمال الفتوح المنظمة الهادفة أو على الأقل التصدي بالهجمات الوقائية لردات فعل أوروبة الغربية التي كانت قد شرعت منذ بعض الوقت في اكتشاف نفسها والتحول في محور حياتها من حوض البحر المتوسط نحو الشمال حيث شعوب الشمال ذات الإمكانات القتالية الهائلة ، يضاف إلى هذا كله كان على حكام الأندلس مواجهة مشاكل إنشاء مجتمع إسلامي جديد في جزء من أوروبا الغربية [1] .

وسنرى أن ولاة الأندلس قد عجزوا عن إكمال الفتح ، كما أنهم لم يستطيعوا تحقيق النجاح في التوغل داخل أوروبا ،فكان ذلك من مقدمات الخسران وفقدان الأملاك .

وبعد عبد العزيز بن موسى قدم أهل الأندلس أيوب بن حبيب ، وكان ابن

---

[1] ابن عبد الحكم : ٢١١-٢١٥ . تاريخ خليفة : ١/٤٣٠ . العذري : ٤-٧ . ابن القوطية : ٣٧-٣٨ أخبار مجموعة : ١٩-٢٢ . الرقيق : ٥٨-٦١ . البيان المغرب : ٢/٣٠-٣٢ . المعجب : ١٢-١٣ . جذوة المقتبس : ٦ . ذكر بلاد الأندلس : ٤٤-ظ . الاستقصا : ١/١٠٠ . أرسلان : ٤٧ . رينو : ٤٤ . المسلمون في أوروبا : ٩٤-١٠١ . تاريخ المغرب العربي : ٢٣٠-٢٣١ .

أخـت موسى بن نصير ، ليؤمهم في الصلاة ويدير أمورهم ريثما يصلهم عامل معين بصـورة رسمية من قبل والي إفريقية ، وبقي أيوب في منصبه بضعة أشهر إلى أن وصل الحـر بن عبد الرحمن الثقفي في ذي الحجة من سنة ٩٧هـ ـ آب ٧١٦م . ولعل أهم ما حـدث أيام أيوب هو تحويل مركز إدارة الأندلس من إشبيلية إلى قرطبة ، وحين فعل العرب ذلك كانوا كمن يحدد مصيره في أي بقعة من الأرض سيكون .

وشغل الحر بن عبد الرحمن الثقفي منصبه حتى رمضان سنة ١٠٠هـ ـ نيسان ٧١٩م ، ويبدو أن ما من شيء لـه أهميته قد وقع في عصره ، وقد جاءت نهاية ولايته في موكـب التغيرات التي ألمت بالدولة الأموية بعد موت سليمان بن عبد الملك وتسلم عمـر بـن عـبد العزيـز لمنصب الخلافة ، وقام عمر بن عبد العزيز بفصل الأندلس عـن ولايـة إفريقية حيث جعلها ولاية تتبع دار الخلافة مباشرة ، وعين عليها السمح ابـن مالك الخولاني «وأمره أن يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الـرفق ، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارهـا ، وكان رأيه نقل المسلمين منها وإخراجهم عنها لانقطاعهم عن المسلمين ، واتصـالهم بـأعداء الله الكفار ، فقيل له إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها فأضرب عن ذلك» .

وما إن تسلم السمح منصبه حتى أخذ يعمل على توطيد أركان الولاية الجديدة والعـناية بمديـنة قرطبة التي صارت حاضرة لها ، ولعل أهم عمل قام به في قرطبة بناء جسر على نهرها ، على أنه يبدو من مصادرنا أن السمح قد أوقف معظم جهوده على الجهـاد في سبيل إكمال الفتح العربي لشبه الجزيرة الإيبيرية ، ولقد تقدم بنا القول إن المملكـة القوطـية كانت تشمل رقعة كبيرة من جنوبي فرنسا ، وبعدما سقطت هذه المملكة أصبح الجنوب الفرنسي فارغاً مع منطقة واسعة حملت اسم «غوثيا» نسبة إلى القوط أو سبتامنيا ، واتصلت بما يعرف اليوم بالريفيرا الإيطالية ، وكانت مدينة أربونة

(نربونة) حاضرها ، ومن المرجح أن السمح قد استولى على هذه المدينة سنة ٧١٩م ، وقيل قد فتحت من قبل العرب قبل السمح ، ومن أربونة زحف السمح سنة ١٠٢هـ ـ ٧٢١م ضد مدينة طولوشة (تولوز) عاصمة أكوتين وحاصرها مدة شهر وضربها بالمنجنيقات ، وظلت هذه المدنية تقاوم حتى وصل الدوق أود الفرنجي حاكم المقاطعة لنجدتها ، ووقعت معركة عنيفة كان السمح خلالها يشد من أزر جنده بتلاوته قوله تعالى : ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم﴾ وكان الرهبان ورجال الدين النصارى يثيرون حماس أتباعهم بتعاويذ وتمائم باركها البابا ، وأصيب السمح أثناء القتال بطعنة أودت بحياته ، ففتّ ذلك من عضد الجند المسلمين فتراجعوا مرتدين إلى أربونة .

و لم توقف هذه الانتكاسة المسلمين عن العمل في سبيل فتح الأجزاء الجنوبية من فرنسا (الأرض الكبيرة) وتابعوا نشاطاتهم من أربونة في عدة محاور ، واندفعوا في وادي الرون ، واستهدفوا بالدرجة الأولى الأديرة ، وروي أنهم وصلوا إلى مقربة سانت جايل (سيكون كونت سانت جايل صنجيل من أبرز قادة الحملة الصليبية الأولى) قرب آرل .

ومفيد أن نذكر أنه بعدما نال السمح بن مالك الشهادة اختار الجند عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أميراً مؤقتاً يدير شؤونهم ، حتى يتم تعين أمير رسمي ، وبقي عبد الرحمن في منصبه المؤقت من كانون الثاني لسنة ٧٢١م حتى شهر آب من العام نفسه ومرت إثر هذا عشرة أعوام تقلب فيها على ولاية الأندلس سبعة ولاة كان بينهم عبد الرحمن الغافقي للمرة الثانية ، وكان هؤلاء الولاة هم :

١- عنبسة بن سحيم الكلبي :

من صفر ١٠٣ إلى شعبان ١٠٧ هـ ـ آب ٧٢١ ـ كانون ثاني ٧٢٦م .

٢- عذرة بن عبد الله الفهري :

من شعبان ١٠٧ إلى شوال ١٠٧هـ ـ كانون ثاني ٧٢٦- آذار ٧٢٦م .

٣- يحيى بن سلمة الكلبي :

من شوال ١٠٧ إلى ربيع الأول ١١٠هـ ـ آذار ٧٢٦ شباط ٧٢٨م .

٤- حذيفة بن الأحوص :

من ربيع الأول ١١٠ إلى شعبان ١١٠هـ ـ شباط ٧٢٨- تشرين ثاني ٧٢٨م

٥- عثمان بن أبي نسعة :

من شعبان ١١٠ إلى محرم ١١١هـ ـ تشرين ثاني ٧٢٨- نيسان ٧٢٩م .

٦- الهيثم بن عبيد الكناني :

من محرم ١١١ إلى ذي القعدة ١١١هـ ـ نيسان ٧٢٩- شباط ٧٣٠م .

٧- محمد بن عبد الله الأشجعي :

من ذي القعدة ١١١ إلى صفر ١١٢هـ ـ شباط ٧٣٠- نيسان ٧٣٠م .

٨- عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي :

من صفر ١١٢ إلى رمضان ١١٤هـ ـ نيسان ٧٣٠- تشرين أول ٧٣٢م .

وفي أيام عنبسة استأنف العرب نشاطهم بشدة وحماس أكثر من ذي قبل وأرسلوا كتائبهم في مختلف الجهات ، وتميز العرب بالبراعة والحنكة ، وأتت المصادر المسيحية على ذكر عدد كبير من الأديرة التي استولى عليها العرب أيام عنبسة وبعده ، همنا الإشارة منها إلى اسمين هما أسقفية بوي Puy وكليرمونت Clermont فمن كليرمونت دعا البابا أوربان الثاني إلى الحروب الصليبية ، وقد أناب عنه أدهمر أسقف بوي في مرافقة جيوش الحملة الأولى والإشراف عليها .

وعلى الرغم من وفرة أخبار النشاطات العربية في الأرض الكبيرة ، فإنهم لم يصرفوا طاقاتهم كلها في سبيلها ، حيث يلاحظ أنه في فترة السنوات العشرة التي أشرنا إليها أعلاه عاشت الأندلس في ظل بدايات الصراع الدموي بين العرب من جهة والبربر من جهة أخرى ، ثم الصراع بين المجموعات القبلية العربية ، وقد تطرف

المستشرق دوزي في بحث جوانب هذا الصراع حتى جعل منه محور أدار عليه جميع حوادث تاريخ الأندلس وفسرها ، وقد فات دوزي أن ما دعاه باسم العصبية القبلية ما كان صراعاً بين قبائل لاختلاف أنسابها ، بل كان صراعاً بين مجموعات من الناس رافقت الفتح واستقرت كل واحدة منها في مكان أو بقعة محددة وادَّعت لنفسها نسباً جامعاً يمت إلى إحدى القبائل العربية المعروفة ، ولقد قام صراع بين المجموعات المتجاورة بالموطن المتباعدة المصالح من أجل ملكية الأرض ومن أجل السلطة في ولاية الأندلس وفي سبيل المزيد من المرابح .

وفي الفترة ما بين ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى والثانية دافع أود عن نفسه وعن أراضيه مستغلاً أحياناً النِّزاعات بين العرب والبربر وبين العرب أنفسهم ومسهماً فيها أحياناً أخرى ، وخلال ذلك الوقت صنع زواجاً «دبلوماسياً» مع عثمان بن أبي نسعة، حيث زوجه ابنته ، وعقد معه معاهدة سلم ومهادنة أمن بها من غارات العرب ولكن إلى حين .

وبعدما تسلم عبد الرحمن الغافقي لمنصبه في الأندلس قام بالطواف على جميع مقاطعات الولاية حيث نظم شؤونها ، وكان عبد الرحمن صاحب كفاءات عالية ، وقد تمتع بسمعة عالية وبشعبية واسعة بين صفوف الأندلسيين لشجاعته وزهده وكرمه، ولما أدرك عبد الرحمن استقرار أحوال ولايته ، رأى أن يقوم من جديد باستئناف حركة الفتوحات وإكمالها ، وذلك انسجاماً مع خطط الخلافة آنذاك التي ظهرت بشكل خاص على جبهتي الخزر والأندلس .

● معركة بلاط الشهداء :

وقرر عبد الرحمن الغافقي أن يوجه طاقاته ضد أود ، وبدأ تحركه بأن بعث إلى عثمان بن أبي نسعة ، وكان قائداً لمنطقة الحدود مع أراضي حميه كونت أود ، بعث

إلـــيه بأن يشاغل العدو بالغارات إلى أن يكون هو قد أطل بمعظم الجيش ، ويروى أن هذا الأمر قد وقع من عثمان موضع الكراهية الشديدة حسداً لعبد الرحمن وضنا بحميه والد زوجته الحسناء التي كان يحبها حتى ما فوق درجة الهيام ، وعندما وصل أمر عبد الــرحمن إلى عـــثمان «وقع في حيص بيص» وراجع الأمير عبد الرحمن قائلاً له إنه لا يقـــدر أن يخفر جواره ولا أن يخرق العهد قبل انقضاء أجله ، وغضب عبد الرحمن من مـــراجعة عـــثمان لـــه ولم يرضه التلكؤ الذي بدا منه ، فأرسل إليه يشدد عليه بتنفيذ أوامـــره، وهنا لما قطع عثمان أمله من منع عبد الرحمن عن إشعال الغارة في بلاد أود أرســـل إلى حميه يخبره بما وقع حتى يأخذ حذره ، ويتخذ لنفسه وسائل الدفاع ، فبلغ عبد الرحمن ما فعله عثمان ، فأرسل جيشاً إلى مقر عثمان بقيادة واحد من أوثق رجاله وأمـــره أن يأتيه بعثمان حياً كان أم ميتاً ، وبغت الجيش مقر عثمان فهرب في الجبال ومعـــه بعـــض أعوانـــه وزوجته ، واستطاع الجيش ملاحقته وقتله ، وأخذت زوجته الحسناء إلى عبد الرحمن ، فكان أن بعث بها إلى دمشق .

ولـــا وصـــل خبر مصرع عثمان إلى كونت أود أيقن أن الحرب واقعة لا محالة ، فتأهـــب للدفـــاع ، واندفع عبد الرحمن يقود جيوشه من جبال البيرنيه ، فاحتل عدداً من المواقـــع وحصـــل عـــلى كمـــيات من الغنائم ، قالت المصادر الغربية إنها كانت هائلة ، وحـــاول أود إيقـــاف الـــزحف العربي فلاقى الإخفاق ، وهنا التفت مرغماً نحو خصمه شـــارل مارتل ، الذي عرفه العرب باسم «قارله ــ كارل» ، وعندما وصل العرب قريباً مـــن تـــور الواقعـــة على نهر اللوار ، علم عبد الرحمن أن جيشاً عظيماً يزحف للتصدي لـــه، وهنا تفحص عبد الرحمن أحوال جيشه ، وقد بات بعيداً جداً عن قواعده، فرأى هـــذا الجيش مثقلاً بالغنائم والأعتدة وأن الحفاظ على الغنائم هو الشغل الشاغل للجند ، وأدرك في هـــذا مخاطر لا حصر لها ، ولعله همَّ بإعطاء الأمر للجند بتخليف الغنائم الثقيلة وراءهـــم ، لكنه خشي الفتنة ، ولعدم امتلاكه لقاعدة ثابتة ، ولإيثاره الحفاظ على جميع

قواتـــه أثـــر المغامرة ، فتابع الزحف ، وبعدما اقتحم بقواته مدينة تور عسكر على مقربة مـــنها ، وفيما بين تور وبواتيه ناجز عبد الرحمن بقواته شارل مارتل وقواته ، واستمرت المعـــركة عـــدة أيام تخلخل فيها وضع الجند العربي ، لأن قوات شارل مارتل كانت أكثر عـــدداً ، مـــرتاحة تقـــاتل في أراضيها ، وفي اليوم الأخير للقتال دب الخلل وسط الجيش العـــربي ، وحـــاول الفرنجة مهاجمة مؤخرة هذا الجيش ، وهنا ألقى عبد الرحمن بنفسه في وســـط المعمعـــة ، فنال الشهادة ، ومع حلول الظلام توقف القتال ، وعندما حل صباح الـــيوم الـــتالي فوجـــئ الفرنجة بمعسكر العرب قائماً كما كان ، لكنه خالياً من الجند ، فاعـــتقدوا أن في الأمر خديعة ، ثم عرفوا فيما بعد أن العرب انسحبوا تحت جنح الظلام ، فاكـــتفوا بذلـــك ولم يجربوا ملاحقتهم ، هذا ولاقت أخبار هذه المعركة عناية كبيرة من مؤرخـــي العصـــر الحديـــث في أوروبا وعدوها إحدى معارك التاريخ العالمي الفاصلة ، وقـــالوا إنها أبقت نصرانية أوروبا وحالت دون انتشار الإسلام فيها ، وفي هذا الكثير من الـــتطرف والشـــطط وذلـــك أن الفـــتح العربي كان في كثير من الحالات شيئاً وانتشار الإســـلام شـــيئاً آخـــر ، فقد حكم العرب ، وبعدهم بعض القوى المسلمة أقاليم كثيرة لفترات طويلة دون أن يؤدي ذلك إلى انتشار العقيدة الإسلامية والأخذ بها .

إن الـــذي ربحـــته فرنســـا وأوروبـــا هو الحفاظ على حالة التخلف الحضاري والاجـــتماعي ، وكسبت التعصب واستبداد الكنيسة الكاثوليكية بشؤونها ثم صراعها مع الساسة والملوك والحكام ، ونماء نظام الإقطاع وتحويله الناس إلى أقنان .

يضـــاف إلى هذا إن هذه المعركة لم تغلق بوابات فرنسا في وجه العرب ، فقد تابع العـــرب غزواتهم داخل فرنسا وتوغلوا فيها ، كما أنهم وصلوا إلى ما بعد بحيرة جنيف في سويســـرا ، إنمـــا كانـــت العمليات العربية منذ الآن ، على مستوى صغير ، وبإمكانات متدنـــية ، غـــير مدعومة من حكومات أو دول قوية كافية الموارد ، ولعل من بين دروس هـــذه المعـــركة القاســـية أنه من الصعب الحصول على غنائم من فرنسا ، وهنا ينبغي أن

نقف قليلاً عند مسألة الغنائم ، التي غالى الأوروبيون في رفع شأن تأثيرها ، لنبين قائلين إن فرنسا القرن الثامن لم تكن بلداً غنياً أو نامياً يمكن للمغير عليه أن يحصل منه على غنائم ثمينة ، ولم تمتلك الكنائس والأديرة ثروات واسعة ، فعبادة الأيقونات لم تكن قد قامت بعد ، ولم يكن هنالك ثروات أو ذهب أو فضة ومجوهرات ، لقد توفرت إمكانات جمع الأرقاء للبيع والاستخدام ، هذا وما كان عرب القرن الثامن — وقد فترت حمية الجهاد في أنفسهم بعض الشيء — ليغامروا داخل فرنسا ويتحملوا الشدائد والمصاعب دونما مقابل وأرباح كبيرة مضمونة ، ولقد أدرك العرب أن نفقات أعمال الفتوح داخل فرنسا أعلى بكثير من المرابح ، لهذا ركزوا اهتماماتهم على بعض المراكز الساحلية ، ثم إن العرب لم يعجبهم مناخ فرنسا البارد ، وآثروا دوماً العيش في المناخ المتوسطي ، إضافة إلى كل ما تقدم وأعلى أهمية عانى العرب في الأندلس وأفريقيا الشمالية والمشرق بعد معركة بواتيه من مشاكل كثيرة مزقت صفوفهم وشتت قواهم ، وانتشرت الفتن بينهم ، لذلك لم يحاولوا الثأر لما لحقهم في معركة بلاط الشهداء وظلوا يعانون المشاكل والانقسامات والحروب الداخلية حتى قامت الثورة العباسية ، فنجم عن ذلك تغيير كبير ألم بشؤون السلطة في الأندلس ، وانعكس على علاقاتها مع أوروبا .

لقد كانت معركة بواتيه أو بلاط الشهداء نهاية لتيار المد العربي الفاتح في فرنسا ، وبعدها تحول اتجاه التيار ، ولم تكن الغزوات التي توغلت بعيداً داخل فرنسا وكذلك سويسرا إلا أمواجاً شاردة ذهبت قواها واهدرت محصلاتها حيث وصلت دون أن تترك أثراً دائماً ، وبالمقابل استمر مع الأيام تيار الجزر المعكوس حتى غطى الأندلس بقعة بقعة [1] .

---

(1) ابن عبد الحكم : ١٢٦-٢١٧ . ابن القوطية : ٣٩ . أخبار مجموعة : ٢٢-٢٥ . البيان المغرب : ٢/ ٣٣-٣٥ . المقري : ١/٢٢٠ . الاستقصا : ١/١٠٥ . رينو : ٥٠-٧٢ . أرسلان : ٧١-١٠٤ . طرخان : ١٠٢-١١٦ . الحجي : ١٨٥-٢٠٣ .

ولما وصل خبر مصرع عبد الرحمن الغافقي إلى مسامع والي إفريقية أنفذ عبد الملك بن قطن الفهري والياً جديداً على الأندلس ، وأنفذ معه قوة من خيل ورجال ، وبعث إلى الخليفة الأموي يعلمه ويستمده ، ويبدو أن عبد الملك أخفق في إثارة همم الناس ودفعهم إلى الغزو من جديد ، وهنا عزل من منصبه وكان هذا في سنة ١٢١هـ ــ ٧٣٩م ، وعين مكانه عقبة بن الحجاج السلولي ، وتم هذا التعيين من قبل والي أفريقيا عبد الله بن الحباب .

وكانت جموع كبيرة جداً من بربر المغرب قد دخلت الإسلام ، غير أن ابن الحباب أساء معاملة البربر ، فقد كان فظاً ثقيل الضرائب ، شديد التحصيل ، وفي الوقت نفسه انتشرت أفكار الدعوة الخارجية بين صفوف قبائل من البربر ، وجاء هذا الانتشار لأسباب عديدة ما من واحد منها كانت مضامينه نزعات استقلالية ، وكان ما أن تهيأت الفرص حتى ثار خوارج البربر سنة ١٢٢هـ ــ ٧٤٠م بزعامة أحدهم وعرف باسم ميسرة المدغري ، وبذل عبيد الله غاية جهده للقضاء على هذه الثورة واستنجد بوالي الأندلس ، ومع ذلك لاقت جهوده الإخفاق ، وقام بعض خوارج البربر باغتيال زعيمهم ميسرة المدغري وانتخبوا زعيماً جديداً اسمه خالد بن حميد الزناتي ، واستطاع خالد هذا إلحاق هزائم ماحقة بالقوات العربية التي كانت مرابطة بالمغرب ، وهكذا زالت السيطرة العربية عن معظم أجزاء المغرب ، واضطر ابن الحباب إلى مغادرة المغرب إلى دمشق ، حيث أخبر الخليفة هشام بن عبد الملك بما آلت إليه الأمور ، فانفعل وتأثر كثيراً حتى قال : «والله لأغضبن غضبة لهم عربية ولأبعثن إليهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندي» .

وكان لثورة البربر في المغرب انعكاسات مباشرة على أوضاع الأندلس ، حيث تأثر بربر الأندلس وقاموا بالثورة بدورهم ،وكان من مسوغات الثورة أنهم تحملوا العبء الأكبر في فتح الأندلس ، لكن على الرغم من هذا كان ما نالوه من ثمرات

الفتح أدنى بكثير مما ناله العرب ، ذلك أنه عندما وزعت أراضي الأندلس على الفاتحين أعطي البربر أراضي جبلية مع بعض الأراضي الواقعة في مناطق الحدود ، هذا حين نال العرب أحسن الأراضي الأندلسية وأكثرها خصباً ، وكانت الأحوال السيئة التي عاشها بربر الأندلس ــ مقارنة مع أحوال العرب ــ وراء تحركهم وقيامهم بالثورة .

وكان عقبة بن الحجاج قد قام عند تسلمه لمنصب ولاية الأندلس بإيداع سلفة والـيها المعزول عبد الملك بن قطن مع أعوانه ومؤيديه السجن ، وقد مثل عبد الملك حـزب أهـل المدينة المنورة في الأندلس ، وحين أخفق حاكم المغرب في القضاء على ثـورة الـبربر ، وبعدما أعلن بربر الأندلس ثورتهم ضعف موقف عقبة بن الحجاج ، وأصـيب عام ١٢٣هـ ــ ٧٤١م بمرض شديد حتى أرجف الناس بموته ، وهنا قامت جماعـة الحـزب المدني فأرغمته على استخلاف عبد الملك بن قطن ، وهكذا وللمرة الثانـية تسلم ابن قطن منصب ولاية الأندلس إنما بموجب إرادة قوى أندلسية ، وليس تبعاً لإرادة والي أفريقية أو الخليفة الأموي ، وستنمو هذه الظاهرة في المستقبل القريب إلى حد قيادة الأندلس إلى الانفصال السياسي عن جسم الخلافة .

ومع تسلم عبد الملك لولاية الأندلس استشرت ثورة البربر وكان الخليفة هشام بن عبد الملك قد بعث جيشا كبيراً على رأسه كلثوم بن عياض القشيري ، وعهد إليه بولايـة أفريقـية ، وأمره أن يعمل على القضاء على الثورة الخارجية فيها ، وزحف كلـثوم نحـو المغرب وجعل على مقدمة جيشه وعلى الفرسان ابن أخيه بلج بن بشر وكـان في بلج رعونة وحمق وتعصب لقومه من قيس ، وقد نجم عن تصرفاته وسلوكه وقوع خلافات بين صفوف العرب من قوات كلثوم وقوات العرب التي بقيت مرابطة في أفريقـية ، لذلـك عندما التقت القوات العربية بقوات الثورة البربرية حلت الهزيمة بالعـرب ، وفر بلج مع ما يقارب من عشرة آلاف مقاتل من جنده نحو سبتة ، وهناك اتخذ موقف الدفاع ، وتحت الحصار ضاقت الحال ببلج وجنده ، وحينئذ طلب بلج من

عبد الملك أن يعينه على القدوم إلى الأندلس ، و لم يكن ثم من يميل لتلبية مطلبه هذا ، وعبثاً حاول استدرار عطفه عليه ، بما كان يذكره في رسائله من أنه هو ورفاقه يموتون جوعاً في سبتة ، وأهم قبل كل شيء عرب مثله ، فلم يلن بؤسهم قلب ذلك «الشيخ المدني العجوز» نعني عبد الملك الذي ربما حمد الله تعالى أن أتاح له ، وهو في التسعين من عمره ، فرصة تذوق لذة الانتقام بمشاهدة أبناء الجفاة القتلة وهم يشرفون على الموت جوعاً ، أو ليسوا هم الذين قتلوا في وقعة الحرة رفاقه وأبناء عشيرته ، والذين أوشكوا أن يذيقوه — هو نفسه — الموت بسيوفهم ، والذين نهبوا المدينة المنورة واستباحوها ودنسوا حرمة قبر النبي (ﷺ) ومسجده ، أفيطمع أبناء أولئك العتاة الرعناء أن يرق لهم عبد الملك ؟ وهل لروح الانتقام أن تموت عند ذلك المدني ، وهل يمكن لآلام الشامي أن تحرك شفقة من عاش ينتظر يوم الثأر ، وهكذا لم يكن لعبد الملك سوى هم واحد ورغبة فريدة ، وشغل شاغل وحيد ، هو الحيلولة بين من هم دونه كراهية لأهل الشام وبين مدهم بالميرة أو أي نوع من المساعدات ، وعلى الرغم مما اتخذه من الاحتياطات ، استطاع شريف رؤوف من قبيلة لخم أن يفلت من رقابته ، وأن يرسي في ميناء سبتة مركبين مشحونين بالحنطة ، فلم يكد يتناهى خبر ذلك إلى عبد الملك حتى قبض على اللخمي الكريم وجلده سبعمئة جلدة ، ثم أمر بسمل عينيه وقتله متهماً إياه بتضريب الجند عليه ، ورفعت جثته على سارية وقد صلبوا إلى يمينها كلباً إيغالاً في النكاية به والشماتة ، وهنا خيل للشاميين أنه قد حكم عليهم بالموت جوعاً ، غير أنه جد فجأة أمر لم يكن في الحسبان ، أرغم عبد الملك على تغيير مسلكه .

فلقد استشرت ثورة البربر في الأندلس ، وزاد بربر الأندلس حماساً صعوبة وضع العرب في المغرب بعد الانتصارات التي حققها البربر هناك «وتحرج موقف عرب الأندلس إذ ذاك، وأصبح حالهم ينذر بالخطر ، وأوشك ملكهم على الزوال حتى وجد عبد الملك نفسه — على الرغم مما يجيش في جوفه — مضطراً لالتماس معونة أهل

الشـــام المحاصرون في سبتة ، أهل الشام ذاتهم الذين تركهم حتى هذه الساعة يكابدون مصـــيرهم الـــتعس دون أن تأخذه فيهم شفقة أو رحمة ، إلا أنه اتخذ لنفسه الحيطة ، فوعدهـــم أن يـــنفذ إليهم مراكب تنقلهم على شرط أن يقطعوا العهد على أنفسهم بمغـــادرة الأندلس حالما يتم القضاء على الثورة ، وأن يسلمه كل فريق منهم عشرة من شيوخهم يضعهم في إحدى الجزر رهائن تكون رؤوسهم ضماناً لصدق تنفيذ الاتفاق، واشـــترط الشاميون من جانبهم على عبد الملك أن ينقلهم جملة إلى أفريقية وأن ينْزلهم على ساحل ليس للبربر فيه سلطان» .

وأقر الجانبان الاتفاق ، وهكذا أبحر أهل الشام من سبتة ودخلوا الأندلس «عراة لا يواريهم إلا دواهم ، وقد بلغ بهم الجهد غايته ، وكانوا نحو عشرة آلاف من عرب الشـــام ، فلما دخلوا كساهم عرب الأندلس» ، وبعدما استقر بهم المقام في الأندلس ونقهـــوا زحفوا ضد البربر فهزموهم في أكثر من معركة ، وغنموا منهم غنائم كثيرة ، وفي تلـــك الأثـــناء تعرف عرب الشام على الأندلس ، فأعجبتهم البلاد ، وأعجبهم غناها، وأدركوا مدى قوتهم وقوة عبد الملك بن قطن .

وما إن تلاشت ثورة البربر في الأندلس وقضي عليها ، حتى طلب عبد الملك من بـــلج وصحبه تنفيذ الاتفاق ومغادرة الأندلس والعودة نحو أفريقية ، وهنا اختلق بلج أســـباباً للـــبقاء والخلاف مع عبد الملك ، وتمكن من الاستيلاء على مقاليد الأمور في قرطبة ، وأودع عبد الملك السجن وأثناء هذا حدث أن مات بعض رهائن الشاميين ، فـــثار جند بلج ، وأخرجوا عبد الملك من السجن «كأنه فرخ نعامة من الكبر ، وهم ينادونه : أفلت من سيوفنا يوم الحرة ، فطلبتنا بثأرنا في أكل الدواب والجلود ثم أردت إخراجنا إلى القتل ، ثم قتلوه وصلبوه ، وصلبوا خنْزيراً عن يمينه وكلباً عن شماله» .

ولم يمـــض حادث استيلاء بلج على السلطة وقتله لعبد الملك دونما جرائر ، فقد انقسم عرب الأندلس إلى قسمين متصارعين : شامين وبلديين قدماء ، وقامت معارك

بـين الطرفين ، ولقي بلج مصرعه في الحرب ، لكن أصحابه حققوا لأنفسهم النصر ، فاســتمروا متسلمين لمقاليد الأمور ، وخلف بلج ثعلبة بن سلامة العاملي ، وكان هذا سنة ١٢٤هـ ـــ ٧٤٢م ، وجاء اختيار ثعلبة بسبب «أن هشام بن عبد الملك كان قد عهد أن يتولى أمر الجيش إذ جهزه من الشام كلثوم ، فإن أصيب فابن أخيه بلج ، فإن أصيب فثعلبة» .

واستمرت الحرب الأهلية أيام ثعلبة ، وكانت ساعة صراعاً بين العرب والبربر ، وأخـــرى بين العرب أنفسهم ، شاميين وبلديين ، وبقي النصر حليفاً للشاميين ، ووقع أثناء هذه الحروب في أيديهم عدد كبير من الأسرى ، كما أقدم ثعلبة على اقتراف إثم لم يعهـــده العرب في تاريخهم ألا وهو سبي نساء المهزومين واسترقاق أطفالهم ، وكان ذلك حدثاً لا سابقة له ولهذا جاء في منتهى الفظاظة والقسوة .

وأخـــاف تدهـــور أوضاع الأندلس عقلاء المسلمين من شاميين وبلديين والتمسوا مخرجاً لذلك ، فتوجهوا بأبصارهم نحو المغرب ، وكانت الأوضاع قد عادت إلى الاستقرار النســبي ، بعدما وجه إليها الخليفة هشام بن عبد الملك حنظلة بن صفوان واليه على مصر ، وحــدث ذلـــك بعد ما بلغه ما صار إليه جيش كلثوم بن عياض ، ولما اتصل عقلاء أهل الأندلـــس بحـــنظلة ســـألوه أن يـــندب إليهم والياً يكون قادراً على إعادة النظام والأمن والطمأنيـــنة إلى الأندلـــس ، فاســـتجاب لمطلبهم ، واستعمل أبا الخطار الكلبي حسام بن ضـــرار، ووصـــل أبو الخطار إلى قرطبة على حين غرة ، فألفى ثعلبة بن سلامة «وهو يبيع السبي بالنداء ، ويعبث ويبطر ، فكان يبيع الشيوخ والأشراف ممن ينقص لا ممن يزيد» .

وتسلم أبو الخطار ولاية الأندلس دونما معارضة ، وقام بمعالجة مشاكل ولايته بأن أنهى الحـــرب الأهلية ، فنفى عدداً من شخصيات القوى المتصارعة وكان من جملة المنفيين ثعلبة بن ســـلامة ، وأعـــاد النظر في توزيع أراضي الأندلس على العرب ، فأعطى طالعة بلج الشامية أملاكاً أندلسية خاصة ، فصار رجال هذه الطالعة من أهل الأندلس سكانها الدائمين.

ونجح أبو الخطار في إدارته فجمع سكان الأندلس من العرب حوله ، وكسب طاعتهم ، لكنه لم يمتع نفسه بذلك طويلاً ، حيث ما لبث أن تخلى عن مصالحه ورزانته وتعصب لليمانية ضد الجماعات القيسية ، وبهذا أعاد الانقسام من جديد إلى صفوف عرب الأندلس ، وتزعم الجماعات القيسية الصميل بن حاتم الكلابي ، وكان حفيداً لشمر بن ذي الجوشن قاتل الحسين بن علي في كربلاء ، وكان أعرابياً عنده عنجهة البداوة وصلفها ، ولم يكن صاحب ثقافة أو حتى معرفة بالإسلام ، كما كان لا يحسن القراءة والكتابة ، ويروى أنه (مر بمؤدب يقرئ ولداً له القرآن فسمع منه الآية : ﴿وتلك الأيام نداولها بين الناس﴾ فوقف الصميل وقال للمؤدب : نداولها بين العرب، فقال له المؤدب : «بين الناس» فقال الصميل : وهكذا نزلت الآية ؟ قال له : نعم ، هكذا نزلت ، فقال الصميل : والله إني أرى هذا الأمر سيشركنا فيه العبيد والسفال والأرذال) .

وجمع الصميل أعوانه من قبائل قيس ، ووثب بأبي الخطار فانتزع منه ولاية الأندلس ، وبعد شيء من الفوضى والصراع عين الصميل يوسف بن عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، وكان من أحفاد عقبة بن نافع ، عينه والياً على الأندلس ، ولم يلق أتباع الحزب اليماني السلاح فخاضوا بزعامة أبي الخطار عدة معارك ضد القيسيين ، كان أشهرها واحدة وقعت سنة ١٣٠هـ ـ ٧٤٧م بمكان عرف بشقندة ، وكان على مقربة من قرطبة ، وقد تلاقى رجال الفريقان المتصارعان «حين صلوا الصبح ، فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح ، وثبتت الخيل وحميت الشمس ، ثم تداعوا إلى البراز فتنازلوا بالسيوف حتى تقطعت ، ثم تقابضوا بالأيدي والشعور ، ولم يكن في الإسلام صبر مثله» وعندما أصيب الطرفان بالإنهاك أسرع الصميل نحو قرطبة فاستنجد بأهل سوق المدينة من عمال وجزارين وسواهم ، وحسم هؤلاء بحضورهم المعركة لصالح الصميل وصحبه ، وأعقب المعركة تصفية دموية لرجالات الحزب اليماني .

وحين وقعت هذه الأحداث كانت الخلافة الأموية في المشرق تمر بدور الحشرجة النهائي ، لذلك سارت الأمور في الأندلس دون أن يكون للخلافة أو والي أفريقية أي دور في إيقاف المذابح التي وقعت ، وازدادت أحوال الأندلس سوء أنه حل بها سنة ١٣١هـ — ٧٤٨م وسنة ١٣٦هـ — ٧٥٣م قحط شديد ومجاعة دفعت بالعديد من سكان الأندلس من العرب إلى هجر الأندلس والعودة إلى المغرب ، وكان ذلك فرصة اهتبلها رجال المقاومة الإسبانية ، فبدأوا حرب الاستغلاب التي ستستمر أجيالاً طويلة ، وتنتهي بسقوط الأندلس وطرد العرب منها .

لقد تهيأت الظروف للعرب منذ ولاية عبد الملك بن قطن للانتقام لفاجعة بلاط الشهداء واستئناف حركة الفتوحات ، لعدة أسباب كان منها توفر عناصر كثيرة في بروفانس وسواها تعاونوا مع العرب لكراهتهم لشارل مارتل ، ولانشغال شارل مارتل نفسه في نشر سلطانه في أماكن أخرى ، لكن حالة التمزق التي سادت بين صفوف العرب والمسلمين في الأندلس وعدم توفر قوى بحرية كافية لدى العرب ، وأخيراً الفوضى التي حلت بالشام والمشرق منذ استيلاء يزيد الناقص على الخلافة ، وبعد هذا أحداث الثورة العباسية حرمت العرب من فرصهم ، ومعروف أنه كان من بين نتائج قيام الدولة العباسية توقف الحركة الهجومية للفتح وشروع المسلمين باعتماد خطط الدفاع .

وبالفعل جرى تحصين بعض المواقع الإسلامية في جنوب فرنسا ومقاطعة بروفانس ، ومع هذا نجح الفرنجة والإسبان بالاستيلاء على بعض المواقع الإسلامية مثل أفينون Avignon «صخرة أبينون» لكنهم لم يتمكنوا من أخذ نربونه ، حتى شارل مارتل نفسه أخفق في الاستيلاء عليها مع أنه حاصرها لبعض الوقت [1] .

---

(١) أخبار مجموعة : ٣٠-٦٧ . ابن القوطية : ٣٨-٤٦ . ابن عبد الحكم : ٢١٦-٢٢٥ . الرقيق — ط. أولى — ١٠٤-١٢٢ . البلاذري : ٢٣٣ . البيان المغرب : ١/٤٨-٦٤ ، ٢/٣٩-٥٥ . نفح =

وكـــان لسقوط الدولة الأموية في المشرق وحلول الخلافة العباسية محلها أوسع الآثـــار وأكثرها حسماً بالنسبة للأندلس ، فتاريخياً أنهى الانتصار العباسي العصر الذي كانت فيه الأندلس ولاية وسبب قيام عصر جديد ، غدت فيه بلاد الأندلس أول قطر إسلامي يخرج عن الإجماع الإسلامي بالطاعة لخليفة واحد ، واضطرت هكذا الأندلس للاعتماد على طاقاتها الذاتية لمواجهة طاقات القارة الأوروبية ، مضاف إلى هذا أحياناً دســائس ومؤامــرات حيكــت في دار الإسلام ، لذلك لا عجب أن ترافق وصول الأندلس إلى ذروة القوة مع الانهيار السريع .



- الطيـــب: ١/٢٢٠-٢٢٣ . الاستقصـــا :١/١١٨ . رينو : ٧٢-٨٥ . دوزي : ١٣٨-١٧٦ ، أرسلان : ٧١-١١٣ . الحجي : ٢٠٣-٢٠٦ .


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الثاني

العصر الأموي


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

آ- عصر الإمارة

بعد معركة شقندة خلصت ولاية الأندلس إلى يوسف بن عبد الرحمن ، لكن ذلك ظاهر فقط ، ذلك أن يوسف لم يكن له من منصب ولاية الأندلس إلا لقب الأمير الاسمي فقط لاستئثار الصميل بن حاتم بالسلطة الفعلية ، ومع مرور الأيام تبرم يوسف وأظهر انزعاجه لمكانته الثانوية ، ففكر في التخلص من الصميل ، واستطاع ذلك بأن أبعده عن قرطبة إلى سرقسطة في الشمال ووصل الصميل إلى هذه المدينة سنة ١٣٣هـ ـ ٧٥٠م ، وكانت غالبية سكان سرقسطة من العرب من جماعات الحزب اليماني .

ولم يلقَ الصميل وقت وصوله إلى سرقسطة معارضة تذكر ، ويعود سبب ذلك إلى أن وصوله تزامن مع احتدام القحط والمجاعة هناك وعمل الصميل طوال فترة المجاعة على تقديم العون من طعام وكساء ومأوى إلى جميع المحتاجين دونما تمييز ، وهكذا مضت حقبة من الزمن ساد فيها الهدوء والتفاهم وانعدام الشغب والنّزاعات بين القيسية واليمانية ، لكن ما إن زال الجفاف وعاد الخصب ، وزال الجوع حتى تحركت النفوس بأحقادها من جديد ، وعقدت عدة تحالفات ضد الصميل ومؤيديه من قيس ، وما لبثت الثورة أن تفجرت ضد الصميل في منطقة سرقسطة ، وبالوقت نفسه واجه يوسف بن عبد الرحمن تحركات مضادة له في قرطبة وما جاورها ، وحين وقع الصميل في الضيق ، اتخذ موقف الدفاع ، ثم أعوزته الحاجة إلى التماس العون من يوسف فطلب منه إنجاده ، ولم يكن يوسف في حالة تمكنه من تلبية طلب الصميل ، كما أنه لم تكن لديه الرغبة في تلبية هذا الطلب ، ذلك أنه كان يرغب فعلاً في التخلص من الصميل ومن نفوذه .

وضاق الحصار على الصميل وأضر به حتى يئس من الحياة وهم بالإلقاء بيده ، وعندما لم يلق من يوسف الاستجابة ، كتب إلى زعماء قيس ، فتحرك هؤلاء الزعماء بفعل الروابط القبلية وبفضل عوامل جديدة دخلت إلى مسرح أحداث الأندلس ، وتجيشت قوة من قبائل قيس ، ومن جماعة عرفت بموالي بني أمية ، وانطلقت نحو سرقسطة ، وكان برفقة هذه القوة رجل طرق الأندلس حديثاً ، عرف ببدر مولى عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك .

وتخلص الصميل من الحصار ، وتوجه مع القوة التي جاءت لنجدته نحو قرطبة ، وفي سرقسطة قام بدر بالاتصال بالصميل وأخبره أنه رسول مولاه إليه ، وعرض عليه أن يعاون ابن معاوية على تسلم الحكم في الأندلس ، وإحياء الملك الأموي بعد انقطاعه في المشرق ، واستجاب الصميل في البداية «واتفق مع الأمويين على نصرة ابن معاوية وأن يزوجه من ابنته ، ثم رجع في قوله ، وقال : تأملت الأمر فوجدته صعب المرام» وهنا انقطع رجاء بدر من قبائل قيس وزعيمها الصميل .

وتحول بدر نحو عناصر القبائل اليمانية التي كانت تعاني من القهر والتحكم القيسي فوجدهم «قوماً قد وغرت صدورهم ، يتمنون سبيلاً لطلب ثأرهم ، وأعدت العدة ورتبت الأمور لدخول ابن معاوية إلى الأندلس ، وعاد بدر إلى مولاه ومعه خمسمائة دينار وبعض الرجال مع مركب خاص ليعبر به مضيق جبل طارق .

وانتظرت الفرصة المناسبة لتنفيذ العبور ، وجاءت هذه الفرصة سنة ١٣٨هـ ـ ٧٥٥م عندما تغيب يوسف بن عبد الرحمن ومعه الصميل وقوات الولاية، عندما تغيبوا عن قرطبة حيث توجهوا إلى طليطلة لإمضاء البعوث ضد البشكنس وسواهم ، وفي أول ربيع الأول سنة ١٣٨هـ ـ ١٤ آب من سنة ٧٥٥م نزل عبد الرحمن بن معاوية في ميناء المنكب بين المرية ومالقة ، وعلى الفور اتخذ لنفسه مقراً في قرية قريبة دعيت بُطرش ، ومن هناك بدأ نشاطه ، وهنا لا بد لنا قبل متابعة الحديث

عما آلت إليه أمور عبد الرحمن مع أمور الأندلس بعد نزوله فيها من الوقوف قليلاً كيما نعود إلى الوراء لنتعرف إلى شخصية عبد الرحمن مع الأسباب التي حملته على ترك المشرق والقدوم إلى الأندلس .

● عبد الرحمن الداخل

هو عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك ، يرجح أنه ولد في منطقة دمشق سنة ١١٣هـ ـ ٧٣١م ، وكانت أمه بربرية من سبي المغرب تسمى «راحا» أو«رواحا» ، وقد توفي أبوه وعبد الرحمن ما يزال طفلاً صغيراً ، فعني به جده هشام عناية خاصة ، وفي مصادرنا كان سبب ذلك أن عبد الرحمن ذهب مرة إلى قصر هشام بن عبد الملك ومعه أخوته الأطفال ، وعندما كانوا بالباب وجاء عم أبيه مسلمة بن عبد الملك إلى القصر ، وعند دخوله سأل عن الأطفال ، فأخبر بأنهم أيتام معاوية بن هشام ، فنظر إليهم متفحصاً واستعرضهم واحداً واحداً ، وعندما مر به عبد الرحمن احتضنه وضمه إلى صدره بحنان ، وصادف أن خرج ساعتئذ الخليفة هشام فرآه يفعل ذلك بحنان فسأله : «من هذا يا أبا سعيد ؟ فأجابه مسلمة : ولد لمعاوية ابنك ، ثم مال عليه وأسر إليه بصوت سمعه عبد الرحمن ، وكان مما قاله : دنا الوقت ، وهذا هو ، فسأله هشام : «أهو» ؟ فأجابه مؤكداً : «أي والله وقد عرفت العلامات والإمارات بوجهه وعنقه» .

والقبول بهذه الرواية يعني أن هشام بن عبد الملك كان لا يعرف أحفاده ، وهذا أمر من الصعب تصديقه ، وتفسير الرواية : إن بني أمية كانوا يعرفون عن طريق النبوءات أن ملكهم آيل إلى الزوال في المشرق ، لكنه سيبعث في المغرب على يد رجل صاحب صفات معينة ، وكان مسلمة بن عبد الملك أكثر أهله معرفة بما سيحل بملك بني أمية وبما ستكون عليه الأحوال فيما بعد .

وتبعاً لهذه الرواية لقي عبد الرحمن عناية جده ، وعندما زال ملك بني أمية ،

وقامـــت الدولة العباسية تذكر ، فتوجه إلى المغرب ليعمل على إحياء الحكم الأموي ، ونجح في ذلك .

لا شك أن طابع الصنعة والتزوير واضح على هذه القصة التي استهدفت إضفاء الشـــرعية النابعة عن الإرادة الإلهية على نجاح أعمال عبد الرحمن ، ولا ريب أن مثل هـــذه الأقاصيص كانت تلقى بعض القبول في المجتمع الإسلامي ، وقد وجد من روج لهـــا ، ففي عصور الإسلام المبكرة كثرت النبوءات وتعددت إلى حد عجيب غريب ، وكـــان هناك من آمن بحتمية الأقدار وأن الإنسان مسير محكوم عليه بقدر لا يتغير ولا يتـــبدل ، ولو صحت مثل هذه النبوءات لاختلف موقف بني أمية من الحركة العباسية وثورتها حين اندلعت .

لكـــن يقـــال هنا : يؤيد هذه النبوءة توجه عبد الرحمن نحو المغرب فالأندلس ، والإجابة هنا : ليس عبد الرحمن وحده من بني أمية الذي توجه نحو المغرب ، ولو كان هـــناك نـــبوءة أخذ بها لما أمضى ـــ كما سنرى ـــ فترة طويلة بالمغرب قبل أن يجرب حظه في الأندلس .

لقد فر عبد الرحمن إلى المغرب لأنه لم يجد سبيلاً آخر ، وكان عبد الرحمن وقت تفجـــر الثورة العباسية قد تخفى في إحدى القرى القريبة من الفرات ، والذي دفعه إلى التستر هو البطش العباسي وعمليات الإبادة الشاملة التي مارسها العباسيون ضد جميع أفراد الأسرة الأموية ، وأقام عبد الرحمن قرب الفرات بسبب إقامة هشام بن عبد الملك أيـــام خلافـــته في رصافة الرقة ، وحدث أنه في أحد الأيام فوجئ عبد الرحمن بثلة من الجـــند العباسي تقتحم القرية التي كان فيها ،فهرب من وجهها مع أخ له وألقى بنفسه في الفرات فاجتازه سباحة وفي حين لم يستطع أخوه متابعة السباحة فوقع في يد الجند العباســـي فذبحوه على الفور ، ومن هناك هرب عبد الرحمن نحو فلسطين ، ولعله تخفى عـــند أحد أنصار بني أمية أو مواليهم ، وفي فلسطين لحق به مولاه بدر مع سليم مولى

أختـه أم الأصبغ ، وهناك زوداه بمال ومجوهرات بعثت بهم إليه أخته ، ومن فلسطين توجه إلى مصر فاجتازها إلى المغرب .

وكـان المغـرب لم يدخل بعد تحت السلطة العباسية ، وكانت أموره بيد عبد الرحمن بن حبيب الفهري من أحفاد عقبة بن نافع ، وكان عبد الرحمن بن حبيب هذا قـد اسـتولى على أمور المغرب واستبد بالسلطة هناك استيلاءً لا تفويضاً ، فقد كان بالأصـل مـن أهل الأندلس ، هرب منها إلى المغرب ، ثم تدبر أموره فأحدث انقلاباً استولى فيه على حكم المغرب كله .

وشجع بعد المغرب ووضعه السياسي أفراداً من البيت الأموي على اللجوء إليه ، ويبدو أن عبد الرحمن رحب في البداية بالعناصر الأموية التي وصلت إلى المغرب ، وقدم لها المساعدة ، ولعل عبد الرحمن بن معاوية كان أحد هؤلاء الأمويين الذين وصلوا إلى المغـرب ولقـوا مسـاعدة ابن حبيب ، لكن ابن حبيب ما لبث أن غير سياسته تجاه الأمويـين ، ذلك أنه كان فيمن قدم عليه من الأمويين «ولدان للوليد بن يزيد بن عبد الملـك ، يقـال لأحدهمـا القاضي والآخر المؤمن ... فأنزلهما عبد الرحمن بدار ... وكانـت معهمـا عجوز في الدار ، فدس إليها عبد الرحمن بن حبيب أن توصله إلى موضـع تسمعه منه كلامهما ، فقالت : إن البيت الذي هما فيه ، في سقفه غرة فإن شئت فأنـا أوصـلك ليلاً إلى ظهر البيت حتى تطلع عليهما ولا يعلمان ، فقال : افعلي ، فلما كـان في الليل اطلع عليهما وهما على نبيذ لهما ، ومولاهما يسقيهما ، إذ قال القاضي: ما أغفـل عـبد الـرحمن ، أيظن أنه يتمنى معنا ولاية ونحن أولاد الخليفة» وبعدما سمع عبد الرحمن الكلام بطشاً بالأميرين الأمويين ، وأخذ بملاحقة بقية الأمويين فبادروا إلى الفرار، والتجأ بعضهم إلى القبائل البربرية ، وكان ممن فعل ذلك عبد الرحمن بن معاوية .

قـد تكـون قصـة التصنت هذه مخترعة ، وهي مجرد صدى لتغيير ابن حبيب لسياسـته تجاه من لجأ إليه من بني أمية بسبب خشيته من مطامح بعضهم مع رغبته في

التقرب إلى العباسيين ، الذي يعنينا هنا هو أن عبد الرحمن بن معاوية مضى «ينتقل من قبيلة إلى أخرى ، ومن بلد إلى آخر ، وذرع إفريقية الشمالية من أدناها إلى أقصاها ، فاختفى حيناً في برقة ، ولاذ حيناً آخر ببلاط بني رستم ملوك تاهرت (من المغرب الأوسط) كما ذهب إلى قبيلة مكناسة البربرية ، ولجأ إليها مستظلاً بحمايتها ، وهكذا انقضت خمس سنوات ـــ وهي فترة غير قصيرة ـــ دون أن يخطر ببال عبد الرحمن أن يجرب حظه في إسبانيا ، بل كانت إفريقية هي شغل هذا الشاب البهي الطلعة ، المملق، العديم الأصدقاء ، ودأب على اصطناع كل وسيلة للحصول على أنصار له ، فطردته مكناسة من أرضها فتركها إلى قبيلة نفزه البربرية التي منها أمه ، وكانت تسكن قرب سبتة» .

ومن هناك تعرف عبد الرحمن إلى أحوال الأندلس ، وكان طموحاً ، لا تنقصه روح المغامرة ، فأرسل مولاه بدر إليه ، فاتصل بدر هناك بجماعة كانت من موالي الأسرة الأموية ، وكان هؤلاء الموالي زهاء أربعمائة أو خمسمائة شخص ، ونجحت جهود بدر ، وأعدت العدة لجواز عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس ، وكان أبرز الزعماء الذين تعاونوا مع بدر يدعى عبيد الله بن عثمان .

وتلفت شخصية بدر الانتباه ، ويبدو أن نشاطه في الأندلس والاستعدادات التي عملت من أجل عبور عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس لم تكن سراً البته ، والذي كان سراً هو وقت العبور وموضعه ، ذلك أنه بعدما نزل عبد الرحمن ساحل الأندلس ووصل خبر ذلك إلى قرطبة ، وكتبت زوجة يوسف بن عبد الرحمن إليه تقول : «ابن معاوية قد دخل ونزل بُطرُّش عند الفاسق عبيد الله بن عثمان ، وأصفقت بنو أمية معه، وإن خليفتك على إلبيرة زحف إليه بمن خف من أهل الطاعة ليخرجه ، فهزم وضرب أصحابه» .

وشاع الخبر بين صفوف جند يوسف فانفض أكثرهم عنه ، وعاد بعضهم إلى

مواطـــنه وانضم بعضهم الآخر إلى عبد الرحمن بن معاوية ، وبذل يوسف غاية جهده لجمـــع قوة مناسبة تسير معه ضد عبد الرحمن ، وكان الوقت موائماً لذلك ، فأخفق عـــلى الرغم من بذله المال والوعود ، وعاد يوسف إلى قرطبة وحل الشتاء فصار من الصـــعب عليه القيام بأي تحرك عسكري ، ولقد سعد عبد الرحمن بن معاوية بضعف يوسف بالتمزقات السياسية في الأندلس ، ولم يضع الفرصة التي واتاه بها حلول الشتاء، فـــزاد من نشاطه وصار يبيت في المناطق الجبلية ويتحرك بسرعة غير مفوت لفرصة من الفـــرص ، وهكـــذا ازداد عـــدد أعوانه ويبدو أن حركته قد أخذت بعض السمات الاجتماعـــية ، ولعلها بذلت الكثير من الوعود الإصلاحية ، فلاقت التجاوب وانضم إليه الكثير من الفقراء والمظلومين من عرب وبربر ، ونستخلص هذه الصورة من نص رســـالة وجههـــا يوسف إلى عبد الرحمن جاء فيها : «أما بعد فقد انتهى إلينا نزولك بساحل المنكب ، وتأبش من تأبش إليك ونزع من السراق وأهل الختر والغدر، ونقض الإيمـــان المؤكدة التي كذبوا الله فيها وكذبونا ، وبه جل وعلا نستعين عليهم ، ولقد كـــانوا معنا في ذرى كنف ورفاهية عيش حتى غمصوا ذلك واستبدلوا بالأمن خوفاً ، وجـــنحوا إلى النقص ، والله من ورائهم محيط ، فإن كنت تريد المال وسعة الجناب ، فأنـــا أولى بك ممن لجأت إليه ، أكنفك وأصل رحمك ، وأنزلك معي إن أردت ، أو بحيث تريد ، ثم لك عهد الله وذمته ألا أغدر بك ، ولا أمكن منك ابن عمي صاحب إفريقية ولا غيره» .

وعرض يوسف على عبد الرحمن أن يزوجه ابنته ، ولا شك أن عروض يوسف هذه ابتغت تضليل عبد الرحمن والتغرير به ، لكن عبد الرحمن كان أكثر نباهة وحذراً، فـــرفض طلـــب يوسف ، وأهمل عروضه ، وطلب منه التنازل عن حكم الأندلس ، وخيره بين ذلك وبين المحاكمة إلى السيف .

ومـــع الأيـــام ازداد أتباع عبد الرحمن ، فأخذ يعد العدة للزحف إلى قرطبة ،

وعــندما تحرك نحوها حاول يوسف إيقافه فأخفق ، وفي مشارف قرطبة التقى جيش عــبد الرحمن بجيش يوسف والصميل ، فاستطاع عبد الرحمن إيقاع هزيمة ماحقة بهما وبقواهمـــا وأجبرهما على الفرار ، وهكذا تمكن عبد الرحمن من دخول قرطبة ، وكان ذلك صباح يوم عيد الأضحى لسنة ١٣٨هـــ ـــ ١٤ أيار ٧٥٦م .

وقام جند عبد الرحمن اليمنيون بنهب قرطبة ، وعندما حاول إيقافهم عن النهب ومــنعهم مــن القيام بعمليات الانتقام من خصومهم القيسيين غضبوا غضباً شديداً ، دفعهم إلى التآمر على عبد الرحمن ومحاولة التخلص منه ، ولحسن حظ عبد الرحمن أنه عــلم بخــبر المؤامــرة عليه ، فاحتاط لنفسه ودبر حمايتها ، مما دفع المتآمرين للتخلي عن خططهم .

وبعدما صار عبد الرحمن سيد قرطبة ، ألقيت الخطبة باسمه يوم الجمعة ، ولم يتم الدعــاء في هــذه الخطبة للخليفة ، ذلك أن الخليفة كان آنذاك هو أبو جعفر المنصور وكان المنصور عدواً للأسرة الأموية ، لذلك كان من غير المنطقي أن تتم الخطبة باسمه ويعــترف بخلافته ، وخلق هذا حالة جديدة ذلك أن عبد الرحمن احتفظ لنفسه بلقب أمير ، فكان بذلك مثله مثل من سبقه في حكم الأندلس ، ولم يعلن عبد الرحمن نفسه خلــيفة ، ذلك أنه لم يكن في وضع يمكنه من فعل ذلك ، مع أن عبد الرحمن لم يكن أول حـــاكم في تاريخ الأندلس يستولي على السلطة استيلاء أولاً ثم يتم تعيينه من قبل السلطات الإسلامية الشرعية ، إلا أنه كان أول أمير للأندلس يقوم بفصل هذه الولاية عــن جســم الدولة الإسلامية فصلاً سياسياً كاملاً ، ويسعى إلى تأسيس حكم أسرة وراثية مستقلة فيها ، والجديد الجديد في هذا الأمر هو الجانب النظري التشريعي أكثر من الجانب العملي لإفريقية، فعملياً كانت الأندلس دائماً مستقلة ، يربطها بخيط واهي بالســلطات الشرعية الإفريقية أو دمشق ، فقام عبد الرحمن بقطع هذا الخيط ، فابتدأ بذلك عهداً جديداً في تاريخ الأندلس ، وخط سابقة خطيرة في تاريخ الإسلام ووحدة

أراضـــيه السياسية ، ورسم بداية النهاية للوجود العربي في شبه الجزيرة الإيبيرية ، لأن المواجهـــة الآن باتـــت بين قارة وحدها الصليب وبين فئة صغيرة دانت بالتوحيد لكن نادراً ما التزمت بوحدة الصف . وبعدما صار عبد الرحمن سيد قرطبة واجه العديد من المســـائل الفائقة الأهمية ، فلقد كان عليه أن يكمل سيطرته على بقية أجزاء الأندلس وأن يقـــوم بمعالجـــة قضايا الصراع بين العرب والبربر وبين العرب أنفسهم من قيسية ويمانـــية ، كما كان عليه أن يقوم بمعالجة المشاكل الاجتماعية والزراعية لولايته ، فلقد وافـــق تســـلم عـــبد الرحمن لحكم الأندلس بداية حدوث تحولات كبيرة في المجتمع الأندلســـي ، وخاصة بين صفوف السكان الأصليين ، ذلك أن أعداداً لا بأس بها من هـــؤلاء بدؤوا بالتحول إلى الإسلام ، وكانت أسباب التحول هذه أسباباً نجمت عن قناعات خاصة حركتها المطامح والمصالح المالية والسياسية مع هزيمة الكنيسة الإسبانية وإفلاســـها أمام الدعوة الإسلامية والحضارة العربية الناشئة المتدفقة بالحياة والتجديد ، ودعـــي هؤلاء الذين دخلوا في الإسلام باسم المولدين ، وشكلوا جماعة خاصة تميزت بعض الشيء عن جماعات الموالي في الشرق كما شابهتها في بعض الوجوه .

وبهـــرت قوة العرب ، وحيوية لغتهم ، وجوانب الإبداع في ثقافتهم وحضارتهم معظم بقية السكان الأصليين للأندلس ، فتخلى هؤلاء عن تراثهم ولغتهم وعاداتهم لما قـــبل الفـــتح الإســـلامي وتبنوا كل ما كان للعرب إلا دينهم ، وعرف هؤلاء باسم المستعربين .

لقـــد ضـــمت كـــل فئة من فئات سكان الأندلس جماعات راضية وجماعات ساخطة ، لذلك واجه عبد الرحمن وخلفاؤه العديد من الثورات ، ولجأ عبد الرحمن إلى اعـــتماد وســـيلة العنف للقضاء على مناوئيه ، وسعى في البداية للإبقاء على نوع من الـــتوازن بـــين القيسيين واليمانيين وفي الوقت نفسه أخذ في إعداد جيش من المرتزقة والعبـــيد ، وهكذا بدأ بنسف نظام الخدمة العسكرية السالف ، كما أن تجنيده لجيش

خاص جعله يختلف عن متقدميه من حكام الأندلس ، إذ استغنى عن الاعتماد على واحد من الحزبين العربيين ، وبدلاً من أن كانت العصبية هي الرابط الذي يشد قوى الحكم والمعارضة ، صارت الآن شخصية الأمير هي محور العمل السياسي في الأندلس والرابط الذي يجمع القوى ، واستدعى هذا إنشاء بلاط ، وإضفاء صفات خاصة على الأمير .

وكان لإنشاء البلاط وإقامة الجيش المحترف نتائج سياسية وحضارية كبيرة ، كما أن ذلك كان يحتاج إلى نفقات كبيرة مما دعا إلى العناية بموارد البلاد الاقتصادية وإلى تنويع الضرائب وزيادتها وكل هذا لم يكتب له أن يقوم دون ردَّات فعل ، ومشاكل مستحدثة معقدة .

وبسبب أن عبد الرحمن كان قد استولى على قرطبة بفضل مؤيديه من رجالات الحزب اليماني فقد وجد أن عليه أولاً أن يعالج مشكلة الحزب القيسي ، ذلك أنه بعدما دخل قرطبة ، سيطر على عاصمة الأندلس ، لكن ليس على جميع أجزاء البلاد ، فقد هرب يوسف بن عبد الرحمن إلى طليطلة ومضى الصميل إلى عشيرته في جندجيان، وأخذا يعدان العدة لجولة ثانية مع عبد الرحمن ، وقام عبد الرحمن بدوره بالاستعداد ، وسار أولاً ضد يوسف ، وبعد اشتباكات عدة كسبها عبد الرحمن ، استطاع عبد الرحمن أن يجبر خصماه على الاستسلام له ، وجلبهما معه إلى قرطبة ، حيث عاملهما معاملة كريمة وكان يشاورهما أحياناً ويستعين بخبرتهما ، وعندما تمكن عبد الرحمن من خصميه يوسف والصميل صار سيد الأندلس بدون منازع ، ولو كان ذلك لفترة من الزمن ، ولم يستطع يوسف تحمل إقامته الجبرية في قرطبة فهرب سنة ١٤١هـ ــ ٧٥٨م منها ، وأخفق جند عبد الرحمن في تعقبه وإلقاء القبض عليه ، وقام عبد الرحمن باعتقال الصميل وحمله وزر هرب يوسف وألقاه في السجن مع ولدي يوسف ، ولقي الصميل حتفه في السجن بصورة اختلفت أخبارها .

وتمكن يوسف من جمع جيش كبير قدر بعشرين ألف من عرب وبربر ، وزحف علـى قرطبة ، وكان أن اصطدم أولاً بإشبيلية ، وهناك هزم ولوحق فقبض عليه قبيل طلـيطلة ، وهناك قتل ، وأثر ذلك أجهز عبد الرحمن على أبي زيد بن يوسف وأبقى الولد الآخر حياً في السجن .

وكـان هذا الولد يعرف بأبي الأسود ، وقد تظاهر بفقدانه بصره فانطلى ذلك علـى سجانيه ، وهيأ لـه الفرصة للهرب ، وقد أثار هربه بعض المتاعب لعبد الرحمن وهذا ما سنأتي على ذكره فيما بعد .

ولم يـنعم عبد الرحمن بالاستقرار طويلاً بعد تفرغه من معالجة مشاكل الحزب القيسي فقد انجر نحو معالجة مشاكل الحزب اليماني ، فقد ساعد رجالات هذا الحزب عـبد الرحمن لا حباً به بل سعياً وراء الانتقام من الحزب القيسي وحباً لنيل السلطة ، وكـان من حسن حظ عبد الرحمن وجود تنافس بين زعماء الحزب اليماني حال دون اتفاقهم ، وكان عبد الرحمن يدرك نوايا اليمانيين ، إلا أنه كان مضطراً للتعاون معهم، ولهـذا نجده يلجأ إلى سياسة التوازن فلم يحاول إبادة الحزب القيسي ، وكانت غالبية العناصـر اليمانـية تسـكن في الجنوب الغربي من أراضي الأندلس وخاصة في منطقة سرقسطة ، وواجه عبد الرحمن عدة ثورات يمانية أحمدها واحدة تلو الأخرى .

ولعل أخطر الثورات التي واجهها عبد الرحمن وأهمها تلك التي قادها العلاء بن مغيث الجذامي سنة ١٤٦هـ ـ ٧٦٣م بتحريض من الخليفة أبي جعفر المنصور وتأييد منه ، وكادت هذه الثورة أن تقضي على جهود عبد الرحمن وتعيد الأندلس ولاية من ولايـات الخلافـة ، لكـن حزم عبد الرحمن وشجاعته مكناه من تحقيق النصر على أصحاب الرايات العباسية السود ، فقتل العلاء كما قتل أعداد كبيرة من الثوار وبعث بعـدد من رؤوس القتلى فرميت بسوق القيراون ، ويقال أنه بعث ببعض الرؤوس إلى مكـة ، وكان المنصور حاجاً آنذاك فرميت قريباً من خيمته ، فلما رآها وعرف رأس

العلاء بينها أصابه الذعر وقال : «إنا لله ، عرضنا بهذا المسكين للقتل ، الحمد لله الذي جعل البحر بيننا وبين هذا الشيطان» .

وفي سنة ١٤٩هـ ــ ٧٦٦م واجه عبد الرحمن ثورة يمانية أخرى بقيادة سعيد اليحصبي ، الذي عرف بالمطري ، واستطاع المطري احتلال إشبيلية ، فسار عبد الرحمن ضده وهزمه وقتله ، وفي السنة نفسها قتل عبد الرحمن زعيماً يمانياً آخر هو أبو الصباح بن يحيى اليحصبي ، وفي سنة ١٥٦هـ ــ ٧٧٢م واجه عبد الرحمن ثورة يمانية أخرى في منطقة إشبيلية بقيادة عبد الغافر اليحصبي فقضى عليها أيضاً وقتل العديد من الثوار .

ولقد تورط في الثورات التي واجهها عبد الرحمن الكثير من البربر ، كما خرج البربر في ثورات منفردة قضى عليها عبد الرحمن جميعاً ، وقد دفع الحقد على عبد الرحمن بعض العناصر المتنافرة لا إلى التحالف ضده فقط بل حتى إلى طلب العون الخارجي واستعداء قوي غير عربية وغير مسلمة ، فقد تحالف سليمان بن يقظان العربي الكلبي حاكم برشلونة مع عبد الرحمن بن حبيب الفهري صهر يوسف الذي عرف باسم الصقلبي «لأنه كان طويلاً ، أشقر ، أزرق أمعر» وأبي الأسود بن يوسف الذي تظاهر بالعمى وهرب من سجن عبد الرحمن ، وقام الثلاثة بالسفر إلى بلاط شارلمان وكان ذلك سنة ١٦٠هـ ــ ٧٧٧م ، فاتفقوا معه ووضعوا معه خطة محكمة تمكن شارلمان من أخذ سرقطة كما تمكنهم من إشغال عبد الرحمن في مناطق أخرى من البلاد حتى تتم هزيمته والقضاء على حكمه .

وعبر شارلمان جبال البرانس بقواته وفق الخطة الموضوعة ، وعندما دخل الأندلس عرف بأن الصقلبي قد لاقى حتفه ، وأن أبا الأسود لا حول له ولا طول ، ومع هذا سار نحو سرقسطة التي كان سليمان بن يقظان قد استولى عليها ، يريد أخذها منه حسب الاتفاق المعقود .

وحين علم عرب سرقسطة بخطط سليمان بن يقظان وقفوا ضده واستعدوا للدفاع عن مدينتهم ، وفرَّ سليمان من سرقسطة إلى شارلمان ووضع نفسه تحت تصرفه، وبينما كان شارلمان يتأهب للشروع في حصار سرقسطة تسلم خبراً قضى بالإخفاق على جميع خططه ودفعه نحو العودة مسرعاً إلى مملكته ، فقد عاود السكسون الثورة ضده مغتنمين فرصة غيابه .

لكن كيف تمكّن شارلمان من الوصول إلى سرقسطة مباشرة ؟ لقد تمكن من ذلك بسبب أن العرب كانوا قد فقدوا سيطرتهم على مقاطعة سبتمافيا وخسروا حصنهم المنيع في أربونة ، فقد توفي شارل مارتل سنة ٧٤٧م ، فخلفه ابنه بيبن ، وقد اعترف البابا ببيبن ملكاً شرعياً الأمر الذي لم يحظ به شارل مارتل نفسه ، وسعى بيبن في السنين الأولى من حكمه للسيطرة على أكيتانية وانتزاع حكمها من أبناء أود ، وهيأ هذا النِّزاع فرصة ثمينة أمام العرب ، غير أن ما شهدته ساحات الأندلس من الصراعات الأهلية لم تحل فقط دون اغتنام الفرصة بل دفعت نحو توريط حاميات الثغور في الصراعات ، وعندما خلت المنطقة اهتبل الفرصة بقايا القوط وأخذوا يسعون للاستقلال ، وانتزع الفرنجة عدة مواقع هامة من العرب ثم حاصروا أربونة ، وعجزت نجدة أرسلها عبد الرحمن الداخل عن التفريج عنها ، وفي سنة ١٤٢هـ ـــ ٧٥٩م استسلمت هذه المدينة لجيوش بيبن ، وبذلك لم يعد للعرب وجود في سبتمانيا وغيرها من أجزاء المملكة الفرنجية .

وأخذت قوة مملكة الفرنجة تزداد مع مرور الأيام ، وغيرت سياستها تجاه عرب الأندلس من الدفاع إلى الهجوم ، وزاد الطين بلّة أن بعض زعماء المسلمين وضعوا أنفسهم تحت تصرف الفرنجة واستدعوا شارلمان ليستولي على سرقسطة وسواها ، وأخفقت حملة شارلمان واضطر إلى الانسحاب .

وفي طريق العودة أثناء عبور شارلمان وقواته للممر الجبلي الوعر في جبال

البرانس انقض رجال البشكنس ومعهم بعض العرب على مؤخرة قواته حيث مؤن الجيش وذخائره ، فأتلفوا المؤن وقتلوا القوات التي كانت تتولى حراستها ، وهكذا أوقعوا كارثة كبيرة بجيش شارلمان ، وكان بين القتلى عدد من النبلاء من بينهم رولاند الذي قيل إنه كان ابن أخت شارلمان نفسه وحاكماً لمنطقة الثغور .

وعبر عدة قرون ظلت الأجيال الأوروبية تتناقل أخبار الكارثة التي حلّت بجيش شارلمان ، محيطة ذلك بهالة خاصة أثّرت على الفكر الأوروبي للعصور الوسطى وكانت وراء كتابة واحدة من أشهر ملاحم العصور الوسطى ألا وهي الملحمة المعروفة باسم «نشيد رولاند» وكان للحظ الفضل الأكبر في حماية عرش عبد الرحمن هذه المرة ، وكانت حملة شارلمان آخر محنة خطيرة يتعرض لها عبد الرحمن فيما بقي من سني حياته حيث توفي في ٢٥ ربيع الآخر سنة ١٧٢هـ ـ ٣٠ أيلول ٧٨٨م عن عمر قارب الستين ، وذلك بعدما قضى حوالي ثلث قرن يعمل في تأسيس ملك لبني أمية في المغرب بعدما انقطع في المشرق ، وقد جلب نجاحه إعجاب معاصريه به فدعاه المنصور بصقر قريش ، كما أثار هذا النجاح إعجاب الكتاب والمؤرخين الذين ما زالوا يجدون في حياته الكثير مما يمكن الكتابة عنه [1] .

● هشام الرضا :

وبعدما توفي عبد الرحمن تولى حكم الأندلس ولده هشام ، ويعرف هشام هذا

---

(1) ابن القوطية : ٤٥-٦٥ . العذري : ١٠ ، ٢٥-٢٦ ، ١٠١، ١١٧-١٢٠ . أخبار مجموعة : ٤٦-١٢١ . ابن الآبار : ١/١٣٥-٤٢ . الرقيق : ١٢٣-١٤٨ . البيان المغرب : ١/٦٥-٧٨ . ٢/٥٦-٩٠ . جذوة المقتبس : ٩-١٠ . ذكر بلاد الأندلس : ٤٥.و-٤٩.و . ابن الكردبوس : ٥٥-٥٧ . الاستقصا : ١/١١٩ . المعجب : ١٦-١٨ . نفح الطيب : ١/٣٠٦-٣١٣ . دوزي : ١٦٨-٢٣٦ . أرسلان : ١٢٠-١٢٣ . رينو : ٨٦-١٠٧ . طرفان : ١٢٠-١٣٨ .

عـــادة بلقب الرضا ، ذلك أنه يوصف بالتقوى وبعلوّ الثقافة ، ودعوته بالرضا لا شك أنهـــا كانـــت متصلة بتيارات الربع الأخير للقرن الثاني السياسية والدينية مع النبوءات وتطلعات الأمة الإسلامية ، فالفترة هذه بالذات هي الفترة التي ظهر فيها الإمام الرضا بين الشيعة الاثنا عشرية ، والذي عينه المأمون ولياً لعهده فترة من الزمن .

فهشـــام أراد أن يقطف ثمار ما صنعة والده ، ويتمم العمل في إحلال رابطة الأمير محل رابطـــة العصـــبية ، وجعـــل شخصية الأمير محور الأمور في الأندلس تدور حوله وليس حل ســـواه، ولقـــد كان من الضروري أن يتسم خليفة عبد الرحمن بالتدين والتقوى ومحبة السلم وكراهية البطش ، فالأندلس كانت بحاجة إلى الهدوء والأمن بعدما فقدت ذلك فترة مديدة.

ويشـــبه هشـــام الرضا بعمر بن عبد العزيز ، وهو قد نال بتقواه شهرة كبيرة وصلت إلى المشرق ، حتى تمناه بعض المشارقة أن يكون إمامهم بدلاً من الإمام العباسي فهذا مالك بن أنس يقول : «وددت أن الله زين موسمنا ــ أي موسم الحج ــ به» .

وشـــهد عهـــد هشـــام الـــذي امتد حتى سنة ١٨٠هـــ ـــ ٧٩٦م الكثير من التطورات في المجتمع الأندلسي أعطت جوانب عدة دينية وحضارية وسياسية ، فهو قد نجـــح في البداية في التغلب على منافسة أخوته له وسعيهم لنيل الملك وانتزاعه منه كما روي أن قواتـــه تمكنت من استرداد مدينة أربونة ، واستأنف النشاط داخل أوروبة في فرنسا وسويسرا واهتم هشام بقرطبة فأكمل ما كان والده قد شرع فيه من بناء جامع قرطـــبة ، كمـــا شـــيد قنطرة على نهر قرطبة ، ورمم أسوار المدينة ، ولعل من أهم الحـــوادث الـــتي حصـــلت في عصره واحدة كانت تتعلق بانتشار المذهب المالكي في الأندلس وحلوله محله مذهب الأوزاعي وغيره ، وكان للأخذ بهذا المذهب نتائج كبيرة عـــلى مســـتقبل الأندلس والمغرب معاً ، كما أنه يمكن أن يقوم ضمن إطار السياسة الدينـــية لهشـــام ، والسياسات الدينية للدول التي عاصرت هشام ، فمعظم الدول التي كان للأندلس بها علاقة ما ، مثل الإمبراطورية الكارلونجية ، والإمبراطورية البيزنطية ،

وأخـــيراً الخلافة العباسية ، اتجه حكامها نحو تبني مذهب ديني واحد تجتمع عليه الأمة ســـواء أكان ذلك قسراً أم تم بالرضا ، ومما يثير الانتباه أن السياسة الدينية لهشام نالت حظـــاً أكـــبر مـــن النجاح ، مما نالته محاولات أباطرة بيزنطة بشأن توحيد الكنيستين الشـــرقية والغربية وإيجاد صيغة مقبولة لدى الجميع حول عبادة الأيقونات وغيرها من المســـائل ومما نالته أيضاً سياسة المأمون العباسي بتبنيه للاعتزال وإعلانه عن أن القرآن مخلوق ، وسعيه لإجبار الناس للأخذ بهذا الرأي .

وحـــين تـــوفي هشـــام كـــان ما يزال في مقتبل الشباب ، كان لتوه قد جاوز سن الأربعين، فهو كان ولد سنة ١٣٩هـــ ــــ ٧٥٦م ، وكانت أمه أم ولد تدعى جمال ، ومن يـــنظر في تـــاريخ الأسرة الأموية في الأندلس يجد أن غالبية أفرادها انحدروا من إماء، وهذه الظاهـــرة كانت إحدى سمات مجتمع الأندلس بشكل عام ، فالعرب الذين دخلوا الأندلس دخلوهـــا رجالاً بدون نساء ، وحين تزوجوا كانت زوجاقم في غالب الأحيان شقراوات أوروبة تم الحصول عليهن من أسواق النخاسة ولم يؤثر هذا على ملامح وأعراق الأندلسيين فحســـب ، بل كانت لـــه آثار خطيرة على بنية البيت الأندلسي ، وعلى مجتمع الأندلس وعادات أفراده في الملبس والمطعم وحتى في طرق التفكير وتقدير الأمور وتقويمها [1] .

● الحكم الربضي :

قبل وفاة هشام الرضا أوصى بالحكم من بعده لابنه الثاني الحكم ، ولم يوص به لابنه الأكبر عبد الملك ، ويعرف الحكم عادة بلقب الربضي ، نسبة إلى ربض قرطبة ، حيـــث واجه ثورة عارمة فيه سنتحدث عنها ، وقضى عليها وبطش بعناصرها وسفك

---

(١) ابـــن القوطـــية : ٦٤-٦٧ . أخبار مجموعة : ١٢٠-١٢٤ . العذري : ٢٦ ، ٩٠ ، ٩١ ، ١٠١ ، ١٥٣ ، ١٧١ . البيان المغرب : : ٩١/٢-١٠١ . جذوة المقتبس : ١١ . ابن الأبار : ٤٢/١-٤٣ . المعجـــب : ١٩ . نفـــح الطيب : ٣١٣/١-٣١٧ . ارسلان : ١٢٦-١٢٩ . رينو : ١٠٨-١١٤ . طرخان : ١٣٩-١٤١ .

دماءهم ، ولعل أهم سمات عهد الحكم حمامات الدم التي أقيمت ، وكثرة الثورات التي وقعت ، وقد قاد بعض هذه الثورات عما الحكم اللذان كانا قد ثارا على أبيه وأجبرا بعد إخفاقهما على مغادرة الأندلس إلى المغرب .

فعندما بلغ خبر وفاة هشام إلى المغرب عاد أخواه عبد الله وسليمان إلى الأندلس، ودخل عبد الله أولاً ، حيث توجه نحو سرقسطة ومن هناك رحل نحو بلاط شارلمان يستنجده ويستعديه ، وكان هذا سنة ١٨١هـ ــ ٧٩٧م ، وفي سنة ١٨٢هـ ــ ٧٩٨م عاد سليمان (وبعضهم يقول عاد قبل ذلك) وأعلن الثورة ضد الحكم، وخاض ضد قوات الحكم عدداً من المعارك هزم فيها ، وكان آخر المعارك سنة ١٨٤هـ ــ ٨٠٠م ، حيث أسر فأتي به إلى الحكم فقتله ، وفي السنة التي قتل فيها سليمان عاد عبد الله من بلاد شارلمان فأعلن الثورة في منطقة سرقسطة ، فلم يصب النجاح ، ومع ذلك تابع نشاطه ضد ابن أخيه حتى سنة ١٨٧هـ ــ ٨٠٣م حيث تم عقد تسوية بينه وبين الحكم أوقفت نشاطه وأنهته .

وأهم من هذه الثورات ما حدث في كل من طليطلة وربض قرطبة ، وكانت طليطلة عاصمة الأندلس قبل الفتح الإسلامي ، كما أنها تميزت بحصانة موقعها وسهولة الدفاع عنها ، وجعلها هذا مأوى لذوي الأهواء والمطامح ، وأوجد فيها الاستعداد للثورة بشكل متواتر ويروى أن ثورة أعلنت فيها سنة ١٨١هـ ــ ٧٩٧م بزعامة رجل عرف بعبيد بن حميد ، وقام الحكم بإرسال جيش بقيادة قائد عرف بعمروس بن يوسف ، وأخفق عمروس في الاستيلاء على طليطلة بالقوة ، وهنا لجأ إلى الخديعة ، فاستطاع تدبير اغتيال عبيد وتخلي أهل طليطلة عنه ، واستطاع بعد هذا أن يقنع أهل المدينة بفتح باب المدينة له وإدخاله إليها ، وتذكر المصادر الأندلسية أنه بنى قصراً عند مدخل طليطلة ، وعندما قدم الناس لتهنئته أعدم أشرافهم ورجالاتهم ، وبلغ عدد الذين أعدمهم ما بين (٧٠٠ إلى ٥٣٠٠) وبحمام الدم هذا ضمن طاعة طليطلة واستقرار

الحكم الأموي فيها .

وأهم من ثورة طليطلة وأكثر شهرة ، ثورة ربض قرطبة ، والربض هو الضاحية التي تقوم قرب المدينة ، فمدينة قرطبة كانت محدودة المساحة ذلك أنها مدينة مسوَّرة ، وبعدما صارت عاصمة الأندلس وفدت إليها عناصر كثيرة من السكان لتستوطن بها، وعـادت الهجرة الداخلية إلى المدن المركزية أمر مألوف ، ويبدو أن غالبية العناصر التي هاجـرت إلى قرطبة اضطرت إلى السكنى خارج الأسوار ، وكونت مع الأيام ما يشبه أن يكـون مديـنة جديـدة عرفت بربض قرطبة ، وتميزت المدينة الجديدة بعناصرها وبمجتمعها عن قرطبة .

وحـين نقـوم بالبحـث في ثورة الربض لا بد لنا من أن نأخذ بعين الاهتمام شخصـية الحكـم وطبـيعة عصره ، فلقد تسلم الحكم مقاليد الأمور وهو في ريعان الشـباب ، في السادسة والعشرين من عمره ، وكان أشبه الناس بجده عبد الرحمن بن معاوية بإقدامه ، وبأخذه بمبدأ العنف ، ولم يكن مثل أبيه في تقاه وتمسكه بأمور الدين مـن حيـث الباطن والظاهر ، ومن الملاحظ أن مجتمع الأندلس كان قد أخذ في أيام هشام الرضا بالتحول نحو الأخذ بأسباب الدين ، ولقد رأينا كم نال هشام من التوفيق والشهرة بسبب تقاه وتمسكه بالإسلام ، ووصف ابن عذاري الحكم بأنه كان «شديد الحزم ، ماضي العزم ، ذا صولة تتقى ... وكانت لـه ألف فرس مرتبطة بباب قصره عـلى جانـب النهر ، عليها عشرة من العرفاء ، تحت يد كل عريف مائة فرس ، فإذا بلغه عن ثائر في أطرافه أمر ، عاجله قبل استحكام أمره ، فلا يشعر حتى يحاط به» .

وأكمل الحكم عملية تطوير أسس الحكم في الأندلس مع ربط الوحدة بشخصية الأمـير ، كما استخدم العنف للاحتفاظ بسلطانه ، وبدأت التحركات ضد الحكم في الـربض مـنذ فترة مبكرة ، ففي سنة ١٨٩هـ ـــ ٨٠٥م كشف مؤامرة استهدفت الإطاحة به ومبايعة أحد أقربائه ، وقد قام هذا القريب بإفشاء سر المؤامرة ودل الحكم

علـى المتآمرين ، فألقى القبض عليهم ، وكان عددهم اثنان وسبعون رجلاً وأعدمهم جميعاً جملة واحدة «ثم أتقن سور قرطبة ، وحفر خندقها» .

وجلب هذا الإعدام السكينة والهدوء ، ولكن إلى حين ، فقد لجأت عناصر الثورة إلى المقاومة السلبية ، وكان فقهاء قرطبة وربضها على رأس هذه العناصر ذلك أنهم «أنكروا عليه أشياء رابتهم فأرادوا خلعه» ، وأحدث هؤلاء الفقهاء «إنشاد أشعار الزهد والحض على قيام الليل في الصوامع ، أعني صوامع المساجد ورأوا أن يخلطوا مع ذلك شيئاً من التعريض به مثل أن يقولوا : «أيها المسرف المتمادي في طغيانه ، المصر على كبره ، المتهاون بأمر ربه أفق من سكرتك وتنبه من غفلتك» .

ولم يستطع الحكم تحمل هذا التعريض ، ولعله احتار في إيجاد السبيل لإيقافه ، فقد كان من الصعب التدخل في شؤون الصلوات ومنع الناس من التعبد ، ويبدو أنه ألقى القبض على بعض المحرضين مما أدى إلى شحن الأجواء وتوترها .

وفي سنة ٢٠٢هـ ــ ٨١٧م تفجرت الثورة في الربض ضد الحكم وكانت ثورة عارمة ، ولئن كان من الصعب الحديث عن مؤثرات خارجية حرَّضت عليها ، فمن السهل وصف نتائجها على مناطق خارج الأندلس ، وحاول ثوار الربض قطع الجسر الواصل بين الربض وقرطبة ، وبعد جهد طويل مضني استطاعت قوات الحكم دفعهم عن الجسر ثم تمكنت بعض هذه القوات من الالتفاف حول الثوار ، فهاجموا مساكنهم وأهليهم ، وبلغ خبر ذلك الثوار فتفرَّقت عناصرهم عائدة نحو بيوتها للدفاع عنها ، وهنا أطبقت قوات الحكم على الربض وطوقته ، وجرى حمام دم هائل ، قتل فيه آلاف من العشرين ألف الذين كانوا يسكنون الربض حسب بعض التقديرات ، وعندما تم إطفاء الثورة ، فرق الحكم ما بقي من عناصر الثورة على أقاليم الأندلس ، كما سمح للقسم الأكبر بمغادرة الأندلس إلى المغرب حيث أسهموا في تأسيس مدينة فاس وفي المغرب لم يستطع جميع هؤلاء العيش طويلاً ، فتوجه قسم منهم نحو

الإسكندرية «فملكوها وذلك في أول ولاية الرشيد ، وسطوا بأهلها سطوة منكرة» ، وقامت الدولة العباسية بتوجيه واحد من كبار قادها إلى مصر ، منعهم من الاستيلاء على مصر وحصرهم في الاسكندرية وتفاوض معهم بعد ذلك على ترك الإسكندرية على أن يزودهم بالسفن والمؤن والسلاح ويدعهم يذهبون حيث شاؤوا، وغادروا الإسكندرية ، وتوجهوا نحو جزيرة كريت فاستولوا عليها ، وأقاموا فيها حكماً عربياً استمر قرابة القرن والنصف حيث قام في سنة ٣٥٠هـ ـ ٩٦١م الإمبراطور البيزنطي نقفور فوقاس بمهاجمة كريت وانتزعها من العرب .

لقد تم الاستيلاء على كريت سنة ٢١٢هـ ـ ٨٢٧م ، وكان الحكم قد توفي منذ عدة سنوات ، أي في سنة ٢٠٦هـ ـ ٨٢٢م ، وكانت ثورة أهل الربض آخر ما واجهه من مخاطر داخلية ، وبعد وفاته خلفه ابنه عبد الرحمن .

وسلفت الإشارة إلى التجاء عبد الله عمّ الحكم إلى بلاط شارلمان وإلى إخفاقه ، لكن هذا الحدث لم يكن خاتمة المطاف في العلاقات مع الفرنجة ومع حكام جليقية ، فقد قام الملك ألفونسو (أدفونش) ملك جليقية بحملة ضد لشبونة وأسر جماعة من المسلمين ، وفي سنة ٨٠٠م ، السنة التي كان شارلمان يستعد فيها في روما لنيل تاج الإمبراطورية أعلن لويس بن شارلمان عن نيته في انتزاع برشلونة عاصمة كتالونية في شمال إسبانيا من المسلمين ، وبالفعل حوصرت هذه المدينة وقطعت المنافذ إليها لمنع النجدات من الوصول إليها ، وبعد حصار طويل ودفاع مستميت استسلمت برشلونة سنة ٨٠١م بعدما بقيت بأيدي العرب تسعين سنة ، وعلى الفور تم تحويل مساجد المدينة إلى كنائس حسب قاعدة حرب الاستغلاب وأرسل لويس إلى أبيه ببعض الغنائم والأسرى ، والمثير للانتباه أن المصادر غير العربية تذكر أنه في السنة التي استولى فيها الفرنجة على برشلونة استقبل شارلمان سفارة من هارون الرشيد ، الخليفة العباسي الشهير ، وتحدثت المصادر عن تحالف فرنجي ـ عباسي ضد الحكم الأموي في

الأندلـــس، قابلـــه تحالف أندلسي ـــ بيزنطي ضد العباسيين والفرنجة معاً . ومفيد أن نذكر أنه مع قيام الحكم الأموي بالأندلس أنشأ عبد الرحمن الداخل عدة دور لصناعة السـفن ، وما لبثت الأندلس أن امتلكت أسطولاً قوياً للدفاع عن سواحلها وللنشاط داخل البحر المتوسط ، ففي أيام الحكم هاجم الأسطول الأندلسي جزيرة سردينية سنة ١٩٣هـ ـــ ٨٠٨م ثم هاجم سواحل بروفانس وجزيرة كورسيكية [1] .

● عبد الرحمن الثاني :

وكان عبد الرحمن الثاني هذا في الثلاثين من عمره ، وعندما تسلم الحكم «ألفى المُلـــك قـــد مهد ووطد ، فخلا بلذاته وانفرد بشهواته ، فكان كداخل الجنة التي جمع فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين» .

لقد قطف عبد الرحمن ثمار نتائج التحول الحضاري الذي بدأ في عهد أسلافه ، فنعم بالاستقرار ونعمت الأندلس بقسط كبير من الأمن والازدهار ، وفي الواقع باشر عـــبد الرحمن الحكم في الأندلس في أيام أبيه الأخيرة التي قضاها بالمرض ، وكان إنساناً متحضـــراً ، ورجـــلاً ليناً ، طيب الأخلاق مرناً ، كما كان عالي الثقافة ، يجيد قرض الشـــعر ، ويمكن القول إنه قد تم في عصره التحول السياسي الذي بدأ مع عبد الرحمن الأول ، وابتغى القضاء على العصبية القبلية وإقامة الوحدة حول شخصية الأمير .

ولم يخل عصر عبد الرحمن الثاني من بعض الثورات ، وإنما لم تكن أي من هذه الـــثورات بدرجة ما حدث أيام أبيه ، ولعل من أبرز دلائل الرفاه والازدهار في عصره قيام حركة عمرانية كبيرة في الأندلس في قرطبة وغيرها .

---

(١) ابـــن القوطـــية : ٦٧-٨٠ . أخبار مجموعة : ١٢٤-١٣٥ . العذري : ٢٧ ، ٩٣ ، ١٠٩-١١١ . جذوة المقتبس : ١١ . ابن الآبار : ٤٣/١-٥٠ . المعجب : ١٩-٢٢ . نفح الطيب : ٣١٧-٣٢٢ . البيان المغرب : ١٠٢/٢-١٢٠ . أرسلان : ١٣٢-١٤٦ . رينو : ١١٥-١٣٢ .

وفي زمن عبد الرحمن الثاني استقرت حدود الأندلس ، وبنيت أماكن دفاعية على هذه الحدود ، واهتم عبد الرحمن بتحصين شواطئ الأندلس ، لأن عصره كان عصر نشاط شعوب الشمال (الفايكنغ) ، كما اهتم بإنشاء أسطول خاص بالأندلس .

وقام عبد الرحمن بإعادة بناء الهيكل الإداري لدولته ، فنوّع مناصب الوزراء وجعل لكل وزير وظيفته الخاصة ويومه المحدد الذي يقابل به الأمير ، وشعر عبد الرحمن الثاني آنذاك أنه من القوة بمكان سمح له بالتدخل في شؤون المغرب .

وفي زمن عبد الرحمن شهدت الأندلس نشاطاً فكرياً كبيراً خاصة في مجالات الفلسفة والدين وعلم الكلام ، ولعل من أبرز الشواهد على رقي بلاط قرطبة وشهرته أن زرياب ، مغني الأمين ، ترك بغداد إثر مقتله ، ووفد على أمير قرطبة ، الذي استقبله بحفاوة بالغة وأكرمه خير إكرام وحقق فيها شهرة وإنتاجاً فنياً لا يزال صداه حتى الآن .

وكان الإمبراطور شارلمان قد توفي سنة ٨١٤م ، وخلفه ابنه لويس التقي ، الذي افتقر إلى مؤهلات أبيه وحزمه ، لهذا فإن عُرى الإمبراطورية التي شيدها شارلمان بعد جهود مضنية شرعت بالتفكك ، وكان لهذا أثره بالنسبة للضغط الفرنجي على الأندلس ولنفاذه وتأثيره .

فقد بدأ المسيحيون من سكان الشمال الإسباني يشكون من تعسف التسلط الفرنجي فثاروا مدعومين ببعض التأييد من قرطبة ، وبالمقابل حاول لويس الانتقام فانتهز قيام ثورة في ماردة فأرسل إلى سكانها يقول : «باسم الرب وباسم منقذنا المسيح ، نحن لويس بعناية الرب إمبراطور . إلى القساوسة وإلى شعب ماردة تحية باسم مولانا المسيح :

بلغتنا محنتكم وما تحتملوه على يد عبد الرحمن الذي لم ينفك عن اضطهادكم وعن الطمع في ثرواتكم ، إنه يصنع مثلما كان يصنع معكم أبوه (أبو العاصي) الذي كان يريد أن يرغمكم على دفع مبالغ غير مستحقة من المال ، والذي جعل من أصدقائه

أعـداء ومـن الطائعين ثواراً ، إنه يريد أن يحرمكم من حريتكم ويرهقكم بالضرائب من مخـتلف الأنـواع ويهينكم بجميع الطرق ، ولكنكم لحسن الحظ قمتم برد ظلم ملوككم وعدوانهـم بشـجاعة ، ولقد قاومتم ببسالة وحشيته وجشعه ، وهذا الخبر وصل إلينا من مخـتلف المصادر ، ونتيجة لذلك اعتقدنا أن من الواجب كتابة هذه الرسالة لمواساتكم ، وأحـثكم على مواصلة النضال الذي بدأتموه من أجل الدفاع عن حريتكم ، وبالنظر إلى أن هـذا الملـك المـتوحش عدونـا بقدر ما هو عدوكم ، فإننا نقترح عليكم التعاون والتنسـيق لمحاربـة ظـلمه ، ونحن ننوي أن نرسل في الصيف القادم بعون الرب ، جيشاً ليعـبر جبال البرينيز ونضعه تحت تصرفكم ، وإذا وجه عبد الرحمن جيشه إليكم ، وحاول هـذا الجـيش الزحف عليكم فإن جيشنا سيقوم بتحركات واسعة لصرفه عنكم ، ونحن نصـرح أنكـم إذا خلعـتم طاعته وأعلنتم طاعتنا فسوف نرد إليكم حريتكم التي كنتم تتمـتعون بها من قبل دون أن تمس ، وإننا لن نفرض عليكم أقل ضريبة ، ولكم أن تختاروا القـانون الذي تودون العيش في ظله ، وسنعتبركم أصدقاء يريدون أن يشاركوا في الدفاع عن إمبراطوريتنا وندعو الرب أن يحفظكم في صحة وعافية» .

والملفـت للانتـباه أنه على الرغم من توجه لويس بالخطاب إلى رجال الدين المسيحي في ماردة فلم يكن في مقدوره توجيه تهمة التعصب ومنع الحريات الدينية إلى المسـلمين ، عـلى عكـس الفرنجة الذين كانت هذه سياستهم والأسبان في حروب الاستغلاب ، وأمضى أهل ماردة ثلاث سنوات في الثورة على قرطبة ، وكانوا يأملون في وصـول الـنجدات الـتي وعدهم بها ملك الفرنجة ، وعندما لم يصل منه أية قوة استسلموا وفتحوا أبوابهم لجيوش قرطبة .

وتـردت الأوضـاع في إمبراطورية لوريس التقي وتهيأت الفرص أمام المسلمين لاسـترداد ما فقدوه ، لكن طاقات الأندلس لم تكن لتسمح وحدها بذلك ، لا سيما إذا مـا ذكرنا استمرار العلاقات التحالفية ما بين الفرنجة والعباسيين ، وقدساعد على

تسهيل هذه العلاقات قيام حكم الأغالبة في أفريقية (تونس) منذ أيام الرشيد .

وتحدثت المصادر الفرنجية عن علاقات تجارية ما بين مصر وسورية من جهة وإمبراطورية الفرنجة من جهة ثانية ، وأنه وصل في سنة ٢١٦هـ ـ ٨٣١م سفارة مكونة من ثلاثة أعضاء ، أرسلهم الخليفة المأمون إلى فرنسة ، وقد حمل هؤلاء الرسل هدايا إلى إمبراطور الفرنجة كان من بينها أقمشة حريرية وعطور .

لقد قام المسلمون أيام عبد الرحمن الثاني بعدة غزوات برية لأراضي مقاطعة بروفانس واستولوا لبعض الوقت عن طريق البحر على مرسيليا ، غير أن غزواتهم لم تكن لم تكن منظمة وشاملة ، بل عابرة وكان من بين أسباب ذلك ما تعرضت إليه الأندلس من مشاكل بعد وفاة عبد الرحمن الثاني .

ففي سنة ٢٣٨هـ ـ ٨٥٢م توفي عبد الرحمن الثاني ، وكان عمره اثنتان وستون عاماً وقد خلف من البنين الذكور خمسة وأربعين ومن الإناث ثلاثاً وأربعين ، وبعدما توفي خلفه ابنه محمد الأول ، وبوفاته انتهت مرحلة من مراحل تاريخ الأندلس [1] .

● من الإمارة إلى الخلافة :

بعد وفاة عبد الرحمن الثاني خلفه ابنه محمد بن عبد الرحمن ، وكان شاباً ، ذلك أنه ولد سنة ٢٠٧هـ ـ ٨٢٣م ، وكانت أمه أم ولد اسمها بهير ، وعندما كان عبد الرحمن الثاني حياً وعند وفاته أوحت المظاهر الخارجية للدولة بأنها كانت تنعم بالقوة والاستقرار ، لكن الحوادث التي وقعت بعد وفاته برهنت على أن هذه الصورة كانت خداعة ، وأن بناء الدولة كان متماسكاً لكن بروابط ضعيفة ، وكان فقط

---

[1] ابن القوطية : ٨٠-٩١ . أخبار مجموعة : ١٣٥-١٤١ .المقتبس : ١٦٣-٢٢٩ ، العذري : ٥-٦ ، ٢٩-٣٠ ، ٩٣ ، ٩٨-١٠٠ . جذوة المقتبس : ١١ . البيان المغرب : ٢/١٢١-١٤٠ . ابن الأبار : ١/١١٣-١١٩ . نفح الطيب : ١/٣٢٢ . أرسلان : ١٣٩-١٥٩ . رينو : ١٣١-١٣٨ .

ينتظر بعض الأزمات الحادة لتعصف بهذا البناء ولتأتي عليه .

وحين يفحص المرء تاريخ الأندلس بعد عبد الرحمن الثاني يجد فترة مميزة حكم فيها ثلاثة أمراء ، واحداً تلو الآخر ، وكانوا :

آ ــ محمد الأول : ٨٥٢-٨٨٦م .

ب ــ المنذر : ٨٨٦-٨٨٨م .

ج ــ عبد الله : ٨٨٨-٩١٢م .

فبنهاية فترة هؤلاء الأمراء أطلت الأندلس على عهد جديد ، وهو عصر الخلافة والوصول إلى ذروة القوة والمجد والحضارة ، وشهدت الأندلس في عصر هؤلاء الأمراء عدداً من الثورات ، ولقد سارت هذه الثورات على المنحى نفسه الذي انتحته الحركات الثورية منذ عهد الحكم الربضي ، أي أن الثورات قامت في المدن ومن قبل سكان المدن ، وقامت هذه الثورات لأسباب اجتماعية وسياسية واقتصادية وغير ذلك، وذلك أن سكان المدن كانوا غير راضين لسبب أو لآخر ، وكان التعبير عن عدم الرضى يتم بالثورة ضد السلطة المركزية ، ومع وضوح أسباب الكثير من الثورات ، ونيلها الكثير من التأييد نراها تخفق في النهاية لأنها عجزت عن تقديم أفكار أصيلة يمكن أن تحل محل أفكار الوضع القائم والنظام الحاكم والعجز في تقديم مثل هذه الأفكار وانعدام البرامج الواضحة الطويلة وسم الثورات بأنها ما كانت إلا ردات فعل لبعض الأمور استغلت من قبل بعض الشخصيات ذات المطامح الواسعة ، وقبل نهاية القرن التاسع للميلاد ظهر على مسرح أحداث الأندلس بعض الشخصيات الطموحة التي استفادت من عدم الرضا الشعبي ، واستغلته لمآربها في سبيل إقامة حكومات مستقلة أو نصف مستقلة عن قرطبة .

ويبدو أن أول أعمال التمرد ضد السلطة المركزية قد بدأت في مناطق الثغور ، خاصة مناطق الثغور الجنوبية والجنوبية الشرقية ، وساعد على ذلك وضع الثغور

البشـــري والعســـكري ، والجغرافي ، فمن الناحية البشرية كانت مناطق الثغور كثيفة السكان ، كما كان سكانها أخلاطاً ، صلاتهم أكثر متانة وتفاعلاً مع الجانب الأوروبي أكــثر مـــن الجانب المسلم من البلاد ، ثم إن هذه المناطق كانت من الناحية العسكرية حصـــينة فـــيها المـــنعة والســـلاح والجند المدرب ، يضاف إلى هذا أن وضع الثغور العســـكري كان يمنح بشكل دائم حكام الثغور صلاحيات استقلالية واسعة وكبيرة ، وغالباً ما كان قائد الثغور أفراد أسر توارثت السلطة واحداً تلو الآخر ، ويرى بعضهم أن نظـــام ثغـــور الأندلس تأثر بشكل واسع بالنظام الإقطاعي الأوروبي وهذه مسألة تحتاج إلى بحث مفصل ، وسنفعل شيئاً من هذا بعدما نبين أن منطقة الثغور في الأندلس كانـــت مقسمة إلى ثلاثة أقسام هي : الثغر الأعلى ، ويبدأ في الشمال الشرقي بمدينة سرقســـطة ، ثم الـــثغر الأوسط ويشمل منطلقة طليطلة ، وأخيراً الثغر الأدنى وكانت مديـــنة ماردة مركزاً له ثم حلت محلها مدينة بطليموس وكانت أشهر أسر الثغور أسرة القســـي ، وكانـــت في الثغر الأعلى وقد برز من هذه الأسرة عدد من الرجال كان أشـــهرهم موسى بن موسى . وقد بدأ تحركه الاستقلالي منذ أواخر أيام عبد الرحمن الـــثاني ، وبعد وفاة عبد الرحمن اعتبر نفسه مستقلاً وبدرجة الملك الثالث للأندلس ، وكانت له علاقات زواج مع الأسر الإسبانية النبيلة ، وكان له أقرباء عدة من الأسبان وخاصة مع أفراد الأسرة التي كانت تؤسس مملكة ستعرف فيما بعد باسم مملكة نافار، وكانت هذه الأسرة تؤسس مملكتها حول مدينة بامبلونا ، وأعطت علاقات الزواج مع آل القســـي هذه الأسرة الشيء الكثير من القوة في وقت كانت فيه في غاية الضعف ، وهـــنا لا بـــد لنا من وقفة نتبين فيها أسس هذه العلاقات ، إذ كيف لنا أن نفهم قيام رابط زواج بين أسرتين واحدة مسلمة وأخرى نصرانية ، خاصة وأن الأسرة المسلمة لم تكن في مركز الضعف ؟ لقد راق لبعضهم أن يفسر هذه العلاقات على أساس النظام الإقطـــاعي الذي كان سائداً آنذاك في أوروبة الكارلونجية ، وفي ظل هذا النظام كانت

هناك علاقة مصلحة بين سيد وتابع ، والمصلحة هي التي ربطت السيد بالتابع ، وعلى هذا اعتبر أثر الدين ومكانته في درجة أدنى من مصالح الطرفين ومنافعهما المتبادلة ، وعلى هذا الأساس يمكننا القول بأن تغيير الدين في تلك المنطقة لم يكن يشكل مشكلة خطيرة ، وبذلك نستطيع أن نفهم بعض ما أورده المؤرخين عن تحول بعض المسلمين إلى النصرانية .

وهذا الأمر يقودنا إلى طرح سؤال أكبر : هل سياسة الدولة الأموية في الأندلس كانت سياسة لا تعتمد الدين رابطاً أساسياً يشد أزرها ، كما أنه ما مدى سعي هذه الدولة إلى نشر الإسلام ؟ ولقد رأينا أن أمراء الأندلس قد سعوا نحو جعل شخصية الأمير محور الحياة في الأندلس والرابط الذي ترتبط به الأمة ، وفي الوقت نفسه لم يتخذ أمراء بني أمية ألقاباً دينية كما لم يقوموا بالسعي الدعائي نحو إحاطة أنفسهم بهالة من القدسية كما صنع خلفاء بني العباس ، لذلك كثرت الثورات ضد أمراء قرطبة ، ذلك أنه عندما كان يحدث ما يعكر صفو العلاقة القائمة على العقد بين أمير قرطبة وإحدى الشخصيات حتى كان صاحب هذه الشخصية يسارع إلى نقض العقد وإعلان عدم الاعتراف بسيادة أمير قرطبة ، ويلاحظ أن عدداً من أمراء قرطبة أدركوا خطورة الحال، فعملوا من أجل إحلال رابطة الإسلام محل الروابط الأخرى ، فأحاطوا أنفسهم بعدد كبير من علماء الدين ورجالاته ، وأثر هؤلاء العلماء على سياسة الدولة وساعدوا على نشر الإسلام ، ولا شك أنهم هيؤوا السبل نحو تبدل الوضع السياسي في الأندلس بالتخلي عن لقب أمير وإبداله بلقب إمام وخليفة .

وفي الوقت الذي بدأت فيه هذه السياسة ، قام بين صفوف الأسبان حركة معارضة دينية ، أو بالحري حركة إحياء ديني جديد ، واعتمدت هذه الحركة على ظهور عقيدة تعرف بعقيدة القديس جيمس كومبوستلا ، وكانت هذه العقيدة مسيحية بالأساس ، اعتمدت على أفكار دينية أيبيرية قديمة ، وكانت هذه تؤمن بالتوأم

الإلهي ، وهذا اعتبرت هذه العقيدة جيمس أخاً توأماً للمسيح .

ولقد قدمت هذه العقيدة قوة إيمانية شديدة للأسبان ، ذلك أنهم اعتقدوا بأن الله أرسل جيمس من مساعدة سماوية للأسبان في حروبهم ضد المسلمين ، وأنه حتماً سينتصر الأسبان ، وقد اعتبرت هذه الحركة أساس القوة الروحية لحرب الاستغلاب الأسبانية .

وعجز أمراء قرطبة عن هزيمة موسى بن موسى القسي فظل سيد سرقسطة والثغر الأعلى حتى سنة وفاته في ٢٤٨هـ ــ ٨٦٢م ، وحاول من بعده ثلاثة من أولاده ثم عدد من أحفاده الاحتفاظ بأملاكه فلم يوفقوا كثيراً .

وفي الوقت الذي كانت فيه أسرة آل القسي صاحبة السيادة في الثغر الأعلى كانت أسرة الجليقي صاحبة النفوذ في الثغر الأدنى وظلت كذلك حتى استردت حكومة قرطبة قوتها زمن عبد الرحمن الثالث .

ومهما بلغت ثورات أسر الثغور من خطر فإن ذلك لم يعادل جزءاً مما نجم عن ثورة عرفت بثورة ابن حفصون تفجرت أيام الأمير محمد الأول واحتاجت إلى وقت مديد حتى قضي عليها ، وتمثل هذه الثورة إحدى حركات جماعة المولّدين في الأندلس، ومع أننا سبق لنا وعرفنا هذه الجماعة ، لكن لا بأس من أن تقوم مرة أخرى بالتعرف إليها مع غيرها من جماعات المجتمع الأندلسي ، فعندما قام الفتح الإسلامي للأندلس ، أصبح مجتمع هذا البلد يضم : العرب ، والبربر ، والسكان الأصليين ، ومع الأيام خاصة بعد تأسيس الأسرة الأموية انضاف عنصر جديد من الرقيق الذي استخدم في الجيش وكان أبيض وأسود ، ولقد حدث تمازج بين العرب والبربر من جهة وبينهم وبين السكان الأصليين من جهة أخرى ، وجاء من هذه النماذج فئة جديدة عرفت بالأبناء ، ثم إن بعضاً من السكان الأصليين اعتنق الإسلام ، وبعضهم تبني الثقافة العربية وبقي بعضهم الآخر على حاله ، ودعي الذين اعتنقوا الإسلام باسم المولّدين ،

كما دعيت الجماعة الثانية بالمستعربين ، وحينما يستعرض المرء أخبار الأندلس يجد أن كل جماعة من جماعات مجتمع الأندلس قامت بأكثر من حركة ، ولقد قمنا حتى الآن بالتعرف إلى حركات الجماعات العربية مع نشاط البربر وسنسعى للحديث عن حركات بعض الجماعات الأخرى ، وسنكتفي بحركة ابن حفصون كنموذج لأهميتها وشهرتها . وابن حفصون هو عمر بن حفصون بن عمر بن جعفر بن شيم بن ... ، ويعود به نسبه إلى إحدى أسر إسبانيا المحلية التي صارت أسرة ذمية بعد الفتح الإسلامي ثم قام أحد أفرادها ولعله جعفر بتبني الإسلام .

وبدأ ابن حفصون حياته بداية غير مرضية ، حيث كان رجل شر وعصابات ، شارك في العديد من أعمال القتل والسلب ، مما جعل السلطات تقوم بملاحقته فاضطر إلى مغادرة الأندلس والهرب إلى المغرب ، وعاش هناك عدة سنوات ثم رجع إلى الأندلس وحل بجبل بيشتر ، وكان هذا سنة ٢٦٧هـ ـ ٨٨٠م ، ويوصف جبل بيشتر بالحصانة وتوفر الماء والأشجار والعديد من القلاع الحصينة فيه ، هذا وقد اختلف تحديد مكانه الآن ، وأقام ابن حفصون بهذا الجبل فترة وجيزة حيث ألقي القبض عليه وسيق إلى قرطبة فظل بها حتى سنة ٢٧١هـ ـ ٨٨٤م حيث هرب منها وعاد إلى بيشتر .

وكان ابن حفصون صاحب شخصية مميزة ، فقد تمتع بصفات الزعامة والقدرة على تجنيد الأنصار واصطناع الرجال وتأمين ولائهم ، وكان يعرف كيف يتحبب إلى أتباعه ، كما استطاع تأمين النظام والأمن في منطقته وبين صفوف أنصاره .

ولا نملك الآن معلومات عن مضامين أفكار ابن حفصون وشعاراته ، إنما نعلم أن حركته لاقت تأييداً شديداً من المولدين ، وبهذا فهي تذكرنا بثورات الموالي في المشرق ، ذلك أن الشبه شديد بين موالي المشرق ومولدي الأندلس .

ومع الأيام ازدادت ثورة ابن حفصون اتساعاً ، وعجزت سلطات قرطبة

وأخفقت في التصدي لها ، وإذا ما صدقنا ما كتبه بعض المؤرخين العرب ، نستنتج أن ثورة ابن حفصون كانت حركة وطنية إسبانية محلية ، مصبوغة بالصبغة الإسلامية ، ابتغت الانتقام من العرب ، وأرادت التخلص من حكمهم ، ومن هنا نجدها تشبه حركات الموالي المشرقية التي تأثرت بأفكار الشعوبية ، هذا وإن عمليات الانتقام والثأر تختلف عن عمليات الإصلاح الاجتماعي ، كل ذلك على الرغم مما تلقاه من تأييد ، لكن يحكم عليها بالإفلاس والخسارة النهائية . وبالفعل استجاب كثير من الناس لدعوة ابن حفصون كما أوى إليه زعماء العصابات ، وكان يسلم زعيم كل عصابة حكم حصن من الحصون أو منطقة من المناطق التي دخلت في حوزته ، وكان يحسن فيه التعامل مع الناس وإرضاء جميع الرغبات ، ولقد ترك زعماء العصبات أحراراً وأعطاهم صلاحيات جمع المال والنهب كيفما شاؤوا ، ولكن بما أن غالبية زعماء العصابات يتصفون بما يسمى «الشهامة» ، فقد استغل ابن حفصون هذه الناحية لحماية الأخلاق وعدم التعرض للنساء ، وكان صارماً للغاية بالنسبة للنساء حتى يقال بأن المرأة كانت تسافر ، وهي محملة بالحلي والمتاع ، من حصن إلى آخر فلا يعترضها معترض .

وواتت ابن حفصون الكثير من الظروف المشجعة ، كان أهمها الأزمات التي قامت في أواخر حكم محمد الأول ثم في عهد المنذر القصير ، فقد حكم المنذر قرابة العامين فقط ، وكان التبدل السريع في الأمراء وعدم استقرار السلطة داخل قرطبة من الأمور المشجعة والمساعدة لابن حفصون .

وكان ابن حفصون عندما يشعر بقوة وتماسك سلطة قرطبة ، ينكمش ويتخذ موقف الدفاع ، وحينما كان يشعر بضعف هذه السلطة كان يمارس سياسة الهجوم .

وفي عهد الأمير عبد الله ارتفع شأن ابن حفصون وازدادت قوته ، في حين ازداد فيه حال الأمير عبد الله ضعفاً وتدهوراً ، والذي ساعد على بقاء الحكم الأموي وسانده تحرك العرب الذين قامت بين صفوفهم ردات فعل شديد ضد حركة المولدين

الموجهــة ضدهم ، فاتحد هؤلاء العرب ، وتجمعت قواهم حول الأمير ، فمتنوا سلطة قرطبة وساعدوها على البقاء ثم على التحرك نحو القضاء على ثورة ابن حفصون .

لقد حقق ابن حفصون نجاحات كبيرة ووصل إلى حالة كان بإمكانه أن يقضي بهــا عــلى إمــارة قرطبة ويقيم حكماً جديداً فيها ، لكنه لم يقدم على ذلك ، ولعل السـبب في ذلك يعود إلى أنه لم يملك من المطامح ما يدفعه لتسلم إمارة الأندلس ، ثم إن تركيــب قواتــه وأعوانه وعدم وضوح خطط وعقائد ثورته ، وعجزها عن تقديم الحلول الدائمة ، وأخيراً لكن ليس آخراً انعدام النظام العقائدي الهادف ، كان كله من المهــالك الــتي أودت بثورته ، ذلك أنه لم يكتب لأي ثورة في التاريخ النجاح حين اعــتمدت عــلى رجال العصابات ذوي الأهواء الشخصية ، وتنجح الثورات عندما تعتمد على رجال مؤمنين بها ، ملتزمين بخطط واضحة لها وعاملين على تطبيق مبادئ معينة لها ، كما كان الحال بالنسبة للثورة العباسية .

أمــا في حال ابن حفصون فقد ظل زعماء حركته من رجال العصابات ملتفين حوله ما دام بإمكانه تحقيق الربح والغنائم لهم ، ثم ما دام يتمتع بالقوة وخصمه ضعيف متفكك ، لكن مع أول بادرة ضعف وانقسام ، وضرب لمصالحهم ، أو إضرار بها كان العقد سينفرط ، وهذا ما حصل .

فلقــد بلغت ثورة ابن حفصون الذروة زمن الأمير عبد الله بن محمد ، وقام هذا الأمير بمراسلة ابن حفصون يطلب منه أن يقدم له الطاعة ، فرفض ، فراسله مرة أخرى طالــباً مــنه تقــديم الطاعــة له شرط أن يسمح له الأمير بأن يحتفظ بجميع الأراضي والأمــاكن التي كانت بحوزته ، ومرة أخرى رفض ابن حفصون وركب رأسه وتمادى في غروره وشططه ، وأخذ يعمل غاراته ويواجهها ضد قرطبة ، وجعل هذا الأمير عبد الله أسير قصره ومدينته ، وعندها لم يحاول ابن حفصون قطف ثمار ما حققه .

وفي ســنة ٢٧٨هـــ ـــ ٨٩٠م يئس الأمير عبد الله من الحال التي كان فيها ،

وقرر أن يقوم بعمل انتحاري ضد ابن حفصون فجمع جيشاً وقاده نحو منطقة عرفت ببلاي ، وهناك التحمت قواته بقوات ابن حفصون التي ركبها الغرور وحل بين صفوفها التناقض، وحقق الأمير عبد الله في هذه الملحمة نصراً ساحقاً ، كان له أثره المحول على حركة ابن حفصون ومستقبل تاريخ الأندلس ، فقد أخذت الحياة تدب من جديد في جسم الإدارة المركزية في قرطبة ، وتحسن من جديد وضع أمير قرطبة ، وأخذ عقد ابن حفصون بالانفراط ، فقد بدأ الكثير من اتباعه بالتخلي عنه ، حيث قامت سلطات قرطبة بشراء بعضهم واستدراجهم ، وعندما بدأ الضعف يحل بابن حفصون وضاقت به الأحوال ، تطلع نحو الحصول على مساعدات خارجية ، وكان أمامه أفريقية وأمراء الثغور وأوروبة ، فاتصل بالأغالبة ومناهم بأن يدعو للخليفة العباسي ، لكنه لقي الإهمال وعدم الاستجابة وحاول الاتفاق مع آل القسي والتحالف معهم فلم يوفق ، كل هذا في الوقت الذي أخذت فيه أعداد كبيرة من المولدين بالتخلي عنه ، ونجحت قرطبة في تثبيط الثوار ، وضرب فئاهم بعضها ببعض الآخر ، ووصل الضيق بابن حفصون إلى حال دفعه للعمل على الاستعانة بالمستعربين مع نصارى الأندلس ، فقام في سنة ٢٨٦هـ ـ ٨٩٩م بإعلان نصرانيته وردته عن الإسلام ، ومع أن ذلك أكسبه عطف بعض المستعربين وتأييدهم ، لكن جعله يخسر جميع المولدين وأعطى الذريعة الكاملة لسلطات قرطبة لإعلان الجهاد ضده ، واستمر حكام قرطبة في إرسال الحملات ضده ومضايقته عسكرياً ، وفي سنة ٢٩٢هـ ـ ٩٠٤م حاول ابن حفصون أن يهاجم قرطبة فهزم ومزقت قواته ، واستمرت الحملات ضده ، فانتزعت أرضيه قطعة تلو الأخرى ، وضعف شأنه وتضاءل خطره .

وفي سنة ٣٠٠هـ ـ ٩١٢م توفي الأمير عبد الله ، فخلفه حفيده عبد الرحمن الثالث الذي كان شاباً في الحادية والعشرين أو الثالثة والعشرين ، فاستطاع عبد

الرحمن هذا أن يصفي حركة ابن حفصون ، وأن يعيد الحياة والقوة والوحدة إلى جسم الأندلس ، وأن يقلب الإمارة إلى خلافة .

وفي سنة ٣٠٥هـ ـ ٩١٧م توفي ابن حفصون ،واحتفظ أولاده ببقايا ملكه الصغير مدة عشر سنوات حيث استطاع عبد الرحمن الثالث الذي سيعرف بالناصر ، أن يصفي هذه الحركة نهائياً [(١)] .

ولئن كانت الصورة في الأندلس قبل وفاة الأمير عبد الله مضطربة وبدت تسير لغير صالح الحكم الأموي هناك ، فإن الأوضاع في الشمال الأفريقي وحوض البحر المتوسط وفرنسا وسويسرا وإيطاليا قد شهدت تغييرات جمة سيكون لها جميعاً انعكاساها على عصر عبد الرحمن الثالث والعصور التي تلته ، فقد كان العرب قد افتتحوا منذ أمد طويل كل من جزيرتي كريت وصقلية ـ الأمر الذي سنقف عنده في فصل مستقل ـ وكانت دولة الأغالبة قد زالت من أفريقية وحل محلها الخلافة الفاطمية بمشاريعها التوسعية التي لم توفر الأندلس من حساباها ، وكانت دولة الأدارسة في فاس قد بدأت بالتلاشي ، ولنقتصر حديثنا أولاً عن نشاطات العرب في فرنسا وسويسرا ، وذلك قبل العودة إلى سياق الحديث عن عصر عبد الرحمن الثالث وإعلان الخلافة في قرطبة .

توفي الإمبراطور لويس التقي سنة ٨٤٠م ، فوقع صراع مرير بين أولاده من بعده وحروب طويلة كان لها أثرها المأساوي على أوروبا ، وزاد من اضطراب أحوال أوروبا الغربية تعرض سواحلها وبعض مناطقها الداخلية لغزوات الفايكنغ المدمرة ،

---

(١) ابن القوطية : ٩٦-١٣٣ . أخبار مجموعة : ١٤١-١٥٣ . العذري : ٢٧-٣٩ ، ٤١-٤٩-٥٣-٦٥ جذوة المقتبس : ١١-١٢ . وصلنا جزء من المقتبس لابن حيان عن عهد الأمير عبد الله نشر في فرنسا ثم أعيد نشره في الدار البيضاء ١٩٩٠ . البيان المغرب : ١٤١/٢-٢٣٤ . ابن الأبار : ١١٩/١-١٣٤ . نفح الطيب : ٣٢٨/١-٣٢٩ . أرسلان : ١٥٦-١٦٧ .

والـــذي يعنينا هنا هو استيلاء العرب على مقاطعة بروفانس الفرنسية ، وتوسعهم حتى مـــا بعد جنيف في سويسرا وإلى حدود ألمانيا أيضاً ، وسندع الحديث عن النشاطات العربية في جنوبي إيطاليا إلى حين البحث في افتتاح صقلية ما أعقب ذلك من أحداث .

دخل العرب إلى مقاطعة بروفانس عن طريق البحر ، وأغاروا على بعض المواقع فيها ، وخاصة على مرسيليا مع نهاية النصف الأول من القرن التاسع للميلاد، لكن بعد هذا التاريخ شرعوا في تنفيذ خطة استهدفت الاستيلاء على المنطقة بشكل كامل .

والمـــثير للانتـــباه أنـــنا لا نملك معلومات كافية في مصادرنا العربية بشأن هذا الموضـــوع وعلينا الاعتماد على الروايات الأوروبية ، ويبدو أن العرب الذين اجتاحوا بـــروفانس لم يتلقوا توجيهاً حكومياً أو مساندة أو تغطية سلطوية ، ويفسر هذا طبيعة الأحداث والنتائج .

في حـــوالي ســـنة ٨٨٩م كانت بروفانس ودوفيني تخضعان لزعيم اسمه بوزون Boson ، ولم يكن من أسرة شارلمان ، ومع هذا حصل على لقب ملك آرل ، في أيام هذا الملك قام عشرون من الملاحين العرب على ظهر سفينة بالانطلاق من الأندلس ، وقـــد اضطرتهم عاصفة شديدة إلى الالتجاء إلى خليج غريماد Grimad ، وصعدوا إلى البر دون أن يعترضهم أحد ، وكانت هناك غابة كثيفة قرب الخليج ، وإلى الشمال منه امتدت سلسلة من الجبال الصالحة لبناء القلاع ، ويبدو أن هذا كان في كونتيه نيس ، وقـــام عـــلى قرية هناك ثم أسسوا قاعدة لهم وأخذوا باستدعاء الأعوان من الأندلس وإفريقية ، وكثر عدد العرب ، وما لبثوا أن تحكموا بأهم ممرات وحصون بروفانس ، وفي العقـــد الـــثاني مـــن القرن العاشر شرعوا يشنون الغارات على سهول بيمونت ومنـــتفرات Montferat ، وعندما سنقرأ أخبار الحروب الصليبية سنجد أن بارونات مونتفرات كان لهم الدور المبرز فيها .

لقـــد غـــدت بروفانس كلها خاضعة للعرب ، ومن ثم غدت سويسرا مسرحاً

لنشـــاطاتهم ، وكـــان من بين المدن الفرنسية التي استولى عليها العرب مدينة غرنوبل Grenoble وهذه المدينة سيكتب لها إقامة مؤسسة جامعية مبكرة فيها سيكون للعرب القادمين من الأندلس دور عظيم فيها .

وأخـــذ الفرنســـيون وســـواهم يجمعـــون قواهم لإخراج العرب من سويسرا وبـــروفانس ، وحـــالفهم الحظ بعد وفاة عبد الرحمن الناصر خليفة قرطبة ، ففي سنة ٩٦٥م تم إجـــلاء العـــرب من غرينوبل ، وكانوا حوالي سنة ٩٦٠م قد أخرجوا من مضـــيق ســـان برنارد الجبلي ، وحدث في سنة ٩٧٢م أن أسر العرب القديس مايول رئـــيس رهـــبان ديـــر كلوني الشهير ، فأثار ذلك مشاعر المسيحيين وتجمعت قواهم وأخـــذت تسعى لإجلاء العرب ، ولم تأت نهاية العقد الأول من القرن الحادي عشر حـــتى كان العرب قد فقدوا ممتلكاتهم الفرنسية وسواها ، ومع هذا لم تتوقف البحرية الأندلســـية وغيرها عن الإغارة على شواطئ فرنسا حتى سنة ١٠٤٧م ، أي حتى قبيل جيل واحد من مؤتمر كلير مونت ودعوة البابا أوربان الثاني للحروب الصليبية [١] .

⊕ ⊕ ⊕

---

[١] رينو : ١٤٥-١٩٩ . أرسلان : ١٦٠-٢٠٣ . طرخان : ١٥٢-١٥٨ .

ب. عصر الخلافة حتى نهاية دول الطوائف

● عبد الرحمن الثالث وإعلان الخلافة :

عندما وصل عبد الرحمن الثالث إلى العرش كانت «الفتنة قد طبقت آفاق الأندلس والخلاف فاش في كل ناحية منها ، فاستقبل الملك بسعد لم يقابل به أحداً ممن خالفه أو خرج عليه إلا غلبه واستولى على ما في يديه ، فافتتح الأندلس مدينة مدينة ، وقتل حماهًا، واستذل رجالها ، وهدم معاقلها ... حتى دانت لـه البلاد وانقاد له العباد» .

لقد كان على عبد الرحمن أن يواجه المخاطر الداخلية للأندلس وأن يتصدى للمشاكل الخارجية التي جاء أشدها من إفريقية حيث قامت الخلافة الفاطمية ، وجاء ثانيها من مملكة ليون ، ومع ذلك فقد تمكن عبد الرحمن بقوة شخصيته ، ثم بطول المدة التي حكم فيها ليس فقط من القضاء على الثورات والفتن الداخلية ، وتوحيد الأندلس وإبعاد المخاطر الخارجية ، بل أوصل الأندلس إلى ذروة المجد والرفاه والحضارة والقوة.

وعبد الرحمن هو ابن محمد بن عبد الله ، كان أبوه محمد قد قتله أخوه مطرف ، فقتله أبوه عبد الله به وقام الأمير عبد الله بضم حفيده إليه ، وأخذ يعده منذ صباه لخلافته والحكم من بعده ، فكان يجلسه في مجلسه وكان يسكن قصره ، وبعد وفاة جده بويع بالإمارة وكان هدفه الأول بعد تسلمه لمنصبه إعادة إقامة الوحدة الداخلية

للأندلس ، وفي سبيل ذلك قاد في السنتين الأوليتين من حكمه عدداً من الحملات كما وجـه العديـد وكانت هذه الحملات جيدة التنظيم والخطط ، وقد وجه بعضها ضد بعض مؤيدي ابن حفصون فأوقعت الهزيمة بهم ، كما قام في الوقت نفسه بمصالحة من أمكن مصالحته من هؤلاء المؤيدين ، ووضع عبد الرحمن القلاع والحصون التي استولى عليها في أيدي أمينة مخلصة له .

واستطاع سنة ٣٠١هـ ــ ٩١٣م استعادة مدينة إشبيلية ووضعها مرة أخرى تحت الحكم المركزي لقرطبة ، وضعف مركز ابن حفصون ضعفاً شديداً ، وبعد وفاته سـنة ٣٠٥هـ ــ ٩١٧م تـنازع أولاده مـن بعد فتمكن عبد الرحمن من انتزاع أملاكهم قطعة تلو الأخرى حتى تم له القضاء عليهم نهائياً سنة ٩٢٨م .

وخـلال هـذا كله أولى عبد الرحمن مناطق الثغور اهتماماً شديداً وسعى نحو إعـادة سيطرة قرطبة عليها ، وقام عبد الرحمن سنة ٣١٦هـ ــ ٩٢٨م بإعلان نفسه خلـيفة ، وشـجعه عـلى القيام بهذا العمل ضعف الخلافة العباسية بالمشرق ، ونجاح الإسماعيلـية في المغـرب وإعلانهم عن إقامة الخلافة الفاطمية ، وبعد قرابة عامين على اتخاذ هذه الخطوة الحاسمة استطاع إعادة السيطرة على الثغر الأدنى ، ثم توجه بهمته نحو طلـيطلة فحاصـرها عامين واستولى عليها سنة ٣٢٠هـ ــ ٩٣٢م ، بعد هذا توجه بأنظاره نحو الثغر الأعلى فتمكن من استعادته .

ويلاحـظ المرء أن عبد الرحمن الثالث الذي لقب نفسه بالناصر بعد عامين من اتخـاذه لقـب خليفة ، استطاع خلال العشرين سنة الأولى من حكمه إعادة توحيد الأندلس ، وقد استهلك هذا جل نشاطه ووقته ، ومع ذلك نجده خلال هذا الوقت لا يغفل الحرب ضد النصارى على الأخص في مملكتي نافار وليون .

وكانـت هـذه الممـالك قـد انتابها الضعف بعد تمزق الإمبراطورية الكارلونجية (إمـبراطورية شارلمان) ، وفي البداية استطاع عبد الرحمن أن يوقف نشاط النصارى ضد

الأندلس ، ونحن حين نتحدث عن مملكة ليون ... نقصد بذلك المملكة التي شملت منطقة أشستورش ... التي وقعت في أقصى الشمال الغربي لشبه الجزيرة الإيبيرية ، وكان ملك ليون منذ سنة ٩٣٢م حتى سنة ٩٥٠م يعرف برذمير ... ، وتصدى رذمير هذا لحملات عبد الرحمن ضد مملكته ويذكر أنه انتصر عليه انتصاراً ساحقاً سنة ٣٢٧هـ ـ ٩٣٩م مع أن جيش عبد الرحمن ضم آنذاك حوالي المئة ألف مقاتل ، وعلى الرغم من هذا فإنه لم ينجم عن هزيمة عبد الرحمن نتائج كبيرة ، فقد انشغل رذمير بمشاكل داخلية مما مكن عبد الرحمن من استعادة قوته ونشاطه ، وبعد وفاة رذمير سنة ٣٣٩هـ ـ ٩٥٠م أضعفت الخلافات الداخلية الدول النصرانية ، فازداد نفوذ عبد الرحمن عليها ، وتحول هذا النفوذ فيما بعد إلى اعتراف بالولاء وقبول بالتحكم ودفع الجزية .

ويمكن القول أنه منذ منتصف القرن العاشر للميلاد وحتى نهايته سيطر المسلمون لأول مرة تماماً على جمع أجزاء شبه الجزيرة ، وعلى الرغم من ذلك لم يستطع المسلمون الاحتفاظ بما سيطروا عليه ، فقد جاءت سيطرتهم على أطراف الجزيرة قهراً وليس فتحاً ، ذلك أن المسلمين لم يستوطنوا أراضي الممالك النصرانية في الأطرف ، وهكذا بقي حكام هذه الممالك تابعين لقرطبة القوية مستعدين للعمل ضدها عندما تسنح الفرصة ، ولم يستقر العرب في الأراضي الشمالية لشبه الجزيرة الإيبيرية ، لعدم وجود الرغبة في سكنى المناطق القريبة من فرنسا ، لصعوبة العيش في هذه الأراضي ، ولعدم وجود المكاسب ولطبيعة المناخ الصعبة ، والعرب كما هو ملاحظ أحبوا سكنى المدن الكبيرة ذات المناخ المتوسطي ، واستقر بعض البربر في هذه المناطق ، لكن صعوبة الحياة الجبلية ووجود الخطر الدائم دفعاهم إلى الانسحاب نحو داخل شبه الجزيرة .

ولم يقتصر نشاط عبد الرحمن على الأندلس فقط بل أخذ بالتوسع في شمال أفريقية، فشجع على الثورة ضد الخلافة الفاطمية ، ونجح بعد بذله لبعض الجهد في السيطرة على أجزاء من المغرب الأقصى ، وفي زمن المعز لدين الله

الفـــاطمي ٣٤١-٣٦٥هــ / ٩٥٣-٩٧٥م استطاع قائده جوهر الصقلبي استرداد معظم أملاك قرطبة ما عدا طنجة وسبتة ، وبقي الحال هكذا حتى وفاة عبد الرحمن الثالث ، ذلك أن الفاطمـــيين انصـــرفوا نحـــو مصـــر وشغلوا بمشاغل الشام والمشرق فضعف نفوذهم في المغـــرب، ومـــع هـــذا كـــان للصراع الفاطمي ـــ الأندلسي على المغرب آثاره الحضارية والثقافية مثل السياسية وأكثر ، فازدياد أهمية المغرب الأقصى كان له بعض انعكاساته على الصـــحراء الكبرى وقبائلها ، وهذا ما سنرصده في قيام حركة المرابطين، ودور الأندلسيين في إدارة المرابطين ثم دور المرابطين في الأندلس وتحويلهم هذه البلاد إلى ولاية مغربية .

ومن الواضح أن اتخاذ عبد الرحمن الثالث للقب الخلافة له علاقة واضحة بظهور الفاطميين ، وتسمية نفسه بلقب الناصر لدين الله له معاني الرد على الفاطميين ، ولقد ساعد هذا ثوار إفريقية وأعطاهم الفرص والمجال للتحرك .

وبصرف النظر عن كل هذا فإن نجاحات عبد الرحمن وتوسعه الإمبراطوري مع اتخـــاذه لقب الخلافة فقد فرض عليه أوضاعاً جديدة وقاده نحو الأبهة والأخذ بمظاهرها مـــن بناء ورسوم ، فالخليفة غير الأمير ، صار عليه الاحتجاب والتعالي واتخاذ الحرس والســـير بالمواكـــب الفخمة ، وبالوقت نفسه إيكال الأمور إلى رجال الإدارة وعدم مباشـــرة الأعمال بنفسه ، وهنا ازدادت قوة الإدارة ، ومع قوة الجيش المحترف ، ذلك أن روح الجهـــاد كانت قد خبت منذ زمن وكادت تختفي ، وحل محل المتطوعة جند مـــن المرتـــزقة والعبـــيد ، ومع ازدياد قوة الإدارة والجند تهيأت الفرص لإضعاف قوة الخلـــيفة وانتقاص نفوذه ثم حبسه في قصره والتحكم به ، ولما جاء اتخاذ لقب الخلافة مـــتأخراً وحيث أنه لم يقرن بدعاية دينية طويلة مثلما حدث بالمشرق مع العباسيين ، فإنـــه حينما مرت خلافة الأندلس بما مرت به خلافة بني العباس من التحكم والحجر على الخلفاء نجد أنه سهل القضاء على الخلافة الأموية ، وصعبت إزالة الخلافة العباسية لأنها نالت صفة القدسية والشرعية المرتبطة بالسماء .

واستطاع الناصر خلال النصف قرن الذي قضاه في الحكم أن يوطد أركان الإدارة في قرطبة وأن يقطف ثمار ما صنعه من أمن واستقرار في الأندلس ، ولقد عاشت الأندلس ذروة مجدها أيامه ثم أيام ابنه الحكم التي كانت امتداداً لأيام الناصر ونتيجة مباشرة لما تحقق فيها .

ووقع الناصر سنة ٣٤٩هـ ٩٦٠م مريضاً ، وظل المرض يلازمه حتى توفي سنة ٣٥٠هـ ـ ٩٦١م ، وعقب وفاته خلفه ابنه الحكم الثاني [١] .

● الحكم الثاني :

لقد جاءت خلافة الحكم الثاني ، الذي عرف بالمستنصر بالله ، استمراراً لخلافة أبيه ونتيجة لها ، فقد استمرت الأحداث تسير على المناحي نفسها ، ففيما يتعلق بالثغور تابعت قرطبة السيطرة على شؤونها وشؤون ممالك ليون ونافار كاستلا ، وحالت دون هذه الممالك ودون التحرك نحو الاستقلال .

واهتم الحكم بأسطول بلاده خاصة من أجل حمايتها من غزوات شعوب الشمال (الفايكنغ) ، كما تابعت سلطات قرطبة التدخل في شؤون المغرب والصراعات من أجل السيطرة فيه بين قوى كانت تابعة للأدارسة وأخرى للخلافة الفاطمية وسواها .

ولعل أهم الإنجازات التي تمت أيام الحكم المستنصر تلك التي تعلقت بالجوانب الثقافية ثم الاقتصادية والعمرانية ، فلقد كان الحكم مغرماً بالعلم ، شغوفاً بجمع

---

(١) خبر التفاصيل عن الشطر الأكبر من عهد عبد الرحمن الناصر في الجزء الخامس من المقتبس لابن حيان ـ ط. مدريد ١٩٧٩ . أخبار مجموعة : ١٥٣-١٦٥ . البيان المغرب : ٢/٢٣٤-٣٤٧ . العذري : ٩-١٥ ، ٣٩-٤٥ ، ٦٧-٨٦ ، ١٠٦ ، ١١٢ ، ١٢٢-١٢٤ ، ١٧٥ . البكري : ٧٢. ابن الآبار : ١/١٩٧-٢٠٠ . جذوة المقتبس : ١٣ . نفح الطيب : ١/٣٣٠-٣٥٨ . أرسلان : ١٦٨-١٨٢ . مدخل إلى تاريخ الحروب الصليبية : ٣٢١-٣٤٤ .

الكتب، له عناية فائقة بالعلماء ونشر الثقافة بين عامة الناس وخاصتهم ، استطاع أن يكون مكتبة ضمت بين خزائنها من الكتب ما لم تضمه مكتبة أخرى سواء أكان ذلك من ناحية الكم أو النوع ، وجاء إلى بلاطه عدد من علماء المشارقة كما نبغ في هذا البلاط عدد كبير من العلماء ، وكان من أبرز علماء المشارقة القالي صاحب الأمالي ، ويمكن القول بأن الفكر الأندلسي شبه المستقل والمتميز عن الفكر المشرقي بدأ يترعرع زمن الحكم ، ومنت الحركة العمرانية زمن الحكم ، ولعل أهم المنجزات العمرانية التي تمت في عصره ، تلك التي أقيمت في قرطبة ، وفي مسجدها بالذات .

وكانت أبرز الشخصيات السياسية والعسكرية أيام الحكم وزيره وحاجبه جعفر بن عثمان المصحفي ثم قائده غالب بن عبد الرحمن وفي زمن الحكم كان ابتداء ظهور محمد بن أبي عامر ثم ارتفاع شأنه .

كما ازدادت أيام الحكم أهمية رجال الدين ، وعظم تأثيرهم على مجرى الأحداث ، وتوفي الحكم سنة ٣٦٦هـ ـ ٩٧٦م ، وعندما مات كانت الخلافة الأموية في ذروة قوها ، لكن أحداثاً كثيرة ابتدأت ساعة موته وتعلقت بمسألة الحكم من بعده ، كان لها تأثيراً مفاجئاً ومحولاً على مستقبل هذه الأسرة وبالتالي مستقبل الأندلس السياسي [١] .

● هشام الثاني والاستبداد العامري:

وجاءت وفاة الحكم بعد مرض ألم به وأقعده مدة من الزمن عن مباشرة الأعمال بنفسه ، وقد ناب عنه أثناء مرضه وكفاه مؤونة الحكم وزيره المصحفي ولم

---

[١] العذري : ١٠٦، ١٢١ ، ١٢٣ . ابن حيان : ط. بيروت ١٩٦٥ : ١٩-٢٤٣ . جذوة المقتبس : ١٣-١٧ . البيان المغرب : ٢/٣٤٨-٣٧٦ . الحلة السيراء : ١/٢٠٠-٢٠٦ . نفح الطيب : ١/٣٥٨-٣٧٢ . أرسلان : ١٨٢-١٨٥ .

يكن المصحفي هذا يرغب في الاحتفاظ بمكانته فقط بل كان يسعى لرفعها ، وعلى هذا الأساس بنى خططه في حال وفاة الحكم .

ولم يكن المصحفي صاحب المطامح الوحيد بين رجالات السلطة ، فقد كانت هناك قوى عدة منها غلمان القصر وخصيانه وكان هؤلاء صقالبة الأصل ، وكان يؤيدهم العديد من أبناء جنسهم الذين كانوا يعملون في الجيش ويتسلمون قياداته ، وكان أبرز صقالبة القصر يعرفان بفائق وجوذر ، وأخفى جوذر وفائق خبر وفاة الحكم عند حدوثه ، وأرادا تولية الخلافة المغيرة بن عبد الرحمن الناصر ، أخي الحكم ، حيث كان شاباً يستطيع أن يباشر الأمور ، في حين كان هشام بن الحكم ولي عهده صبياً في الحادية عشرة من عمره ،وخطط جوذر وفائق لقتل المصحفي وإعلان خلافة المغيرة بشرط أن يكون هشام بن الحكم ولي عهده .

وعندما علم المصحفي بأخبار هذه الخطة تحرك بسرعة ، يعاونه شاب كان في الثامنة والثلاثين من عمره ، وكان صاحب مواهب ومطامح واسعة ، وعرف هذا الشاب بابن أبي عامر ، وأرسل المصحفي ابن أبي عامر مع قوة من الجند إلى دار المغيرة بن عبد الرحمن فقتله خنقاً ، وهنا سهل تنصيب هشام بن الحكم خليفة ، وبقي المصحفي سيد الأندلس ، ولكن إلى حين ، واستطاع المصحفي في البداية الحد من نفوذ صقالبة القصر وأثرهم ، وساعده في ذلك ابن أبي عامر ، وقد تم التخلص من الصقالبة بالبطش وبالتآمر معاً ، ولما تم لابن أبي عامر تدبيره في الصقالبة جعل يتوصل إلى تقلد جيش المملكة «فحقق ما صبا له ، وأخذ يرقى في مصاعد السلطة والشهرة حتى وصل الغاية ، وتفرد بسيادة الأندلس» .

وابن أبي عامر ، والذي عرف أكثر باسم المنصور العامري هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر ، وكان ينتمي إلى قبيلة معافر الحميرية اليمنية ، وأمه سيدة أصلها من قبيلة تميم واسمها بريهة ، وقد ولد سنة ٣٢٨هـ ـــ ٩٤٠م في قرية طرش ،

موطن أجداده الذين دخلوا الأندلس في أيام فتحها ، وقد نشأ منذ صغره متميز النباهة أهتم بثقافته وعلومه ، طموحاً ، أراد أول حياته أن يكون قاضياً لكن طموحه دفع به نحو ارتقاء المناصب ليكون سيد الأندلس بلا منازع [١] .

التحق محمد بن أبي عامر بمدينة قرطبة حاضرة الأندلس ودار خلافتها ، وكان الخليفة وقتها الحكم بن عبد الرحمن ، وكان هذا الخليفة قد تسلم الخلافة بعدما تقدم به السن ، ولم يحظ بولد إلا بعد أمد طويل ، وأنجبت له الولد السيدة صبح وكانت من أصل بشكنسي ، وحمل هذا الولد اسم عبد الرحمن ، ثم أنجبت له هشام الذي سيكون آخر خلفاء بني أمية في الأندلس .

لم تطل الإقامة بابن أبي عامر في قرطبة حتى التحق بخدمة السيدة صبح ليشرف على إدارة أملاكها مع أملاك ولي العهد ، وحظي ابن أبي عامر بإعجاب السيدة صبح وأسعدها وأدخل السرور على حياتها ، وكان كريماً متلافاً ، وقد تهيأت أمامه السبل ليترقى بالمناصب فاستلم إدارة السكة [٢] ، ثم ما لبث أن تولى وظائف أخرى منها رئاسة الشرطة الوسطى ، وبذلك عرض جاهه وتوثقت صلاته بالوزير الأول المصحفي وبغيره [٣] .

وفي سنة ٣٥٩هـ ـ ٩٧٠م توفي الأمير الصغير عبد الرحمن ، فأسند لابن عامر إدارة أملاك أخيه هشام المؤيد ، وفي هذه الأثناء كلف ابن عامر من قبل الخليفة الحكم بالذهاب إلى المغرب لمرافقة وفد بربري كبير من زناتة على رأسه يحيى بن علي بن حمدون ، وبذلك تعرف ابن أبي عامر للمرة الأولى من حياته على قبائل المغرب الأقصى وكسب خبرة بشؤون الحرب والجيوش وقامت علاقات بينه وبين القائد

---

(١) جذوة المقتبس : ٢٩ . البيان المغرب : ج٤ ، ص٢٧-٢٨ .

(٢) الذخيرة لابن بسام ، ج١ ، ط. القاهرة ١٩٣٠ ، ص٤٢ .

(٣) أعمال الأعلام للسان الدين ابن الخطيب ، ج١ ، ط. بيروت ، ١٩٥٦ ، ص٥٩ .

غالب، الذي كان فارس الأندلس وأعلى العسكريين فيها شأناً [1] .

ومـــع الأيـــام شعر الحكم بأعباء تقدمه بالسن وبثقل المرض ، فأراد أن يوصي بالخلافـــة مـــن بعده ، وكان ابنه هشام ما يزال طفلاً بدون مؤهلات ، ومع هذا أثر الحكـــم هواه في محبة ابنه فسماه في سنة ٣٦٥هـــ ـــ ٩٧٥م ولياً لعهده ، مع أنه كان بإمكانه تسمية واحد من آله فيه الأهلية ، وتسمية هشام ولياً لعهد هذا المسمى [2] .

واســـتفاد ابـــن أبي عامـــر من بيعة هشام بولاية العهد نظراً لعلاقاته الوثيقة به وبأمـــه، وتعـــاون ابـــن أبي عامـــر مع الوزير جعفر بن عثمان المصحفي ، وفي سنة ٣٦٦هـــــ ـــ ٩٧٦م توفي الخليفة الحكم ، وكتم نبأ وفاته ، وحاول كما ذكرنا من قبل غلمان القصر من الصقالبة خلع هشام وعدم بيعته ، ورد الأمر إلى الأمير المغيرة بن عـــبد الرحمن أخو الحكم [3] ولم تفلح خطة الصقالبة ، وتعاون المصحفي مع ابن أبي عامـــر عـــلى تصفية قوى الصقالبة الذي تحكموا بالدولة وذلك بعدما تمت بيعة هشام وقتل الأمير المغيرة .

وبعـــد هـــذا سعى ابن أبي عامر إلى التخلص من الوزير المصحفي فتحالف مع القـــائد غالب وصاهره ، وشاركه في عدة عمليات عسكرية ضد الدول الإسبانية في الشـــمال ، وفي سنة ٣٦٧هـــ ـــ ٩٧٨م صرف المصحفي عن عمله ، وأودع السجن مع أهله [4] وظل يعاني من النكبة حتى توفي مسجوناً .

وطـــبعاً عـــندما عزل المصحفي حل محله ابن أبي عامر ، فعمل في سبيل تقوية ســـلطانه والتخلص من كل نوع من أنواع المعارضة بمختلف الوسائل من قمع وشراء

---

[1] ابن عذاري ـــ البيان المغرب ، ط. بيروت ١٩٨٠ ، ج٢ ، ص٢٥٧-٢٥٨ .

[2] ابن بسام ، ق٤ ، ج١ ، ط. القاهرة ١٩٤٥ ، ص٤٠ .

[3] ابن عذاري : ج٢ ، ص٢٥٧-٢٦٠ .

[4] ابن عذاري : ج٢ ، ص٢٦٥ .

للذمـــم ومؤامرات ، واستحوذ على رضى الفقهاء والقضاة إنما بكل صعوبة ، ولم يبقَ أمامه غير القائد غالب واحتاج التخلص منه إلى جهد كبير واستعدادات خاصة .

قـــام ابن أبي عامر أولاً بالحجر على الخليفة وعزل دار الخلافة ــ مدينة الزهراء ــ كلـــياً ، وابـــتنى لنفسه مدينة سماها الزاهرة غدت مقر السلطة التي رست كلها بيد ابن أبي عامـــر الذي تلقب الآن بالمنصور ، وهو لقب لـــه مضامين مهدوية ويمانية ، ولم يبقَ عليه سوى التلقب بإمرة المؤمنين والخلافة ، لكنه لم يقدم على هذه الخطوة لمخاطر ذلك آنذاك ، إنما مهد لذلك السبيل ، وخط سابقة الانتزاء على السلطة ومن ثم تمزيق الأندلس .

لقـــد كـــان ابـــن أبي عامر مجاهداً من الدرجة المثلى قاد أكثر من خمسين حملة ضد الـــدول الإسبانية في الشمال ، وهزم قوى هذه الدول وجعل ملوكها ينقادون إليه ، غير إنه لم يقـــضِ على أي منها ، وتصاهر مع أكثر من ملك من ملوكها ، وهكذا مع ظهور بوادر الضعف على الأندلس وتمزقها انقض هؤلاء الملوك عليها وقادوا حملات مدمرة ضدها .

واهـــتم عدد من الباحثين بالحياة العسكرية الجهادية لابن أبي عامر ، ويروى أن ابن حـــيان ــ مؤرخ الأندلس الكبير ــ أوقف كتاباً خاصاً على أخبار حملات ابن أبي عامر ، وهـــذا الكتاب بحكم المفقود ، وفي مخطوط جغرافي تاريخي مجهول المؤلف اسمه «ذكر بلاد الأندلس» أتى المؤلف على أخبار حملات ابن أبي عامر جميعها لكن بشيء من الاختصار .

ونعـــود الآن نحو مسألة تصفية ابن أبي عامر للقائد غالب ، لقد فعل هذا بفضل امتلاكه لقوات عسكرية خاصة به جندها وأشرف على تسليحها وقادها في حملاته ، وجاءت عناصر هذه القوات من المغرب الأقصى خاصة من قبيلة زناتة ، ووصلت إلى الأندلـــس على شكل قبائل وأفراد حتى بلغ تعدادهم الآلاف ، وتعلق المغاربة بابن أبي عامر لكرمه ولشدة اهتمامه بهم [1] .

---

(1) أعمـــال الأعـــلام ، ج١ ، ص٥٨-٦٦ . وامتلك في مكتبتي على نسخة مصورة عن مخطوطة ذكر بلاد الأندلس .

وهام جداً مسألة اعتياد الأندلسيين على التقوي بالمغاربة والاستعانة بهم ، لا بل إنــه لمن المثير أن نعرف أن السيدة صبح وقد ضاقت بإهمال ابن أبي عامر لها وانصرافه عــنها ، فبحثت عن شخصية تستعين بها للتخلص من ابن أبي عامر ، فوقع اختيارها على زيري بن عطية المغراوي الخرزي أول ملوك زناتة بالمغرب الأقصى ، فاتصلت به وعملــت عــلى إرســال الأموال ليأتي إلى الأندلس لإزاحة ابن أبي عامر ، لكن هذه المؤامرة كشفها ابن أبي عامر ، وأرسل بالقوات إلى المغرب الأقصى فتمكنت من إنزال هزيمة ساحقة بزيري بن عطية [1] .

وكــان القائد غالب قد ضاق بتصرفات ابن أبي عامر ، خاصة تجنيده لرجالات قــبائل زناتة ، فتحالف مع ملوك الشمال من الأسبان ، لا بل هم بقتل ابن أبي عامر بــيديه ، وجــرحه في وجهه وإبان بعض أنامله ، ونجا منه ابن أبي عامر ، وأخذ بجمع قواتــه ، وفي ٣٧١هـــ ــ ٩٨١م نازله وقامت معركة شديدة بين الطرفين انجلت عن مقتل غالب وتمزق قواته [2] .

وهكــذا غــدا ابــن أبي عامر سيد الأندلس بلا منازع ، غير أنه ظل عرضة للمؤامرات حتى أن ابنه عبد الله تآمر عليه ، فاعتقله وأعدمه [3] ، ولا شك أن المنصور بــن أبي عامر قد حقق كل ما طمح إليه وأمن الحماية والمنعة للأندلس ، لكنه جاء في وقــت كان المجتمع الأندلسي قد قطع فيه مراحل واسعة نحو الوحدة والوئام والاكتفاء الذاتي ، وكانت طاقات أهل البلاد العسكرية كافية ، غير أن المنصور أبعد الأندلسيين عن الميدان العسكري وأسقط العرب من الديوان واقتصر بالاعتماد على القبائل البربرية مــن زناتة بشكل خاص ، فأخل هذا بالبنية العامة ، يقول الفتح بن خاقان : «وأذل

---

(1) البيان المغرب : ج٢ ، ص٢٨١-٢٨٢ .

(2) أعمال الأعلام : ج١ ، ص٦٥ .

(3) البيان المغرب : ج٢ ، ص١٨١-٢٨٦ .

قبائل الأندلس بإجازة البرابر ، وأخمل بهم أولئك الأعلام الأكابر ، فإن قاومهم بأضدادهم واستكثر من أعدادهم حتى تغلبوا على الجمهور ، وسلبوا عنهم الظهور ، ووثبوا عليهم الوثوب المشهور ، الذي أعاد أكثر الأندلس قفراً يباباً ، وملأها وحشاً وذئاباً ، وأعراها من الأمان»[١] .

وتحدث الأمير عبد الله آخر ملوك بني زيري في غرناطة ، وهو الذي عزله يوسف بن تاشفين ــ كما سيمر معنا ــ تحدث في مذكراته عن المنصور بن أبي عامر وسياسته العسكرية ونتائجها بقوله : «وتوقع المنصور من أجناده الاتفاق على بعض ما يخل بدولته ، إذ كانوا صنفاً واحداً وتألبهم على معصية أمره ، متى أمر بما أحبوا أو كرهوا ، فنظر من ذلك بعين اليقظة ، وسول له رأيه أن تكون أجناده قبائل مختلفة وأشتاتاً متفرقة وإن هم أحد الطوائف بخروج عن الطاعة غلبها بسائر الفئات ، مع احتياجه إلى تقوية عسكره ، والزيادة فيه بمن يستطيع على تخلل بلاد العدو وتدويخها متى شاء ، فاستجلب رؤساء البربر وحماها وأنجادها من بلغه فروسيته وشدته ، وتسامع الناس بالجهاد ، فبادر إليه من شرق العدوة من كان لهم من الآثار والمكارم والبأس على النصارى ما لا خفاء به وبهم كان يصول ابن أبي عامر على العدو ، وهم كانوا العدة في الجيش والموثوق بهم عند اللقا ، ومعترك الوغا ...

فرتب ابن أبي عامر الرتب ، وأظهر هيبة الخلافة ، وقمع الشرك ، وحض المسلمين عامة على الغزو ، فعجز عن ذلك رعية الأندلس ، وشكوا إليه ضعفهم عن الملاقاة ، وشغلهم بالغزوات عن عمارة أرضهم ، ولم يكن القوم أهل حرب ، فقاطعهم على أن يشتغلوا بعمارة أرضهم ، ويعطوا من أموالهم كل عام ما يقيم به من الأجناد من يكفيهم ذلك ، على اتفاق ورضى منهم ، فضرب عليهم الإقطاع ،

---

[١] مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ، للفتح بن خاقان الإشبيلي ، ط. بيروت ١٩٨٣ ، ص٣٨٨-٣٨٩ .

وحصـــل في الدواوين جميع أموال الناس ، وكسرها عليهم ، وفرض بينهم مالاً يرتزق منه الجيش ، فبقيت تلك الإقطاع عليهم إلى أن عمت الأندلس عدة الثوار ، واتبعوهم على تلك الآثار ، ودأبه في ذلك إنما كان على ما وصفتاه ...

فــلما تمــت الدولة العامرية ، وبقي الناس لا إمام لهم ، ثار كل قائد بمدينته ، وتحصَّــن في حصــنه بعد تقدمة النظر لنفسه ، واتخاذه العساكر ، وادخاره الأموال ، فتنافسوا على الدنيا ، وطمع كل واحد في الآخر ، وكذلك لا يصح أمرٌ بين نفسين ، فكيف سلاطين كثيرة وأهواء مختلفة [1] ؟!

عــلى هــذا إن التدخل الأندلسي في شؤون المغرب الأقصى ، قد مهَّد السبل لتحويل الأندلس إلى ولاية مغربية ، وهكذا صار كلما تغير الوضع السياسي في المغرب تغــير بــالأندلس ، ففــي أيام زناتة وحكمها للمغرب ، تحكم الزناتيون بالأندلس ، وعــندما قامــت دولة لمتونة أزاحت زناتة عن حكم المغرب ، فكان بالتالي أن آلت الأمــور في الأندلس إلى لمتونة وبعد أمد استطاع المهدي بن تومرت وخليفته من بعده القضاء على لمتونة ودولة المرابطين بوساطة قبيلة مصمودة فما لبثت الأندلس أن غدت ولايــة موحدية حكامها من مصمودة ، وبعد زوال ملك مصمودة وحلول المرينيين في ملــك المغــرب الأقصى ، تغير الحال في الأندلس مجدداً وظلت الأمور تسير على هذا المنوال حتى سقوط غرناطة وطرد العرب من الأندلس .

صحيح رأينا من قبل أن عبد الرحمن الداخل عزل الأندلس سياسياً عن بقية دار الإسلام ، وجعلها تتحمل بطاقاتها لوحدها مواجهة قوى أوروبا الصليبية ، غير أن عبد الــرحمن أوجــد شــرعية اســتقطبت أهل الأندلس حولها بدلاً من العصبية القبلية والصــراعات العرقــية ، وفي أيــام عبد الرحمن الثالث تحولت الشرعية إلى خلافة ، وتســارعت التحولات وتعمقت ، فجاء المنصور بن أبي عامر فأوقفها وجلب المرتزقة

---

[1] مذكرات الأمير عبد الله ، أو كتاب البيان ، ط. القاهرة ١٩٥٥ ، ص١٦-١٨ .

البربر إلى البلاد ، وبدد غطاء الشرعية ، لذلك ما إن زالت الدولة العامرية كما قال الأمير عبد الله : «وبقي الناس بلا إمام لهم ، ثار كل قائد بمدينته وتحصن في حصنه بعد تقدمة النظر لنفسه ، واتخاذه العساكر وادخاره الأموال ، فتنافسوا على الدنيا ، وطمع كل واحد في الآخر ، وكذلك لا يصح أمر بين نفسين ، فكيف سلاطين كثيرة وأهواء مختلفة» [1] .

وإنه لأمر مثير أن نقرأ مقدمات سقوط الأندلس في سيرة أعظم حكام الأندلس وأشدهم نكاية في العدو ، وأكثرهم حنكة ودهاء : إنها حقائق التاريخ ، وغالباً ما كانت الحقائق مرة المذاق ،والفارق كبير بين عبادة البطل بعين غير مبصرة وبين بصيرة التاريخ : ومهما يكن من أمر واجه المنصور بن أبي عامر منيته سنة ٣٩٢هـ ــ ١٠٠٢م وهو عائد من حملة جهادية في الشمال ، وتوفي في مدينة سالم ، وكان قد اتخذ لنفسه الأكفان من رزق كله حلال وجمع ما تعلق بثيابه من غبار في مغازيه ، واستدعى وهو على فراش الموت ابنه عبد الملك فأوصاه ونصحه وأرسله لتسلم مقاليد الأمور في قرطبة ، وقرر أن يكون ابنه الآخر عبد الرحمن ولياً لعهد أخيه، ثم استدعى قادة جنده وغلمانه فودعهم وأوصاهم ، وقد توفي في ٢٧ رمضان ٣٩٢هـ / ١١ آب ١٠٠٢م ، وكان يوم توفي «ابن خمس وستين سنة وعشرة أشهر ... فكانت مدة قيامه بالدولة منذ تقلد الحجابة إلى أن توفي خمساً وعشرين سنة وأربعة وأربعين يوماً ، وترك من الأموال الناضة بالزاهرة أربعة وخمسين بيتاً ، وكان عدد الفرسان المرتزقين بحضرته ونواحيها ، الذين حارب بهم الحروب عشرة آلاف وخمسمائة ، وأجناد الثغور قريباً من ذلك ؟ [2] .

وتسلم السلطة عبد الملك بن المنصور ، وحمل لقب المظفر بالله ، وقد نعى إلى

---

[1] مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٨ .

[2] أعمال الأعلام : ج١ ، ص٨٠-٨١ . البيان المغرب : ج٢ ، ص٢٩٣ ، ٣٠١ .

الخليفة المؤيد وفاة أبيه وأخبره بتوليه تدبير الدولة مكانه ، فأقره الخليفة وساعده على النجاح بعمله وخلع عليه وكتب له عهداً بولايته ، «فاستوسق له الأمر ، ولم يرد أحد ... طاعته واجتمع الناس على حبه» [1] .

ولم يكن عبد الملك مثل أبيه لغلبة «النبيذ عليه واستغراقه في لذاته» [2] .

ومع هذا تابع الخطط الجهادية لأبيه وبذلك حفظ للأندلس التفوق العسكري والسياسي ، واستمر ورود الزعماء من زناتة على الأندلس وظهرت بوادر الضعف على الكيان العامري ، وتعرض عبد الملك لأكثر من أزمة ، وهكذا لم تطل مدته وقد توفي في السنة السابعة لحكمه «وقيل إنه ماتَ مسموماً ، وقيل إنه مات من علة الذبحة ... سنة تسع وتسعين وثلاثمائة» [3] .

واستحوذ على الملك إثر وفاة عبد الملك أخوه عبد الرحمن ، وكان لقبه شنجول، وكانت أم شنجول ابنة شنجة (سانشوغارسيس الثاني) ملك بنبلونة ، ومن اسم شنجة نال عبد الرحمن لقبه ذلك أنه «كان أشبه الناس بجده» [4] وحصل عبد الرحمن من الخليفة هشام على التقليد بولاية الحجابة والانفراد بالسلطة «وتلقب للحين بالناصر ثم بالمأمون ، فكان يدعى بالحاجب الأعلى المأمون ناصر الدولة ، فنظر في الأمور نظراً غير سديد ، وأنفق الأموال في غير وجهها ، وأعان على كثير من الناس ، وبسط يده عليهم وأخذ أموالهم ، ونسب إليهم أباطيل من القول والفعل حتى قلق الناس به وأبغضوه في الله ، وابتهلوا لله تعالى في الدعاء عليه» [5] .

---

(1) البيان المغرب : ج٣ ، ص٣ .

(2) البيان المغرب : ج٣ ، ص٣ .

(3) البيان المغرب : ج٣ ، ص٣ .

(4) البيان المغرب : ج٣ ، ص٣٨ .

(5) البيان المغرب : ج٣ ، ص٣٨ .

وبعـــد مضي شهر ونصف الشهر على ولايته طلب من الخليفة هشام «أن يوليه العهـــد من بعده وأن يتسمى بولي عهد المسلمين ففعل ذلك هشام معه لضعفه وسوء نظـــره ، ونقصان فطرته ، فولاه عهده ، فكان سبب انحراف أكابر الأندلس عن عبد الرحمن لما تبين لهم من سخف عقله ، وسرعته إلى نقل المملكة عن خلفائها إليه» [1] .

من الصعب القول إن عبد الرحمن طمع أن يتملك الأندلس ليجمع حوله بحكم نسبه المسلمن والنصارى ، حيث يبدو أنه كان غير متوازن فيه فسولة وبدون مؤهلات قيادية أو عزيمة جهادية ، وكان أقرب إلى الخلاعة والمجانة يعاشر رجال الشراب والغناء والضـــحك والتســلية وأشرك معه الخليفة هشام في بعض هذه النشاطات، وأغضبت تصرفات عبد الرحمن الناس جميعاً خاصة رجالات الدولة لأنه عرضهم للمهانات حتى إنه أمرهم بتغيير أزيائهم وشاراتهم وأذلهم .

وفي سنة ٣٩٩هـــ ــ ١٠٠٩م ثار في قرطبة محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر ولقب نفسه بالمهدي ، فخلع الخليفة هشام واستولى على الأموال ، وكان عبد الرحمن بن المنصور العامري غائباً في الشمال ، وعندما وصلته الأخبار قرر العـــودة إلى قرطبة وفي الطريق تخلى عنه جنده وأعوانه لذلك بعد ما وصل إلى أحواز قرطبة ألقى عليه القبض ثم تم التخلص منه وبهذا زالت الدولة العامرية من الوجود .

● دول الطوائف ونهاية الخلافة الأموية :

لم يـــتملك محمد بن هشام الكفاءة أو القدرات على النهوض بالأندلس وإعادة رونـــق الدولة والخلافة لهذا «لقبته العامة المنقش لهشاشته وطيشه وخفته [2] ، وهكذا انتشرت الفوضى بالأندلس وزالت وحدتها السياسية وزالت الخلافة ، ولم تفوت دول

---

(1) البيان المغرب : ج٣ ، ص٣٨-٣٩ .

(2) البيان المغرب : ج٣ ، ص٣٨-٥٠ .

الشـــمال الفرصـــة بالشروع بحرب استغلاب لا تعرف الرحمة وتدخلت هذه الدول أيضـــاً في صراعات القوى الداخلية في الأندلس وسلف بنا القول أن الحقبة التي تلت عصـــر الخلافة عرفت باسم عصر دول الطوائف ، وأسس هذه الدول متغلبون عرب وبربر وصقالبة»[1] .

ودخـــل ملوك الطوائف في صراعات متواصلة وطمح بعض الملوك فيها بالتوسع لكـــن لم يســع واحد منهم لإحياء الخلافة بإخلاص وفي سبيل إعادة الوحدة للبلاد ، وتابعـــت الأندلس في هذه الآونة لكن لبعض الوقت ازدهارها الاقتصادي ، وأهم من هذا الازدهار الفكري والحضاري ، وتعددت مراكز السلطة ، واختص كل بلاط بعدد مـــن الشعراء والأدباء والعلماء والكتاب ، وكان هناك بذخ كبير وإنفاق هائل وتميز العصـــر بكـــثرة المغامرين وبالأخذ بالانتهازية السياسية وهكذا انعدم الوفاء والشعور بقداسة الأرض وحب الوطن ، وأخذ الجميع بسلوك سياسي كان بعيداً كل البعد عن الأخلاق والمثل ، وتبارى ملوك الطوائف بالألقاب وكان هناك أكثر من خليفة .

قال صاحب المعجب يصف ما حدث : «وأما حال سائر الأندلس بعد اختلال دعـــوة بني أمية ، فإن أهلها تفرقوا فرقاً ، وتغلب في كل جهة منها متغلب ، وضبط كـــل متغلـــب مـــنهم مـــا تغلب عليه ، وتقسموا ألقاب الخلافة ، فمنهم من تسمى بالمعتضـــد، وبعضـــهم تسمى بالمأمون ، وآخر تسمى بالمستعين والمقتدر ، والمعتصم ، والمعـــتمد ، والموفق ، والمتوكل» إلى غير ذلك من الألقاب الخلافية ، وفي ذلك يقول أبو علي الحسن بن رشيق :

ممـــا يـــزهدني في أرض أندلـــسٍ ... سمـــاعَ مقـــتدر فـــيها ومعتضـــدِ
ألقـــابُ مملكـــة في غـــير موضعها ... كالهرِّ يحكي انتفاخاً صولَةَ الأسدِ [2]

---

[1] أعمال الأعلام : ج١ ، ص١٤٥-٢٣٠ .

[2] المعجب : ص٧٠-٧٥ ، ٩٢-٩٣ .

وحين فقدت الأندلس وحدتها تبددت طاقاتها العسكرية وانشغلت جيوشها بالدفاع عن الحكام وبالفتن الداخلية ، وكانت الأندلس في عصر الخلافة تمتلك قدرات بحرية كبيرة جداً ، ففقدت الآن أساطيلها ، وحدث هذا في مطلع القرن الخامس للهجرة / الحادي عشر للميلاد ، الفترة التي انبعثت فيها الطاقات البحرية لدول أوروبا خاصة دول مدن إيطاليا ، واندفع النورمان نحو فرنسا وسواها وزادت الروح الصليبية التهاباً وحدة وتعصباً وفقد المسلمون السيطرة على البحر المتوسط ، ولم تقتصر آثار هذا الفقدان على الجانب العسكري والسياسي بل تعدَّته إلى الجانب التجاري ثم الصناعي ، وكان لهذا أسوأ الآثار على ازدهار الأندلس وقدراتها على التماسك والصمود .

وخفت الضغوط الصليبية أحياناً على ملوك الطوائف لدى موت واحد من كبار ملوك الشمال وحدوث خلافات حول وراثته من ذلك ما حدث إثر وفاة شانشو (شنجه) الكبير ، حيث انهار صرح الوحدة التي أقامها واقتسم أولاده الأربعة أملاكه وهم : غارسيا ، وفرناندو ، وراميرو ، وجونثالو ، وقام صراع بين هؤلاء وبرز من بين صفوفهم فرناندو صاحب قشتالة الذي استطاع سنة ٤٢٩هـ ــ ١٠٣٧م أن يستولي على مملكة ليون ، ثم قام منذ ٤٤٢هـ ــ ١٠٥٠م بشن عدة حملات ناجحة ضد أمراء المسلمين في سرقسطة وطليطلة وبطليوس كما استولى على عدد من القلاع والحصون وأجبر بعض ملوك الطوائف على دفع الجزية والأتاوات له [١] وتوفي فرناندو سنة ٤٥٨هـ ــ ١٠٦٥م فقام صراع بن أولاده حول توزع أملاكه واستطاع سانشو الثاني الذي كان من نصيبه مملكة ليون أن يهزم أخاه ألفونسو السادس ، وبعدما أسره نفاه إلى ديار المسلمين فالتجأ إلى طليطلة ، وقد سلفت الإشارة إلى هذه

---

[١] تاريخ الأندلس لابن الكرديوس ، ط. مدريد ١٩٧١ ، ص٧٤-٧٦ .

المسألة ، ومفيد أن نعود هنا لنبين أن ألفونسو السادس امتلك بعد وفاة أخيه سانشو قشتالة وليون ثم ضم إليهما جليقية ، ومن ثم أقلع في حرب ضروس ضد المسلمين الذين انغمس أمراؤهم «في الملذات وصار همهم الوحيد منافسة بعضهم بعضاً في البذخ والترف ، وكانوا في حسد دائم مع بعضهم وحرب مستمرة بالخنجر والانغماس في الحضارة» [١] .

ومعروف أن الحضارة عندما تغدو انغماساً في الملذات تفرغ من محتواها الأخلاقي وتصبح عرضة للسقوط بسرعة على أيدي القوى الهمجية ، وقام ابن الطقطقي صاحب الفخري في الآداب السلطانية يوصف درجة الحضارة التي وصلت إليها الخلافة العباسية وقت تعرضها لغزو هولاكو ، وتحدث عن الانغماس في الملذات، ثم حكى عن واحد من أمراء الجند الذين تصدوا لجيش هولاكو قال : «كنت في عسكر الدويدار الصغير لما خرج إلى لقاء التتر بالجانب الغربي من مدينة السلام في واقعتها العظمى سنة ست وخمسين وستمائة ، قال : فالتقينا بنهر بشير من أعمال دجيل ، فكان الفارس منا يخرج إلى المبارزة ، وتحته فرس عربي ، وعليه سلاح تام كأنه وفرسه الجبل العظيم ، ثم يخرج إليه من المغول فارس تحته فرس كأنه حمار ، وفي يده رمح كأنه المغزل ، وليس عليه كسوة ولا سلاح فيضحك منه كل من رآه ، ثم ما تم النهار حتى كانت لهم الغرة ، فكسرونا كسرة عظيمة كانت مفتاح الشر ، ثم كان من الأمر ما كان» [٢] .

هذا والمتمعن في تاريخ الأندلس تعتريه الدهشة عندما يلاحظ أن جميع محاولات دمج العناصر البشرية في الأندلس لإنتاج مجتمع عربي واحد لم تكلل بالنجاح ، وعلى هذا ما إن ألغيت الخلافة الأموية حتى تمزقت البلاد شر ممزق ، وظهر فيها أعداد لا

---

(١) أزهار البساتين في أخبار الأندلس على عهد المرابطين والموحدين ، تأليف جان دي جيريوم طارو ، ترجمة عربية ، ط. الرباط ١٣٤٩هـ ، ص٢٣ .

(٢) الفخري في الآداب السلطانية ، ط. القاهرة ، مطبعة محمد علي صبيح ، ص٦٥ .

تحصى وأنواع لا تعد من المغامرين والطامحين لنيل لسلطة ، وانغرست في النفوس طبائع الفــرقة وعــادات التمزق ، ونادراً ما أصاخ الأندلسيون إلى نداءات الوحدة وهجر الفتنة ، وباتت ساحات الأندلس لا تعرف غير الحروب والصراعات وأعمال التآمر ، وأفــاد مــن هذا الحال حكام أسبانيا النصرانية ، وزادوا من نشاط حركة الاستغلاب وانتزعوا من المسلمين المدينة تلو الأخرى وابتذوهم بدون رحمة ، ولا شك أن هذا كله انعكس على الأوضاع الاقتصادية العامة والخاصة لمسلمي الأندلس ، واشتملت إسبانيا النصــرانية في الشمال على ثلاث ممالك هي : ليون ، ونافار ، وأراغون ، ومنذ مطلع القرن الحادي عشر للميلاد تقدمت نافار بين هذه الممالك ، ولا يعنينا هنا الحديث عن ملــوك نافــار وسواهم ولا عن نشاطاهم ، بل المهم الإشارة إلى أن ألفونسو السادس (الفــنش) ابــن فرناندو الأول ٤٦٥-٥٠٢هـ / ١٠٧٢-١١٠٩م استدعى لتسلم الحكــم ســنة ٤٦٥هـ ــ ١٠٧٢م بعد وفاة أخيه شانجة ، وكان آنذاك ملتجئاً إلى مدنــية طلــيطلة ، حيث أمضى فيها تسعة أشهر ، وستكون هذه المدينة الحصينة أولى ضحاياه في معارك حرب الاستغلاب التي خاضها .

وحيــنما تمزقــت الأندلــس قام في كل مدينة من مدنها متغلب «وذهب أهل الأندلــس مــن الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثيرين من أهل الأقطــار ، مع امتيازها بالمحل القريب والخطة المجاورة لعباد الصليب ،ليس لأحدهم في الخلافة إرث ، ولا في الإمارة سبب ، ولا في الفروسية نسب ، ولا في شروط الإمامة مكتســب ، اقتطعوا الأقطار ، واقتسموا المدائن الكبار ، وجبوا العمالات والأمصار ، وجندوا الجنود ، وقدموا القضاة ، وانتحلوا الألقاب ، وكتبت عنهم الكتاب الأعلام ، وأنشــدهم الشعراء ، ودونت بأسمائهم الدواوين وشهدت بوجوب حقهم الشهود ، ووقفــت بأبواهم العلماء ، وتوسلت إليهم الفضلاء ، وهم ما بين مجبوب ، وبربري مجلوب ، ومجند غير محبوب ، وغفل ليس في السراة بمحسوب ، ما منهم من يرضى أن

يسمى ثائراً ، ولا لحزب الحق مغايراً ، وقصارى أحدهم أن يقول : أقيم على ما بيدي حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه ، ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه ، ولا لقي خيراً لديه ، ولكنهم استوفوا في ذلك آجالاً وأعماراً ، وخلفوا آثاراً وإن كانوا لم يبالوا اغتراراً من معتمد ومعتضد ومرتضى وموفق ومستكف ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل...»[1] .

وكان أهم دول الطوائف :

مملكة سرقسطة ــ الثغر الأعلى : بنو هود .

إمارة قرطبة ــ وسط الأندلس : بنو جهور .

مملكة طليطلة ــ الثغر الأوسط : بنو ذي النون .

مملكة بطليوس ــ الثغر الأدنى : بنو الأفطس .

مملكة إشبيلية ــ غربي الأندلس : بنو عباد .

مملكة بلنسية ــ شرقي الأندلس : تداولها أكثر من حاكم .

مملكة غرناطة ــ جنوبي الأندلس : بنو زيري .

وقد تدهورت قرطبة التي كانت حاضرة الأندلس ودار الولاية والخلافة ، وتقدمت عليها وعلى سواها إشبيلية ، وحكمت إشبيلية من قبل أسرة بني عباد التي ادعت الانتساب إلى ملوك الحيرة ، وتأسست الأسرة من قبل القاضي أبي الوليد إسماعيل بن محمد بن عباد ، الذي شهر بحزمه وقوته ، وقد توفي سنة ٤٣٣هـ ــ ١٠٤٢م ، وورثه ابنه أبو عمرو عباد الذي تلقب بالمعتضد ، وكان المعتضد على درجة كبيرة من الدهاء ، وسعى إلى توسيع ملكه بشتى الوسائل ، وصرف في هذا السبيل جهوداً عسكرية وسياسية ومالية كبيرة ، لكن في سبيل الصالح الفردي المحض ،

---

[1] لسان الدين ابن الخطيب ، أعمال الأعلام : ١٤٤/١ .

فهو استخدم طاقاته ضد أهل الأندلس ، لكنه تذلل لفرناندو الأول وذهب بنفسه إلى معسكره ليترضاه ويطلب منه الصلح والمهادنة مقابل مبلغ كبير من المال ، وأمضى المعتضد في الملك ثمان وعشرين سنة حيث توفي سنة ٤٦١هـ ـ ١٠٦٩م وخلفه ابنه أبو القاسم محمد الذي عرف بالمعتمد على الله ، وكان شاعراً مجيداً «من الملوك الفضلاء ، والشجعان العقلاء» «اجتمع له من الشعراء وأهل الأدب ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك الأندلس ... ولي أمر أشبيلية بعد أبيه وله سبع وثلاثون سنة ، واتفقت له المحنة الكبرى بخلعه وإخراجه عن ملكه في شهر رجب الكائن في سنة ٤٨٤هـ» [1]

واتّسم جلّ ملوك دول الطوائف بالبذخ وتبديد الأموال والرعونة والصغار مع انعدام الشعور بالمسؤولية ، وقد تحدث ابن بسام في الذخيرة طويلاً عن بعض هؤلاء الملوك ، وكان منهم المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ، فقد أراد المأمون يوماً أن يبني قاعة خاصة به ، أرادها أن تكون على درجة لا نظير لها من الجمال والأبهة ، ووقع اختياره على بناء ماهر فيه دل وصلف لتنفيذ هذه المهمة ، واستطاع هذا البنّاء أن يذل المأمون أكثر من مرة ، وبينما المأمون مهتم ببناء القاعة «اتفق أثناء ذلك أن ضربت خيل الطاغية فرذلند (فرناندو الأول) على بلاد المظفر بن الأفطس ، وطئها وطأة محت رسومها ، واستباحت حريمها ، واجتاحت حديثها وقديمها ... وأيأست من البقاء ، وأذنت بشمول البلاء ، فأخبرت عن وزيره أبي المطرف بن مثنى أنه كان يومئذ بمنْزله بين الوجوم والإطراق ، وعلى نهاية الحذر والإشفاق ، إذ وردت رسل المأمون عنه تترى ، وهجمت عليه زمرة بعد أخرى ، فدخل عليه فوجده قد استشاط حنقاً ، حتى كاد يتميز شقفاً ، فظن أن ذلك الضجر ، لما كان ورد به الخبر من ضرب الخيل على بلد المظفر ، وإخفار الذمم ، وزلة القدم ، وانتهاك الحرم ، فطفق ابن مثنى

---

[1] المعجب : ١٠١-١٠٢.

يبسـطه ويقبضه تارة يسليه وتارة يحرضه ، وطوراً يقول له : فيك الخلف مما فات ، ومرة يقول: قد آن ذلك أن تنكر على الطاغية هذا لافتيات ، فلما فهم منحى بن مثنى منه ، أعرض عنه ، وقال : ألا ترى هذا الضالع الفاعلي الصانع ـ يعني عريف بنيانه ـ صبرت لـه وأغضيت ، وفعلت به كيت وكيت ، فما زاد إلا تنغيصاً للذتي، واستخفافاً بإمرتي وتصغيراً لشأني ، واجتراء على سلطاني» وحاول الوزير مداراته وتهوين الأمر عليه ، ثم خرج لمقابلة البناء ، فلم يأبه به ، وأخذ «يداوره ويداريه ، والصانع مقبل على شأنه ، ما أمره بالجلوس ، ولا زاده على التجهم والعبوس» ثم عاد الوزير إلى المأمون ووعده خيراً وخرج بعد ذلك من عنده وهو «لا يدري من أي الثلاثة يعجب : أمن اغترار ابن ذي النون وجهله ، أم إفضاء الضرورة بنفسه إلى خدمة مثله، أم من جرأة ذلك الصانع القصير اليد ، النَّزر العدد ، على ذل ابن النون ودله .

قال ابن بسام : فتبارك من أحاط بالأشياء ، ولم يخف عليه شيء في الأرض ولا في السماء ومن جعل اليوم ذلك القصر العجيب بنيانه ، الهادم ـ كان ـ للدين والدنيا شأنه ، مربطاً للأفراس ، وملعباً للأعلاج الأرجاس ، من رجال الطاغية أنفونش ابن فرذلند ، بدد الله شيعته» [1] .

لقد استجاب الله تعالى لدعاء ابن بسام فبدد قوى ألفونسو السادس بعدما كاد أن يلتهم الأندلس جميعاً ويأخذها من ملوك الطوائف [2] .

استجاب جلّ وعلا بأن أرسل المرابطين فخاضوا معركة الزلاّقة وغيرها من المعارك فأخّروا بذلك سقوط الأندلس عدة قرون ، وقد آن الأوان للحديث عن المرابطين وقيام حركتهم .

---

(1) الذخيرة لابن بسام : ق٤ م١ ، ص١٤٧-١٩.

(2) الحلة السيراء : ٢/٥٤-٧٠ . المعجب : ٧٠-١٤٦ . دوزي ـ دول الطوائف .

● نهاية الخلافة الأموية :

انتاب الضعف الخلافة الأموية في الأندلس بعد وفاة الحكم المستنصر وتولي ولده هشام (المؤيد) عرش الخلافة أتاح هذا الفرصة للحجّاب للسيطرة على مقاليد الأمور في دولته ، بعد أن حُجِر عليه في قصره [1] ، وبلغ الأمر مداه حين تطلعوا للاستحواذ على منصب الخلافة ، إذ ورث سلطة العامريين إثر ذلك ابن المنصور الثاني عبد الرحمن شنجول من زوجته ابنة ملك نباره (سانشو) ولقب الحفيد بسانشو الصغير ، أي شنجول لكن الوارث لم يستطع الاحتفاظ بالإرث أكثر من ستة أشهر ، رغم أنه طمع في الحصول على أكثر مما حصل عليه أبوه وأخوه فبينما قنع الاثنان رسمياً برتبة الحاجب ولم يطلبا من هشام على الرغم من سيطرتهما الكاملة أن يجعل منهما أولياء لعهده أو يتنازل عن الخلافة ، فعل شنجول ذلك إذ أرغم الخليفة المؤيد على تلقيبه بالمأمون وأن يعهد إليه بولاية العهد [2] ، مما أثار بني أمية الذين أدركوا بأن الخلافة سوف تخرج من بين أيديهم الأمر الذي أطلق الشرارة التي أشعلت نار الفتنة التي عصفت بالبلاد وجرت عليها الويلات والخراب بسلسلة دامية من ثورات الطامحين للسلطة من بين الأسرة الأموية وخارجها ، إذ ثار محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن بقرطبة وتلقّب بالمهدي منتهزاً خروج شنجول بقواته غازياً في الشمال حيث وثب مع جماعته على صاحب شرطة المدينة وضربوا عنقه ثم اقتحموا قصر

---

(١) الحميدي ، جذوة المقتبس : ص١٧ . الضبي بغية الملتمس : ج١ ، ص٣ . ابن عذاري ، البيان : ج٣ ، ص١٦ .

(٢) ابن خلدون ، العبر : ج٤ ، ص١٤٨-١٤٩ . ابن عذاري . البيان : ج٣ ، ص٤٠-٤١ .

الخلافة واحتلوه وأرغموا هشاماً على التنازل عن الخلافة في ١٦ جمادى الآخرة ٣٩٩هـ / ١٠٠٩م [١] . ثم اندفعوا نحو قصر شنجول في قصر الزاهرة وهاجموه بعد أن رفض المدافعون الاستسلام فهدموا الأسوار ودمروا المنازل والقصور وسلبوا المتاع ، وكل ما وقعت عليه أيديهم ، ولما بلغت الأخبار لشنجول حاول العودة إلى قرطبة وأعلن عن تنازله عن ولاية العهد والاقتصار على الحجابة في محاولة منه لتهدئة نار الثورة ريثما يجمع الأنصار ويستعيد زمام الأمور ، لكن جهوده باءت بالإخفاق وأدركته خيل محمد بن هشام فانفض عنه أتباعه وحمل إلى قرطبة وضرب عنقه هناك [٢] ، ولم يتمكن المهدي من فرض الاستقرار في البلاد ، إذ ثار عليه جند المغاربة الذين تضررت مصالحهم بسياسته ، والتفوا حول هشام بن سليمان بن عبد الرحمن وأعلنوا خلافته ولقب بالرشيد إلا أنه مني بالهزيمة أمام قوات المهدي الذي قام بإعدامه مع بعض أفراد عائلته ، إلا أن المغاربة لم يرضخوا لهذه الهزيمة إذ وجدوا في سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر شخصية شرعية يمكنها أن تقف بوجه المهدي ، فوسموه بالخلافة ولقبوه بالمستعين في شعبان سنة ٣٩٩هـ ـ ١٠٠٩م [٣] . وقد تمكن هذا من دخول قرطبة التي فر منها المهدي إلى طليطلة وأصبح خليفة في الأندلس في (ربيع الأول سنة ٤٠٠هـ ـ تشرين الأول ١٠٠٩م إلا أن المهدي عاود زحفه على قرطبة وتمكن من سحق قوات المستعين في موقعة عقبة البقر ودخل قرطبة ثانية [٤] ، وكان لإخفاق المهدي في القضاء على قوات المستعين التي انسحبت إلى الجزيرة الخضراء

---

[١] ابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص٤٩-١٥٠ . ابن عذاري : البيان ، ج٣ ، ص٤٩-٥٠ .

[٢] ابن عذاري ، البيان المغرب ، ج٣ ، ص٧٣ . النويري : نهاية الأرب ، ج٢٣ ، ص٤١٤-٤١٧ .

[٣] ابن خلدون ، العبر ، ج٤ ، ص١٥٠ . ابن عذاري : البيان ، ج٣ ، ص٧٥-٧٨ .

[٤] ابن عذاري ، البيان ، ج٣ ، ص٨٦-٨٩ ، ٩٣-٩٥ . الضبي ، بغية الملتمس ، ج١ ، ص٤٤ . الحميدي ، جذوة المقتبس ، ص١٨-١٩ .

عاملاً مشجعاً للمستعين في الهجوم على قرطبة ، إذ ضيق عليها الخناق وقد ساعد هذا علـــى سوء سياسة المهدي نفسه ، لأن يقرر الجند الصقالبة التخلص من المهدي ، فتم اغتـــياله في ذي الحجـــة ســـنة ٤٠٠هـــ ـــ ١٠٠٩م وإعادة هشام المؤيد إلى عرش الخلافة (١) . إلا أن المستعين رفض هذا التغير واستمر في حصار قرطبة ، ومهاجمة المدن المجاورة لها مما أدى إلى تدهور الأحوال العامة ، إذ فقدت البلاد مواردها وأمنها العام، مما أتاح له اقتحام قرطبة في شوال سنة ٤٠٣هـــ ـــ ١٠١٢م وأباحها لجنده وبعد قتله للخليفة المؤيد أعلن من جديد نفسه خليفة على الأندلس (٢) لكن الأمر لم يستتب لـــه إذ نازعـــه الحكـــم عـــلي بن حمود الإدريسي بحجة أن الخلافة يجب أن تكون لهشام (المؤيـــد) الذي قتله ابن المستعين غدراً وادعى كذلك بأن هشاماً كان قبل مقتله قد عهد لـــه بالخلافة من بعده ، ثم جاز إلى الأندلس بعد أن بايعه خيران العامري صاحب المرية وحـــبوس الصـــنهاجي صـــاحب البيرة ، حيث زحف بجنده نحو قرطبة وخرج المستعين للقائـــه ولكنهم هزموه حيث قتل ودخل علي بن حمود قرطبة لتولي عرش الخلافة في محرم ســـنة ٤٠٧هـــ ـــ ١٠١٦م (٣) ، ومنذ هذا التاريخ انقطعت دولة بني أمية في الأندلس وبـــدأت دولة آل حمود الإدريسية إلا أن هؤلاء لم يتمكنوا من فرض سلطتهم ، إذ انتاب حكمهـــم الضعف وانشغلوا بصراعاتهم على السلطة ، إذ قتل علي بن حمود على يد جنده العبيد الصقالبة في غرة ذي القعدة من عام ٤٠٨هـــ ـــ ١٠١٧م بعد أن حكم مدة لا

---

(١) ابن عذاري : البيان ، ج٣ ، ص١٠٠ . المراكشي : المعجب : ص٤٢ . ابن حزم : رسائل ابن حزم ، تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٨١ ، ج٢ ، ص١٩٧ . الحميدي : جذوة المقتبس ، ص١٩ .

(٢) المراكشـــي : المعجب ، ص٤٣ . ابن عذاري : البيان ، ج٣ ، ص١٠٢-١٠٥ ، ١١٣ . ابن بسام : الذخيرة ، ق١ ، ج١ ، ص٣٧ .

(٣) ابن حزم : رسائل ، ج٢ ، ص١٩٧-١٩٨ . الذخيرة ، ق١ ، ج١ ، ص٣٨ . ابن عذاري : البيان ، ج٣ ، ص١١٣-١١٤ . الحميدي : جذوة المقتبس ، ص٢٠ .

تـــزيد على ستة أو تسعة أشهر [١] . بويع بالخلافة إثر ذلك لأخيه القاسم بن حمود ، فـــبدأ عهـــده بدايـــة موفقة ، واهتم بنشره الأمن ومحاكمة قتلة أخيه فاطمأن الناس واستبشـــروا خـــيراً ، ولكن لم يطل أمد هذا الاطمئنان لأن الخليفة الجديد وقع تحت ســـيطرة العامريين والبربر فكرهه أهل قرطبة ، وندموا على خذلانهم لبني أمية ، وأتت الفرصـــة أخـــيراً للتخلص منه إذ نجح يحيى ابن أخيه المقتول بالدخول إلى قرطبة فبايعه أهـــلها وأجـــناد البربر في جمادى الأولى ٤١٢هـــ ـــ ١٠٢٣م، ولكن شأنه اضمحل ســـريعاً ، وأصبح ألعوبة بيد الزناتيين ، وسرعان ما خلعوه وأعادوا القاسم من جديد وظـــل الأمر سجالاً بين الطرفين [٢] ، بعدها تم اتفاق القرطبيين على إعادة الأمر لبني أمـــية ، فاخـــتاروا للخلافة عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار ولقب بالمستظهر في رمضان سنة ٤١٤هـــ ـــ ١٠٢٣م أي بعد سبعة وأربعين يوماً من خلافته [٣] . وبويع مـــن بعده لمحمد بن عبد الرحمن ولقب بالمستكفي لكنه لم يكن بمستوى الأحداث التي كانـــت تمـــر بهـــا البلاد إذ سرعان ما أبدى عجزه عن مواجهة أطماع يحيى بن علي الحمودي ، وفر من قرطبة مما أدى إلى خلعه وقتله [٤] ، وتبعاً لذلك دخل يحيى بن علي قرطـــبة في رمضان سنة ٤١٦هـــ ـــ ١٠٢٥م ، وأقام فيها أربعة أشهر ثم غادرها إلى مالقة تاركاً أمرها لنائبه وهذا ما أتاح الفرصة للطامعين بمحاولة السيطرة على قرطبة ، إذ أوعـــز أمير غرناطة حبوس بن ماكس إلى حليفيه مجاهد وخيران بالتوجه إلى قرطبة

---

(١) ابـــن عـــذاري : البيان ، ج٣ ، ص١٢١-١٢٢ . ابن حزم : رسائل ، ج٢ ، ص١٩٨ . ابن بسام : الذخيرة ، ق١ ، ج١ ، ص٩٧-٩٩ .

(٢) ابن عذاري : البيان ، ج٣ ، ص١٣٢-١٣٥ . ابن حزم : رسائل ، ج٢ ، ص٩٢-٢٠٠ .

(٣) ابـــن بسام : الذخيرة ، ق١ ، ج١ ، ص٥٠ ، ٥٤ . ابن حزم : رسائل ، ج٢ ، ص٢٠٠-٢٠١ . البيان ، ج٣ ، ص١٣٥ .

(٤) ابـــن عذاري : البيان ، ج٣ ، ص١٤٠-١٤٣ . ابن حزم : رسائل ، ج٢ ، ص٢٠٢ . الضبي : بغية الملتمس ، ص٥٥ . الحميدي : جذوة المقتبس ، ص٢٧ .

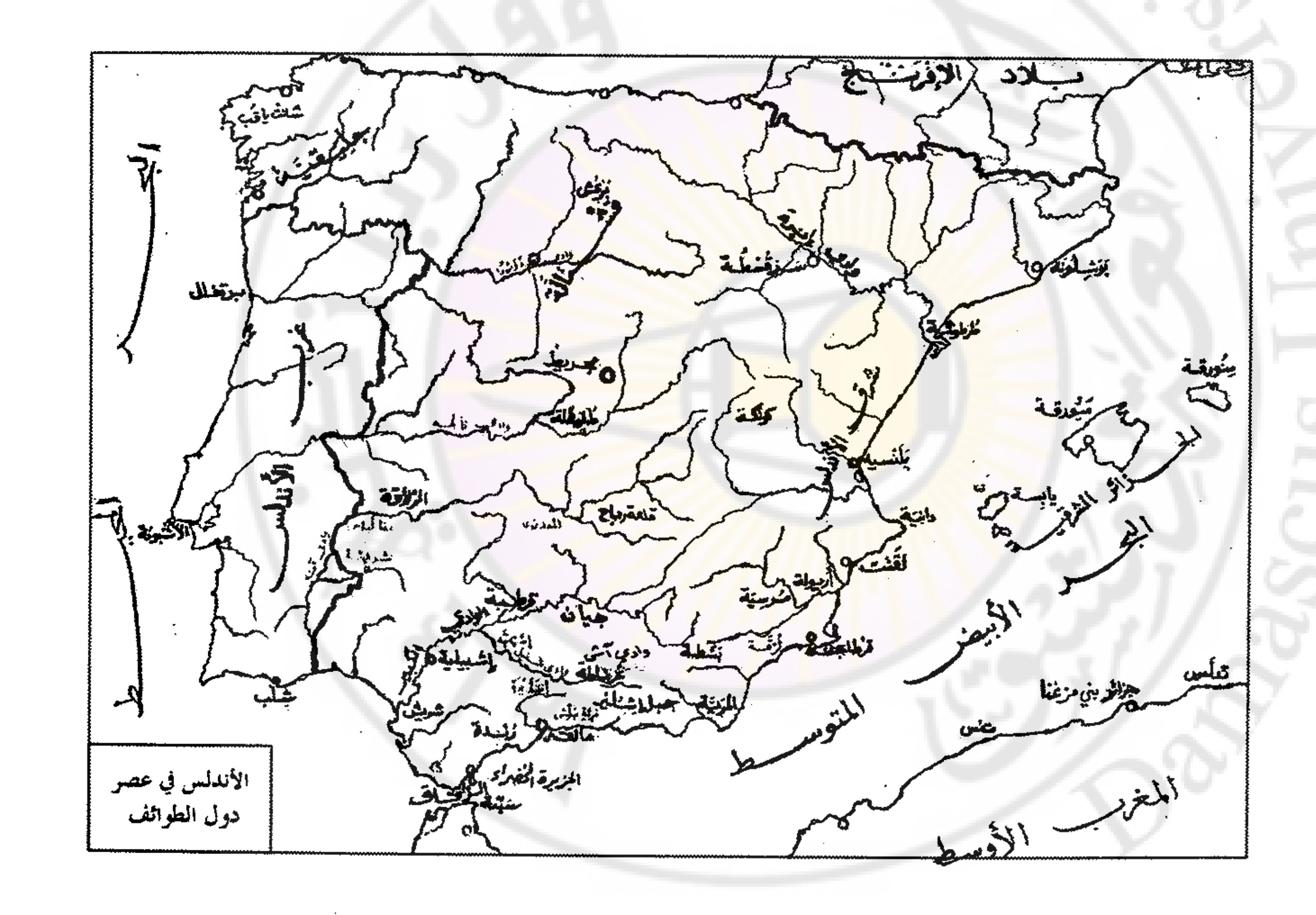
فتمكنـــنا مـــن دخولها في ربيع الثاني عام ٤١٧هـــ ـــ ١٠٢٦م ، ومن نائب الخليفة الحمـــودي منها [١] ، إلا أن هذين المغامرين لم يتمكنا من ضبط الأمور ، إذ تنكر كل مـــنهما لصاحبه ، فتركا البلاد دون حاكم أو خليفة و لم يتمكن أهل قرطبة من تسمية خلـــيفة جديـــد إلا بعـــد مرور بضعة أشهر ، إذ اتفقوا على تولية هشام بن محمد بن عـــبد الملـــك ، ولقب بالمعتد بالله في ربيع الثاني ٤١٨هـــ ـــ ١٠٢٧م ، وبعد مرور ســـنة وســـبعة أشـــهر مـــن خلافته انتقل إلى قرطبة ودخلها في ذي الحجة من سنة ٤٢٠هـــــ ـــ ١٠٢٩م وعلى الرغم من أن أهل قرطبة استبشروا بعهده خيراً ، لكن سرعان ما خاب أملهم فيه لسوء تدبيره فانتهز أموي آخر هو أمية بن عبد الرحمن بن هشـــام هذه الظروف للمطالبة بالخلافة ، فثار معه عامة أهل قرطبة وتمكن من احتلال دار الخلافة [٢] وأمام هذه الاضطرابات التي أدت إلى الفوضى والخراب سقطت الدولة الأموية بعد عزل آخر خلفائها المعتد بالله وإجلاء من تبقى من المراونية عن قرطبة عام ٤٢٢هـــــ ـــ ١٠٣١م ، وفي ذلـــك يقول ابن الخطيب : ومشى البريد في الأسواق ، والأرباض بأن لا يبقى أحد بقرطبة من بني أمية ، ولا يكنفهم أحد ثم أعلن الوزير أبو الحـــزم بـــن جهور انتهاء رسم الخلافة جملة لعدم وجود من يستحقها وصيرورة الأمر شـــورى بأيدي الوزراء وصفوة الزعماء أو ما أسماه بالجماعة وهكذا تحول الحكم في قرطـــبة إلى نظام شبيه بالحكم الجمهوري عرف في كتب التاريخ بحكم الجماعة [٣] ، و لم يبق هذا طويلاً ، حيث تمزقت الأندلس وقامت فيها حكومات دول الطوائف .

---

(١) ابن عذاري : البيان ، ج٣ ، ص١٤٣-١٤٤ .

(٢) البـــيان ، ج٣ ، ص١٤٥-١٥٠ . يـــاقوت الحموي : معجم الأدباء ، ج٢ ، ص٢٣٧ . الحميدي : جذوة المقتبس ، ص٢٧-٢٨ . ابن حزم : رسائل ، ج٢ ، ص٢٠٣ .

(٣) ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، القسم الخاص بإسبانيا ، ص١٣٩-١٤٠.


بلاد الإفرنج
برشلونة
سرقسطة
طرطوشة
مجريط
طليطلة
كونكة
بلنسية
دانية
لقنت
مرسية
أريولة
قرطاجنة
لورقة
المرية
بسطة
غرناطة
مالقة
جيان
قرطبة
إشبيلية
شريش
رندة
الجزيرة الخضراء
سبتة
شلب
الأشبونة
الزلاقة
قلعة رباح
برتغال
منورقة
ميورقة
يابسة
البحر الأبيض المتوسط
تنس
المغرب الأوسط
الأندلس في عصر
دول الطوائف

الفصل الثالث

العصر المرابطي


Damascus University

آ ـ الحياة السياسية والعسكرية

● قيام حركة المرابطين :

يظهـــر البحث في تاريخ الإسلام أن قضايا هذا التاريخ قد تفاعلت وتشابكت على الـــرغم مـــن سعة الرقعة الجغرافية والمسافات الطويلة بين المناطق والبلدان ، وعلى هذا إن الواقعة التي حدثت مثلاً في المغرب قد نجد أسبابها المباشرة في بلد إسلامي وغير المباشرة في بلـــد إســـلامي آخر ، ونضرب هنا مثلاً بتاريخ الدولة الفاطمية ، حيث إن هذا التاريخ مرتـــبط في مـــرحلة مبكرة بتاريخ التشيع حتى منتصف القرن الثاني للهجرة ، ثم بحوادث بلاد الديلم والعراق ، فالشام فاليمن فمصر فإفريقية فسجلماسة فمصر والشام من جديد، لذلك من العبث البحث في أي قضية تاريخية إسلامية دون أخذ هذا الأمر بالحسبان .

وتنطـــبق هـــذه القـــاعدة على حوادث قيام حركة المرابطين في قلب الصحراء الأفريقـــية الكبرى ثم تأسيس دولتهم في المغرب الأقصى وإثر هذا تدخلهم في شؤون الأندلـــس ، فالبحـــث في تاريخ المرابطين ترتبط بداياته بحوادث الاستفاقة الإسلامية الســـنية أولاً في المشـــرق الإســـلامي ثم انتقالها إلى بلدان المغرب العربي خلال القرن الخـــامس ، وذلـــك مثلما ترتبط بواقع الحياة القبلية اجتماعياً واقتصادياً وسياسياً في الصـــحراء الكبرى وفي البلدان المجاورة في المغرب الأقصى وأفريقية ، والمثير للانتباه أن

الاســتفاقة السنية في القرن الخامس توافقت في المشرق مع هجرة البداة التركمان من بــلاد مــا وراء النهر وتأسيس السلطنة السلجوقية في المشرق ، وكان أيضاً من جملة نتائجها في المغرب هجرة قبائل الصحراء نحو المغرب الأقصى والأندلس وتأسيس دولة المــرابطين ، وتعلق هذا كله بتعميق التبدلات الكبرى على صعيد العلاقات مع أوروبة بشــطريها الشــرقي والغــربي ، ففي الشطر الشرقي كانت ـــ كما رأينا ـــ معركة منازكرد التي عدّت فيما بين أسباب قيام الحروب الصليبية ، وفي الغرب معركة الزلاّقة وإزالــة دول الطوائف من الأندلس وتوحيد هذه البلاد تحت راية المرابطين والاستعداد لــيس فقــط لاســترداد ما فقده المسلمون من بلدان الأندلس بل لاستئناف حركة الفــتوحات داخــل أوروبة من جديد مما كان له أبعد الآثار في قيام الحروب الصليبية أيضاً ، فهذا كله قد هيأ الأجواء الأوروبية حتى جاءت ساعة الانفجار .

في الحقــيقة ما تزال مسألة قيام حركة المرابطين وتأسيس دولتهم من الأحداث الــتي تحــتاج إلى المزيد من الأبحاث المعمقة ، ذلك أنه على الرغم من المهمة التاريخية المشــرِّفة التي شغلها المرابطون في الغرب الإسلامي ، وبرغم كثرة عدد المؤرخين الذين دونوا أخبار أحداثهم ، فإن ما آلت إليه نهاية المرابطين المأساوية بقيام دولة الموحدين ، قد أدى إلى طمس آثار المرابطين وأخبارهم طمساً كاد أن يكون كاملاً .

ومــع هذا لا يفقد الباحث الأمل ، فبين يوم وآخر يكتشف أثراً مرابطياً مباشراً ، أو غــير مباشــر يسهم في الكشف عن أحد الآثار المحجوبة عنا ، وبذلك تتضح الصورة أكــثر فأكثر ، وعلى كل حال حين تتحدث المصادر عن قيام حركة المرابطين نراها تجمع عــلى أن الحــركة كانــت دينية اسلامية تولى قيادتها بالأساس داعية إسلامي بعث من المغــرب إلى قلــب الصــحراء ، هــو عبد الله بن ياسين ، بيد أن ابن ياسين توجه إلى الصــحراء مرسلاً أولاً من قبل عالم اسمه أبو عمران الفاسي ثم ثانية من قبل عالم آخر اسمه واجاج بن زلو، وتحت إشراف ابن زلو وتوجيهه عمل ابن ياسين حتى لاقى النجاح .

وابـن زلو لم يبادر إلى إرسال ابن ياسين من عنده بل جاء هذا أيضاً بناء على توجيهات من شيخه أبو عمران الغفجومي الشهير بالفاسي ، وعلى هذا بين أيدينا في البداية شخصيات دينية ثلاثة يتوجب علينا التعرف إليها واحداً تلو الآخر .

وكان من أقدم من ترجم لأبي عمران الفاسي القاضي عياض في مداركه ، وتتميز هـذه الترجمة مع قدمها بكونها وافية في كثير من الجوانب وعظيمة الفائدة فهو : موسى بـن عيسى بن أبي حاج ... الغفجومي «وغفجوم فخذ من زناتة» وفي رواية أخرى «من هـوارة ... أصله من فاس وبيته بها مشهور ، ويعرفون ببني أبي حاج ، ولهم عقب وفيهم نباهة إلى الآن ، واستطون القيروان ، وحصلت له بها رئاسة العلم» [1] .

وفي مقـابل هـذه الرواية نجد نصاً على درجة عالية من الأهمية عند صاحب «بـيوتات فـاس الكبرى» المنسوبة بعض مواده إلى إسماعيل بن الأحمر حيث جاء : «ومـنهم ـ أهـل فاس ـ بيت أبي الحاج القرشي ، بيتهم بيت حسب وثروة وفقه وعـلم وعدالة ، ولهم زقاق بفاس يقال له درب أبي حاج ، منهم الفقيه الإمام العلامة المـدرس المفتي الخطيب الصالح ولي الله تعالى أبو عمران موسى بن أبي حاج القرشي ، المعـروف بأبي عمران الفاسي ، كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، وبسبب ذلك أخرجه من فاس الطغاة من أهلها العاملين عليها لمغراوة ، فاستقر بالقيروان إلى أن توفي سنة ثلاثين وأربعمائة ، وهو الذي ندب يحيى بن عمران بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي إلى قتال الطغاة من أهل المغرب وجهاد أهل برغواطة من السوس» [2] .

ولـئن اتفـق القاضـي عياض مع صاحب بيوتات فاس حول مكانة أسرة أبي عمـران الفاسـي ، فالخلاف بينهما حول نسبه ، فهو غفجومي عند القاضي عياض وقرشـي عـند صاحب بيوتات فاس ، وقد يميل الباحث نحو ترجيح رواية صاحب

---

(١) ترتيب المدارك وتقريب المسالك ، القاضي عياض ، نشر دار الحياة ، بيروت ، ج٤ ، ص٧٠٢ .

(٢) بيوتات فاس الكبرى ، ط. الرباط ١٩٧٢ ، ص٤٤-٤٥ .

البيوتات على رواية القاضي عياض على قدمها ، وذلك على قاعدة «أهل مكة أدرى بشعابها» ، ويقوي هذا الاحتمال الدور الذي شغله الفاسي في كل من مدينة فاس ثم القيروان وفي أصل قيام حركة المرابطين .

ونص القاضي عياض صراحة على أن الفاسي قد ولد سنة «ثلاث وستين وثلاثمائة» وقيل أيضاً إنه ولد سنة ٣٦٥ أو حتى سنة ٣٦٨ [١]، وعلى هذا «عاصر الغفجومي منذ صباه الأحداث الخطيرة الغامضة في تاريخ المغرب من هجوم الصنهاجيين خلفاء العبيديين ، والعامريين خلفاء بني أمية ، وقيام زعماء البربر بالدعوة لهؤلاء تارة ولأولئك أخرى ، وفي طليعتهم زيري بن عطية المغراوي ، ويدو بن يعلى اليفرني ، وأبو البهار الصنهاجي ، ففي هذا الظرف الحرج المتقلب ولد وعاش سنواته الأولى ... وشب وترعرع ... ونال مكانة سامية في العلم والفتوى والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى تضايق من وجوده رجال السلطة فخرج من وطنه مهاجراً كارهاً للوضع القائم وتصرفات رجاله في البلاد» [٢] .

ويبدو أنها كانت فرصة بالنسبة للفاسي ، وقد أرغم على مغادرة بلده أن يرحل في سبيل العلم ، فكان أن قصد قرطبة ، وبعدما أخذ عن علمائها قصد القيروان ، ومن القيروان توجه إلى المشرق فقضى فريضة الحج ثم دخل بغداد حيث لقي فيها وفي مدن العراق الأخرى قادة رجال اليقظة للقرن الخامس ، وقد تأثر كثيراً بأبي بكر الباقلاني ، فعليه درس الأصول مع علم الكلام بردوده الشديدة على حركات الغلاة ، ومثل هؤلاء في الشمال الأفريقي دولة برغوطة في سواحل المغرب الأقصى مع بقايا

---

(١) المدارك ، ج٤ ، ص٧٠٦ . مجلة البينة ، العدد الثالث ، الرباط ، تموز ١٩٦٢ ، ص٦٧ ، «بحث عبد القادر زمامة عن أبي عمران الغفجومي» .

(٢) مجلة البينة : البحث نفسه ، ص٦٧ . ومن أجل أوضاع فاس في أيام أبي عمران انظر الأنيس المطرب في روض القرطاس ، المنسوب لابن أبي الزرع ، ط. الرباط ١٩٧٣ ، ص١٠٢-١١٨ .

الإسماعيلية في أفريقية ، وكان المعز بن باديس نائب الفاطميين في إفريقية قد ملك النزعات والرغبة في إلغاء الانتماء للفاطميين ، والاستقلال عنهم وإعادة الخطبة للعباسيين .

وكان الفاسي بعدما غادر المشرق إلى المغرب استقر في مدينة القيروان ، وفيها نشط وحظي بمكانة مرموقة ومؤثرة ، وهكذا شغل دوراً فعالاً في إقناع المعز بن باديس بالانقلاب على الفاطميين وإيقاع مذبحة بالمؤمنين بالعقيدة الإسماعيلية في أفريقية .

كان الخليفة في القاهرة المستنصر بالله ، وكانت دولته أضعف من أن تتمكن من اتخاذ إجراء عسكري مباشر ضد المعز بن باديس ، لكنها لم تعدم الوسيلة للانتقام منه ، وكان الانتقام في تحريض قبائل هلال وسليم بالزحف نحو أفريقية ، وأحدث هذا الزحف أوسع الآثار السياسية والاقتصادية والعمرانية على جل بلدان المغرب العربي ، وفيها ثبت طابع العروبة بشكل أبدي مطلق [1] .

وإذا كان الفاسي قد أسهم بنصيبه في أسباب تفجر الأحداث التي شهدتها إفريقية ، فإن شهرته لم تصدر عن هذا الإسهام ولا حتى عما صنفه أو رواه في ميدان

---

(1) اهتم بهذا الموضوع عدد كبير من المؤرخين العرب المتقدمين وكان مدار أبحاث عدد كبير من المستشرقين والعرب في عصرنا ، انظر من ذلك : تاريخ ابن خلدون ، ط. بيروت ١٩٥٨ ، ج٤ ، ص ١٣٠-١٣٢ . لسان الدين ابن الخطيب ـــ أعمال الأعلام (نشر القسم الثالث منه باسم تاريخ المغرب في العصر الوسيط ـــ الدار البيضاء ١٩٦٤) ص٧٢-٧٦ . عبد الواحد المراكشي ـــ المغرب في تلخيص أخبار المغرب ، ط. القاهرة ١٩٤٩ ، ص٢٢٤-٢٢٥ . ابن ميسر ـــ أخبار مصر ، ط. القاهرة ١٩٨١ ، ص١٧ . ابن عذاري ـــ البيان المغرب ، ط. بيروت ١٩٨٠ ، ج١ ، ص٢٧٣-٢٧٤-٢٨٠ . حسن حسني عبد الوهاب ـــ خلاصته تاريخ تونس ، ط. تونس ١٩٦٨ ، ص١١١-١١٣ . شارل أندري جوليان ـــ تاريخ أفريقيا الشمالية ـــ ترجمة عربية ـــ ط. تونس ١٩٧٨ ، ج٢ ، ص٩٠-٩٩ . عفيفي محمود إبراهيم ـــ بنو زيري وعلاقتهم السياسية بالقوى الإسلامية في حوض البحر المتوسط ـــ ط. القاهرة ١٩٨٩ ، ص٨١-٨٥ .

الفقـه والحديث ولقد صدرت عن دوره في قيام حركة المرابطين ، ففي القيروان قيل اتصـل به في طريق العودة من الحج يحيى بن إبراهيم الجدالي ، وكان يحيى زعيماً لقبيلة جدالـة إحدى كبيرات قبائل الصحراء ، ديارها واقعة على مقربة من شواطئ المحيط الأطلسي ومصب نهر السنغال .

وأعجب الجدالي بالشيخ أبي عمران الفاسي ، ورأى أبو عمران فيه رجلاً «محباً في الخـير ، فأعجبه حاله ، فسأله عن اسمه وبلده ونسبه فأخبره بذلك ، واعلمه بسعة بـلاده وما فيها من الخلق ، فقال له : وما ينتحلون من المذاهب ؟ فقال له : إنهم قوم غلـب عليهم الجهل ، وليس لهم كثير علم ، فاختبره الفقيه وسأله عن واجبات دينه ، فـلم يجده يعرف منها شيئاً ولا يحفظ من الكتاب والسنة حرفاً ، إلا أنه حريص على التعلم ، صحيح النية والعقيدة واليقين ، جاهل بما يصلح دينه ، فقال له : ما يمنعك من التعـلم للعلم ؟ فقال له : يا سيدي إن أهل بلادي قوم عمهم الجهل ، وليس فيهم من يقـرأ القـرآن ، وهم مع ذلك يحبون الخير ويرغبون فيه ويسعون إليه لو وجدوا من يقـرئهم القـرآن ويدرس لهم العلم ويفقههم في دينهم ويدعوهم إلى العمل بالكتاب والسـنة ، ويعـلمهم شرائع الإسلام ، ويبين لهم سنن النبي عليه السلام ، فلو بغيت الـثواب مـن الله تعالى بتعليمهم الخير لبعثت معي إلى بلادنا بعض تلاميذك يقرئهم القرآن ويفقههم في الدين فينتفعون به ويسمعون له ويطيعوه فيكون لك في ذلك الأجر العظـيم والثواب الجسيم عند الله ، أن تكون سبباً لهدايتهم ، فندب الشيخ الفقيه أبو عمـران تلاميذه إلى ذلك فامتنعوا وأشفقوا من دخول الصحراء ، ولم يجبه منهم أحد ممـن يرضاه الشيخ ، فلما يئس منهم قال : إني أعرف ببلاد نفيس من أرض المصامدة فقيهاً حاذقاً تقياً لقيني هنا ، وأخذ عني علماً كثيراً وعرفت ذلك منه واسمه وأجاج بن زلو اللمطي ، من أهل السوس الأقصى ، وهو الآن يتعبد ويدرس العلم ، ويدعو الناس إلى الخـير في رباط هناك وله تلاميذ جمة يقرؤون عليه العلم ، أكتب له كتاباً لينظر في

تلاميذه من يبعثه معك ، فسر إليه»[1] .

ونستخلص من هذه الرواية أن المبادرة بإرسال عالم إلى تلك الصحراء جاءت من عند الجدالي ، وإن الذي قام به الفاسي هو مجرد الاستجابة ، وهذا يعني انعدام أية خطط للدعوة في الصحراء لدى الفاسي ، وإن كل ما حدث نجم عن عامل الصدفة ، فريق من حجاج الصحراء التقى بواحد من كبار العلماء في القيروان ، وهكذا سارت الأمور ، لكن يبدو أن القضية لم تكن أبداً بهذه البساطة ولم تسر على هذه الشاكلة .

تحدث صاحب بيوتات فاس عن اللقاء الذي قام بين الرجلين في القيروان ، فقال: «وهو الذي ندب يحيى بن عمران بن إبراهيم اللمتوني الصنهاجي إلى قتال الطغاة من أهل المغرب وجهاد أهل برغواطة من السوس»[2] ، وقال المصنف نفسه في مكان آخر من كتابه تحدث به عن أسرة عبد الله بن ياسين في فاس : «وهم من بني عبد الله بن ياسين الفقيه الذي انتدب لمتونة إلى قتال برغواطة من السوس» ، وبعد إيراده لبعض المعلومات عن كل من برغواطة وقبيلة لمتونة بين أن ديار لمتونة في «صحراء المغرب التي بين بلاد السودان المغربية وبلاد المغرب ... وذلك مسيرة شهرين طولاً وعرضاً ....وليس لهم مدينة يأوون إليها إلا مدينة غانة من بلاد السودان المغربية... وأما غانة فكانوا على دين النصرانية إلى سنة تسع وستين وأربعمائة ، فأسلم أهلها على يد عبد الله بن ياسين عند خروجه مع يحيى بن عمر اللمتوني إلى قتال أهل برغواطة ، وحسن إسلامهم .

وكان السبب في دخول لمتونة المغرب أنهم على دين الإسلام منذ أسلموا على يد الإمام إدريس ، وكانوا يحاربون السودان ، ثم إن يحيى وأبا بكر بن عمر خرجا إلى الحج مع قومهما فمروا بمدينة القيروان يتبركون بالعلامة أبي عمران الفاسي حيث

---

(1) روض القرطاس ، ص١٢٢-١٢٣ .

(2) بيوتات فاس الكبرى ، ص٤٥ .

بلغهـــم أن أهل فاس أخرجوه من مدينة فاس لنهيه لهم عما أحدثوه من البدع والمظالم والمغـــارم ... ولمـــا اجـــتمع مع يحيى بن عمر ندبه أبو عمران إلى قتال برغواطة ببلاد السوس وقتال زناتة على ما صدر منهم من الظلم ، واستنْزال رؤوسائهم من الولاية ، فوعـــده يحـــيى بن عمر بالنهوض إلى ذلك ، وطلب منه أن يوجه معه إلى بلاده بعض طلبـــته ليـــنظر في أمور ديانتهم وإخراج زكاتهم وأعشارهم وفيمن تصرف مع أخماس غـــنائمهم ، فعرض ذلك أبو عمران على طلبته فامتنعوا من المسير مع يحيى بن عمر بن إبراهـــيم لـــبعد البلاد والمشقة ، وانقطاع الصحراء على بلاد إفريقية ، ثم قال له أبو عمـــران : نكتب لك رسالة إلى فقيه بالسوس مما يلي بلادك ، يدعى بوجاج ـــ ممن كان قرأ عليه بفاس قبل ارتحال أبي عمران عنها ـــ فكتب له رسالة يطلب منه فيها أن يوجـــه معه فقيهاً إلى بلاده ، فسار يحيى بن عمر بن إبراهيم مع قومه إلى وجاج ، إلى أن وصـــلوا إليه فدفعوا إليه كتاب أبي عمران ، فلما قرأه رحب بهم وأكرمهم واختار لهم عبد الله بن ياسين من أصحابه» [1].

الجديـــد في هذه الرواية أن الذي التقى بالفاسي وفد من لمتونة وليس من جدالة بقـــيادة يحيى بن عمر بن إبراهيم ، وحدث هذا اللقاء في القيروان ، والفاسي هو الذي نـــدب الوفد ليس لقتال برغواطة فحسب بل لقتال زناتة وكانت آنذاك تشكل خطراً كـــبيراً على حكم المعز بن باديس ، وأن وجاج تتلمذ على يد الفاسي في مدينة فاس ، وســـنرى أن يحـــيى بن عمر اللمتوني سيتولى زعامةالمرابطين حتى وفاته حيث سيخلفه أخوه أبو بكر بن عمر .

وجـــاءت وفـــاة يحيى بن عمر سنة ٤٤٩هـــ ـــ ١٠٥٧م حيث قتل في معركة كبيرة ضد قبيلة جدالة [2].

---

(١) بيوتات فاس ، ص٢٧-٢٨ .

(٢) مؤلف مجهول الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية ـــ ط. الدار البيضاء ١٩٧٨ ، ص٢٣ .

والإشكالية التي تواجهنا هنا ليست مقصورة على كيفية انتقال زعامة المرابطين من جدالة إلى لمتونة بل أمر آخر يتعلق بشخصية أخرى يوى من قبل مصادر مبكرة جداً أنها التي التقت أولاً بأبي عمران الغفجومي .

يحدثنا البكري في كتابه المسالك والممالك بقوله : «وخلف بني لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى بني جدالة ، وهم يجاورون البحر ليس بينهم وبينه أحد ، وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين وأربعمائة بدعوة الحق ، ورد المظالم ، وقطع جميع المغارم، وهم على السنة متمسكون بمذهب مالك بن أنس رضي الله عنه ، وكان الذي نهج ذلك فيهم ، ودعا الناس إلى الرباط ودعوة الحق عبد الله بن ياسين ، وذلك أن رئيسهم كان يحيى بن إبراهيم من بني جدالة ، وحج في بعض السنين ، ولقي في صدره عن حجه الفقيه أبا عمران الفاسي ، فسأله أبو عمران عن بلده وسيرته وما ينتحلونه من المذاهب ، فلم يجد عنده علماً بشيء إلا أنه رآه حريصاً على التعلم صحيح النية واليقين ، فقال له : ما يمنعكم من تعلم الشرع على وجهه ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ؟ قال له : لا يصل إلينا إلا معلمون لا ورع لهم ولا علم بالسنة عندهم ، ورغب إلى أبي عمران أن يرسل معه من تلاميذه من يثق بعلمه ودينه ليعلمهم ويفقيهم أحكام الشريعة عندهم ، فلم يجد أبو عمران فيمن رضيه من يجيبه إلى السير معه ، فقال له أبو عمران : أي قد عدمت بالقيروان بغيتكم ، وإن بملكوس فقيها حاذقاً ورعا قد لقيني وعرفت ذلك منه يقال له وجاج بن زلو ، فمر به فربما ظفرت عنده ببغيتك ، فجعل ذلك يحيى بن إبراهيم أوكد همه ، فنزل به وعلمه ما جرى له مع أبي عمران ، فاختار له وجاج من أصحابه رجلاً يقال له عبد الله بن ياسين ، واسم أمه تين يزلمارن من أهل جزولة من قرية تسمى تماماناوت في طرف صحراء مدينة غانة ، فوصل به إلى موضعه ، واجتمعوا للتعلم منه والانقياد له في سبعين رجلاً فغزوا بني لمتونة وحاصروهم في جبل لهم فهزموهم ، فلم يزل أمرهم يقوى ... وعبد الله بن ياسين

مقـيم فيهم ... وهم يسمعون له ويطيعون إلى نقموا عليه أشياء يطول ذكرها وكأنهم وجدوا في أحكامه بعض التناقض ، فقام عليه فقيه منهم كان اسمه الجوهر بن سكم مع رجلين من كبارائهم ... فعزلوه عن الرأي والمشورة ، وقبضوا منه بيت مالهم وطردوه وهدمـوا داره وانتهـبوا ما كان فيها من أثاث وخرثي ، فخرج مستخفياً من قبائل صنهاجة إلى أن أتى وجاج بن زلو فقيه ملكوس» [1] .

عـاش البكري في الأندلس ، وكان من الأمراء العلماء ، وهو لم يزر المغرب ، والمعلومـات الـتي دونها في كتابه كانت مما نقل إليه ، وقد قام هو بدمج التقارير التي حصـل عليها ، وعلى هذا لم تخل معلوماته من شيء من التناقض والخلل ، لكنها مع هذا هامة لا يستغنى عنها ، وتزداد فائدتها لدى الحصول على بعض المواد المعاصرة لها أو من طبقتها .

ومعلومـات البكري تؤكد هنا على أن الذي اتصل بالفاسي كان من قبيلة جدالة، وقـد انفـرد بإيراده خبر طرد عبد الله بن ياسين وعودته إلى رباط وجاج بن زلو، وهام جـداً إتـيانه على ذكر الجوهر بن سكم ، فلقد حاول بعض الباحثين تجاهل وجود هذه الشخصـية ، أو المطابقـة بيـنها وبـين يحيى بن إبراهيم الجدالي ، والمطابقة صعبة لعدم التقارب بين الاسمين ولأن جوهر أوصف بالفقيه و لم يأت الحديث عنه كزعيم سياسي.

وسلف بنا الذكر أن جل المصادر المرابطية قد ناله التلف ، ولكن يبد أن بعضها نجا ووصل إلى مكتبات المشارقة فنقلوا عنه ، وهكذا نجد كلاً من ابن الأثير والنويري والمقريـزي يأتون على ذكر جوهر بن سكم ، ومن عادة ابن الأثير ألا يذكر مصادره وكذلك المقريزي لكن النويري ذكر مصدره بكل وضوح وهو كتاب «الجمع والبيان في أخبار المغرب والقيروان» لأب محمد عبد العزيز بن شداد بن الأمير تميم بن المعز بن

---

[1] البكري ، ص١٦٤-١٦٦ .

باديس ، وقد ذكر أبو محمد هذا «بسند يرفعه إلى القاضي أبي الحسن علي بن قنون ، قاضـي مراكش ، أن رجلاً من قبيلة جدالة من كبرائهم اسمه الجوهر أتى من الصحراء إلى بـلاد المغرب طالبا للحج» فالتقى بأبي عمران الفاسي «فلما حج وانصرف قصد المسـجد الـذي كان فيه الفقيه ، وسمع الكلام فيما تقتضيه ملة الإسلام من الفرائض والسـنن والأحكـام ، فقـال الجوهر : يا فقيه ما عندنا في الصحراء من هذا الذي تذكـرونه إلا الشهادتين في العامة ، والصلاة في بعض الخاصة ، فقال الفقيه : فاحمل معـك مـن يعلمهم عقائد ملتهم وكمال دينهم ، فقال له الجوهر : فابعث معي أحد الفقهـاء ، وعـلي حفظه وبره وإكرامه ، وكان للفقيه ابن أخ اسمه عمر ، فقال له : اذهب مع هذا السيد إلى الصحراء ، فعلم القبائل بها ما يجب عليهم من دين الإسلام ، ولك الثواب الجزيل من الله عز وجل ، والذكر الجميل من الناس ، فأجابه إلى ذلك ، فـلما أصبح عمر من الغد جاء إلى عمه فقال له : اعفني من الدخول إلى الصحراء فإن أهـلها جاهلـية ، وقـد ألفوا سيراً نشؤوا عليها ، فمتى نقلوا عنها قتلوا من أمرهم بخلافها، وكان من طلبة الفقيه رجل يقال له عبد الله بن ياسين الكزولي ، فرأى الفقيه وقـد عـز عليه مخالفة ابن أخيه فقال : يا فقيه أرسلني معه والله المعين ، فأرسله معه وتوجهـا إلى الصـحراء ، وكان عبد الله بن ياسين فقيهاً عالماً ورعاً ديناً شهماً قوي النفس حازماً ذا رأي وصبر وتدبير» .

فدخـل الجوهـر وعبد الله بن ياسين إلى الصحراء ، فانتهوا إلى قبيلة لمتونة ، وهـي على ربوة عالية ، فلما رأوها نزل الجوهر عن جمله ، وأخذ بزمام جمل عبد الله بـن ياسين تعظيماً لدين الإسلام ، فأقبلت أعيان لمتونة وأكابرهم للقاء الجوهر والسلام عليه ، فرأوه يقود الجمل فسألوه عنه فقال : «هو حامل سنة رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، قد جاء يعلم أهل الصحراء ما يلزمهم في دين الإسلام» . فرحبوا به وأنزلوه أكرم نزل .

ثم اجتمعت طائفة كبيرة من تلك القبيلة في محفل وفيهم أبو بكر بن عمر ، فقالوا : «تذكر أنا لنا ما أشرت إليه أنه يلزمنا ؟» فقص عليهم عبد الله عقائد الإسلام وقواعده وبين لهم حتى فهم ذلك أكثرهم ثم اقتضاهم الجواب ، فقالوا : أما ما ذكرته من الصلاة والزكاة فذلك قريب ، وأما قولك : من قتل يقتل ، ومن سرق يقطع ، ومن زنا يجلد ، فأمر لا نلتزمه ولا ندخل تحته اذهب إلى غيرنا .

فرحلا عنهم والجوهر الجدالي يجر زمام جمل عبد الله بن ياسين ... قال : وكان بالصحراء قبائل ... ، كل قبيلة قد حازت أرضاً تسرح فيها مواشيها ، ويحموها بسيوفهم ...

قال : وسار الجوهر حتى انتهى بعبد الله إلى قبيلة جدالة ، فخاطبهم عبد الله هم والقبائل المتصلة بهم ، فمنهم من سمع وأطاع ومنهم من أعرض وعصى ، ثم إن المخالفين لهم تحزبوا وانحازوا .

فقال عبد الله للذين قبلوا منه الإسلام : «قد وجب عليكم أن تقاتلوا هؤلاء الذين خالفوا الحق وأنكروا دين الإسلام ، فاستعدوا لقتالهم ، واجعلوا لكم حزباً ، وأقيموا لكم راية ، وقدموا لكم أميراً فقال له الجوهر : أنت الأمير ، فقال عبد الله : لا يمكنني هذا إنما أنا حامل أمانة الشرع ، أقص عليكم نصوصه وأبين لكم طريقه ، وأعرفكم سلوكه ، ولكن أنت الأمير » ، فقال الجوهر : لو فعلت هذا لتسلطت قبيلتي على الناس ولعاثوا في الصحراء ، ويكون وزر ذلك علي ، لا رأي لي في هذا ، فقال عبد الله : «فهذا أبو بكر بن عمر ، رأس لمتونة وكبيرها ، وهو رجل جليل القدر ، مشكور الحال ، محمود السيرة ، مطاع في قومه ، نسير إليه ونعرض تقدمة الإمرة عليه، فلحب الرياسة يستجيب إلى ذلك بنفسه ، ولمكان الجاه ستجتمع إليه طائفة من قبيلته نقوى بها على عدونا ، والله المستعان .

● ذكر ولاية أبي بكر بن عمر اللمتوني :

قال : فأتوا أبا بكر بن عمر فأجاب ، وعقدوا لـه راية وبايعوه بيعة الإسلام ، وتبعه زمرة من قومه ، وسماه عبد الله بن ياسين أمير المسلمين .

ورجعوا إلى جدالة وجمعوا إليهم من أمكن من الطوائف الذين حسن إسلامهم، ومن الأقوام الذين تآلفت قلوبهم ، وحرضهم عبد الله على الجهاد في سبيل الله ، وسماهم المرابطين . وتآلبت علهم أحزاب من الصحراء معاندين من أهل الشر والفساد، وجيشوا لمحاربتهم ، فلم ينجازوهم الحرب ولا بادروهم بلقاء بل تلطف عبد الله وأبو بكر في أمرهم ، واستمالوهم ،واستعانوا على أولئك الأشرار المفسدين بالمصلحين من قبائلهم يسبوهم قوماً بعد قوم بضروب من التوصل حتى حصلوا منهم تحت زرب عظيم وثيق ما ينيف على ألفي رجل من المفسدين وتركوهم فيه أياماً بغير طعام وهم يحفظون الزرب من سائر جهاته ، وقد خندقوا حوله ، ثم أخرجوهم قوماً بعد قوم،وقتلوهم عن آخرهم .

فحينئذ دانت لهم أكثر قبائل الصحراء وهابهم كل من فيها ، وقويت شوكة المرابطين ، هذا عبد الله بن ياسين يعلم الشريعة ويقرئ الكتاب والسنة ، حتى صار حوله فقهاء ، وكل من انقاد إلى الحق على طريق الورع والتقى والخشية لله والمراقبة ، فرتب له أوقاتاً للمواعظ والتذكير وإيراد الوعد والوعيد ، فاستقام منهم خلق كثير ، وخلصت عقائدهم وزكت نفوسهم ، وصفت قلوبهم .

● ذكر مقتل الجوهر الجدالي :

قال : «كان الجوهر أصح القوم عقيدة ، وأخلصهم لله ديناً ، وأكثرهم صوماً وتهجداً ، فلما استبد أبو بكر بالأمر دونه ، وعبد الله ينفذ الأمور بالسنة ، فصارت الدولة لهما ، وبقي الجوهر لا حكم له فداخله الحسد ، وأزله الشيطان ، فشرع في

إفســـاد الأمر سراً ، فعلم بذلك منه وعقد له مجلس ، فثبت عليه ما ذكر عنه ، فحكم عليه بالقتل لأنه نكث البيعة ، وشق العصا ، وهم بمحاربة أهل الحق ، فقال الجوهر : وأنـــا أيضـــاً أحب لقاء الله عز وجل حتى أرى ما عنده» . فاغتسل وصلى ركعتين، وتقدم طائعاً ، فضربت عنقه رحمه الله تعالى .

قـــال : وكثرت طائفة المرابطين ، تتبعوا المعاندين لهم من قبائل الصحراء بالقتل والنهـــب والســـبي إلا مـــن أســـلم منهم وسالم ، وبلغت الأخبار الفقيه بما جرى في الصحراء على يد ابن ياسين من سفك الدماء ونهب الأموال وسبي الحريم ، فعظم ذلك علـــيه واشمأز منه وندم على إرساله ، وكتب له في ذلك ، فأجابه عبد الله بن ياسين : أمـــا إنكـــارك عـــلي ما فعلت وندامتك على إرسالي ، فإنك أرسلتني إلى أمة كانت جاهلية ، يخرج أحدهم ابنه وابنته لرعي السوام فيعزبان في المرعى ، فتأتي المرأة حاملاً مـــن أخيها ولا ينكرون ذلك ، وليس دأبهم إلا إغارة بعضهم على بعض وقتل بعضهم لـــبعض ، ولا ديـــة لهـــم في الدماء ، ولا حرمة عندهم للحريم ، ولا توقي بينهم في الأمـــوال، فأخبرتهم بالمفروض عليهم والمسنون لهم والمحدود فيهم ، فمن قبل واليته ، ومن تولى أرديته ، وما تجاوزت حكم الله ولا تعدته والسلام» [1] .

إن نص ابن شداد هذا على درجة عالية في الأهمية ونقاط التوافق بينه وبين مادة البكري كبيرة ، فهما قد اتفقا على كون شخصية الجوهر شخصية تاريخية ، وعلى أنه كـــان أشـــبه بالفقهاء الأمر الذي أكده ابن الأثير بقوله : «وكان ـــ الجوهر ـــ محباً للديـــن [2] وأهلـــه» وكذلك اتفقا على حصول خلاف فيما بين الجوهر وابن ياسين وروى ابـــن الأثـــير أيضاً خبر إعدام الجوهر بعدما «بقي لا حكم له تداخله الحسد ، وشـــرع سرا في فساد الأمر ، فعلم بذلك منه ، وعقد له مجلس وثبت عليه ما نقل عنه

---

(١) نهاية الأرب ، ج٢٤ ، ط. القاهرة ١٩٨٣ ، ص٢٥٣-٢٥٩ .

(٢) الكامل لابن الأثير ـــ ط. القاهرة (مطبعة الاستقامة) ، ج٨ ، ص٧٤ .

فحكم عليه بالقتل ، لأنه نكس البيعة وشق العصا وأراد محاربة أهل الحق فقتل بعد أن صلى ركعتين»[1] .

ومن الواضح أن كلاً من ابن الأثير والنويري قد نهلا من المصدر نفسه ، وهكذا أوردا أن الجوهر بن سكم صحب معه عبد الله بن ياسين من القيروان ، نضيف إلى هذا أن التادلي حين ترجم لوجاج بن زلو أوضح أنه لحق بالفاسي إلى القيروان ، اسمعه يقول : «وجاج بن زلو اللمطي :

من أهل السوس الأقصى ، رحل إلى القيروان فأخذ عن أبي عمران الفاسي ، ثم عاد إلى السوس ، فبنى داراً سماها بدار المرابطين لطلبة العلم وقراءة القرآن ، وكان المصامدة يزورونه ويتبركون بدعائه»[2] .

لقد طارت شهرة ابن عمران الغفجومي أثناء إقامته بالقيروان ، وعلى هذا يرجح أن الطلبة قصدوه إليها ، وإنه لأمر مرجح أن يكون كل من عبد الله بن ياسين ووجاج بن زلو التقيا بالقيروان ، وهناك تعرفا إلى بعضهما في حضرة شيخهما الغفجومي ، وبناء عليه نرى أن صورة الأحداث ربما وقعت على الشكل التالي :

اصطحب الجوهر بن سكم معه عبد الله بن ياسين من القيروان إلى الصحراء وبعد شيء من النجاح اختلفا ، وهكذا أرغم ابن ياسين على الالتجاء إلى رباط وجاج بن زلو في السوس الأقصى في طرف الصحراء ، ومجدداً مر بالقيروان ركب جديد من حجاج الصحراء فيه ــ أو على رأسه ــ يحيى بن إبراهيم الجدالي ، وأن موضوع أوضاع الصحراء أثير من جديد ، وهكذا تم الاتفاق أن يمر هذا الأمير برباط وجاج ويصطحب معه عبد الله بن ياسين ، وهذا ما كان ، وعلى أساسه يمكن أن نفهم مسألة إعدام الجوهر بن سكم ، وكان عبد الله ابن ياسين كما رأينا من أهل

---

(١) الكامل ، ج٨ ، ص٧٥ .

(٢) التشوف إلى رجال التصوف التادمي ، ط. الرباط ١٩٥٨ ، ص٦٦ .

الصحراء، وكان قد رحل في سبيل طلب العلم حتى أنه زار الأندلس ومكث فيها سبع سـنوات [1] ، وكان أصله وتكون شخصيته وثقافته التي حصلها تؤهله أكثر من غيره للعمل في الصحراء ومن ثم النجاح .

وهناك خلاف كبير بين المصادر حول تاريخ هذه الحوادث ، ولا بد أنها حدثت قبل وفاة أبي عمران الفاسي في سنة ٤٣٠هـ ــ ١٠٣٩م وأميل هنا إلى الأخذ برواية صـاحب روض القرطاس حيث ذكر أن يحيى بن إبراهيم الجدالي توجه إلى الحج سنة سبع وعشرين وأربعمائة [2] ، وقد يكون لقيه في هذه السنة أو في السنة التالية .

في الصـحراء حقـق ابن ياسين برفقة الأمير الجدالي بعض النجاحات غير أن رجالات جدالة ما لبثوا أن أخذوا بالإعراض عنه ، وهنا فكر بالرحيل عنهم «إلى بلاد السـودان» [3] ، والسـؤال الذي لا بد من طرحه هنا لماذا إلى بلاد السودان ، وليس مجـدداً إلى بلاد رباط وأجاج بن زلو ؟ لعل السبب هو لجوءه قبل هذا إلى واجاج ثم تفكيره بالعودة إلى بلدته أو المناطق المجاورة لها ، لكن لماذا أعرض عنه الجداليون ، هل فقـط أنهم لمـا «رأوه قد شدد عليهم في ترك ما هم عليه من المنكرات تبرؤوا منه وهجروه ونافروه ، وثقل ذلك عليهم» [4] .

القضية أكبر من هذا ، كان مشروع عبد الله بن ياسين مشروعاً سياسياً ، وقف في سـبيله في المرحلة الأولى الفقيه جوهر بن سكم ، والآن بمعاونة الأمير الجدالي ، أو بالحـري أمير جدالة تخلص من الجوهر بإعدامه ، ولا بد أن رادت الفعل القاسية جداً على ذلك هي التي أرغمت ابن ياسين على قرار النُزوح ، لا بل أكثر من هذا أفقدت

---

(١) بيوتات فاس ، ص٢٨ .

(٢) روض القرطاس ، ص١٢٢ .

(٣) روض القرطاس ، ص١٢٤ .

(٤) روض القرطاس ، ص١٢٤ .

يحـيى بن إبراهيم سلطانه ومكانته ، فقد كان يحيى بن إبراهيم «على رئاسة صنهاجة وحروبهم مع أعدائهم» [١] .

وصـنهاجة كما سنرى كان اسم «الجد الجامع» لقبائل الصحراء خاصة جدالة ولمـتونة ، ولا يفقد الأمير سلطانه إلا بسبب كبير جداً ، ومن هنا لم يسمح يحيى بن إبراهـيم ولابن ياسين بالذهاب وتسمك به ووضع خطة يستطيع بوساطتها استعادة قـواه ومن ثم الانتقام مجدداً واسترداد سلطانه فقال لابن ياسين : «إن ها هنا في بلادنا جزيـرة في الـبحر ، إذا انحسر البحر دخلنا إليها على أقدامنا ، وإذا امتلأ دخلناها في الـزوارق ، وفـيها الحلال المحض الذي لا شك فيه من أشجار البرية وصيد البر ... فدخلاهـا ودخل معهما سبعة نفر من جدالة ، فابتنيا بها رابطة ، وأقام بها مع أصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة أشهر ، فتسامع مع الناس بأخبارهم ... فكثروا الوارد علـيهم ... فلم تمر عليهم أيام حتى اجتمع له من تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة فسماهم المرابطين للزومهم رابطته» [٢] .

ومعـروف أن تجـربة المـرابطة في الثغور تجربة مبكرة قامت منذ العصر الأموي وتركـزت أولاً على شواطئ البحر المتوسط الشامية ، ومن أشهر النماذج الأولى لها رباط بـيروت الـذي عاش فيه الإمام الأوزاعي ، وفي حياة الأوزاعي وعدد من أئمة الزهد في الإسلام مثل عبد الله بن المبارك وعلاقاتهم مع السلطات بعض التعليل لنمو حركة المرابطة وتطويرها وتنظيمها حيث غدا الرباط مؤسسة عسكرية فقهية ، لـه مقوماته وأدواره في جمـع المجـالات حتى الاقتصادية منها ، فالفقهاء والصلحاء فروا من التعامل مع السلطان وأخذوا بقوله تعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكـم تفلحون﴾ [٣] .

---

[١] روض القرطاس ، ص١٢٢ .

[٢] روض القرطاس ، ص١٢٤-١٢٥ .

[٣] سورة آل عمران ، الآية : ١٩٩ .

ومن سواحل الشام انتقلت تجربة الرباط إلى شواطئ أفريقية وهناك تطورت تطوراً عجيباً وشغلت أوسع الأدوار [1] وظلت كذلك حتى قيام الخلافة الفاطمية والقضاء على حكم الأغالبة وتأسيس مدينة المهدية ، فقد سدد هذا ضربة موجعة للرباط المتوسطي وبالتالي أدى إلى انتقال التجربة إلى سواحل الأطلسي وإلى داخل الأراضي المغربية ، ومنذ هذا التاريخ شغل الرباط أهم الأدوار في إقامة الدول والحكومات وإسقاطها ، فقد أقام رباط عبد الله بن ياسين دولة الرباط ، وكان لرباط تينملل الدور الحاسم في إسقاط دولة الرباط وإقامة الدولة الموحدية ، وهكذا من رباط إلى آخر ومن دولة إلى أخرى حتى رباط درعة سجلماسة وإقامة دولة الأشراف العلويين الحاكمة الآن في المغرب .

وتباينت الآراء والروايات حول تحديد موقع رباط بن ياسين ، وأقرب ما روي إلى القبول ما ذكره ابن خلدون ، حيث يستخلص أن ذلك كان قرب مصب نهر السنغال [2] .

واستبعد بناء رباط محصن عسكرياً ، فعدد الذين جاؤوا إلى الموقع أولاً كان ضئيلاً وكانوا جميعاً من بداة الصحراء بلا تجربة أو خبرة بأعمال البناء ، ولعل الأمر لم يستعد نوعاً من أنواع المعسكرات أو المخيمات المؤقتة فيها خضع الملتحقون لبعض التدريبات خاصة في المجالات التثقيفية الدينية ، طبعاً حسب مذهب الإمام مالك ، ولعل دروس الوعظ كانت بالبربرية مع شيء من العربية ، وخلال عدة أشهر اجتمع لابن ياسين حوالي الألف وهنا شعر مجدداً بالقوة والقدرة على التحرك ، إنما لم يلجأ هذه المرة إلى استخدام السلاح مباشرة ، فقام في أصحابه «وقال لهم : يا معشر

---

[1] في كتاب رياض النفوس للمالكي مادة ممتازة حول الحياة في الأربطة أحسن استغلالها وعرضها المرحوم حسن حسني عبد الوهاب في كتابه أوراق .

[2] ابن خلدون ، ج٦ ، ص٣٧٤ .

المرابطين إنكم جمع كثير ، وأنتم جم كبير ، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم ، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأمروا بالمعروف ، وتنهوا عن المنكر ، وتجاهدوا في سبيل الله حق جهاده، فقالوا : أيها الشيخ المبارك مرنا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين ، ولو أمرتنا بقتال آبائنا لفعلنا ، فقال لهم : اخرجوا على بركة الله ، وأنذروا قومكم ، وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته ، فإن تابوا ورجعوا إلى الحق وأقلعوا عما هم عليه فخلوا سبيلهم ، وإن أبوا من ذلك وتمادوا في غيهم ولجوا في طغيانهم استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته ، فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الإقلاع عما هم بسبيله ، فلم يكن منهم من يقبل يرجع ، فخرج إليهم عبد الله بن ياسين ، فجمع أشياخ القبائل ورؤساءهم ، وقرأ عليهم حجة الله ودعاهم إلى التوبة ، وخوفهم عقاب الله ، فأقام يحذرهم سبعة أيام ، وهم في كل ذلك لا يلتفتون إلى قوله ولا يزدادون إلا فساداً ، فلما يئس منهم قال لأصحابه : قد أبلغنا الحجة وأنذرنا ، وقد وجب علينا جهادهم فأغزوهم على بركة الله» [1] .

وبلغ الآن تعداد أتباع ابن ياسين ثلاثة آلاف مقاتل فغزا بهم أولا قبيلة جدالة ، فهزمهما وأوقع بين صفوفها إصابات كبيرة جداً ، ثم التفت إلى قبيلة لمتونة فأذعنت له وكذلك فعل بقبيلة مسوفة وغيرها من قبائل الصحراء ، وتضاعف عدد أتباع ابن ياسين وملك الأموال ، واتخذ بيت مال «أخذ يركب منه الجيوش ويشتري السلاح ، ويغزو القبائل حتى ملك جميع بلاد الصحراء واستولى على قبائلها» [2] .

وأرسل عبد الله بن ياسين «بمال عظيم مما اجتمع عنده من الزكاة والأعشار

---

[1] روض القرطاس ، ص١٢٥-١٢٦ .

[2] روض قرطاس ، ص١٢٦ .

والأخمـــاس إلى طلبة بلاد المصامدة وقضاتها» [١] . وفي عمله هذا مؤشر على تطلعاته المستقبلية في التوجه نحو المغرب الأقصى ، فقد حال بينه في الصحراء وأراضي المغرب الأقصى جبال الأطلس الكبير (درن) حيث توطنت خلفه قبائل مصمودة ، وكان شراء رضـــاء مصـــمودة أمـــراً استراتيجياً ، وفي مستقبل الأيام أحسن المهدي بن تومرت استغلال عامل الجغرافيا هذا مع انعكاساته في سبيل إسقاط دولة المرابطين .

ويقتضي هذا منا وقفة نتأمل فيها أوضاع بلاد الصحراء ، مسرح العمليات التي أتينا على ذكرها ، ولنتعرف على الأوضاع القبلية هناك والاجتماعية .

بـــلاد الصـــحراء الـــتي شهدت حركة المرابطين هي اليوم إقليم المقفر ، قليل الســـكان، وذلك بعدما قضى الاستعمال على العمران الموروث الذي كان فيه ، وهذا الإقليم موزع اليوم بين المملكة المغربية وموريتانيا ومالي وغانة مع معظم النيجر ، وقد عاش في هذا الإقليم مجموعة من القبائل ، ووجدت فيه بعض المدن والواحات ومراكز العمران ومحطات القوافل [٢] .

وانتمـــت قبائل الصحراء إلى جد قبلي كبير عرف باسم صنهاجة ، واعتقدت صـــنهاجة أنها من أصل عربي من قبائل حمير اليمن ، وحتى يومنا هذا ما يزال المنتمون إلـــيها يستخدمون لغة خاصة بهم اسمها الحسانية ، يرون أنها لغة حمير لما قبل الإسلام ، وأطلـــق على قبائل صنهاجة اسم «قبائل الملثمين» لأن من عادة كل واحد من الرجال وضـــع لـــثام عـــلى وجهه لا يرفعه مطلقاً ، ومع أن عادة اللثام نشأت ـــ كما هو مـــرجح ـــ عـــن طبـــيعة الحياة في الصحراء ، غير أن الصنهاجيين تمسكوا بها تقليداً وأعطوها مسحة تقديس ، وتصدر قبائل صنهاجة : لمتونة وجدالة ومسوفة ، ومسراته،

---

(١) روض القرطاس ، ص١٢٦ .

(٢) انظر محمد عبد الهادي شعيرة ـــ المرابطون ـــ ط. القاهرة ١٩٦٩ ، ص١٥-١٦ . الحبيب الجناحي ـــ المغرب الإسلامي ـــ الحياة الاقتصادية والاجتماعية ـــ ط. تونس ١٩٧٨ ، ص١٤٣-٢١٧ .

ومداسة وبنو وارث [1] .

وتحدث الشريف الإدريسي عن قبائل لمتونة بقوله : «وهم أصحاب إبل ونجب عتاق رحاله ولا يقيمون بمكان واحد ، ولباس الرجال منهم والنساء أكسية الصوف ، ويربطون على رؤوسهم عمائم الصوف المسماة بالكرازي ، وعيشهم من ألبان الإبل ولحومها مقددة مطحونة وربما جلبت إليهم الحنطة والزبيب ، لكن الزبيب أكثر ، لأنهم كثيراً ما ينقعون الزبيب في الماء بعد الدق ويشربون صفوه نقيعاً حلواً : وفي بلادهم العسل كثير ، وجل طعامهم وأحفله الطعام المسمى بالبربرية أسلوا ، وهو أنهم يأخذون الحنطة فيقلونها قلياً معتدلاً ، ثم يدقونها حتى تعود جريشاً ، ثم يمزجون العسل بمثله سمناً ويعجنون به تلك الحنطة على النار ويضعونه في مزاود لهم ، فيأتي طعاماً شهياً، وذلك أن الإنسان منهم إذا أخذ من هذا الطعام ملء كفه وأكله وشرب عليه اللبن ، ثم مشى بقية يومه لم يشته طعاماً إلى الليل ، وليس لهم مدينة يأوون إليها إلا مدينة نول لمطة ... وبهذه المدينة تصنع الدرق اللمطية التي لا شيء أبدع منها ولا أصلب منها ظهراً ، ولا أحسن منها صنعاً ، وبها يقاتل أهل المغرب لحصانتها وخفة محملها . وبهذه المدينة قوم يصنعون السروج واللجم والأقتاب المعدة لخدمة الإبل ، وتباع بها الأكيسة [2] على هذا كان بداة لمتونة بعيدين عن أسباب المدينة إلى حد أنهم لم يعرفوا صناعة الخبز ، وكانوا جمالة ، لم يبرعوا في استخدام الخيول والصناعات التي وجدت في مدينتهم الرئيسية قد ارتبطت بتقديم الخدمات الأساسية البسيطة للبداة .

---

[1] الشريف الإدريسي ــ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق ــ ط. القاهرة ، مكتبة الثقافة الدينية ، ج١ ، ص٢٢٣ . البكري : ص١٦٤ . الحلل الموشية : ص١٧ . ابن خلدون : ج٦ ، ص٣٧٠-٣٧١ . الاستقصا للناصري : ج٢ ، ص٣ . عبد الوهاب بن منصور ــ قبائل المغرب ــ ط. الرباط ١٩٦٨ ، ص٣٢٨-٣٣٥ .

[2] نزهة المشتاق ، ج١ ، ص٢٢٤-٢٢٥ .

وأوفى من وصف الإدريسي ما أودعه البكري في كتابه المسالك والممالك حيث ذكر أن «لمتونة ظواعن عن رحالة في الصحراء مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام ، ويصيفون في موضع يسمى أمطلوس وآخر يسمى تاليوين ، وهم إلى بلاد السودان أقرب ... وليس يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا خبزاً ، إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن ، ينفد عمر أحدهم وما رأى خبزاً ولا أكله إلا أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق ، وهم على السنة يجاهدون للسودان ... وخلف بني لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى بني جدالة ، وهم يجاورون البحر ، ليس بينهم وبينه أحد ... ولهم ـ لمتونة ـ في قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم ، وهم يختارون الموت على الانهزام ، ولا يحفظ لهم فرار من زحف ، وهم يقاتلون على الخيل والنجب وأكثر قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم ، وهم يختارون الموت على الانهزام ، ولا يحفظ لهم فرار من زحف ، وهم يقاتلون على الخيل والنجب وأكثر قتالهم رجالة صفوفاً بأيدي الصف الأول القني الطوال للمداعسة والطعان ، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق ، يحمل الرجل الواحد منها عدة يرزقها فلا يكاد يخطئ ، ولا يشوى ، ولهم رجل قد قدموه أمام الصف بيده الراية ، فهم يقفون ما وقفت منتصبة ، وإن آمالها إلى الأرض جلسوا جميعاً، فكانوا أثبت من الهضاب ومن فر أمامهم لم يتبعوه» [1] .

وأجمعت المصادر التي تحدثت عن الجانب العسكر لدى قبائل الملثمين على الحديث عن الدرق اللمطية ، ووصف أبو عبد الله محمد الزهري هذه الدرق في كتابة الجغرافية بقوله : «وهذه الدرق من أعجب ما يكون ، وذلك أنه إذا

[1] البكري ، ص١٦٤-١٦٦ .

ضـــرب فـــيها بـــرمح، أو سيف أو سهم وتبخش منها موضع بقيت بعد ذلك يسيراً ، فتفـــتش فـــلا يوجـــد فـــيه أثـــر ألا رجع صحيحاً كما كان وهذه الدرق تهدى لملوك المغرب والأندلس .

والـــلمط حـــيوان عـــلى قدر العجل أو أقل منه ، طويل العنق ، رأسه كرأس الأشـــكر ، له أذنان كأذني المعز ، في رأسه قرون طوال سود أو مزوقة الخلقة خارجة مـــن يافوخـــه راجعة إلى خلفه ، تبلغ إلى كفله ، ولا يوجد إلا في هذا الصقع ، ومن جلده تصنع الدرق اللمطية ، وإنما سميت بهذا الاسم لأنها نسبت إليه» [١] .

ووصـــل الإســـلام إلى الصحراء منذ أيام الفتوحات ، ومع الأيام ازداد تسربه وانتشـــاره وعمـــق الأخذ به ، وكأن لتأسيس النواة الأولى لمدينة فاس ، ثم قيام دولة الأدارسة واسع الآثار على تعاظم انتشار الإسلام ، ومن الملاحظ في تتبع تاريخ انتشار الإســـلام والـــثقافة العربية في بلدان أفريقيا خاصة الشمال الأفريقي أن القيروان بعد تأسيسها قامت بالدور القيادي بالنسبة للدين الإسلامي والثقافة العربية ، إنما مع سعة الانتشـــار قامت مدينة فاس ، بعدما تأسس فيها جامع القرويين بدور الوارث الكبير لنشاط القيروان ، وبعد تأسيس مراكش شاركت هذه فاس في حمل أعباء العمل الثقافي والديـــني ، ثم كـــان أن قامت شنقيط أيضا بالمشاركة بشكل قيادي فعال ، لكن دور شنقيط عطله الاستعمار الأوروبي .

ومـــنذ ما قبل قيام الخلافة الفاطمية وجد على أطراف الصحراء وفي قلبها عدة مراكـــز حضارية ، كان أهمها سجلماسة ، فلقد شابهت هذه المدينة بنفوذها التجاري وحـــتى السياســـي عـــلى سكان الصحراء مكة ما قبل الإسلام بالنسبة لشبه جزيرة

---

[١] أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الزهري ، كتاب الجغرافية (نشر في دورية المعهد الفرنسي بدمشق العدد ٢١ سنة ١٩٦٨) ، ص١٨٩ .

العــرب [1] ومــع سجلماســة وإلى الجنوب منها عند أطراف الصحراء مع السودان (أفريقــيا الســوداء) قامت مكة أخرى هي أودغشت التي ارتبط ازدهارها «بازدهار سجلماســة ، فقــد كانــت تمثل محط رجال قوافل التجارة الكبرى بين سجلماسة باعتــبارها آخــر مدينة مغربية في اتجاه الجنوب وبلاد غانة ، هدف القوافل التجارية لــتوريد الذهــب والرقيق ، ولكنها لم تكن محط رحال القوافل لمجرد الاستراحة ، ثم مواصــلة الســير ، فذلك أمر لا يكفي لخلق حركة تجارية دائبة وازدهار عمراني ، بل كان سوقها نقطة لقاء يغير فيها تجار قوافل الشمال بضائعهم المستوردة إلى أودغشت من بلاد غانة ولا سيما الذهب» [2] ومع الذهب الملح ، وربما أيضاً الرقيق .

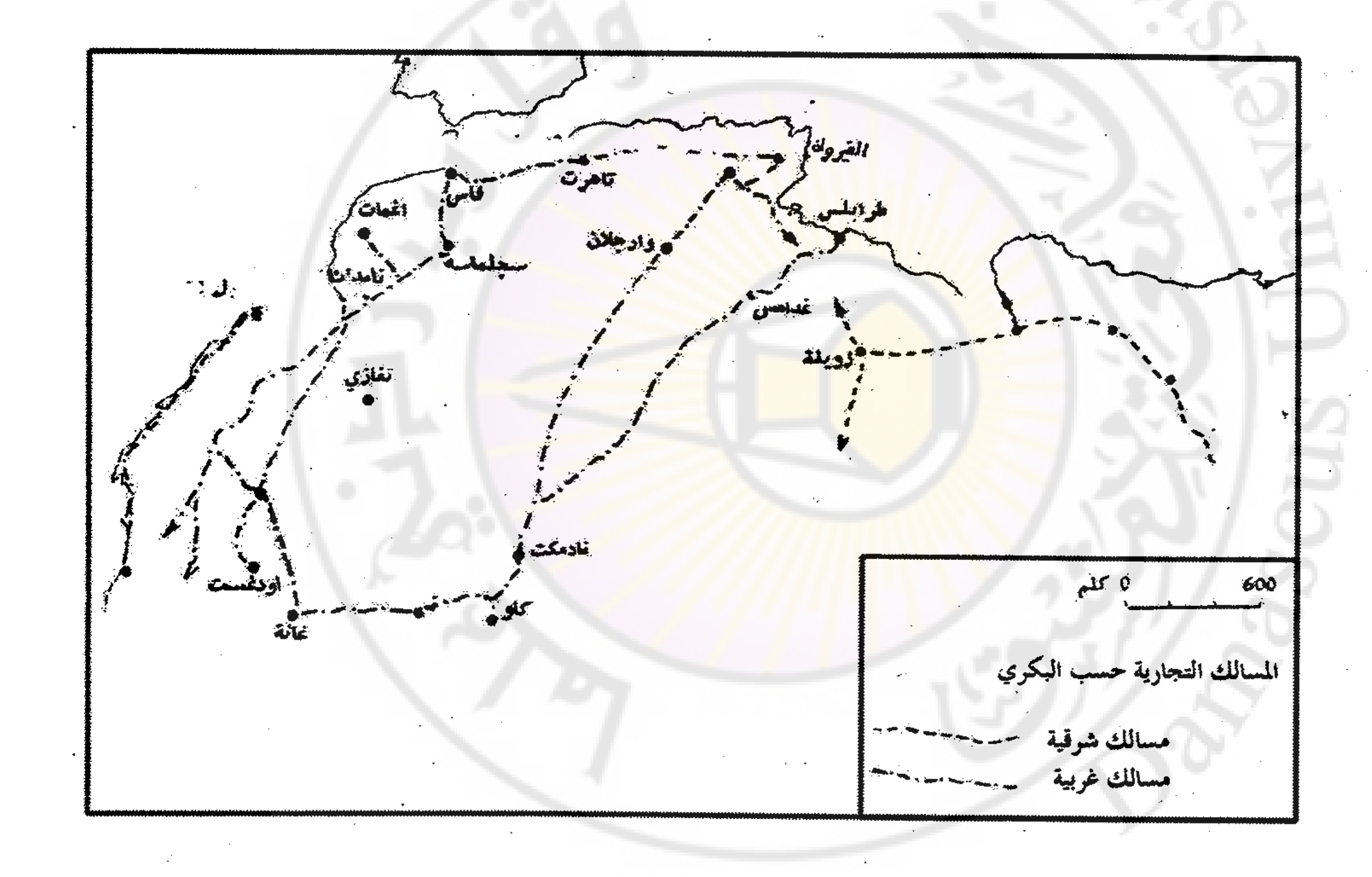
وعدت مدينة أودغشت مدينة لمتونية ، وقد شبدت أودغشت مع تجارة الذهب قبــيلة لمــتونة نحــو الســودان ، وهكذا ارتبط التاريخ المبكر لهذه القبيلة بالصحراء والسودان، وظل مرتبطاً حتى بعد قيام دولة المرابطين وتأسيس مدينة مراكش .

● ● ●

---

[1] من المفيد العودة إلى دراسة ماك كول حول «الروايات التاريخية عن تأسيس سجلماسة وغانة» ترجمة عربية ، ط. الدار البيضاء ١٣٩٥ . المغرب العربي للحبيب الجنحاني ــ ص١٤٣-١٩٠ .

[2] المغرب العربي للجنحاني ، ص١٩٣-١٩٤ .



القيروان
طرابلس
تاهرت
فاس
اغمات
سجلماسة
وارجلان
غدامس
زويلة
تغازي
تادمكت
أودغست
غانة
600 0 كلم
المسالك التجارية حسب البكري
مسالك شرقية
مسالك غربية

وسكن الملثمون داخل المدينة في بيوت بسيطة من الحجارة والطين أو داخل أكواخ من الخوص والشجر أو في خيم من الشعر والوبر ، وكان أثاث البيوت مثله مثل ألبسة الناس من الصوف ، وكان للمرأة بين الملثمين مكانة سامية ، وعدت أحياناً مساوية للرجل ، واقتنت الثروات وتمتعت بنفوذ كبير ، ولم يباشر النسوة الأعمال المنزلية حيث قام بها العبيد ، وسيمر بنا خبر زينب النفزاوية زوجة يوسف بن تاشفين ومكانتها لديه ، وصدوره عن رأيها ومشورتها وانقسم مجتمع كل قبيلة أو عشيرة إلى فئتين اجتماعيتين امتازتا عن بعضهما : السادة والأمجاد أو الرقيق ، ورست مقاليد الأمور والرساميل التجارية وقيادة الجيوش بأيدي السادة ، وكان الأمجاد لا يباعون ولا يعتقون ولكن يورثون ، ويقومون بمختلف الوظائف مثل رعي وأعمال يدوية ، ولهم الحق بالكسب وامتلاك الثروات شريطة دفعهم لنصيب محدود منها لسادتهم .

وكان الملثمون بشكل عام طوال القامة ، فيهم رشاقة ، لهم وجوه سمراء ، لا يمشي الرجل منهم بدون سلاح وقد يحمل رمحين قصيرين لكل منهما سنان طويل مشحوذ من فولاذ جيد [1] .

وقد قرأنا في صفحات تقدمت أخبار انطلاق عبد الله بن ياسين ومعه الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي ، وإخضاعهما لقبيلة جدالة ثم قبائل لمتونة داخل الصحراء ، وطارت شهرة حركة المرابطين ونجاحات رجالها وعمت الأخبار «في جميع بلاد الصحراء وبلاد القبلة ، وبلاد المصامدة وسائر بلاد المغرب ، وإنه قام رجل بجدالة يدعو إلى الله وإلى طريق مستقيم ، ويحكم بما أنزل الله ، وإنه متواضع زاهد في الدنيا ، واشتهر ذلك ببلاد السودان» [2] وفي هذه الأثناء توفي يحيى بن إبراهيم الجدالي ،

---

(١) الإدريسي ، ص٢٢٦ . عصمت عبد اللطيف دندش ـ دور المرابطين في نشر الإسلام في غرب أفريقيا ـ ط. بيروت ١٩٨٨ ، ص٣٢-٣٦ .

(٢) روض القرطاس ، ص١٢٦ .

ويــرجح أن ذلــك كان سنة ٤٤٠هــ ١٠٤٨م وهنا عقد عبد الله بن ياسين مؤتمراً لمقدمــي المرابطين وأقدم على إختيار الأمير اللمتوني يحيى بن عمر اللمتوني ، ودلل عبد الله بــن ياسين بقراره هذا على أنه ملك بصيرة تاريخية ، ولعل علاقاته المتقدمة ، مع قبيلة جدالة ، وقدرات قبيلة لمتونة ، ولأنها كانت «أكثر قبائل صنهاجة طاعة لله تعالى وديــناً وصــلاحاً ، فكان عبد الله بن ياسين يكرمهم ويشرفهم ويقدمهم على قبائل صنهاجة ، وذلك لما أراد الله من ظهور أمرهم وتملكهم على المغرب والأندلس» [١] .

«وكان يحيى بن عمر أشد الناس انقياداً لعبد الله بن ياسين وامتثالاً لما يأمره به ، ولقــد حــدث جماعة أن عد الله قال له في بعض تلك الحروب : أيها الأمير إن عليك حقــا أدبا ، فقال له يحيى : ما الذي أوجبه علي ؟ قال عبد الله : إني لا أخبرك به حتى أؤدبك وآخذ حق الله منك ، فطاع له الأمير بذلك وحكمه في بشرته ، فضربه الفقيه ضــربات بالسوط ، ثم قال له : الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة عسكره وهلاكه هلاكهم» [٢] .

وعلى هذا كان «عبد الله بن ياسين هو الأمير على الحقيقة ، لأنه هو الذي يأمر وينهي ويعطي ويأخذ» [٣] .

ويــروى أن عبد الله بن ياسين تلقى مع الأمير الجديد رسائل من بعض مناطق الصحراء ، وخاصة من أهالي سجلماسة ، تشكو سوء الأوضاع وظلم الحكام ، بالتالي تدعــو المرابطين ليتولوا أعمال الإنقاذ ، ويبدو أن هذه الدعوات لاقت هوى في نفوس قــادة المرابطين لكن يستخلص من مواد البكري أن مدينة أودغشت خضعت في هذه الآونــة لملك غانة السوداني ، ورأينا من قبل أن هذه المدينة عدت مدينة لمتونة ، ولعل

---

[١] روض القرطاس : ص١٢٦ ، أعمال الأعلام ، ص٢٢٨ .

[٢] البكري ، ص١٦٦-١٦٧ .

[٣] روض القرطاس ، ص١٢٧ .

لمـــتونة فقدت هذه المدينة في مجرى أحداث الصحراء ودخول لمتونة تحت ظل عبد الله بـــن ياســـين ، لهـــذا آثرت القوات المرابطية التوجه أولاً نحو أودغشت لاستردادها ، ويرجح أن هذا كان سنة ٤٤٦هـــ ـــ ١٠٥٤م ، وتم الاستيلاء على أودغشت عنوة، ونهبـــت ، واستباح «المرابطون حريمها ، وجعلوا جميع ما أصابوا فيها فيئاً» وإثر هذا بـــدأت تفقد أهميتها الاقتصادية ليس فقط نتيجة لما لحقها من دمار إنما بسبب التحول الـــذي ألم بطرق التجارة ومسالكها لا سيما بعد تأسيس مدينة مراكش وتأسيس دولة المرابطين والاستيلاء على الأندلس [1] .

ولم تحسم معركة أودغشت مسألة الصراع مع السودان ، أو ما عرف آنذاك باسم غانـــة ، وظلـــت هذه الجبهة مشتعلة تستحوذ على قسط وافر من الإمكانات العسكرية لقبـــيلة لمـــتونة ، وسيكون لهذا الجانب مع جانب استيلاء المرابطين على المغرب الأقصى وأجـــزاء من المغرب ثم الأندلس أبعد الآثار على تحديد مصير الدولة المرابطية ، ولا أقصد هـــنا الجوانـــب الاجتماعية والاقتصادية والحضارية العامة ، بل أعني الطاقة البشرية ، فقد غـــدت طاقـــة لمـــتونة أدنى مـــن أن تفي بمتطلبات الصحراء وجبهتها والدولة المرابطية واتساعها، ولنتذكر في هذا المقام ما قدمه ابن خلدون في مقدمته حول عصبية الدولة .

والـــذي يعنينا الآن هو أن عبد الله بن ياسين بعدما فرغ من شؤون أودغشت بات بإمكانه الالتفات نحو سجلماسة .

إن بقايـــا أودغشت موجودة في موريتانيا وبقايا سجلماسة في المملكة لمغربية في إقليم تافللت أو الراشدية ، وكانت سجلماسة تحكم من قبل قبيلة زناتة واسم حاكمها مســـعود بـــن وانوديـــن المغـــراوي ، ولم يكن حكمه يحظى بالقبول من قبل علماء سجلماســـة والصـــلحاء فـــيها ، وهكذا اجتمع سنة ٤٤٧هـــ ـــ ١٠٥٥م «فقهاء

---

[1] البكري ، ص١٩٦٨ ، الجنحاني ، ص٢٠٢-٢٠٣ ، روض القرطاس ، ص١٢٧ .

سجلماسة وفقهاء درعة وصلحاؤهم فكتبوا إلى الفقيه عبد الله بن ياسين وإلى الأمير يحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتاباً يرغبون منهم الوصول لبلادهم ليطهروها مما هي فيه من المنكرات وشدة العسف والجور ، وعرفوهم بما هم فيه بها أهل العلم الدين وسائر المسلمين من الذل والصغار والجور مع أميرهم مسعود بن وانودين الزناتي المغراوي .

فلما وصل الكتاب لعبد الله بن ياسين ، جمع رؤساء المرابطين ، وقرأ عليهم الكتاب وشاورهم في الأمر ، فقالوا له : أيها الشيخ الفقيه هذا مما يلزمنا ويلزمك ، فسر بنا على بركة الله تعالى ، فأمرهم بالجهاز ، وخرج بهم في الموفي عشرين لصفر سنة سبع وأربعين وأربعمائة (٢١ أيار ١٠٥٥م) في جيش عظيم من المرابطين ، فسار حتى وصل بلاد درعة ، فوجد عامل أمير سجلماسة فأخرجه عنها ووجد بها خمسين ألف ناقة كانت بها في مراعيها لصاحب سجلماسة مسعود المغراوي ، فعلم الأمير مسعود بذلك ، فجمع جيوشه وخرج نحوهم ، فالتقى الجمعان ، فكانت بينهم حروب عظيمة منح الله تعالى المرابطين فيها النصر على مغراوة ، فقتل مسعود بن وانودين المغراوي وأكثر جيوشه وفر الباقون ، فأخذ عبد الله بن ياسين أموالهم ودوابهم وأسلحتهم مع الإبل التي أخذت في درعة ، فأخرج منها خمس جميعه ففرقه في فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائها ، وقسم الباقي على المرابطين . وارتحل من فوره حتى هدمها وأصلح أحوالها ، وغير ما وجد بها من المنكرات ، وقطع المزامير ، وأحرق الديار التي كانت تباع بها الخمر ، وأزال المكوس ، وأسقط المغارم المخزنية ، وترك ما أوجب الكتاب والسنة تركه ، وقدم عليها عاملاً من لمتونة وانصرف إلى الصحراء»[1] .

---

[1] روض القرطاس : ص١٢٧-١٢٨ . أعمال الأعلام : ص٢٢٩ . البكري : ص١٦٧ . البيان المغرب : ج٤ ، ص١٣ . ابن الأثير : ج٨ ، ص٧٥ . نهاية الأرب : ج٤ ، ص٢٦٠ . الحلل الموشية : ص٢٢ . بيوتات فاس الكبرى : ص٢٩ . ابن خلدون : ج٦ ، ص٣٧٥ .

وبعدما انتهى عبد الله بن ياسين من مهامه في سجلماسة غادرها عائداً إلى الصحراء ، غير أن أهل سجلماسة ما لبث أن وجدوا أن حكامهم من بداة لمتونة أشد قسوة وخشونة ممن تقدمهم ، فشعروا بالخيبة والندم ، وعقدوا العزم على استعادة استقلالهم ، وشجعهم على هذا أن قبيلة زناتة أعادت جمع قواها ، وأن عبد الله بن ياسين يعاني من مشاكل كثيرة مع قبيلة جدالة ومع اللمتونيين ، وهكذا ثارت سجلماسة وتم الفتك بالحامية المرابطية فيها .

ولما عرف ابن ياسين بما جرى في سجلماسة قرر استعادتها بأي ثمن ، فندب «المرابطين إلى غزو زناتة ثانية فأبوا عليه ، وخالف عليه بنو جدالة وذهبوا إلى ساحل البحر ، فأمر عبد الله الأمير يحيى أن يتحصن بجبل لمتونة ، وهو جبل منيع كثير الماء والكلأ ، في طوله ستة أيام وفي عرضه مسافة يوم ، وهناك حصن أزقي حوله نحو عشرين ألف نخلة ، وكان بناه يانوا بن عمر الحاج أخو يحيى بن عمر ، فصار يحيى في جبل لمتونة ، وذهب عبد الله بن ياسين إلى سجلماسة في مئتي رجل من قبائل صنهاجة، ونزل موضعاً يقال له تامدولت ، حصن فيه مياه ونخل كثير» [1] .

ومن موقعه الحصين استطاع ابن ياسين أن يجمع جيشاً من قبائل الملثمين سرطة وترغة كما أنه استدعى إليه الأمير أبو بكر بن عمر ، وهو أخو يحيى بن عمر ، وكان معسكراً في درعة ، وهذا امتلك ما يكفي من القوات لاسترداد مدينة سجلماسة، وهكذا توطد سلطان المرابطين في إقليم الواحات ، وعين ابن ياسين يوسف بن تاشفين والياً على سجلماسة ، «ولما ولي يوسف بن تاشفين أحسن إلى الرعية واقتصر منهم على الزكاة» [2] .

وفي الوقت الذي كان ابن ياسين فيه في سجلماسة كانت قبيلة جدالة قد

---

[1] البكري ، ص١٦٧ .

[2] النويري ، ج٢٤ ، ص٢٦١ ، البكري ، ١٦٧ .

جمعــت قواهـــا وأرادت اغتنام الفرصة فعادت نحو «يحيى بن عمر فحاصروه في الجبل وذلك سنة ثمان وأربعين وهم في نحو ثلاثين ألفاً» وقاوم يحيى بن عمر جدالة ، غير أنه عبثاً فعل ، حيث قتل «وقتل معه بشر كثير» [1] .

وأمـــام الوضـــع الجديد عين عبد الله بن ياسين أبا بكر بن عمر خلفاً لأخيه ، وســعى للانتقام من جدالة ثم للخروج من الصحراء لقتال برغواطة ، تنفيذاً لوصية أبي عمران الغفجومي ، ويرجح أن سجلماسة باتت الآن حاضرة مؤقتة للمرابطين أو لنقل دولة المرابطين الناشئة فقد وصلنا ديناران ضربا في سجلماسة ويحملان اسم الأمير أبي بكر بن عمر ، وتاريخ الأول منهما سنة (٤٥٠هـــ) والثاني (٤٥٦هـــ) ، ونعرف مما جـــاء عـــلى الدينارين أن الدولة الجديدة التي قامت الآن في سجلماسة أعلنت الولاء للخلافة العباسية في بغداد [2] .

وازداد تعداد القوات المرابطية ، ووجدت القيادة الموزعة مابين أبي بكر بن عمر وعـــبد الله بن ياسين من الضرورة بمكان الخروج من الصحراء إلى الأراضي المغربية ، وهكـــذا تورطـــت الحـــركة المرابطـــية في حمأة ما دخلته جميع الثورات والحركات الإصـــلاحية وســـواها في الإسلام بتوجيه إمكاناتها نحو داخل أرض الإسلام ، وبسط ســـلطانها عـــلى المســـلمين ، وقـــد يرى بعض الباحثين نوعاً من الاستثناء في تاريخ المرابطين، حيث سنجد فيما سنرويه بعد قليل انشطار القوات المرابطية ، وعودة قسم كبير منها إلى الصحراء بقيادة أبي بكر بن عمر ، لكن أبا بكر عاد لغايات دفاعية عاد للدفـــاع عـــن الصحراء ضد السودان ، وليس للتوسع في بلادهم ، ذلك أنه اتخذ من الصحراء مقراً له ، ومن سجلماسة عاصمة ، وقد تكرس هذا بعد بناء مدينة مراكش ،

---

[1] البكري ، ص١٦٧-١٦٨ .

[2] صـــالح بـــن قربة، المسكوكات المغربية من الفتح الإسلامي إلى سقوط دولة بني حماد ، ط. الجزائر ١٩٨٦ ، ص٥٣٥-٥٣٨ .

وفي الصحراء مات أبو بكر بن عمر فخلفه في سجلماسة ابنه إبراهيم ، فقد وصلنا من دنانير إبراهيم دينار ضرب في سجلماسة سنة ٤٦٢هـ ـ ١٠٦٩م [1] .

وكانت مسوغات الخروج من الصحراء إلى المغرب القتال ضد زناتة وضد برغواطة وبعض القوى المتطرفة الأخرى ، وإزالة الفوضى والظلم ، والسيطرة على المناطق الساحلية لمزيد من التحكم بالتجارة الخارجية وعجل باتخاذ قرار الخروج تعرض الصحراء للجفاف ، روى النويري عن ابن شداد قوله : «وفي سنة خمسين وأربعمائة قحطت بلاد الملثمين ، وماتت مواشيهم ولقوا شدة عظيمة ، فأمر عبد الله ضعفاءهم بالخروج إلى السوس الأقصى وأخذ الزكاة ، فخرجوا وقالوا : نحن مرابطون خرجنا إليكم من الصحراء نطلب حق الله من أموالكم ، فجمعوا لهم شيئاً له بال ، فرجعوا به إلى الصحراء ثم ضاقت الصحراء بالمرابطين لشظفها وكثرتهم ، فطلبوا إظهار كلمة الحق ، فخرجوا إلى السوس الأقصى ، فتسامع بهم أهل البلاد فاجتمعوا وجيشوا وخرجوا لقتالهم» [2] .

لقد اصطدم المرابطون أولاً ببعض قوات مصمودة ، لكن هدفهم كان إقليم تامسنا المغربي حيث وجدت دولة برغواطة ، وبرغواطة بالأصل من قبائل المصامدة ، وقامت دولة برغواطة على أساس ديني مزج بين بقايا الوثنية لما قبل الإسلام لدى البربر وأفكار الشيعة والخوارج والرافضة والمعتزلة ، وقيل أسس الدولة صالح بن طريف وكان طريف من موالي موسى بن نصير بعثه كما رأينا في بعثة استطلاعية إلى الأندلس قبل فتحها ، وقامت هذه الدولة على سواحل المغرب الأقصى وامتدت فيما بين نهري سلا (قرب الرباط الحالية) إلى نهر أم الربيع ، وعاشت منذ أواخر القرن الأول للهجرة حتى بعد تاريخ غزوها من قبل عبد الله بن ياسين ممارسة سياسة رعب في البر والبحر ،

---

(1) نهاية الأرب ، ج٢٤ ، ص٢٦١ ـ المسكوكات المغربية ، ص٥٣٧ .

(2) نهاية الأرب ، ج٢٤ ، ص٢٥٩-٢٦٠ .

وقد كان القضاء عليها مطلباً دينياً وسياسياً ، لكن ذلك لم يكن بالأمر الهين .

ومهما يكن من أمر سار الأمير أبو بكر بن عمر على رأس جيوش المرابطين وبرفقته فقيهه عبد الله بن ياسين وخاضت جيوش المرابطية قتالاً قاسياً ضد برغواطة استمر حتى عام ٤٥١هـ ـ ١٠٥٩م ، وفي أثناء القتال أصيب عبد الله بن ياسين بإصابات مميتة توفي إثرها وقد دفن بكر يفلة ، وما زال قبره معروفاً في المملكة المغربية أقيم عليه ضريح كبير يزوره المغاربة .

وبعد وفاة عبد الله بن ياسين تابع المرابطون القتال حتى حققوا النصر ، ولذلك توجه أبو بكر عائداً مع جيوشه نحو أطراف الصحراء فعكسر في مدينة أغمات ، وكانت أكبر حواضر قبائل مصمودة ، وفي أغمات تزوج أبو بكر من زينب النفزاوية، وكانت امرأة جميلة ثرية ، أرملة لواحد من كبار التجار أو الأعيان ، لكن أبا بكر لم يقم طويلاً في أغمات حيث وردت عليه الأخبار من داخل الصحراء باختلال أمورها، فاتخذ قراره بالعودة إلى الصحراء وصحب معه شطراً من جيوشه ، وقبل سفره عين مكانه يوسف بن تاشفين ، وطلق زوجته فتزوجها يوسف ذلك أنها كانت «امرأة حازمة لبيبة ذات رأي وعقل وجزالة ومعرفة بالأمور ، حتى كان يقال لها الساحرة» .

كان أبو بكر «رجلاً صالحاً كثير الورع ، فلم يستحل قتال المسلمين وسفك دمائهم» لذلك آثر العودة إلى الصحراء «ليصلح أحوالها ويقيم بها ليجاهد الكفار من السودان ، فلما عزم على الخروج إلى الصحراء طلق زوجته زينب وقال لها عند فراقه لها: يا زينب إنك ذات حسن وجمال فائق ، وأنت لطيفة لا طاقة لك على بلاد الصحراء، وإني مطلقك فإن تمت عدتك فتزوجي ابن عمي يوسف بن تاشفين ، فهو خليفتي على بلاد المغرب» ، وأخذ أبو بكر الطريق إلى سجلماسة ويبدو أن الأمور لم تستقم له فيها لسنوات طوال فقد قال البكري «وأمير المرابطين إلى اليوم وذلك سنة

ستين وأربعمائة أبو بكر بن عمر ، وأمرهم منتشر غير ملتثم ومقامهم بالصحراء»[(١)] .

إن مسألة تأسيس مدينة مراكش ، ودور يوسف بن تاشفين ـــ الذي لم يذكره البكري ـــ في إقامة الدولة المرابطية في المغربين الأقصى والأوسط ، ثم مد الحكم المرابطي إلى الأندلس هو ما سنتناوله في الفصول التالي ، ولعله من المفيد أن نختم هذا الفصل بالتعرف إلى نهاية أبي بكر بن عمر ، حيث قيل إنه مكث في الصحراء حتى استقرت الأمور فيها ، وهنا عرف بالنجاحات التي حققها يوسف بن تاشفين في المغرب، فقدم إلى مراكش وفي نفسه عزل يوسف ، لكن ابن تاشفين احتاط للأمر وأخذ بنصيحة زوجته زينب ، مما أدى إلى نجاحه ، فما كان من أبي بكر بعدما تسلم هدايا كثيرة من يوسف ، وبعدما عرف أنه لن يتخلى عن عمله ما كان منه إلا أن سلم للأمر الواقع فالتقى بيوسف وخاطبه قائلاً : «يا يوسف إني وليتك هذا الأمر ، وإني مسؤول عنه ، فاتق الله في المسلمين واعتقني واعتق نفسك ، ولا تضيع من أمور رعيتك شيئاً فإنك مسؤول عنهم ، والله تعالى ، يصلحك ويمدك ويوفقك للعمل الصالح والعدل في رعيتك ، وهو خليفتي عليك وعليهم ، ثم ودعه وانصرف إلى الصحراء»[(٢)] .

والسؤال الذي يواجهنا الآن متى حدث هذا ؟ من الصعب الحصول على تاريخ متفق عليه ، فقد ذكر ابن عذاري «وصاحب الحلل الموشية أن ذلك كان سنة (٤٦٥هـ) ، وأن أبا بكر عاش بعد عودته إلى الصحراء ثلاث سنوات حيث قتل

---

(١) البكري : ص١٧٠ . روض القرطاس : ص١٣٤ . بيوتات فاس الكبرى : ص٢٩ . النويري : ج٢٤ ، ص ٢٥٩-٢٦١ . أعمال الأعلام : ص٢٣٢ . ابن خلدون : ج٦ ، ص٣٧٦-٣٧٧ . البيان المغرب : ج٤ ، ص١٦ . الحلل الموشية : ص٢٣ . الاستقصاء : ج٢ ، ص١٤-٢١ . قبائل الحليم ، دولة بني صالح في تامسنا ، ط. القاهرة ١٩٩١ : ص١٠٠-١٠١ . محمد عبد الهادي شعيرة ، المرابطون ، ط. القاهرة ، ١٩٦٩ : ص٦٤-٦٥ . دندش : ص٨٨-١٠٣ . جوليان : ج٢ ، ص١٠٦-١٠٨ .

(٢) روض القرطاس ، ص١٣٥ .

أثناء حروبه ضد السودان ، ولا شك أن أبا بكر عاد من الصحراء بعد سنة (٤٦٠هـ) ، ولكن ليس سنة (٤٦٥هـ) ذلك أن زينب النفزاوية توفيت في سنة أربع وستين وأربعمائة» [١] ، ولم يذكر ابن خلدون سنة عودة أبي بكر لكنه متفق مع رواية روض القرطاس في أنه توفي سنة (٤٨٠هـ) ، وكذلك فعل لسان الدين ابن الخطيب [٢] .

وقد نفترض أن زينب النفزاوية توفيت بعد سنة (٤٦٤هـ) لكن هنالك مشكلة أخرى تتمثل في وصول دينار ذهبي ضرب في سجلماسة (٤٦٢هـ) جاء عليه فقط اسم الأمير إبراهيم بن أبي بكر [٣] ومقدر أن في ذكر إبراهيم لاسمه وحده دون إضافة اسم أبيه ، إن الأب كان في سنة (٤٦٢هـ) في عداد الأموات ، فهل كان فعلاً ؟ إن هذا ما أكده كل من ابن الأثير والنويري نقلاً عن ابن شداد [٤] .

● يوسف بن تاشفين وقيام دولة المرابطين بالمغرب والجواز الأول إلى الأندلس :

مر معنا من قبل أن البكري الذي كان يكتب عن المرابطين سنة ٤٦٠هـ ــ ١٠٦٨م لم يعرف يوسف بن تاشفين مع أن الرجل كان كما توحي المصادر الأخرى كان في العقد السادس من عمره وكان من أبرز زعماء المرابطين ، وجاء لدى كل من صاحبي روض القرطاس والحلل الموشية ما يفيد أن ابن تاشفين كان ابن عم

---

(١) روض القرطاس ، ص١٣٥ . ابن عذاري ، ج٤ ، ص٢٣-٢٤ . الحلل الموشية ، ص٢٥ .

(٢) روض القرطاس : ص١٣٥ . ابن خلدون : ج٦ ، ص٣٧٧ . أعمال الأعلام : ص٢٣٣ . الاستقصا: ج٢ ، ص٢٢ . العباس بن إبراهيم ، الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ، ط. الرباط ١٩٧٤ : ج١ ، ص٢٠٤ .

(٣) المسكوكات المغربية : ص٣٥٧-٣٥٨ ، قبر أبي بكر بن عمر في منطقة تكانت في ولاية تجكجا التي كانت تعرف باسم الولاية التاسعة في موريتانيا .

(٤) الكامل لابن الأثير : ج٨ ، ص٧٦ . نهاية الأزب : ج٢٤ ، ص٢٦١ .

أبي بكر بن عمر ، ابن عمه لحمة ، يجتمع معه في جدهم «إبراهيم بن تورقيت» والد كل من تاشفين وعمر . لكن والرجل بهذه المكانة وهذا النسب لماذا لم يعرفه البكري .

والمـــثير للانتباه أن الإدريسي عندما تحدث عن أهل قبائل صنهاجة أوحى إلينا بأمر آخر حول القرابة فيما بين ابن تاشفين والأخوين أبي بكر ويحيى بن عمر ، يقول الإدريســـي «ومن قبائل صنهاجة بنو منصور وتمية وجدالة ولمتونة ، وبنو إبراهيم وبنو تاشـــفين ، وبـــنو محمد وجمل من صنهاجة» [١] ، فهل يا ترى انحدر يوسف من بني تاشفين وانحدر أبو بكر مع أخيه من بني إبراهيم ؟ إذا صح هذا ففيه تبيان لنوع القرابة التي ربطت يوسف بالأميرين اللذان تقدماه .

وتـــرجم ابن خلكان في وفيات الأعيان ليوسف بن تاشفين ، واستقى معلوماته من كتاب حمل اسم «المعرب عن سيرة ملوك المغرب» لم يهتدِ إلى مؤلفه غير أنه وجد في مطلـــع النسخة التي نقل عنها أنها كتبت في الموصل سنة تسع وتسعين وخمسمائة» وجـــاء في هذه النسخة : «كان بر المغاربة الجنوبي لقبيلة تسمى زناتة ، فخرج عليهم من جنوبي المغرب من البلاد المتاخمة لبلاد السودان الملثمون يقدمهم أبو بكر بن عمر ، وكـــان رجـــلاً ســـاذجاً خير الطباع ، مؤثراً لبلاده على بلاد المغرب ، غير ميال إلى الرفاهـــية ، وكانت ولاة المغرب من زناتة ضعاء لم يقاوموا الملثمين ، فأخذ البلاد من أيديهـــم من باب تلمسان إلى ساحل البحر المحيط ، فلما حصلت البلاد لأبي بكر بن عمـــر المذكور سمع أن عجوزاً في بلاده ذهبت لها ناقة في غداة فبكت وقالت : ضيعنا أبـــو بكر بن عمر بدخوله إلى بلاد المغرب ، فحمله ذلك على أن استخلف على بلاد المغـــرب رجلاً من أصحابه اسمه يوسف بن تاشفين ورجع إلى بلاده الجنوبية . وكان يوسف هذا رجلاً شجاعاً عادلاً مقداماً اختط بالمغرب مدينة مراكش» [٢] .

---

[١] نزهة المشتاق ، ج١ ، ص٢٢٥ ، روض القرطاس ، ص١٣٦ ، الحلل الموشية ، ص٢٤ .

[٢] وفيات الأعيان لابن خلكان ، ط. القاهرة ، ١٣١ ، ج٢ ، ص٣٦٥ .

وكنا قد سمعنا عن يوسف بن تاشفين للمرة الأولى لدى توليته سجلماسة ثم في الحملة ضد برغواطة ، ولقد عاد مع أبي بكر بن عمر وعسكر معه في أغمات ، وكانت حاضرة ديار قبائل مصمودة ، ولم يعش أبو بكر بن عمر طويلاً في أغمات بل عاد نحو الصحراء ، وحين فعل ذلك أوكل الأمور في بلاد المغرب إلى يوسف بن تاشفين حتى أنه طلق زوجته زينب النفزاوية وأوصاها بالزواج من يوسف ففعلت .

لم تمحض قبائل مصمودة الولاء للمرابطين ، وكانت أغمات التي اتخذت الآن حاضرة لهم بلدة مزدهرة غير أن سكانها كانوا من مصمودة ، وكانت منقسمة إلى بلدتين هما أغمات وريكة وأغمات هيلانة ، وكان أن تخلص أغمات للمرابطين معناه إخراج أهلها منها وإسكان المرابطين محلهم ، ثم توحيد المدينة وتحصينها بالأسوار وغير ذلك من الوسائل الدفاعية ، ولم يكن هذا ممكناً ، يقول الزهري : «والمصامدة خلق كثير ، مسيرة بلادهم عشرون يوماً ، وعندهم بالمغرب الكسب الكثير من بقر وغنم ، والزرع قليل ، وأكثر فاكهتهم العنب والزيتون والتين ...

وأما مدينة أغمات التي هي في أقصى هذا الصقع فهي مدينة موسومة بالقدم ، وكانت حضارة المصامدة ، وبالقرب منها البركة العظيمة التي تجتمع فيها مياه أغمات كلها ، وهي كثيرة الفواكه والكروم والزرع والضرع»[1] .

لذلك توجب على المرابطين اتخاذ حاضرة لهم خاصة بهم بدلاً من أغمات ، فجرى استطلاع المنطقة فوقع الاختيار على موقع مراكش .

وجاء عند صاحب الحلل الموشية : «لما خرج ــ أبو بكر بن عمر ــ من الصحراء باللمتونيين ، واحتلوا بأغمات وريكة ، وكثر الخلق بها وضيقوا على أهلها ، وكانوا على حال صعبة ، شكا أشياخ وريكة وهيلانة إلى الأمير أبي بكر بن عمر ما

---

[1] الزهري ــ الجغرافية ، ص١٩١-١٩٢ .

يـــلحقهم في ذلك من العناء والمشقة وأنهوه إليه المرة بعد المرة ، إلى أن قال لهم : عينوا لنا موضعاً نبني فيه مدينة إن شاء الله .

فاجتمعوا على أن يكون بناؤها بين بلاد هيلانة وبين بلاد هزميرة فعرفوا بذلك الأمـــير أبا بكر بن عمر ، وقالوا لـــه : قد نظرنا أيها الأمير موضعا صحراء ، رحب الساحة واسع الفناء يليق بمقصدك ، وقالوا لـــه : (وادي) نفيس جنانها ، وبلاد دكالة فدائها وزمام جبل درن بيد أميرها» [١] .

ولعل النقطة الهامة في هذا ليس تبيان الإمكانات الاقتصادية للموقع المرتاد وإنما «زمـــام جبل درن» فهنا مفتاح السيطرة على المنطقة وضمان التواصل مع الصحراء ، ويســـتخلص مما رواه صاحب الحلل الموشية أن بداية هذا المشروع العظيم جاءت سنة ٤٦٠هـــــ ـــ ١٠٥٨م وذلك في ظل قيادة أبي بكر بن عمر ، فهو كان موجوداً في أغمـــات ، ويضيف صاحب الحلل أنه شرع في بناء المدينة الجديدة «سنة اثنتين وستين وأربعمائـــة» وأنه بينما «الأمير أبو بكر ابن عمر قد نزل بها وأخذ في بناء الديار ، إذ وفـــد علـــيه رســـول من قبيلة لمتونة بالصحراء ، يعلمونه أن جدالة أغارت عليهم ، وكانـــت بيـــنهم فتنة دائمة ، فاستخلف ابن عمه يوسف بن تاشفين على المغرب ، ودخل إلى الصحراء لإصراخهم ولأخذ ثأرهم من عدوهم » [٢] .

ولـــيس مـــن الســـهل الركون إلى هذه الرواية والاعتماد على ما جاء بها من تواريخ، فلقد رأينا من قبل أن أبا بكر بن عمر عاد إلى الصحراء للحرب ضد السودان وعلى جبهة السودان قضى ، ثم إن دينار ابنه إبراهيم وما ذكره ابن الأثير والنويري قد دعانـــا إلى مـــراجعة الروايات المعطاة إلينا وبعض المصادر حول تاريخ وفاته ذلك أن المعـــتمد دومـــاً هو الوثيقة لا سيما إذا دعمتها بعض الروايات ، هذا وجعل صاحب

---

[١] الحلل الموشية ، ص١٥-١٦ .

[٢] الحلل الموشية ، ص١٦-٢٣ .

روض القرطاس تاريخ تأسيس مراكش سنة ٤٥٤هـ ـــ ١٠٦٢م [1] .

ومهما يكن من أمر يبقي تاريخ مراكش مرتبط بيوسف بن تاشفين لا بل أكثر مـــن هـــذا إن تاريخ حكم المرابطين بالمغرب ثم بالأندلس مرتبط بشخصية يوسف بن تاشفين ، وبعد يوسف عاشت دولة المرابطين بداية النهاية .

وجـــاء رسم اسم مراكش في المصادر المبكرة «مروكش» أو ما يشابه ذلك ، وقد اختلف حول تأويل هذه التسمية وتركيبها وأرجح الآراء الحديثة أن معناها «هو حمى الله أو المكان الذي ترعى فيه عهود الله» [2] أو المرعى فقط .

وبنيـــت المديـــنة الجديـــدة بدون تصور موحد أو خريطة ، مثلما فعل المنصور العباسي عندما بنى بغداد ، واستخدم الناس في بناء دورهم الآجر ، إنما بني ليوسف دار مـــن الحجر (قصر الحجر) وعلى مقربة منه شيد المسجد الجامع ، وحول هذا المسجد قامـــت بعض الأسواق . إنما يبدو أن هذه المدينة وإن حصرت بأسوار دفاعية تكونت بالأصـــل مـــن عدة أحواز كان كل منها أشبه بقرية منفردة ، ومرد هذا إلى أن كل عشـــيرة أو مجموعـــة بشرية متجانسة اتخذت لنفسها رقعة من الأرض اختطت عليها مســـاكنها ، وحين قلنا مجموعة بشرية متجانسة هدفنا إلى الإشارة إلى أن أعداد كبيرة من الأندلسيين سكنت المدينة ، انتقل بعضهم من أغمات وقدم بعضهم الآخر بعدما ما جذبـــته الدولـــة الجديدة ، والهجرة من الأندلس إلى المغرب تصاعدت وتيرتها بنتائج حـــرب الاستغلاب والاضطراب السياسي في ظل دول الطوائف ، وفيما بعد بسبب اعـــتماد دولة المرابطين على خبرة الأندلس في جميع المجالات ، وكان لهؤلاء الأندلسيين

---

[1] روض القرطاس ، ص١٣٨-١٣٩ .

[2] مـــراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي ـــ من منشورات جامعة القاضي عياض ، ط. الدار البيضـــاء ، ص١٥-١٩ (بحث الدكتور أحمد التوفيق) و ص٢١-٢٥ (بحث ليفي بروفنسال) و ص٧١ (بحث الدكتور الكريم الصوصي مولاي إبراهيم) .

أعظم الآثار في تكوين شخصية المغرب الأقصى حضارياً وعمرانياً وثقافياً .

ومـن المرجح أن يوسف بن تاشفين لم يحسن العربية ولا القراءة والكتابة وأن الأندلسيين تعلموا بسرعة لغة اللمتونيين فقاموا بدور الإداري والمترجم ، جاء عند ابن خلكـان : «وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف اللسان العربي ، ولكنه كان يجيد فهم المقاصد وكان له كتاب يعرف اللغتين العربية والمرابطية» [١] .

وسكن مراكش بعض الأندلسيين وسواهم من غير المسلمين عملوا كمرتزقة في قـوات المـرابطين [٢] ويبدو أن الموقع الذي اختير لبناء المدينة المرابطية الجديدة كان معروفاً وقع على طرق التجارة ، وكان فيه وقت وقوع الاختيار عليه «قرية صغيرة في غابة من الشجر» [٣] . وفي الحقيقة لا نعرف فيما إذا كان الأندلسيون قد شغلوا دوراً مـا في خطـط المدينة المرابطية الجديدة وفي تطويرها كما أننا لا نعرف كم استغرق العمل فيها ، والمهم لدينا أنه بتأسيس مراكش امتلك المرابطون قاعدة انطلقوا منها لبناء دولـتهم المغربية الأندلسية ، وامتلك ـ بالوقت نفسه ـ المغرب الأقصى مدينة غدت مع الأيام قاعدة متقدمة للإسلام وحاضرة وهي الأكبر والأهم في الشمال الأفريقي .

ومن مدينة مراكش انطلق يوسف بن تاشفين نحو بناء دولة المرابطين المغربية ، وقد توجـب عليه انتزاع معظم بلدان المغرب من قبيلة زناتة [٤] لكن لم يكن بإمكانه الانصراف ضد زناتة حتى يتخلص من خطر برغواطة التي جمعت فلولها ، وتولى أمرها أمير عرف بأبي حفـص عبد الله [٥] ، وقام يوسف بن تاشفين أولاً بمراسلة برغواطة فبعث بوفد من علماء

---

[١] وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٣٦٥-٣٦٦ .

[٢] مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي ، ص٧٢-٧٣ .

[٣] وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٣٧٠ . مراكش ، ص٧٢ .

[٤] وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٣٦٥ .

[٥] تاريخ ابن خلدون ، ج٦ ، ص٤٣٤ .

المالكـــية إلى بـــلاد تامســـنا ، والتقى هذا الوفد مع رجالات برغواطة في مدينة أنفا (الدار البيضـــاء حالياً) المطلة على المحيط الأطلنطي ، وقرر البرغواطيون «إعدام السفراء ، ونفذوا قـــرارهم ، وعبأوا بعد ذلك جيشاً قوامه خمسون ألف محارب قاصدين طرد قبيلة لمتونة من مراكش ومن المنطقة كلها ، وعندما علم يوسف بذلك انتابه أشد غضب انتابه في حياته ، فجمـــع جيشـــاً عظـــيماً ولم ينتظر قدوم العدو إلى مراكش ، ووصل خلال ثلاثة أيام إلى الإقلـــيم بعد أن عبر نهر أم الربيع ، وعندما رأى أهل تامسنا هذا الجيش الزاحف لمواجهتهم بحمـــية شـــديدة ، انـــتابهم الخوف وتحاشوا المعركة وعبروا نهر أبي الرقراق في اتجاه فاس ، تـــاركين إقليمهم ، وحينئذ أباح الملك يوسف هذا الإقليم وسكانه لجيشه ، فأصبح طعمة للنار والدم والنهب والتقتيل للكبار والصغار حتى الأطفال الرضع .

وفي خـــلال الأشهر الثمانية التي جاس فيها البلاد عمل على تخريبها حتى لم يبق فـــيها ســـوى بعض أطلال من المدن التي كانت قائمة فيها ، أضف إلى ذلك أن ملك فـــاس الذي بلغه نبأ قصد أهل تامسنا عبور نهر أبي الرقراق زاحفين باتجاه فاس ، عقد هدنـــة مع قبائل زناتة ، واتجه نحو النهر المذكور على رأس جيش لجب ، وهناك واجه ملك تامسنا البأس الذي كانت قوته منهوكة القوى تماماً بسبب الجوع والبؤس ، ولما حـــاول ملك تامسنا عبور النهر وجد الممر مسدوداً في وجهه بتأثير قوات ملك فاس، وهكـــذا اضـــطر هـــؤلاء البؤساء بعد أن أصبحوا مطاردين ويئسوا من قضيتهم إلى التشتت في الغابات وبين الصخور التي يعسر اجتيازها ، وبعد أن طوقوا وحوصروا من قبل الجيوش الملكية أبيدوا بثلاث طرائق ، فبعضهم غرقوا فعلاً في مياه النهر ، وبعضهم الآخر طوردوا في مناطق الجروف الصخرية فدقت أعناقهم بعد سقوطهم في الفراغ ، وحـــتى الذين استطاعوا أن يخرجوا من الماء سقطوا في أيدي رجال الملك حيث قطعت رؤوسهم بالسيف ، وهكذا راح سكان تامسنا يتناقضون ثم أبيدوا قاطبة في مدة عشرة أشهر ، ويقدر أن عدد الضحايا بلغ المليون بين رجال ونساء وأطفال .



أسوار مراكش وأبوابها في عصر المرابطين

وعــاد يوســف ملك لمتونة إلى مراكش كي يعيد تنظيم جيشه ضد ملك فاس وترك تامسنا مأوى للأسود والذئاب والبوم [١] .

وقــرأنا قــبل قلــيل ما نقله ليون الأفريقي من أن يوسف بن تاشفين عاد إلى مــراكش بعد القضاء على برغواطة ليعد العدة للزحف ضد فاس ويعطينا ابن عذارى ســنة ٤٦٧هـــ ــ ١٠٧٥م على أنه التاريخ الذي استولى فيه يوسف على فاس ، بشكل نهائي ، وأيده بهذه الرواية صاحب الحلل الموشية [٢] ، ويعني هذا أن الحملة على بــرغواطة انتهــت قــبل هــذا التاريخ بوقت قريب ، لكن يضعف هذه الرواية ما ذكــره البكري الذي كان يكتب سنة (٤٦٠هـ) أن «جميع برغواطة اليوم على ملة الإســلام» [٣] هــذا وروى صاحب روض القرطاس أن الاستيلاء النهائي ليوسف بن تاشــفين عــلى مدينة فاس كان «يوم الخميس ثاني جمادى الآخرة سنة اثنتين وستين وأربعمائــة [٤] (١٨ /أيار ١٠٧٠م) وكانت عمليات يوسف ضد فاس قد بدأت منذ ســنة ٤٥٤هـــ ــ ١٠٦٢م ، وأرجــح أن ابن تاشفين انفرد منذ هذه السنة بحكم المغرب ، وأنه في هذه السنة عاد إلى مراكش من الصحراء أبو بكر بن عمر ناوياً عزل يوســف فــأخفق وسلم له بالأمر ، ومن ثم عاد إلى الصحراء ، يقول صاحب روض القــرطاس ، وفي ســنة أربع وخمسين : «تقوى أمر يوسف بن تاشفين بالمغرب وكبر صــيته ، وفــيها اشترى موضع تأسيس مدينة مراكش ممن كان يملكه من المصامدة ، فســكن الموضع بخيام الشعر ، وبنى فيه مسجداً للصلاة وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وســلاحه ... وفي سنة أربع وخمسين المذكورة جند يوسف الأجناد واستكثر القواد ،

---

(١) وصف إفريقيا لليون الأفريقي ــ ترجمة عربية ــ ط. الرياض ١٣٩٩ ، ص٢٠٠-٢٠١ .

(٢) البيان المغرب : ٤٠ ص٢٨ . الحلل الموشية : ص٢٨ .

(٣) البكري : ص١٤١ .

(٤) روض القرطاس : ص١٤١ .

وفتح كثيراً من البلاد ، واتخذ كثيراً من الطبول والبنود ، وأخرج العمال وكتب العهود ، وجعل في جيشه الأغزار والرماة ، كل ذلك إرهاباً لقبائل المغرب ، فكمل له من الجيش في تلك السنة أزيد من مائة ألف فارس» [١] . وأعطانا صاحب الحلل الموشية مزيداً من التفاصيل حول تطوير يوسف بن تاشفين لقدراته العسكرية حتى «قوي أمره ، وعظمت شوكته ، فاشترى جمة من عبيد السودان ، وبعث إلى الأندلس فاشترى منها جملة من العلوج فأركبهم ، وانتهى عنده مائتان وخمسون فارساً ، شراء بماله ، ومن العبيد نحو ألفين ، فأركبهم فرساناً ، فغلظ حجابه ، وعظم ملكه» [٢] .

ولا شك أن شعور يوسف بالخطر على ذاته قد دفعه لشراء أعداد كبيرة من الرقيق الأبيض والأسود اتخذهم حراساً له ، ومقدر أن مصدر الخطر على يوسف كان أبو بكر بن عمر فهو صاحب عصبية لمتونة والمرابطين .

وبهذه القوة دفع يوسف بن تاشفين خطر أبي بكر بن عمر ثم دفع أيضاً بسهولة أكثر خطر إبراهيم بن أبي بكر بن عمر الذي قدم من الصحراء بعد وفاة والده «يطلب ملك أبيه فنزل بخارج أغمات في خلق كثير من إخوانه لمتونة ، فسمع بذلك أمير المسلمين ، فبعث إليه الأمير مزدلي فقال : ما الذي تريد يا إبراهيم ؟ قال : أطلب ملك أبي الذي غصبنا فيه عمي يوسف ، قال مزدلي : إن الملك بيد الله يؤتيه من يشاء، والله تعالى قد خص هذا الرجل بالملك دوننا ، فإن كنت عاقلاً فاطلب منه أن يعينك بمال وخيل ترجع بها إلى بلدك ، وإن طلبت غير هذا أخاف أن يجعل على رجلك قيداً، ويحبسك عنده عبداً ، وما قلت لك إن ذلك إلا بوجه الشفقة عليك ، فقال له : يا عمي مزدلي رضي الله عنك ، عسى أن تجتمع معه في أمري وتبين له حالي .

وكان الأمير مزدلي حسن السياسة ، صحيح المذهب ، عارفاً بخدمة الملوك ،

---

(١) روض القرطاس : ص١٣٨-١٣٩ .

(٢) الحلل الموشية : ص٢٥ .

فهدن إبراهيم المذكور ، وقال له أقم في موضعك حتى آتيك بكل ما يرضيك ، فانصرف عنه ووصل إلى الأمير يوسف بن تاشفين فحسن كلامه إليه ، وأنعم الأمير يوسف عليه بمال وخيل وكسي وغير ذلك بعدما بولغ في كرامته وضيافته ، واحتمل له ذلك مزدلي ، فشكره الولد على ذلك وانصرف عنه من هنالك ولم يجتمع بالأمير يوسف ، وما رآه وانصرف إلى الصحراء وبقي بها إلى أن مات» [(1)] .

ونعود ثانية إلى مسألة استيلاء يوسف بن تاشفين على فاس ، ذلك أن هذا الاستيلاء هو الذي جعل دولة المرابطين دولة مغربية ، فقد كانت دوماً حاضرة المغرب الأقصى من كافة الجوانب ، وكانت أحوالها مضطربة قبيل الاستيلاء عليها ، ولقد رأينا أن اضطراب الأحوال فيها كان وراء مغادرة أبي عمران الفاسي لها ، وكانت فاس تتألف من مدينتين هما : عدوتي الأندلسيين والقرويين ، لكل مدينة أسوارها وموقفها المعادي من الأخرى ، وقد حكمتا قبيل استيلاء يوسف بن تاشفين عليهما من قبل أخوين هما : الفتوح بن دوناس وعجيسة بن دوناس اللذان انتميا إلى قبيلة زناتة ، وتحصن الفتوح في عدوة الأندلسيين وعجيسة في عدوة القرويين «وكانت بين الأخوين عداوة وصار القتال بينهما وبين أهل العدوتين .. وكثر الهرج بسبب ذلك في أرض المغرب واشتد الغلاء إلى أن ظهر أمر لمتونة في أطراف المغرب ، وظفر الفتوح بأخيه عجيسة فقتله .. وبعد أن ظفر بأخيه أتاه لمتونة فنزلوا عليه وحاصروه ، وتخلى عن المدينة فوليها معنصر ابن عمه ، إلى أن دخلها لمتونة وقتل بها من زناتة» [(2)] .

---

(1) البيان المغرب ٤٠ ، ص٢٩-٣٠ .

(2) جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس لعلي الجزنائي ــ ط. الرباط ١٩٦٧ ، ص٤٠-٤١ . روض القرطاس : ص١٤١ . الحلل الموشية : ص٢٨ . البيان المغرب : ج٤ ، ص٢٨ . أعمال الأعلام ، ص٢٣٥ . تاريخ ابن خلدون : ج٦ ، ص٣٧٩ . الاستقصا ، ج٢ ، ص٢٧-٢٩ .

وبعد استيلاء يوسف على فاس «أمر بهدم الأسوار التي كانت بها فاصلة بين المدينتين : عدو القرويين وعدوة الأندلس وردهما مصراً واحداً ، وأمر ببنيان المساجد في أحوازها وأزقتها وشوارعها ، وأي زقاق لم يجد فيه مسجداً عاقب أهله وأجبرهم على بناء مسجد فيه ، وبنى الحمامات والفنادق والأرحاء ، وأصلح أسواقها وهذب بناءها» [1] .

بعد استيلاء يوسف بن تاشفين على مدينة فاس شعر أن عليه إكمال مد سلطانه من مختلف الاتجاهات ، وهكذا سيطر على تلمسان وعلى مناطق أخرى من المغربين الأوسط والأقصى ، وكان بعد الاستيلاء على إقليم تامسنا قد تملك شواطئ المغرب الأقصى الأطلسية ، فالتفت نحو الشواطئ المتوسطية فانتزع ملكية طنجة وسبتة ، وشرع يتخذ لنفسه أسطولاً خاصاً [2] .

والآن وقد غدا يوسف بن تاشفين سلطان دولة واسعة الأرجاء بحث عن مجالات جديدة للتوسع ، وعن لقب يليق به وعن الشرعية أيضاً .

كان هناك مجال واحد أمام يوسف للتوسع هو الأندلس ، وكان ذلك عملاً مسوغاً ومرغوباً به ، ولقد كان التوسع باتجاه المغرب الأدنى مغامرة غير محمودة العواقب ، وكانت العودة إلى الصحراء غير واردة ، وتوجب على يوسف إشغال قواته القبلية في جبهة فيها جهاد ومنافع ، وكان مثل هذا ما واجهه قادة السلاجقة بعد الاستيلاء على خراسان ، وإيقاف رجال القبائل الصحراوية وسواها عن الأعمال العسكرية المربحة كان أمراً لا يمكن ليوسف تحمله ، ولعله مثله مثل رجالاته من قادة المرابطين رأى من واجبه الجهاد في سبيل الله ، وتوفر هذا فقط في جبهة الأندلس ، مثلما رأيناه قد توفر للتركمان فقط في الأراضي البيزنطية بعد الاستيلاء على ديار

---

(٢) روض القرطاس : ص١٤١ . الجزنائي : ص٤١ .

(٢) الحلل الموشية : ص٢٨-٣٣ . روض القرطاس : ص١٤٠-١٤٣ . الاستقصا ، ج٢ ، ص٢٨-٣١ .

المسلمين في الشام والجزيرة والعراق وخراسان .

وكانت بلاد الأندلس بجبهاتها موائمة تماماً لمقاصد يوسف والمرابطين ، وكما فعل بداة التركمان حين حاربوا في الشام والعراق والجزيرة حاربوا ضد الهرطقة ، وحين قاتلوا بيزنطة كان ذلك في سبيل الله ، ودار عيش وهجرة وسكن في المستقبل ، والشيء نفسه في الأندلس ، كان القتال في الداخل قتالاً ضد حكام كلهم فساد وتقصير وظلم وفرقة وفتنة واضطهاد ، والقتال ضد النصارى كان جهاداً في سبيل الله.

ولهذا زاد يوسف من الاعتماد على العناصر الأندلسية في إدارته ، ولم يكتف بذلك بل إنه اشترى بعض النصارى وجند منهم مرتزقة في قواته كما استورد السلاح من الأندلس وأوربة وخاصة السيوف ، ويبدو أن حكام الأندلس من مولك الطوائف كانوا يرقبون بقلق ما كان يجري على أرض المغرب ، ورأينا من قبل أن أفضل المعلومات عن حركة المرابطين حتى سنة ٤٦٠هـ تلك التي دونها الأمير الأندلسي أبو عبيد البكري في كتابه المسالك والممالك ، والبكري لم يرحل إلى المغرب بل استقى معلوماته مما وصل من المغرب إلى الأندلس .

جاء في ترجمة يوسف بن تاشفين لدى ابن خلكان أن كاتبه قال : «له أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ، ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ، ويلتمسون منك أن لا تجعلهم في منزلة الأعادي فإنهم مسلمون ، وهم من ذوي البيوتات فلا تغير عليهم وكفى بهم من وراءهم من الأعداء الكفار ، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر ، فأعرض عنهم إعراضك عمن أطاعك من أهل المغرب» .

وتداول يوسف مع كاتبه حول شكل الجواب الذي سيبعث به فجاء حسبما يلي : «بسم الله الرحمن الرحيم – من يوسف بن تاشفين : سلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، تحية من سالمكم وسلم إليكم ، وحكمه التأييد والنصر فيما حكم عليكم ،

وإنكم بما بأيديكم من الملك في أوسع إباحة ، مخصوصون منا بأكرم إيثار وسماحة ، فاستديموا وفاءنا بوفاءكم ، واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم ، والله ولي التوفيق لنا ولكم ، والسلام» [١] .

وأمام التمعن في الفقرة الأخيرة من إجابة يوسف خاصة قوله «فاستديموا وفاءنا بوفاءكم» .

فهنا تهديد مبطن وإنذار ، ولم يرد في الرسالة أدنى وعدٍ بعدم التدخل في شؤون الأندلس ، لكن المسألة ارتبطت بالفرصة المناسبة وباستكمال الإعدادات البرية والبحرية .

وطوّر يوسف إدارةَ دولته الناشئة وضربَ نقوده ، وكتب «إلى أمراء المغرب وأشياخ القبائل من زناتة ، والمصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر فقدموا عليه وبايعوه، فكسا جميعهم ووصلهم بالأموال ، ثم خرج معهم ليطوف على جميع أعمال المغرب ويتفقد أحوال الرعية ، وينظر إلى سير ولاتهم وعمالهم فيه ، فصلح على يديه بذلك كثير من أمور الناس» [٢] .

وكان يوسف بن تاشفين حتى الآن «يدعى بالأمير ، فلما ضخمت مملكته واتسعت عمالته اجتمع إليه أشياخ قبيلته وأعيان دولته ، وقالوا له : أنت خليفة الله في هذا المغرب ، وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير ، بل ندعوك بأمير المؤمنين ، فقال لهم: حاشى لله أن نتسمى بهذا الاسم ، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة ، وأنا رجلهم ، والقائم بدعوتهم ، فقالوا له : لا بد من اسم تمتاز به ، وبعدما أجاب إلى أمير المسلمين وناصر الدين ، خطب له بذلك على المنابر ، وخوطب به من العدوتين ، وأمر كتابه أن

---

(١) وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٣٦٦ .

(٢) روض القرطاس : ص١٤٢ .

يكتبوا عنه في ذلك»[1] .

وبات على يوسف بن تاشفين الآن الاتصال بالخلافة العباسية في بغداد والحصول منها على تفويض له بحكم المغرب واعتراف بشرعية سلطانه ، وكان كاتب الخلافة آنذاك ابن موصلايا ، وهناك نسخة خطية من رسائل هذا الكاتب في تونس لم نستطع الوقوف عليها ، لكن أجزنا أنها تحتوي على نصوص المراسلات مع يوسف بن تاشفين .

وأعرف أيضاً أن ابن تاشفين قام في مرحلة لاحقة بإرسال بعثة إلى بغداد قوامها أبو بكر بن العربي ، الفقيه المشهور وصاحب العديد من المصنفات من بينها العواصم من القواصم ، مع أبيه ، وأودع أبو بكر بعض أخبار ما حدث معه في المشرق في مؤلفاته لا سيما في كتابه العواصم ، وكتب كتاباً مفرداً عن رحلته ، عثر على أجزاء منه ونشرت ، وكنت قد رأيت في فاس نسخة كاملة من هذه الرحلة نسخت بخط رديء في عدة دفاتر ، قيل لي وقتها أنها نسخت عن نسخة خطية محفوظة في مكتبة الزاوية العياشية قرب فاس .

وطبعاً حصل يوسف بن تاشفين على الاعتراف العباسي المطلوب وقيل إن أخباره أرضت كبار الفقهاء في العراق وخاصة الإمام الغزالي حتى روي أن مراسلات تمت بين الغزالي ويوسف ، وذلك على الرغم من أن المرابطين عارضوا نشر كتاب إحياء علوم الدين للغزالي إلى حد أنهم أمروا بإحراق نسخه .

ومن الواضح أن جميع ما عرضناه حتى الآن عن التاريخ المرابطي كان الهدف منه التوطئة للحديث عن دخول المرابطين إلى الأندلس وما نجم عن ذلك من نتائج في توحيد الأندلس ، ودفع خطر السقوط عنها ، وجعله ولاية مغربية الأمر الذي نجم عنه

---

[1] الحلل الموشية : ص٢٩ . البيان المغرب : ج٤ ، ص٢٧-٢٨ .

نتائج خطيرة على صعيد الشمال الأفريقي والأندلس معاً وعلى صعيد علاقات الغرب الإسلامي بأوروبا الغربية .

ولم تكن الاستعانة الأندلسية بقبائل البربر المغربية هي الأولى من نوعها ، فبصرف النظر عن المشاركة البربرية الفعالة في فتح الأندلس استمر تدفق البربر على هذه البلاد ، وازداد ذلك في القرن الرابع للهجرة العاشر للميلاد إثر الصراع بين قرطبة والمهدية ، واحتلال القوات الأندلسية لأجزاء هامة من أراضي المغرب الأقصى .

لقد حدث التدخل الأندلسي في أيام الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر ، واستمر أيام ابنه الحكم ، وشهدت الأندلس بعد وفاة الحكم تطورات سياسية خطيرة جداً تمثلت باستيلاء المنصور العامري على السلطة وحجره على الخليفة هشام بن الحكم ، وهو موضوع استوفيناه بالبحث من قبل .

ولقد ملكت الهمجية الإسبانية الصليبية المتعصبة القدرة على الفتك بالحضارة الإسلامية والوجود العربي بالأندلس ، وكان فقط يمكن لقوة من السوية الحضارية نفسها مع التعصب أن تتصدى لها ، ووجدت هذه المؤهلات لدى لمتونة المرابطين ، لكن لمتونة ما لبثت أن تأثرت بحضارة الأندلس أو تصادمت معها ، وكان لذلك نتائج خطيرة .

لقد أخذت حرب الاستغلاب التي قادها ألفونسو السادس سمة صليبية واضحة ، شارك فيها متطوعون من كل طرف أوروبي ، وباركت البابوية هذه الحرب ودعمتها بصكوك الغفران ، وهكذا اشتعلت الحروب الصليبية على أرض الأندلس وامتدت إلى صقلية قبل أن تشتعل أرض الشام ، ومع هذا امتزجت حرب الاستغلاب في الأندلس بشيء من المشاعر القومية أو الوطنية ، «فقد عد ملوك ليون أنفسهم ورثة الملوك القوط للأندلس قبل الفتح الإسلامي لها ونقل أحد رسل ألفونسو السادس إلى الأمير عبد الله صاحب غرناطة قول ألفونسو : «إنما كانت الأندلس للروم في أول الأمر ،

حتى غلبهم العرب وألحقوهم بأخس البقاع : جليقة ، فهم الآن عند التمكن ، طامعين في أخذ ظلاماقم»[1] .

وكان ألفونسو على بينة بأحوال حكم الأندلس وبتدهور أحوال الناس فيها ، وبهدف زيادة إضعاف البلاد بنى خططه في حروب الاستغلاب ، فقد نقل عنه قوله : «أنا من غير الملة ، وكل الناس يشنأني ، فبأي وجه أطمع في أخذها ، إن كان من باب الطاعة ، فأمر لا يمكن ، وإن كان من وجه القتال فيهلك فيها رجالي وتذهب أموالي وتكون الخسارة علي أكثر مما نرجوه إن صارت لي ، ولو صارت لم تتمسك إلا بأهلها ، ثم لا يؤمنون ، ولا من الممكن أن نستبيح أهلها ونعمرها بأهل ملتي ، ولكن الرأي ، كل الرأي تهديد بعضهم ببعض ، وأخذ أموالهم أبداً ، حتى ترق وتضعف ، ثم هي تلقي بيدها إذا ضعفت ، وتأتي عفواً كالذي جرى بطليطلة ، إنما كان من فقر أهلها وتشتتهم ، مع اندبار سلطانها ، وصارت إلى بلا مشقة»[2] .

والمثير للانتباه أن أمراء دول الطوائف كانوا على بينة بأهداف ألفونسو وخططه، ومع هذا «كان الجميع يساير الأمور ، ويدافع الأيام ويقول : من هنا إلى أن تتم الأموال وتهلك الرعايا ... يأتي الله بالفرج وينصر المسلمين»[3] وكان كل منهم يشتري رضى ألفونسو ، ويطلب منه أن يكون معتدلاً في مطالبه حتى لا تسقط دولتهم لآخر من ملوك الطوائف فيصبح قوياً في وجه ألفونسو ، فقد حاصر ألفونسو غرناطة وطلب مبلغ خمسين ألف مثقال مقابل انصرافه «على خير» فأجابه الأمير عبد الله : «إن ذلك لا يقدر عليه ، وفيه من القطع لنا ما يفترصنا به ابن عباد ، فإنه لو أخذ غرناطة قوي عنصره ، ولم ينطع لك ، فخذ ما نقدر عليه ، واترك رمقاً لا نستأصل

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ، ص٧٣ .

(٢) مذكرات الأمير عبد الله ، ص٧٣ .

(٣) مذكرات الأمير عبد الله ، ص٧٣ .

من أجله ، وما تركت تجده عندنا متى طلبت» [1] .

لقد استنْزف ملوك الطوائف أموال أهل الأندلس في شراء السلم من ألفونسو وفي بذخهم غير المحدود ، ولعل الحكاية التالية تكفي في أن تكون شاهداً ، التقى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية بفتاة من عامة الشعب فأعجب بها وخلبت عقله فتزوجها ، وكان اسمها اعتماد ، وتعرف عادة باسم روميكيا ، وقد «رأت مرة نسوة من المتهنات قد وضعن أرجلهن في معجن فيه طين لضرب اللبن ، فدفعها هذا إلى البكاء ، فأثر ذلك في نفس المعتمد وسألها : ما الذي يبيك ؟ فقالت له : آه إني لتعسة، ومنذ انتزعتني من الحياة الحرة الطليقة المرحة أيام أن كنت أنعم بكوخي الحقير، وأنا سجينة هذا القصر العابس ، أسيرة الحياة المقطبة ، مثقلة بسلاسل التقاليد وعادات القصر المملة ، انظر إلى هؤلاء النسوة اللاتي عند شاطئ النهر ، وانظر إلى أرجلهن منتعلات بالطين ، ليتني كنت عارية القدمين مثلهن أعجن الطين ، وليتني حرمت الغنى والسلطان ، وأعطيت الحرية التي أستطيع بها أن أفعل ما أريد ، فأجابها وقد شاعت على شفتيه ابتسامة لطيفة : بل إنك عما قليل ستستطيعين .

ونزل في اللحظة نفسها إلى فناء القصر ، وأمر بإحضار مقدار عظيم من المسك والعنبر وبعض الأعطار ، ووضع ذلك كله في معجن ، وأمر أن يمزج بماء الورد ، ويداف ويسحق ، إلى أن صارت منه عجينة في حجم تلك التي كانت في معجن النسوة اللاتي كن يضربن للبن ، ولما تهيأ له كل ما أراد من ذلك صعد إلى اعتماد وقال لها : لتتفضلي بالنُّزول إلى فناء القصر أنت وجواريك ، فإن معجن الطين في انتظارك فنَزلت الأميرة إلى ساحة القصر ، وخلعت هي وجواريها نعالهن وصرن يعجن بأقدامهن ذلك الطين المسكي المدوف وهن في مرح وسرور .

---

[2] مذكرات الأمير عبد الله ، ص٧٥ .

ومما لا ريب فيه أن تحقيق هذه الرغبة قد كلف المعتمد ثمناً باهظاً وأموالاً طائلة، وقد كان في استطاعته أن يغضي عن هذه الحادثة»[1] .

وقد تذكرنا هذه الحادثة بحادثة ميسون ابنة بحدل زوج معاوية بن أبي سفيان حين ضاقت ذرعاً بحياة القصر ، غير أن الفارق كبير جداً فهذه جبل لها المسك والعنبر لتعبث به وتلك قالت :

ولبسُ عباءةٍ وتقرّ عيني أحبُّ إليّ من لبس الشفوفِ

وتوالت المصائب على مسلمي الأندلس ، وعندما كان الضعف ينتاب ألفونسو أو يحتاج إلى المال والمؤن ، كان ملوك الطوائف يهبون لنجدته والتفريج عنه ، لذا حق له أن يتمسى بملك الملتين ، وأن يحمل لقب إمبراطور ، وحدث في عام ٤٧٨هـ ــ ١٠٨٥م أن حاصر مدينة طليطلة ، وكان ذلك في فصل الشتاء ، وكان ذلك الشتاء قاسياً جداً ، فيه اشتد البرد وكثر المطر مما سبب انقطاع المواصلات بين شمال الأندلس وطليطلة الواقعة بالوسط ، وهكذا تعذر وصول المؤن إلى جيش ألفونسو، وأصيب جيشه بمجاعة حقيقية ، وعندما أصبح ألفونسو في هذا الوضع المخيف هب ملوك الطوائف لقتاله واغتنام الفرصة بدفعه عن طليطلة ذات الموقع الاستراتيجي الهام بل للتفريج عنه وعن جيوشه «ولولا احتبال ملوك الطوائف بإقامة مرافقة ، وأصغاؤهم إلى هدر شقاقه لطار شعاعاً ، وذهب ضياعاً»[2] .

وسقطت طليطلة ، ودخل ألفونسو عاصمة القوط القديمة وانتهت دولة بني ذي النون ، ورثى أحد الشعراء طليطلة بقصيدة منها قوله :

طليطلة أباح الضدّ منها حِماها إنّ ذا نبأ كبيرُ

محصنة محسنة بعيد تناولها ومطلبها عسيرُ

---

(١) ملوك الطوائف للمستشرق دوزي ــ ترجمة عربية ، ط. القاهرة (بلا تاريخ) ، ص٢٠٦-٢٠٧ .

(٢) الذخيرة لابن بسام (ط. بيروت) ، ق٤ ، ج١ ، ص١٦٥ .

ألم تــك معقــلاً للديــن صــعباً | فــذلله كمـــا شـــاء القديـــرُ
وأخـــرج أهــلها مــنها جمــيعاً | فصــاروا حيــث ســاء بهم مصيرُ
وكانـــت دار إيمـــان وعـــلم | معالمهـــا الـــتي طُمســت تــنيرُ
مســاجدها كـــنائس أي قلــب | عــلى هــذا يقــرّ ولا يطــيرُ [(١)]

لقـــد غدت الآن طليطلة عاصمة لدولة قشتالة فانقلبت الموازين وتغيّر الوضع الاســـتراتيجي بالأندلس ، فمن قبل كان مقر هذه الدولة في أقصى الشمال ، أما الآن فـــبات في وســـط الأندلس ، في موقع مسيطر على جميع أنحاء شبه الجزيرة الأيبيرية ، يقول ابن الكردبوس : «ولما حصل الطاغية الفنش لعنة الله بطليطلة ، شمخ بأنفه ورأى أن زمـــام الأندلـــس قـــد حصـــل في كفه ، فشن غاراته على جميع أعمالها حتى فاز باســـتخلاص جميع أقطار ابن ذي النون واستئصالها ، وذلك ثمانون منبراً سوى البنيات (الـــبلدات) والقـــرى المعمورات ، وحاز من وادي الحجارة إلى طلبيرة وفحص اللج وأعمال شنتمرية كلها ، ولم يكن بالجزيرة من يلقى أقل كلب من كلابه ، فعند ذلك وجـــه كل رئيس بالأندلس رسالة إلى الفنش مهنئين ، وبأنفسهم وأموالهم مفتقدين وفي أن يشـــركهم في بلاده لـــه عاملين ، ولأموالهم إليه جابين ، حتى أن صاحب شنتمرية حسام الدولة ابن رزين نهض إليه بنفسه ، وتحمل هدية عظيمة القدر سنية ، متقرباً إليه، وراغباً أن في بلـــده يقره عاملاً بين يديه فجازاه على هديته بقردٍ وهبه إياه ، فجعل ابن رزين يفخر به على سائر الرؤساء ويعتقد أنه جنته مما كان يحذر من الفنش من وقوع البأساء .

وانـــتخى الفـــنش انتخاء الجبابرة ، وأنزل نفسه منازل القياصرة ، وداخله من الإعجاب ما احتقر به كل ماشٍ على التراب ، وتسمى بالإنبراطور ، وهو بلغتهم أمير المؤمنين ، وجعل يكتب في كتبه الصادرة عنه : من الإنبراطور ذي الملتين» [(٢)] .

---

(١) ملوك الطوائف ، ص٢٧٢-٢٧٣ .

(٢) ابن الكردبوس ، ص٨٧-٨٩ .

وأجمـل ابـن الكردبوس وصف علاقات ألفونسو السادس مع حكام الأندلس بقوله «واستحكـم في المسلمين طمعه ، وصح في قياسه الفاسد أن يستخلص جزيرة الأندلس لنفسه فلم ينم عن شن الغارات ومواصلة الغزوات .

وصادف أيام ملكه نفاقاً كثيراً بين المسلمين واختلافاً عظيماً ، وضعف بعضهم عـن البعض إلا بمعونة الروم ، فبذلوا للفنش ما يحبه من الأموال ليعينهم على مناؤهم بأنجـاد الـرجال واللعـين في أثناء ذلك لما بينهم من الفتنة مسرور ، وهم عن ذلك مشتغلون بشرب الخمور ، واقتناء القيان وركوب المعاصي وسماع العيدان وكل واحد مـنهم يتـنافس في شراء الذخائر الملوكية متى طرأت من المشرق ، كي يوجهها إلى الفنش هدية ليتقرب بها إليه ويحظى دون مطالبه لديه ، إلى أن ضعف من أولئك الثوار الطالب والمطلوب ، وذل الرئيس والمرؤوس وافتقرت الرعية ، وفسدت أحوال الجميع بالكلـية، وزالت من النفوس الأنفة الإسلامية ، وأذعن من بقي منهم خارج الذمة إلى أداء الجـزية ، وصـاروا للفـنش عمالا يجبون لـه الأموال ، لا يخالف أمره أحد ، ووكلـوا أمـور المسـلمين إلى اليهود ، فعاثوا فيهم عيث الأسود وجعلوهم حجاباً ووزراء وكتاباً .

وتطـوف الروم في كل عام على الأندلس يسبون ويغنمون ويحرقون ويهدمون ويأسرون»[1] .

وبعدما صار ألفونسو سيد طليطلة أخذ يتطلع بجدية نحو إشبيلية للاستيلاء عليها وإزالة ملك آل عباد منها ، واتبع في سبيل ذلك خططه المعروفة في التهديد واستنزاف الموارد ، وإشعار الناس بعدم وجود منفذ ، وحاول ابن عباد دفع ألفونسو السادس عنه فراسـله وحـاول شـراء رضاه بالأموال والقلاع وغير ذلك ، وبعث إليه في إحدى

---

[1] ابن الكردبوس : ص٧٦-٧٨ .

المناسبات برسول يهودي «يعرف بابن مشعل فقال له : كيف أترك مجانين (ج. ماجن) تسمى كل واحد منهم باسم خلفائهم وملوكهم وأمرائهم : المعتضد والمعتمد ، والمعتصم ، والمتوكل ، والمستعين ، والمقتدر ، والمأمون ، وكل واحد منهم لا يسل في الذب عن نفسه سيفاً ، ولا يرفع عن رعيته ضيماً ولا حيفا ، قد أظهروا الفسوق والعصيان، واعتكفوا على المغاني والعيدان ، وكيف يحل لبشر أن يقر منهم على رعيته أحداً ، وأن يدعها بين أيدهم سدى» [1] .

وكذلك بعث ألفونسو إلى المعتمد بن عباد صاحب إشبيلية بوفد من عنده ليجبي منه الجزية ، وترأس هذا الوفد يهودي اسمه ابن شالب ، ونزل رجال الوفد «خارج إشبيلية ، فوجه إليهم المعتمد ابن عباد المال المعلوم مع بعض أشياخ إشبيلية ، منهم ابن زيدون (ابن الشاعر المشهور) وغيره ، فلما وصلوا إلى خبائه وأخرجوا إليه المال العين والسبائل ، قال لهم اليهودي : والله لا آخذ منه هذا العيار ، ولا آخذ منه إلا مشحراً ، ولا يؤخذ منه في هذا العام إلا أجفان البلاد ، وزاد في كلامه ونقص ، وأساء الأدب ، فبلغ المعتمد خبره ، فدعا بعبيده وبعض جنوده ، وأمرهم بالخروج لقتل اليهودي ابن شالب ، وأسر من كان معه من النصارى ففعلوا ما أمرهم به من ذلك .

فلما بلغ ذلك أذفنش، أقسم بأيمان مغلظة ألا يرفع يده عنه وأنه يحشد من الروم عدد شعر رأسه ، ويصل بهم إلى بحر الزقاق ، فكان ذلك .

وخرج أذفنش في جيش لا يحصى كثره ، وأفسد في الشرف (ربض إشبيلية) فساداً كبيراً ، وحرقه ، واجتاز عليه قاصداً حصن طريف ، فوقف على شاطئ بحر الزقاق ، والبحر يضرب أرساغ فرسه» [2] ومن هناك بعث برسالة فيها تحديات وقحة إلى يوسف بن تاشفين .

---

(1) ابن الكردبوس : ص٨٩ .

(2) الحلل الموشية ، ص٤١-٤٢ .

وكيف لا يفعل هذا ولا يشتط حيث لا يجد في الأندلس من يقاومه أو يدفعه ، فقد «انتشر الروم على جميع الأقطار ، وعاثوا في جميع الأمصار ، وصارت لهم أقصى بلاد الإسلام مرتعاً ، ولقد بلغ الروم أن أغاروا في ثمانين فارساً ممن لا خلاق لهم على نظر المرية ، فأخرج ابن صمادح قائداً من قواده ، ومعه من خيار جنده أربعمائة ، فلما التقوا بالعدو ، انهزموا ، وما وقفوا ولا أقدموا» [1] .

والمثير للانتباه هنا أن المستعرض لتاريخ الأندلس حتى نهاية الفترة العامرية أن القوات المسلمة كانت تلقى في الشمال مقاومة عنيدة ، وأن ملوك الشمال لم يلق أياً منهم السلاح ولم يستسلم بل لم يتعد واقع الحال كما قالت العرب «هدنة على دخن» .

ويئس أهل الأندلس من ملوكهم فكان أن توجهوا بأبصارهم نحو المغرب الأقصى حيث يوسف بن تاشفين ، وقصدته وفود أندلسية «وشكوا إليه ما حل بهم من أعدائهم ، فوعدهم بإمدادهم وإعانتهم وصرفهم إلى أوطانهم» [2] .

وشدد ألفونسو من ضغوطه على ابن عباد «وسأله أن يخلى له معاقل كان الموت عنده أولى من إعطائها ، فوجست نفسه منه بالجملة» [3] .

وقال ابن الكردبوس «ولما تيقن كل من ثار ورأس ، ولا سيما رؤساء غرب الأندلس كابن عباد وابن الأفطس ، مذهب الفنش فيهم وأنه لا يقنع منهم بجزية ولا هدية ، رأوا أن الرجوع إلى الحق أحق فاستصرخوا بالمرابطين ، واستنصروا بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين ، على أن ينخرطوا في سلكه ، ويدخلوا تحت ملكه ، وفتحوا له باباً إلى الجهاد كانوا قد سدوه ، فأجابهم إلى ما رغبوه ، ولم يخالفهم فيما

---

(1) ابن الكردبوس ، ص٨٩ .

(2) الحلل الموشية ، ص٣٣ .

(3) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٠١-١٠٢ .

طلبوه ، إذ كان في جهاد المشركين والذب عن حريم المسلمين ، فاستيقظ طلب النصر من منامه ، وتطلع بدر التأييد من خلال غمامه»[1] .

لم تكن الأمور تمثل هذه الدرجة من السذاجة ، وفي الحقيقة لم يرجع ملوك الطوائف قط إلى جادة الصواب ، وأبداً لم يروا أن الرجوع إلى الحق أحق ، بل أرادوا الحفاظ على ملكهم من خلال حرب يخوضها الصديق ضد العدو فتضعفهما معاً فتحصل الفائدة لهم ، فقد رام ابن عباد كسر ألفونسو «بطوائف المرابطين وضرب بعضهم ببعض»[2] .

غير أن يوسف بن تاشفين تنبه لهذا ، ربما بواسطة مستشاريه من أهل الأندلس وأثر هذا التنبه على طبيعة المواجهة العسكرية بينه وبين ألفونسو وعلى استثمارها ثم على مستقبل ملوك الطوائف .

ولم يرد يوسف على نداءات الاستغاثة بالاستجابة الفورية ، وكذلك فعل عندما بلغته رسالة ألفونسو التي جاء فيها : «لم يخف عليك ما عليه رؤساؤكم بالأندلس من التخاذل والتواكل والإهمال للرعية ، والإخلاد إلى الراحة ، وأنا أسومهم الخسف فأخرب الديار ، وأهتك الأستار ، وأقتل الشبان وأأسر الولدان ، ولا عذر لك في التخلف عن نصرهم إن أمكنتك فرصة هذا ... فإن كنت لا تستطيع الجواز فابعث إلي ما عندك من المراكب لأجوز إليك ، وأنا أقاتلك في أحب البقاع إليك ، فإن غلبتني فتلك غنيمة جلبت إليك ، ونعمة مثلت بين يديك ، وإن غلبتك كانت لي اليد العليا ، واستكملت الإمارة ، والله يتم الإرادة»[3] .

وأخذ يوسف بن تاشفين يعد العدة للجواز إلى الأندلس ، واقتضى الحال منه

---

(١) ابن الكردبوس ، ص٨٩-٩٠ .

(٢) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٠٢ .

(٣) الحلل الموشية ، ص٤٢-٤٣ .

تــأمين مــا يكفي من القوات البرية للجواز والقتال ، وتأمين الأساطيل اللازمة لنقل القوات مع الأعتدة والمؤن والأسلحة وجلب الإمدادات إذا لزم الأمر ، وهكذا «شرع في تجديد العساكر ووفورها ، وبعث إلى الصحراء للمتونة ومسوفة وجدالة وغيرهم ، يعــلمهم بما فتح الله عليهم من ملك المغرب ، وطاعة أهله ، ويؤكد عليهم في القدوم إلــيه، فوفد عليه منهم جموع كثيرة ، ولا هم الأعمال ، وصرف أعيانهم في مهمات الأشــغال ، فاكتســبوا الأمــوال ، وملكــوا رقاب الرجال ، وكثروا بكل مكان ، وســاعدهم الوقت والزمان ، وكثرت جموعهم ، وتوفرت عساكرهم ، وعظم ملك يوســف بن تاشفين ، وضم من جزوله ولمطه ومصمودة وقبائل زناتة جموعاً كثيرة ، وسمــاهم بالحشــم ، وضم طائفة أخرى من أعلاجه وأهل داخلته وحاشيته فصاروا جموعاً كثيرة ، وسماهم الداخليين ، فاجتمع لــه في الطائفتين ثلاثة آلاف فارس» [1] .

ولم يكتف يوسف بهذا ، فقد وجد نفسه بحاجة إلى السلاح والعتاد من الأنواع المســتخدمة في الأندلــس مع خبراء بشؤون القتال لدى الأندلسيين وأعدائهم ، ولهذا «بعــث إلى الأندلــس برسم شراء العدة وآلات الحروب ، فاشتري لــه منها كثيراً» وأمضــى عامــاً في «اقتناء العدة واتخاذ السلاح واقتناء الأجناد واختيار الرجال فبلغ جيشه إلى اثني عشر ألف فارس ، كلهم نخبة أنجاد» [2] .

ولم يكــتف يوسف بهذا بل تبادل الرسائل مع المعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائــف يطلب منهم جمع قواهم وتوحيد طاقاهم العسكرية لتجتمع إليه بعد عبوره إلى الأندلــس لقــتال العــدو ، وطلب يوسف من ابن عباد تسليمه الجزيرة الخضراء يــتخذها قاعدة لقواته التي ستجوز إلى الأندلس ، وجاء هذا الطلب بناء على نصيحة واحــداً مــن كتابه اسمه عبد الرحمن بن أسباط ، وكان أندلسياً من أهل المرية ، فقد

---

(١) الحلل الموشية ، ص٢٣ .

(٢) الحلل الموشية ، ص٣٨ .

روي أنــه قال لــه : «أيد الله الأمير تعلمون أن الأندلس جزيرة مقطوعة في البحر ، ويعمر المسلمون منها الثمن وسبعة أثمان يعمرها النصارى وهي ضيقة حرجة ، سجن لمن دخلها ، لا يخرج إلا تحت حكم صاحبها ، وإن أنت جزت إليها وحصلت فيها ما يكون لك في نفسك شيء ، وهذا الرجل الذي استدعاك ما بينك وبينه متات قديم ، ولا صداقة متصلة ، ويبقى إذا قضى الله الغرض من العدو أن يمسك بها ، والحال كما تــرونه ، والنظر إليكم ، فاكتب إليه أنك لا يمكنك الجواز إليه إلا أن يعطيك الجزيرة الخضراء ، فتجعل فيها ثقاتك وأجنادك ، ويكون الجواز بيدك متى شئت» [1] .

وكتب يوسف إلى المعتمد بن عباد يطلب منه التخلي لــه عن الجزيرة الخضراء وأن يخلــيها له ويكتــب بذلك صكاً عليه توقيعه مع شهادات رجال الدولة والقضاة والفقهــاء ، وكانت ولاية الجزيرة الخضراء مسندة إلى الراضي يزيد بن المعتمد ، لهذا عــارض تسليم الجزيرة الخضراء إلى المرابطين ، وكان الرشيد الابن الثاني للمعتمد قد عــارض من قبل أيضاً فكرة الاستعانة بالمرابطين ، وأيده في هذا وجوه دولة إشبيلية ، فقد أشار هؤلاء على المعتمد «بمداراة الأذفنش ملك قشتالة ، وطلب معاهدته ، وعقد الســلم معه على ما يذهب إليه من الشروط ، وكيف ما أمكن ، وأن ذلك أولى من تجويز المرابطين .

ثم إنه خلا بعد ذلك بابنه وولي عهده الرشيد أبي الحسن عبيد الله ، وقال له : يا عبــيد الله إنــا في هذه الأندلس غرباء بين بحر مظلم وعدو مجرم ، وليس لنا ولي ولا ناصر إلا الله تعالى ، وإن إخواننا وجيراننا ملوك الأندلس ليس لنا فيهم نفع ولا ترجى مــنهم نصرة ولا جنة إن نزل بنا مصاب ، أو نالنا عدو ثقيل ، وهذا اللعين أذفنش قد أخذ طليطلة من يد ابن ذي النون بعد سنة سبع وسبعين ، وعادت دار كفر ، وهاهو

---

[1] الحلل الموشية ، ص٤٩-٥٠ .

قد رفع رأسه إلينا ، وإن نزل علينا بكلكله ما يقلع عنا حتى يأخذ إشبيلية ، ونرى من الـــرأي أن نبعـــث إلى هذا الصحراوي ، ملك العدوة نستدعيه للجواز ليدفع عنا هذا الكلب اللعين ، إذ لا قدرة لنا على ذلك بأنفسنا ، فقد تلف مجباناً وتبددت أجنادنا ، وأبغضـــتنا العامة والخاصة ، فقال له ابنه الرشيد : يا أبت أتدخل علينا في أندلسنا من يسلبنا ملكنا ويبدد شملنا ؟ فقال : يا بني ، والله لا يسمع عني أبداً أني أعدت الأندلس دار كفـــر ، ولا تركتها للنصارى فتقوم علي اللعنة في منابر الإسلام مثلما قامت على غيري ، حرز الجمال والله عندي خير من حرز الخنازير» [١] .

لا نـــدري مدى صحة هذه الرواية آخذين بعين الاعتبار أن الحديث جرى على خلـــوة بـــين أب وابنه ، والمهم معرفته الآن هو أن المعتمد ابن عباد جمع [٢] «القاضي والفقهـــاء ، وكتب عقد هبة الجزيرة الخضراء ليوسف بن تاشفين وتسليمها له بمحضر ذلك الجمع ، وبعث به إليه» [٣] .

وقـــام المعتمد بن عباد بمخاطبة جاريه المتوكل عمر بن محمد بن الأفطس ملك بطلـــيوس ، وعـــبد الله بن حبوس ملك غرناطة ، وطلب منهما أن يرسل كل منهما قاضـــي حاضـــرة دولته وحين فعلا استحضر قاضي قرطبة وأضاف إلى هؤلاء القضاة وزيره ابن زيدون وبعث بهم وفداً للتعاقد مع يوسف بن تاشفين حول ترتيبات دخوله إلى الأندلـــس وبعـــد مفاوضـــات تم الاتفـــاق والتعاقد على أن تتصل الأيدي على غـــزو الـــروم بمعونـــته ، وألا يعرض لأحدنا ببلده ولا يقبل عليه رعيته ، ومن يروم الفساد عليه» [٤] .

---

[١] الحلل الموشية ، ص٤٤-٤٥ .

[٢] الحلل الموشية ، ص٥١ .

[٣] مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٠٣ .

[٤] مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٠٢ .

وتأهب يوسف بن تاشفين وقاد قواته نحو سبتة للعبور إلى الجزيرة الخضراء، وفعل هذا بعدما وردت عليه رسل المعتمد «تعلمه أنه يتأهب للجهاد، وتعده بإخلاء الجزيرة الخضراء، وأنه لا يصل إلى سبتة إلا ويضعها في يديه، فلما وصل متأهباً لذلك، بمن احتفل به من جيشه، قدم رسله إلى المعتمد ... فأمسكهم بإشبيلية مدة طويلة، وأمير المسلمين في ذلك متقلق لورودهم، فأرسل معهم من شيوخ إشبيلية من يقول له: تربص في سبتة مدة من ثلاثين يوماً إلى أن نخلي لك الجزيرة فأجابهم إلى هذا» [1].

لقد ظل المعتمد بن عباد حتى هذه الساعة يراوغ وسيئ النوايا باتجاه يوسف بن تاشفين، ونبه يوسف إلى هذا وقيل له: «لم يجعلك ابن عباد في هذا الالتواء إلا لأنه يريد أن يرسل إلى ألفونس يعلمه بقدومك، ولعله يتأتى له منه ما يرغب، ويسأله أن يعاقده على أن يهبه الجزية أعواماً فإن فعل استجاش عسكره على الجزيرة، ومنعك الجواز، فأسبقه إليها، وإن كان النصراني لا يتأتى له أرسل إليك في الجواز» [2].

قيل هذا ليوسف ورسل ابن عباد عنده في سبتة، وبناء عليه «لما انفصل الرسل عنه بنية التربص في إخلاء الجزيرة ثلاثين يوماً، جهز عسكراً مقدماً من نحو خمسمائة فارس، وأرسلهم في إثرهم، فلم تصل الرسل إلى الجزيرة آخر النهار إلا والعسكر في إثرهم قد عدوا ونزلوا بدار الصناعة، فالتفت القوم إلى خيل قد ضربت محلتها، لم يدر متى أقبلت، ولم يصبح لهم إلا وطائفة أخرى بعدها يزيدون ويترادفون، حتى اكتمل العسكر كله على الجزيرة مع داود ابن عائشة، وأحدقوا حواليها يحرسونها، ونادى داود بالراضي» وقال له: وعدتمونا بالجزيرة، ونحن لم نأت لأخذ بلدة ولا ضرر بسلطان، إنما أتينا للجهاد، فإما أن تخليها من هنا إلى وقت الظهر من يومنا هذا، وإلا فالذي تقدر عليه فاصنع.

---

[1] مذكرات الأمير عبد الله، ص١٠٢-١٠٣.

[2] مذكرات الأمير عبد الله، ص١٠٣.

وخاطب أمير المسلمين ابن عباد يعلمه بما صنع ويقول له : كفيناك مؤنة القطائع وإرسال الأقوات لأجنادنا كما وعدت ، فأرسل المعتمد لابنه الراضي في إخلائها لهم ، وحصل فيها داود ، وأتى الأمير إليها ودخلها ناظراً إليها ، ثم انصرف إلى سبتة إلى وقت إقباله» [١] .

إن ما حدث حتى الآن يساعد على تفسير ما أسفر عنه العبور الأول ليوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، وبعد هذا موقفه من ابن عباد وحقده عليه وعدم مسامحته له، ولعدم وثوق يوسف بابن عباد تفقد الجزيرة الخضراء بنفسه ، وعلى الفور «شرع في بناء أسوارها ، ورمم ما تشعث من أبراجها وحفر الحفير (الخندق) عليها ، وشحنها بالأطعمة والأسلحة ،ورتب فيها عسكراً انتقاه من نخبة رجاله وأسكنهم بها» [٢] .

وبسيطرة يوسف بن تاشفين على الجزيرة الخضراء حدث تبدل استراتيجي بشأن أحد منفذي البحر المتوسط ، فقد كان العرب قد امتلكوا منفذ الزقاق (مضيق جبل طارق) من طرفيه في العصر الأموي ، وذلك بامتلاكهم لكل من سبتة وطنجة من جانب المغرب والجزيرة الخضراء من الجانب الأندلسي المقابل ، وبعدها حاولوا فتح القسطنطينية للاستيلاء على المنفذ الآخر ، ومع تأسس الحكم الأموي بالأندلس امتلك هذا الحكم الجانب الأندلسي فقط ، ومنذ أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر تملك الحكم الأندلسي الممر كله بطرفيه ، إنما بعد انتهاء فترة الاستبداد العامري فقد الأندلسيون الطرف المغربي ، والآن مع حلول قوات المرابطين في الجزيرة الخضراء صار بحر الزقاق مغربياً [٣] ، وآنذاك كان المسلمون يمتلكون من بحر الزقاق مضيق مسينا قرب صقلية ، لكنهم سيفقدون السيطرة على هذا المضيق الهام بعد أمد قصير وذلك بسقوط صقلية

---

(١) الحلل الموشية ، ص٥١ .

(٢) لا تمتلك المملكة المغربية الآن أياً من الطرفين فهما موزعان بين إنكلترا وإسبانيا .

(٣) روض القرطاس ، ص١٤٥-١٤٦ .

للنورمان ، الأمر الذي سيكون لــه أبعد الآثار وأخطرها على مسار أحداث الحروب الصــليبية وسيتضح ذلك أثناء الإعداد لما سيعرف باسم الحملة الصليبية الثالثة ، بعدما حــرر صلاح الدين مدينة القدس ، ولنتذكر في هذا المقام أن دول المشرق كانت ذات إمكانات بحرية متدنية .

وكان بعدما عاد يوسف بن تاشفين إلى سبتة أشرف بنفسه على عبور قواته إلى الجزيــرة الخضــراء ، وقــارب عدد هذه القوات العشرة آلاف فارس ، وكان القائد العسكري لها داود بن عائشة ، وعندما تمت عملية العبور كان ألفونسو السادس بعيداً في الشمال ملقياً الحصار على مدينة سرقسطة ، وكانت أجزاء من قواته منشغلة بحصار طرطوشة وبلنسية ، وقد فوجئ بأخبار المرابطين فأوقف أعمال الحصار وجمع إليه قواته ليتوجه نحو يوسف بن تاشفين [1] .

وتحــرك يوســف بــن تاشــفين وراء قواته نحو إشبيلية «فتلقاه ابن عباد على مــرحلة مــن الجزيرة فسلم عليه ، فهم ابن عباد بتقبيل يديه ، فبادر لمعانقته ، وسأله عــن حالــه ، وانبسط معه في الحديث ، وهنأه ابن عباد بالسلامة ، ولحقت ضيافات ابــن عــباد ،فعمــت جميع المحلة على حال كبرها ، وركب ابن عباد ودار بالمحلة ، ونظــر إلى العسكر فرأى عسكراً نقياً ومنظراً بهياً ، فلم يشك أن ذلك الجمع لا يخلو من بركة» [2] .

وبعدمــا وصل يوسف بن تاشفين إلى إشبيلية أقام بها ثلاثة أيام ، ثم ارتحل نحو مدينة بطليوس ، لكن لماذا نحو هذه المدينة وليس نحو سرقسطة أو طرطوشة أو بلنسية؟

لعــل السبب هو أن المتوكل على الله ابن الأفطس صاحب بطليوس كان أول ملوك الطوائف كتابة إلى يوسف يستنجد به قائلاً «ألا ناصراً لهذا الدين المهتضم ، ألا

---

[1] الحلل الموشية ، ص٥١-٥٢ .

[2] من مدن الثغر الأدنى قريبة من ماردة ، الروض المعطار .

حامياً لما استبيح من حمى الحرم ، وإنا لله على ما لحق عبيده من ثكل ، وعزه من ذل : فإنها الرزية التي ليس فيها عزاء ، والبلية التي ليس مثلها بلاء»[١] .

ومن قبل هذا ما كنت خاطبتك أعزك الله بالنازلة في مدينة قورية[٢] أعادها الله للإسلام ، وأنها مؤذنة للجزيرة بالخلاء ، ولمن فيها من المسلمين بالجلاء ، ثم ما زال ذلك التخاذل والتدابر يتزايد حتى تخلطت القضية ، وتضاعفت البلية ، وتحصلت بيد العدو ومدينة سرية[٣] وعليها قلعة تجاوزت حد القلاع في التحصين والامتناع ، وهي من المدينة كنقطة الدائرة تدركها من جميع الجهات ، دائرة بنواحيها ، ويستوي في فيء الأرض بها قاصيها ودانيها ، وما هو إلا نفس خافق ، ورمق زاهق استولى عليه عدو مشرك وطاغية منافق ، إن لم تدركوها بجماعتكم عجالاً ، وتبادروا ركباناً ورجالاً ، وتنفروا نحوها خفافاً وثقالاً ، وما أحضكم على الجهاد بما في كتاب الله ، فإنكم له أتلى، ولا بما في حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنكم إلى معرفته أهدى»[٤] .

على هذا جاء يوسف بن تاشفين إلى الأندلس للدفاع عن ثغور مملكة ابن الأفطس ، ولهذا توجه إلى بطليوس (وهي منطقة تقع الآن على مقربة من الحدود البرتغالية) لقد جاء للتفريج عن هذه المملكة ولدفع العدو عنها ، وليس للتوغل داخل الأراضي التي غلب عليها ألفونسو ، ويؤكد هذا التعليل ما ذكره الأمير عبد الله في مذكراته ، فبعدما حل يوسف بن تاشفين بأرض الأندلس وأثناء وجوده بإشبيلية راسل ملوك الطوائف للالتحاق به ومعهم قواتهم ، ففعلوا باستثناء المعتصم بن صمادح صاحب المرية حيث بعث بابنه وبقي هو «متربصاً ليرى كيفية الأمر ومخرجه مع الروم،

---

(١) من مدن الثغر الأعلى .

(٢) الحلل الموشية ، ص٣٤-٣٥ .

(٣) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٠٤ .

(٤) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٠٤ .

واعتذر بكبر السن مع الضعف» .

وتحـدث الأمـير عبد الله عن خروجه من مملكته للالتحاق بيوسف بن تاشفين وأنه التقى به في الطريق إلى بطليوس وقال : «ورأينا من إكرامه لنا وتحفيه بنا ما زادنا ذلـك فـيه رغبة ، لو استطعنا أن نمنحه لحومنا فضلاً على أموالنا ، ولقينا المتوكل بن الأفطـس محتفلاً بعسكره ، كل يرغب في الجهاد ، قد أعمل جهده ووطن على الموت نفسـه ... والعجـب في تلك السفرة من حسن النيات ، وإخلاص الضمائر ، كأن القلوب إنما جمعت على ذلك» [1] .

هـذا مـن جهة يوسف بن تاشفين أما من جهة ألفونسو السادس فقد عاد إلى طلـيطلة ، ومن هناك حشد قواته ، كما تلقى نجدات من المناطق الشمالية ومن فرنسا وسـواها فاجـتمع لديه أعداد كبيرة من المقاتلين ساروا تحت راية الصليب وبمباركة بابويـة ،وقد بالغت المصادر العربية في تقدير تعداد القوات الصليبية ، يقول صاحب الحلل الموشية : «واحتفل ـ ألفونسو ـ في الاستعداد ، وخرج معه ثمانون ألف فارس لابسـين الدروع دون غيرهم حتى انتهى إلى فحص الزلاّقة ، وكان عسكر المسلمين يـناهز خمسين ألف فارس ، أربعة وعشرون ألفاً من فرسان الأندلسيين ما بين مدرع ولابس ، ومثلها أو أكثر منها مرابطون وأهل العدوة» [2] .

وأرى في هـذه الـرواية مبالغة كبيرة ، وسبق أن نقلنا عن روض القرطاس أن تعـداد المرابطين كان عشرة آلاف ، ونقلنا من قبل عن صاحب الحلل نفسه أن تعداد جيش يوسف بن تاشفين وصل إلى اثني عشر ألف فارس ، ولا يعقل أن يجلب يوسف إلى الأندلـس كل ما ملكه من قوات ، وهكذا نجد الحميري صاحب الروض المعطار يقول في مادة «زلاقة» اختار ألفونسو ممن اجتمع إليه أنجادهم «وقال حين نظر إلى ما

---

(1) الحلل الموشية ، ص٥٦ .

(2) مذكرات الامير عبد الله ، ص١٠٤-١٠٥ .

اختاره من جموعه : هؤلاء أقاتل الجن والإنس ، وملائكة السماء ، فالمقلل يقول : كان هؤلاء المختارون من أجناده أربعين ألف دارع ، ولا بد لمن هذه صفته أن يتبعه واحد أو اثنان ، وأما النصارى فيعجبون ممن يزعم ذلك ويقوله ، واتفق الكل أن عدة المسلمين كانت أقل من عدة المشركين» .

والذي أراه أن عدد المسلمين لم يتجاوز العشرين ألف مقاتل وأن عدد الصليبيين زاد على هذا العدد قليلاً ، لكن ليس أكثر من خمس وعشرين ألفاً ، ونزلت القوات الإسلامية قرب أسوار بطليوس ، فهي جاءت للتفريج عن أراضي هذه الدولة ، وهناك وردت الأخبار بزحف ألفونسو نحوها على رأس جيش كبير ، يقول الأمير عبد الله : «وتلومنا ببطليوس أياماً حتى صح عندنا إقبال ألفونسو في حفله ، يروم الملاقاة ، وظن أنه يهزم الجيش لقلة معرفته به قبل ، وساقه القدر إلى أن توغل في بلاد المسلمين ، وأبعد عن أنصاره ، ونحن بازاء المدينة متربصون ، إن كانت لنا فيها ونعمت ، وإن لم تكن كانت وراءنا حرزاً ومعقلاً نأوي إليها ، وأمير المسلمين يدبر هذا الأمر بحسن رأيه ، ويلتوي عسى تقع الملاقاة بتلك الناحية ، دون أن يحوج إلى التوغل في بلادهم ، وهم دخلوا الأندلس لا يعرفون من لهم أو عليهم ، ورجا بأن يكون الرومي لا يخرج إليه أحد فينصرف طريقه ، ويكفي الله المؤمنين القتال» [١] على هذا تمنى يوسف بن تاشفين عدم زحف ألفونسو نحوه ، لكن ألفونسو ركب رأسه وساق قواته مسافة واسعة ، وجاء بعدما أكل الطريق قواته ليقاتل قوماً اتخذوا موقف الدفاع في متسع من الوقت والمكان ، وكتب ألفونسو إلى يوسف يقول : «ها أنا قد أقبلت أريد ملاقاتك، وأنت تتربص وتختبئ» [٢] .

وكان من المتوجب على المسلمين مهاجمة ألفونسو قبل أن ترتاح قواته وتتخذ

---

[١] مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٠٥ .

[٢] روض القرطاس ، ص١٤٦ .

معســكراً خاصاً بها ، لكن يوسف لم يفعل هذا ، وترك الجيش المعادي يعسكر على مســافة ثلاثة أميال من معسكره ، وكتب يوسف إلى ألفونسو كتاباً «يدعوه فيه إلى الجــزية أو الإســلام أو الحرب ، فلما وصل كتابه إلى ألفونسو أدركته الأنفة وداخله الكبر وقال للرسول : قل للأمير لا تتعب نفسك أنا أصل إليك » .

وجــاء في كــتاب يوســف إلى ألفونسو السادس : «وقد بلغنا يا أذفنش أنك دعــوت إلى الاجــتماع بك وتمنيت أن تكون لك فلك تعبر البحر عليها إلينا ، فقد اجــتزناه إليك، وجمع الله في هذه العرصة بيننا وبينك ، وسترى عاقبة دعائك ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ــ سورة الرعد ــ الآية ١٤ .

فــلما وصــل الكــتاب إلى أذفــنش وسمع ما كتب به إليه جاش بحر غيظه ، وزاد طغــيانه وكفــره ، وقــال أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني ، وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل ملته منذ ثمانين سنة ، وأقسم ألا يبرح من مكانه الذي نزل فيه ، وقال : يزحف إلي فــإني أكــره أن ألقاه قرب مدينة تعصمه ، وتمنعني منه ، فلا أشفي نفسي بقتله ، ولا أبلغ أملي فيه بيني وبينه هذا البسيط المتسع ، فأعلم السفراء أمير المسلمين بانتخائه وما أظهر من طغيانه وكبرياءه» (١) .

وأثــناء تراشق الرسائل بين المعسكرين وتبادل الوفود كتب ألفونسو «إلى أمير المســلمين مكراً منه يقول : إن غداً يوم الجمعة ولا نحب مقاتلتكم فيه لأنه عيدكم ، وبعده السبت يوم عيد اليهود ، وهم كثير في محلتنا ، ونحن نفتقر إليهم ، وبعده الأحد عــيدنا فنحترم هذه الأعياد ، ويكون اللقاء يوم الاثنين ، فقال أمير المسلمين : اتركوا اللعين وما أحب» (٢) .

وحــذر ابن عباد يوسف بن تاشفين ، ويلاحظ أن يوسف اتخذ معسكراً خاصاً

---

(١) الحلل الموشية ، ص٥٣-٥٤ .

(٢) الحلل الموشية ، ص٥٧ .

به بعيداً عن معسكر الأندلسيين الذين عسكروا في وجه جيوش ألفونسو ، فقد عسكر يوسف خلف تلة في تلك المنطقة ، ويبدو أن المسلمين صدقوا ما كتب به إليهم ألفونسو ، وفقط المعتمد اتخذ الاحتياطات اللازمة وبث العيون والطلائع وأمضى الليل يقظاً خشية هجوم مفاجئ ، وجاء فجر الجمعة الثاني عشر لرجب الفرد سنة تسع وسبعين وأربعمائة [1] (٢٣ ــ تشرين أول ١٠٨٦م) دون قيام هجوم ليلي فمال المسلمون إلى الراحة مع إبقاء قوات الاستطلاع واتفاق على خطة القتال ، إنما خطة دفاعية حيث يرجح أن المسلمين لم يفكروا بمهاجمة ألفونسو وقواته ، وفي صباح يوم الجمعة استعد ألفونسو للهجوم وارتقى في ربوة مع جماعة زعماء قومه ليبصر أعداد جيوشه، فأعجبه ما رأى من كثرتهم ولمعان دروعهم ... فعند ذلك تقدم بجيشه قاصداً محلة المسلمين فأقبلت طلائع ابن عباد تنادي وتقول إن الروم في أذيالنا ، والناس على طمأنينة ، وقد كانوا اتفقوا على أن يكون المعتمد بن عباد في قلب المقدمة ، والمتوكل ابن الأفطس في ميمنتها ، وأهل شرق الأندلس في ميسرتها ، وسائر أهل الأندلس في الساقة ، والمرابطون وأهل العدوة كمائن متفرقة تخرج من كل جهة عند اللقاء .

فلما علم ابن عباد بقدوم الطاغية عليه بادر الركوب على غير تعبئة ولا أهبة ، وغشيتهم خيل العدو كالسيل ، وعمتهم كقطع الليل ، وظنوا أنه وهية لا ترقع ، فوافق محلة ابن عباد في طريقه بأهل إشبيلية وسائر عماله ، فوقعت بينهم حروب صعبة كانت الدائرة فيها على أهل إشبيلية ، استأثر الله فيها بأرواح شهدت لها الرحمة وخطبتها الجنة ، وخرج ابن عباد بجراحات وأبلى في ذلك اليوم بلاء حسناً ... قال ثم ثاب العسكر من المسلمين لأنفسهم وحملوا على محلة أذفنش حملة صادقة .

وقد كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين على حين غفلة ، ولم يكن عنده

---

[1] الحلل الموشية ، ص٥٩ .

علـم بمـا وقـع ، إذ كانت محلته بعيدة عن محلة ابن عباد ، حتى بعث إليه ابن عباد كاتبه ابـن القصـيرة فأخبره ، فركب وأحدق به زعماء لمتونة ، وكبراء صنهاجة وسائر عسكره» [1] .

واحتاج إيصال الخبر إلى معسكر يوسف بن تاشفين بعض الوقت ، وهدر المزيد مـن الوقت في ركوب القوات المرابطية واتخاذها الوضع القتالي ، يضاف إلى هذا أن يوسـف تـباطأ في إرسـال النجدات إلى ابن عباد ، ولعله أراد التخلص من القوات الأندلسية ، قال ابن الكردبوس : «فأعلم أمير المسلمين بانهزام الرؤساء فقال اتركوهم قلـيلاً للفنا فكلا الفريقين من الأعداء» [2] . ومع هذا بعث بعد حين بعدد صغير من الجند للوقوف إلى جانب الأندلسيين والتفريج عنهم ، ويبدو أن ألفونسو قد تصور أنه اشـتبك بالقـتال ضـد جمـيع القوات المسلمة ولم يعرف بوجود معسكر منفصل للمرابطين، ولهذا شدد الضغط على القوات الأندلسية واستنفد طاقاته ضدها ولم يتخذ مـا ينبغي من احتياطات ، لهذا ما إن وصلت طلائع القوات المرابطية حتى تغير التوازن وفـيما الحال هكذا كان يوسف بن تاشفين قد بعث بالجسم الأعظم من قواته لتقوم بحـركة الـتفاف وتهـاجم معسكر العدو ، وتمكنت القوات المرابطية بيسر من ذبح المدافعـين عـن المعسكر الصليبي وإلقاء النار فيه ، وفوجئ ألفونسو وقواته ، وتمزق الجـيش الفـرنجي بعدما حاول ألفونسو إرسال بعض كتائبه نحو المعسكر ، وفي هذا الوقـت التقت القوات المرابطية بالقوات الأندلسية ، فطوقت القوات الصليبية ، ومع هذا جمع ألفونسو بقاياه وصمد وقاتل بشراسة ، فقام يوسف بتوجيه حرسه الشخصي من مقاتلي السودان فقصفوا صفوف الصليبيين وأصيب ألفونسو بفخذه بجراحة كبيرة، وحـدث هـذا ورجالات ألفونسو «كلوا وثقلهم السلاح مع بعد المسافة» فانهزموا

---

[1] الحلل الموشية ، ص٥٩-٦٠ .

[2] ابن الكردبوس ، ص٩٤ .

«فاقتفى المسلمون آثارهم وركبوهم بالسيف ، ومات من جيشهم خلائق وتبددوا في الطريق ، فمن بين قتيل ، وميت مثقل صريع» [1] ، وتسلل ألفونسو من بين الجرحى ومعه عدد ضئيل من جنده وهم جميعاً مثقلين بالجراح ، وكما بالغت المصادر العربية في تقدير عدد القوات الصليبية بالغت في تعداد خسائر هذه القوات وأوحت أن جيش ألفونسو قد دمر وأبيد، وتحدث الأمير عبد الله عن الخسائر الفادحة التي لحقت بالصليبيين وقال : «ولم يفقد من المسلمين إلا الأقل ، وانصرف أمير المسلمين راجعاً إلى إشبيلية على حال سلامة ونصر» [2] ويعني هذا أن القوات المسلمة لم تطارد فلول العدو ولم تحاول استثمار النصر المبين الذي أحرزته ، وكان أقل ما هنالك محاولة استرداد طليطلة ، فلماذا حدث هذا ؟ .

الشبه هنا شديد بين ما حدث في معركة منازكرد وهذه المعركة ، فالمعركتان كانتا من النوع الدفاعي ولم يمتلك المسلمون أية خطط للتوسع أو الهجوم ، فبعد انقضاء معركة منازكرد لم يحاول ألب أرسلان حتى استرداد المواقع الشامية التي قد استولى عليها أسيره الإمبراطور رومانوس دايجينوس ، وهنا في الأندلس جاء يوسف بن تاشفين للتفريج عن بطليوس ، ولم يأت لاستعادة طليطلة أو غيرها ، يضاف إلى هذا أنه كان من عادات لمتونة عدم مطاردة فلول المنهزمين من أعدائهم ، قال البكري لدى حديثه عن عادات الملثمين القتالية «ومن فر أمامهم لم يتبعوه» [3] وطبعاً لم تقم القوات الأندلسية بأعمال المطاردة أو محاولة استرداد طليطلة لعدم توفر الإمكانات ، ولخوف كل واحد من ملوك الأندلس على ملكه ، ويمكن أن نضيف معرفتهم أكثر من سواهم

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٠٦ .

(٢) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٠٦ . روض القرطاس ، ص١٤٦-١٤٩ . الحلل الموشية ص٦٠-٦٢ . الروض المعطار ، «مادة زلاقة» .

(٣) البكري ، ص١٦٦ .

بإمكانات الأعداء العسكرية ، فنحن سنجد بعد وقت ضئيل معاودة ألفونسو حملاته على المسلمين ومن ثم الاستنجاد ثانية بيوسف بن تاشفين .

ويستوحى تأييد لهذا مما رواه صاحب الحلل الموشية لدى حديثه عن فرار ألفونسو قال : « ففر ... وسيوف المسلمين تتبعه حتى لجأ إلى ربوة عالية اعتصم بها لتعذر مرتقاها ، وأحدقت بها الخيل ، فقال لهم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين : الكلب إذا أرهق لا بد أن يعض قد سلم الله المسلمين من معرته ، ولم يقتل منهم إلا القليل ، فإن هجمنا على هؤلاء أبلوا بلاءً عظيماً ، ولكن اتركوهم ولاحظوا حالهم ، فلما جن الليل فروا وأصبحوا يوم السبت فلم يوجد لهم أثر ، ثم ثنى أمير المسلمين عنانه ، فنَزل الناس بنُزوله ، وقد أبان الله بصارمه تلك الشوكة ، واستأصل أولئك الجموع المشركة» [1] .

ومع هذا فعند الحميري صاحب الروض المعطار روايات وآراء جديرة بالاعتبار، قال الحميري : «ولما انحاز الطاغية بشرذمته جعل ابن عباد يحرض على اتباع الطاغية وقطع دابره ، فأبى ابن تاشفين واعتذر بأن قال : إن اتبعناه اليوم لقي في طريقه أصحابنا المنهزمين راجعين إلينا منصرفين فيهلكهم ، بل نصبر بقية يومنا حتى يرجع إلينا أصحابنا ، ويجتمعون بنا ، ثم نرجع إليه فنحسم داءه ، وابن عباد يرغب في استعجال إهلاكه ويقول : إن فر أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه ، ويوسف مصر على الامتناع من ذلك ، ولما جاء الليل تسلل ابن فرذلند ، وهو لا يلوي على شيء ، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحداً بعد واحد من أثر جراحهم ، فلم يدخل طليطلة إلا في دون المائة .

وتكلم الناس في اختلاف ابن عباد وابن تاشفين ، فقالت شيع ابن عباد : لم

---

[1] الحلل الموشية ، ص٦١-٦٢ .

يخف على يوسف أن ابن عباد أصاب وجه الرأي في جلته ، لكن خاف أن يهلك العدو الذي من أجله استدعاه فيقع استغناء عنه ، وقالت شيع يوسف : إنما أراد ابن عباد قطع حبال يوسف من العودة إلى جزيرة الأندلس ، وقال آخرون : كلا الرجلين أسر حسواً في ارتغاء ، وإن كان ابن عباد أحرى بالصواب» [1] .

المهم أن سوء النوايا وانعدام الثقة بين الفرقاء والحرص على الملك ضيع على المسلمين مكاسب هذا النصر المؤزر ، وهكذا تبدد الوقت وضاعت الفرصة ، قال صاحب الحلل الموشية : «ولما قضى الله بهذا الفتح الجليل ، والصنع الجميل ، أقام المسلمون في جمع أسلابهم ، وضم عددهم مدة أيام ، فامتلأت أيديهم بالغنائم الوافرة والسبي الكثير ، واكتسب الناس فيها من آلات الحروب والأموال وسيوف الحلي ، ومناطق الذهب والفضة ما أغناهم .

وكان يوماً لم يسمع بمثله من اليرموك والقادسية ، فياله من فتح ما كان أعظمه، ويوم كبير ما كان أكرمه ، فيوم الزلاقة ثبت قدم الدين بعد زلاقها ، وعادت ظلمة الحق إلى إشراقها ، نفست مخنق الجزيرة بعض التنفس ، واعتز بها رؤساء الأندلس ، فجزى الله أمير المسلمين ، وناصر الدين أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، أفضل الجزاء، بما بل من أرماق ، ونفس من خناق ، ووصل لنصر هذه الجزيرة من حبل وتجشم إلى تلبية دعائها واستبقاء ذمائها من حزن وسهل حتى هزم على يده أعداء الله المشركون ، وظهر أمر الله وهم كارهون» [2] .

وعاد يوسف إلى إشبيلية ومعه ملوك الطوائف ، وقد شعر هؤلاء الملوك بتزلزل مواقعهم خاصة في أعين شعوبهم ، وأنهم شبه تابعين ليوسف بن تاشفين ، يقول الأمير عبد الله : «ولما انقضت غزوته تلك جمعنا في مجلسه ـــ أعني رؤساء الأندلس ـــ وأمرنا

---

[1] الروض المعطار ، «مادة زلاقة» .

[2] الحلل الموشية ، ٦٥-٦٦ .

بالاتفـــاق والائتلاف ، وأن تكون الكلمة واحدة ، وأن النصارى لم تفترصنا إلا الذي كان من شدتنا واستعانة البعض هم على البعض ، فأجابه الكل أن وصيته مقبولة وأن ظهـــوره مما يجمع الكل على الطاعة والجري إلى الحقيقة» ثم تحدث عن شكاوى قدمها بعـــض الحكـــام ضد بعضهم بعضاً وعن موقف يوسف بن تاشفين من ذلك كله ، ثم أخـــذ يوســـف يعد العدة للعودة إلى قواته إلى المغرب ، «وقد اطلع عياناً وسماعاً من اختلاف كلمتنا ما لم ير وجهاً لبقائنا في الجزيرة ، وأنس الجميع ، ولم يتربص في البلاد ألا يوحـــش سلاطينها مما يتوقعونه من انحياش رعيتهم إليه ، فكل من شكا إليه ذلك الوقـــت مـــن رعيتـــه يقـــول لـــه : «لم نأت لهذا ، والسلاطين أعلم بما يصنعوه في بلادهـــم ، حـــى ازداد بذلك محبة إلى ما كان عليه في قلوبنا ، وإليه استنامة وميلاً ، ورجع إلى وطنه» [١] .

وقيل الكثير عن الأسباب التي دعت يوسف إلى العودة إلى المغرب ، من ذلك ما نقلـــه صاحب الحلل الموشية : «ولما فرغ من وقعة الزلاقة وانصرف أهل الأندلس إلى بلادهم ، ورد عليه خطب أوجعه ، ونبأ أفجعه بموت ابنه أبي بكر سير ، فتعجل إيابه من العدوة وصدره ، وقد قضي في عدو الملة وطره» [٢] .

وقـــيل السبب الذي عجل بعودة يوسف هو موت أبي بكر بن عمر وتحرك ابنه إبراهـــيم ، ولقد عالجنا مسألة الوفاة من قبل ، يضاف إلى هذا أن الزلاقة وقعت سنة (٤٧٩هـــ) ، وذهبـــت المصـــادر التي دحضنا رواياها إلى أن أبا بكر قد توفي سنة (٤٨٠هـــ) وقد تحدث صاحب روض القرطاس عن عودة يوسف بن تاشفين فقال : «واتصـــل بـــأمير المسلمين يوسف ... وفاة ولده أبي بكر ، وكان تركه مريضاً بسبتة فاغـــتم لذلك وانصرف راجعاً إلى العدوة بسبب وفاة ولده ، ولولا ذلك لم يرجع ،

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٠٦-١٠٧ .

(٢) الحلل الموشية ، ص٦٦ .

فجـــاز إلى العدوة ودخل حضرة مراكش ، فأقام بها إلى سنة ثمانين وأربعمائة ، فخرج في شهر ربيع الآخر منها يتطوف على بلاد المغرب ، ويتفقد أحوال الرعية ، وينظر في أمور المسلمين ويسأل عن سير عماله في البلاد وقضاته» [1] .

ويـــرجح أن جولة يوسف على أعماله كانت روتينية ، أو أنها ارتبطت بتفجير مشاكل خطيرة مع الناصر بن علناس صاحب قلعة بني حماد (في جزائر اليوم) فقد أغار ابن حماد على الأراضي المرابطية ، ويقال حدث هذا أثناء وجود يوسف بن تاشفين في الأندلـــس، وهذا وفي محفوظات الفاتيكان نص رسالة مرسلة من البابا غريغوار السابع إلى ابـــن حماد ، كما حفظ لنا ابن بسام في كتابه الذخيرة نص رسالة تقريع بعث بها يوسف بن تاشفين إلى ابن حماد» [2] .

وعـــلى جميع الأحوال شكل جواز القوات المرابطية إلى الأندلس نقطة تحول في تـــاريخ هـــذا البلد وفي تاريخ المغرب أيضاً ، فقد أعاد نصر الزلاّقة التوازن العسكري والسياســـي إلى ديار الأندلس ، وأجّل سقوط هذه الديار عدة قرون ، كما أن ظهور المـــرابطين على أرض الأندلس أتاح الفرصة أمام مسلمي الأندلس على رأسهم بعض الفقهاء للشكوى ضد ملوك الطوائف ثم التمرد على سلطانهم ، وسنرى أنه لولا ذلك لما سهل على يوسف بن تاشفين توحيد الأندلس وإزالة ملوك الطوائف .

ولقـــد رفعت جملة الحوادث من مكانة المعتمد بن عباد في الأندلس وأظهرت أنه أقوى ملـــوك الطوائف وأكثرهم جدارة ، وأنه بالتالي منافس حقيقي للتوسع المرابطي في الأندلس ، لذلك وضعت الخطط لا لإزالته فحسب بل للحط من شأنه ونفيه ومعاملته بسوء كبير .

ولقـــد وقعـــت هذه المعركة بعد ست عشرة سنة من وقوع معركة منازكرد ، فمعركة منازكرد كانت الفيصل في العلاقات البيزنطية الإسلامية ـــ أو لنقل العلاقات

---

[1] روض القرطاس ، ص١٥١-١٥٢.

[2] انظر الملاحق .

بين أوروبا الشرقية والمشرق الإسلامي ــ منذ القرن الرابع الهجري / العاشر للميلاد ، بعدما انتاب الضعف الدولة العباسية وصارت اليد العليا في جبهة الثغور ، لا بل داخل الشام والجزيرة ، لبيزنطة ، والشيء نفسه حدث الآن في جبهة المواجهة الإسلامية مع أوروبا الغربية ، فبعد انتكاسات متوالية طوال ثلاثة أرباع القرن تلقت القوات الأوروبية ضربة ماحقة على بسيط الزلاقة ، ومع أن المسلمين في المشرق والمغرب لم يستثمروا ما كسبوه مباشرة ، لكن صوت الهزيمة طرق بشدة وعنف أبواب أوروبا من الشرق ومن الغرب ، لا سيما وقد اجتاح التركمان آسيا الصغرى بعد منازكرد ، ونشأت لهم دول على بعد أميال من القسطنطينية كذلك الحال في الأندلس ، فسنقرأ في الفصل التالي قصة إعادة الوحدة إلى الأندلس وأخذ المسلمين مجدداً بزمام المبادرة العسكرية، ولا شك أن هذا كله شحن أجواء أوروبا الغربية ، وزادها تعصباً وتأثراً بالنشاطات الدينية ، وهكذا استجابت شعوبها بسرعة لدعوة البابوية ــ كما سنرى ــ وحمل الأوروبيون شارة الصليب وخرجوا بحشود هائلة نحو المشرق لإزالة الإسلام منه وتحويله إلى وطن لاتيني وراء البحار .

❁ ❁ ❁

يوسف بن تاشفين وتوحيد الأندلس وإزالة دول الطوائف

رأينا في الفصل المتقدم أن الأمير عبد الله بن بلقين صاحب غرناطة ، كان من بين ملوك الطوائف الذين استقبلوا الأمير يوسف بن تاشفين وشاركوا في معركة الزلاقة ، ومذكرات هذا الأمير الأندلسي على درجة عالية من الأهمية ، حيث أن موادها وثائقية ، وحين أجمل الأمير عبد الله نتائج الجواز الأول ليوسف بن تاشفين قال: «وأخذ أمير المسلمين في الانصراف إلى بلاده ، وهو قد اطلع عيانا وسماعا من اختلاف كلمتنا ما لم يرد وجها لبقائنا في الجزيرة» [1] .

ونظراً لعدم قيام المسلمين باستثمار ما منحهم إياه نصر الزلاقة ما لبث ألفونسو السادس أن سعى إلى لم شعثه وتدارك بعض ما خسره ومتابعة نشاطاته التوسعية بشكل أو بآخر ، واستغل قيام صراعات حول بلنسية بين ابن عباد وآخر تغلب عليه اسمه ابن رشيق ، وفي الوقت نفسه نشطت بعض العصابات الإسبانية في منطقة مرسية وأعمال لورقة وبسطه ، وهي الكورة التي عرفها المسلمون باسم تدمير ، وقام على مقربة من لورقة «حصن حصين على رأس جبل شاهق بينه وبين لورقة نصف يوم

---

(1) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٠٧ .

يملكـــه العـــدو» [1] واسمه لييط ، شحنه ألفونسو السادس بأعداد وافرة من العساكر وأمرهم بالإغارة على الأراضي الإسلامية ، وهكذا كانت سراياه تغير شرقاً وغرباً ، إذ كان في موسطة بلاد المسلمين» [2] .

وخـــلال عامين انقضيا بعد معركة الزلاقة تردت الأوضاع كثيراً وشرعت الوفود الأندلســية بالتوجه إلى مدينة مراكش والالتقاء بيوسف بن تاشفين حيث شكت إليه سوء الأحـــوال الأمنـــية في الأندلس ، «فلم يزل وجوه الأندلس من تلك البلاد ، يترددون إليه بالشكوى حتى وعد بالجواز إليهم ، إذا» [3] أبرمت الاتفاقات مع ملوك الطوائف .

وكـــنا قد رأينا أن المعتمد بن عباد قد تصدر يوم الزلاقة ملوك الطوائف ، وإدراكاً مـــن ألفونســـو لهـــذا الحال «عمد إلى حصن لييط الموالي لعمل ابن عباد فشحنه بالخيل والـــرجال والرماة ، وأمرهم أن يدخلوا من حصن لييط المذكور فيغيرون في أطراف بلاد ابن عباد دون سائر بلاد الأندلس ... فكانوا يدخلون منه خيلا ورجالا فيقتلون ويأسرون في كل يوم ، وجعلوا ذلك وظيفة عليهم ، فساء ابن عباد ذلك وضاق ذرعا» [4]

ومـــن المقـــدر أن ابـــن عباد عرف بتفاصيل اتصالات الأندلسيين بيوسف بن تاشـــفين ، وأن يوسف أبدى استعداده للجواز إلى الأندلس شريطة عقد اتفاق رسمي حـــول هذا الموضوع ، ونظراً لتبدل الأوضاع بعد الزلاقة ولأن يوسف بن تاشفين لم يعـــد الآن «الصحراوي ملك العدوة» بل أمير المسلمين والسيد القوي ، لم يقدم ابن عـــباد على مراسلته واستدعائه ، بل توجه إليه شخصياً ، فغادر إشبيلية على رأس وفد كـــبير وجاز البحر والتقى بيوسف بن تاشفين على مقربة من تطوان وليس في مدينة

---

(1) الحلل الموشية ، ص٦٧ .
(2) الحلل الموشية ، ص٦٧ .
(3) الحلل الموشية ، ص٦٧ .
(4) روض القرطاس ، ص١٥٢ .

مـــراكـ ن ، ويفيد هذا وجود ترتيبات مسبقة أعدت لهذه الزيارة حتى جاء يوسف إلى هـــذه المـــنطقة ، وروى صاحب الحلل الموشية أن يوسف بن تاشفين «قابله بالسلام والترحيب بوجه طلق وصدر رحب وإكرام جم ، وقال لـــه : ما السبب الذي دعاك إلى الجواز إلينا ، وهلا كتبت بحاجتك فقال لـــه : جئتك احتسابا وجهادا ، وانتصارا للديـــن ، وقد أجرى الله الخير على يديك ، وحظك مما جئت به الحظ الأوفر ، وقد اشـــتد ضرر النصارى المستولين على حصن لييط ، وعظم أذاه بالمسلمين ، لتوسطه في بلادهم ، ولا جهاد أعظم منه أجرا ، ولا أثقل منه وزنا ، فتلقى أمير المسلمين مقصده بالقـــبول ، ووعـــده بالحـــركة والجواز ، فاستحثه واستوثق منه ، وصدر إلى حضرة إشبيلية، وتقدم إلى كل طبقة من أهل مملكته بالاستعداد وأكثر أعمال السهام والمطارد، وعمل العرادات وغير ذلك من الآلات» [١] .

وفي روايـــة صاحب الحلل هذه مسحة دعائية واضحة ، وأكثر واقعية منها ما حكـــاه الأمـــير عـــبد الله في مذكراته حيث قال : «وإن المعتمد بن عباد لما رأى من خلاف ابن رشيق عليه وأنه أراد أن يضع ابنه الرضي بمرسية عوضا عن الجزيرة ، صار بنفســـه إلى أمـــير المسلمين ، وجاز إليه البحر ، يريد الطمأنينة ويحكم معه ما شاء من عمـــل في مرســـية وغيرها ، وعظم له شأن لييط ، وأنه في قلب البلد ، وأن لا راحة للمســـلمين إلا بفقـــده ، وعاقده على أن يأتي عليه بنفسه ورجاله لكي يتهيأ سلاطين الأندلس حربه بعددهم وإجماعهم فيأمنوا من يقلعهم عنه» [٢] .

«وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة جاز أمير المسلمين إلى الأندلس الجواز الثاني برسم الجهاد ... فركب البحر من قصر المجاز إلى الجزيرة الخضراء ، فتلقاه ابن عباد بها بـــألف دابة تحمل الميرة والضيافة ، فلما نزل يوسف بالخضراء ، كتب منها إلى أمراء

---

[١] الحلل الموشية ، ص٦٧-٦٨ .

[٢] مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٠٨ .

الأندلس يدعوهم إلى الجهاد ، وقال لهم : الموعد بيننا حصن لييط ، ثم تحرك يوسف من الجزيرة الخضراء ، وذلك في شهر ربيع الأول من سنة إحدى وثمانين وأربعمائة (حزيران ١٠٨٨م) فنَزل على حصن لييط» [١] .

وتجمعت القوات المرابطية والأندلسية أمام حصن لييط «وكان بداخله من الروم ألف فارس ، واثنا عشر ألف راجل واتصلت الحروب ، وكثر الوارد ، وتمادى القتال على الحصن ليلا ونهارا مدة أشهر ، وكل أمير من أمراء الأندلس يقاتل في يوم بخيله ورجله .

واجتمع المعتمد بن عباد ويوسف بن تاشفين ، وظهر لهما من حصانته ومنعته واستعصامه ما أيسهم عنه ... وأنه لا يتأتى لهم أخذه إلا بالمطاولة ، وقطع مادة القوت عنهم ، وكان من جملة من وصل من رؤساء الأندلس ابن رشيق صاحب مرسية الثائر بها على المعتمد بن عباد ، فشكا ابن عباد بابن رشيق لأمير المسلمين وذكر انتزاءه عليه، وأنه دفع جبايتها مصانعة للطاغية أذفنش ، فحضر ابن رشيق ، واستفتى يوسف بن تاشفين في أمرهما الفقهاء فوجب الحكم على ابن رشيق ، فأمر يوسف بن تاشفين بالقبض عليه وإسلامه في يد ابن عباد ، ونهاه عن قتله ، فثقفه ابن عباد ، فهرب للحين أصحاب ابن رشيق وقرابته وجميع محلته إلى مرسية ، وانتزوا بها ، ومنعوا الميرة عن المحلة ، فاختلت أمورها ووقع الغلاء بها ، وارتفع السعر فيها ، فضاقت بالناس الأحوال .

وفي أثناء ذلك استصرخ أهل الحصن سلطانهم ، فأخذ في الحشد ويمم الحصن في أمم لا تحصى ، فاقتضى رأي يوسف بن تاشفين التوسعة على الحصن والتأهب للقائه ، فتأخر بمحلته ... وظهر له أن الأذفنش إذا وصل فغايته تخليص قومه وإخلاء الحصن

---

[١] روض القرطاس ، ص١٥٢ .

ويزول ضرره ، ورأى أن الصواب إخلاء الطريق له .

ولما وصله اللعين وجد قوما جياعا لا يقدرون على إمساك الحصن فأحرقه وأخرج من كان فيه من قومه» [1] .

ومثير للانتباه إخفاق هذه الحملة لحصانة لييط ولتفجر مشكلة مرسية ، ومن أجل هاتين المسألتين جاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، والمثير أكثر أن ابن تاشفين تجنب الصدام بقوات ألفونسو السادس ، وفعل الشيء نفسه ألفونسو وقد نعلل تصرف ألفونسو هذا نتيجة ما كان قد نزل به في الزلاقة ، لكن لماذا تجنب يوسف بن تاشفين الصدام معه ؟ لعل السبب قد كمن في وضع القوات الأندلسية وفي أوضاع الأندلس بشكل عام ، ووصف ذلك كله الأمير عبد الله بقوله : «وكانت تلك سفرة أخرج الله فيها أضغان سلاطين الأندلس ورعيتهم في ذلك يأتون أفواجا شاكين لما وجدوا لمن أسندوا إليه ، فالراضي منهم يلتمس الزيادة ، والساخط يرجو الانتقام ، وجعلوا في شكاويهم فقهاءهم وسائط يقصدون نحوهم منهم الفقيه ابن القليعي قد صار خباؤه بتلك المحلة مغنطيسا لكل صادر ووارد يجد السبيل إلى الطلب للقدر الذي قدره الله .

ورأى سلاطين الأندلس عند ذلك من تحامق رعاياهم وامتناعهم من مغارم الإقطاع التي كانت عليهم مع احتياجهم إلى الإنفاق ما قلق به وساء الظن من أجله ، جيش يكلفونه كل عام ، ومجاملات تلزم المرابطين كثيرة ، وتحف متوالية لو فرط منها في شيء لانخرمت عليهم الأحوال ثم رعايا تمتنع من تأدية ما تقوم به الحال الموصوفة فلا حيلة إلا بين صبر يؤدي إلى ملامة توجب عقوبة ، أم امتناع يؤدي إلى استئصال كالذي جرى .

---

(1) الحلل الموشية ، ص٦٩-٧٠ .

ونسمع في هذا كله من أهل جهاتنا تهديدا وعصيانا أنكرناه لا تتم به مملكة ، ولا يتهيأ معه قضاء حاجة ، ولقد كان القليعي المذكور في تلك المحلة يخاطب إخوانه بحضرتنا ألا يعطونا شيئا ، ويعدهم بما كان ، فلما كان يأتيهم الخفر منا يقعدون بنا ، ونحن أحوج ما كنا إليه للإنفاق ، لا سيما في تلك المحلة التي عدمنا فيها الأقوات إلا بالشراء كل يوم ، فدخل علينا من ذلك ضرر شنيع .

وطالت تلك المحلة الملعونة ... وكشفت العورات ، فلم يزيد الرؤساء إلا توحشا ولا الرعية إلا تسلطا ... وحق لهم ، مع اختلاف كلمة الرؤساء وهم في أسباب الغرق ، فمن اغتر منهم طالب صاحبه وهو المطلوب ، وشغله ذلك عما هو في سبيله ... وكانت مقدمات سوء ، وزمانا على السلاطين عسيرا وسعدا للمرابطين مقتبلا» .

ثم قدم الأمير عبد الله تفاصيل جيدة عن مسألة ابن رشيق وبين «أن أمير المسلمين ، لما رأى حال ابن عباد مع ابن رشيق واختلاف ما بينهما ، أعمل في ذلك عقله ، ودبر برأيه وقال : ما تنبغي لنا مفاسدة ابن عباد من أجل ابن رشيق ، لاحتياجنا إليه فيما نحن بسبيله ، ونحن لم نأمن أمر الرومي ، والأوكد علينا في هذا الوقت مداراة ابن عباد حتى ترينا الأمور وجوهها» [(١)] .

ويستخلص الإنسان من صورة التفاصيل التي حكاها الأمير عبد الله أن المسلمين انشغلوا أثناء حصارهم لحصن لييط بخلافاتهم وليس بالشؤون الحربية ، وإن قدرات المرابطين في القتال ضد الأماكن الحصينة كانت متدنية ، من المقدر أن يوسف بن تاشفين كان مدركاً لهذه الناحية وكان يعرف أن جميع المدن الأندلسية حصينة لا يمكن لقواته الاستيلاء عليها ، ولهذا تغاضى ، الآن عن وأحياناً شجع على تمرد عامة الأندلسيين على حكامهم ، وتحالف بالوقت نفسه مع الفقهاء ، فلم يبخلوا بإصدار

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٠٩-١١١ .

الفــتاوى بخلع ملوك الطوائف ، ولا بد أن تردي الأوضاع داخل الأندلس كان مريعاً حتى تخلى الأندلسيون عن استقلالهم لصالح المرابطين .

وشــجع الفقهــاء شعب الأندلس على الامتناع عن دفع الضرائب لملوكهم ، ووجــد هــؤلاء الملوك الآن بحاجة إلى المزيد من الأموال لتنفق على تحصين ممتلكاتهم وتقوية جندهم واسترضاء بعض القضاة والفقهاء ، ونيل رضى رجالات المرابطين وفي الوقت نفسه الاستمرار بدفع الجزية لألفونسو السادس [1] وهكذا تعقدت الأمور كثيراً وجاءت المحصلات جميعاً لصالح المرابطين .

وفي الجواز الأول لم يتدخل يوسف بن تاشفين في المسائل الداخلية للأندلسيين ، لكــنه في هــذه المــرة لم يكــتف بأن أصبح يقوم بالإصغاء إلى الشكاوى بل مارس صــلاحيات السيادة ، فهو الذي أمر باعتقال ابن رشيق ، وهو الذي استفتى الفقهاء ، وحــين لم يعترض أحد على ممارساته جاء ذلك بمثابة إقرار بتفويضه بحكم الأندلس ، ويحق للمفوض بالسلطة اتخاذ الإجراءات المناسبة من عزل وتعيين وعقوبة وغير ذلك ، وهذا ما كان .

وأمضــى ابن تاشفين في الأندلس أربعة أشهر ، وحين عاد نحو المغرب عاد وقد اتخذ قراره بإزالة ملوك الطوائف ، ووضع الأندلس تحت حكمه المباشر ، وسيكون هذا في الحقيقة تنفيذاً للرغبة المرابطية الأساسية في التوسع بالأندلس ، لكن الذي حدث أن هــذا التوسع تموه بلون الجهاد وإنصاف المظلومين وبالتحالف مع رجال الدين ، ولقد أدهشت أوضاع الأندلس وتقدمها وغناها يوسف بن تاشفين والمرابطين ، ولعله رأى أن تركها لملوك الطوائف لا بد وأن تسقط للأعداء ، وهنا تمازجت المصالح والرغبات مــع القــناعات الجهادية والدينية ، قال عبد الواحد المراكشي في كتابه المعجب وهو يصف أحوال يوسف بن تاشفين بعد عودته إلى المغرب إثر الجواز الثاني : «ورجع أمير

---

[1] مذكرات الأمير عبد الله ، ص١١٦-١٢٩ :

المسلمين إلى مراكش وفي نفسه من أمر الجزيرة المقيم المقعد ، فبلغني أنه قال لبعض ثقاته من وجوه أصحابه : كنت أظن أني قد ملكت شيئا ، فلما رأيت تلك البلاد صغرت في عيني مملكتي ، فكيف الحيلة في تحصيلها ؟ فاتفق رأيه ورأي أصحابه على أن يراسلوا المعتمد يستأذنوه في رجال من صلحاء أصحابهم رغبوا في الرباط بالأندلس، ومجاهدة العدو ، والكون ببعض الحصون المصاقبة للروم إلى أن يموتوا ، ففعلوا وكتبوا، إلى المعتمد بذلك فأذن لهم ، بعد أن وافقه على ذلك ابن الأفطس المتوكل صاحب الثغور ، وإنما أراد يوسف وأصحابه بذلك أن يكون قوم من شيعتهم مبثوثين بالجزيرة في بلادها ، فإذا كان أمر من قيام بدعوتهم أو إظهار للملكتهم وجدوا في كل بلد لهم أعوانا .

وقد كانت قلوب أهل الأندلس قد أشربت ــ كما ذكرنا ــ حب يوسف وأصحابه ؛ فجهز يوسف من خيار أصحابه رجالا انتخبهم ، وأمر عليهم رجلا من قرابته يسمى بلجين ، وأسر إليه ما أراده ، فجاز بلجين المذكور ، وقصد المعتمد من ملوك الجزيرة ، فقال له أين تأمرني بالكون ؟ فوجه معه المعتمد من أصحابه من ينْزله ببعض الحصون التي اختارها لهم ، فنَزل حيث أنزله هو وأصحابه» [1] .

على هذا استفاد يوسف بن تاشفين مع المرابطين من درس لبيط ، لكن ملوك الطوائف لم يأخذوا حذرهم ، أو لعلهم تصوراو أن هؤلاء المرابطين سيوفرون عليهم مادة بشرية تحميهم داخل المدن ، وذلك بعد سحب الحاميات كلها أو بعضها من الحصون وإحلال المرابطين محلها ، والمهم أن خطة يوسف بن تاشفين هي التي نجحت.

بعد عودة يوسف إلى المغرب إثر الجواز بدأ يعد العدة لتصفية ملوك الطوائف ، فهو واقعياً قد اعترف به الجميع سيداً للمغرب والأندلس ، ولكنه من حيث الواقع الشرعي لم يختلف وضعه عن أوضاع ملوك الطوائف فالجميع كانوا من أهل السنة ،

---

(1) المعجب ، ص١٣٨-١٣٩ .

ولأهـل السنة خليفة واحد هو مصدر الشرعية لديهم وأعني بذلك الخليفة العباسي ، وبالنسبة للخلافة العباسية كان الوضع في الأندلس تعوزه منذ البداية الشرعية ، والآن بعـد سقوط الخلافة الأموية لم يكسب ملوك الطوائف أية سمة شرعية ، فقد عدوا من الثوار المتغلبين ،لذلك توجب خلعهم ، وطبعاً لم يحاول أياً من ملوك الطوائف الاتصال بالخلافـة العباسـية في بغـداد للحصـول عـلى اعـتراف بحكمـه وتفويض لا بـل أنكـى مـن هـذا سـعى بعضهم للحصول على الشرعية والتفويض من عند ألفونسو السادس.

فـبعد العـودة مـن ليـيط دفع الأمير عبد الله لألفونسو جزية ثلاث سنوات تقدمت، وهو يعرف تمام المعرفة أن المرابطين سيوجهون إليه اللوم الشديد على فعله ، وقـد أخبره ألفونسو مطمئنا لـه : «حتى أدرككم في ذلك طلب ، فعلي الذب عن مدينتكم» [1] .

وحـاول الأمير عبد الله عبثا التعاون مع فقهاء وشراء رضاهم ، لهذا التفت نحو جـنده وقلاعه وحصونه ، وأراد استخدام الجند وسيلة قمع ، وهكذا اعتقل بوساطة الجند الفقيه القليعي ، وأغدق على الجند الأعطيات فوثق بهم ، وهكذا قال : «وأراني جميع الجند من التأتي والانقياد والمناصحة ما حسبت أنهم يقاتلون عني الدجال فسررت بهذه الحالة واطمأننت إليها ، وقلت : هؤلاء أمة لا يرون بي بدلا ولا نصافي لهم ورغد عيشهم معي ، وهم قد رأوا جند العدوة ، وإن أقل عبد لهم أغنى من غيرهم ، وأصلح حالة ، فلا يمكن استبدال الأدنى بالأفضل» .

وشـغله أيضاً أمر المغاربة من المرابطين الذين أسكنهم في القلاع فسعى لشراء رضـاهم أيضـاً ، غير أن همه الحقيقي ظل متعلقاً بشعب مملكته وهكذا قال :«وإنما وجسـت نفسي من الرعية لطمعهم في حط المغارم ، وللذي شاع من الزكاة والعشر

---

[1] مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٢٦ .

عـــند المـــرابطين» وطمأن نفسه أنه مع وجود الجند على رؤوس الشعب لن يحدث ما يخشى منه ، ثم حدثته نفسه بناء على ما رآه في لبيط أن يزيد من مناعة قلاعه ، فقلعة واحدة قد تعرقل مسيرة جيش كامل سمعه يقول : «وكم عسى يستطيع الجيش القادم عـــلى أن يعم جميع البلاد ، ومحاولة معقل واحد منها تطول ... فصرفت وجه اهتبالي إلى تشـــييد الحصون وبنيانها وإعداد ما يصلحها لحصار إن كان ، فلم أدع وجهاً من وجـــوه الحـــزم إلا فعلته : من إقامة الأجباب ، وإعداد المطاحن ، وأنواع العدد من الـــتراس والنـــبل والعـــرادات وجميع الأقوات ، وقلعتها من القرى ، وأعددت لكل حصن قوته لأزيد من العام ، وفعلت أكثر من ذلك في المدينة حضرتي ، ما أستغني عن تحديده لاشتهاره» .

وحدثـــته نفســـه أن يوســـف بن تاشفين لن يقدم على اتخاذ إجراء بحق ملوك الطوائف قبل «إبرامه لأمر الروم ، ولا بد عند مناظرهم من فرج : إن غلب المرابط لم يفتـــنا الدخول في طاعته ... وإن غلب الرومي كنا منه على حذر» وصرف وجهه في الوقت نفسه نحو إعداد سفن في ميناء المنكب القريب حتى إذا «تغلب الرومي ، أكون عـــلى الـــبحر متصلا بالمسلمين ، ندافع منه جهدنا ، إلى أن نضطر إلى الجواز وطلب السلامة بحشاشة أنفسنا ونتف من أموالنا» [1] .

كان هم كل واحد من المتغلبين في الأندلس ملكه ، وقد انعدم من قلوبهم شعور الارتباط بالأرض أو بالشعب ، والاهتمام بالقلاع في هذه المرحلة أمر جديد في تاريخ الأندلـــس ، تشـــابهت بـــه مع ما شهدته بلاد الشام في الفترة نفسها ثم ما تلاها من الاهـــتمام بالقلاع ، فحتى قيام الحروب الصليبية صنعت المدن الشامية الكبرى تاريخ الـــبلاد ، وعـــاش الحكام في قصور خاصة بهم ، ولكن منذ أواخر القرن الحادي عشر أخذت كل مدينة شامية تمتلك قلعة حصينة ، فيها استقر الحكام ومنها حكموا ، وفي

---

[1] مذكرات الأمير عبد الله ، ص١١٦-١٢١ .

أيـام الحـروب الصـليبية تم بـناء المـزيد مـن القلاع ، أو بعث قلاع جديدة ، وهكـذا انتزعـت القـلاع مـن المدن دورها ، وأخذ التاريخ السياسي والعسكري يستقطب حول القلاع .

وفي عـودة إلى سياق الأحداث نجد أن إجراءات الأمير عبد الله وأمثاله لم تكن مجديـة ، ذلـك أن يوسف بن تاشفين تمكن من مراسلة الخلافة العباسية في بغداد ، وحصل من الخليفة على الاعتراف مع التفويض بحكم المغرب والأندلس ، وهكذا بات بالإمكـان اتخـاذ أي إجـراء ضد ملوك الطوائف لكن بشكل محكم جداً فيه ضمان للنجاح ، ففي سنة ٤٨٣هـ ـ ١٠٩٠م دخل يوسف إلى الأندلس للمرة الثالثة .

لكن جاء دخول هذه المرة بمبادرة شخصية منه دون الحاجة إلى استدعاء وإبرام عهـد مع واحد من مولك الطوائف ، لقد دخل إلى بلاد هو مالكها الشرعي ، يريده الشعب فيها ويدعمه الفقهاء الذين أفتوه جميعاً «بخلعهم ـ أي خلع أمراء الأندلس ـ وقالوا ليوسف : نحن خصماؤك عند الله ، لأن هؤلاء لا تجوز طاعتهم لما ارتكبوه من الفجور وانتهاك المحارم ، وضيعوا غالب البلاد» [١] .

ولدى وصول ابن تاشفين إلى الجزيرة الخضراء «وافاه المعتمد ابن عباد ، فتلقاه بعادته من التعظيم ، واحتفل به في التضييف والتكريم .

وتوالت عليه الأخبار من الأمير عبد الله بن بلقين بما يغيظه ويحقده [٢] ذلك أن ابـن تاشفين سأل المعتمد «عما لهج الناس به من مداخلة الرومي ، فشهد بذلك للذي كـان في نفسه ... وأرسل أمير المسلمين إلينا كتابا يقول فيه : أقبل إلينا ، ولا تتأخر سـاعة واحدة فرابني ذلك وهو موضع الانقباض ، لما تقدم من الطلب ، وأن بمحضره جميع أعدائنا ، وإلحاحه علينا في الوصول ، واعتذرت ، واعتذرت إليه بتوجيه رسل :

---

(١) المؤنس في أخبار إفريقية وتونس لابن أبي دينار ، ط. تونس ١٩٦٧ ، ص١٠٨ .

(٢) الحلل الموشية ، ص٧١ .

أحدهما ولد حجاج والآخر ابن ما شاء الله ، فساعة وصولهما قرعهما بكل ما نقل إليه، وأمر بثقافهما في الحديد على المقام ، وقال لهما : بالله ، إني غزوته كما نغزو الفونش والذي يقدر عليه فليصنع ، وأتاني بعض الفرسان الناهضين مع الرسل على أسوأ حالة ، مضروبين ملهوفين ... فدهمني من هذا الأمر ما لا مرفع فيه ولا حيلة ، ولا ظننته أن يجري على هذه الرتبة .

وأرسل على المقام كتباً إلى أليسانه ، فأول ما طاعت له ، وإلى جميع حصون الغرب ... وكان من كتبه إليهم : أما بعد فقد ﴿جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا﴾ [1] إن لم تطوعونا ﴿فأذنوا بحرب من الله ورسوله﴾ [2] وإن خطابه لم يرد على معقل منها إلا وألقى بيده ، وقام أهله على إخراج قائدهم حتى تناثرت المعاقل كلها كانتثار العقد ... ومن امتنع منها قاتلته الرعية ... حتى يلقي بيده .

فلم ندر ما نصنع ، واتسع الخرق على الراقع ، وقلت : لا طاقة لي بجميع أهل البلاد ، إذ غدروا وخرجوا عن الطاعة ، فبمن نمسك الحضرة ، ليس فيها خلق من غير جنس ممن كان في المعاقل ... ولا حيلة مع الرجل أكثر من رغبته في خلعنا ، ولاثم غيره يسند إليه فنستريح فيه من هذه الداهية العظمى والطامة الكبرى ولا من الممكن أن نوجه إلى الرومي ... وإن شعر بذلك أهل حضرتنا كانوا أول من يقاتلنا قبل المرابطين» [3] .

وبذل الأمير عبد الله غاية جهده لنيل الرضى من ابن تاشفين فأخفق وطلب منه المثول بين يديه وبعث إليه رسولا يقول له : «لا طاعة ولا صلح إلا بالخروج» وذلك مع أمان «في النفس والأهل دون المال» ، وبعد مراسلات كتب يوسف إليه

---

(١) سورة الإسراء ـ الآية : ٨١ .

(٢) سورة الإسراء ـ الآية : ٨١ .

(٣) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٤٦-١٥٠ .

«إن كنت استوحشت من النُّزول إلينا فتخير من بلادك موضعاً تصير فيه ، ولتكن غير غرناطة لنرى فيها رأينا» [1] .

ووصف الأمير عبد الله الأحوال داخل غرناطة فبيَّن أن الجند من البربر قد هجروا طاعته ، وأعلنوا عن سرورهم بقدوم المرابطين ، وباتوا «طامعين في الزيادة على أيديهم للجنسية ، واتفق رأيهم على ألا يلقوه بحجر ، وقدموا كتبهم بالطاعة» ووعدوه بالخروج إليه وتسليمه الأمير عبد الله والتبرؤ منه ، وبالوقت نفسه أعلن التجار أنه لا طاقة لهم بالحرب وغادر كثير منهم غرناطة «وأما الرعية فبخ بخ ذلك ما كانت تبغي ، وطمعاً منها في الحرية وأنها لا يلزمها غير الزكاة والعشر» وتخلى عن أمير غرناطة الجميع «حتى الخدم من النساء والخصيان» .

وبعث يوسف بن تاشفين بفرق من قواته لحصار غرناطة فهجر المدينة إلى الأرياف جلّ سكانها وعلم الأمير عبد الله بإقبال يوسف نحوه فأسقط بيده ، وبعد تقليب لجميع أوجه الاحتمالات رأى عبد الله أنه لا مفرّ أمامه من مغادرة دار ملكه والنُّزول إلى مخيم يوسف بن تاشفين مسلماً نفسه وملكه ، وطلب يوسف من الأمير عبد الله تسليم ما لديه من أموال ودفائن ، ففعل ، وما لبث أن تعرض لإهانات شخصية وأعمال تفتيش جسدية ، ثم نفي بعد هذا كله إلى المغرب الأقصى ، فأقام فترة في سبتة ثم في مكناسة الزيتون وبعدها في أغمات [2] .

وقيل بعد هذا ليوسف بن تاشفين «ثقفت صاحب غرناطة وأخوه منه ، وإن تركته ينصرف إلى بلده ، طلبك بالثأر ، وأفسد عليك ما ترجو صلاحه ، مع شرته وحدته فهو بذلك مرسوم معروف ، فعاجل بثقافه يصفى لك ما تؤمل» وفوجئ الأمير صاحب مالقة وألقى القبض عليه وصودرت ممتلكاته ومقتنياته ، ثم «ألقي في الحديد ،

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٤٩-١٥٠ .

(٢) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٥٠-١٦١ .

وأمـــر بـــه إلى السوس ، ولما كان طريقه على مكناسة لقيناه ، فأخبر بهول ما قاسى وبصـــرنا وهو على تلك الحال قد شقي بالكبل لعظمه ، أن يتحرك به ، فأوجب ذلك مـــا وســـم به من الشر ، وأن أهل مالقة رفعوا إليه حينئذ أفعالاً قبيحة ، وأيادي سيئة أسداها إليهم» ثم بعث إلى السوس ليعيش هناك منفياً [1] .

وإثـــر تنفـــيذ هـــذه العملية عاد يوسف بن تاشفين إلى سبتة ليتولى من هناك الإشراف على تصفية بقية ملوك الطوائف ، وقبل تبيان هذه الأعمال لا بدَّ من سؤال عن موقف ملوك الطوائف تجاه ما حدث في غرناطة ؟ .

أما صاحب الحلل الموشية فقد أورد أن «المعتمد بن عباد والمتوكل ابن الأفطس قدمـــا عليه ـــ يوسف ـــ بغرناطة يهنئانه بما تهيأ لـــه من ملك غرناطة ومالقة ، فلم يقـــبل عليهما وأعرض عنهما ، وانصرفا عنه إلى بلادهما ، وأدرك ابن عباد الندم على استدعاء يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ، وقال لخليفة المتوكل بن الأفطس : والله لا بد له أن يسقينا من الكأس التي سقى عبد الله بن بلقين [2] .

لقـــد أورد صـــاحب الحلل هنا بعض حقيقة ما حدث ، وأوفى منه وأكثر أمانة وقـــرباً من الأحداث الأمير عبد الله صاحب غرناطة المعزول ، فقد ذكر أن يوسف بن تاشـــفين وعد المعتمد بن عباد عندما التقاه إثر جوازه الثالث ، بغرناطة «وقال له : أنا رجل مغربي وليس قدمني أخذ مال ولا بلاد ، وقد ترى ما رفع علي صاحب غرناطة، وتـــنوع عليها من الرومي ، وليس غرضي أكثر من تخليصها ، فإذا صارت في يدي ، ولا يمكـــنني إمســـاكها لبين بلاد الأندلس من العدوة ، وضعتها عند ذلك في يدك ، فتكون أعلم بما تصنع بها ، وأقعد لما يصلح المسلمين .

فلم يشك المعتمد أن ذلك منه كائن ، وعمل حساباً آخر أن قال في نفسه : إن

---

(1) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٦٢-١٦٣ .

(2) الحلل الموشية ، ص٧١-٧٢ .

لم يتهيأ أخذها بقعود صاحبها عن الخروج إليه ، فليست مما تؤخذ من وقفة واحدة ، ستنجر الحال من أجلها ، وتشيخ عليها المحلات كما صنع بلبيط ، وتدخل الشتوة فيحتاج إلى الانصراف ، وتبقى هذه المعاقل التي طاعت للأمير أكون زعيمها ، وفي خلال ما يتلوى أمر غرناطة احتيج إلي ، وكان لي بذلك الصولة على الفريقين ، ولا نخلى من بركتها» [1] . لكن ما إن حقق يوسف بن تاشفين نجاحاته الأولى ضد غرناطة حتى بدأ يغير سياسته تجاه ابن عباد وحليفه ابن الأفطس ، وفقد الرجلان زمام المبادرة ، لا بل فقدا استقلالهما ، وهكذا لم يتمكنا من فعل شيء لصالح ابن بلقين ، وعندما خاطب كل واحد منهما بما نصه «هذا الأمر منجر إليكم ، واليوم بي وغداً بكم ، فلم يمكنهم قراءة الكتب دونه ــ ابن تاشفين ــ وعرضوها عليه ، فحنق علي، وكتبت الأجوبة بإملائه يقولون : إنما تريد أن تلطخنا بأفعالك ، ونحن قد برأنا الله» ، ولم يكن هذا الموقف غريباً بالنسبة للأمير عبد الله ، فقد أملاه «الطاعة للمرابط والطمع ، عسى يحصل لأحد مزيد في بلاده ، ولا يمكن لأحد منهم معونتي ولا الاستفساد من أجلي فنحن لم يعن بعضنا بعضاً على الرومي فكيف على المسلم [2] .

وبعد سقوط غرناطة ليوسف بن تاشفين طالبه المعتمد بن عباد بتسليمها له فلم يلتفت إليه ، وشعر المعتمد بالتهديد «وجزع جزعاً شديداً ، وخاف أن ينثني به» فسارع بالفرار نحو قرطبة ، وحاول يوسف ثنيه ورده إله فأخفق ووصل إلى قرطبة ، وهناك حذر ابن الأفطس وقال له : «انج بنفسك فقد ترى ما حل بصاحب غرناطة وغدا بنا .

ثم بعد أن ظهر للأمير نفوره ، وجه إليه يأمره بالقدوم عليه ،ويقول له : نريد الاجتماع بك فيما نحن بسبيله ، ليقول لا ، فيجد السبيل ، كما فعل ، فراجعه ابن

---

[1] مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٦٤-١٦٥ .

[2] مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٦٥-١٦٧ .

عـــباد : إن ذلك كان وقت كنت ضيفاً وتريد الغزو ، فلزمتني معونتك بنفسي وجميع أمـــوالي ، والآن إنمـــا أنت لي جار مثل باديس وحفيده ، وأنت أقدر مني على الشر بجـــنودك ، فـــلا يمكنني التغرير بنفسي ، عسى أن تريد أخذ بلدي ، إذ لا تصح لك غرناطة إلا بما يضاف إليها من الأندلس» [1] .

وهكذا توترت العلاقات بين المرابطين وبين المعتمد بن عباد واستولى المرابطون على جزيرة طريف ثم وجهوا التعليمات إلى المرابطين بالحصون فثاروا عليه [2] وقامت عليه الرعايا بكل قطر ، فأرسل إذ ذاك إلى الرومي ، يستغيث به ، فقعد عنه خيفة من الـــتغرير .... فلما تبين للأمير خلافه وقعده عنه شاور الفقهاء في أمره ، فأشاروا عليه بغزوه» [3] .

وســـيرت الجيوش المرابطية ضد مدينتي قرطبة وإشبيلية وسقطت قرطبة ، وكان المدافع عنها عباد بن المعتمد وكان يعرف بالمأمون ، وقتل عباد مع عدد من شخصيات المدينة ، ثم توجهت الجيوش ضد إشبيلية ، وبعد مقاومة شديدة سقطت للمرابطين يوم الأحد ٢٢ رجب سنة ٤٨٤هـــ ــ ٩ أيلول ١٠٩١م [4] .

واســـتباحت القوات المرابطية إشبيلية «ولم يترك البربر لأحد من أهلها سبثاً ولا لـــبداً ، وانتهبت قصور المعتمد نهبا قبيحا وأخذ هو قبضا باليد» ، وأرغم على الطلب من ولديه المعتد بالله والراضي تسليم الحصنين الذين كانا بأيديهما ، ففعلا وأما المعتمد بالله فإن القائد الواصل إليه قبض عند نزوله على كل ما كان يملكه ، وأما الراضي بالله

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٦٨-١٦٩ .

(٢) المعجب ، ص١٣٩ .

(٣) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٦٩ .

(٤) مذكـــرات الأمـــير عـــبد الله ، ص١٦٩-١٧١ ، المعجـــب ، ص١٤٠-١٤٣ . الحلـــل الموشية ، ص٧٢-٧٤ ، روض القرطاس ، ص١٥٤-١٥٥ ، نهاية الأرب ، ج٢٤ ، ص٢٦٨-٢٦٩ .

فعند خروجه من قصره قتل غيلة وأخفي جسده ، ورحل بالمعتمد وآله ، بعد استئصال جميع أحواله ، ولم يصحب من ذلك كله ببلغة زاد ، فركب السفين ، وحل بالعدوة محل الدفين ، فكان نزوله من العدوة بطنجة ، فأقام بها أياما» [1] ثم أخذ إلى مكناسة الزيتون ، فبقي بها مدة ثم أخذ إلى أغمات [2] حيث أمضى بقية حياته في فقر مدقع وذل لم يرتفع حتى موته .

وفي الربع الأول من هذا القرن زار صاحب أزهار البساتين أغمات حيث أمضى المعتمد بن عباد بقية حياته مع أسرته ، فقال : «في هذا المكان الساحر الذي تقع فيه أغمات حيث تنحدر المياه الصافية من أعالي الجبال المقاربة ، فتجعل من هذا المكان موضعاً ساحراً فتشت عن قبر المعتمد طيلة صباح من أيام الربيع ... فلم أعثر على أثر، ولا أتأسف على ذلك فقبره هو كل هذا المكان الجميل ، هو هذه الأشجار المخضرة ، هو هذه المياه الجارية ، هو هذه الشمس المحرقة ، هو هذه الظلال الكثيفة ، هو تلك الثلوج التي نراها تبرق عن بعد ، هو ذلك الشيء لا يوصف والذي يبعث في النفس متعة ولذة ، ويفصلها عن هذا العالم الفاني ، هو ذلك النسيم الذي استنشقه ذلك الصباح في هذا المكان الفردوسي» [3] .

وكان يوسف بن تاشفين قد وجَّه بعض قواته ضد المرية ، وذلك بعد الفراغ من أمر غرناطة ، وعرف صاحبها المعتصم بن صمادح أنه لن يقدر على مقاومة جيوش المرابطين ، فبعث ابنه معز الدولة إلى معسكر المرابطين للتفاوض مع يوسف بن تاشفين ، وكان هذا الأمير فقيهاً ، وقد خيل لأبيه أنه سيؤثر على ابن تاشفين ، لكن تقديره هذا لم يصب ، فالأمور كانت مشتعلة ، وكان يصعب إطفاء لهبها بالوعظ ،

---

(1) المعجب ، ص١٤٣-١٤٤ .

(2) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٧١ .

(3) أزهار البساتين ، ص٧١-٧٢ .

لذلك أمر يوسف بن تاشفين باعتقال هذا الأمير ساعة وصوله إليه ، وهنا تحيل المعتصم في تخليص ولده من الأسر فأفلح ،وبالنظر لانشغال ابن تاشفين بأمر المعتمد بن عباد ، فتر الضغط على المرية ، وكان ابن صمادح متقدماً بالسن عليل الصحة ، ولما شعر بدنو منيته أوصى ابنه وولي عهده بقول : «امتسك في هذه القصبة طول مقام ابن عباد في ملكه بإشبيلية ما استطعت ، فإن رأيت ابن عباد قد خرج ، فلا تتربص ساعة واحدة وانج بنفسك إلى القلعة ، وادخل البحر بما قدرت عليه من ذخائرك ، إذ لا مطمع لك في البقاء بعده» .

وبعد سقوط إشبيلية للمرابطين وفي السنة نفسها ركب البحر فوراً وتظاهر أنه يريد النهوض إلى يوسف بن تاشفين ، وفي وسط البحر ، وبعدما بعد عن أعين الأسطول المرابطي تحول نحو الجزائر وهناك التجأ إلى قلعة بني حماد «وأكرمه صاحب القلعة وأمنه في ذخائره ، وأكرم ضيافته ، وخيره حيث يحب السكن فاختار تدلس لأنه على البحر ، وليغيب عن عين السلطان خوفاً من الطلب ، وانخمل في ذاته» [1] .

وباستيلاء المرابطين على المرية باتوا سادة لمعظم ديار الأندلس ، وبيدهم كبريات مدنها مثل : إشبيلية وقرطبة ، وغرناطة ومالقة ، والمرية ، وجيان .

وفي سنة الاستيلاء على إشبيلية استولى المرابطون أيضاً على مرسية ودانية وشاطبة [2] . وبعد هذا أعدوا العدة للاستيلاء على بلنسية وأعمالها ، وكان الحكم في بلنسية بيد الأمير يحيى بن ذي النون ، وكانت الولاية تحت حماية مملكة قشتالة وقد عسكر فيها المغامر الإسباني السيد الكنبيطور مع فرسانه وقوات متنوعة من المرتزقة ، ومع هذا تمكنت جيوش المرابطين من الاستيلاء على بلنسية ، وقد فقد أثناء ذلك أميرها حياته ، وبموته انتهى حكم أسرة ذي النون ، أصحاب طليطلة ثم بلنسية وكان

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله . ص١٦٧-١٦٨ .

(٢) روض القرطاس . ص١٥٥-١٥٦ .

ذلك سنة ٤٨٥هـ ـ ١٠٩٢م .

وبقـي على المرابطين الآن تصفية ملك المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس ، وهـو الـذي كـان أول من استنجد بالمرابطين ، وفي أراضيه قامت معركة الزلاقة ، واحـتاج المـرابطون لثلاث سنوات حتى تمكنوا من إزالة ملك بن الأفطس ، وذلك بوسـاطة إثـارة الفقهاء والشعب ضده بسبب سياسته فهو كان يخاطب يوسف بن تاشفين «بإظهار الطاعة والمشاركة في أمر الرومي ، ويخاطب ألفونش ليستعين به على ملمة إن دهته من المرابطين» [1]

وكان ابن الأفطس شيخاً يتبع هواه ويقدمه على عقله ، وعلى عكسه كان ابنه المنصـور ، وقد حذره ابنه من ابتاع هواه ، ونصحه بالتخلي عن بطليوس وقال له : «هذا التردد لا يجزئك ، ولا يغني عنك ما ترى من إظهار الطاعة للمرابط ، ولا طاعة أهـل بلـدك لك ومحبتهم التي كانوا يعرضون عليك ، فلو أنهم يرون بعض حقيقة في عـزيمة لما أبقوا عليك ، كالذي رأيت صنع بغيرك ، فأما أن تصفي للمرابط فلن تبلغ مرضاته إلا بالانخلاع له ، ووضع البلد في يديه ، وتقنع بأن تكون متحرياً متخلياً عن الرياسة فعاجل ذلك تجد عنده الأمان ، وإن نفرت نفسك عنه ، فلا تتأخر عن الفرار مـنه بنفسك وأهلك وجميع أموالك ، يجعلك الرومي في أي بلد شئت ، وربما سوغها لـك ، كمـا فعل بابن ذي النون في بلنسية ، وتترك مدينة بطليوس ، لا تدخل على المسلمين داخلة ، فيحصل لك النجاة بمهجتك ، وسلامة البلد للمسلمين ، فقال لـه أبـوه ، وسـفه رأيه : لا أترك موضعي وعسى أن تهيئ الأقدار ضد ما تظن ، فخرج عـنها ابـنه ، ونجا بماله وأهله ، وأخذ لنفسه بالرأي الذي أشار به على ابنه ، فبقي الشيخ لحينه حتى نفذ أمر الله فيه» [2] .

---

[1] مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٧٢ .

[2] مذكرات الأمير عبد الله ،ص١٧٣ .

وحــاك المرابطون مؤامرة للاستيلاء على بطليوس ، بأن أطلقوا من سجنهم ابن رشيق صاحب المعتمد بن عباد ، وطلبوا منه إعداد خطة للاستيلاء على مدينة بطليوس وتوجه ابن رشيق إلى هذه المدينة ، وهناك عمل على شراء بعض الحرس وزعماء المدينة «حــتى وقع الاتفاق على أن يطرقها ليلاً ، ويفتحون لــه الباب ، فكان من ذلك ما حــاولوه ، وتعلقوا بالسور عند الأمارة التي كانت مع من دخله ، وتقبض على الشيخ وابنــيه : الفضل والعباس ، واحتوى له على أموال جسيمة ، وأمر ... بإخراجه للقتل بعــد أن رأى في نفسه هواناً عظيماً ، وشدة على المال ، ونقم عليه ما كان من عمله مع النصارى والمعاقل التي أعطاهم ، فأمر بقتله مع ابنيه : الفضل والعباس .

وطــاع جميع ذلك الثغر للمرابطين ، كأنه لم يكن قط لغيرهم ... ثم صار ابنه المنصــور من جملة الروم حنقاً لما جرى على أبيه ، يطلب الثأر ، ويتطرق معهم بلاد المسلمين» [1] .

لم تــبقَ دولة من دول الطوائف لم تخضع للمرابطين غير دولة بني هود في الثغر الأعــلى في سرقسطة ، وكانت سرقسطة محاصرة من قبل قوات ألفونسو يوم دخول يوســف بــن تاشفين إلى الأندلس للمرة الأولى ، واستفادت هذه المدينة بشكل غير مباشر من التحضيرات لمعركة الزلاقة ، بأن رفع عنها الحصار ، فهيأت أمامها الفرص للتماســك ، وخاصــة بعد نصر الزلاقة ، وشكلت دولة بني هود سداً منيعاً في وجه الإسبان ، وكانت أراضيها متداخلة مع ممتلكات ملوك قشتالة ، وكانت هذه الأراضي نائــية في الشــمال ، لم يكن من السهل على المرابطين الوصول إليها ، اللهم إلا عن طريق شرقي الأندلس . وكان المرابطون بحاجة للوقت لتنظيم الأندلس إدارياً وعسكرياً وأمنياً ، وذلك قبل الدخول في أية مغامرة عسكرية جديدة ، أضف إلى هذا أنهم أعلنوا دومــاً أنهــم أزالوا ملوك الطوائف لتتاح أمامهم الفرصة للجهاد ضد الأعداء ، وكان

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٧٣-١٧٤ .

لســـان حالهم دوماً يقول : «إنه لا ينبغي لنا قتال الروم ، ونترك وراءنا الأعداء ، ممن يواسي علينا معهم» [1] .

وكان العمل على إزالة ملك بني هود فيه خدمة للأعداء وضرر على المسلمين ، وأدرك المستعين بالله أبو جعفر أحمد بن هود هذا «فحصن بلاده ، وملك زمام رعيته ، فخـــيف أمـــره ، ولم تدخـــل عليه بسبب ذلك داخلة ، وكان مع ذلك يهادي أمير المسلمين ويكاتبه ، وقال له في مكاتبته :

نحـــن بينكم وبين العدو سد لا يصل إليكم منه ضرر ، ومناعين تطرف ، وقد قنعـــنا بمســالمتكم ، فاقنعوا منا بها ، إلى ما نعينكم به من نفيس الذخائر ... فأجابه يوســـف بـــن تاشـــفين إلى ما أراده ... فأقام بن هود رضي البال ، يهدد النصارى بالمســلمين ، ويهـــدد المســلمين بالـــروم ، لكونـــه حائلاً بينهم وبين بلاد الإفرنج والأردمانيين (النورمانديين) ... وكان يتحف أمير المسمين يوسف بن تاشفين ويهاديه مما تحصل بيده من نفيس الذخائر واليواقيت والجواهر ، ورفيع الدنانير» [2] .

عـــلى هذا تأخر إسقاط دولة بني هود ، ولم يقدم المرابطون على إخضاعها لأنه كان لديهم في الداخل ما يكفيهم من مشاكل ، فلقد سقط جل بلاد الأندلس سياسياً وعسكرياً بيد المرابطين ، وكان لهذا نفقاته الهائلة في مواجهة أوروبا التي جاشت فيها بشدة روح الحروب الصليبية ، ولم تقتصر المشاكل على هذا الجانب ، فقد كان على المرابطين مواجهة المشاكل التي نجمت عن سقوط المغرب الأقصى في أيدي الأندلسيين إدارياً واجتماعياً واقتصادياً وحضارياً بشكل عام ، ولهذا كله «تركوا الثغور المواجهة لبلاد العدو في حكم الأندلسيين ، لكونهم أخبر بأحوالها ، وأدرى بلقاء العدو ، وشن الغـــارات ، ولم يمكنوا من ولايتها أحدا سواهم ، مع الإحسان إليهم ، وكانوا متى ما

---

(١) مذكرات الأمير عبد الله ، ص١٧٥ .

(٢) الحلل الموشية ، ص٧٥-٧٦ .

وصلتهم خيل من العدوة ، بعثوا بها إلى أهل الثغور»[1] .

وبعد مضي بضع سنوات على إزالة دول الطوائف قام يوسف بن تاشفين سنة ٤٩٦هـ ـ ١١٠٣م بزيارة رابعة إلى الأندلس ، وبرفقته ولده أبو طاهر تميم ، وأبو الحسن علي ، الذي تولى الملك بعده ، وتجول في أقطار الأندلس وتفقد بقاعها ونظر في أحوالها فشبهها «بعقاب رأسه طليطلة ، ومنقاره قلعة رباح ، وصدره جيان ، ومخالبه غرناطة» وجناحه الأيمن بلاد الغرب ، وجناحه الأيسر بلاد الشرق[2] .

وبعد هذا عاد يوسف إلى المغرب ليرتب شؤون الملك من بعده ، وذلك بعدما طعن بالسن وقارب المائة عام ، وفي سنة ٥٠٠هـ ـ ١١٠٧م توفي يوسف بن تاشفين ، وحين توفي كان قد مضى على أحداث الحروب الصليبية في المشرق أكثر من عقد من الزمان ، توفي يوسف بن تاشفين بعدما عمر لمدة قرن من الزمان ، وبعدما طبع تاريخ هذا القرن في المغرب والأندلس بطابعه الشخصي ، فعلى يديه جاءت شخصية المغرب الأقصى إلى الوجود الفعلي ، وبتوحيده للأندلس وضمها للمغرب الأقصى أعطى هذه البلاد هوية ما تزال قائمة حتى يومنا هذا ، قال عبد الواحد المراكشي يصف هذا الأمر : «وحين ملك يوسف أمير المسلمين جزيرة الأندلس وأطاعته بأسرها ، ولم يختلف عليه شيء منها عُدَّ من جملة الملوك ، لأن جزيرة الأندلس هي حاضرة المغرب الأقصى ، وأم قراه ، ومعدن الفضائل منه ، فعامة الفضلاء من أهل كل شأن منسوبون إليها ، ومعدودون منها ، فهي مطلع شمس العلوم وأقمارها ، ومركز الفضائل وقطب مدارها ، وأعدل الأقاليم هواء وأصفاها جوا ،

---

(1) الحلل الموشية ، ص٨١-٨٢ ، وتم الاستيلاء على الثغر الأعلى من قبل المرابطين سنة (٥٠٣هـ ـ ١١٠٩م) بعد وفاة يوسف بن تاشفين وولاية ابنه علي بن يوسف ، وبذلك غدت ديار الأندلس كلها ولاية مغربية .

(2) الحلل الموشية ، ص٧٧-٧٨ .

وأعذبها ماء ، وأعطرها نبتا ، وأنداها ظلالا ، وأطيبها بكرا مستعذبة وآصالا .

.... فـانقطع إلى أمـير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى أشـبهت حضـرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يتفق اجتماعه في عصر من الأعصار» [1]

بعدما قدم يوسف بن تاشفين إلى أرض المغرب الأقصى وحّد البلاد وأزال منها الفسـاد والاضـطراب ، وسـعى إلى محو الظلم والاستغلال ، وهذا أيضاً ما فعله في الأندلس ، فلقد كانت أنظمة الحكم في كل من الأندلس والمغرب مهترئة لا تتمتع بأي رضىً أو قناعة شعبية ، وكان شعب المغرب والأندلس ينشد الخلاص من الفرقة والذل والضـرائب الثقيلة والمغارم ، أراد شعب الأندلس أن يحصل على شيء من الأمن وأن يسـترد المسلم هناك كرامته ، وصحيح أن إزالة ملوك الطوائف تم بكثير من العنف ، ومرد هذا ليس لطبائع المرابطين الاجتماعية ولسويتهم العقائدية ونظرتهم الإسلامية إلى الأمور فقط ، بل لأن ملوك الطوائف كانوا من السوء بدرجة ليس بعدها درجة ، ولم يكن من الممكن التعامل معهم بغير العنف الشديد .

أمـا موقـف الأندلسيين بعد أمد من حكامهم من بداة الصحراء فذلك موضوع اجـتماعي حضاري ، ولا بد لكل تحول اجتماعي وحضاري وسياسي من ردات فعل ، المهم أن المرابطين تمتعوا أيام يوسف بن تاشفين بقسط كبير من الشعبية في الأندلس لأنهم «أظهـروا في أول إمرتهم من النكاية في العدو ، والدفاع عن المسلمين ، وحماية الثغور ، مـا صـدق بهم الظنون ، وأثلج الصدور ، وأقر العيون ، فزاد حب أهل الأندلس لهم ، واشـتد خوف ملوك الروم منهم ، ويوسف بن تاشفين في ذلك كله يمدهم في كل ساعة بالجـيوش بعـد الجيوش ، والخيل إثر الخيل ، ويقول في كل مجلس من مجالسه : إنما كان غرضـنا في ملـك هـذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدي الروم ، لما رأينا استيلاءهم على

---

[1] المعجب ، ص١٦٣-١٦٤ .

أكـــثرها ، وغفلة ملوكهم وإهمالهم للغزو ، وتواكلهم وتخاذلهم ، وإيثارهم الراحة ، وإنما همـــة أحدهـــم كـــأس يشربها ، وقينة تسمعه ، ولهو يقطع به أيامه، ولئن عشت لأعيدن جمـــيع البلاد التي ملكها الروم في طول هذه الفتنة إلى المسلمين ، ولأملأنها عليهم ـــ يعني الـــروم ـــ خـــيلا ورجـــالا لا عهد لهم بالدعة ، ولا علم عندهم برخاء العيش ، إنما هم أحدهم فرس يروضه ويستفرهه ، أو سلاح يستجيده ، أو صريخ يلبي دعوته»[1] .

وطـــبعاً لم يعش يوسف بن تاشفين ليحقق هذا الحلم الكبير ، ولم تتاح الفرصة للمرابطين من في بعده استئناف النشاط الإسلامي في الشمال لأسباب كان منها طبيعة أهـــل الأندلس ، ثم قيام حركة الموحدين التي أدت إلى سقوط دولة المرابطين ، فشعب الأندلـــس سـلم القيادة للمرابطين بعدما عانى كثيراً من ملوك الطوائف ومن العدوان الخارجي ، فاستسلم بذلك للأمن المنفذ من قبل رجال الصحراء بكل خشونة وجفاف وقسوة ، ولكن الحياة تتطور والأفكار تتبدل ، ما أن استرد الأندلسيون أنفاسهم حتى باتوا غير راضين عن حكم الصحراويين لهم فكانت هناك الثورات المتوالية .

لا شـــأن في هـــذا المدخل بما حدث بعد يوسف بن تاشفين ، ومفيد أن نختم حديثنا عنه بما وصفه به مؤرخ أندلسي غرناطي من أهل القرن الثامن ، ثم بالانطباعات التي خلفها رؤية قبره على صاحب كتاب أزهار البساتين : قال صاحب الحلل الموشية تحـــت عنوان «سيرة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين» : «كان رجلاً فاضلاً ، خيراً ، ذكياً فطناً ، حاذقاً لبيباً ، زاهداً ، يأكل من عمل يده ، عزيز النفس ، ينيب إلى الخير والصـــلاح ، كـــثير الخوف من الله عز وجل ، وكان أكبر عقابه الاعتقال الطويل ، وكان يفضل الفقهاء ، ويعظم العلماء ، ويصرف الأمور إليهم ، ويأخذ فيها برأيهم ، ويقضي على نفسه بفتياهم .

أقامت بلاد الأندلس في مدته سعيدة حميدة ، وفي رفاهية عيش ، وعلى أحسن

---

(1) المعجب ، ص١٦٢-١٦٣ .

حـــال ، ولم تـــزل موفورة محفوظة إلى حين وفاته رحمه الله ، وكان الجهاد انقطع بها مـــنذ تســـع وســـبعين سنة ، من مدة آل عامر ، إلى حين دخوله إليها ، قدم أشياخ المـــرابطين فيها ، وكانوا أقواماً ربتهم الصحراء ، نيتهم صالحة لم تفسدها الحضارة ، ولا مخالطة الأسافل» [1] .

وبعدمـــا فرغ صاحب أزهار البساتين من زيارة أغمات قصد مدينة مراكش ، قـــال : «فدخلـــت في ذلك المساء نفسه لمراكش ، وهنا ذهبت لزيارة قبر آخر ، فإذا رجعت من أغمات ومررت بباب أكنو تمر في طريق طوله ثلاثمائة متر ، تتبع في مشيك حائطـــاً من الطين فتصل إلى باب ألواحه غير متصلة ، وكلها مرقعة عليها سمة الفقر ، وتبصر من ثنايا ذلك الباب تحت ظل شجرة من المشمش على الأرض لبنات متجمعة بغير فن مسح عليها بالجير الأبيض : هذا هو قبر يوسف بن تاشفين مؤسس مراكش ، وقائد المجاهدين الملثمين في فتح غرناطة وقرطبة .

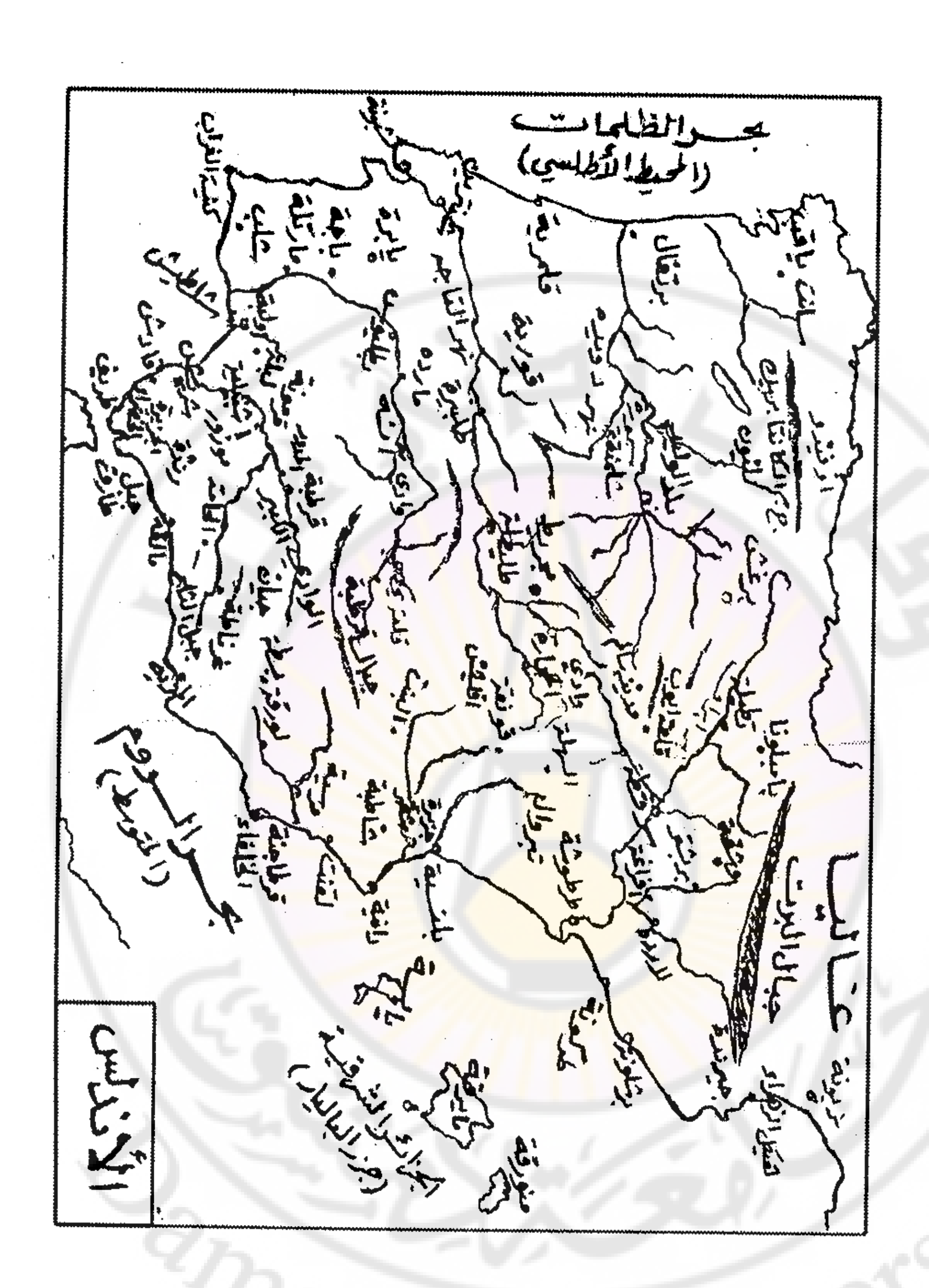
وفي كثير من الأحيان حاول بعض أهل الفضل بناء قبة على ذلك القبز ، ولكن ذلـــك الدفين العظيم المتعود على الهواء الطلق ، والعيشة تحت الخيام كان في كل مرة يهـــدم ما يبنون على قبره ، لأنه لا يقدر أن يرى فوقه في نومه الأبدي سقفاً من غير الأوراق المتحركة .

مـــات وسنه يفوق المائة ، وزاد ملكه على الخمسين سنة ، وخُطِب باسمه على مـــنابر أفريقيا والأندلس ، أي على ألف منبر ، وتسعة منابر ، وامتدت مملكته من بلاد فرنسا إلى مضيق جبل طارق ، وفي المغرب من طنجة إلى جبل الذهب بالسودان ، أي على مسافة ثلاثة أشهر طولاً وعرضاً ، وكان لا يكتّى إلا بأمير المسلمين» [2] .

---

(1) الحلل الموشية ، ص٨١-٨٣ .

(2) أزهار البساتين ، ص٧٥-٧٦ .


الأندلس
بحر الظلمات
(المحيط الأطلسي)
بحر الروم
(المتوسط)

ب ـ التواصل والحياة الإدارية والقضائية

• تبادل المؤثرات بين المغرب والأندلس :

كانت الصلات الحضارية والسياسة بين حكومة مراكش ومدن الأندلس وطيدة وحافلة بالحركة والتأثير المتبادل قبل التوسع المغربي في الأندلس حيث كان التاريخ مشتركاً بين العدوتين ، فكل ما كان يحدث في الأندلس كان ينعكس أثره على المغرب، والعكس صحيح ، وبإلحاق الأندلس وتبعيتها رسمياً كولاية مغربية لحكومة مراكش إثر التوسع المرابطي لها ، أصبح الطرفان وطناً واحداً اشترك سكانه في المصالح والمصائب معاً ، كما أقام بعضهم إلى جانب بعض يستفيدون ويفيدون ، كل بعطائه وإمكاناته ، هذا ولم تكن الحكومة المرابطية ، سواء بالمغرب أو الأندلس ، سوى دولة دينية عسكرية قبل كل شيء [1] كما لم تكن بطبيعتها الخشنة ، تميل إلى الأخذ بأساليب التمدن الرفيعة المستوى التي وصلت إليها الأندلس ، ومن الجائز أن طبيعتها الخاصة بها بالإضافة إلى عهدها القصير لم يتح لها أي مجال للأخذ بمثل هذه الأساليب ، أو ربما لم يشجعها على التأثر بحضارة الأندلس ، أعطت هذه الصفة نوعاً من التخصص لكلا الطرفين ، فالحكومة المرابطية في المغرب تولت مسألة الجهاد وحماية

---

(١) الحلل الموشية ، ص٢١ . روض القرطاس ، ص١٥٧ ، ١٦٦ .

الأندلس ، بينما أعطى الأندلس الثقافة والحضارة والخبرة ، ووفد إلى مراكش من أهل كل علم وفن أفضل رجاله حيث كان البلاط المرابطي مقصد أنظار المثقفين والمفكرين ومطمحهـــم ، ويجب ألا ينسى أن الحكومة المرابطية قد بذلت رعايتها لمجموعة كبيرة مـــن العلماء والأدباء الأندلسيين ، فمن المعروف أن الأندلس أصبحت جزءاً من دولة أكـــبر ، تضم القسم الأعظم من المغرب العربي الإسلامي ، وتقع حاضرتها في جنوب المغرب وعلى مقربة من الأطلس والصحراء [1] أي في منطقة لم تكن فيها مراكز فكرية للـــثقافة العربية الإسلامية ، وبالتالي كانت عاصمة الدولة وبلاطها وأجهزتها بحاجة إلى رجال ثقافة وعلم من كتاب وفقهاء ، خاصة لتلبية الحاجات المستجدة وتلبية الضرورة الناشـــئة ولذلك استخدم بلاط مراكش بالإضافة لحكام المرابطين بالأندلس كثيراً من العلماء الأندلسيين في مناصب الوزارة والكتابة ، ومن الجدير بالذكر أن استعانة أمراء المـــرابطين بهؤلاء العلماء كان من أفضل الطرق التي دعمت أواصر الصلات والتقارب بين البلدين ومظاهرها وتبعاً لذلك أصبحت مراكش مركز إشعاع ثقافي بل إنها فاقت بغـــداد وسبقتها في شهرتها ومجدها ، وهذا ما يصفه صاحب المعجب بقوله : «فانقطع إلى أمـــير المسلمين من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى أشبهت حضرته حضرة بني العباس في صدر دولتهم ، واجتمع له ولابنه من أعيان الكتاب وفرسان البلاغة ما لم يـــتفق اجتماعه في عصر من الأعصار ...» [2] أي نتج عن ذلك خلق مركز إشعاع للثقافة العربية الإسلامية متوغل في أعماق المغرب ، بينما اقتصرت مراكز إشعاع هذه الثقافة قبلاً على الشمال ، القيروان وفاس .

وبـــدأت الصلات الثقافية بين الأندلس والمغرب منذ عهد يوسف بن تاشفين ، حيـــث كـــان كاتبه قبل أن يعبر إلى شبه الجزيرة أديباً أندلسياً من أهل المرية هو عبد

---

(1) الروض المعطار ، ص٥٤٠-٥٤١ .

(2) المعجب ، ص١٦٣-١٦٤ .

الرحمن بن أسباط وعندما توفي سنة ٤٨٧هـ ـ ١٠٩٤م [١] وكان يوسف يومها قد مد سلطانه إلى الأندلس ، وخلع ملوك الطوائف خلفه في منصب الكتابة كاتب كبير من أشهر كتاب الأندلس هو محمد بن سليمان الكلاعي الإشبيلي يكنى بابن القصيرة . وكان حضوره إلى بلاط مراكش بداية لاحتشاد كبار العلماء والكتاب الأندلسيين للخدمة والعمل ، ويصفه المراكشي بقوله : «أحد رجال الفصاحة ، والحائز قصب السبق في البلاغة» [٢] ومنهم وزير بني الأفطس وكاتبهم أبو محمد عبد المجيد بن عبدون الذي أصبح كاتباً للأمير سير بن أبي بكر بن تاشفين ، وكان قبل ذلك قد كتب للمعتمد على الله في إشبيلية ، فلم يزل يكتب له إلى أن اتصل بأمير المسلمين ، باستدعاء منه له [٣] ، وأبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجد الفهري ، من أهل لبلة [٤] برع في الفقه والأدب وسكن إشبيلية ، وعمل لدى دولة بني عباد ، ثم بعدها للمرابطين حيث تولى خطة الإفتاء بلبلة ، كما استدعي للكتابة في بلاط علي بن يوسف حتى توفي عام ٥١٥هـ ـ ١١٢١م [٥] ومنهم أيضاً أبو عبد الله بن أبي الخصال ، وأخوه أبو مراون عبد الملك [٦] وغيرهم ، ولكن بالرغم من كل هذه التطورات والعلاقات الشديدة الصلة لم يقدم المرابطون على أخذ المكان الحضاري والثقافي الذي يشغله الأندلسيون ، فقليلاً ما يلاحظ وجود كاتب من أصل مغربي عمل لدى بلاط أمراء المسمين . ومع أن الأندلس أصبحت ولاية مغربية أي تبعت مراكش إدارياً فإن المغرب لم يستطع أن يؤثر عليها لتصبح جزءاً لا يتجزأ منه سواءً حضارياً أو

---

(١) الحلل الموشية ، ص٤٩ . الإحاطة ، ج٣ ، ص٥٢٣-٥٢٤ .

(٢) المعجب ، ص١٦٤ .

(٣) المعجب ، ص١٦٤ .

(٤) لبلة : مدينة قديمة تقع في غرب الأندلس . الروض المعطار ، ص٥٠٧ .

(٥) الصلة ، ج٢ ، ص٥٧٤ ، المعجب ، ص١٧٣ . قلائد العقيان ، ص١٢٣-١٢٤ ، ١٢٧-١٢٨ .

(٦) المعجب ، ص١٧٣ .

ثقافيـــاً ، فقـــد حافظت الأندلس على ثقافتها وطابع أصالتها مما دفع الأندلسيين للشعور باختلافهم عن المرابطين ، وهو السبب الذي سيدفعهم للثورة فيما بعد .

مـــن ناحية أخرى لم يقتصر نزوح العلماء الأندلسيين إلى المغرب على الفقهاء والكـــتاب بل اقتضى تأديب وتعليم أبناء الأسرة المالكة وأبناء وجوه الملثمين وأعيانهم اســـتجلاب مؤدبـــين في اللغة والعلوم الدينية ، وكان نصيب العاصمة وما حولها من هـــؤلاء يســـاوي ثلـــث المتوجهين إلى المغرب [1] ولا يخفى أثر هذا الأمر على المدى الطويل في تعريب المنطقة ونشر الثقافة العربية بين الملثمين . ولم تقف الأمور عند هذا الحـــد بل أرسل أمراء المرابطين أبناءهم لتلقي العلم في الأندلس على يد كبار العلماء ، فقـــد أرســـل الأمير علي بن يوسف أبناءه للدراسة هناك ، هذا وقد وفد على بلاطه الطبيب الأندلسي المشهور أبو مروان ابن زهر يشكو لأمير المسلمين ابنه الأمير أبي بكر الذي لم يكن مكباً على الدرس والتحصيل ، فلما استمع الأمير علي إلى تقرير ابن زهر عن سير دراسة ابنه حمله رسالة يقرعه فيها وينهره ويتوعده بقوله : «كتابنا ألهمك الله رشـــد نفسك من حضرة مراكش بعد وصول الوزير الجليل أبي مروان ابن الوزير أبي العـــلاء بـــن زهر محل أبينا ، يشكو ما يكدره ويقاسيه من تضريبك، فأمسك عليك رمقـــك وخذ من الأمور ما يسر وإلا أنفذناك إلى ميورقة» [2] وإن دل هذا على شيء فهو يدل على أن الأندلس كانت مركزاً للتخصص والدراسة ومركزاً للإشعاع العلمي والثقافي آنذاك .

---

[1] بـــوز (فارس) الأوضاع الداخلية للأندلس وعلاقاتها بالمغرب في ظل المرابطين ، رسالة ماجستير ، ص ١٧١ ، ١٨٥ ، ٢٠٠-٢٠١ .

[2] أضـــواء جديدة على المرابطين ، ص١٠٨ ، انظر ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ١٢٩٩هـــ ـــ ١٨٨٢م ، ط١ ، ج٢ ، عن المكانة الكبيرة التي شغلها بنو زهر كأطباء وعلماء لدى أمراء المرابطين ، ص٦٤ ، ٦٦ .

كذلك كان الفن في المغرب مجالاً من مجالات تأثير الأندلسيين ، وتجلى ذلك في الأبنية الدينية والمدنية على السواء . انعكس ذلك من خلال التوسيع الذي أجراه علي بـــن يوســـف بن تاشفين لجامع فاس عام ٥٢٩هـــ ـــ ١١٣٤م ، إذ كانت أقواسه المتصـــالبة من النوع المعروف في قرطبة وفي بناء جامع تلمسان تبدو الزخرفة أندلسية أيضـــاً [١] ، يحمـــل هـــذا الأمـــر للاعتقاد بأن العاملين في البناء والتزيين كانوا من الأندلســـيين . أما في البناء المدني فهناك نص يثبت أن الأندلسيين هم الذين قاموا ببناء قنطرة على نهر تانسفيت الواقع على بعد ثلاثة أميال من مراكش ، حيث بنى عليه أمير المؤمـــنين علي بن يوسف «قنطرة عظيمة متقنة البناء ، بعد أن جلب إلى عملها صناع الأندلس ، وجملة من أهل المعرفة بالبناء فشيدوها» [٢] .

هذا فيما يتعلق بالعلاقات الثقافية والعلمية والفنية ، أما في المجالات الأخرى فلم يغلـــق أمراء المرابطين أبوابهم في وجه الأندلسيين في أي وقت من الأوقات ، بل كانت الصلات على أشدها بين الطرفين في كل الظروف وكل الأوقات فكان وجوه النواحي وأعلامهم لا تنقطع زياراتهم للبلاط المرابطي لإطلاع أمير المسلمين على نقاط الضعف والخلـــل في البلاد أو ما طرأ عليها من تطورات وأحداث جديدة وخطيرة ، فكان أمير المســـلمين يستمع إليهم بانتباه ويطلب من فقهائهم وممن سبق له الأشراف على ولاية هـــذه الـــنواحي الإدلاء بنصائحه ليستنير برأيه واعداً ببذل كل ما يستطيع ، وهذا ما حـــدث عندما قدم القاضي أبو الوليد بن رشد عام ٥١٩هـــ ـــ ١١٥٦م لزيارة أمير المسلمين علي بن يوسف في العاصمة مراكش بهدف إطلاعه على أحوال الأندلس وما فعلـــه المعـــاهدون من استدعاء ألفونسو المحارب ليعيث ويدمر في أراضي الأندلس ،

---

(١) Torres Balleas, el Art de al-Andalus bajo el dominio Almorvide, Al-Andalus, volxv II. 1952. p.402-433 .

(٢) الروض المعطار ، ص١٢٧ .

والسبب الثاني هو التماسه عزل الأمير أبي الطاهر تميم أخي أمير المسلمين عن ولاية الأندلس وتقديم غيره ، وقد نظر أمير المسلمين في رجائه ونفذ له ما طلبه»[١] .

يتضح مما سبق أن الفقهاء كانوا حلقة وصل بين حكومة مراكش وحكام الأندلس مما يلقي ضوءاً على الدور الكبير الذي شغله هؤلاء في توجيه الحكم بالأندلس ومدى تأثيرهم على توطيد العلاقات بين الطرفين وتوثيقها ، حيث كان لهم السبق الأكبر في التأثير على حكام المرابطين ومواقفهم السياسية بل في اتخاذ قراراتهم بالنسبة لارتباطاتهم ومسؤولياتهم تجاه ولاية الأندلس ، مما أتاح المجال لسيطرة النَّزعة الدينية على الحكم المرابطي بالأندلس وهو ما لم يألفه الأندلسيون من قبل ، ويبدو أن العلاقة الوثيقة التي كانت تربط بين الولايتين بشكل رئيسي هي أمور الدفاع ضد النصارى أي الأسبان في الأندلس ، بالإضافة إلى الإشراف على استتباب الأمن والوضاع هناك ، والنص التالي من الرسالة التي أرسلها أهل قرطبة إلى أمير المسلمين علي بن يوسف يؤكد ذلك : «أيد الله أمير المسلمين بالتقوى ... فلولا رجاؤه لكان (العدو) قد خرق في هذه الجزيرة ...»[٢] .

وفي إطار الاتصال المستمر بمراكش وُجِدت هذه الرسالة التي أنشأها الكاتب ابن القصيرة بمراكش آخر ذي ذالحجة عام ٤٩٩هـ ـ ١١٠٦م وقد وجهت من قبل الأمير علي بن يوسف قبل وفاة والده بيوم واحد وهو رداً على الخطاب الذي وجهه إلى أمير المسلمين مجموعة من الفقهاء اطلعوا العاهل المغربي على أحوال هذا الجزء من الدولة كما تذكر الرسالة أن الأمير أبا الطاهر تميم بن يوسف أخا علي قد تقدم بإيضاح أحوال هذه البلاد . ويلاحظ أن الحديث عن أمثال هذه السفارات قد تكرر في عدد من الرسائل المرابطية مما يدل على أن انشغال أمراء المرابطين بالأندلس لم

---

(١) الحلل الموشية : ص٩٠-٩٨ . المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي : ص١٦٠-١٦١ .

(٢) رسائل ومقامات أندلسية ، ص٨٨ .

ينقطع طوال عهدهم حتى في الوقت الذي اضطربت فيه الأحوال عليهم . «كتابنا أبقاكم الله ، وأكرمكم بتقواه ، ... من حضرة مراكش ... سنة تسع وتسعين وأربعمائة... وقد وردنا كتابكم الأثير ،... فوقفنا على ما وعاه ، وأحصيناه ما أودعتموه إياه ، ولم يمر على سمعنا فصل من فصوله إلا تأملناه ،... وقد كان الأمير أبو الطاهر أخونا ... تقدم لنا بين يدي ذلك بجلاء تلك الأحوال في مناصها ، وعرض ما تستدعيه من الأعمال عامها وخاصها ،... وإنما قبلكم لمهتبلون ،.... وفيما نرجو به الصلاح الشامل لكم عاملون ،... وها نحن ـ أبقاكم الله ـ في تلافي ما أشرتم إليه آخذون ، وعلى ما يسد الخلل ويربح العمل عندكم عاطفون»[1] .

ومن الرسائل التي وجهت من العاصمة مراكش داعية إلى التآلف والتعاون ونبذ الخلاف فيما بين أعيان المرابطين هناك ، رسالة أرسلها علي بن يوسف إلى أهل إشبيلية، قائلاً فيها : «... قد بلغنا ما تأكد بين أعيانكم من أسباب التباعد والتباين ، ودواعي التحامد والتضاغن ... وتمادي التقاطع والتهاجر ، وفي هذا على فقهائكم وصلحائكم بطعن بين ، ومغمز لا يرضاه مؤمن دين . فهلا سعوا في إصلاح ذات البين ، سعي الصالحين ، وجدوا في إبطال أعمال المفسدين ،وبذلوا في تأليف الآراء المختلفة ، جهد المجتهدين ،...»[2] يتضح مما سبق حرص أمراء المرابطين من خلال اتصالهم الدائم والمستمر بولاية الأندلس على استتباب الأمن وضبط الأمور هناك ، وإبعاد كل ما هو مثير للشغب والاضطراب وذلك لضمان قوة الحكم المرابطي وهيبته في ولاية الأندلس ، بالإضافة للحفاظ على قوة الأندلس وتماسكها أمام أعدائها الأسبان . لا بل سعى أمراء المرابطين إلى الاهتمام بنوعية الولاة الذين يحكمون ولايات تلك المناطق وحثوهم دائماً على إقامة العدل وإحقاق الحق . وهو ما يتضح من الرسالة

---

(١) التاريخ الدبلوماسي ، المجلد الخامس ، القسم الأول ، ص١٠٤ .

(٢) خريدة القصر ، ج٣ ، ص٣٩٧-٣٩٨ .

الـــتي أرسلها علي بن يوسف إلى والي مرسية قائلاً فيها : «من حضرة مراكش ... وقد رأيـــنا .. أن نجـــدد عهدنا إلى عمالنا ... بالتزام الحق ، وإيثار أسباب الرفق ، لما نرجوه في ذلك من الصلاح الشامل ، والخير العاجل (والآجل) ... وأنت ـــ أعزك الله ـــ ممن يستغني بإشارة التذكير ، ويكفي بلمحة التبصير ، لما تأوي إليه من السياسة والتجربة ، فاتخذ الحق إمـــامك ، وملـــك يده زمامك ، وأجرِ عليه في القوي والضعيف أحكامك ، وارفع لدعوة المظلـــوم حجـــابك ، ولا تسد في وجه المضطهد بابك ، ووطئ للرعية ـــ حاطها الله ـــ أكنافك ، ... واستعمل عليها من يرفق بها ، ويعدل فيها ،..»[1]

أما فيما يتعلق بالعلاقات التي تربط حكومة مراكش بالمناطق التي لم يتم السيطرة علـــيها مباشـــرة في الأندلـــس ، فقد اتصفت بطابع الدبلوماسية ، وعلى سبيل المثال علاقـــات المرابطين ببني هود ، التي اتخذت طابعاً دبلوماسياً وسياسياً حاول من خلالها حكـــام بـــني هود المحافظة على حكمهم في سرقسطة ، ففي تلك الآونة أخذ المستعين حاكم سرقسطة يمد خيوط المودة بينه وبين يوسف بن تاشفين حتى تكاد تجمع المصادر الإسلامية على أن العلاقات الهودية المرابطية في عهد المستعين على أفضل وجه . لا بل كان ابن هود يتحف أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بالهدايا الثمينة ويؤكد ابن الأثير عـــلى أن هـــذه الصداقة تعود إلى ما قبل جواز يوسف إلى الأندلس[2] فرعى يوسف ذلك للمستعين و لم يتعرض لبلاده ، وأوصى خليفته علياً عندما أشرف على الموت بألا يـــتعرض لـــبني هود وأن يتركهم درعاً وحاجزاً بينه وبين العدو[3] ولكن بعد توسع المرابطين في بلنسية عام ٤٩٥هـــ ـــ ١١٠٣م ، التي كان يأمل المستعين أن تبقى فيها

---

[1] خريدة القصر ، ج٣ ، ص٤٠٠ .

حمادة . الوثائق السياسية والإدارية (١٤٠٠هـــ ـــ ١٩٨١م) ط١ ، ص٢٩٨-٢٩٩ .

[2] الحلل الموشية ، ص٧٦ . الكامل ، م.١٠ ، ص١٩٣ .

[3] الحلل الموشية ، ص٨٣ .

إمـــارة تحول بينه وبين المرابطين خشية أن يمتد هذا التوسع ليشمل سرقسطة ، فسارع ســنة ٤٩٦هـــ ـــ ١١٠٣م حينما جاز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس جوازه الأخير لأخذ البيعة لابنه علي ، بإرسال ولده عبد الملك إلى قرطبة بهدية ثمينة مؤلفة من أربعة عشر ربعاً من آنية الفضة مطرزة باسم المقتدر بن هود إلى أمير المسلمين فقبلها منه [١] ويـبدو أن المســتعين كـــان حريصاً على ألا يترك مناسبة إلا ويظهر ليوسف ولاءه وصـــداقته بالإضـــافة إلى الحنكة والدهاء السياسي اللذين يتصف بهما وهو يفسر لماذا بقيت سرقسطة بزعامة بني هود على علاقة جيدة مع المرابطين ، واستمرت السفارات الدبلوماســية بيـنهما دون انقطـــاع ، ولكن بوفاة المستعين واستيلاء المرابطين على سرقســطة عـــام ٥٠٣هـــ ـــ ١١٠٩م [٢] تبدأ مرحلة جديدة من العلاقات الهودية المرابطـــية والمتعلقة بتولي حكام سرقسطة الجدد الدفاع عنها ضد النصارى ، ولكن لم تمض عدة سنوات حتى سقطت سرقسطة بيد النصارى ، ومع ذلك استمرت العلاقات بـــين الطـــرفين ، وبذلك نقف على نموذج من خطابات الاستنجاد والاستصراخ التي كانـــت ترد على البلاد المرابطي مما كتبه قاضي سرقسطة والجمهور فيها إلى الأمير أبي الطاهـــر تمـــيم بـــن يوســـف بن تاشفين أثناء الحصار ، حيث كان المسلمون بها ما يـــزالون يؤملون الإفراج عنهم وتخليص المدينة ، وهذا خطاب مؤرخ يوم ١٧ شعبان ٥٢٣هـــــ ـــ ١١٢٩م «كتابـــنا أيـــدك الله بتقواه ... عن حال قد عظم بلاؤها ، وادلهمت ضراؤها ، فنحن في كرب عظيم وجهد أليم ، قد حل العزاء وعظم الخطب، وأظلـــنا الهلاك والعطب ، فيا غوثاه ! ثم يا غوثاه ! إلى الله دعوة من دعاه وأمله لدفع الضـــرر ورجاه ... ويا الله ! ويا للإسلام ! ... فما ظنك أيها الأمير بمن يلوذ به بعد.

---

(١) الحلة السراء ، ج٢ ، ص٢٤٨-٢٤٩ .

(٢) المصـــدر الســـابق ، ج٢ ، ص٢٤٨ . انظر روض القرطاس ، ص١٦٠، حيث يحدد مؤلف الكتاب تاريخ دخول المرابطين لسرقسطة بعام (٥٠٢هـــ ـــ ١١٠٨م) .

الله الجمهــود بأمة ... هو المطاب بدمائها ... ونحن نأمل منك بحول أسباب النصرة بتلك العساكر التي أقر الله بهاؤها وسر النفوس زهاؤها ...»[1] .

هــذا وعلى الرغم من العلاقات الوثيقة التي كانت تربط بين حكومة مراكش وولايــة الأندلس ، ومحاولات حكومة مراكش المستمرة في الهيمنة على أوضاع شبه الجزيــرة والدفاع عنها من أجل استتباب الأمن والهدوء فيها فإن الأندلسيين لم ينسوا شخصــيتهم واختلافهم عن المرابطين بل سعوا للتخلص من هذا الحكم الذي اعتبروه متزمــتاً وقاســياً ، غريــباً عنهم ، لذلك انطلقت الثورات في شبه الجزيرة داعية إلى التخلص من المرابطين وإقامة حكم أندلسي خالص .

● الحياة الإدارية :

كانــت دولــة المرابطين بسيطة في نشأتها ، فهي كأي دولة ذات أصول بدوية ، كانــت تعتمد في انتخاب زعمائها على أسس ومبادئ تعارفوا عليها منذ زمن ، مثل كبر الســن ، والشجاعة والكرم ، والعصبية لمن يُنتخب زعيماً لها دون حكر السلطة على أبناء الزعــيم المنتخب ، فقد بويع يحيى بن عمر بالإمارة لتحمسه للدعوة وصدق جهاده ، ولما استشــهد خلفه أبو بكر بن عمر بعد أن بايعه الشيخ عبد الله بن ياسين ، وهو من البيت والقبــيلة نفســيهما ، ومن الملاحظ أن أمراء المرابطين الأوائل كانوا يعترفون لعبد الله بن ياسين بالسلطة الروحية ، كما كان يطلق على هؤلاء الحكام لقب أمير فقط[2] .

هــذا ولمــا تولى يوسف بن تاشفين الحكم بدأت مرحلة جديدة اتخذت اتجاهاً ومســاراً آخر ، فبعد أن توطدت سلطته في معظم أرجاء المغرب كان طبيعياً أن يتخذ

---

(1) الوثــائق السياسية والإدارية ، ص٣٠٥-٣٠٩ . التاريخ الدبلوماسي ، المجلد الخامس ، القسم الثاني ، ص١٥٧-١٥٩ .

(2) الحلل الموشية ، ص١٥-٧ ، ٢١-٢٣ . المرابطون اللمتونيون ، ص٣٠ .

لنفســه لقباً يليق بقوة نفوذه واتساع دولته ، وقد رأى زعماء المرابطين وأشياخهم أن يــتخذ يوســف لنفســه لقب «أمير المؤمنين» ، ولكنه أبى ذلك ، حيث قال : «... حاشــى لله أن نتسمى بهذا الاسم ، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة ، لأنهم ملوك الحرمين : مكة والمدينة ، وأنا رجلهم والقائم بدعوتهم ، فقــالوا لــه : لا بد لك من اسم تمتاز به ، وبعدها أجاب إلى» أمير المسلمين وناصر الدين ، «خطب لــه ذلك على المنابر وخوطب به من العدوتين» [١] ، وفي هذا المجال يقــول السلاوي : «وإنما احتاج أمير المسلمين إلى التقليد من الخليفة ... مع أنه كان بعــيداً عنه وأقوى شوكة منه لتكون ولايته مستندة إلى الشرع ... وإنما تسمى بأمير المســلمين دون أمــير المؤمنين أدباً مع الخليفة حتى لا يشاركه في لقبه . لأن لقب أمير المؤمنين خاص بالخليفة والخليفة من قريش» [٢] .

وهكذا خاطب يوسف بن تاشفين الخليفة العباسي ،وبعث إليه عبد الرحمن بن محمد بن العربي المعافري الإشبيلي ، وولده القاضي أبا بكر ، حيث طلبا من الخليفة أن يعقــد ليوســف بن تاشفين على المغرب والأندلس ، فأجابه إلى ما طلب وبعث إليه بمرســوم الولايــة [٣] ، ولما وصلت الموافقة إلى يوسف أرسل إلى عمال دولته وأعيانها رســالة طالــباً فيها المخاطبة بهذا اللقب في المراسيم الرسمية والكتب الصادرة عنهم ، قــائلاً: «... رأيــنا أن نخصص أنفسنا بهذا الاسم ولنمتاز به عن سائر أمراء القبائل ، وهــو «أمير المسلمين وناصر الدين» فمن خاطب الحضرة العلية السامية ، فليخاطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى...» [٤] .

---

[١] الحلل الموشية ، ص٢٩ .

[٢] الاستقصا ، ج٢ ، ص٥٣ .

[٣] العبر ، م٦ ، ص٣٨٦ . مؤنس : تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٨٦م، ص٤٠٧-٤٠٨ . التاريخ الدبلوماسي ، المجلد الخامس ، الجزء الثاني ، ص٢٧٠ .

[٤] الحللُ الموشية ، ص٢٩-٣٠ .

يتـــبين مما سبق أن يوسف بن تاشفين اتخذ هذا اللقب عام ٤٦٦هـــ ــ ١٠٧٣م أي قـــبل موقعة الزلاقة بثلاث عشرة سنة [١] كما لم يتعرض المؤرخون إلى السنة التي اعترف فيها الخليفة العباسي بإمرة يوسف بن تاشفين .

هـــذا ولم يقف ابن تاشفين في مسألة شرعية الحكم عند هذا الحد ، وإنما جعل إمـــارة دولـــته في المغرب والأندلس حكراً على أبنائه تنتقل بينهم عن طريق الوراثة ، ولقـــد أقـــدم على هذه الخطوة بالفعل عندما وقع اختياره على ابنه علي الذي لم يكن أكـــبر أبـــنائه ليـــتولى مهام الحكم من بعده لما امتاز به من ورع ونباهة لذلك أصدر مرسوماً بهذا الشأن عام ٤٩٥هـــ ــ ١١٠١م [٢] قائلاً فيه : «... فإن أمير المسلمين، وناصـــر الدين ، أبا يعقوب يوسف بن تاشفين ، لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين ، خاف أن يسأله الله غداً عما استرعاه كيف تركه هملاً لم يستنب فيه سواه ، وقـــد أمر الله بالوصية بما دون هذه العظيمة وجعلها من أوكد الأشياء الكريمة، كيف وفي عظائم الأمور ، ومصلحة الخواص والجمهور ...» [٣] .

يستنتج من تلك الوثيقة أن للحاكم المرابطي أي أمير المسلمين صلاحية في تعيين خلـــف له ، وتؤكـــد بأن هذا الحق من الحقوق الأساسية التي منحها الله له ، بل كان أمـــير المرابطين يرى أنه مسؤول أمام الله في اختيار ولي عهده ، وأن هذا الشيء ليس بالأمـــر الســـهل أو كأي أمر آخر من الأمور العادية أو العامة . هذا كما رافق تلك الوثـــيقة شـــروط اشترطها يوسف بن تاشفين على ولده لتقديمه لولاية العهد وهي : ترتيـــب قـــوة عسكرية مكونة من سبعة عشر ألف فارس في الأندلس ، موزعة على نواحـــي متعددة فيها . فقد خصص إشبيلية بسبعة آلاف فارس ، كما خصص لقرطبة

---

[١] المصدر نفسه ، ص٣٠ .

[٢] الحلل الموشية ، ص٧٩-٨٠ . الإحاطة ، ج١ ، ص١٤٠ .

[٣] الحلل الموشية ، ص٧٨-٧٩ .

ألف فارس ، وخص غرناطة ألفاً آخر ، أما منطقة شرق الأندلس فقد خصصها بأربعة آلاف فـارس، وذلك لتعرض تلك المنطقة المستمر لغارات النصارى كما خص الثغور بأربعة آلاف فارس لمدافعة النصارى والمرابطة في الحصون المجاورة للعدو [١] .

يتضح مما سبق أن للأندلس مكانة وأهمية كبيرتين فهي تعد جزءاً هاماً من الدولة المرابطية ، فضلاً عن كونها تمثل خط المواجهة الأول والمباشر مع الأسبان ، ولا بد أن يكـون ولي العهـد الجديد أي حاكم المغرب والأندلس على قدر عالٍ من الكفاءة ، بالإضـافة لمعرفته ودرايته بأمور الأندلس وأحوالها ، وهو ما يلاحظ من خلال اختيار يوسـف لابنه علي للمؤهلات التي امتاز بها ، من حيث اتصاله بالأندلسيين عن طريق نسب أمه [٢] من جهة ، ومن جهة أخرى ولايته للأندلس في عهد أبيه [٣] التي أعطته الفرصـة في التعرف على أحوال الأندلس ومعرفة شؤونها ، فلا بد أن تكون الحضارة الأندلسية قد أثرت فيه وجعلته أقرب للمجتمع الأندلسي ، لذلك فضل على أخوته في ولايـة العهد ، ولأن يوسف كان يهمه أمر الأندلس كما يهمه أمر المغرب ، وبما أن دولـة المرابطين قامت من أجل رد الأمة إلى تعاليم الإسلام الصحيحة فإنها لا تستطيع أن تتغافل عن مكانة الشورى في اختيار أمير المسلمين ، ولذلك أضفى المرابطون على دولـتهم نوعاً من الشورى في اختيار ولي العهد ، فكانت تقام بيعة خاصة يبايع فيها أفراد الأسرة الحاكمة وزعماء المتونة وشيوخ القبائل [٤] حتى إذا اكتملت أسباب هذه البيعة ترسل الرسائل إلى ولاة المرابطين في جميع أمصار دولتهم لإخبارهم باختيار ولي العهـد الجديد مطالبين بأخذ البيعة العامة لـه [٥] ، ويبدو أنه كان يطلب من المبايعين

---

(١) الحلل الموشية ، ص٨٠ .

(٢) روض القرطاس ، ص١٥٧ .

(٣) الإحاطة ، ج١ ، ص١٤٠ .

(٤) الإحاطة ، ج٢ ، ص٥١٩ .

(٥) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٥٢٠ .

للأمـــير المرابطي أو لولي عهده أن يحلفوا بالإيمان المغلظة واللازمة على بيعتهم ، وربما الهـــدف مـــن ذلك هو زيادة في الاطمئنان والاستيثاق خوفاً من نكث البيعة فيما بعد «...ثم دعا ... تأييد لمبايعته ،... من حضر ودنا من المسلمين ، فلبوا مسرعين ، وأتوا مهطعـــين ، وأعطوا صفقة إيمانهم متبرعين متطوعين ، وبايعوه على السمع والطاعة ، والـــتزام سنن الجماعة ، وبذل النصيحة جهد الاستطاعة ...» (١) بالإضافة إلى ذلك كـــان اسم ولي العهد ينقش على السكة سلفاً إلى جانب اسم والده ، فعندما قرر علي بـــن تاشـــفين مـــبايعة ابنه تاشفين بولاية العهد جمع الناس وعرض عليهم الأمر وبعد الحصول على موافقتهم «نقش اسمه على الدنانير والدراهم مع اسمه» (٢) .

هـــذا ولم يكن هناك قانون صريح ينظم وراثة العرش ، ففي معظم الأحيان لم يحترم حق الابن الأكبر في ولاية العهد ، فقد اختار يوسف بن تاشفين ولده علياً لولاية عهده بالرغم من أنه لم يكن أكبر أبنائه (٣) ، ومن الجدير بالذكر أنه من ضمن التقاليد المتـــبعة تجديد البيعة لولي العهد الجديد بعد وفاة والده وهذا ما قام به علي بن يوسف بعـــد وفـــاة والـــده ، حيث خرج ويده في يد أخيه أبي الطاهر تميم فنعيا والدهما إلى المـــرابطين ، وجـــدد أبـــو طاهر بيعته لأخيه ثم قال للمرابطين : «قوموا فبايعوا أمير المســـلمين فـــبايعه جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة والفقهاء وأشياخ القـــبائل فتمت لـــه البيعة بمراكش» (٤) ثم كتب علي في الوقت نفسه إلى سائر بلاد المغـــرب والأندلـــس ، يعلمهم بوفاة والده واستخلافه إياه بعده ، ويطلب منهم بأن يأخذوا البيعة له ، فأتته البيعة من جميع البلاد وأقبلت نحوه الوفود للتعزية والتهنئة (٥) .

---

(١) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٥٢٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ج١ ، ص ٤٤٧ ، الاستقصاء ، ج٢ ، ص٦٠ ،المؤنس ، ص١٠٩ .

(٣) الحلل الموشية، ص٧٧-٧٨ . الإحاطة ، ج٤ ، ص٥٨ .

(٤) روض القرطاس ، ص١٥٨ .

(٥) المصدر نفسه ، ص١٥٨ .

هــذا وكــان أمــير المسلمين المرابطي يتمتع بسلطة تنفيذية قوية ، ويدير دفة حكــم المغرب وولاية الأندلس ، من مقره في مراكش الذي كان يطلق عليه اسم بيت الأمــة [1] بمســاعدة مجموعــة مــن الفقهاء ، وكان لا يبت في أمر من الأمور إلا بمشــورهم حسبما يصفه المراكشي بقول : «... وكان لا يقطع أمراً في جميع مملكته دون مشــاورة الفقهاء» [2] ، وكان يساعد أمير المسلمين في إدارة دفة الحكم مجموعة مــن الوزراء والكتاب اعتمد عليهم في تدبير شؤون الدولة سواء في عهد يوسف بن تاشفين أو ابنه علي [3] .

أما النظام الإداري لولاية الأندلس فقد كانت مقسمة إلى ست ولايات رئيسية: إشــبيلية ، وغرناطة ، وقرطبة ، وبلنسية ، ومرسية ، وسرقسطة [4] ، وكانت عاصمة ولاية الأندلس في عهد يوسف بن تاشفين مدينة قرطبة ، ومنها أصدر مرسومه بولاية عهــده لابنه علي [5] ، ولما تولى علي بن يوسف مقاليد الإمارة أمر بنقل قاعدة الولاية إلى مدينة غرناطة [6] ، ثم عادت في أواخر أيامه إلى قرطبة [7] ، وتعد عاصمة الأندلس مركز أو مقر النائب العام أي الحاكم العام لولاية الأندلس [8] .

وممــا تجــدر الإشــارة به أن ولاية الأندلس كانت شبه مستقلة عن حكومة

---

(1) أرنست كونل . الفن الإسلامي . ترجمة أحمد موسى ، بيروت ١٩٦٦م ، ص١٢٦ .

(2) المعجب ، ص١٧١ .

(3) المصدر نفسه ، ص١٦٤ ، ١٧٣-١٧٦ .

(4) التاريخ الأندلسي ، ص٤٤٩-٤٥٠ .

(5) روض القرطاس ، ص١٥٦ .

(6) أعمال الأعلام ، ص٢٥٦ . تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٤٧ .

(7) نظم الجمان ، ص١٩٩ .

(8) أعمــال الأعلام ، ص٢٥٦ . تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٤٧ . نظم الجمان ، ص٣٩٩ عن مقر الحاكم العام للأندلس في عاصمة الأندلس .

المرابطين بمراكش ، فقد عاش ولاتها يتمتعون بالسلطة الواسعة وفي الوقت نفسه يدينون بـــالولاء لأمير المسلمين في مراكش ، فالحكم المرابطي يميل إلى اللامركزية في الشؤون الإداريـــة أي بمـــا معناه استقلالية الإدارة الأندلسية . ذلك أن سيطرة المرابطين على الأندلس تمثلت بالناحية السياسية فقط حيث حكم المدن الأندلسية ولاة من المرابطين ، بـــل يمكن القول بأن مناصب الولاية بالأندلس ، كانت وقفاً على الأمراء والقادة من المـــرابطين ولا ســـيما ذوي القربى منهم ، وكان في مقدمة هؤلاء بعض أقطاب قادة المرابطين مثل الأمير سير بن أبي بكر اللمتوني فاتح إشبيلية ثم واليها [١] ويحيى بن غانية والي بلنســـية وشرق الأندلس [٢] والأمير مزدلي والي قرطبة وغرناطة وهو من أبناء عمومة يوســـف بن تاشفين [٣] ومحمد بن فاطمة والي إشبيلية [٤] وأبو بكر بن إبراهيم الأمير أبو يحـــيى المســـوفي الصـــحراوي من أمراء المرابطين وصهر علي بن يوسف بن تاشفين زوج أخـــته والي غـــرناطة ثم سرقسطة فيما بعد [٥] وتاشفين بن علي والي غرناطة [٦] والأمير إبراهـــيم بن يوسف بن تاشفين والي إشبيلية [٧] وكثيراً ما كان ولاة العهد يتولون ولاية الأندلـــس أي منصـــب الحـــاكم العام للأندلس ، فإذا اعتلى ولي العهد العرش ولى أخاه الأكـــبر أو ابنه هذا المنصب ، فقد تولى علي بن يوسف ولاية بلاد الأندلس في عهد أبيه يوســـف بن تاشفين [٨] ، وبعد أن اعتلى العرش أي عرش الإمارة ، عين لولاية الأندلس

---

(١) روض القرطاس ، ص١٦١-١٦٢ . عصر المرابطين والموحدين ، ج١ ، ص٤١٥ .

(٢) الإحاطة ، ج٤ ، ص٣٤٣-٣٤٤ .

(٣) المصدر نفسه ، ج٣ ، ص٢٧٤-٢٧٥ .

(٤) روض القرطاس ، ص١٦٢ .

(٥) الإحاطة ، ج١ ، ص٤٠٤-٤٠٥ . العبر ، م٦ ، ص٣٩٠-٣٩١ .

(٦) تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٤٧ .

(٧) المعجم ، ص٥٤-٥٥ .

(٨) الإحاطة ، ج٤ ، ص٥٨ .

ابنه تاشفين بعد وفاة أخيه تميم عام ٥٢٠هـ ــ ١١٢٦م [١] .

هذا وكان من عادة أمراء المرابطين الكتابة إلى أهل الأندلس أو إلى أهل الناحية المولى عليها الوالي الجديد موضحين لهم المسوغات التي دفعت أو أدت إلى اختيار هذا الوالي للمكانة الرفيعة التي يتمتع بها بالإضافة لتوفر الخبرة ، والمقدرة والذكاء والدين والتقوى وحسن السيرة أيضاً مطالبين أهل الولاية بالطاعة والولاء وإبداء النصح والإرشاد للوالي الجديد إذا احتاج ذلك ، وهو ما يستشف من الرسالة التي أرسلها الأمير علي بن يوسف إلى أهل بلنسية بولاية يحيى بن علي بن غانية عليهم لأربع خلون من جمادى الأولى سنة أربع وعشرين وخمسمائة قائلاً : «... فقد رأينا بعد استخارة الله ... أن نولي عليكم أبا زكرياء يحي بن علي ــ أعزه الله بتقواه ــ فقد قلدناه أعمالكم ، ووصلنا به حبالكم ، نظراً منا لكم بمكانه ... فإنه والله ينجده ، ويسعده بحيث علمتم حسن سيرة وعدل ، ومتانة دين وفضل ، وتمسكاً من التقوى بأقوى حبل ،... فعليكم ــ رحمكم الله ــ أن تتلقوا أمره بأتم سمع وطاعة ، وتتوخوا نصحه بكل جهد واستطاعة ...» [٢] .

وكان أمير المسلمين يضع للوالي الجديد الخطط التي يجب أن يسير عليها ، وكان على الوالي أن يقدم تقارير عن كل ما يجد في ولايته إلى أمير المسلمين [٣] هذا وكان بلاط الولاة في الأندلس صورة مصغرة عن بلاط أمير المسلمين في مراكش ، فكما كان لأمير المسلمين وزراء وكتاب يحررون المراسيم والرسائل الحكومية له [٤] كان

---

(١) أعمال الأعلام ، ص٢٥٦ . روض القرطاس ، ص١٦٤ . العبر ، م٦ ، ص٣٨٧ .

(٢) رسائل ومقامات أندلسية . تحقيق فوزي سعد عيسى ، ص١٣٣-١٣٤ . انظر قلائد العيان ، تصحيح سليمان الحرايري ، ص١٢٧ ، عن رسالة أرسلها أمير المسلمين المرابطي إلى أهل سبتة متحدثاً فيها عن سبب اختياره للوالي الذي عينه عليهم .

(٣) حسن أحمد محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧م ، ص٣٥٧-٣٥٨ .

(٤) الإحاطة ، ج١ ، ص٤٥٠ . العبر ، م٦ ، ص٤٦١ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٥٤ .

للـــولاة في الأندلـــس وزراء وكتاب وعلماء يجالسونهم لإدارة شؤونهم ، بل إن عدداً كـــبيراً مـــن الكـــتاب والوزراء الذين خدموا أو عملوا لدى بعض الولاة في الأندلس خدموا في بلاط أمير المسلمين في مراكش [١] ، وهو ما سوف يرد ذكره عند التعرض للوظائف الإدارية بشكل مفصل .

ومـــن الجدير بالذكر أن الوالي في عصر المرابطين تمتع بصلاحيات واسعة ، فقد كـــان شبه مستقل في ولايته وله الحق في تولية العمال على الأقاليم التابعة له بالإضافة إلى معاقبتهم وعزلهم عندما تثبت له إدانتهم أو ظلمهم للرعية [٢] . والنص التالي يؤكد ذلك وهو الرسالة التي أرسلها أمير المسلمين إلى محمد بن فاطمة واليه على إشبيلية قائلاً فيها : «.... ووطئ للرعية حاطها الله أكنافك ، وابذل لها إنصافك ، واستعمل عليها مـــن يرفق بها ويعدل فيها واطرح كل من يحيف عليها ويؤذيها ومن سبب عليها من عمالك زيادة أو خرق في أمرها عادة أو غير رسماً أو بدل حكماً أو أخذ لنفسه درهماً ظـــلماً فاعزله عن عمله وعاقبه في بدنه وألزمه رد ما أخذ تعدياً إلى أهله واجعله نكالاً لغيره حتى لا يقدم منهم أحد على مثل فعله ... » [٣] .

ومـــن ضـــمن صلاحيات الولاة الاستعداد للدفاع عن ولاية الأندلس ضد أي هجوم معادٍ مما جعل من ضمن مسؤولياتهم الحرص على توفير السلاح والعُدَد للجيش، وتقويـــة الحصـــون ، وســـد الثغور ، وبث العيون لرصد تحركات الأعداء ، وتنشيط صـــناعة الأســـلحة ،فعـــندما تولى تاشفين بن علي الأندلس «...قوى الحصون وسد

---

[١] انظـــر الإحاطة ، ج١ ، ص٤٥٠ . المعجب ، ص١٧٣ ، عن عمل أبي عبد الله بن أبي الخصال كاتباً لتاشـــفين بـــن علي بالأندلس ، ثم استدعائه من قبل أمير المسلمين علي للعمل لديه في مراكش ، انظر المعجب ، ص١٦٤ ، عن الوزير ابن عبدون .

[٢] الإحاطة ، ج١ ، ص٤٥٠ .

[٣] قلائد العقيان ، ص١٢٨ . وأيضاً انظر الإحاطة ، ج١ ، ص٤٥٠ .

الـــثغور، وأذكـــى العـــيون على العدو وآثر الجند ، ولم تنل عنده الحظوة إلا بالغناء والـــنجدة فحمـــل على الخيل ، وقلد الأسلحة ، وأوسع الأرزاق ، واستكثر الرماة ، وأركـــبهم وأقام همهم ، وعني مدة مقامه بالغزو ، ومباشرة الحرب ، فهزم الجيوش ، وافتتح الحصون ، وهيبةُ العدو...» [١] .

ومـــن ضـــمن مسؤولية الوالي أيضاً رعاية مصالح رعيته والاستماع إلى مظالمها وشـــكاياها ، لذا كان يجلس للنظر في المظالم ، ويكتب التوقيعات ويتفرغ للمناظرة في يوم الجمعة [٢].

هـــذا ولم يقصر أو يتأخر أمير المسلمين المرابطي عن تذكير ولاته ما بين الحين والآخـــر بواجب التزام الطاعة والحق في سياسة رعاياهم ، طالباً منهم مداومة السهر عـــلى مصالح الرعية ، وهذا ما يتضح من خلال استقراء بعض النصوص التي تتضمن الرســـائل المرسلة إلى ولاة الأمصار ومن ضمنها رسالة أرسلها أمير المسلمين علي إلى والـــيه عـــلى إشبيلية محمد بن فاطمة قائلاً فيها : «... فاتخذ الحق أمامك وملك يده زمـــامك وأجر عليه في القوي والضعيف أحكامك وارفع لدعوة المظلوم حجابك ولا تسد في وجه المضطهد بابك ...» [٣] .

وعـــلى الـــرغم من كل الصلاحيات التي تمتع بها الولاة ، فإن أمير المسلمين لم يـــتأخر في إنـــزال أشد العقوبات بالوالي التي تثبت لديه إدانته أو أنه ظلم رعيته أو قام بعمل مناف للأخلاق أو يشكل خطراً على مجريات الأمور العامة والأحداث والأحوال السياســـية . ففي سنة ٥٢٢هـــ ـــ ١١٢٨م عزل أمير المسلمين علي بن يوسف ولده أبا بكر عن إشبيلية حيث غربه مكبولاً إلى الصحراء وذلك لامتناعه عن بيعة أخيه [٤]

---

[١] المعجب ، ص١٦٤ .

[٢] الإحاطة ، ج١ ، ص٤٥٠ . قيام دولة المرابطين، ص٣٥٢-٣٥٣ .

[٣] قلائد العقيان ، ص١٢٧-١٢٨ .

[٤] نظم الجمان ، ص١٠٥ .

وكـــثيراً ما كان يلجأ أمراء المرابطين إلى تقريع ولاتهم وتهديدهم فيما إذا بدر منهم أي تصـــرف أو ســـلوك مناف للطاعة والمراسيم الواجب اتباعها . وهذا ما حدث عندما أرسل أمير المسلمين تاشفين بن علي إلى الزبير بن عمر اللمتوني أحد ولاته في الأندلس مقرعاً ومنبهاً إياه لعدم استقباله واحتفائه بأحد قضاته قائلاً : «... كيف جاز أن يجتاز بكـــم ... أبـــو بكر بن أسود قاضي قضاة الشرق ، وما بوضعه خفاء ، ولا باحتفاء الدولة العلية به احتفاء ،فتهاونتم بمثواه ، ونمتم جميعاً عن قراه ... فلتعلموا مكان هذه الفعلة الفادحة ، والفرطة الواضحة...» (١) .

بـــل إن من شدة اهتمام أمراء المسلمين بولاية الأندلس وولاتها وبدافع الحرص على معرفة شؤونها وأحوالها كثيراً ما قام هؤلاء بزيارتهم للأندلس للتفتيش على ولاتهم ومراقبـــتهم ، ففي عهد يوسف بن تاشفين لم تظهر الأخطاء ولم يكن هناك إشارة إلى أي شـــيء من صنوف الظلم والإرهاق التي يرتكبها الولاة ، لأنه كان من وقت لآخر يطـــوف بنفسه أرجاء مملكته الشاسعة ، ويتحرى أحوال المدن وحكوماتها ، ويستمع إلى الظلامـــات ، ويتخذ ما يجب لإقامة العدل وحفظ الأمن (٢) ، وهكذا بقدر ما تمتع هؤلاء الولاة بالسطوة والقوة والاستقلالية في الحكم بالأندلس لم يقصر أمراء المسلمين في مراقبتهم وتوجيههم ، بالإضافة لمعاقبة المقصر منهم والمسيء أو عزله .

أما فيما يتعلق في مجال الأنظمة الإدارية المتمثلة في الدواوين والخطط التي كانت تُعد بمثابة وزارات وهيئات تقوم على تحقيق مصالح الدولة وتخدم الصالح العام في كافة المجالات ، فقد اقتصرت وظائفها في الغالب على الأندلسيين الذين ظلوا يعملون ضمن نطاق الوظائف الأندلسية المعروفة في السابق ، ويلاحظ هذا لا في الأندلس فحسب بل

---

(١) رســـائل أندلســـية . تحقـــيق د. فوزي عيسة ، كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ط١ ١٩٨٩م ، ص٢٥٧-٢٥٨ .

(٢) تاريخ الأندلس ، ج٢ ، ص٢٣٨ .

في المغـــرب أيضـــاً . وتأتي في مقدمة تلك الخطط خطة الوزارة [1] هذا واحتل الوزير مكاناً بارزاً في الدولة ، ويلاحظ أن المؤرخين المعاصرين مثل ابن عبدون والطرطوشي قـــد أشادوا بالمركز الممتاز الذي كان يشغله الوزير في النظام الإداري لدى المرابطين ، وذلك على اعتبار أنه الشخص المقرب من أمير المسلمين ، والذي يحضر مجلسه ، فهو حســـب قـــول الطرطوشي : «بمنزلة سمعه وبصره ولسانه وقلبه ، وفي الأمثال ، نعم الظهير الوزير» [2] .

ومـــن المعروف أن دولة المرابطين كانت دولة إسلامية مجاهدة يقوم نظام الحكم فـــيها عـــلى أســـس عسكرية ، فأمير المسلمين هو قائد الجيش الأعلى ومساعدوه أو معـــاونوه هم قواد الجيش ، لهذا كان من الطبيعي أن يتسم منصب الوزير في المغرب والأندلـــس بالطـــابع العسكري . ولكن لما كان الأمر يتطلب من الوزير أيضاً كتابة الوثائق والمراسيم وصياغتها ، وجد في دولة المرابطين صنفان من الوزراء :

١- وزراء عسكريون من قادة الجيش وهم من قرابة أمير المسلمين عادة أو من قبائل لمتونة وصنهاجة التي قامت على أكتافها دولة المرابطين .

٢- وزراء كـــتاب وهم من الفقهاء والقضاة وعلى الغالب كانوا أندلسيين ، ومنهم مـــن لقب بذي الوزارتين ، وكانوا يقومون بتحرير الرسائل ويعرضون ما يعن لهـــم مـــن الأمـــور على الأمير لأخذ رأيه فيها ، كما يقومون بالترجمة عنهم

---

[1] كانت الوزارة معروفة بالأندلس منذ عصر بني أمية ودول الطوائف ، ويعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المعروف بالوزير ، فيسميه بالحاجب، ومنصـــب الحاجب أو كبير الوزراء يكون حلقة الوصل بين الوزراء والخليفة . نفح الطيب، ج١ ، ص ٢٠١-٢٠٢ . الحلـــل السندسية ، ج١ ، ص٢٥٠-٢٥١ . انظر الحلل السندسية ، ج٢ ، ص٢٥١ الوزير الذي ينوب عن الملك يعرف بذي الوزارتين .

[2] الطرطوشي . سراج الملوك ، تحقيق جعفر البياتي ، لندن ، ط١ ، ص٢٢٢ . ثلاث رسائل أندلسية ، ص١٤-١٥ .

لمعرفتهم بلغة النصارى [1] .

هـــذا ومـــن الملاحظ أن كلمة فقيه في المغرب والأندلس ، لم تكن قاصرة على المشتغل بالفقه فحسب ، وإنما توسعوا في استعمالها فأطلقوها على الرجل المثقف بصفة عامـــة ، وفي ذلك يقول المقري : «وسمة الفقه عندهم جليلة ، حتى أن المسلمين كانوا يسمون الأمير العظيم الذي يريدون تنويهه بالفقيه ، وهي الآن بالمغرب بمنْزلة القاضي بالمشرق وقد يقولون للكاتب والنحوي واللغوي فقيه لأنها عندهم أرفع السمات [2] .

بهـــذا المعنى العام لكلمة فقيه كان وزراء المرابطين من الكتاب والفقهاء ، وقد أشـــار مؤلف كتاب الحلل الموشية أن يوسف بن تاشفين اتخذ وزيراً عسكرياً وهو ابن عمه وصهره سير بن أبي بكر [3] الذي قام بإنهاء دول الطوائف بالأندلس ، كما اتخذ وزيراً كاتباً وهو الوزير الفقيه أبو محمد عبد الغفور ، الذي كان ـــ على حد قوله ـــ «عـــلم بلاغـــة به يهتدى ، وإمام شرف قدمه العلم والندى ، وعاصب مجد هو الغاية والهدى» ثم يضيف مؤلف الحلل ، أن هذا الوزير الأخير، هو الذي كتب باسم يوسف بن تاشفين نص ولاية العهد لابنه الأمير أبي الحسن علي بن يوسف بن تاشفين [4] بل كان بلاط مراكش يضم طائفة كبيرة من أقدر الكتاب الأندلسيين أي الوزراء في هذا العصـــر مثل محمد بن سليمان بن القصيرة «...الوزير الكاتب ، الناظم الناثر ، القديم بعمـــود الكتابة، والحامل للواء البلاغة ،... كان كاتباً مجيداً ، بارع الخط ، كتب عن يوســـف بـــن تاشفين» [5] ، توفي عام ٥٠٨هـــ ـــ ١١١٤م [6] . وهناك أيضاً عبد

---

(١) المعجـــب ، ص١٦٣-١٦٤ . الإحاطـــة : ج٢ ، ص٥١٦-٥١٧ . رســـائل ومقامات أندلسية ، ص١١٩ ، ١٣٥ . عصر المرابطين والموحدين : ج١ ، ص٤٣٩ .

(٢) نفح الطيب ، ج١ ، ص٢٠٦ .

(٣) الحلل الموشية ، ص٢٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص٧٨ .

(٥) الإحاطة ، ج٢ ، ص٥١٦-٥١٧ .

(٦) المصدر السابق ، ج٢ ، ص٥٢١ .

الرحمن بن أسباط كاتب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين [1] . ومنهم من لقب بذي الوزارتين مثل أبي عبد الله بن أبي الخصال ، أصله من قرية شقورة ، سكن قرطبة ، ثم عمـل كاتباً ووزيراً لتاشفين بن علي في الأندلس ، ثم استدعي من قبل أمير المسلمين علـي للعمـل لديـه في مـراكش ، مولده عام ٤٣٦هـ ـ ١٠٤٤م توفي في عام ٥٤٠هـ ـ ١١٤٥م [2] .

كمـا استوزر أمير المسلمين علي بن يوسف عام ٥٠٠هـ ـ ١١٠٦م القائد ينتيان بن عمر الذي كان قائداً لفرقة الحشم ، وفي أواخر عهده استوزر ولده إسحاق بن ينتيان بن عمر ، وجعل له أيضاً النظر في المظالم والشكايات ، فانتفع به الناس [3] . كذلك اتخذ الأمير علي بن يوسف وزراء من الفقهاء وكبار العلماء منهم الوزير الفقيه مـالك بـن وهيـب الإشبيلي الذي شارك في جميع العلوم ، ونظم الشعر ، وكتب مؤلفـات في الفلسـفة والتاريخ ، ولقد كان لهذا الوزير موقف تاريخي مشهور فقد استدعاه الأمـير علي من إشبيلية إلى مراكش لحضور المناظرة التي قامت بين فقهاء المرابطين والفقيه محمد بن تومرت ، حيث أشار على أمير المسلمين بقتله أو اعتقاله قبل أن يسـتفحل أمـره [4] ومن الوزراء المشهورين أيضاً علي بن الإمام ، كاتب ووزير تمـيم بـن يوسف بن تاشفين أمير غرناطة والمعتبر من أعيان وكبار كتاب غرناطة في دولة المرابطين [5] .

---

(١) المصدر السابق ، ج٣ ، ص٥٢٣ .

(٢) أزهـار الـرياض ، ج٥ ، ص١٦٧-١٧١ . انظر الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الأول ، ص٢٦-٢٧ ، ٣٠ عـن هؤلاء الوزراء في الأندلس وعن أبي عبد الله بن أبي الخصال ، انظر المعجب ، ص١٧٣ . الإحاطة ، ج١ ، ص٤٥٠ .

(٣) الحلل الموشية ، ص٨٤ .

(٤) المعجب ، ص١٨٤-١٨٥ . نفح الطيب ، ج٥ ، ص٢٧-٢٨ .

(٥) المغرب في حلى المغرب ، ج٢ ، ص١١٦ .

هـذا وكـان الوزير مقرباً من الأمير ، يحضر مجلسه ، ويطلع على كل كبيرة وصـغيرة وهو الواسطة بين الأمير وبقية الموظفين ، كما يحدد للعمال والمتصرفين من القباض والخراص وغيرهم الحدود التي يجب ألا يتعدوها دون زيادة أو جور ، وبذلك عرفت الأندلس في عصر المرابطين تعدد الوزراء وتنوع اختصاصاتهم بل إنها عرفت ما يسمى مجلس الوزراء [1] .

هـذا ولا بـد مـن الإشارة إلى أن تحرك جموع العلماء من الفقهاء والموظفين الطـامحين إلى المناصـب نحو مراكش ، بالإضافة إلى الوظائف التي شغلها معظمهم في الأندلس إلى جانب حكام المرابطين هناك كان قد أعطى دفعاً وتطوراً للإدارة المرابطية في المغـرب والأندلـس عـلى السواء . ولكن بعد انقضاء النصف الأول من حكم المرابطين ، أي بعد عام ٥١٠هـ ـ ١١١٦م بدأت بالظهور علامات فقدان الفقهاء لمواقعهـم في إدارة الأندلـس مما أدى إلى فقدان عامل الاتصال والتوازن الذي كونه الفقهـاء أو هؤلاء الموظفون وانفسح المجال للاحتكاك بين الحكم الغريب وجنده من جهـة ، والأندلسـيين مـن جهة ثانية ، وأصبحت بادرة واحدة تكفي لإثارة حقد الأندلسـيين على المرابطين ، وهذا ما حدث بالفعل عام ٥١٤هـ ـ ١١٢٠م عندما انطلقت الثورة في قرطبة ضد الحكم المرابطي [2] .

أمـا فـيما يتعلق بالخطط الأخرى مثل خطة الشرطة والحسبة وغيرها فقد كانت بـيد أندلسـيين «فـإنهم أعـرف بأمور الناس وطبقاتهم ، وهم أيضاً أعدل في الحكم ، وأحسـن سيرة من غيرهم ، وهم أنفع للسلطان وأوثق ، لأن الرئيس يستحي أن يحاسب في عمله مرابطاً ، أو ينكر عليه شيئاً مما قد فشا له (عيبه) في الخطة التي ولاه» [3] .

---

[1] نفـح الطيب ، ج١ ، ص٢٠١-٢٠٢ ، ثلاث رسائل أندلسية ، ص١٥ . الحلل السندسية ، ج١ ص٢٥٠-٢٥١ . تاريخ الأندلس ، ج٢ ، ص٢٣٤ .

[2] الحلل الموشية ، ص٨٦ .

[3] ثلاث رسائل أندلسية ، ص١٦ .

هـــذا وتعتبر خطة الشرطة في الأندلس من الخطط الهامة ويختص صاحبها بحفظ الأمـــن وتنفـــيذ الأحكام التي يصدرها رجال السلطتين التنفيذية والقضائية من أوامر الضبط والإحضار أو الحبس والإفراج ، كما أسندت إلى هذه الخطة شيئاً فشيئاً بعض اختصاصـــات القاضي ليتولى الاتهام والتحقيق ويقيم الحدود ويوقع العقوبات التعزيزية دون أن يتدخل القاضي في ذلك . ومن الجدير بالذكر أن صاحب الشرطة كان يُعرف عـــلى ألســـنة العامة باسم صاحب المدينة وصاحب الليل ، ويحظى بمكانة رفيعة عند الأمـــير [١] . ويعاونـــه في عمله عدد من الأعوان يقومون بتنفيذ توجيهاته . أما عدد هؤلاء الأعوان فكان يتراوح بين سبعة إلى عشرة أفراد [٢] ، وكان لهم أجرهم الخاص مـــن بيـــت المال «ويجب أن يكون للأعوان أجرة معلومة في اليوم ليقطع لهم منها في تصرفهم بحسب ما مضى من النهار ، وأما الذي يخرج منهم إلى البادية فتكون له أجرة جهة على الميل وبحسب ما يراه الفقهاء في ذلك ، ويكون ذلك عرفاً بين الناس» [٣] ، وهـــذا معـــناه أنه كانت لديهم مواعيد محدودة للعمل ومن يعمل في غير تلك المواعيد المقـــررة له أجره الإضافي كذلك كان للأعوان الذي يخرجون إلى البادية أجر أعلى من الذين يعملون داخل المدينة ويحدد الفقهاء ذلك [٤] ، ومن أهم أعوان صاحب الشرطة المخلفون ، ويقال لأحدهم مخلف ، وهو ما يعرف في العصر الحديث بالشرطة السرية، والمخلف مسؤول عن رفع الأخبار إلى من يهمه الأمر [٥] ، هذا ولا بد من الإشارة إلى

---

[١] نفـــح الطيـــب ، ج١ ، ص٢٠٣ . نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، ص٤٤٥ . الأصيبعي ، الشـــرطة في الـــنظم الإســـلامية والقوانين الوضعية ، دراسة مقارنة بين الشريعة والقانون ، طرابلس ١٣٩٩هـــ ـــ ١٩٩٠م ، ط١ ، ص٦١ .

[٢] ثلاث رسائل أندلسية ، ص١١، ١٧ .

[٣] ثلاث رسائل أندلسية ، ص١١-١٢ .

[٤] المصدر السابق ، ص١١-١٢ .

[٥] ابن حوقل : صورة الأرض ، القسم الأول ، ليدن ١٩٢٨م ، ط٢ ، ص١١٦ .

أن صاحب الشرطة يختار أعوانه من الأندلسيين ، لأنهم أعرف بأمور الناس وأكثر فائدة للسلطان وأوثق [1] ، أما مكان ممارسة صاحب الشرطة لوظيفته العملية فقد حددها ابن عبدون بأنه يجب : «ألا يحكم في داره ، بل في المسجد الجامع ، أو في موضع يتخذ له» [2] ، وإذا ما قارن المرء بين اختصاصات صاحب الشرطة في الفترة الواقعة ما بين القرن الرابع الهجري ، والقرن الخامس الهجري ، وبداية القرن السادس يلاحظ ، أنه كان يكلف في القرن الرابع بمهام حربية وإنشائية ودبلوماسية لم يكلف بها في الفترتين اللاحقتين [3] . هذا واتسمت تلك الخطة بالاستقرار في عصر المرابطين نظراً لهدوء الأوضاع السياسية واستتبابها في ذلك العصر ، وكانت تلك الوظيفة يشغلها أصحاب البيوتات الأندلسية من العرب والموالي [4] ، وممن تولي هذه الخطة في عصر المرابطين عبد الرحمن بن محمد بن أحمد بن مخلد بقرطبة ، توفي سنة ٥١٥هـ ـ ١١٢١م [5] . ويتضح من خلال استقراء وقائع القضايا التي عالجها صاحب الشرطة في عصر المرابطين ، أن صاحب الشرطة كان يمتلك اختصاصاً محدداً بيد أنه كان يجمع في بعض الأحيان بين صفة صاحب الشرطة وصفة صاحب السوق ، وعلى هذا يتنوع اختصاصه بحسب الصفة التي يتولى بمقتضاها الفصل في المنازعة المطروحة عليه ، بل إن الحد الفاصل بين كل من ولاية صاحب الأحكام بصفته صاحب شرطة أو بصفته كقاضي حسبة كان واضحاً جلياً ومحدداً كان يعملها صاحب الشرطة عندما يتصدى للفصل في موضوع يطرح عليه بمعنى أن ولايته كانت منضبطة ومحددة في كل مسألة بحسب طبيعتها وظروفها لا خلط فيها بين اختصاصه

---

(١) ثلاث رسائل أندلسية ، ص١٦ .

(٢) ثلاث رسائل أندلسية ، ص١٣ .

(٣) مجلة أوراق : مجلة ثقافية يصدرها المعهد الإسباني العربي للثقافة . العدد الثالث ١٩٨٠م ، ص٧٤ .

(٤) المرجع السابق ، ص٧٧ .

(٥) المرجع السابق ، ص٧٨ .

كصاحب شرطة واختصاصه كصاحب حسبة ، وكان يلتزم هذه الضوابط في التفرقة بين كل مسألة وأخرى في عموم ما يدخل في ولايته كصاحب شرطة ،وغني عن البيان أن هـــذا في حد ذاته كان كفيلاً بعدم تجاوزه أياً من الولايتين إلى ما عداهما مما يخرج عـــن ولايـــته العامة كصاحب شرطة ، إذ لكل من أنواع هذه الولاية مجاله في نطاقه المحدد كما أن لولايته العامة مجالها الذي لا يتعداه [1] .

أمـــا عن الأحكام التي يصدرها صاحب الشرطة ، فكانت أكثرها تأديبياً كالجلد، أو التشـــهير بالجاني في المدينة على دابة يركبها من خلاف ، وله الإشراف على السجن، فالســـجن والسجانون يجب أن يكونوا تحت رقابته الدائمة ، لأن السجانين في الغالب من شـــرار الـــناس ، ولا يـــتحرجون عـــن الســـطو على الطعام المرسل إلى المحبوسين من أقـــاربهم [2]. وإذا صـــدرت الأوامر بالقبض على شخص معين بسبب توجيه التهمة إليه لســـبب ما ، ولم يعثر عليه سمر داره أو محله ، ولا يحتجز أو ينهب ماله ، ولا تدخل داره إلى أن يحضـــر ويمثل أمام القاضي [3] ، أما فيما يتعلق بإدارة الأمن العام بالأندلس، خاصة فـــيما يتصـــل بالحفاظ على استتباب الأمن والنظام في المدن ، فقد كانت بلا جدال أكثر الأعمال تطوراً في ذلك العصر ، وكانت قوانينها المبنية على العقل المتقنة الوضع تظهر في نظـــام شـــرطي «بوليسي» منظم تنظيماً كاملاً ومتمثل في خطة الطواف بالمدن ، حيث كانـــت عيون الحراس والشرطة حاضرة في كل مكان ، ساهرة على الأمن فكانت تغلق أبـــواب دروب المدن بعد الغروب أما أزقة المدينة فلكل زقاق عاسٌ مسؤول [4] عنه يبيت في الـــزقاق ، ويكون مسلحاً بسلاح وكلب حراسة ، ومعه سراج معلق ، وفي هذا النص دلالـــة عـــلى اســـتعانة الشـــرطة بالعسس وتقسيم المدينة إلى مناطق متعددة حتى تسهل

---

[1] مجلة أوراق ، ص٨١ .

[2] الأندلس في نهاية المرابطين ، ص١٣٢ .

[3] ثلاث رسائل أندلسية ، ص١٧ .

[4] نفح الطيب ، ج١ ، ص٢٠٤ .

مراقبتها . ويظهر من هذا كله أن الحكومة المرابطية لم تهمل واجباتها في تطبيق النظام وحماية المجتمع الأندلسي والعناية به . هذا ومن الأنظمة المتبعة في الشرطة التشديد على الحراس بالمشي والطواف أدواراً كثيرة ، وتبديل الطرق التي يسيرون فيها ، لأن اللصوص والزعرة والطائفين بالليل ، يراقبون مشي الحراس ، وينطلقون بعد ذلك لطلب الشر والفجور [1] . ومن الجدير بالذكر القول أن هذه الأنظمة جميعها ما هي إلا أنظمة أندلسية موروثة سعى المرابطون إلى إعادة تطبيقها واستخدامها .

هذا وارتبط استقرار الأمن واستتبابه تبعاً لشدة الوالي ولينه فكلما كان الوالي شديداً صارماً كان صاحب الشرطة كذلك ، بل إن بعض الولاة لم يتوانوا عن توقيع أقسى العقوبات بالخارجين على القانون . فقد ذكر ابن القطان أن أبا محمد عبد الله بن أبي بكر بن تاشفين والي قرطبة والمعروف بابن قنونة ، كان لا يفتر ولا يقصر عن قتل أهل الشر الذين انطلقوا ينهبون بسبب وقوع الوباء والمجاعة بقرطبة حيث بلغ مد القمح خمسة عشر ديناراً ، فكثرت الحوادث والشر نتيجة لذلك [2] ، ويبين ابن قزمان رغبته في أن يسرق رغيفاً خارجاً لتوه من أحد الأفران ، ولكنه يخاف عقاب الأمير المرابطي ،فقد ظل واقفاً ينظر إلى الرغيف ، وهو يدخل الفرن حتى خرج ناضجاً شهياً، وتراوده نفسه بالهجوم عليه ، ولكنه يتذكر قسوة الأمير المرابطي فيقول :

قد رجعت الآن بَاطِل مُنذُ غابَ الخبْز عَنِّي
وَيْ عَقَل يَبقى لعَاقِل والنَّشير بَعيدةُ منِّي ؟
ونَراهُ في الفُرنِ دَاخل وإذا خَرَجَ نَغِنِّي
قَد خَرجَ مَحبوب بَرّاً ويَزيد ولس نجَرا

---

(١) ثلاث رسائل أندلسية ، ص١٨ .

(٢) نظم الجمان ، ص٢٢٦ .

ويَقـــلي قلـــبِ اهجـــمْ ونَخـــاف مـــن المُلـــثّمِ [1]

أيضاً عرفت الإدارة الأندلسية خطة أو نظام الحسبة [2] . وتطلق حسب عرف الـــنظام الإداري عـــلى حسابات الدولة ، بشكل عام ، ثم خصصت فيما بعد بشكل خـــاص لشـــرطة الأســـواق والآداب . فهي نظام للرقابة على سير الحياة الاقتصادية والاجتماعـــية بطـــريقة تجعلها في إطار قواعد الشرع الإسلامي ، وفي نطاق المصلحة العامـــة للمجتمع [3] ، يتضح من ذلك أن الحسبة مؤسسة إدارية ، نشأت عن التفكير في تطبـــيق الشـــرع الإسلامي من خلال هذه الآيات : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ • الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ • وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [4] .

﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ • وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [5] .

---

(1) ابن قزمان ، ديوان ابن قزمان ، ف كورينطي ، المعهد العربي للثقافة ، مدريد ١٩٨٠م ـــ ص٦٦٤ ، زجل ٩٨ .

(2) الحســـبة لغـــة بكســـر الحاء يكون اسماً من الاحتساب بمعنى «ادخار الأجر» ويكون بمعنى «الاعتداد بالشـــيء» ويكون من الاحتساب بمعنى حسن التدبير والنظر فيه ، ومن ذلك قولهم فلان حسن الحسبة في الأمر أي حسن التدبير والنظر .

القرشـــي ، معـــالم القـــربة في أحكـــام الحسبة ـــ تحقيق محمد محمود شعبان ـــ صديق حمد عيسى المطيعي ـــ الهيئة العامة المصرية للكتاب ١٩٧٦م ، ص٢٣ .

(3) ثلاثة رسائل أندلسية ، ص١١٩ . المجليدي ، كتاب التيسير في إحكام التعسير ، تحقيق موسى لقبال ، الجزائـــر ١٩٨٢م ، ط٢ ، ص٤٢ . موســـى لقبال ، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي ، نشأتها وتطورها ، الجزائر ، ١٩٧١م ، ط١ ، ص٢٠-٢١ .

(4) سورة المطففون ، الآيات : ١-٢-٣ .

(5) سورة آل عمران : الآيات ١٠٤ ، ١٠٥ .

والمقصود إذن من هذه المؤسسة الإدارية أي الحسبة مراقبة السوق في موازينه ، ومكاييله ، وأسعاره ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إذاً المحتسب هو مراقب مدني ، يقلده أمير المسلمين أو الوزير أو القاضي مهام منصبه ، التي تتضمن مراقبة وتطبيق مبادئ الشرع تطبيقاً سليماً ، وكشف المخالفات وإنزال العقوبة المناسبة بالمخالفين . هذا ومن جهة النظر الإسلامية هناك نوعان من الأحكام : أحكام القضاء وأحكام المظالم ، والحسبة تقف في الوسط ، لأنها لا تتدخل في دعاوي القضاء وشؤونه الخاصة ، ولا تملك أن ترقى إلى ما هو من شأن الإمارة أو السلطة العليا ، في رد المظالم وتحقيق العدالة بوجه عام [1]، بل يمكن القول بأن الحسبة وظيفة تتبع الأمور العاجلة الواضحة التي تحتاج إلى حسم فوري إحقاقاً للحق لإظهاره ، وهدماً للباطل وبإزالته . ونظراً لما لهذه الوظيفة من أهمية كان يختار لتوليها من كبار رجال الدولة من العلماء والفقهاء والقضاة الأفذاذ ممن عرفوا بالعفاف والتقى والورق والنّزاهة والحنكة والفطنة والذكاء والجرأة في الحق ممن لا يلتفت للشفاعات صارماً ضد المخالفين لأحكام الشرع [2] ، أما المبدأ الذي اعتمد عليه المرابطون في تطبيق نظام الحسبة فهو المذهب المالكي [3] . ويظهر أن البساطة الصحراوية لازمت المرابطين حتى بعد أن كونوا دولة قوية ، امتدت حتى الأندلس والمغرب الأوسط ، فلم يحفلوا بالتأليف واعتمدوا في تغيير المنكر ، والأمر بالمعروف في الأسواق والطرقات والأماكن العامة على كتب الفروع القديمة ، وعلى الذوق وقوة الشعور الديني ، حتى أنهم رفضوا بما جاء في كتاب الأحياء . وقد تضمن شيئاً كثيراً من الحسبة الشرعية ، لمجرد أنه معقد ، وذو مسحة فلسفية ، ويجنح في التدليل على آرائه ، إلى الأصول الشرعية ، مثل

---

(١) كتاب التيسير ، ص٢٩-٣٠ . الحسبة المذهبية ، ص٢٧ .

(٢) كتاب التيسير ، ص٤٢-٤٣ .

(٣) الحسبة المذهبية ، ص٣٨-٣٩ .

الكتاب والسنة ، لا الفروع التي يستحبها المرابطون ويحفظون كتبها عن ظهر قلب [1] وكـان للمحتسـب راتـب يتقاضاه من بيت مال المسلمين [2] وبهذا يتضح أن نظام الحسـبة كان يشبه في اختصاصاته إلى حد بعيد أنظمة البلديات الآن أو اختصاصات وزارة التموين بالإضافة إلى حقه في الإثبات والتنفيذ فالمحتسب هو محقق المخالفة وهو القاضي الذي يفصل فيها وهو الذي ينفذ العقوبة .

أمـا فيما يتعلق بالإدارة المالية في الأندلس ، فقد لجأ المرابطون لتوفير حاجاتهم مـن المال إلى طلبه من الناس على شكل معونة للجهاد قد تكون مالية ، ويبدو أن هذا قد بدأ في وقت غير متأخر من الحكم المرابطي بدليل أن قاضي المرية محمد بن يحيى بن الفراء المستشهد في قتندة ، التي حصلت عام ٥١٤هـ ـ ١١٢٠م طلب من المسلمين الامتـناع عن تقديم المعونة لأمير المسلمين المرابطي ، ما لم يحلف أمام الناس في جامع مـراكش أن ليس لديه في بيت المال درهم ينفقه أسوة بما فعل عمر بن الخطاب عندما دخـل المسجد وحلف أمام الناس [3] . ولم تقتصر الأمور على ذلك بل أصبح العون إسـهاماً في عمـل ذي نفـع مباشر محلياً ، كما حدث في العملية العامة في الدولة ، والمسـماة بالتعتيب ، والغاية منها ترميم أو بناء الأسوار المحيطة بالمدن ، لحمايتها من الموحديـن في المغـرب ، ومن الأسبان في الأندلس ، واتخذت هذه العملية التي أمر بها أمـير المسـلمين عـلي بن يوسف عام ٥١٩هـ ـ ١١٢٥م طابعاً محلياً بحتاً وصل إلى ذروتـه في قرطـبة ، حيث قام أهالي كل حي يجمعهم مسجد بترميم الجزء الذي يلـيهم مـن السـور ، أما في المدن الأخرى ، فقد أوكلت العملية لأشخاص جمعوا

---

[1] الحسبة المذهبية ، ص٤٨-٤٩ .

[2] ثلاث رسائل أندلسية ، ص٢٠ .

[3] الصـلة ، ج٢ ، ص٥٧٢ . حسين ، تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين دولة علي بن يوسف المرابطي الإسكندرية ١٩٨٦م ، ص٣١٧ .

المـــال وأشـــرفوا عـــلى البناء ، واضطروا في غرناطة على ما يبدو لاستخدام الضرب والسجن في تحصيله .

وفي إشبيلية لجأ قاضيها ، ابتغاء تجنب المعارضة الشديدة [1] لتسهيل الأمر على الناس ومطالبتهم بتقديم جلود أضاحيهم ، كي ينفق ثمنها في إنجاز المطلوب [2] .

ومـــن طـــرق المرابطين الأخرى لتوفير احتياجات دولتهم المالية ، توزيع المعونة العســـكرية عـــلى كل مدينة ، بحيث تلتزم كل مدينة بتقديم عدد من العبيد أو الجند وتجهيزهم بالخيل والأسلحة . وهناك خبر صريح عن تطبيق ذلك في مدن المغرب لتوفير المقـــاتلين للأندلس عام ٥٢٣هـــ ـــ ١١٢٨م عندما خشي المرابطون من هجوم آخر يقـــوم به ألفونسو الأرغواني . فقام أمير المسلمين ، حسب قول ابن القطان «وقسط عـــلى الرعـــية سوداناً ، وكان قسط أهل فاس منها ثلاثمائة غلام من سودانهم برزقهم وســـلاحهم ونفقاتهم يخرجون ذلك من أموالهم» [3] وبالتالي يمكن الافتراض بأن ذلك طـــبق على الأندلسيين إذ هم المعنيون مباشرة بقضية دفع الخطر الإسباني . ويبدو أن تـــزايد الأخطار على المرابطين ، منذ نهاية العقد الثالث من القرن السادس ، والإكثار مـــن المرتزقة الأجانب ، أو الأسبان قد دفع بهم إلى تجاوز هذه الطريقة في فرض المعونة على الناس خدمة لجهود الدفاع ، وإلى الانتقال نحو فرض ضرائب نقدية مباشرة ، ففي ســـنة ٥٣٠هـــــ ـــ ١١٣٥م أصبحت المعونة نقدية ، بدليل ما يذكره صاحب نظم الجمـــان ، مـــن أنه فرض على الناس في فاس ، بكتاب من الأمير علي بن يوسف ، عشـــرون ألف دينار [4] وليس من المستبعد والحالة هذه أن يفرض الشيء ذاته في أنحاء

---

(١) ابـــن عذاري : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . قطعة تتعلق بتاريخ المرابطين نشرها ويثي ميراندا في مجلة هيسبيرس ١٩٦١م ، ص٧٣-٧٤.

(٢) نفح الطيب ، ج٢ ، ص٢٣٤ . نظم الجمان ، ص٢٣٤ .

(٣) نظم الجمان ، ص١٥٢ .

(٤) المصدر نفسه ، ص٢٥٠ .

الدولـــة المرابطية ومنها الأندلس ، حيث يرد خبر آخر بأن الناس في قرطبة رجموا ابن الناصف بسبب المعونة قبل هذا التاريخ بخمس سنوات [1] .

أما فيما يتعلق بتحصيل الضرائب فقد كان الموكلون بها عادة من اليهود حيث يقومون بجمع المكوس من المسلمين والنصارى والمعاهدين طبقاً لعدد الأنفس ، وكانوا بذلك أداة في يد الموظفين يوجهونهم وفق أهوائهم وجشعهم ، ثم انتهى الأمر بأن حذا الجـــند حـــذو الموظفـــين وأخـــذوا يعتدون في المدن على حريات الأفراد وأموالهم، وهكـــذا جنح الشعب إلى الثورة ، وانتهى المرابطون بأن فقدوا الأندلس سراعاً حينما غزاها الموحدون [2] .

هـــذا ولم تقتصر أمور الإدارة المالية على تلك النواحي فقط بل أوجدت وظيفة إدارية أخرى تعرف باسم صاحب مختص أمير المسلمين ، أو مستخلص أموال الدولة . وهـــي وظـــيفة مرتـــبطة بشؤون أمراء المرابطين ، ويقصد بها المختص بإدارة الأملاك والأمـــوال الأميرية ، أي أملاك أمراء المرابطين في الأندلس ويبدو أنه كان يختار ويعين لهـــذه الوظـــيفة موظـــف أندلســـي وذلـــك لخبرة الأندلسيين ومعرفتهم بشؤون بلادهـــم وأحوالها لا بل لتفوقهم في الوظائف الإدارية على سواهم من المرابطين . فقد تـــولى أبو محمد عبد الرحمن بن مالك وظيفة صاحب مختص أمير المسلمين يوسف بن تاشـــفين في غرناطة وغيرها من بلاد الأندلس ، توفي عام ٥١٨هـــ ـــ ١١٢٤م [3] . أيضـــاً تـــولى هذه الوظيفة مؤمل باديس بن حبوس [4] ذلك عندما ملك يوسف بن تاشـــفين مدينة غرناطة «... قدم مؤملاً على مستخلصه وجعل بيده مفاتيح قصره ،

---

[1] المصدر نفسه ، ص٢٢٢ . المغرب في حلى المغرب ، ج١ ، ص١٦٣ .

[2] تاريخ الأندلس ، ج٢ ، ص٢٣٨ .

[3] المغرب في حلى المغرب ، ج٢ ، ص١١٧ .

[4] الإحاطة ، ج٣ ، ص٣٣١ .

فـنال مـا شـاء مـن مال وحظوة ، واقتنى ما أراد من صامت وذخيرة» توفي عام ٤٩٢هـ ـ ١٠٩٨م [١] . ويبدو أن وظيفة صاحب أعمال هي نفس وظيفة صاحب مختص أو مستخلص ذلك أن صاحبها يقوم بمهمات إدارة أموال أمير المسلمين بالإضافة إلى إدارة أملاكه ، بل إن مهارة هؤلاء الأندلسيين وتميزهم في إدارة الأعمال شجعا أو دفعا أمراء المسلمين إلى استقدامهم إلى بلاطهم في مراكش لإدارة شؤونهم والأعمال الإدارية هناك ، فقد شغل أبو عبد الله محمد بن عائشة وظيفة صاحب أعمال بلنسية فترة من الزمن ثم استدعاه الأمير علي بن يوسف وقدمه على حسابات جميع المغرب ، كما وضع في يديه وتحت تصرفه مقاليد الأعمال ، وحكمه في الأموال [٢] .

ويبدو أن من ضمن صلاحيات صاحب مختص أو المستخلص الإشراف على مرافق المدن بالإضافة إلى ترميمها وإصلاحها . وذلك عندما تولى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن مالك المعافري وظيفة مستخلص غرناطة وإشبيلية «وجهه أميره علي بن يوسف بن تاشفين إلى طرطوشة برسم بنائها ، وإصلاح خللها ...» [٣] وفي عام ٥١٨هـ ـ ١١٢٤م [٤] .

ومن الخطط المتعلقة بإدارة الولايات خطة الإشراف على المدن ، فقد ذكر ابن خاقان أن ابن أبي الخصال كتب إلى الوزير أبي بكر بن رحيم يهنئه بولاية خطة الإشراف على إشبيلية وذلك في شوال من عام ٥١٥هـ ـ ١١٢١م حيث قال :

إذا ما شرف الإشراف قوما ... فإن بني رحيم شرفوه
ومن يعرف به لهم قديماً ... وإن رغمت أنوف عرفوه

---

(١) المصدر السابق ، ص٣٣٣ .

(٢) المغرب في حلى المغرب ، ج٢ ، ص٣١٤ .

(٣) الإحاطة ، ج٣ ، ص٣٦٤ .

(٤) المصدر السابق ، ص٣٦٦ .

كفـــاه لـــلملوك عـــلى سبيل وديـــن ونصـــيحة مـــا حـــرفوه
أبـــو بكـــر بكـــر لـــه ولهم كفيل بكـــل كفايـــة إذ صـــرفوه

ويـــبدو أن صاحب هذه الخطة كان يعين من قبل أمير المسلمين مباشرة ، وهو بمثابة المسؤول عن كل ما يحدث في المدينة واتصاله مباشرة مع أمير المسلمين ، وهو ما يتضح من رسالة ابن أبي الخصال إلى صديقه الذي تولى هذه الخطة (١) .

وهكـــذا وعـــلى الرغم من سيطرة المرابطين على الأندلس فترة غير قصيرة فإن عجلة الإدارة ظلت تدور وفق الطريقة القديمة المعروفة بالأندلس ، وبيد أندلسيين ظلوا يعملـــون ضـــمن إطار الأجهزة والوظائف المعروفة في السابق إذ لم يظهر أو يؤثر عن المرابطين أي تعديل في مجالات الإدارة .

● القضاء :

كانـــت نزاهة القضاء الميزة الأساسية الكبرى التي يفترض في الحكم الإسلامي الصـــحيح ، أن يتمـــيز بهـــا ، فقـــد ورد على لسان الرسول الكريم (ﷺ) جملة من الأحاديث في هذا الشأن تتسم بالتحذير وتشير إلى الأخطار والأخطاء التي يتعرض لها القاضـــي ، منها قوله : «القضاة ثلاثة : اثنان في النار ، وواحد في الجنة ، فاللذان في النار ، أحدهما يقضي ولا يعلم ، والآخر يعلم فيقضي بغير الحق . وأما الذي في الجنة ، فهـــو الذي يعلم ويقضي بالحق» إذاً النَّزاهة ميزة القاضي الأساسية ، من وجهة النظر الإســـلامية ، وهـــذه الـــنظرة إلى القضاء انتقلت بطبيعة الحال إلى الأندلس ، وأصبح القضـــاة هناك مثالاً يحتذى، من ناحية استقلالهم ، والصفات التي تحلوا بها (٢) ويعتبر عصـــر المـــرابطين مـــن العهود التاريخية النادرة التي تمتع فيها القضاة بالقوة والجاه في

---

(١) قلائد العقيان ، ص٢٠٥-٢٠٦ .

(٢) شرارة (عبد اللطيف) ، أبو الوليد بن زيدون ،بيروت ، ط١ ، ١٩٨٨ ، ص٢٥ .

الأندلس ، إذ لم يكن منصب القضاء مجرد منصب ديني فحسب بل ارتبط بالسياسة ، فقـــد تمـــتع القضـــاة بسلطات واسعة دفعت بعضهم في أواخر عصر المرابطين للثورة والاستقلال عن دولة المرابطين أمثال قاضي قضاة قرطبة ابن حمدين الذي أعلن انفصاله عـــن حكومة مراكش عام ٥٣٩هـــ ــ ١١٤٤م ، وتلقب بألقاب حكام المرابطين ، فأطلق على نفسه اسم (أمير المسلمين وناصر الدين) [١] ولما استقل ابن حمدين بقرطبة، ســـرعان ما ثار الناس ببلنسية وخلعوا طاعة المرابطين بزعامة قاضيهم ابن عبد العزيز ، حيـــث قام بأمور السلطة وحارب جيوش اللمتونيين عام ٥٣٩هـــ ــ ١١٤٤م [٢] ، هذا ويلاحظ تعقد سلك القضاء في تلك الفترة بسبب تعقد الحياة الاجتماعية وخاصة في الأندلـــس التي عرفت دائماً أساليب جديدة في الحياة الإدارية والاجتماعية والثقافية والفكـــرية . حيث يلاحظ وجود منصب قاضي الجماعة ، الذي يعتبر أعلى الوظائف القضائية قدراً ومرتبة ، ويطلق هذا اللقب على كبير القضاة ، والمراد بالجماعة حسبما يظهر ، هم جماعة القضاة فهو لقب يرادف لقب (قاضي القضاة) المستعمل في الشرق الإســـلامي [٣] ، وبذلـــك أخذ القضاء شكل سلطة يتولاها قاضي الجماعة [٤] ، يليه

---

[١] تاريخ قضاة الأندلس ، ص١٠٣ ، تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٥٣ ، الاستقصا ، ج٢ ، ص٧٧ .

[٢] تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٥٦ .

[٣] ابـــن عـــبد الرفيع : معين الحكام على القضايا والأحكام ، تحقيق محمد بن قاسم بن عياد ، بيروت ، لبنان ١٩٨٨م ج١ ، ص٨١-٨٢ .

[٤] قاضـــي الجماعـــة : هـــو أعلى منصب قضائي في الدولة ، ومصطلح قاضي الجماعة مستحدث في الأندلس يعود لقاضي قرطبة يحي بن يزيد التجيبـــي المتوفى عام ٢٤٢هـــ إذ أن قاضي قرطبة قبله كان يسمى قاضي الجند ، والمقصود بالجماعة جماعة القضاة ، ويستمد قاضي الجماعة صلاحياته من الخليفة أو الأمير .

ابـــن رشـــد : مســـائل أبي الولـــيد بن رشد ، تحقيق ودراسة محمد بن الحبيب التجكاني لنيل درجة الماجستير، دار الحديث الحسنية ، الرباط ، مطبوعة على الآلة الكاتبة ١٩٧٧م ، ج١ ، ص١٥ .

معين الحكام : ج١ ، ص٨١-٨٢ . تاريخ قضاة الأندلس ، ص٣١ .

وظـــائف قضائية مختلفة لتسهيل أمور القضاء في مناطق الدولة لواسعة ، فاتساع الدولة أدى إلى إيجاد هذا المنصب يليه منصب القاضي ثم نوابه ثم مساعدو القاضي . ولم تكن هناك شروط معينة في بادئ الأمر لتقليد قاضي الجماعة ، فالظروف أدت دورها بمدى معـــرفة القاضي بالشريعة والفقه والفطرة السليمة ضرورية في هذا الاختيار ، والحقيقة أن الشـــروط الـــتي يجب توافرها بالقاضي تطابق شروط اختيار قاضي الجماعة ، مع مـــراعاة شرط الخبرة والسن . وحدد الماوردي الشروط المعتبرة بالشرع ، والتي يجب توافرها فيمن يلي القضاء ، وهي على الإجمال سبعة :

- **الذكورة والبلوغ** : أي أن يكون رجلاً ، ولا يمكن تقليد النساء القضاء .
- **الذكـــاء** : حتى يتكمن من التمييز وإيضاح ما أشكل من القضايا .
- **الحرية** : فلا يجوز للعبد أن يتقلد القضاء ، أما إذا نال العبد حريته فيجوز له تقلد القضاء إذا توافرت فيه الشروط الأخرى .
- **الإسلام** : ويعني ذلك عدم جواز تقلد أهل الذمة وغيرهم القضاء بين المسلمين .
- **العدالة** : وتشمل الصدق والأمانة والعفة والبعد عن الريب .
- **سلامة السمع والبصر** : ليتمكن من التمييز بين الحق والباطل .
- **العـــلم بالأحكـــام الشـــرعية** : ويعـــني ذلـــك العلم بكتاب الله وسنة رسوله والاجتهاد .[1]

واعتبر الماوردي القضاة موازين العدل وحراس السنة بإتباعها في أحكامهم وهنا أضاف صفات لا بد من مراعاتها في اختيار القضاة بعد الشروط المعتبرة فيهم بالشرع،

---

[1] الماوردي : الأحكام السلطانية والولايات الدينية ، تصحيح الغساني ، القاهرة ١٩٠٩م ، ص٦٥-٦٦ .
تاريخ قضاة الأندلس ، ص٤-٥ .
ابـــن رشـــد القرطبي ، المقدمات الممهدات ، تحقيق سعيد إعراب ، بيروت ١٤٠٨هـــ ـــ ١٩٨٨م ، ج٢ ، ص٢٥٩ .

وهـــي «أن يكون القاضي حسن العلانية ، مأمون السريرة ، كثير الجد ، قليل الهزل ، شـــديد الورع ، قليل الطمع [(١)] إلى غير ذلك من الشروط التي تهدف إلى انتقاء أتقى الـــناس وأفضلهم لهذا المنصب الخطير الهام لتعلقه بأمور الدين ، ولأن أمير المسلمين أي حـــاكم المـــرابطين معرض للمثول بين يديه لو قضى الأمر بتوجب الحكم عليه [(٢)] . وعـــلى قاضي الجماعة الاقتداء بالأئمة ، ومشاورة أهل العلم والرأي [(٣)] . ولا شرط للسن في تقلد القضاة ، فقد تقلد بعضهم منصب القاضي في سن العشرين ، أو الثانية والـــثلاثين ، ومع ذلك يبدو أن سن الأربعين كان يعتبر حد الاكتهال والحنكة ، فمن المستحب أن تبدو الهيبة والوقار والسن على القاضي حتى لا يقال إنه قليل الحنكة ، أما منصب قاضي الجماعة فلم يتقلده أحد في العشرين أو الثلاثين من عمره ، وإن لم تحدد ســـنّ معينة لتوليه ، فقد جرت العادة أن يتقلد هذا المنصب قاض له خبرته الطويلة في القضاء وله هيبته ووقاره وسنه [(٤)] ويظهر أن اختيار قاضي الجماعة كان في بداية عصر المـــرابطين يتم على ضوء التقاليد التي كانت متبعة في العهود السابقة ، فقد كان يعين من قبل أمير المسلمين بعد استشارة الوزراء وكبار الشخصيات في بلاطه وذلك لكونه من كبار موظفي الدولة بل من خاصتهم عند أمير المسلمين وتعيين أمير المسلمين بمثابة الإعـــلان عـــن اســـتقلاله ، ومنصبه كان قريب الشبه بمنصب وزير العدل في العصر

---

(١) المـــاوردي : تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك ، تحقيق رضوان السيد ١٩٨٧. بيروت ، ط١ ، ص٢٣٩ .

(٢) نفح الطيب ، ج١ ، ص٢٠٣ .

(٣) ابن عبد ربه : العقد الفريد ، تحقيق محمد سعيد العريان ، القاهرة ، ط٢ ، ١٩٥٣م ، ج١ ، ص٦٢ .

(٤) عن قاضي الجماعة ابن حميدين . انظر ، الغنية : فهرست شيوخ القاضي عياض ، ٤٧٦-٥٤٤هـــ ـــ ١٨٠٣-١١٤٩م . تحقـــيق : ماهـــر جـــرار ، دار الغـــرب الإســـلامي ، بيروت ، لبنان ، ط١ ، ١٤٠٢هـــ ـــ ١٩٨٢م ، ص٤٦ .

الحـــالي [1] إلا أن هـــذا الوضع قد طرأ عليه تعديل فيما بعد في عهد علي بن يوسف وأصبحت الرعية هي التي تنتخب أو تشارك في انتخاب القضاة ثم يبارك هذا الاختيار أمـــير المســـلمين وهـــذا منتهى الشورى في حكم المرابطين أو ما يعبر عنه بالمصطلح الحديـــث «بغايـــة الديمقراطية» كما يشير إلى استقلالية السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية . وعند تعذر اختيار الجماعة لقاضيها كان يترك أمر الاختيار لأمير المسلمين ، ومـمـــا يؤكـــد مـــا ذكر حديث ابن الخطيب عن انتخاب الرعية لابن حمدين قائلاً : «...فلما ثارت العامة بقرطبة ... وفر ابن رشد مستعفياً عن القضاء وتعطلت الأحكام بقرطـــبة أزيـــد من سنة ، سخطاً من الأمير على أهلها ، ثم أذن لهم في اختيار قاض ، فاتفقوا على ابن حمدين هذا سنة ٥٣٦هـــ ...» [2] ، هذا وانحسرت سلطات قاضي الجماعـــة في العهـــود الســـابقة لقيام دولة المرابطين في الأمور التالية : قطع التشاجر والخصـــام بين المتنازعين ، واستيفاء الحق لمن طلبه ، وإلزام الولاية للسفهاء والمجانين ، والحجـــر على المفلس حفظاً للأموال ، والنظر في الأحباس ، وتنفيذ الوصايا وتزويج الأيامى من الأكفاء ، وإقامة الحدود ، والنظر في المصالح العامة مثل كف التعدي على الطرقات والأفنية [3] .

وبصـــفة عامـــة توسعت صلاحيات قاضي الجماعة وسلطته في عصر المرابطين وأصبح هذا المنصب متوقفاً على شخصية القاضي من جهة وشخصية أمير المسلمين من جهـــة ثانية ، فكلما كانت شخصية القاضي الذي يتولى هذه الخطة قوية كان نفوذه

---

(١) مســـائل ابن رشد ، ج١ ، ص١٥ . المعجب ، ص١٧١ . معين الحكام ، ج١ ، ص٨٣ . العبادي : صور وبحوث من التاريخ الإسلامي ، القاهرة ١٩٥٣م ، ص١٦٤ .

(٢) تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٥٢-٢٥٣ .

(٣) تاريخ قضاة الأندلس ، ص٥-٦ .

أوسع وكلما كان أمير المسلمين محترماً للسلطة الشرعية ومناصراً للحق ، وكانت سلطة قاضي الجماعة بشكل خاص والقضاة عامة قوية وواسعة ، ففي عهد يوسف بن تاشفين أصبح قاضي الجماعة الرجل الأول الذي يرجع إليه في منطقته ، وأصبحت سلطته تفوق سلطة نائب أمير المسلمين على الأمصار ، وهذا ما يستنتج من خلال الرسالة التي وجهها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى قاضي الجماعة بقرطبة ابن حمدين ، والتي يقول فيها : «... وقد عهدنا إلى جماعة المرابطين أن يسلموا لك في كل حق تمضيه ، ولا يعترضوا عليك في قضاء تقضيه ، ونحن أولاً وكلهم آخراً مذ صرت قاضياً ، سامعون منك ، غير معترضين في حق عليك ، والعمال والرعية كافة سواء في الحق ، فإن شكت إليك بعامل وصح عندك ظلمه لها ، ولا يتجه في ذلك عمل غير عزله ، فأعزله ، وإن شكا العامل من رعية خلافاً في الواجب فأشكه منها وقومها له ، ومن استحق من كلا الطرفين الضرب والسجن فاضربه واسجنه ، وإن استوجب الغرم في ما استهلك فأغرمه ، واسترجع الحق شاء أو أبى من لدنه ...» [1] وازدادت هذه السلطات أكثر في عهد أمير المسلمين علي بن يوسف وأنيطت بقاضي الجماعة مهمات أخرى عززت من مكانته ، وأصبح علي بن يوسف لا يقبل شكاية أحد من رعاياه إلا إذا كانت مؤيدة بشهادة من قاضيه تؤيد شكواه أو ظلامته وهذا ما أوضحه علي بن يوسف في رسالته إلى قاضي مالقة أبي محمد عبد الله بن أحمد بن عمر القيسي المالقي المتوفى عام ٥٤٣هـ ـ ١١٤٨م ، وهي مؤرخة في ذي الحجة سنة ٥٢٣هـ ـ ٢٨ كانون الأول ١١٢٩م ، ومما جاء فيها : «... وقد قلدناك تقليداً تاماً أن تنظر بجهتك من شكاوى العامة في اللطيف والجليل ... وأي عامل من عمال الرعية قامت الشهادة عندك بتعديه وعلمت صحة استهدافه وتصديه فإنه أمره إلى صاحب البلد مستعمله ومموليه ، وأشعره بما ثبت عندك فيه فإن غل يد أذيته وأنفذ

---

[1] الذخيرة : المجلد الأول ، القسم الثاني ، ص٢٦١-٢٦٢ .

عزله عن رعيته ، وإلا فأحف ذلك إلينا في سائر ما يتوقف لديك من الأمور التي تقصر عـــنها يدك ...» [1] . هذا وقد أكد أمراء المرابطين على ولاتهم وعمالهم في الأمصار والأقالـــيم وجوب التزام حماية جانب قاضي الجماعة وعدم السماح للرعية بالاعتراض عـــلى أحكامـــه ، بالإضـــافة إلى تأكيدهم وإصرارهم على استمرار واجب الاحتفاء بالقضـــاة حيـــنما يمـــرون في أعمالهم ، بل كانوا يؤنبون الوالي الذي لم يحتفل ببعض القضاة الذين مروا في أعماله ولم يكترث بهم ، وهذا ما يتبين من خلال رسالة بعث بها أمـــير المســـلمين تاشفين بن علي إلى واليه الزبير بن عمر حول هذا الموضوع قائلاً : « ... من حضرة قرطبة ... وقد تعين لنا قبلكم الحضرة عتب قبلك ، وقبل من تختصه بالـــبر خـــبرنا ـــ أعزك الله ـــ كيف جاز أن يجتاز بكم ... أبو بكر بن أسود قاضي قضـــاة الشرق ، وما بوضعه خفاء ، ولا باحتفاء الدولة العلية به ، فتهاونتم بمثواه ... فلتعـــلموا مكان هذه الفعلة الفادحة ، والفرطة الواضحة ...» [2] ونتيجة لذلك تمتع القضـــاة الأندلسيون بسلطات واسعة ونفوذ قوي في الدولة وصل إلى حد التدخل في تعيين الولاة وعزلهم لدى أمير المسلمين وهذا ما حدث فعلاً عندما طالب القاضي أبو الوليد بن رشد قاضي الجماعة بقرطبة ، أمير المسلمين علي بن يوسف بعزل واليه على الأندلـــس تمـــيم فاستجاب لـــه [3] ، وبما أن أمير المسلمين هو من يقوم بتعيين قاضي الجماعـــة ، الذي يعتبر بمثابة قاضي الإقليم أو المنطقة التي تتبع له لذلك كان من ضمن صـــلاحياته تعيين قضاة الأقاليم التابعة له وعزلهم عند الضرورة [4] وبشكل إجمالي لم

---

(1) مكـــي (محمود علي) : وثائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، المجلد السابع والثامن ، ١٩٥٩-١٩٦٠م ، ص١٧١-١٧٤ .

(2) رسائل أندلسية ، ص٢٥٧-٢٥٨ .

(3) الحلل الموشية ، ص٩٨ .

(4) الصـلة ، ج١ ، ص أ وص ي عـــن حـــياة ابـــن بشكوال وولايته قضاء بعض جهات إشبيلية لابن العربي المعافري .

يكـــن يخرج عن سلطان قاضي الجماعة إلا إعداد جيوش وجباية الخراج ، فقد كانت اختصاصـــاته تشـــمل مـــا يسمى في العصر الحالي بالقضايا المدنية والتجارية والجنائية والإداريـــة [1] ، فكـــان يشرف على بيت المال، ويصلح المساجد ، ويقيم الصوامع ، ويصـــنع المـــنابر ، بالإضافة لكتابة عقود الزواج ، وإذا ما دعا داعٍ للجهاد يكون في مقدمة الصفوف [2] . أي أنه مكلف بكل ما يتعلق بشؤون الأندلس وأمورها السياسية والإداريـــة وهو ما يستنتج من خلال حديث ابن القطان عن ابن حمدين قاض الجماعة بقرطبة حيث يقول : «حاز في المكانة لديهم ما لم يحزه غيره ممن سلف ، وكان جميل الطريقة ساعياً في كل خير أقطع الضرائب والمعاون على أهل قرطبة ، وسن كل طريقة جميلة وسيرة حسنة ، لأن ابن تاشفين (كان) لا يخالفه في شيء ... » [3] أيضاً هذا ما يشـــير إلـــيه المقري في حديثه عن قاضي الجماعة بإشبيلية أبو بكر بن العربي المعافري الإشـــبيلي من حيث اهتمامه بشؤون بلاد الأندلس ومرافقها قائلاً : «... احتاج سور إشـــبيلية إلى بنـــيان جهـــة منه ، ولم يكن بها مال متوفر ، ففرض على الناس جلود ضحاياهم ، وكان ذلك في عيد الأضحى فأحضروها كارهين ...» [4] ولأهمية المركز العـــلمي الكـــبير الذي يشغله قاضي الجماعة بالأندلس ، كثيراً ما كان يستدعى إلى الحضـــرة مراكش من قبل أمير المسلمين للفتيا في الأمور الهامة والأحداث الخطيرة التي تشـــغل المنطقة وتهم المصلحة العامة والتي استعصى على قضاة الحضرة حلها أو الإفتاء بهـــا، ومن تلك الفتاوى ، فتوى قاضي الجماعة بقرطبة محمد بن أحمد بن رشد ، وهو

---

(1) مسائل ابن رشد ، ج١ ، ص١٥ .

(2) رسائل أندلسية : ص٦٠ . نفح الطيب : ج٢ ، ص٢٣٤ . الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الأول ، ص١٢٠-١٢١ . أزهار الرياض ، ج٣ ، ص٣٠٠ عن قاضي الأنكمة . قيام دولة المرابطين : ص٣٦٩-٣٧١.

(3) نظم الجمان ، ص١٨ .

(4) نفح الطيب ، ج٢ ، ص٢٣٤ .

مــن كــبار فقهــاء الأندلــس وقضــاهًا وكانت ولايته لقضاء الجماعة بقرطبة عام ٥١١هـــ ـــ ١١١٧م ، ثم استقال عام ٥١٥هـــ ـــ ١١٢١م وهو الذي أفتى بتغريب النصارى جزاء غدرهم بالمسلمين عام ٥١٩هـــ ـــ ١١٢٥م لمساعدهم ألفونسو وهو أيضاً الذي أشار على أمير المسلمين علي بن يوسف بتسوير مدينة مراكش وعزل تميم عـــن ولاية الأندلس [١] . وكان لقاضي الجماعة منذ عهد علي بن يوسف مستشارون من الفقهاء عددهم أربعة ، اثنان منهم يلازمان القاضي ليستشيرهما في إصدار الأحكام والاثنان الآخران يختصان بإصدار المشورة للمتنازعين ، وكان للفقهاء المشاورين رئيس منهم ينظم شؤوهم [٢] .

هذا وكانت الأندلس في عصر المرابطين مقسمة إلى ثلاث مناطق قضائية رئيسية تعتبر مركزاً لإقامة قاضي الجماعة ، وهي الشرق والموسطة والغرب . وهو ما استنتج من خلال استقراء بعض النصوص التي تتحدث عن مراكز القضاة الذين شغلوا منصب قاضـــي الجماعـــة بالأندلس في ذلك الوقت ، فقد تولى القاضي محمد بن أحمد بن رشد المـــالكي منصـــب قاضي الجماعة بقرطبة [٣] كما تولى هذا المنصب أبو العباس أحمد بن حمديـــن ومكان مركز قضائه في قرطبة [٤] التي تعتبر مركز البلاد الأندلسية أو موسطتها ، أمـــا بالنســـبة لمركز القضاء الأندلسي بالغرب والكائن في إشبيلية فقد شغله ألمع القضاة وأرفعهـــم مكانة ومن ضمنهم قاضي قضاة إشبيلية القاضي أبو بكر محمد بن عبد الله بن

---

[١] الحلل الموشية ، ص٩٨ ، تاريخ قضاة الأندلس ، ص٩٨-٩٩ ، أزهار الرياض ، ج١ ، ص٥٩-٦١ ، الغنية ، ص٥٤ .

[٢] ثلاث رسائل أندلسية ، ص٩ ، المعجب ، ص١٧١ .

[٣] الصلة ، ج٢ ، ص٥٧٦ . الغنية ، ص٥٤ .

[٤] نظـــم الجمـــان : ص١٨ . تاريخ إسبانيا الإسلامية : ص٢٥٣ . خريدة القصر : ج٢ ، ص٢٩٢ ، ٢٩٦ . الغنية : ص٤٦ . ابن سعيد ، المغرب ف حلى المغرب ، القاهرة ١٩٥٣م ، ج١ ، ص١٦٢ .

العـــربي المعافـــري ، الذي يعتبر من أعظم فقهاء العصر المرابطي وحفاظه [1] هذا ولم تخل مـــنطقة الشرق من مركز لقاضي الجماعة وهذا ما أشار إليه العديد من المصادر [2] ومن ضمنها صاحب المعجم خلال حديثه عن قاضي قضاة الشرق إبراهيم بن إبراهيم بن محمد بن إبراهيم بن عبد الله بن عصام أبو أمية المعروف بابن منتيل توفي سنة ٥١٦هـــ ـــ ١١٢٢م [3].

هـــذا ما كان بشأن منصب قاضي الجماعة . أما القاضي فكما تقدم كان يعين مـــن قـــبل قاضي الجماعة ، ومن الممكن القول أن اختيار القاضي يعتمد على اتصافه بالأمانة وثقافته الواسعة والاطلاع على الفقه [4]. ويتحدث المراكشي عن الثقافة العالية التي تمتع بها أحد قضاة ميورقة في العصر المرابطي بقوله : «علي بن مسعود بن علي بن مســـعود بـــن إسحاق بن إبراهيم بن عصام الخولاني : سرقسطي أبو الحسن ... كان فقـــيهاً مشاوراً حافظاً للمدونة بارعاً في الوثائق وله حظ وافر من الأدب ، ولي قضاء مـــيورقة [5] . وهذا ما يشير إليه أيضاً مؤلف «أزهار الرياض» في حديثه عن غزارة علم القاضي عياض ، قاضي سبتة ثم غرناطة فيما بعد بقوله : «وكان من أئمة الحديث في وقـــته ، أصولياً متكلماً فقيهاً ، حافظاً للمسائل عاقداً للشروط ، بصيراً بالأحكام ، نحوياً ، ريان من الأدب ، شاعراً مجيداً ، كاتباً بليغاً ، خطيباً ، حافظاً للغة ...» [6] .

وإلى جانب العمل القضائي كان القضاة ممثلي أمير المسلمين ورسله لتدعيم هيبة

---

(1) نفـــح الطيـــب ، ج٢ ، ص٢٣٣-٢٣٦ . الغنية ، ص٦٦-٦٨ . خريدة القصر ، ج٢ ، ص٢٩٦ . تاريخ قضاة الأندلس ، ص١٠٥-١٠٦ .

(2) انظـــر رســـائل أندلسية ، ص٢٥٧ عن رسالة وجهها الأمير تاشفين بن علي إلى واليه الزبير بن عمر مشيراً فيها إلى وجود منصب قاضي قضاة الشرق .

(3) المعجم ، ص٥٥-٥٦ .

(4) ثلاث رسائل أندلسية ، ص٧-٨ . تاريخ قضاة الأندلس ، ص٢-٣ .

(5) الذيل والتكملة ، القسم الأول ، السفر الخامس ، ص٤٠٨ .

(6) أزهار الرياض ، ج٣ ، ص٧-٨ .

الحكـــم المـــرابطي ونفوذه إلى جانب الولاة في الأمصار ، بل إن اختصاص القضاة في المناطق التي يكون عملهم فيها وعلاقة القاضي بصاحب البلد ، أي العامل أو الوالي أو حاكم الإقليم ، يكشفان عن مدى رعاية أمراء المسلمين لشؤون رعيتهم وسعيهم إقرار العـــدل بيـــنهم عـــن طريق قضاهم ، ويتضح ذلك من نص الرسالة التي أرسلها أمير المســـلمين تاشـــفين بن علي إلى والي بلنسية وإلى قاضيها قائلاً فيها : «... وكذلك العـــامل مـــنكم والقاضي وفقهما الله ـــ إنما أقعدا بذلك المكان لخير يتوليانه ، وشر يـــردعانه ، وعـــدل يقضـــيانه ... والذي نأخذ به عهد الله على العامل منكم الرفق بالرعية، والحكم بالتسوية ، وإجراء أمورها على السبيل الحميدة المرضية ... والعلم أن العـــدل يقســـطها ، والجور يسخطها ، وقلة المساواة تشتتها وتقنطها ، ولا سبيل أن يســـتعمل عليها إلا يستثق جانبه ، وتحسن الأحدوثة عنه ، وإن ظهر أحد منهم بنظر جمـــيل فيه ، وكان في نفسه ما يخفيه ، فالبدار البدار إلى عزله وعقابه ، والتشديد فيما نأمر به ...» [1] بالإضافة إلى ذلك كان للقضاة دورهم الفعال والهام في سياسة الدولة العامـــة والمرتبطة بتعبئة الجيوش وحشدها بل كثيراً ما قاموا تحريض المقاتلة على الجهاد ضـــد الأعـــداء ، فقـــد خرج قاضي ميورقة علي بن مسعود بن علي بن مسعود بن إســـحاق بـــن إبراهيم بن عصام الخولاني مع الخطيب أبي زيد بن منتيال إلى الأمير أبي الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين في حصار سرقسطة ، وكلماه عن أهلها في مناجزة العـــدو [2] ، وهـــنا ما يستنتج أيضاً من خلال نص الرسالة التي أرسلها أمير المسلمين تاشـــفين بن علي إلى والي بلنسية وإلى قاضيها قائلاً : «... وانتدبوا واندبوا من قبلكم للجهاد الذي هو من قواعد الإيمان والرشاد ، أمر الرحمن ، وفرض على الكفاية وكل عيان ... وقد جاء عن الرسول (ﷺ) أنه قال : «مثل المجاهد في سبيل الله كمثل القائم

---

(١) رسائل أندلسية ، ص٥٧-٥٨ .

(٢) الذيل والتكملة ، القسم الأول ، السفر الخامس ، ص٤٠٨ .

الصائم الذي لا يفتر عن صلاة ولا صيام ... »[1] .

ولشدة اهتمام أمراء المرابطين بأمور رعاياهم وحرصهم على إقامة العدل واستقرار الأمن في كافة أنحاء الأقاليم الأندلسية لجؤوا إلى سياسة تعيين القضاة في مختلف مناطق ولاية الأندلس وذلك لتوفير مشقة السفر على المتقاضين من سكان تلك المناطق إلى مراكز المدن الرئيسية حيث مركز قاضي الجماعة ، ومن أجل الإسراع في حل قضايا هؤلاء الرعايا ، وهذا ما يستنتج من النصوص التي تشير إلى أماكن عمل هؤلاء القضاة ، فقد قام أبو محمد عبد الله بن عيسى بن عبد الله بن أبي حبيب الأندلسي بولاية القضاء بكورة منجة من غرب الأندلس [2] كما عمل ابن بشكوال في فترة من فترات حياته كقاضٍ في بعض جهات إشبيلية بتكليف القاضي أبي بكر بن العربي الإشبيلي قاضي الجماعة بإشبيلية [3] وعلى الرغم من السلطات الواسعة التي تمتع به القضاة في عصر المرابطين ، فإن أمراء المسلمين ، لم يغفلوا عن مراقبتهم ومعاقبة المقصر منهم والمسيء وعزله ، وهو ما يؤكده النص التالي : «محمد بن إبراهيم بن أحمد بن أسود : من أهل ألمرية ... استقضي بمرسية مدة طويلة لم تحمد سيرته فيها ، ثم صرف عن ذلك ، وسكن مراكش وتوفي بها في رجب من سنة ست وثلاثين وخمسمائة» [4] . بل لجأ حكام المرابطين إلى تبديل القضاة وتغيير أماكن عملهم بين فترة وأخرى ، حتى لا يستغل بعضهم مكانة منصبه لمصالحه الشخصية ، ففي عام ٥١٣هـ ـــ ١١١٩م عزل أمير المسلمين علي بن يوسف القاضي أبا وليد بن رشد عن قضاء قرطبة ، وولى مكانه أبا القاسم بن حمدين [5] ، وفي عام ٥٢٨هـ ـــ ١١٣٣م عزل الأمير علي بن يوسف ، أبا

---

(١) رسائل أندلسية ، ص٥٨ .

(٢) خريدة القصر ، ج١ ، ص٣٠٦ .

(٣) الصلة ، ج١ ، ص ي .

(٤) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص٥٨٤ .

(٥) الاستقصا ، ج٢ ، ص٦٨ .

عبد الله بن أصبغ عن القضاء بقرطبة وولى أبا عبد الله محمد بن الحاج قضاءها [1] .

هـذا ومن الملاحظ أن سياسة أمراء المرابطين في تعيين القضاة لم تستند إلى عصبية قبلية كما حصل في تعيين الولاة ، وهي سياسة حكيمة برهنت على رغبة أمراء المسلمين في تحقيق العدالة بين جميع أفراد الرعية من غير محاباة لأحد ، بل يلاحظ اقتصار منصب القضاء في القواعد الكبرى على الأندلسيين وذلك لسبب واضح ، وهو أنه لم يكن بين المرابطين من يستطيع الاضطلاع بهذا المنصب [2] ، ويتبع منصب القاضي منصب نائب القاضي أو خليفة القاضي ، فقد أدت ظروف الحياة الاجتماعية إلى زيادة أعباء القاضي، لذلك سرعان ما اضطر إلى التنازل عن بعض مسؤولياته إلى مساعدين تحت سلطته أو إدارته يعينهم لإنجاز الواجبات التي كانت منوطة به ، فكانت وظيفة نائب القاضي ، ويبدو أن معظم القضاة في بداية حياتهم كانوا نواب قضاة ، فكأن التنظيم القضائي هيئة يتدرج فيها المنتسب للقضاء من نائب فقاضٍ فقاضي جماعة ، ومثلما يقوم قاضي الجماعة بتعيين قضاة يمثلونه في النواحي التابعة له ، كان القضاة بدورهم يعينون من ينوب عنهم في القرى التابعة لنواحيهم لممارسة الأعمال القضائية فيها ، وكانت اختصاصات قضاة النواحي محدودة في قرية أو في حي كبير من أحياء المدينة مسند إليه بمقتضى توكيل خاص من قاضي الكورة المشرف على خطة قضاء الكور [3] . ومن المعروف أنه كان للقضاة مجالس تعقد لدراسة القضايا والفتوى بها وكان يساعدهم في مجالسهم مجموعة من الكتاب لتدوين قرارات الحكم وتسجيل أقوال الشهود لأن الدليل المكتوب خير سند يعتمد عليه ، وهذا ما أشارت إليه كتب التراجم بإيرادها مجموعة من أسماء من اشتهروا بالكتابة للقضاة مثل : إبراهيم بن جعفر بن أحمد اللواتي ، يعرف بابن

---

(1) نظم الجمان ، ص٢٠٧ .

(2) الصلة : ج٢ ، ص٥٧٦ . الغنية : ص٥٤ ، ص٦٦-٦٨ ، عن أشهر وألمع القضاة الأندلسيين .

(3) مسائل ابن رشد ، ج١ ، ص١٥-١٦ .

الفاسي ، من أهل سبتة ، ويكنى أبا إسحاق ، كان من أهل العلم والفضل والزهد والتقشف ، وصحب القاضي أبا الأصبغ بن سهل وكتب له مدة قضائه بالأندلس والعدوة ، وكان مقدماً في علم الشروط والأحكام مشاركاً في علم الأصول والأدب [1] وعبد العزيز بن علي بن عيسى بن سعيد بن مختار الغافقي أبو الإصبع المعروف بالشقوري توفي سنة ٥٣١هـ ـ ١١٣٦م كتب للقضاة وكان حافظاً للفقه مقدماً في علم الشروط [2] .

من خلال ما تقدم يلاحظ أنه كان يشترط في الكتاب الذين يكتبون للقضاة أن يكونوا على قسط وافر من الثقافة والاطلاع ، بالإضافة إلى الإحاطة والمعرفة بأمور القضاء وعلم الأحكام والشروط [3] .

أما أعوان القاضي ، فهم عشرة ، أربعة من سودان البربر ، مختصون بحقوق المرابطين وغيرهم من الملثمين ، والباقي أندلسيون وهؤلاء الأعوان يختارهم القاضي ممن عرف واشتهر بالفقه ويفضل أن يكونوا من ثقات الشيوخ ، ويجب أن يتمتع القاضي بهيبته وسطوته عليهم ، ويمنع خروجهم ودخولهم دون استئذان أو استدعاء منه [4] ، وذلك حتى لا يتاح أي مجال للبلبلة ومنعاً لتعطيل سير القضايا ومجرياتها ، غير أن بعض صغار النفوس من هؤلاء الأعوان كان لا يلتزم بهذه الأوامر ، فيحاول الظهور أما أصحاب الشكاوي بأهميته أو صلته الوثيقة بالقاضي ، مما يجعل بعضهم يقع في حبائله من أجل تسهيل أعماله فيلجؤون للرشوة [5] .

---

(١) المعجم ، ص٥٣ . الصلة ، ج٢ ، ص١٠١ .

(٢) المعجم ، ص٢٦٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص٥٣ ، ٢٦٦ . الصلة ، ج١ ، ص١٠١ .

(٤) ثلاث رسائل أندلسية ، ص٩ .

(٥) المصدر السابق ، ص١٠ .

وامتاز عصر المرابطين بعدم عزل مجالس القضاة عن الرعية حيث لم يعثر على أية إشـــارة إلى وجـــود الحجاب على باب القاضي ، وهذا ما يصفه ابن عبدون بقوله : «ويجـــب أن لا يســـد باب القاضي ولا يحتجب ، فإنه لا يأتي إليه إلا كل مظلوم فإذا حجـــب أو احتجب هو عن المظلومين ، فمن يظفر المظلوم يوماً بحقه ، إذا كان بابك محجوباً وأنت مشغول» [1] .

ويشـــمل القضاء في الأندلس عدداً كبيراً من الخطط التابعة لـــه . ومنها خطة الأحكام وهي من أهم خطط القضاء في المغرب والأندلس ، ويرجع وجود هذه الخطة إلى أواخـــر عهـــد الخلافـــة الأمويـــة في الأندلـــس ، إلا أن أول إشارة لها في عهد الدولـــة المرابطـــية تعـــود إلى عهد علي بن يوسف وذلك من خلال رسالة بعث بها إلى قاضـــيه عـــبد الله بـــن أحمـــد بن عمر التوحيدي قاضي مالقة والمؤرخة بتاريخ ٥٢٣هـــ ـــ ١١٢٩م مشيراً فيها إلى أحكام هذا المنصب وصلاحيات صاحبه ، محدداً لـــه الشروط التي ينبغي أن تتوفر في صاحب الأحكام ، من ثقة وديانة وعفاف وزهد وتحفـــظ ، كمـــا يعطي لقاضي الجماعة سلطة مطلقة في تعيين قضاة الأحكام وعزلهم وعقابهم دون الرجوع إلى أمير المسلمين . ومن فصول هذه الرسالة : «... ومدار هذا الأمر اختيار الحكام الذين استنبتهم في أقطارك القاصية ، ونصبتهم في الجهات النائية ، فشرطهم الثقة والديانة ، والصون والأمانة ، فإنهم إذا كانوا بهذه الصفة جرت أمورهم عـــلى سبيلها القاصد ، وسيرها الراشد ، وأمنت في جهات الرعية والأحكام ... وبعد توليـــيك إيـــاهم فأشـــرف عليهم إشرافاً يتعقب أحوالهم ...» [2] ، مما تقدم يبدو أن خطـــة الأحكـــام وظيفة تابعة للقضاء ، كان صحبها يضطلع بالفتيا وإبداء الرأي في

---

(١) المصدر السابق ، ص١٠ .

(٢) وثـــائق تاريخية جديدة عن عصر المرابطين ، ص١٧١-١٧٤ . التاريخ الدبلوماسي ، المجلد الخامس ، القسم الثاني ، ص١٦١-١٦٢ .

الأحكام الشرعية [1] .

وممـــن تولى خطة الأحكام عبد الملك بن عبد الرحمن بن عبد الملك الأنصاري ، سرقســـطي ، أبو مروان ابن غشليان ، كان محدثاً وأحد نبهاء بلده ، ولي الأحكام به وتوفي بعد سنة ٥٠٠هـــ ـــ ١١٠٦م [2] ومنهم محمد بن فتوح بن علي بن وليد بن محمـــد بـــن علي الأنصاري من أهل طلبيرة ، يكنى أبا عبد الله ، كان عالماً بالرأي ، والوثـــائق ، متقدماً في علم الأحكام . تولى خطة الأحكام بغرناطة ، وتوفي بمالقة سنة ٤٩٨هـــ ـــ ١١٠٤م [3] .

أما خطة الشورى فقد كانت أيضاً من المناصب القضائية ولكنها كانت حسبما يـــبدو من مختلف الإشارات الخاصة بها أقل في الرتبة من القضاء ، إذ يلاحظ أن عدداً مـــن القضاة تولى منصب الشورى قبل توليه منصب القضاء ، ويختص صاحبها بإبداء الـــرأي والفـــتوى في المسائل والأحكام ، ويشغلها على الأغلب أحد الفقهاء . وفي نصـــوص كـــثيرة في التكملة وغيرها يوصف صاحب هذه الوظسيفة بأنه كان فقيهاً يشاور في الأحكام ، أو أنه ولي خطة الشورى [4] ، ويشير ابن عبدون إلى أن القاضي هـــو الذي يقوم بتعيين الفقهاء لخطة الشورى ، فيختارهم من أهل المدينة ممن شهد له بـــالورع والـــتقوى وعرف بالتبحر بالفقه ويجب أن لا يزيد عددهم عن أربعة ، اثنان يشتركان في مجلس القضاء ، واثنان في المسجد الجامع كما يترتب عليهم الحضور يومياً إلى مجلس أعمالهم ، ويمنع المشاورة في دورهم «فالمشورة في دور الفقهاء والمشي عليهم

---

(1) ابن الآبار : كتاب التكملة ، القاهرة ١٩٥٦ ، ج٢ ، ص٥٦٢ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٦٢٩ .

(2) الذيل والتكملة : القسم الأول ، السفر الخامس ، ص٢٢ .

(3) الصلة ، ج٢ ، ص٥٦٥ .

(4) التكملة ، ج١ ، ص٣٤ ، ٤٤ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٨٦ ، ١٤٩ ، ٢٠٩ ، ٢٤٣ .

ظلم عظيم»[1]. ومهما يكن فإن القضاء في الأندلس قام على التعاون بين هيئتي الفقهاء المشاورين والقضاة. وممن تولى خطة الشورى، أحمد بن أحمد بن محمد الأزدي يعرف بابن القصير من أهل غرناطة، كان فقيهاً، حافظاً، حاذقاً، مشاوراً ببلده، استقضى بغير موضع، توفي سنة ٥٣١هـ ـ ١١٣٦م[2].

وعاشر بن محمد بن عاشر بن خلف بن مرجي بن حكم الأنصاري، وتوفي ٥٦٧هـ ـ ١١٧١م تولى خطة الشورى ببلنسية ثم قلد خطة القضاء بمرسية واستمر في هذا المنصب حتى سقوط دولة المرابطين[3].

أما خطة الإفتاء: فكان يشترط فيمن تناط به أن يكون ذا خبرة ومعرفة بالمسائل والنوازل والفتاوى بعقد الشروط[4]، ويظهر أنه كانت هناك هيئة من الفقهاء تتولى الإفتاء في عهد علي بن يوسف، لأنه وجد رئيس للمفتين، وهذا ما يستنتج من حديث ابن الأبار بقوله: «عاشر بن محمد بن عاشر بن خلف بن مرجي بن حكم الأنصاري أبو محمد من أهل يناشتة، سكن شاطبة، ولي خطة الشورى ببلنسية، ثم قلد قضاء مرسية ... واستمر على ذلك .... ونزل شاطبة فدرس بها الفقه، وكان أحفظ أهل زمانه للمسائل وأسمع من ذلك الحديث وهو كان رأس المفتين ... توفي سنة سبع وستين وخمسمائة، وقد نيف على الثمانين»[5]. وممن تولى خطة الإفتاء أحمد بن محمد بن أحمد بن مخلد بن عبد الرحمن بن أحمد بن بقي بن مخلد بن يزيد، من أهل قرطبة، يكنى أبا القاسم شوور في الأحكام بقرطبة، فصار صدراً في المفتن بها لسنه وتقدمه (ولد

---

(1) ثلاث رسائل أندلسية، ص٩.

(2) الصلة، ج١، ص٧٩.

(3) المعجم، ص٣١٠-٣١١.

(4) الصلة، ج١، ص٧٩-٨٠.

(5) المعجم، ص٣١٠-٣١١.

سنة ٤٤٦هـ ــ ١٠٥٤ ، وتوفي سنة ٥٣٢هـ ــ ١١٣٧م) [1] .

أمـــا فـــيما يـــتعلق بخطة المظالم ، فهي بمثابة محكمة الاستئناف العليا في العصر الحالي، تعرض عليها القضايا إذا عجز القاضي عن تنفيذ حكمه في قضية رجل من علية القوم ، أو إذا لجأ إليها المتقاضي الذي اعتقد أن القاضي لم يحكم بالعدل . وهي وظيفة تعـتمد عـلى سـيادة السلطة وإنصاف القضاء ، تقمع الظالم من الخصمين وتزجر المعـتدي، وكأن صاحبها يمضي ما عجز القضاة أو غيرهم عن إمضائه ، ويكون نظره في البيـنات والتقارير واعتماد الإمارات والقرائن ، وتأخير الحكم إلى استجلاء الحق ، وحمـل الخصمين على الصلح ، واستحلاف الشهود ، وذلك أوسع من نظر القاضي ، ولهذا كانت خطة المظالم تسند إلى رجل جليل القدر كثير الورع يعرف باسم القاضي المظالم [2] وممن تولى خطة المظالم محمد بن أصبغ بن محمد بن أصبغ ،شغل هذه الخطة بقرطـبة إلى جانب قاضي الجماعة أبو الوليد بن رشد ، وصرف عنها بصرفه ، توفي عام ٥٣٦هـ ــ ١١٤١م [3] .

ويـلحق بهذه الخطط منصب الخطابة وإمامة الصلاة العامة في المسجد الجامع ، والتي تعد من المناصب الدينية الرفيعة في ذلك الوقت ، فقد تولى محمد ن أحمد بن رشد المالكي منصب قاضي الجماعة بقرطبة وصاحب الصلاة في المسجد الجامع بها [1] كما تـولى محمد بن أصبغ ن محمد بن أصبغ الأزدي المعروف بابن الناصف منصب إمامة

---

(1) الصلة ، ج١ ، ص٧٩-٨٠ .

(2) العـبر وديـوان المبتدأ والخبر : المجلد الأول ، بيروت ١٩٦١ ، ص٣٩٢ . تاريخ الإسلام السياسي ، ج٤ ، ص٣٨٣ .

(3) الصلة ، ج٢ ، ص٥٨٥-٥٨٦ .

(4) الصـلة ، ج٢ ، ص٥٧٦ . تـاريخ قضاة الأندلس ، ص٩٨ . صور وبحوث من التاريخ الإسلامي ، ص١٦٤ .

فريضة الصلاة بجامع قرطبة بالإضافة لعمله بصفته قاضياً للجماعة [1] .

ومن الجدير بالذكر أن القضاء كان يجري في عصر المرابطين وفق مذهب الإمام مالك بن أنس وهو مذهب الأندلس السائد منذ أواخر القرن الثاني الهجري [2] ، والرسالة التي أرسلها الأمير تاشفين بن علي بن يوسف إلى أهل بلنسية عام ٥٣٨هـ ـ ١١٤٣م تنص وتؤكد على أن مدار الفتيا ومصدر الأحكام عند المرابطين هو مذهب الإمام مالك وحده ، كما تحذر الناس من البدع وكتبها وأصحابها وخاصة كتب الغزالي : «... واعلموا ـ رحمكم الله ـ أن مدار الفتيا ، ومجرى الأحكام ، والشورى في الحضر والبدا على ما اتفق عليه السلف الصالح ـ رحمهم الله ـ من الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس ـ رضي الله عنه ـ فلا عدول لقاضي ، ولا مفت عن مذهبه ، ولا يأخذه في تحليل ولا تحريم إلا به ،... ومتى عثرتم على كتاب بدعة فإياكم وإياه ، وخاصة ـ وفقكم الله ـ كتب أبي حامد الغزالي ، فليتبع أثرها ، وليقطع بالحرق المتتابع خبرها ...» [3] ، ومن أشهر الرجال الذين شغلوا منصب القضاء في الأندلس في عصر المرابطين :

◘ القاضي أبو الوليد محمد بن رشد :

زعيم فقهاء وقته في المغرب والأندلس ومقدمهم المعترف له بصحة النظر

---

(١) الصلة ، ج٢ ، ص٥٨٥-٥٨٦ . المعجم ، ص١٣٤ .

(٢) الزهرات المنثورة ، ص١٢٩-١٣٠ .

(٣) رسائل أندلسية ، ص٥٥-٥٩ . .

التاريخ الدبلوماسي : المجلد الخامس ، القسم الثاني ، ص١٧٠-١٧٢ .

انظر نظم الجمان : عن إجماع قاضي الجماعة ابن حمدين مع فقهاء قرطبة ،على إحراق كتاب أبي حامد الغزالي المسمى بإحياء علوم الدين ، ص١٤ .

التليدي : المطرب في مشاهير أولياء المغرب ، طنجة ١٩٨٧ ، ص٣٢ .

الإسلام في المغرب والأندلس ، ص٢٥٣ .

وجـودة التألـيف ودقـة الفقه ، وكان إليه المفزع في المشكلات ، بصيراً بالأصول والفروع والفرائض والتفنن في العلوم ، وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية ، كثير التصنيف مطبوعه ، ألف كتابه المسمى بكتاب البيان والتحصيل في شرح كتاب العتبي المستخرج من الأسمعة ، وكتاب «المقدمات لأوائل كتب المدونة» ، وكتابه في اختصار الكتـب المبسـوطة مـن تأليف يحيى بن إسحاق بن يحيى ، وتهذيبه لكتاب الطحاوي المسـمى «اختصار مُشْكل الآثار» ، وأجزاء كثيرة في فنون العلم مختلفة ، ولي قضاء الجماعة بقرطبة سنة ٥١١هـ ـ ١١١٧م ثم استعفى سنة ٥١٥هـ ـ ١١٢١م توفي سنة ٥٢٠هـ ـ ١١٢٦م [١] .

◙ القاضـي أبـو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي المعافري :

ولـد في إشبيلية عام ٤٦٨هـ ـ ١٠٧٥م ، وكان أبوه عبد الله بن محمد بن العـربي من وجوه علماء الدولة وكبار أعيانها ، قام أبو بكر برحلة علمية إلى المشرق ، ولمـا عاد إلى إشبيلية بعد رحلته قصده طلاب العلم وأذكياء الأندلس من كل حدب وصوب ، وتحول منْزله إلى جامعة ، وعقدت لـه حلقات الدرس في الجوامع ، وكان ممـن أخذ عنه وتلقى عليه طائفة من كبار علماء الإسلام منهم قاضي المغرب القاضي عـياض بـن موسى اليحصبي ، وابنه القاضي محمد بن عياض ، والمؤرخ أبو القاسم خلـف بـن عـبد الملك بن بشكوال وغيرهم ، قال مترجموه : بقي ابن العربي يفتي ويـدرس أربعين سنة ، وقبل أن يتولى القضاء صدر لـه التقليد من السلطات الرسمية بأن يتولى منصب المشاور للفقهاء وبعد أن بلغ القمة في مكانته العلمية بما أن ظهر من مؤلفاتـه العظـيمة، ما انتشر في ربوع الأندلس والمغرب من تلاميذه ومرٌيديه في عام

---

[١] أزهار الرياض ، ج١ ، ص٥٩-٦١ . الغنية ، ص٥٤ . تاريخ قضاة الأندلس ، ص٩٨-٩٩ .

٥٢٨هـ ـ ١١٣٣م ولي قضاء الجماعة في إشبيلية ، وقد أجمعت كلمة الذين تحدثوا عنه كالقاضي عياض وابن بشكوال وابن سعيد وجميع مؤرخي الأندلس على أنه كان مثال العدل والاستقامة وحسن القيام بأمر القضاء ، القاضي عياض : فنفع الله به أهل إشبيلية لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه ، وكانت له في الظالمين صورة مرهفة ، مع الرفق بالمساكين ، والتزام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واستمر في هذه المدة على إلقاء دروسه مع القيام بأمر القضاء ومواصلة التأليف ، هذا ولقد شهد أبو بكر سقوط دولة بني تاشفين على يد عبد المؤمن بن علي صاحب دولة الموحدين في أواخر شيخوخته وعقب ذلك أخذت وفود مدائن الأندلس تغد على عبد المؤمن في مراكش طالبة منه الاستيلاء على بلادهم من بقايا المرابطين ،وحضر في سنة ٥٤٢هـ ـ ١١٤٧م وفد إشبيلية برئاسة كبير علمائها أبي بكر بن العربي . ولسبب غامض لا نعرفه إلى الآن حبس عبد المؤمن هذا الوفد في مراكش نحو عام ، ثم سرحوا ، فأدركته منيته في منصرفه من مراكش في موضع يسمى أغلان على مسيرة يوم من فاس غرباً منها حيث حمل إلى فاس ودفن هناك عام ٥٤٣هـ ـ ١١٤٨م [1] .

■ القاضي عياض :

القاضي عياض ٤٧٦-٥٤٤هـ / ١٠٨٣-١١٤٩م هو أبو الفضل عياض ابن موسى بن عياض بن عمرون بن موسى بن عياض بن محمد بن موسى بن عياض اليحصبي السبتي ، ولد بسبتة عام ٤٧٦هـ ـ ١٠٨٣م وقرأ على مشايخها

---

(١) ابن العربي : العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي (ﷺ) ، تحقيق محب ادين الخطيب ، القاهرة ١٣٧١هـ ، ص١٠ ، ٢٣-٢٥ ، ٣١ .

نفح الطيب ، ج٢ ، ص٢٣٢-٢٣٦ . تاريخ قضاة الأندلس ، ص١٠٥-١٠٦ . الغنية : ص٦٦-٦٨ . سعيد أعراب : مع القاضي أبي بكر بن العربي ، دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، لبنان ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م ، ط١ ، ص٩-١٣ ، ٨٢-٨٤ .

القراءات والعربية وأصول الفقه وعلم الكلام ، وتفقه بالمذهب المالكي فغدا «إمام وقته في الحديث وعلومه والنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم» ، رحل إلى الأندلس عام ٥٠٧هـ ـ ١١١٣م فأخذ عن أعلام قرطبة والتقى بأبي علي الصدفي بمرسية فسمع عليه كثيراً ولازمه ، كما أجازه أبو علي الجياني ، ثم عاد إلى بلده سبتة عام ٥٠٨هـ ـ ١١١٤م ، فجلس للمناظرة والمشاورة ثم ولي قضاءها عام ٥٢٥هـ ـ ١١٣٠م ، وفي سنة ٥٣١هـ ـ ١١٣٦م ، انتقل إلى غرناطة حيث تولى قضاؤها مرة أخرى عام ٥٣٩هـ ـ ١١٤٤م ولما تولى الموحدون أمور المغرب والأندلس سارع إلى مبايعتهم ، غير أنه ما لبث أن ثار في أهل سبتة عام ٥٤٣هـ ـ ١١٤٨م ، فسارع عبد المؤمن بن علي إلى منازلة سبتة حيث حاصرها ثم دخلها وأخمد الثورة ، ويبدو أن عياضاً توجه إلى عبد المؤمن في مراكش عام ٥٤٣هـ ـ ١١٤٨م أي بعد شهور قلائل من هزيمته في سبتة في صحبة الشيخ أبي يحيى بن الجبر ، وربما كان ذهابه باستدعاء من عبد المؤمن .

بقي عياض في مراكش وتوفي بها ثم نقل إلى فاس ودفن في أواسط سنة ٥٤٤هـ ـ ١١٤٩م [١] .

من مؤلفاته : كتاب «الشفا بتعريف حقوق المصطفى» ستة أجزاء ، كتاب «إكمال المعلم في شرح مسلم» تسعة وعشرون جزءاً ، كتاب «المستبطة على الكتب المدونة والمختلطة» عشرة أجزاء ، كتاب «ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك» خمسة أسفار ، كتاب «الأعلام بحدود قواعد الإسلام» ، كتاب «الإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع» ، كتاب الغنية في شيوخه ، جزء ، ومما

[١] أزهار الرياض ، ج٣ ، ص٧-١١ . المعجم ، ص٣٠٦-٣١٠ . الغنية ، ص٦-٧ .

تـــركه في المبيضـــه كـــتاب «مشارق الأنوار على مبهم صحائح الآثار» ستة أجزاء ضخمة، وهو كتاب جليل ، وكتاب «سر السراة في آداب القضاة» [1] .

يســـتنتج من كل ذلك أن القضاة ومعظمهم من الأندلسيين كانوا صلة الوصل بـــين حكـــام المـــرابطين والأندلسيين ، لا بل امتلكوا من النفوذ والقوة ومنحوا من الصلاحيات ما فاق قوة حكام الأقاليم وعمالها في بعض الأحيان .



(١) أزهار الرياض ، ج٤ ، ص٣٤٨-٣٥٠ . الإحاطة ، ج٤ ، ص٢٢٢-٢٢٩ .


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الفصل الرابع

العصر الموحدي


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

الحياة السياسية

آ ـ نهاية عصر قوة سلطان المرابطين وانهيارهم :

لما توفي الأمير يوسف بن تاشفين عام ٥٠٠هـ [١] في قصره بمراكش الدولة المرابطية تمثل بشطريها «المغرب والأندلس» فلكاً مؤسساً «وجنداً مجنداً وسلطاناً قاهراً ومالاً وافراً ...» [٢] ، وقد خلفه يوم وفاته ولده «علي» الذي اختاره لولاية العهد منذ سنة ٤٩٥هـ ، ثم أصدر عهد التولية بقرطبة سنة ٤٩٦هـ [٣] .

وكان يوسف أوصى ولده علياً بثلاثة أمور ، أولها ألا يفعل شيئاً لإثارة جبل درن [٤] ومن ورائه من المصامدة وأهل القبلة والثاني أن يهادن بني هود أمراء

---

[١] راجع وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٤٨ . روض القرطاس ، ص١٠١- ١٠٢ . الحلل الموشية ، ص٥٥ وما بعدها . جذوة الاقتباس ، ص٥٤٥ ت ٦٣٣ .

[٢] ابن الخطيب عن ابن عذاري : في الإحالة بترجمة علي .

[٣] أعمال الأعمال (تحقيق أحمد مختار) ، ج٣ ، ص٢٥٣ ، وص٢٤٧ من الكتاب المذكور ، تحقيق بروفنسال .

[٤] جبل درن : كان اسم درن بفتح أول وثانيه يطلق في العصر الوسيط على جبال الأطلس ولا سيما جبال المصامدة الواقعة خلف مدينة مراكش ، وفي هذه الجبال قال المعتمد بن عباد أمير إشبيلية عندما كان سجيناً بأغمات :

هذي جبال درن حفت بكل درن
يا ليتني لم أرها وليتها لم ترنِ

انظر روض القرطاس ، ص١٧١ ، حاشية رقم ٩٨ .

سرقسطة وأن يتركهم حائلاً بينه وبين النصارى ، والثالث أن يعطف عليَ من أحسن من قرطبة وأن يتجاوز عمن أساء منهم [١] .

وقـد سار ـ كما يبدو ـ وفق المنهج الذي رسمه والده «... وسلك سبيله في عضد الحق وإنصاف المظلوم ...» [٢] . ونستطيع أن نعد حكمه الذي امتد ٣٧ عاماً هو عصر الدولة المرابطية الحقيقي ، ففي أوائل عهده وصلت الدولة المرابطية إلى ذروة قوتها وضخامتها [٣] ولكن السنوات التي تلت السنوات العشر من حكمه تميزت ببداية النكسات وتلاها سنوات احتدمت فيها الاضطرابات الداخلية من خلاف بين المرابطين والمـدن ، وقيام الفتن الدينية والمذهبية ، وهذا بدوره أدى إلى نكسات أمام النصارى في شمـال إسـبانيا مـن جهـة وأمام حركة الثورات في الداخل سواء في المغرب أو الأندلس [٤] من جهة أخرى .

وقـد استطاع الأسبان احتلال سرقسطة [٥]عام ٥١٢هـ ، وأعقب ذلك ثورة العامة في قرطبة التي كانت أول ثورة علنية ضد الحكم المرابطي في الأندلس ، وتطلبت قـدوم الأمير علي بنفسه لإخضاع الثائرين ، وقد قبل علي طاعتهم بعد أن عرف أن عملهم كان «ذباً عن الحرم والدماء والأموال» [٦] لكن المتاعب لم تتوقف إلا لتبدأ من

---

[١] الحلل الموشية ، ص٦٠ .

[٢] ابن عذاري ، ص٦٧ . أعمال الأعلام ، ص٤٥٣ .

[٣] امـتد سلطان المرابطين من بجاية إلى السوس الأقصى ومن تافيلت إلى السودان ، كما كان يخضع لهم جنوب شبه جزيرة إيبيريا بأجمعه ، وكان عمال علي بن يوسف قد امتد حكمهم ليشمل جزر البليار، وكان اسم علي بن يوسف يذكر على ألفين وثلاثمائة منبر في مساجد المغرب والأندلس . انظر الإسلام في المغرب والأندلس ، ص٢٤١-٢٤٢ .

[٤] أحمد بدر : المغرب والأندلس ، ص٦٩ .

[٥] سرقسـطة : مديـنة في شرق الأندلس ، وتسمى المدينة البيضاء ، ولها سور حجارة حصين ، ويجاز عليها بجسر عظيم . الروض المعطار ، ص ٧٠ ت٧١ .

[٦] ابن عذاري ، ج٤ ، ص٦٦ . الحلل الموشية ، ص٧١ .

جديـــد حيث ظهر «المهدي» محمد بن تومرت [١] في المغرب معلناً بداية الثورة الدينية ضد المرابطين بعد أن استفحل أمره [٢] .

لم يقـــف الأمـــر عـــند هذا الحد فلم تمضِ سنتان عقب وفاة الأمير علي عام ٥٣٧هـــ حتى اضطربت الأندلس من شرقها إلى غربها بالثورة ضد المرابطين ، وقام أحمد بن قسي متزعماً ثورة المريدين في غرب الأندلس سنة ٥٣٩هـــ كما قام في العام نفســه ابـــن حمدين في قرطبة ، وابن أضحى في غرناطة ، وأعقب ذلك ثورة ابن عبد العزيز في بلنسية ومرسية ... وهكذا بدأ سلطان المرابطين بالانهيار وأخذ الأمير تاشفين الـــذي خلف أباه يستدعي الحشود من كل ناحية لقتال الموحدين حيث اجتمعت في تلمســـان [٣] ولكـــنها كانت آخر حشود يحتفل بها المرابطون [٤] لأن المعركة الفاصلة جـــرت في رمضـــان مـــن سنة ٥٣٩هـــ وهزم المرابطون وقتل تاشفين في نهاية الأمر «وعادت هيف إلى أديانها» [٥] .

وبعـــد وفـــاة تاشـــفين بويع لابنه أبي إسحاق إبراهيم الذي دافع عن العاصمة

---

(١) هـــو محمد بن عبد الرحمن بن هود بن خالد ، وزعم بعض مؤرخي الموحدين أن نسبه ينتهي إلى علي بن أبي طالب ، وقيل إنه دعي في هذه النسبة وإنه تسمى فقط محمد بن تومرت الهرغي نسبة إلى هرغة مصمودة . وكان المهدي يسمي أصحابه الموحدين ويسمي خصومه المرابطين (بالمجسمين) لأنهم أخذوا بـــالعدول عـــن التأويل للمتشابه من القرآن والحديث ، فقد صاروا في نظره (مجسمة) ، ويصرح بأن جهـــاد المـــرابطين أوجب من جهاد الكفار ، وتلك سفسطة من المهدي ، انظر : روض القرطاس ، ص١١٠ . ابن خلدون ، ج٦ ، ص٢٢٥ وما بعدها . المعجب ، ص٩٩ وما بعدها . الحلل الموشية ، ص٧٥ وما بعدها ، وفيات الأعيان ، ج٢ ، ص٤٨ وما بعدها . الاستقصاء ، ج٢ ، ص١٠٣ .

(٢) الحلل الموشية ، ص٦٤-٧٤ .

(٣) تلمســـان : تقـــع في الشمال الشرقي من مدينة وجدة . وفي رجال تلمسان ألف ابن أبي مريم كتابه «البستان» . الاستبصار ، ص١٧٦-١٧٧ .

(٤) الحلل الموشية ، ص٩٧-٩٨ .

(٥) أعمال الأعلام ، ص٢٤٧ .

«مراكش» [1]دفاعاً مريراً لكنه سقط أيضاً ضحية الحوادث الأليمة ... وهكذا انهار في أعـوام قلائل ذلك الصرح الباذخ الذي شاده في نصف قرن أمراء شجعان من الملثمين يحدوهم حسن الطالع .

● دخول الموحدين إلى الأندلس :

في الوقت الذي كانت فيه ثورة الأندلس في أوجها ، كانت الدولة المرابطية في المغرب تلفظ أنفاسها الأخيرة على يد الموحدين . فقد استطاع عبد المؤمن بن علي [2] الـذي تسلم قيادة الموحدين خلفاً للمهدي أن يحقق انتصارات رائعة على المرابطين في عدة معارك ، فقدوا في أحداها قائدهم الشهير (الربرتير) وأميرهم الشجاع تاشفين بن علي [3] . وقد استطاع الموحدون بعد ذلك دخول مدينة تلمسان [4] ثم قصدوا مدينة فاس بعد أن ترك عبد المؤمن قسماً من جنوده للاستيلاء على قصبتها المنيعة [5] ، وقد حاصر الموحدون المدينة عدة شهور كما ذكر البيدق ثم سقطت في صباح الثاني عشر

---

(١) مراكش مدينة عظيمة تقع جنوب المغرب ، أسست سنة اثنتين وستين وأربعمائة هجرية ، وقد اتخذها اللمتونـيون ثم المصامدة من بعدهم كرسياً للملكة لقربها من صحراء لمتونة وجبال المصامدة . انظر : الاستبصـار ، ص٢٠٨-٢٠٩-٢١٠ . المعجب : نشر الفارسي ، ١٩٣٨م ، ص٢٢١-٢٢٢ . ابن خلدون ، ج٦ ، ص٣٣٧ . العباس بن إبراهيم ، تاريخ مراكش ، ج١ ، ص٦٣ ، وكذلك :

Provencal : la fondation de Marrakech emelange, d'Histoire et d'arche'ologie de paccident. Musulman. Tom, II. Page, 117.

(٢) عبد المؤمن بن علي : ينتمي إلى قبيلة كومية ، وهي بطن من بطون زناتة . اجتمع أمر المصامدة على عـبد المؤمـن ، وتلقـى بيعـته عقب وفاة المهدي محمد بن تومرت ، وقد قال المهدي لما بلغه هزيمة الموحدين وعلم أن عبد المؤمن سالم : «الحمد لله بقي أمركم» ؟ المعجب ، ص١٠٨-١٠٩ .

(٣) راجـع مقـتل تاشـفين التراجـيدي في الإحاطة ، ج١ ، ص٤٦١-٤٦٢ . الحلة السيراء ، ج٢ ، ص١٩٧-١٩٨ . أخبار المهدي ، ص٩٨ . الحلل الموشية ، ص١٠٠ . ابن خلدون ، ج٦ ، ص١٣١.

(٤) راجع عن فتح المدينة : الحلل الموشية ، ص١٠١ . ابن عذاري ، ج٣ ، ص١٨ .

(٥) ابن خلدون ، ج٦ ، ص٥٣١ . ابن عذاري ، ج٣ ، ص٩ .

من شهر ذي القعدة سنة ٥٤٠هـ بعد أن تآمر (الجياني) [1] الذي كان مشرفاً على المدينة مع الموحدين وفتح لهم أبوابها ، فقد عبد المؤمن في مدينة مكناس ودخل المدينة وأمر بقتل شيوخ المرابطين فيها وهدم أسوارها ثم توجه نحو مراكش وألقى الحصار على آخر معقل من معاقل المرابطين في إفريقية [2] .

ويروي صاحب روض القرطاس أنه أثناء الفتنة في الأندلس ، قدمت وفود من مختلف جواضر الأندلس على عبد المؤمن أثناء حصاره لمدينة مراكش ، ومن بينها كثير من رجال الأندلس البارزين من الفقهاء والقضاة .

وطلبوا منه القدوم إلى الأندلس لتحريرها من المرابطين ورد غارات النصارى عنهم ... وقد تعهدوا بمد يد العون وإعلان الدعوة الموحدية في بلادهم . فأرسل عبد المؤمن إلى الأندلس جيشاً موحدياً قوامه ١٠ آلاف فارس وعشرون ألف فارس بقيادة الشيخ أبي عمران موسى بن سعيد ، ونزل هذا الجيش في الجزيرة الخضراء ، ثم دخل مدينة «شريش» صلحاً بعد أن خرج صاحبها ابن عزون من حاميتها من الملثمين من المدينة ، وأعلن دخوله في طاعة عبد المؤمن وذلك في شهر ذي الحجة سنة ٥٣٩ [4] .

وذكر ابن الآبار رواية أخرى [5] تقول إن دخول الموحدين إلى الأندلس ، كان في أوائل سنة ٥٤١ هـ وتفصيل ذلك هو أنه حينما كان الخليفة عبد المؤمن يعسكر

---

(١) هو عبد الله بن خيار الجياني يكنى أبا محمد ، ويعد في عداد المتأدبين ، وقد كان مشرفاً على مدينة فاس أيام الملثمين وكان الصحراوي واليها لكنه قد شب بينهما خلاف تآمر على الصحراوي في ليلة عرسه ودعا الموحدين ، انظر أخبار المهدي ، ص١٤٦ . ابن عذاري ، ج٣ ، ص١٩-٢٠ . الحلة ، ج٢ ، ص٢٣٦ .

(٢) راجع عن فتح المدينة ابن خلدون ، ج٦ ، ص٢٣٢ . ابن عذاري ، ج٣ ، ص٢٣-٢٤ . أخبار المهدي ، ص١٠٣ .

(٤) روض القرطاس ، ص١٢٢-١٢٣ .

(٥) الحلة ، ص٢٠٠ .

بجيشه تحت أسوار فاس [1] في سنة ٥٤٠هـ وفد عليه علي بن عيسى بن ميمون قائد الأسطول المرابطي في مدينة قادس ، وأعلن طاعته للخليفة الموحدي ، ثم عاد أدراجه إلى مدينة قادس حيث أعلن الدعوة الموحدية في المدينة ، ثم قدم في ربيع الثاني سنة ٥٤٠هـ وفد آخر إلى المغرب بزعامة ابن قسي وقابل الخليفة عبد المؤمن ، وطلب منه ثوار المغرب واستخلص الأندلس من أيدي المرابطين ، فبعث عبد المؤمن في المحرم من سنة ٥٤١هـ جيشاً إلى الأندلس ومعه ابن قسي ، وهذا الجيش نفسه هو الذي سار عن طريق الجزيرة الخضراء ، ودخل إلى شلب وانتزعها من يد صاحبها ابن وزير الذي سيطر عليها عنوة [2] ثم تقدم الجيش إلى مدينة شريش التي انضم صاحبها أبو الغمر بن عزون وولده إلى صفوف الموحدين . دخلوا لبلة فأعلن صاحبها يوسف بن أحمد السبطروحي الطاعة ، كما استولى الجيش على مدينة «ميرتلة» التي كانت حاضرة ابن قسي من قبل . وبعد أن تم لهم كل ذلك توجهوا إلى بطليوس فأعلن صاحبها ابن وزير الطاعة وأطلق سراح سجينه محمد بن عمر بن المنذر وهو أحد زعماء المريدين الثائرين في الغرب ، وقد مر معنا كيف تغلب عليه وسجنه ، ثم سملت عيناه وهو في السجن فقصد إلى شلب واستقر بها إلى جانب زميله وحليفه السابق ابن قسي وبذلك سيطر الموحدون على قواعد الغرب الهامة التي كانت بأيدي المريدين [3] .

---

(1) فاس : تقع على مقربة من وادي سبو شمال الأطلس المتوسط ، وقد ظلت الطريق الطبيعي الذي يربط بين العاصمة الموحدية وجزيرة الأندلس من جهة وبين إفريقية وباقي أطراف الإمبراطورية من جهة أخرى. الإدريسي : نزهة المشتاق ، ص٦٤ . الاستبصار ، ص١٨١ . الاستقصاء ، ج٢ ، ص٦٣ .

(2) الحلة السيراء ، ض٢٠٠ . روض القرطاس ، ص١٢٢-١٢٣ . البيان المغرب ، ج٣ ، ص٢٢ . ابن خلدون ، العبر ، ج٦ ، ص٢٣٤ . الحلل الموشية ، ص١١١-١٢٥ .

(3) الحلة السيراء ، ص٢٠٤ .

كانت الخطوة الثانية التي قام بها الموحدون احتلال مدينة إشبيلية [1] بعد أن انضم إليهم زعماء المريدين وعلى رأسهم ابن قسي ، فاستولوا على القلاع المحيطة بمدينة إشبيلية ، ثم ضربوا الحصار حولها ، كما حاصرها من جهة البحر سفن الأسطول الأندلسي بقيادة علي بن عيسى بن ميمون الذي دخل في طاعة الموحدين ـ كما سلف القول ـ ولم يطل أمد الحصار ، إذ لم يكن بإشبيلية سوى حامية مرابطية ضعيفة تدافع في ظل ظروف صعبة ، لذلك فرّ المرابطون من المدينة إلى قرمونة ودخل الموحدون إليها في اليوم الثاني عشر من شعبان سنة ٥٤١هـ [2] . وقد أبلغ عبد المؤمن بما تم من أعمال في شبه الجزيرة ، وكان على وشك الدخول إلى مراكش ، وقد غادر وفد من زعماء مدينة إشبيلية بزعامة القاضي ابن العربي [3] إلى المغرب يحمل للخليفة بيعة أهلها ، وذلك في أوائل سنة ٥٤٢هـ [4] .

ويبدو أن تقدم الموحدين السريع في شبه الجزيرة يعود إلى الترحيب الشديد من قبل سكانها الذين كانوا يهللون للإجراءات الصارمة التي كان يتخذها القادمون الجدد في حق النصارى والمعاهدين واليهود .

تولى أمر إشبيلية أخوا المهدي بن تومرت ، ولم يطل الأمر حتى ساء سلوكهما فأصبحت المدينة مسرحاً للفوضى ، لذلك وقف يوسف البطروجي صاحب لبلة موقف المعارض لتصرفاتهما ، فاعتزما التخلص منه ، ولكنه شعر بما يدبر ضده فغادر

---

(1) إشبيلية : مدينة بالأندلس بينها وبين قرطبة ثمانون ميلاً ، ويقال إن إشبانيا اسم خاص ببلد إشبيلية الذي كان ينزله أشبان بن طيطش وباسمه سميت الأندلس إشبانيا ، الروض المعطار ، ص١١٨ ، رقم١٤ .

(2) ابن خلدون ، ج٦ ، ص٢٣٤ . الكامل ، ج١١ ، ص٤٣-٤٤ . بينما ذكر صاحب روض القرطاس أن فتح المدينة كان سنة ٥٤٠هـ . راجع روض القرطاس ص١٢٣ .

(3) سبقت ترجمته .

(4) انظر المصادر السابقة .

إشـــبيلية إلى بلـــده وطرد الموحدين منها ونفض طاعة عبد المؤمن ، وتحالف مع بقايا المرابطين فيها ، ولم يلبث ابن قسي صاحب شلب أن خرج على طاعتهم كذلك وتبعه ابنه ميمون صاحب قادش ومحمد بن الحجام صاحب بطليوس ، وكان ذلك في الوقت نفســه الذي اضطرمت فيه (ثورة الماسي) [1] ضد الموحدين عام ٥٤٢هـــ . كذلك ساءت الأحوال في إشبيلية وغادرها أخوا المهدي إلى أحد الحصون التابعة لابن عزون ثم عبرا البحر إلى المغرب [٢] .

في هـــذه الأثناء كان ألفونسو قد أدرك أن الموحدين بعد أن تم لهم القضاء على المـــرابطين في المغرب ، سيتوجهون إلى الأندلس بكل قوهم ، لذلك رغب في أن يعقد اتفاقـــاً مع الأطراف المختلفة والمتنازعة في شبه الجزيرة للوقوف أمام تقدم الموحدين بها خاصة بعد أن استطاع أن يحل الخلاف الناشب بين (نافارا) و(أراجون) وبقية الممالك الأخـــرى ، ورأى أنـــه مـــن المناسب أن تنتهز هذه الفرصة للقيام بعمل موحد ضد الموحدين ، لأن جنوب غرب الأندلس كان بعد خروج ابن قسي عن طاعة الموحدين موزعـــاً بينه وبين أنصار ابن حمدين ، بينما كان الشاطئ الممتد من المرية حتى مصب الإيـــبرو تحـــت سيطرة أبي عبد الله محمد بن سعد ، بينما سيطر المرابطون على معظم المناطق الداخلية حتى الوادي الكبير.

فقـــد كـــان مقـــدراً للحملة التي شنها النصارى النجاح لأن عبد المؤمن كان منشغلاً بثورة الماسي سالفة الذكر إلا أنه وفق في القضاء عليها بسرعة ، ثم التفت إلى أمر الأندلس ، ولكنها مع ذلك أعاقته عن إتمام فتحه في إسبانيا فترة من الزمن . بعدها

---

[1] الماســي : هو محمد بن هود الماسي ، أصله من أهل سلا ، وقد خرج بالسوس داعياً ضد الموحدين ، وجمـــع لمحاربتهم جيشاً كبيراً وهزمهم في البداية ، ولكنه هزم في آخر الأمر وقتل ، وذلك أواخر سنة ٥٤١هـــ . انظر ابن خلدون ، ج٦ ، ص٢٣٢ . الاستقصاء ، ج١ ، ص١٥٢ .

[٢] ابن خلدون ، ج٦ ، ص٢٣٤ .

أرسل إلى الأندلس جيشاً بقيادة يوسف ابن سليمان فسار بقواته إلى لبلة حيث قضى على الثورة فيها وأخضع البطروخي الثائر بها ، ثم قصد مدينة طلبيرة حيث أعلن صاحبها الخضوع وحذا حذوه علي بن عيسى صاحب قادش ، وكذلك فعل صاحب بطليوس ، وأرسل هدايا ثمينة إلى الخليفة الموحدي .

وهكذا وصلت طلائع الموحدين إلى أواسط الأندلس وأصبحت تشرف على أملاك ابن مردنيش من الشرق حيث تجمعت القوى الأندلسية الثائرة على سلطان الموحدين .

● المهدي بن تومرت وتأسيس حركة الموحدين (ت ٥٢٤هـ ـ ١١٣٠م) :

لقد كانت دولة المرابطين من بعض الجوانب وليدة لحركة الاستفاقة الإسلامية التي قامت في أواخر القرن الرابع للهجرة ونشطت في بداية الخامس ، وكانت هذه المرحلة قد مرت في بدايتها بمرحلة أولى مندفعة متعصبة بشكل كبير ، ومن الأمثلة على ذلك أن طغرلبك أو سلاطنة السلاجقة وقف سنة ٤٤٥هـ ـ ١٠٥٣م على مقالات الإمام أبي الحسن الأشعري ، فلم ترق له ، فأمر بلعن الأشعري على المنابر .

وفي عهد السلطان ألب أرسلان ثاني سلاطنة السلاجقة تأسست المدرسة النظامية في بغداد للدفاع عن الإسلام ونشره ، وقام عدد من العلماء بأعمال التدريس فيها مثل الغزالي وسواه ، ونظراً لمتطلبات العملَ خاصة ضد الخصوم والفرق من معتزلة وباطنية ، فقد اضطر رجال النظامية إلى الاعتماد على أفكار الإمام الأشعري ، وهكذا دخلت حركة الاستفاقة الإسلامية المرحلة الثانية من تاريخها ، وقد نجم عن ذلك نتائج جد خطيرة ، يهمنا منها هنا قيام حركة الموحدين ودولتهم في المغرب .

ويرتبط تاريخ حركة الموحدين بالمهدي بن تومرت ، وهو محمد بن تومرت من قبيلة هرغة بالسوس من المغرب الأقصى ، لا ندري سنة ولادته بالتحديد ولا شيئاً

مؤكـــداً عن طفولته وحياته الأولى ، إنما يبدو أن والده كان يعمل في أحد المساجد ، وإذا صح هذا فلنا أن نفرض بأن ابن تومرت نال ثقافة دينية وعناية ما منذ بداية حياته.

وفي ســـنة خمســـمائة رحل المهدي في طلب العلم ، فتوجه إلى الأندلس حيث مكـــث مدة ، ثم ركب البحر من الأندلس إلى الشام ، ومن الشام توجه إلى العراق ، وهناك نال ثقافة إسلامية عالية جداً ، وأتقن فنون علم الكلام ، وعرف مراحل تاريخ الإســـلام وتجـــارب حـــركاته خاصة الحركة السبعية والإسماعيلية القديمة والجديدة ، وكانت الحركة الإسماعيلية الجديدة (الحشيشية) أثناء وجود المهدي في المشرق في أوج قوتها ونشاطها ، مالكة لعدد كبير من حصون المشرق والشام ، خاصة قلعة ألموت .

لقـــد عـــرف ابن تومرت هذا كله مع تراث المسلمين حول شخصية المهدي المنـــتظر ، وعندما أكمل تحصيله عاد أدراجه نحو المغرب ، وقد امتلأ حماساً واندفاعاً وبـــراعة وعلماً ، وعندما اجتاز مصر وحط الرحال في طرابلس بدأ ـــ وقد ملك زمام علم الكلام على قاعدة الأشاعرة ـــ ينشط دينياً عن طريق الأمر بالمعروف والنهي عن المـــنكر ومناقشـــة العلماء ، مما أثار ضجة كبيرة حوله ، ودفع بعض أصحاب السلطة لطـــرده ، أو إيقاع العقوبة به ، وهذا ما حصل له عندما حل بمدينة المهدية في تونس ، لهذا هرب إلى مدينة بجاية القائمة الآن على ساحل الجزائر ، ومنها ذهب إلى بلدة اسمها ملالـــة ، وهناك لقيه فتى جميل الوجه كان يؤمّ بلاد المشرق ، لطلب العلم ، اسمه عبد المؤمن بن علي ، فسأله عن اسمه وبلده وهدفه ، فأخبره بذلك وأعلمه بقصده المشرق، فقال لـــه : «العلم الذي تطلبه بالمشرق قد وجدته بالمغرب» ، لذلك عدل عبد المؤمن عن هدفه ، ولزم ابن تومرت فكان أول تلامذته .

بعـــد هـــذا توجـــه إلى ونشريس ، ثم إلى فاس ، وأخيراً حل ركابه في مدينة مـــراكش عاصمة المرابطين ، وهناك حدث صدام بينه وبين علي بن يوسف أمير دولة المرابطين ، كاد أن يدخل السجن بسببه ، لكنه فر إلى قبيلته في السوس ، ونشط فيها

بين قبائل مصمودة وسواها التي كانت تكن العداء لقبائل لمتونة والمرابطين ، فنال التأييد ، وتجمع حوله الأعوان ، وقد مكنه من ذلك علمه وطلاقة لسانه بالعربية والبربرية معاً .

وعندما شعر ابن تومرت بالقوة ادعى لنفسه نسباً يصله بالنبي ﷺ ، ثم قام في شهر رمضان من سنة خمس عشر وخمسمائة بإعلان نفسه مهدياً (يملأ الأرض قسطاً وعدلاً كما ملئت جوراً وظلماً) وشرع بتنظيم أتباعه بشكل دقيق للغاية ، يدل على براعة وعبقرية كبيرة حيث جعلهم في ثلاثة عشر صفاً ، وقد ضم الصف الأول عشرة رجال ، سماهم أصحابه ، وكان يعقد الأمور العظام معهم ، وضم الصف الثاني خمسون رجلاً كان يجتمع بهم ويشاورهم كلما دعت الضرورة إلى ذلك ، وأما الصف الثالث فقد ضم سبعين رجلاً كان يحضرهم مجلسه ويتشاور معهم دورياً .

ودعي رجال الصف الرابع باسم الطلبة ، والصف الخامس باسم الحفاظ وهم صغار الطلبة ، وهكذا «ورسم المهدي لكل صف رتبة لا يتعداها إلى غيرها لا في سفر ولا في حضر ، لا ينْزل كل صنف إلا في موضعه ، لا يتعداه» ، وفي الوقت نفسه قام بتقسيم أتباعه جميعاً إلى عشرات ، لكل عشرة نقيب .

وبعدما فرغ من ذلك بحث عن مكان حصين يتخذه مقراً ، فوقع اختياره على قرية في الأطلس الكبير اسمها تينملل (موجودة الآن في المغرب على بعد كيلو متر واحد من الطريق الذاهب من مراكش إلى رودانه /الكيلو متر ١٠٤) فسكنها ، وأدار عليها «سوراً أحاط بها من كل جانب ، وبنى على رأس الجبل سوراً ، وأفرد في قمته حصناً يكشف كل على ما وراء الجبل» ووصفها أحد المؤرخين بقوله : «لا يعلم مدينة أحصن من تينملل ، لا يدخلها الفارس إلا من شرقها ، أو من غربها ، فأما غربها وهو الطريق إليها من مراكش فطريق أوسع ما فيه أن يمشي عليه الفارس وحده موسعاً ، وأضيقه أن ينزل عن فرسه خوفاً من سقوطه ، وكذلك شرقها ، لأن الطريق

مصنوعة في نفس الجبل ، تحت راكبها حافات وفوقها حافات ، وفيها مواضع مصنوعة بالخشب إذا أزيلت خشبة لم يمر عليها أحد» .

إن هذا الوصف يذكرنا بوصف قلعة ألموت التي اتخذها حسن الصباح في المشرق مقراً لدعوته الإسماعيلية الجديدة حيث قاد منها الحرب ضد رجالات السلطة القائمة ، وكما فعل حسن الصباح فعل المهدي بأن أعلن تكفير المرابطين بعدما اتهمهم بالتجسيم ، وأعلن أن دعوته دعوة التوحد الصافية ، وصنف أتباعه مصنفات بالعربي والبربرية وأودعها أفكاره ، كما فرض على أتباعه تأدية واجبات دينية محدودة .

وأخذت قوات المهدي تغير على المواقع المرابطية ، وعبثاً حاول الجند المرابطي إنهاء ثورة المهدي ، وحقق الموحدون النصر تلو الآخر ، حتى تمكنوا من حصار مدينة مراكش عاصمة الدولة المرابطية ، وأثناء ذلك أصيب المهدي بمرض شديد سبب وفاته سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، ولما توفي كتم أصحابه وفاته حتى أقاموا بعده عبد المؤمن بن علي بلقب أمير المؤمنين .

وبعد وفاة المهدي بأمد وجيز استطاع الموحدون إزالة دولة المرابطين من الوجود، كما قاموا بالاستيلاء على جميع بلدان شمال أفريقيا والأندلس ، فأسسوا إمبراطورية مترامية الأطراف ، حققت هناك الوحدة لأول مرة منذ قرون ، وأوصلت الحضارة العربية إلى ذراها .

لم يتزوج المهدي بن تومرت ، بل أوقف حياته كلها على عقيدته ، وبالفعل حقق ما كان يصبو إليه من نجاح ، فنال الخلود كعبقري مخطط وعقائدي ناجح ، وما زالت بلدان المغرب العربي تنشد من قرون مثله ليحقق لها الوحدة ،ولتصرف طاقات مواطنيها إلى إقامة صرح حضارة عربية إسلامية ، فيها تراث الأجداد وعطاء الحاضر ، وما يقتضيه المستقبل .

● عبد المؤمن بن علي وتأسيس دولة الموحدين (ت ٥٥٨هـ - ١١٦٣م) :

إذا كان المهدي بن تومرت المؤسس العقائدي لحركة الموحدين في المغرب ، فإن عبد المؤمن بن علي هو الذي بنى دولة الموحدين ، وأقام صرحها السياسي وغير السياسي ، وقد ولد عبد المؤمن في أواخر القرن الخامس للهجرة في قرية (تاجرا) من إقليم تلمسان في الجزائر حالياً ، ويبدو أنه فقد أباه في طفولته ، فعني به عمه وقرر حمله إلى المشرق لطلب العلم ، وفي طريق الرحلة ، لقي عبد المؤمن المهدي ابن تومرت ، فالتحق به وصار أول أعوانه وأعلاهم مكانة لديه ، وقد أحبه المهدي ووثق به ، وكان يقول : «لا يقوم الأمر الذي فيه حياة الدين إلا بعبد المؤمن بن علي سراج الموحدين».

ولما توفي المهدي سنة أربع وعشرين وخمسمائة ، قدمه أصحاب المهدي وبايعوه إماماً ، ومنحوه لقب خليفة ونادوه بأمير المؤمنين ، على الرغم من أنه لم يكن قرشي النسب ، لكن بسبب خلافته للمهدي ، ولما ولي عبد المؤمن الأمر استطاع أن يدخل مدينة مراكش ويزيل دولة المرابطين من الوجود ، وبعد ذلك استولى على مدن المغرب الأقصى واحدة تلو الأخرى ، ثم احتل بلدان المغرب الأوسط وقصد مدينة المهدية فحررها من احتلال النورمانديين لها ، كما احتل مدن تونس الأخرى ، وبذلك وحد عبد المؤمن بلدان المغرب العربي تحت راية واحدة ، ثم التفت بعدها إلى شؤون الأندلس فأمّن لها الحماية الكافية والرعاية والمنعة .

وبعدما تحقق لعبد المؤمن العديد من الانتصارات العسكرية والسياسة ، رأى أن دولته العقائدية لن يكتب لها البقاء والنجاح في تطبيق برامجها ، إذا ما أديرت من قبل زعماء القبائل من مصموده وسواهم ، لهذا قرر إيجاد جهاز عقائدي يتولى أمور الحكم والإدارة ، فقام بجمع نحو ثلاثة آلاف من طبقة الحفاظ ، وهي الطبقة الخامسة في سلم تنظيمات المهدي لأتباعه ، فأدخلهم قصره ، وأمر بتلقينهم كتب المهدي بن تومرت

وخاصة كتابي (الموطأ ، وأعز ما يطلب) ثم صار يأخذهم «يوماً بتعليم الركوب ، ويوماً بالرمي بالقوس ، ويوماً بالحوم في بحيرة صنعها خارج بستانه ، مربعة طول تربيعها نحو ثلاثمائة باع ، ويوماً يأخذهم بأن يجذفوا على قوارب وزوارق صنعها لهم في تلك البحيرة ، فتأدبوا بهذا الأدب ، تارة بالعطاء ، وتارة بالأدب ، وكانت نفقتهم وسائر مؤنتهم من عنده ، وخيلهم وعدهم كذلك ، ولما كمل له هذا المراد فيهم عزل هم أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال والرئاسة ، وقال : العلماء أولى منكم فسلموا لهم ، وأبقاهم معهم في المشورة» .

لقد كانت تجربة عبد المؤمن هذه تجربة رائدة ، لا شك أن أثرها كان كبيراً ساعد على استمرار دولة الموحدين ، وسهل إدارتها لعبد المؤمن وآله من بعده متذكرين أن قوام هذه الدولة كان قبائل مصمودة التي سكنت ما وراء الأطلس الصحراوي ، وأن عبد المؤمن كان من أهل المغرب الأوسط .

إن الإنجازات التي حققها عبد المؤمن كبيرة للغاية ، وأهم ما يثير الانتباه فيها سيطرة الجانب العلمي والعقلاني على خططها وأعمال تنفيذها ، هذا وشهد عصر عبد المؤمن حركة معمارية كبيرة ، كما أن الجانب التقني الميكانيكي خطا خطوات رائعة ، فقد أبدع المهندسون العرب في أيامه عدداً كبيراً من الآلات ذاتية الحركة .

فحين احتل عبد المؤمن مدينة مراكش بنى قصراً ومسجداً وجامعاً بجواره ، ولما أكمل عبد المؤمن بناءه صنع فيه نفقين ، «يدخل من القصر إليهما ، ومنهما إلى الجامع، لا يطلع عليه أحد ، ونقل إليه منبراً عظيماً كان قد صنع في الأندلس في غاية الإتقان ، قطعاته عود وصندل أحمر وأصفر ، وصفائحه من الذهب والفضة ، وصنع مقصورة من الخشب لها ستة أضلاع ، تتسع لأكثر من ألف رجل ، وكان المتولي لصنعة خروجها رجل من أهل مالقة يقال له الحاج يعيش .

وكيفية هذه المقصورة أنها وضعت على حركات هندسية ، ترفع بها لخروجه

وتخفض لدخوله ، وذلك أن صنع على يمن المحراب باباً داخله دار فيها حركات المقصورة والمنـــبر ، وكان دخول عبد المؤمن وخروجه منها ، فكان إذا قرب وقت الرواح إلى الجـــامع يـــوم الجمعة ، دارت الحركات بعد رفع البسط عن موضع المقصورة، فتطلع الأضلاع به في زمان واحد ، لا يفوت بعضه بعضاً بدقيقة ، وكان باب المنبر مسدوداً، فإذا قام الخطيب ليطلع عليه انفتح الباب وخرج المنبر دفعة واحدة بحركة واحدة ، ولا يسمع له حس ، ولا يرى تدبيره» .

وكـــان الجانب الاقتصادي والزراعي نامياً لدى عبد المؤمن أيضاً ، ويذكر أحد معاصـــريه واحداً من مشاريعه فيقول : «وإن الخليفة عبد المؤمن غرس خارج مراكش بستاناً طوله ثلاثة أميال ، وعرضه قريب منه ، فيها كـــل فاكهة تشتهيهـــا الأنفس ، وجلب إليه الماء من أغمات ، واستنبط عيوناً كثيرة» .

وبعـــد عقد من الزمن صار هذا البستان يدر على صاحبه مبلغاًيزيد عن ثلاثين ألف دينار سنوياً .

لقـــد حكم عبد المؤمن قرابة أربع وثلاثين سنة وصل فيها الغرب الإسلامي إلى درجـــة من الحضارة والقوة لم يعرفها من قبل ، كما لم يتمتع بها طويلاً من بعد ، لأن بعض الذين خلفوا عبد المؤمن تخلوا عن تراثه فحاق بهم الدمار .

ولم يؤســـس عبد المؤمن دولة الموحدين.فقط ، بل أسس أسرة وراثية حاكمة ، فإثـــر موته خلفه ابنه يوسف ، وعلى أهمية دور هذا الخليفة يعد ، ابنه يعقوب المنصور أكثر أهمية بالنسبة لتاريخ الأندلس ، وفيما يلي تعريف موجز بهذا الخليفة .

● المنصور الموحدي (ت ٥٩٥هـ-١١٩٩م) :

«وأوصيكم بتقوى الله تعالى : ﴿وبالأيتام واليتيمة﴾ فقيل لـــه : ومن الأيتام واليتيمة؟ قـــال : اليتيمة جزيرة الأندلس ، والأيتام سكانها المسلمون وإياكم والغفلة فيما يصلح بها

مـــن تشـــييد أسوارها ، وحماية ثغورها وتربية أجنادها وتوفير رعايتها ، ولتعلموا أعزكم الله ، أنـــه ليس في نفوسنا أعظم من همها ، ولو مد الله لنا في الخلافة والحياة لم نتوان في جهـــاد كفارهـــا حتى نعيدها دار إسلام ، ونحن الآن قد استودعناها الله تعالى ، وحسن نظركم فيها ، فانظروا للمسلمين ، وأجروا الشرائع على منهاجها» .

كانت هذه هي العبارات الأخيرة التي تلفظ بها يعقوب المنصور الموحدي ، وهو عـــلى فـــراش المـــوت ، وفـــيها دليل على عظمة الرجل ، ومدى إخلاصه وشعوره بالمســـؤولية وفي الحقـــيقة يعدّ المنصور أعظم خلفاء الموحدين ، وفي أيام حكمه التي امـــتدت قـــرابة الخمســـة عشر عاماً وصلت الخلافة الموحدية إلى أوج عظمتها قوة واقتصاداً وحضارة ومنعة .

وقـــد تسلم يعقوب المنصور الخلافة بعد وفاة والده يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٨٠هـــ ، فاهتم أولاً بأمور ولايته في شمالي أفريقية ، ثم التفت إلى الأندلس ، فاهتم بهـــا عظـــيم الاهـــتمام ، حيث أكمل بعض المشاريع المعمارية فيها ، من ذلك مئذنة المسجد الجامع في إشبيلية (الخيرالدا) التي ما تزال ماثلة حتى الآن ، شاهدة على عظمة بنائها ، ورقي حضارتهم .

وتنـــبع شهرة المنصور الموحدي أولاً من الأعمال العسكرية التي أنجزت في عصره، خاصـــة في الأندلـــس ، فالجـــيش الموحدي في أيامه بلغ درجة كبيرة من القوة ، كما أن الأســـطول الموحدي صار من القوة بمكان دفعت مشارقة المسلمين الذين كانوا يخوضون الحـــروب ضد الغزاة الصليبيين في الشام إلى الاستنجاد بهذا الأسطول ، لإيقاف النجدات الكـــبيرة الـــتي كانت تقدم إلى الصليبية بوساطة البحر ، وخاصة جيوش الحملة الصليبية الثالثة لملكي فرنسا فيليب أوغسطس ، وريتشارد قلب الأسد ، الإنكليزي .

وكمـــا عـــانى مشارقة المسلمين من الغزو الصليبي في بلادهم كذلك عاش أهل الأندلـــس جحـــيم حروب الاسترداد الصليبية في بلادهم ،وفي أيام المنصور الموحدي

خاض المسلمون آخر معاركهم الفاصلة في تاريخ الأندلس ، وهي معركة الأرك وكان ذلك في سنة ٥٩١هـ .

ففي سنة ٥٩٠هـ ، عزم المنصور على الجواز إلى الأندلس برسم الغزو فيها ، فجيش قواته لكن مرضاً شديداً حل به في مدينة سلا ، وقد عاقه ذلك المرض عن العبور ، فأطمع ذلك الصليبيين في الأندلس ، فجاثوا خلال ديار الأندلس فخربوا ودمروا ، وبلغ ذلك المنصور ، فقرر العبور ، وفعل ذلك سنة ٥٩١هـ ، وقاد قواته نحو مدينة قلعة رباح ما بين قرطبة وطليطلة ، وهناك في سهل واسع وراء جبال الشارات عرف بالأركو ، جاءت قواته وجهاً لوجه مع قوات مملكة قشتالة ومن ساندها من الصليبيين .

وضع المنصور خطة محكمة للقتال مع خصومه ، فقد قدم القسم الأكبر من جيشه للالتحام بالعدو ، وأمر أحد قادته بأن يكون في القلب وفوق رأسه شعار السلطنة وذلك للتغرير بالعدو ، وتأخر المنصور مع من بقي من جيشه ، وتخفى على شكل كمين ، مستغلاً طبيعة الأرض .

وحدث الالتحام ، واستمر القتال سحابة النهار ، وعندما ألمّ الإعياء والتعب بالطرفين المتصارعين ، تحرك المنصور بقواته بضجة وصخب شديدين ، فقد كان من عادة الموحدين تجهيز جيوشهم بطبول ضخمة للغاية ، واستطاع المنصور بهذا التحرك أن يفاجئ عدوه ، ويفصل المعركة لصالح المسلمين .

لقد ربح الموحدون المعركة ، وكسبوا غنائم كبيرة جداً ، ودخلوا مدينة قلعة رباح فحرروها ، وأمر المنصور بتطهير مسجدها ، ثم قام بأداء الصلاة فيه ، وبعد ذلك رجع المنصور إلى إشبيلية حيث أخذ يضع الخطط لاسترداد جميع أراضي الأندلس إلى حوزة المسلمين ، وبالفعل شرع في تنفيذ ذلك ، فخاض عدداً آخر من المعارك .

وفي ذروة نشاطه أصيب بمرض كان سببه «اختلاف أهوية الأقاليم ، فقد

كـــان بـــارزاً لهواجـــرها وأمطارها أزمنة متوالية» وألزمه مرضه الفراش في عاصمته مـــراكش ، حيـــث توفاه الله ليلة الجمعة الثاني عشر لربيع الأول سنة خمس وتسعين وخمسمائة للهجرة .

وحـــتى نذكـــر المنصور الموحدي ، لا نربط خلوده بإنجازاته الحربية والعمرانية فقط، وإنما بالجانب الحضاري والثقافي الذي كان نامياً في شخصه وفي عصره ، فعصر المنصـــور الموحدي هو العصر الذي عاش فيه ابن الطفيل ، وابن رشد ، وسواهما من مشـــاهير فلاسفة العرب الإسلامي ، وهو عصر تدوين كتب السيرة والمغازي وغيرها مـــن الفـــنون ، إنه عصر وصلت فيه الحضارة العربية في الغرب الإسلامي الموحد إلى الـــذروة ، وحصل هذا في وقت كانت شمس الحضارة في الشرق العربي قد بدأت فيه تميل بعض الشيء إلى الغروب [١] .

---

[١] ابـــن عـــذاري المراكشـــي : البـــيان المغـــرب في أخبار الأندلس والمغرب (قسم الموحدين) تحقيق محمد إبراهيم الكتاني ، محمد بن تاويت ، محمد زنيبر ، عبد القادر زمامة ، ج٣ ، بيروت لبنان ١٤٠٦ هـــ ـــ ١٩٨٥م .

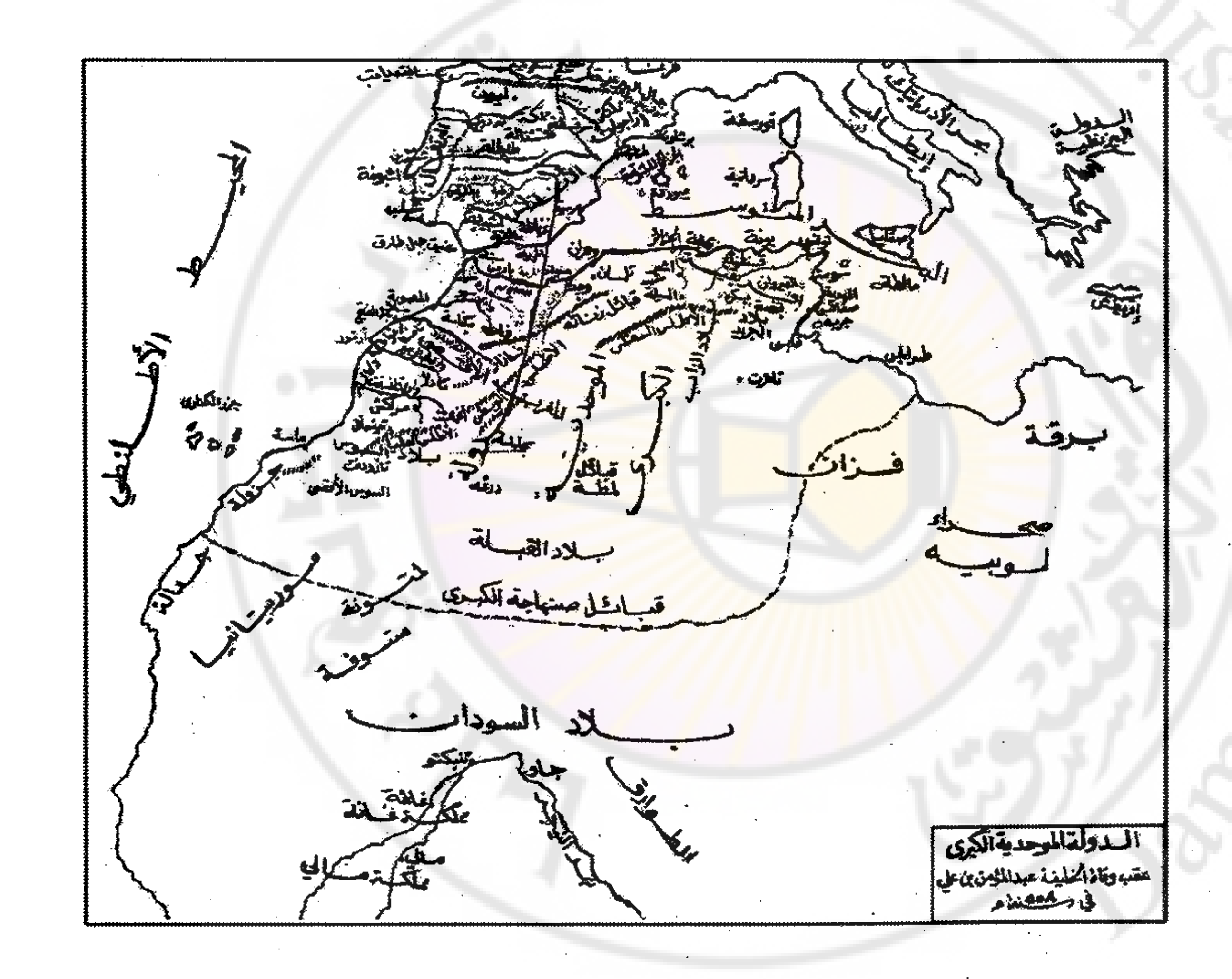
البـــيذق (أبـــو بكـــر الصنهاجي ، القرن السادس الهجري) : أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين ، تحقيق ليفي بروفنسال ، باريس ١٩٢٨م .

المراكشـــي (عـــبد الواحـــد كان حياً في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي) : المعجب في تلخيص أخبار المغرب : تحقيق محمد سعيد العريان ـــ ومحمد العربي العلمي ، القاهرة ، ١٩٤٩م .

ابـــن صـــاحب الصـــلاة (عبد الملك كان حياسنه ٥٩٤هـــ ـــ ١١٠٢م) ، تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين ، السفر الثاني ، تحقيق عبد الهادي التازي ، بيروت ١٩٦٤م .

ابن أبي زرع (ت في النصف الأول من القرن الثامن الهجري) .

الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس ، الرباط ١٩٧٣م .


الدولة الموحدية الكبرى
عقب وفاة الخليفة عبد المؤمن بن علي
المحيط الأطلنطي
المتوسط
برقة
فزان
صحراء لوبيه
بلاد القبلة
قبائل صنهاجة الكبرى
موريتانيا
مسوفة
بلاد السودان
جاو

ب ـ التواصل والحياة الإدارية والقضائية

● تبادل المؤثرات بين المغرب والأندلس :

كانت الصلات الحضارية والسياسية بين حكومة مراكش ومدن الأندلس وطيدة وحافلة بالحركة والتأثير المتبادل ورغم أن المغرب غزا الأندلس بقوته العسكرية ومذهبه في التوحيد إلا أن الأندلس تغلبت عليه بحضارتها وفكرها ، إذ كانت الحركة الفكرية على الغالب وقفاً على الأندلسيين ، فبينما كانت جيوش الموحدين تسير شمالاً نحو العدوة ـ أي الجزيرة الأندلسية ـ كان الكتّاب والشعراء والمفكرون يتجهون جنوباً من الأندلس إلى المغرب ناشرين الأفكار الأندلسية والتراث في أرجاء البلاد ، ويؤكد ابن خلدون انتقال الحضارة الأندلسية بصفة عامة إلى بلاد المغرب خلال عصر الموحدين بقوله : «وأما المغرب فانتقل إليه منذ دولة الموحدين من الأندلس ، حظ كبير من الحضارة ، واستحكمت به عوائدها ، بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس ، وانتقل الكثير من أهلها إليهم طوعاً وكرهاً ... فأبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثاراً» [1] . والحقيقة أن توجّه خلفاء الموحدين العلمي كان له أثره الكبير في تدعيم هذه الصلات وفي هجرة هؤلاء نحو المغرب . ولقد وصف المراكشي عمل

---

[1] مقدمة ابن خلدون ، ص٦٦٠ .

الخلفاء عامة ، في معرض حديثه عن هيئة الطلبة ، بقوله : «... فأول ما يفتتح به الخليفة مجلسه مسألة من العلم يلقيها بنفسه أو تلقى بإذنه ، كان عبد المؤمن ويوسف ويعقوب يلقون المسائل بأنفسهم ...» [1] . ويؤثر عن أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ، أنه كان أعرف الناس بكلام العرب وأحفظهم لأيامهم ومآثرهم وأخبارهم في الجاهلية والإسلام ، كذلك كان مبرزاً في العلوم الدينية ، من ناحية ، والفلسفة بجميع فروعها من ناحية أخرى . وقد جمع كتب هذا الفن من كل جهة ، حتى توافر له منها عدد كبير ، مما لم يجتمع لملك قبله ممن ملك المغرب . كما استقدم مشاهير العلماء من الأندلس واستصحب محمد بن الطفيل الفيلسوف الشهير ، الذي عمل في مجال الجمع بين الحكمة والشريعة . ومن مؤلفاته المشهورة ، رسالة حي بن يقظان ، التي يبين فيها كيف يستطيع الإنسان الوصول إلى معرفة الخالق وإدراك وحدانيته بالتأمل ودون مساعدة من أحد ، وقد ذاع صيت هذا الكتاب في عصره ، وعمرت مكانته عبر الزمان فبقيت إلى عصرنا هذا ، وترجم خلال هذه العصور إلى لغات مستعددة ، ولم يقتصر دور ابن طفيل على مصاحبة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن، بل كان صلة الوصل بينه وبين العلماء الآخرين من أقطار شتى ، وكان الوساطة لإدخال محمد بن رشد في بلاط الموحدين وتلبية لرغبة أبداها الخليفة وشكواه من غموض أغراض أرسطو وقلق عبارته أو قلق عبارة مترجميه ، وبحثه : من يقوم بتلخيص كتبه وتقريب أغراضها من إفهام الناس ، قام أبو الوليد بن رشد بترجمة بعض كتب أرسطو الفلسفية إلى العربية تحت عنوان : «كتاب الجوامع» ثم لخصها بعد ذلك وشرح أغراضها ، وقد بقي ابن رشد بعد وفاة أبي يعقوب ذا صلة بالبلاط الموحدي ، إلى أيام يعقوب المنصور الذي غضب عليه لفترة ثم عاد واسترضاه [2] . ولم يُقتصر على

(1) المعجب ، ص٣٤٢ .

(2) المعجب ، ص٢٣٧-٢٤٣ ، ٣٠٥ . الذيل والتكملة ، سفر ١ ، ق١ ، ص٢١٢-٢١٩ .

استدعاء العلماء للبحث في أمور الفلسفة والفكر بل استُقدم الأطباء من الأندلس لتفوقهم في هذه المهنة آنذاك وهذا ما يُستنتج من حديث ابن عذاري حيث يقول في سنة ٥٧٣هـ ـ ١١٧٧م «اعتل الخليفة فوفدت عليه الأطباء من الأندلس للمعالجة إلى أن وجد الراحة ...» [١] .

ومن أشهر الأطباء الأندلسيين الذين عملوا لدى الخليفة المنصور الوزير الطبيب الشهير أبو بكر بن طفيل ، والطبيب الحفيد ابن رشد [٢] . أيضاً استُقدم المدرسون من الأندلس لتدريس أبناء الخلفاء والعناية بتربيتهم ، وإن دل هذا على شيء فهو يدل على مدى المستوى الثقافي العالي الذي تمتع به الأندلسيون آنذاك ، وممن عمل في هذا المجال عبد الله بن سليمان بن داوود بن عبد الرحمن بن سليمان بن عمرو بن خلف بن حوط الله الأنصاري الحارثي . استدعاه الخليفة المنصور لتأديب بنيه فحظي عنده ، ونال جاهاً ودنيا عريضة ، ت عام ٦١٢هـ ـ ١٢١٥م [٣] . ولم تقتصر الأمور على ذلك ففي مجال إشعاع الفكر الأندلسي خارج حدود الأندلس ، أفسح حكم الموحدين للأندلس الدور نفسه ، الذي أفسحه حكم المرابطين ، لتيسير هذا الإشعاع في أعماق المغرب ، ونشر العربية والثقافة العربية في أماكن كانت قليلة الاتصال مع مراكز الفكر العربي الإسلامي . إذ بقيت العاصمة ذاتها هي مراكش ، حيث جاء علماء أندلسيون شيوخاً للطلبة ومدرسين وأطباء ، وتجاوز عمل بعضهم مراكش ليصل في تعليم العربية إلى أعماق جبال الأطلس . كما هو حال احمد بن عبد الرحمن اللخمي من أهل المرية، العالم في العربية ، وله في نحوها مؤلفات ، والماهر في علوم الأوائل كالطب والحساب

---

[١] ابن عذاري : البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب ، القسم الثالث ، عني بنشره أمبروسي هويس ميراندة ، محمد بن تاويت ، محمد إبراهيم الكتاني ، تطوان ١٩٦٠م ، ص١٢٥ .

[٢] الاستقصا ، ج٢ ، ص١٨٠ .

[٣] الإحاطة ، ج٣ ، ص٤١٦-٤١٧ .

والهندسة ، والذي أدى به التجوال في الأرض «حتى لحق بجبل تينملل أحد الجبال الشامخة الغربية من مراكش ، فاستقر به مدرساً العلم ناشراً ما لديه من معارف ، وذلك في عشر الأربعين وخمسمائة ... فأخذ عنه هناك أهل ذلك الموضع» [(1)] .

ووفد إلى المغرب كذلك عدد كبير من الأندلسيين من أصحاب الوظائف وأهل الخبرة ممن استعانت بهم الدولة على تصريف الأمور . فالموحدون كانوا يرجعون إلى الأندلس للحصول على قسم ولعله كان القسم الأكبر أهمية من رجال الإدارة للقيام بشؤون الدولة ، وثمة ما يحمل الباحث على القول بأن ما عرفته المغرب من خبرة فنية وإدارية قيمة يرجع إلى أيام المرابطين والموحدين . وخير مثال على ذلك بمجال العمل في الكتابة ، فقد كان الخليفة الموحدي ، يحشد في بلاطه ، أقطاب الكتاب المجيدين ، وكان السادة من الولاة سواء بالمغرب أو الأندلس ، يتخذون لكتاباتهم أبلغ كتاب العصر . ومنذ عصر الخليفة عبد المؤمن ، يُلاحظ ثبت طويل ، من أئمة النثر والبلاغة ، ينتظمون في بلاط مراكش ، ليكونوا لساناً للخليفة الموحدي وترجماناً له ، في مخاطبة الولاة والقبائل والناس كافة سواء بالمغرب أو الأندلس ، وكان معظم هؤلاء الكتاب من أهل الأندلس ، ومنهم كذلك عدة من أكابر الكتاب المغاربة . فكان من الأندلسيين في بلاط عبد المؤمن ، أبو الحسن بن عياش القرطبي النشأة ، اليابوري الأصل [(2)] وأيضاً أخيل بن إدريس الرندي ، ومن المغاربة أبو جعفر ابن عطية ، ومن الجدير بالذكر أن ابن عياش استمر في منصب الكتابة عند الخليفة أبي يعقوب يوسف ، وكان يعاونه اثنان من ألمع الكتاب المغاربة ، هما أبو القاسم القالمي ، وتلميذه أبو الفضل طاهر بن محشرة وغيرهم [(3)] .

---

(1) الذيل والتكملة : سفر ١ ، ق١ ، ص٢١٢-٢١٩ .

(2) الاستقصا : ج٢ ، ص١٨٠ .

(3) المعجب : ص١٩٨ ، ٢٤٤ ، ٢٦٣-٢٦٤ . الإحاطة : ج١ ، ص٢٦٣-٢٧١ . مؤلف مجهول ، مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية ، تحقيق ليفي بروفنسال ، الرباط ١٩٤١م ، ص١-٣.

ولم تقتصر العلاقات على استخدام الكتّاب فقط وإنما في مجالات أخرى أدت حاجات الدولة ، ووضعها لإمكاناتها الضخمة في متناول القادر على تلبيتها ، إلى تقديم الفرص للمبدعين الأندلسيين ، كما هو الحال بالنسبة للمهندس ابن يعيش ، فقد صنع في المسجد الجامع الذي بناه عبد المؤمن في مراكش مقصورة من الخشب لها ستة أضلاع تتسع لأكثر من ألف رجل ، ويصف طابع الأعجوبة في صناعتها مؤلف الحلل الموشية بقوله : «وكيفية هذه المقصورة أنها وضعت على حركات هندسية ترفع بها لخروجه ، وتخفض لدخوله ، وذلك أنه صنع على يمين المحراب باب داخله المنبر ، وعن يساره باب داخله دار فيها حركات المقصورة والمنبر ، وكان دخول عبد المؤمن وخروجه منها ، فكان إذا قرب وقت الرواح إلى الجامع يوم الجمعة ، دارت الحركات بعد رفع البسط عن موضع المقصورة ، فتطلع الأضلاع به في زمان واحد ، لا يفوت بعضها بعضاً بدقيقة ، وكان باب المنبر مسدوداً ، فإذا قام الخطيب ليطلع عليه ، انفتح الباب وخرج المنبر في دفعة واحدة ، بحركة واحدة ، ولا يسمع له حس ، ولا يرى تدبيره» [1] .

وإذا تجاوزنا ما كان يحشده البلاط الموحدي حوله ، من أعلام الكتاب والعلماء والأطباء الأندلسيين . وجدنا اتجاهاً معاكساً ممثلاً بعبور الطلاب والعلماء المغاربة من الجهة الأخرى إلى الأندلس للدراسة والتخصص بمعاهدها العالية سواء في إشبيلية أو قرطبة أو غرناطة أو بلنسية أو مرسية ، مما كان له أكبر الأثر في ازدهار الحركة الفكرية ، بالمغرب والأندلس ، وخير دليل على ذلك هو انتقال الباحث الفقيه القاضي ابن عياض من المغرب للدراسة والتخصص في مجال القضاء بمدارس الأندلس [2] . ولم تقتصر العلاقات بين الطرفين على النواحي العلمية والثقافية والإدارية بل شملت أيضاً النواحي السياسية ، فمنذ الوهلة الأولى لقيام دولة الموحدين شاركت الوفود الأندلسية

---

[1] الحلل الموشية : ص١٤٤-١٤٥ .

[2] الإحاطة : ج٢ ، ص٢٢٦-٢٣٠ . الذيل والتكملة : القسم الثاني ، السفر الخامس ، ص٤٤٨ .

في السياســـة العامة للدولة حيث قدمت عدة وفود إلى مراكش لمبايعة الخليفة الموحدي عـــلى شـــرعية حكمه ، ومن تلك الوفود وفد إشبيلية المؤلف من طائفة من علمائها وشيوخها بزعامة القاضي أبي بكر بن عربي ، قدم على عبد المؤمن بن علي في مراكش لتقديم الولاء والطاعة عام ٥٤٢هـــ ـــ ١١٤٧م [١] .

من جهة ثانية تولت الحكومة الموحدية في المغرب مسألة الدفاع عن الأندلس . وهو مـــا يشير إليه مؤلف روض القرطاس في حديثه عن قدوم وفد من الأندلس إلى المغرب عام ٥٤٥هــــ ـــ ١١٥٠م طالباً المساعدة من الخليفة عبد المؤمن ضد الفرنجة [٢] . ولم تقتصر الأمـــور عـــلى طلـــب المساعدة من قبل الأندلسيين بل يلاحظ استعداد خلفاء الموحدين الدائـــم للدفـــاع عـــن الأندلس وحمايتها ، ففي أواخر عام ٥٩٠هـــ ـــ ١١٩٣م وبعد انقضـــاء الهدنة بين الأذفونش والخليفة يعقوب المنصور ، عزم يعقوب المنصور وهو يومئذ بمـــراكش ، عـــلى التوجه إلى جزيرة الأندلس لمحاربة الفرنج ، فكتب إلى ولاة الأطراف وقـــواد الجيوش بالحضور ، والاستعداد لهذا العمل [٣] ، ولم تقتصر مهمات الموحدين على ذلـــك بل اقتضت أعمال الدفاع إعمار الأسوار حول المدن والقصبات في داخلها ، كما فعلـــوا في قرطـــبة وباجـــة وبطليوس بسبب تكرار الهجمات الإسبانية على هذه المدن ، وإضـــافة إلى ذلك ، وبعد تجارب كثيرة سقطت فيها المدن نتيجة لقطع المياه قاموا بأعمال مـــتعددة لفـــتح الآبار داخل المدن ، وفي بعض الأحيان داخل القصبات [٤] ، ويدخل في

---

[١] روض القرطاس ، ١٩٠ . نزهة الأنظار ، ج١ ، ص٤٦٣ . تاريخ الجغرافية والجغرافيين ، ص٤٠٢ .

[٢] روض القرطاس ، ص١٩٠ . نزهة الأنظار ، ج١ ، ص٤٦٣ .

[٣] الاستقصا ، ج٢ ، ص١٦٦ .

[٤] البـــيان المغـــرب ، ص٥٤، ٨٣ . ابن صاحب الصلاة ، المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمـــة وجعـــلهم الوارثـــين ، السفر الثاني ، بيروت ١٩٦٤م ، ص١٣٧-١٣٨ . روض القرطاس ، ص٢٦٦ ، ٢٧٣ .

هــذا المجــال الأعمال العمرانية التي أمر بها عبد المؤمن في جبل طارق سنة ٥٥٥هــ ــ ١١٦٠م لجعله مناسباً كقاعدة إنزال للجيوش ريثما تعبر البحر بكاملها [١] ، وأقيمت قاعدة أخرى زمن المنصور قرب إشبيلية مقر الحكم ، وذلك عام ٥٨٩هــ ــ ١١٩٣ م عــندما أمر «باختطاط منــزل بخارج إشبيلية يكون برسم نزول المجاهدين ورهبة في نفــوس الكافــرين ، وأمر أن يكون بتاج الشرف فقامت في أدنى مدة أشخاص الأسوار ومثلــت مواضع الدار ، وكمل القصر الكبير بمجالسه المشرفة على إشبيلية وما والاها من الــبطاح والأنظار .. وسماه بحصن الفرج» [٢] ، ويبدو أن غاية أخرى أهم كانت مبتغاة مــن بناء الحصن وهي حماية سهل إشبيلية الشرف من الغارات التي تكررت عليه . وربما كــان يساعد في تحقيق هذا الغرض تسهيل اتصال الشرف بإشبيلية ، فبني جسر على نهر الوادي الكبير لتحقيق هذه الغاية [٣] .

وهكــذا وعلى الرغم من العلاقات الوثيقة التي كانت تربط بين الحكومة الموحدية بمــراكش وولايــة الأندلــس ، ومحاولات حكومة مراكش المستمرة في ضبط أمور شبه الجزيــرة وأوضاعها والدفاع عنها من أجل استتباب الأمن فيها ، فإن الأندلسيين لم ينسوا قوميــتهم وســعوا للتخلص من الحكم الموحدي لذلك انطلقت الثورات في شبه الجزيرة داعية إلى التخلص من الموحدين وإقامة حكم أندلسي خالص .

● الحياة الإدارية :

خلفــت دولــة المرابطين في المغرب والأندلس ، دولة مغربية أخرى هي دولة

---

(١) ابــن ســعيد المغربي ، بسط الأرض بالطول والعرض ،تحقيق خوان قرنيط خينيس ، تطوان ١٩٥٨م ، ص٧٣ ، المن بالإمامة ، ص١٣٧-١٤٤ .

(٢) البيان المغرب ، ص١٨٩ ، المعجب ، ص٢٩٢ ، الاستقصاء ، ج٢ ، ص١٧٤ .

(٣) المن بالإمامة ، ص٢٣٤ .

الموحديـــن ، وقد قامت هذه الدولة على أساس دعوة دينية إصلاحية طابعها التجديد وهدفهـــا تحقـــيق وحدة إسلامية شاملة . ومؤسس هذه الدعوة هو الفقيه أبو عبد الله محمد بن تومرت . وحتى يضمن ابن تومرت لدعوته النجاح جعلها مزيجاً من التيارات والأفكار الثقافية الفقهية والاعتقادية المختلفة التي كنت معروفة في المغرب ، وكانت في معظمها ممنوعة من الظهور ومحرمة على الناس [1] فإحياؤه لها مجتمعة في دعوة إصلاحية جديـــدة تعتـــبر حـــركة من حركات التجديد في الإسلام . وعلى هذا الأساس رأى الموحـــدون أنهم أحق الناس بالخلافة لأنهم أكثرهم إيماناً ومعرفة واتحاداً ، ولأنهم دون غيرهـــم الموحـــدون المؤمنون ، فأقاموا لأنفسهم خلافة شرعية خاصة تستند إلى هذه العقـــيدة الموحديـــة الجديدة ، ولقبوا أنفسهم بأمراء المؤمنين . وهذا ما يصفه مؤلف المعجب بقوله : «وأقر المهدي على الجيش عبد المؤمن بن علي ، وقال : أنتم المؤمنون وهـــذا أميركـــم ، فاســـتحق عبد المؤمن من يومئذ إمرة المؤمنين» [2] ، على عكس المـــرابطين الذيـــن كـــانوا يحتفظون لبغداد بالسيادة الاسمية فلم يحملوا إلا لقب أمير المســـلمين . وبذلك قطع الموحدون كل علاقة سياسية لهم بالمشرق ، وأعلنوا أنفسهم خلفـــاء واتخـــذوا لقب أمير المؤمنين . ولإثبات حقهم في الخلافة كان لا بد أن تستند خلافـــتهم إلى أسس شرعية كالنسب ، النبوي ، والأصل العربي . ولهذا قالوا بانتماء كل من المهدي وعبد المؤمن إلى الرسول الكريم عن طريق الأدارسة [3] . هذا واختلف الحـــال في بدايـــة الموحديـــن بالنسبة لنظام الحكم ، والأطر التي اعتمدوا عليها ، لأن المهدي ابن تومرت خطط لتنظيم أجهزة الدولة بعد بيعته ، وقبل قيام الدولة ، ووضع

---

[1] المعجب ، ص٢٠١ .

[2] المصدر السابق ، ص١٩٢ . الاستقصا ، ج٢ ، ص٩٩ .

[3] البـــيذق : أخـــبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين . تصحيح وترجمة : إ . لافي بروفنسال ، باريس ١٩٢٨م ، ص٢١-٢٣ .

الأسس الحربية التي يجب أن تسير عليها ، وفي حياته كان كل شيء راجع إليه بصفته الإمام المعصوم . ودولة الموحدين تقوم على النظام الإسلامي كدولة المرابطين [1] واعتمدت مثلهم على الشورى وإن اختلف نظام الشورى في كلتا الدولتين من حيث طبيعة المشاورين فجل اعتماد المرابطين كان على الفقهاء وأمراء المرابطين بينما اعتمد نظام الموحدين على طبقات يستشيرونها في جميع الأمور وتختلف الهيئة المستشارة على حسب أهمية الموضوعات أو الأمور المطروحة للاستشارة . ففي الأمور العظام يستشيرون أهل الجماعة (العشرة) ، وهم أول من بايع المهدي وآمن به ، تميزوا بالعلم والقدرة والقيادية والبذل والتضحية ، وكان دور هؤلاء الأشياخ استشارياً بالدرجة الأولى ، فلا يعلن خلفاء الموحدين حرباً أو يستعدون لها ، ولا يخوضون معارك إلا بعد استشارتهم . أما إذا كانت الأمور أقل خطورة ، استشاروا الخمسين ، وإذا كان الأمر دون ذلك أحضروا السبعين ، وفي ما دون ذلك لا يتأخر أحد ممن دخل في التوحيد [2] ، واستشارة القبائل بهذه الطريقة جعلها أكثر ارتباطاً بالدعوة . ولكن لقيت نظم الدولة التي وضعها المهدي تغييرات جوهرية على يد مؤسس الدولة ووارث سلطان المهدي ، عبد المؤمن بن علي ، فبعد أن قضى على دولة المرابطين ، تبوأ عرش مراكش ونادى بنفسه خليفة الموحدين وأمير المؤمنين ، ووضع لمملكته نظماً اشتقت من عقيدة الموحدين حيث اعتنى بتكوين هيئة جديدة سماها الحفاظ يكون ولاؤها الأول له ، ليحتلوا الوظائف الكبرى في الحكم والإدارة والجيش ، واهتم بنفسه ببرامج تعليمهم وإعدادهم، وكان من بينهم أبناؤه وأبناء أهل الجماعة ، وأهل الخمسين وأهل الدار ، فلما أتموا دارستهم ولاهم الولايات وعزل أشياخ المصامدة عن ولاية الأعمال

---

[1] قامت دولة المرابطين بزعامة الفقيه عبد الله بن ياسين ، والموحدين على يد المهدي بن تومرت . الحلل الموشية ، ص٢١ ، ١٠٣ .

[2] الحلل الموشية ، ص١٠٧-١٠٩ . أخبار المهدي ، ص٣٢-٤٨ . نظم الجمان ، ص٨٢-٨٥ .

والرئاسة ، وأبقاهم للمشورة [1] ، وبذلك اطمأن عبد المؤمن على توطيد سلطان الموحدين ، على أنه كان يعمل من جهة أخرى على جعل هذا الحكم وراثياً في أسرته، حيث بدأ باختيار أكبر أولاده أبي عبد الله محمد لولاية عهده عام ٥٤٩هـ ــ ١١٥٢م وأضاف اسمه في الخطبة إلى جانب اسمه ، أي أشركه معه في الحكم [2] . بهذه الخطوة جعل إمارة دولته في المغرب والأندلس حكراً على أبنائه تنتقل بينهم عن طريق الوراثة، هذا ومن الملاحظ أن ولاية العهد لم تخضع عند الموحدين إلا لشرطين اثنين : الكفاءة والصلاح ، ولهذا فمن الممكن ألا يحجم الخليفة عن إقصاء ولي عهد ، وتبديله بآخر متى ظهر أنه غير مصيب في ترشيحه الأول بل لم يكن عند الموحدين قانون ثابت وصريح لوراثة العرش ، فقد كان الخليفة يختار بنفسه ولي عهده من ولده وفقاً لمشيئته، ولا عبرة بالولد البكر وهذا ما حدث بالفعل حيث أبعد عبد المؤمن ابنه محمداً عن الخلافة عندما رأى عدم صلاحيته لها وولى أبا يعقوب يوسف أمور الخلافة مكانه [3] ، ومن المراسيم المتبعة في أخذ البيعة أن يحصل أمير المؤمنين لولي عهده الذي اختاره على البيعة بالطاعة من مجلسا الدولة والزعماء ، وعندما يتولى الخليفة الجديد الحكم يبايعه بالطاعة أولاً الحاضرون من أمراء بني عبد المؤمن ، ثم الوزراء ومجلسا الدولة والزعماء ، ويذاع نبأ جلوسه في كافة أنحاء الدولة ، وتبعاً لذلك يتخذ كل خليفة شعاراً خاصاً لتوقيعه [4] .هذا ولا تقتصر المبايعة على زعماء وولاة المغرب بل يشارك في هذه البيعة ولاة الأندلس حيث يقومون بإرسال بيعتهم إلى مركز الحكومة في مراكش وعلى سبيل المثال إرسال أشياخ الأندلس وولاتها بيعتهم للخليفة أبي يعقوب عام

---

(1) الحلل الموشية ، ص١٥٠-١٥١ . أخبار المهدي ، ص٤٨ . نظم الجمان ، ص١٧٢ .

(2) روض القرطاس ، ص١٩٤ . الاستقصاء ، ج٢ ، ص١٠٩ .

(3) المن بالإمامة ، ص٢٢١-٢٢٢ .

(4) تاريخ الأندلس ، ج٢ ، ص٢٤١ .

٥٦٠هـ ـ ١١٦٤م [١] ، وبذلك يتضح أن لمكانة الأندلس أهمية كبيرة في اختيار وتعيين ولاة العهد ، فهي تعتبر جزءاً هاماً من الدولة الموحدية ، فضلاً عن كونها خط المواجهة الأول والمباشر مع الأسبان ، ولا بد أن يكون حاكمها الجديد ، أي حاكم المغرب والأندلس على قدر عال من الكفاءة بالإضافة لمعرفته بأمورها وأحوالها وهو ما يلاحظ من خلال اختيار عبد المؤمن لأبي يعقوب بسبب المؤهلات التي امتاز بها من حيث درايته ومعرفته بأحوال الأندلس وشؤونها أثناء ولايته لها [٢] .

وكان أمير المؤمنين يتمتع بسلطة تنفيذية قوية ، إلا أنه كان يدير دفة حكم المغرب والأندلس ، من مقره في مراكش بمساعدة مجموعة من الوزراء والأشياخ ، لا بل كان أشياخ الموحدين يتمتعون بوظائف تنفيذية عليا ، فقد كان منهم بعض الوزراء، ومنْزلة هؤلاء في عهد عبد المؤمن عالية ورفيعة فهم أول من يدخل من أصناف الموحدين ويبعث إليهم الولاة من أبناء عبد المؤمن الأخبار المتجددة [٣] ، هذا ما كان بشأن حكام الموحدين ،الذين حكموا المغرب والأندلس أما فيما يتعلق بالنظام الإداري لولاية الأندلس فقد كانت مقسمة إلى عدة ولايات وتشمل شلب وأحوازها ، وإشبيلية ، وقرطبة ، وجيان ، وغرناطة ، ومالقة ، ومرسية ، وبلنسية ، وكانت عاصمة الحكومة الموحدية بالأندلس إشبيلية لأنها أول مدينة كبيرة تسقط بيد الموحدين ، لذلك اتخذت كقاعدة لإدارة ما خضع من الأندلس ، ولإدارة عملية بسط

---

[١] البيان المغرب ، ص٦٠-٦١ . روض القرطاس ، ص٢٤٣ .

[٢] انظر المن بالإمامة ، ص٣٣٨-٣٣٩ . عن تجديد ولاة وزعماء الأندلس البيعة لأبي يعقوب ، البيان المغرب (قسم الموحدين) ، ص١٣٨ . الاستقصاء ، ج٢ ، ص١٣١ عن ولاية أبي يعقوب في الأندلس .

[٣] المن بالإمامة ، ص٤٢٠ . المعجب ، ص٢٤٤، ٢٦٢-٢٦٣ . أبناء الهنتاتي وابن جامع ، مجموع رسائل موحدية ، ص١٨٠-١٩١ ، ١٩٩ ، ٢٠٩ ، ٢١٨ ، ٢١٨-٢٢٨ ، ٢٢٨-٢٣٠.

سلطان الموحدين على المناطق الأخرى . وعندما توسعت رقعة سيطرة الموحدين وتجسدت المقاومة لهم في الشرق ، حيث بنو مردنيش وأتباعهم ، بدا موقع إشبيلية مستطرفاً كثيراً نحو الغرب وبعيداً وبالتالي فإن موقع قرطبة أكثر ملاءمة ، إضافة لماضيها العريق بصفتها عاصمة ، ويبدو أن عبد المؤمن أخذ بهذين الاعتبارين عندما أصدر عام ٥٥٧هـ ـ ١١٦١م أمراً بنقل مقر الإدارة إليها ، لأنهما يردان في ثنايا الأمر الذي جاء فيه أن تكون قرطبة «مقراً للأمر بالأندلس كفعل بني أمية في قيم حقبها ، إذ هي موسطة بلاد الأندلس. وأن تكون أشغال الأعمال مستقرة فيها ، صادرة إلى النواحي من ناحيتها» وقد نشطت فيها أعمال العمران تمهيداً لذلك ، واستدعي الكتاب والعمال من إشبيلية وأنظارها . لكن موت عبد المؤمن جاء بابنه الذي أعاد الأمور إلى ما كانت عليه ، وبقيت إشبيلية مقراً للموحدين إلى آخر أيامهم بها [١] .

وتعتبر عاصمة الأندلس مقر النائب العام أي الحاكم العام لولاية الأندلس [٢] ومما تجدر الإشارة إليه أن ولاية الأندلس كانت تعتبر ، خلال العصر الموحدي ، مثلما كانت عليه في العصر المرابطي ، قطراً من أقطار الدولة الموحدية الكبرى [٣] . أما فيما يتعلق بنظم الحكم فيها ، فقد تأثرت بكيفية دخول الموحدين الأندلس ، إذ دخلوها في البداية كمساعدين للثوار لذلك بقي الحكم بشكل عام بيد من أطلق عليهم الموحدون اسم الثوار ، كابن وزير وابن المنذر حوالي عشر سنوات في غرب الأندلس ، التي كانت أولى البلاد خضوعاً لهم ، إضافة لإشبيلية ، واعتباراً من سنة

---

[١] المن بالإمامة : ص٢٠٣-٢٠٤ . انظر أيضاً البيان المغرب ، قسم الموحدين : ص١٠٣ . روض القرطاس : ص١٩٠ عن قدوم الوفود من إشبيلية لمبايعة الخليفة عبد المؤمن ، عصر المرابطين والموحدين، ج٢ ، ص٦٤١ .

[٢] نظم الجمان : ص١٤٠ . الاستقصاء : ج٢ ، ص١٣١ .

[٣] مجموع رسائل موحدية : ص١٤١-١٤٩ ، ١٤٩-١٥٢ .

٥٥٢هـ ـ ١١٥٧م عندما سقطت غرناطة بيدهم وزالت آخر بقية لحكم المرابطين في الأندلس وتحررت ألمرية من الموحدين نقل هؤلاء الحكام للمغرب وأصبح الحكام من أبناء عبد المؤمن [1] بل يمكن القول بأن مناصب الولاية بالأندلس كانت وقفاً على الأمراء والأشياخ من الموحدين ، وكثيراً ما كان ولاة العهد يتولون ولاية الأندلس أي منصب الحاكم العام للأندلس ، فإذا اعتلى ولي العهد العرش ولى أخاه أو ابنه هذا المنصب وأول من شغل هذا المنصب السيد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن عام ٥٥١هـ ـ ١١٥٦م فقد عينه والده تحقيقاً لرغبة أشياخ إشبيلية الذين قدموا عليه طالبين منه تعيين بعض أبنائه على ولاية الأندلس [2] وعندما استلم أبو يعقوب منصب الخلافة أبقى إخوته على مناصبهم فعين عام ٥٦١هـ ـ ١١٦٥م أخاه السيد أبا إسحق على قرطبة ، وأقر السيد أبا سعيد على غرناطة [3] . ثم سار على سنة أبية عام ٥٧٩هـ ـ ١١٨٣م أي قبل وفاته بعام واحد ، وعين بنيه الأربعة على قواعد الأندلس ، حيث شغل السيد أبو إسحق ولاية إشبيلية والسيد أبو يحيى ولاية قرطبة والسيد أبو زيد ولاية غرناطة ، والسيد أبو عبد الله ولاية مرسية [4] . ومن الجدير بالذكر أنه كان يطلق على هؤلاء الولاة اسم السادة الموحدين وهو لقب أطلق على أبناء الخليفة وأقاربه ممن تولوا حكم الولايات بشكل عام سواء بالمغرب أو

---

(1) البيان المغرب ، ص٨٥ ، ١٠١ ، ٢٢ . المن بالإمامة ، ص٧١-٧٢ ، ٢٥٠-٢٥١ ، ٤٠٠ . الحلة السيراء ، ج٢ ، ص٢٧١-٢٧٣ . روض القرطاس ، ص١٨٨ ، ١٩٠ ، ١٩٣-١٩٤ ، ١٩٦ . العبر ، م٦ ، ص٤٨٩ .

(2) نظم الجمان ، ص١٤٠ . الاستقاء ، ج٢ ، ص١٣١ . انظر المن بالإمام ، ص٢٩٦ . عن تعيين السيد أبي إبراهيم إسماعيل بن الخليفة عبد المؤمن والياً على إشبيلية عام ٥٦١هـ ـ ١١٦٥م .

(3) الاستقصاء ، ج٢ ، ص١٤٧ .

(4) البيان المغرب ، ص١٢٩ . العبر ، م٦ ، ص٥٠٣ .

الأندلس [1]. وشغل منصب الولاية أيضاً في الأندلس بعض الأكفاء من الأشياخ والحفاظ المقربين، ففي عام ٥٦٥هـ - ١١٦٩م ولي أبو يحيى بن زكريا بن يحيى بن سنان أحد أبناء أشياخ خمسين على حصن طبيرة وشنتمرية بغرب الأندلس، «فعلا ذكره في الحفاظ وتميز عند أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بحسن النظر والإيقاظ والتحفظ من المشكلات والاحفاظ» [2] وممن تولى حكم ولايات الأندلس من الأشياخ، الشيخ الحافظ أبو عبد الله بن الشيخ أبي إبراهيم الوالي بغرناطة [3]. لكن هذه القاعدة لم تكن ثابتة أو مطلقة وخاصة بالنسبة للمدن الصغيرة أو الثغور المعرضة للأخطار فعندما حرر ثغر قصر أبي دانس عام ٥٨٧هـ - ١١٩١م وهو موقع خطر في غرب الأندلس معرض للغارات عين أبو بكر بن محمد بن سيد راي ابن وزير عليه، ووالده هو الذي انضم للموحدين في السابق [4]. من جهة ثانية كان حكم الموحدين حكماً عقائدياً، بمعنى أن الطاعة التي يقبلونها هي في الوقت نفسه دخول في الدعوة وإيمان بالعقيدة الموحدية لذلك كان يوجه مع الحاكم أو الوالي أثناء تعيينه على ولايته بمجموعة من الطلبة، وهي مؤسسة أنشأها عبد المؤمن، استقدم لأجلها علماء لحضرته يصفهم المراكشي بأنهم «خاصة أهل علم النظر، وسموهم طلبة الحضر» ولهم رؤساء أو أشياخ، ولا بد في كل مجلس عام أو خاص يجلسه الخليفة من حضور هؤلاء الأشياخ منهم وإلى جانبهم صنف آخر ممن عني بالعلم من المصامدة يسمون طلبة الحضر [5]. وكان مهمة هؤلاء الطلبة مع الوالي حضور مجالسه وبث المذهب وتقديم

---

(1) البيان المغرب، ص٤٦ . الاستقصاء، ج٢، ص٢٠٢ .

(2) المن بالإمامة، ص٣٩٦ .

(3) المن بالإمامة، ص٣٩٤-٣٩٥ .

(4) الحلة السيراء، ج٢، ص٢٧١-٢٧٣، المن بالإمامة، ص٧١-٧٢ عن تولي ابن المنذر شلب، عصر المرابطين والموحدين، ج٢، ص٦٤٢ .

(5) المعجب، ص٣٤٢ .

المشورة لـــه ، إضافة إلى قيام بعضهم بتصريف بعض الشؤون كأن تكون إشرافاً على بعـــض الأعمال[1] . هذا وكان بلاط الولاة في الأندلس صورة مصغَّرة عن بلاط أمير المؤمـــنين في مـــراكش ، فكما كان لأمير المؤمنين وزراء وكتاب وقواد يساعدونه في إدارة دولـــته عـــين لهؤلاء الولاة من الوزراء والحجاب والقواد أكفأ الأشياخ وأبرع الحفـــاظ ، على أن يؤخذ برأيهم ومساعدتهم في جميع الشؤون الهامة ، والمتعلقة بولاية الأندلـــس ، وهو ما يتضح من خلال استقراء بعض النصوص ، ذلك لما عقد الخليفة عـــبد المؤمـــن لابنه السيد أبي يعقوب على ولاية الأندلس بعث معه الوزير ابن عطية «لمباشـــرة الأمـــور وإصـــلاح الأحوال ، فأغنى في ذلك الغناء الجميل»[2] . ولما قام الخلـــيفة أبـــو يعقوب عام ٥٦١هـــ ـــ ١١٦٥م بتوزيع مناصب الولاية على أخوته والحفـــاظ من أشياخ الجماعات ، عين الشيخ أبا عبد الله بن أبي إبراهيم على إشبيلية واخـــتار له مجموعـــة جيدة من أهل النجدة والتقدم كما عين له وزيراً يسوس أحواله ويـــنظر أعمالـــه وأشغاله وهو أبو زكريا بن سنان ، ولما وصل الشيخ أبو عبد الله إلى مديـــنة إشبيلية لاستلام مهام منصبه خرج إليه الحفاظ والأجناد ، والأشياخ والأعيان لاســـتقباله ثم دخلـــوا لمباشرة أعمالهم معه[3] . هذا وسوف يرد ذكر هؤلاء الوزراء والإداريـــين بشـــكل عام عند تفصيل الوظائف الإدارية . ومن الملاحظ أنه لم تقتصر مهمـــة الولاة على الإشراف على ولاياتهم وإدارتها بل تعدى ذلك إلى الاهتمام بأمور الدفـــاع عنها سواء أكان ذلك لقمع الثورات والفتن أم للدفاع عنها تجاه أي خطر أو اعـــتداء خارجي ففي عام ٥٧٢هـــ ـــ ١١٧٦م ترك الخليفة أبو يعقوب على قرطبة أخاه أبا الحسن وعلى إشبيلية أخاه أبا علي الحسين حيث «الزما في ذلك الإلزام ومشيا

---

(١) المن بالإمامة ، ص١٣٨-١٣٩ ، ١٤٧-١٧٤ .

(٢) الاستقصاء ، ج٢ ، ص١٣١ .

(٣) البيان المغرب ، ص٦٧ .

في الـثغور نظرهما الإقدام» [1] وهو أيضاً ما يؤكده ابن صاحب الصلاة خلال حديثه عـن تعيين الخليفة أبي يعقوب الولاة على الأندلس ، حيث تم تنصيب أبي عبد الله بن أبي إبراهيم والـياً على إشبيلية عام ٥٦١هـ ـ ١١٦٥م وهو أحد أبناء الجماعة ، وبعـد الاتفـاق على ولايته أحضروه وأمروه بذلك [2] ، ثم «وجهوا معه عسكراً من العـرب لحمايـة إشبيلية وأنظارها» [3] ، وبعد وصوله إليها بعدة أيام «ضربت جملة ذمـيمة من نصارى شنترين ... على نظر طلياطة فجهز في أتباعهم الحفاظ الواصلين معه وأبا العلاء بن عزون في جند إشبيلية وجملة من العرب الواصلين معه فأدركوهم ، وأنفذوا الغنائم منهم وهزموهم وغزوهم واستاقوا من سلبهم مائة فرس وجملة أعلاج ، وعرف الأمير بهذا الفتح فشكر اجتهاده وجده» [4] . هذا ومع أن القيادة في الولايات للـوالي ، إلا أنه في بعض الأحيان كان الطلبة ينوبون عنه في قيادة الحملات العسكرية ففـي عام ٥٥٥هـ ـ ١١٦٠م عندما عبر والي إشبيلية السيد أبو يعقوب ابن الخليفة عـبد المؤمن لمقابلة والده في جبل طارق «استناب بإشبيلية من طلبة الموحدين ... من يـنوب مـنابه في محاربة أهل قرمونة الأشقياء أصحاب ابن همشك» [5] . وإذا أراد الـولاة تسـيير حملـة إلى جهة معينة كانوا يستشيرون طلبة تلك النواحي ، ففي عام ٥٥٥هـ ـ ١١٦٠م سـعى الخلـيفة عبد المؤمن للعبور إلى جبل طارق من أجل الاجـتماع بطلـبة الموحدين الذين فيها للبحث والمشاورة «كيف يكون غزو الروم

---

(1) البيان المغرب ، ص١١٠ .

(2) المن بالإمامة ، ص٢٩٣ .

(3) المـن بالإمامـة ، ص٢٩٤ . انظر المصدر نفسه ، ص٣٥٥ عن إرسال السيد أبي إسحاق إبراهيم بن الخلـيفة لولاية أمر قرطبة عام ٥٦٣هـ ومعه عسكر ضخم من الموحدين والعرب وكيف طلب منه التعاون مع إخوانه بإشبيلية على الجهاد وحماية البلاد والنظر في المصالح .

(4) المصدر السابق ، ص٢٩٦ .

(5) المن بالإمامة ، ص١٤٨ .

والمحاربين في نواحيها» [١] . وربما أخذ رأي الطلبة في المنشآت ذات الطابع العسكري فقـد اشرك الخليفة عبد المؤمن طلبة غرناطة وإشبيلية في اللجنة التي كلفها للإشراف على بناء مدينة جبل طارق لتكون قاعدة للأعمال العسكرية في الأندلس [٢] ، وإن دل هـذا على شيء فهو يدل على الدور الكبير الذي شغله الطلبة في إدارة شؤون ولاية الأندلـس والاهتمام بأمورها الدفاعية والعسكرية إلى جانب ولاتها . وعلى الرغم من الصـلاحيات الكـبيرة التي كان يتمتع بها الولاة في الأندلس إلا أن خلفاء الموحدين ، حرصـوا أشـد الحـرص عـلى توطيد العدل وقمع الظلم ، وتتبع الولاة المسيئين ، بعـزلهم ومحاسـبتهم وهو ما يستنتج من خلال النصوص الواردة في المصادر ففي عام ٥٦٦هـ ـ ١١٧٠م عندما جاز الخليفة أبو يعقوب بجيوشه إلى الأندلس عزل عامل إشـبيلية ابـن المعـلم وأمر بمحاسبته وعين مكانه عاملاً آخراً [٣] . كما قام الخليفة المنصـور بمحاسـبة الرشـيد والي مرسية نتيجة أعماله وتصرفاته غير المشروعة حيث «اسـتولى على الناس بضروب العدوان ـ وتسبب إلى أخذ الأموال ـ وكلفهم المؤن الـثقال ،...» [٤] بـل إن خلفاء الموحدين حرصوا دائماً على تذكير ولاتهم بوجوب الـتزام أحكـام الطاعـة وإقامة العدل بين رعاياهم ، ونجد هذه الأسس لنظام الحكم الموحـدي مدونـة في الرسـالة التي وجهها عبد المؤمن ، بتاريخ ربيع الأول من عام ٥٤٣هـ ـ ١١٤٨م إلى الطلبة والأعيان والمشيخة والكافة بالأندلس والتي أوردها ابن القطان ، وتنحصر هذه الأسس في خمس نقاط أساسية وهي : وجوب التزام الدقة في تطبـيق الأحكام الشرعية ، ووجوب الكف عن اقتضاء أية مغارم أو مكوس ، لا

---

[١] المن بالإمامة ، ص١٤٧ .

[٢] المن بالإمامة ، ص١٣٨-١٣٩ .

[٣] البيان المغرب ، ص٩٤ .

[٤] المصدر السابق ، ص١٧٢ .

تبيحها الشريعة ولا تتفق مع قواعد العدل ، وعدم جواز الحكم في مواد الحدود بالإعدام ، أو تنفيذه قبل الرجوع إلى الخليفة ، ليصدر هو قراره في هذا الشأن ، ووجوب تحريم الخمر ، ومطاردهّا في سائر أنحاء الدولة.، ووجوب حماية أموال المخزن (أموال الدولة) وصونها وعدم التصرف في شيء منها ، دون استئذان الخليفة [1] ، وقد حذا الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، حذو أبيه بتأكيد هذه الأسس الشرعية ، للحكم الموحدي ، وذلك في رسالة شبيهة برسالة أبيه وجهها في رمضان عام ٥٦١هـ ــ ١١٦٥م إلى أخيه السيد أبي سعيد والي قرطبة ، وأصحابه الطلبة ، وفيها يحث على وجوب تطبيق أحكام الشرع وأوامره ونواهيه بدقة ، واتباع الحق والعدل في الفصل في قضايا العباد ، وأنه فيما يتعلق بالدماء ، فإنه يحظر على سائر عمال الموحدين أن يحكموا في الدماء من تلقاء أنفسهم ، وأنه لا بد من أن ترفع قضايا القتل إلى الخليفة مشفوعة بتفاصيلها وأدلتها وشروحها ، ويسري ذلك حتى على القضايا التي وقع فيها اعتراف بالقتل ، أو دليل أو شهادة مقبولة ، أو غير ذلك ، فإنه يجب في سائر الأحوال أن يرفع الأمر إلى الخليفة ، وإن ما ورد في كتاب الله من الحظر المؤكد والوعيد الشديد ، لإراقة الدماء ، واستباحة الأموال ، واستحلال الحرمات إلا بوجه صحيح ، يوجب عليهم اتباع ما رسم ، ووجوب التوقيت والبيان والتعريف ، هذا مع وجوب تقوى الله ، وطاعة أوامره ، والجري على سننه ، وتكرار هذا النصح ، بالعف عن إراقة الدماء ، والاحتياط في تنفيذ أحكام الإعدام ، هو صدى بعيد لما اتسمت به الدولة الموحدية منذ قيام المهدي بن تومرت ، من المبالغة في استباحة دماء خصومها وإراقتها ، ولقد تضمنت المصادر الموحدية ، طائفة من الحوادث المروعة المثيرة ، أيام المهدي ، وخليفته الأول عبد المؤمن . فلما انتهت الدولة الموحدية من القضاء على خصومها ، وتوطدت دعائمها ، وضخم سلطانها لم يبقَ ثمة

---

[1] نظم الجمان ، ص١٨٧-٢٠٣ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٦١٩ .

ما يوجب هذا الإغراق في سفك دماء الناس وتمسكها بتنفيذ أحكام الشريعة ، وحث عمالها وولاتها على مراعاة ذلك ، وبالأخص عدم التورط في إراقة الدماء ، إلا بموافقة الخليفة نفسه [1] . وكان من شدة اهتمام أمراء المؤمنين بولاية الأندلس وبدافع الحرص علـى معـرفة شؤونها وأحوالها أنه كثيراً ما قام هؤلاء بزياراتهم للأندلس للتفتيش عن ولاتهم ومراقبتهم ، فقد قام الخليفة المنصور بزيارة لإشبيلية عام ٥٨٥هـ ـ ١١٨٩م حيـث «... أخـذ في الفحص عن شؤون الناس وأحوالهم وكيفية كونهم مع ولاتهم وعمـالهم ، فاستبرئت السجون وقتل كل مستوجب القتل فيها منذ سنين بعد عرض أزمـتهم على أمير المؤمنين واشتد في قطع المناكر ...» [2] . وهكذا بقدر ما تمتع ولاة الموحديـن بالاسـتقلال الـذاتي في الأندلـس لم يقصر أمراء المؤمنين عن مراقبتهم وتوجيههم وعزل المقصر منهم والمسيء ومن الناحية الإدارية كان لكل ولاية أندلسية حكومـتها المحلـية الـتي تضم إلى جانب الوالي ، الوزير والكاتب وصاحب العمل والمشـرف عـلى الجـباية ويأتي في مقدمة تلك المناصب منصب الوزير ، ويعد من المناصـب الهامة في الدولة الموحدية ، وقد شغله عدد من أبناء الخلفاء وأخوتهم من بني عـبد المؤمـن الذين كانوا يسمون بالسادة ، كما شغله عدد من أصهارهم وقوادهم وكتابهم كما كان الحال أيام المرابطين . وكان الوزراء من السادة أي الأمراء يتخذون لأنفسهم في غالب الأحيان ، وزراء بين أيديهم تمييزاً لأنفسهم من سائر الوزراء [3] . وعلى الرغم من أن المصادر لا تقدم أي تحديد لاختصاصات الوزير في عهد الموحدين، إلا أنـه يفهـم مـنها أنه كان وزير تنفيذ في غالب الأحيان ، وأنه كان يقوم بعمل

---

(1) المن بالإمامة ، ص٣٠٢-٣٠٧ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٦٢٠ .

(2) البيان المغرب ، ص١٨١ .

(3) المن بالإمامة ، ص٤٥٧ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٦٢١ . انظر البيان المغرب ، ص٥٦، المـن بالإمامـة ، ص٢٢٤ . كيف اتخذ الوزير أبي حفص ابن الخليفة عبد المؤمن أبو العلا إدريس بن جامع وزيراً بين يديه .

الكاتب، وبعمل الحاجب — بل يمكن القول بأن الحاجب بمدلوله الأصلي — هو رئيس للتشريفات التي تحجب الخليفة عن الخاصة والعامة ويأذن للوفود بالدخول عليه مع تقديم كل فرد بذكر اسمه ونسبه وبلده [١] . ومن الذين تولوا منصب الحجابة السيد أبو حفص بن الخليفة عبد المؤمن ، ولما توفي عبد المؤمن وخلفه ولده السيد أبو يعقوب يوسف ، تولى أبو حفص شؤون الحجابة مجدداً له ، وذلك على معنى الوزارة والإمارة . وهو ما يتضح من قول صاحب المن بالإمامة : «وتوالى استبداد السيد الأعلى أبي حفص على معنى الوزارة والإمارة بإنفاذ الأوامر السلطانية عن أمره ، على ما كان عليه عند أبيه من الوزارة في سره وجهره ، عن رضى من الأمير أبي يعقوب أخيه واتفاق وإجماع قدم ...» [٢] .

هذا ولما توفي الخليفة أبو يعقوب عقب موقعة شنترين وخلفه ولده الخليفة أبو يوسف يعقوب المنصور ، تولى حجابته أخوه السيد أبو حفص ، والحجابة هنا معناها رئاسة الوزارة [٣] ، كذلك كان للوزير النظر في الحساب والأشغال المالية [٤] وإن كان بعضهم يجعل الشؤون المالية في يد شخص آخر يعرف بصاحب الأشغال [٥]، وعلى أي حال لم يكن الوزير في عصر الموحدين صاحب النفوذ الحقيقي في الدولة ، بل كان مجرد منفذ لأوامر الخليفة والولاة من بني عبد المؤمن حكام المغرب والأندلس [٦] .

هذا ولا بد من الإشارة إلى تعيين الحجاب والوزراء من الأبناء والأخوة أو

---

[١] المن بالإمامة ، ص٤٥٧ .

[٢] المصدر السابق ، ص٢٣٧ .

[٣] عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٦٢١ .

[٤] انظر البيان المغرب ، ص٢٠١ عن تقليد الوزير أبي زيد بن يوجان للأشغال المالية .

[٤] Brunschvig, la Berberie Oriental sous les Hafsides 2tomes (Paris 1940-1947). P.54.

[٥] Hopkins. Medieval muslim goverment in Barbary until. The sixth century of The Hijra (London 1958). p.11

القرابة لم يكن يحول دون تعيين وزراء آخرين للاطلاع بتدبير الشؤون الإدارية ، وقد كان أولئك الوزراء من خاصة القبائل الموحدية الموالية بالإضافة للأندلسيين ، ومن اهم هــؤلاء الوزراء الذين شغلوا هذا المنصب ، أبو جعفر بن عطية القضاعي المراكشي ، أصله القديم من طرطوشة في شمال شرقي إسبانيا ، جمع هذا الوزير بين الكتابة والوزارة في بــادئ الأمر ، ثم انفرد بالوزارة بعد أن استكتب عبد المؤمن رجلاً من أهل بجاية ، هذا واستوزر عبد المؤمن بعد ذلك عبد السلام بن محمد الكومي (نسبة إلى كومية قبيلة عــبد المؤمن) [1] . ومن الوزراء أيضاً أبو العلاء إدريس ابن إبراهيم بن جامع ، وزر للخلــيفة يوسف بن عبد المؤمن ، لقد باشر هذا الوزير عمله بمساعدة شيخ الطلبة أبي محمــد المالقي الذي كان عنده في مسلاخ ـــ أي رتبة وزير ـــ على حسب قول ابن صاحب الصلاة [2] . وقد ورد ذكر الوزير ابن جامع ومعاونيه في مناسبات عديدة في كــتاب المــن بالإمامة وهي جميعها تعطي صورة هامة عن بعض مهام الوزير في ذلك العصر ، فإلى جانب الأعمال المختصة بحجابة الخليفة [3] والتي مر ذكرها سابقاً ، كان الوزيــر في بعــض الأحيان يكلف ببعض الأعمال التي يتوجب عليها سفره بعيداً عن العاصــمة الــتي يعمل بها ، وعلى سبيل المثال الوزير أبو جعفر بن عطية عندما أرسله الخلــيفة عبد المؤمن إلى الأندلس لمباشرة الأمور وإصلاح الأحوال هناك [4] . وكذلك الوزيــر أبو العلاء إدريس بن جامع الذي كلفه الخليفة أبو يعقوب يوسف بالإشراف عــلى بعــض أعمال البناء والتعمير في إشبيلية ، فكان هذا الوزير وابنه يحيى ملتزمين للخدمة بالجلوس على ذلك من وقت شروق الشمس إلى المساء حتى كمل البناء [5] .

---

(1) المعجب ، ص١٩٨ . الاستقصاء ، ج٢ ، ص١١٦-١١٧ . الإحاطة ، ج١ ، ص٢٦٣-٢٧١ .

(2) المن بالإمامة ، ص٤٠٩-٤١٠ ، ٢٢٤ . البيان المغرب ، ص٥٦ ، ١٠٥ .

(3) المن بالإمامة ، ص٢٨٩ ، ٤١٠ ، ٤٢٠ ، ٤٣٠-٤٣١ .

(4) الاستقصاء ، ج٢ ، ص١١٧ .

(5) المن بالإمامة ، ص٤٦٨ .

وإلى جانب هؤلاء الوزراء ، هناك أندلسي طبيب شاعر خدم في بلاد الموحدين وشارك في بعض أعمالهم المعمارية إلى جانب عمله طبيباً لهم ، وهو الوزير أبو بكر محمد بن الوزير أبي مروان عبد الملك بن الوزير أبي العلاء بن زهر الإيادي توفي سنة ٥٩٥هـ ــ ١١٩٩م [١] . ويعدّ من أعيان وزراء الدولة الموحدية . وعلى الرغم من أن الكتب المعاصرة لا تذكر اسم أبي بكر بن زهر في عداد الوزراء العاملين في الدولة ، إلا أنها تجمع على تلقيبه بالوزير ، وهنا يتبادر للمرء سؤال هام وهو هل كان هذا اللقب لقباً فخرياً ورثه عن أبيه وجده تقديراً لخدماتهم الطبية ؟ قد تكون الإجابة بنعم لو أن الأطباء الآخرين الذين خدموا معه في بلاط الموحدين أمثال أبي مروان بن قاسم القرطبي ، وابن طفيل ، قد حملوا لقب وزير ، ولكن لا توجد أية إشارة إلى حملهم هذا اللقب . وأغلب الظن أن ابن زهر قد نال هذا اللقب نتيجة قيامه بأعمال شبيهة بأعمال الوزراء العاملين في الدولة . حيث ذكر صاحب المن بالإمامة أن كلاً من الخليفتين أبي يعقوب يوسف ، ويعقوب المنصور ، قد عهد إلى ابن زهر بالإشراف على بناء جامع إشبيلية هذا الإشراف الذي قام به ابن زهر على مباني الموحدين يذكر بالوزير إدريس بن جامع حينما قام بعمل مشابه له في إشبيلية كما مر سابقاً ، لهذا فإنه من الممكن أن يكون الموحدون قد منحوا ابن زهر لقب وزير مقابل مشاركته لولاة إشبيلية في الأعمال الإدارية والداخلية [٢] . والذي يؤيد ذلك وجود حالات مشابهة ذكرها صاحب المن بالإمامة ، ففي سنة ٥٦١هـ ــ ١١٦٥م نظر الخليفة أبو يعقوب يوسف في أمور إشبيلية ، إذ كانت تحتاج إلى والٍ فاختار لها الشيخ أبا عبد الله بن أبي إبراهيم ، وعين له وزيراً يسوس أحواله وينظر في أعماله وأشغاله وهو أبو زكريا بن

---

(١) المعجب ، ص٨٨ .

(٢) الاستقصا ، ج٢ ، ص١٧٩-١٨٠ . المن بالإمامة ، ص٤٠٩-٤١٠ ، ٤٨١-٤٨٢ . المعجب : انظر عن ابن طفيل ، ص٢٣٩-٢٤٢ .

سنان [1] ، أيضاً في سنة ٥٩٣هـ ـ ١١٩٦م قام الخليفة المنصور بتقليد أبي زيد بن يوجان الوزارة على إشبيلية «وما يتعلق بها من أشغال الموحدين وملازمة الخدمة فاستقل بذلك كله استقلالاً ظهر به صلاح الأحوال وترتيب الأشغال ...» [2]

وممن تولى الوزارة في الأندلس محمد بن عبد الملك بن سعيد . ولد عام ٥١٤هـ ـ ١١٢٠م ، وتوفي عام ٥٨٩هـ ـ ١١٩٣م . كان وزيراً جليلاً بعيد الصيت عالي الذكر ولي للموحدين أعمالاً كثيرة بمراكش وسلا وإشبيلية وغرناطة [3] هذا وكانت خطة الوزارة تبقى في الأسرة الواحدة أجيالاً متعاقبة ، كما حدث في أسرة بني جامع ، التي تولى أبناؤها الوزارة ، منذ خلافة عبد المؤمن ، واستمروا في توليها في فترات متتابعة ، حتى عصر الناصر [4] ، وأسرة بني يوجان ، التي تولى أبناؤها أيضاً الوزارة غير مرة [5] .

هذا فيما يتعلق بالوزارة . أما بالنسبة لخطة الكتابة ، فقد كانت من أهم خطط الإدارة الموحدية بالأندلس ، وكان بعض السادة من أبناء الخليفة أو أخوته يستخدمون في حكوماتهم المحلية ، أكابر كتاب الأندلس ، جرياً على سنة بلاط مراكش ، وذلك ليكونوا لساناً لهم في مخاطبة الحكومة المركزية في مراكش ، فنجد مثلاً السيد أبا عبد الله بن أبي حفص بن عبد المؤمن ، حين ولايته لغرناطة ، يستخدم لكتابته الكاتب البليغ أبا القاسم محمد بن نوح [6] ، كما استخدم السيد عثمان بن عبد المؤمن والي

---

[1] المن بالإمامة ، ص٢٩٣-٢٩٤ .

[2] البيان المغرب ، ص٢٠١ .

[3] نفح الطيب ، ج٣ ، ص١٠٠-١٠١ .

[4] البيان المغرب ، ص٦٥، ١٠٥ ، ١١٢ . العبر ، م٦ ، ص٥٠١ . أزهار الرياض ، ج٤ ، ص١١١-١١٢ . المن بالإمامة ، ص٤١٠ ، ٤٢٠ .

[5] البيان المغرب ، ص٢٠١ ، ٢٢٩-٢٣٠ . .

[6] المغرب في حلى المغرب ، ج٢ ، ص٣٠٨ .

غـــرناطة لكتابته أحد مشاهير الكتاب في تلك الفترة وهو أبو بكر بن عبد الرحمن بن أبي الحسن بن مسعدة [١] ، هذا فيما يتعلق بخطة الكتابة ، ومن المناصب الكبرى أيضاً منصـــب صاحب الشرطة الذي كان ذا أهمية خاصة في فترات الاضطراب والفوضى ، وكان شغله أحياناً رجال من ذوي المكانة الرفيعة في الدولة ومن أكابر الوزراء ، كما حـــدث أيام الرشيد [٢] . من جهة ثانية كانت إدارة الحكومة الموحدية بالأندلس تضم عـــدة مناصـــب هامـــة ، يأتي في مقدمتها منصب «متولي أشغال البرين» أي المغرب والأندلـــس ، وكـــان لهذا المنصب أهمية خاصة أيام قوة الدولة الموحدية وتماسكها ، ويوصـــف اختصاصه «بالأعمال العلية والأشغال السلطانية» فنراه أمام الخليفة المنصور يســـند إلى كـــبير الوزراء أبي زيد بن يوجان وهو ما يستنتج من حديث ابن عذاري حيث يقول : «... قلد أبو زيد بن يوجان أشغال البرين من الأعمال العلية والأشغال الســـلطانية والوزارة وما يتعلق بها من أشغال الموحدين وملازمة الخدمة فاستقل بذلك كله استقلالاً ظهر به صلاح الأحوال وترتيب الأشغال» [٣] .

ويـــلي هـــذا المنصـــب في الأهمية ، المختصون بالشؤون المالية ، وهم صاحب الأعمال المخزنية ، ومتولي المجابي ، ومتولي أعمال المستخلص ، وكان لصاحب ديوان الأعمال المخزنية ، اختصاصات وسلطات واسعة في السهر على تحصيل الأموال العامة وإنفاقها ، وفي مراقبة العمال والمشرفين ومحاسبتهم والقبض عليهم [٤] .

وكـــان لـــه من وكلاء في سائر المدن الكبرى ، يسمّون بالمشرفين ، ويمثله في إشـــبيلية عاصـــمة الأندلـــس «صاحب المخزن» ، وكان للمشرف أيضاً خازن على

---

(١) المغرب في حلى المغرب ، ج٢ ، ص١١٢ .

(٢) البيان المغرب ، ص٢٨٣ .

(٣) البيان المغرب ، ص٢٠١ .

(٤) البيانُ المغرب ، ص٢٠١-٢٣٧ .

المـال ، وخـازن عـلى الطعام يتولى الإشراف على حركة الوارد والصادر بالمخازن العامـة ، وأحـياناً يقـع ضمن أعمال المشرف للرقابة على تُقييد المجابي [1] . وكان أولئك الوكلاء المشرفون على الأموال العامة يتحملون مسؤوليات خطيرة ، ونراهم من أن لآخـر عرضـة لمخـتلف الاتهامـات والمطاردات [2] ، وهذا ما حدث فعلاً عام ٥٩٣هـ ـ ١١٩٦م حيـث حوسب أبو سليمان داود بن أبي داود «فاستضيفت أحواله وأمواله ولم يكشف له ستر ولا امتحن أهله ولا عياله حتى عفى عنه» [3] .

أيضـاً في الفترة نفسها حوسب عمر بن أيوب على ما كان تحت «تنظره وفي احـتزانه من أموال النفقات والموقف عنده من سائر المرتبات فوقف عليه مال جسيم واسـتفهم عنه فلم يوجد لـه جواب فضم ديونه وجمع أطرافه نحو الخمسة عشر ألف ديـنار فقبضـت مـنه وطلب باستيفاء الباقي فعجز عنه فاعتقل مع أبي سليمان حتى تداركهما عفو أمير المؤمنين» [4] . وإن دل هذا على شيء فهو يدل على مدى اهتمام أمـراء المؤمـنين والحكام باستتباب الأمن والقضاء على كل ما هو مثير للاضطراب لـلحفاظ على سلامة الإدارة الموحدية من الفساد . أما فيما يتعلق بمتولي المجابي ، فهو المختص بتحصيل الضرائب والجزية بمختلف أنواعها ، وله عمال في المدن وفي البوادي، كما له حق طلب معونة القوات الموحدية في المكان الذي يجمع فيه الضرائب ، لإرغام القبائل المتخلفة عن دفع الضرائب على أدائها [5] .

---

(1) البيان المغرب ، ص٢٠١ ، ١٣١ ، ١٧٢ .

(2) البيان المغرب ، ص٣١ ، ١٠٨ ، ١١٢ ، ١٣١ ، ٢٣٧ ، ٢٠١ .

(3) البيان المغرب ، ص٢٠١ .

(4) المصدر نفسه ، ص٢٠١ .

(5) البـيان المغـرب ، ص٢٠١، ٢٢٧ . انظـر : الإحاطة / ج٣ ، ص٢٣٠ عن عمل مسلم بن سعيد التيمنلي صاحب المجابي في دولة بني نصر ومدى السلطات التي تمتع بها . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٦٢٤ .

وممن تولى منصب صاحب المجابي علي بن أبي بكر في ألمرية زمن السيد أبي عبد الله محمــد بن السيد أبي زكريا ابن الخليفة أبي يعقوب [1] . أما متولي المستخلص فهو المشرف على الأموال الخليفية ، والمحافظ عليها وتحصيل ما يتعلق بها من مختلف أبواب الدخــل ، وقد يتولى صاحب الأشغال المخزنية أحياناً الإشراف على ما يتعلق بالسهام السلطانية أي أنصبة الخليفة وحقوقه الشرعية في الغنائم وغيرها [2] . وكانت الضرائب المفروضــة على البلاد الخاضعة للموحدين متباينة حسب البلاد ، وتعادل في الأندلس ربــع الأرض ، وهــذا ما يؤكده مؤلف روض القرطاس أثناء حديثه عن تفضيل أهل شــريش على غيرهم ، إذ كانوا أول الخاضعين لهم ، وبقوا على طاعتهم ، أيضاً عندما خلعت البلاد الأندلسية الأخرى طاعتهم مع أكثر بقاع الغرب أثناء ثورة الماسي، ويرد فيها «فكان الموحدون يسمونهم السابقين الأولين ، وحررت أملاكهم ، فلم تزل محررة إلى انقضاء أيامهم ، فليس في أملاكهم رباعة ، وجميع بلاد الأندلس مربعة» [3] .

وعرفــت أيضاً وظيفة الحسبة في بلاد الأندلس في عصر الموحدين وكان لقيام حــركة الموحديــن على أساس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أثراً كبيراً في إعطاء الحسبة والمحتسب مكاناً مرموقاً في سلم الإدارة ، أي أن وظيفة الحسبة كانت لها أهمية خاصــة في الــنظام الإداري الموحدي كما كانت من قبل في عصر المرابطين ، ولعل أسلوب محمد بن تومرت ونهجه في تغيير المنكر غير مهتم لمركز المخالف ومكانته ، هو ســبب مــا تمتعت به هيئة المحتسبين من مقدرة وسطوة ونفوذ في النظام الإداري [4] . وكانت الواجبات الرئيسية للمحتسب تطبيق قواعد الشرع الإسلامي من خلال تفقده

---

(1) أزهار الرياض ، ج٤ ، ص١١١ .

(2) البيان المغرب ، ص٢٠١ ، ٢٢٧ .

(3) روض القرطاس ، ص١٨٨ .

(4) أخبار المهدي ، ص٣٥ ، ٤٦ ، ٤٧ . المعجب ، ص١٨٨ .

المستمر لأحوال السوق بالإضافة للطرقات العامة ولتسهيل مهمته كان يتخذ له عيوناً يوصلون إليه أخبار السوق وأحواله ، كما كان له حق التدخل والإشراف على كافة الحرف وأرباب الصناعة في المدينة [1] . وإن دلّ هذا على شيء فهو يدلّ على مدى عناية حكام المسلمين بسلامة الحياة في شتى صورها الاقتصادية والاجتماعية وعلى الغالب كان الذين يتولون خطة الحسبة في الأندلس من الأندلسيين . وممن تولى خطة الحسبة عيسى بن محمد بن عيسى بن عبد الرحمن بن عقاب الغافقي أبو الأصبغ . كان من حسباء قرطبة وفضلائها ومجودي مقرئها ، ولد عام ٥١٦هـ ــ ١١٢٢م توفي عام ٦٠٠هـ ــ ١٢٠٣م [2] . أيضاً ممن تولى الحسبة أبي بكر محمد بن أبي الحسن علي بن يوسف المالقي ، ولي خطة السوق ، أي الحسبة ، في مدينة مالقة ، توفي سنة ٦٣٦هـ ــ ١٢٣٩م [3] .

مما تقدم يظن أنه كان يطلق على الحسبة عند الموحدين اسم خطة السوق . هذا وبالرغم من المكانة الكبيرة التي شغلتها وظيفة المحتسب فإنها لا تتناسب مع ما لمس من الفقر والشح الكبيرين في التأليف حول موضوع الحسبة خاصة في المغرب بينما كانت هناك مجموعة من الكتب القيّمة والهامة في الحسبة وجدت في الأندلس وتعود للعصر نفسه مثل كتاب السقطي ، وابن عبد الرؤوف ، وعمر بن عباس الجرسيفي ويظهر أن السبب في كثرة كتب الحسبة في الأندلس ، وقلتها أو انعدامها في المغرب راجع إلى أن بيئة الأندلس كانت بيئة ثقافية على مكانة راقية ومتفتحة ، ومن ثم يجنح الناس إلى الإنتاج للمتعة، وللتثقيف ، لا سيما وبلادهم بعيدة عن مركز الخليفة الموحدي ، وربما

---

(1) التيسير في أحكام التسعير ، ص١٢٣-١٢٦ .

(2) الذيل والتكملة ، القسم الثاني ، السفر الخامس ، ص٥٠٨-٥٠٩ .

(3) التيسير في أحكام التسعير ، ص١٧ ، انظر الذيل والتكملة ، القسم الثاني ، السفر الخامس ، ص٤٥٩-٤٦٠ عن عمر بن محمد بن عبد الرحمن بن بيبش ، ولي خطة السوق .

دفــع إلى الإنتاج في الموضوع ، انحلال المجتمع الأندلسي ، وكثرة المفاسد ، وفي بيئته ، بسبب ضعف الرقابة ، ولهذا حرص المخلصون على إرشاد الناس إلى الخير والتنبيه على الانحرافات والمفاسد ليتحاشاها الناس ويكونوا على خبرة بها ، ومن الجدير بالذكر أن وظــيفة الحسبة بقيت قائمة ، بعد تفكك دول الموحدين في القرن الثالث عشر [1] ، واهتم خلفاء الموحدين بوظيفة الرقاصين وهم الرسل الذي يردون بالكتب ويصدرون، وتطلــق كــلمة رقاص على الشخص الذي يقوم بالبريد ، وللرقاص أمين يسهر على الحــرفة ، وقد كانت تسند لرجال أقوياء مدربين على الركض والعدو ، وكان فيهم الــرقاص العادي ، ورقاص الشرط ، وهذا هو ساعي البريد المستعجل ينقله بين المدن عــلى الخــيل والجياد بمنتهى السرعة ، وكان يجد في كل محطة حصاناً مسرجاً يمتطيه إلى المحطــة الــتي تليها ، وقد حددت بعض الرسائل الموحدية منذ عام ٥٤٣هـــ ـــ ١١٤٨م واجــبات الرقاصة تحديداً دقيقاً حتى لا يسيء الرقاصون استعمال نفوذهم ، فقد شاع أن بعضهم ربما فر على الناس استضافته [2] . ومما يجب الإشارة إليه أن وظيفة الرقاصة مســتحدثة عــلى عهد الموحدين ، حيث لا يوجد أي ذكر لها في المصادر على عصر المــرابطين ، وفي هذا دلالة إلى مدى اهتمام الموحدين بسرعة الاتصالات البريدية ودقة تنظــيمها بين كل من العدوتين المغرب والأندلس . هذا ولم تقتصر التنظيمات الإدارية على النواحي المدنية بل شملت أيضاً النواحي العسكرية فقد زاد الموحدون ديواناً للجند (ديوان العسكر) يختص بالجند النظامي والحرب والعبيد ، ووظيفة إحصاء الجند ومعرفة حاجاتــه المــتجددة ، وكــان يرأسه رجل من العسكريين ويعاونه عدد من الكتبة ، والديــوان الثاني كان يسمى بديوان التمييز ووظيفته التأكد من إخلاص القبائل والجند

---

(١) الحسبة المذهبية ، ص٥١-٥٢ .

(٢) المن بالإمامة ، ص١٢٩-١٣٠ ، ١٤٤ . ابن زيدان : العزو والصولة في معالم نظام الدولة ، نشر عبد الوهاب بن منصور ، الرباط ، ١٩٦١م ، ص٤٠٧ .

وللدعـــوة الموحديـــة وهي عادة جرى عليها الموحدون منذ عهد ابن تومرت ، وكان يـــترأس هـــذا الديـــوان كاتـــب يســـمى كتاب ديوان التمييز ويحوي هذا الديوان ســـجلات يقيد فيها أسماء الجند التي يقرر لها العطاء ، كما يقوم بالتنسيق بين الكتائب والفرق المحاربة [1] .

هذا كل ما يتعلق بالنواحي الإدارية في الأندلس على عهد الموحدين والتطورات التي طرأت عليها .

● القضاء :

القضاء هو الفصل الملزم بين الناس في الخصومات حسماً للتداعي وقطعاً للتنازع ويكون ذلك بالأدلة الشرعية [2] ويتولى هذا الأمر القضاة ، يعمل القاضي وفق الشرعة الإســـلامية في أحكامـــه حيـــث يـــتولى المسائل الخاصة بالزواج والطلاق والمواريث والوصـــايا ، وغير ذلك من الأمور التي تتصل بالشرع والتي وردت فيها أحكام شرعية وبالـــرغم مـــن ارتباط اسم القاضي بالقضاء فلم يكن القاضي وحده من يقوم بمهمة القضـــاء فاتساع الدولة الموحدية وازدياد الأعباء أدّيا إلى إيجاد مناصب للقضاء بمراتب مختلفة ، فهناك منصب قاضي الجماعة أو ما يدعى بقاضي القضاة يليه القاضي ، فنائبه ثم مســـاعدو القاضـــي ، وكل ذلك بهدف تنظيم القضاء وإعطائه الصفة الشرعية في الدولة ، ويعدّ منصب قاضي الجماعة أعلى الوظائف الدينية قدراً ورتبة ، بل إنه أعلى منصـــب قضـــائي في الدولـــة الموحدية ، هذا وكان يعين في عاصمة كل ولاية قاضٍ للجماعة ، وهو يتولى اختيار نوابه في مناصب القضاء المحلية . وقد بقي القضاء في عهد الدولـــة الموحدية سواء بالمغرب أو الأندلس ، محتفظاً بأهميته وجلاله القديمين . وكان

---

[1] المن بالإمامة ، ص٤٣٦ والبيان المغرب ، ص٢٣١ . الأندلس في نهاية المرابطين ، ص١٥٠ .

[2] مقدمة ابن خلدون ، ص٣٩٠ .

الخلـيفة الموحدي يقوم بتعيين قضاة الجماعة في سائر المدن الكبرى ، دون الرجوع إلى الـولاة ، وتتـبع نفس القاعدة في تعيين قضاة الأندلس [1] ، ومن الملاحظ أن تعيين قاضي الجماعة يتم فقط من قبل الخليفة الموحدي على عكس المرابطين حيث كان يتم تعيين قاضي الجماعة عندهم بعد انتخاب الرعية لـه وموافقة أمير المسلمين عليه . وإن دل هـذا على شيء فهو يدل على أن القضاء في عصر الموحدين ظل خاضعاً للسلطة التنفيذية مباشرة أي لم تنفصل السلطة القضائية عن السلطة التنفيذية ، هذا ومن المهام الملقاة على عاتق قاضي الجماعة تعيين القضاة في النواحي التابعة لمنطقته وعزلهم . ومن الجدير بالذكر أن سلطة قاضي الجماعة كانت تقتصر على العاصمة وضواحيها فقط ، ممـا يعني أن القضاء اتسم بطابع اللامركزية في الأندلس ، فقد قام قاضي الجماعة أبو الولـيد بـن رشد بتعيين القاضي محمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التحيبـي في غير جهة من جهات قرطبة [2] . ومن القضاة الذين قام قاضي الجماعة أبو الوليد بن رشد بتعيينهم عبد الكبير بن محمد بن عيسى بن محمد بن بقي الغافقي ، حيـث استقضـاه في بعض جهات قرطبة أيام ولايته منصب قضاء الجماعة بها [3] . وعـلى الـرغم من النفوذ القوي الذي تمتع به قاضي الجماعة من جهة تعيين القضاة وعـزلهم في عهد الموحدين إلا أنه لم يرق إلى حد التدخل في تعيين الولاة وعزلهم كما حـدث في عصر المرابطين عندما تدخل القاضي ابن رشد لدى أمير المسلمين علي بن يوسـف في عزل تميم عن ولاية الأندلس [4] . وإن دل هذا على شيء فهو يدل على اقتصـار نفـوذ قضـاة الجماعة على النواحي القضائية والثقافية ، على عكس قضاة المـرابطين حيث قاموا بدور كبير في المجالات كلها سواء كانت قضائية أو سياسية أو

(1) البيان المغرب ، ص١٢٩ ، ١٣٢ . المرقبة العليا ، ص١٠٩ .

(2) الذيل والتكملة ، القسم الثاني ، السفر الخامس ، ص٦٧٥-٦٧٦ .

(3) المصدر نفسه ، السفر الرابع ، ص٢٣٢-٢٣٤ .

(4) الحلل الموشية ، ص٩٨ .

إداريـــة أو مالـــية [1] . وبالإضافة لتعين القضاة ، كان من المهمات الملقاة على عاتق قاضي الجماعة إقامة المجالس لتدريس الفقه والحديث إلى جانب دراسة القضايا والإفتاء فـــيها ، ومـــن القضاة الذين أقاموا تلك المجالس يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع الأشـــعري الـــذي ولي قضـــاء الجماعـــة بقرطبة ثم بغرناطة ، وأقرأ بغرناطة لأكابر عـــلمائها ونبهائها الحديث وغيره بالمسجد الجامع منها وبغيره في مساجد أخرى توفي ٦٣٧هـــ ـــ ١٢٣٩م [2] . وممن ترأس تلك المجالس عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بـــن أحمـــد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري ولي قضاء الجماعة بغرناطة ، وعقد بها مجلســـاً للإقراء فانتفع به طلبتها ، واستمر على ذلك ، وكانت ولايته غرناطة نحواً من سبعة أعوام ، توفي ٦٦٦هـــ ـــ ١٢٦٧م [3]

ولم يكن يوجد شرط للسن في تقليد القضاة ، فقد تقلد بعضهم منصب القضاء في مقتـــبل العمر ، أما منصب قاضي الجماعة فلم يتقلده أحد في العشرين أو الثلاثين ، وإن لم تحدد سن معينة لتوليه ، فقد جرت العادة أن يتقلد هذا المنصب قاضٍ له خبرته الطويلـــة في القضاء وله هيبته ووقاره وسنه [4] . ومن الجدير بالذكر أن منصب قاضي الجماعة في عصر الموحدين قريب الشبه بمنصب وزير العدل في عصرنا حيث كان يعد من كبار موظفي الدولة آنذاك [5] .

---

(1) رسائل أندلسية ، ص٦٠ .

(2) الإحاطة ، ج٤ ، ص٣٧٣-٣٧٤ .

(3) الإحاطة ، ج٣ ، ص٤١٧-٤١٨ .

(4) الإحاطـــة ، ج٣ ، ص٤١٧-٤١٨ . عـــن القاضي عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن الأشعري قاضي الجماعـــة بغـــرناطة ، المعجـــم ، ص١٩١-١٩٢ . عن القاضي محمد بن محمد بن أحمد بن خلف بن إبراهـــيم التجيبي قاضي الجماعة بقرطبة ، انظر: الذيل والتكملة ، ج١ ، السفر الخامس ، ص٢٤٨-٢٤٩ ، عن قاضي قضاة إشبيلية .

(5) معين الأحكام ، ج١ ، ص٨٣ . صور وبحوث من التاريخ الإسلامي ، ص١٦٤ .

هـذا وكانت الأندلس مقسمة إلى ثلاث مناطق قضائية لإقامة قاضي الجماعة وممارسة صلاحياته بها وهي الشرق والموسطة والغرب ، وهو ما استنتج من خلال استقراء بعض النصوص التي تشير إلى مراكز قضاة الجماعة بالاندلس في ذلك الوقت ، فقد تولى القاضي أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن أحمد بن رشد ، منصب قاضي الجماعة بقرطبة توفي عام ٥٩٨هـ ـ ١٢٠١م [١] . وشغل هذا المنصب أيضاً يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن ربيع الأشعري الذي ولي قضاء الجماعة بقرطبة ثم بغرناطة، توفي عام ٦٣٧هـ ـ ١٢٣٩م [٢] . هذا وتعتبر قرطبة موسطة البلاد الأندلسية على عصر الموحدين ، أما مركز القضاء الأندلسي بالغرب والكائن في إشبيلية فقد شغله ألمع القضاة وأرفعهم مكانة ومن ضمنهم قاضي قضاة إشبيلية القاضي أبو الحسن الزهري علي بن عبد الرحمن بن علي بن أحمد بن عبد الرحمن بن أو عبد الرحمن بن يعيش بن حزم بن إسماعيل بن زكريا بن محمد بن عيسى بن حبيب بن إسحاق بن إبراهيم بن عبد الجبار الداخل إلى الأندلس ابن أبي سلمة الفقيه بن عبد الرحمن بن عوف الأزهري صاحب رسول الله (ﷺ) ، كان شيخاً فاضلاً ، ولي خطة المناكح بإشبيلية مدة غير قصيرة ، ثم ولي قضاء الجماعة توفي عام ٦٤٣هـ ـ ١٢٤٥م مولده عام ٥٥٠هـ ـ ١١٥٥م [٣] .

هـذا ولم تخل منطقة الشرق من مركز لقاضي الجماعة فالنصوص حول من استلم هذا المنصب تشير إلى وجود أكبر الخطط القضائية هناك مثلاً : القاضي أبو عبد الله محمد بن عيسى بن المناصف القرطبي ولي أكبر خطط القضاء ، مثل مرسية ،

---

[١] المرقبة العليا ، ص١١١ . المغرب في حلى المغرب ، ج١ ، ص١٠٤-١٠٥ . المكناسي ، جذوة الاقتباس ، الرباط ١٩٧٣ ، ج١ ، ص٢٥٤ .

[٢] الإحاطة ، ج٤ ، ص٣٧٣-٣٧٤ .

[٣] الذيل والتكملة ، القسم الأول ، السفر الخامس ، ص٢٤٨-٢٤٩ .

وبلنسية ، توفي عام ٦٢٠هـ ـــ ١٢٢٣م [١] .

هـــذا ما كان بشأن منصب قاضي الجماعة في عصر الموحدين ، أما فيما يتعلق بالقاضـــي ، فقد كان يعين ، كما سلف ، من قبل قاضي الجماعة مباشرة ، وهو أقل مـــنه مرتـــبة في السلك القضائي ، ومن الممكن القول إن اختيار القاضي يعتمد على اتصـــافه بالأمانـــة والثقافة الواسعة والاطلاع على الفقه ، بل يمكن القول إن منصب القاضي كان يتطلب معرفة تامة بالشريعة الإسلامية والنواحي الدقيقة بها . أوضح مثال عـــلى ذلك محمد بن عبد الله بن أحمد بن سماك العاملي ، يكنى عبد الله وهو أول من ولي القضاء للموحدين بغرناطة ، كان فقيهاً جليلاً ذاكراً للمسائل ، عارفاً بالأحكام ، ثم ولي قضـــاء مالقة [٢] ومنهم الفقيه أبو الحسن علي بن عبد الله بن إبراهيم بن محمد الأنصـــاري المعروف بالمتيطي ، تعلم عقد الشروط ، وله كتاب كبير في الوثائق سماه النهاية والتمام في معرفة الوثائق والأحكام ، ثم انتقل إلى سبتة فاستوطنها ولازم مجالس عـــلمائها بالمناظرة والتفقه ، ومهر في كتابة الشروط واشتغل بها حتى لم يكن في وقته أقدر منه عليها ، وولي قضاء شريش توفي عام ٥٧٠هـ ـــ ١١٧٤م [٣] .

ومـــن الجديـــر بالذكـــر أن القاضي يستطيع ضمان معرفة الفقه بشكل كلي باختـــياره مستشارين مثقفين أو تأخير حكمه حتى يزود برأي صائب من أحد الفقهاء أو القضـــاة الضالعين في القضاء ومن هؤلاء سليمان بن موسى بن سليمان بن علي بن عبد الملك بن الحسن بن عميرة بن طريف بن أشكور كه الأزدي المرسي . كان فقيهاً ورعاً زاهداً ، واستقضاه بمرسية محمد بن عبد الله بن أبي جعفر أيام تأمره بها وهو أول من شاور أبا بكر بن أبي حمزة في سنة ٥٣٩هـ ـــ ١١٤٤م [٤] .

---

[١] المغرب في حلى المغرب ، ج١ ، ص١٠٥ .

[٢] المرقبة العليا ، ص١٠٩ .

[٣] الاستقصاء ، ج٢ ، ص٢٠٩-٢١٠ .

[٤] الذيل والتكملة ، السفر الرابع ، ص٩٦ .

وبازدياد أعباء القاضي بعد أن كانت خفيفة نسبياً سرعان ما اضطر إلى التنازل عـــن كل مسؤولياته أو بعضها إلى مساعدين تحت سلطته يعينهم لإنجاز الواجبات التي كانـــت منوطة به فكانت وظيفة نائب القاضي ، ويبدو أن معظم القضاة عملوا نواب قضـــاة ، فكـــأن التنظيم القضائي هيئة يتدرج فيها من نائب قاض إلى قاضٍ فقاضي جماعـــة، ومن نواب القضاة الذين شغلوا هذا المنصب علي بن عبد الله بن يوسف بن خطـــاب بـــن خلف بن خطاب المعافري ، إشبيلي ، استقضي بإشبيلية وقتاً ، استنابه القضـــاة بها كثيراً ، توفي سنة ٦٢٩هـــ ـــ ١٢٣١م [١] . وهناك يحيى بن عبد الله بن زكـــريا الأنصـــاري ، تولى قضاء مناطق مختلفة في الأندلس ، ثم استعمل في النيابة عن قاضـــي الحضـــرة [٢] ، هذا وكان للقضاة كتاب يكتبون أو يدونون قرارات الحكم ، كمـــا يعنون بتسجيل أقوال الشهود لأن الدليل المكتوب خير سند يعتمد عليه . ومن أشـــهر كتبه القضاة على عهد الموحدين ، عبد الكبير بن محمد بن عيسى بن محمد بن بقي الغافقي الإشبيلي . اتصل بالقاضي أبي الوليد بن رشد أيام قضائه بقرطبة واختص به وحظي عنده فاستكتبه واستقضاه في بعض جهات قرطبة [٣] .

ومـمـــا هـــو جديـــر بالذكر أن الأندلسيين كانوا يستأثرون بمناصب القضاء في بلادهم منذ أيام الدولة المرابطة ، ولم يحاول خلفاء الموحدين أن يحيدوا عن ذلك التقليد إلا في أحـــوال نـــادرة كان يتولى فيها القضاء بالأندلس بعض الممتازين والمتفوقين من القضـــاة المغاربـــة ، مثل محمد بن عياض بن موسى بن عياض بن عمر بن موسى بن عـــياض اليحصـــبي ، من أهل سبتة ،كان فقيهاً ، أديباً ، دخل الأندلس وولي قضاء غرناطة ، توفي عام ٥٧٥هـــ ـــ ١١٧٩م [٤] ، بل كان الخليفة الموحدي يختار لقضاء

---

(١) الذيل والتكملة ، السفر الخامس ، القسم الأول ، ص٢٣٨-٢٣٩ .

(٢) الإحاطة ، ج٤ ، ص٣٧٤-٤٧٥ .

(٣) الذيل والتكملة ، السفر الرابع ، ص٢٣٢-٢٣٤ .

(٤) الإحاطة ، ج٢ ، ص٢٢٩-٢٣٠ .

الجماعة بمراكش بعض اللامعين من فقهاء الأندلس ، كما حدث أيام الخليفة أبي يعقوب ، عندما تولى قضاء الجماعة بالعاصمة مراكش ، أبو جعفر أحمد بن مضاء ، من أهل قرطبة [١] . ومنهم أيضاً أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن بن بقي بن مخلد بن يزيد الأموي ، من أهل قرطبة ، شغل منصب قاضي الجماعة بمراكش فترة من الزمن أيام الخليفة الناصر ، توفي ٦٢٥هـ ـ ١٢٢٧م [٢] . ويرجع ذلك كما هو واضح إلى تفوق الدراسات الشرعية في الأندلس ، وتفوق القضاة الأندلسيين في ممارسة الأحكام وتطبيقها ، وقد ظلت الأندلس محتفظة بهذا التفوق ، في القضاء حتى إبان انحلالها في أواخر العصر الموحدي [٣] .

وإلى جانب أمور القضاء كانت هناك أمور أخرى يشارك فيها القضاة ، مثل الدعوة إلى الجهاد ، فعلى الرغم من أن الخليفة أو الولاة هم الذين يدعون للجهاد في سبيل الله ،كان القاضي يساعد في هذا الأمر عن طريق الخطبة في الجوامع حيث يدعو الناس للجهاد ، بل كان أحياناً يشارك بنفسه في الجهاد في سبيل الله كما فعل القاضي سليمان بن موسى بن سالم بن حسان بن أحمد بن عبد السلام الحميري الكلاعي : البلنسي ، خطب في جامع بلنسية ، واستقضي ، كان يحضر الغزاوت ويباشر القتال ، ويبلي فيه البلاء الحسن وآخرها الغزوة التي استشهد فيها بظاهر أنيشة الواقعة على بعد سبعة أميال في بلنسية ، حيث حضرها وحرّض المسلمين على القتال و لم يزل متقدماً الصوف حتى قتل سنة ٦٣٤هـ ـ ١٢٣٦م [٤] . كما قام القاضي أبو المكارم هبة

---

[١] المعجب ، ص٢٤٦-٢٤٧ .

[٢] تاريخ قضاة الأندلس ، ص١١٧-١١٨ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٦٧١ .

[٣] الإحاطة ، ج٢ ، ص٢٢٦-٢٢٩ . عن تلقي ابن عياض لعلم القضاء بالأندلس . الذيل والتكملة ، القسم الثاني ، السفر الخامس ، ص٤٤٨ .

[٤] الإحاطة ، ج٤ ، ص٢٩٥ ، ٣٠٣ . الذيل والتكملة ،بقية السفر الرابع ، ص٨٣-٨٩ .

الله بن الحسين قاضي إشبيلية بحضور غزوة شنترين إلى جانب الخليفة أبي يعقوب كما اصطحبه في غزو قفصة الثانية (١) . وإذا كان بعضهم قضى عمره محاولاً الوصول إلى منصب القضاء الذي يعتبر قبلة أنظار معظم الفقهاء ، فإن بعضهم الآخر ، اعتذر عن قبول هذا المنصب لما فيه من مسؤولية إحقاق العدل ، خاصة بعد أن ورد في تقلد القضاء من الحديث ما يزهد فيه ويوجبِ الفرار منه ، فقد روي عن النبي (ﷺ) أنه قال: «من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين» . وعن عائشة رض الله عنها قالت : سمعت النبي (ﷺ) ، يقول : «يجاء بالقاضي العدل يوم القيامة فيلقى من شدة الحساب ما يتمنى أنه لم يقضِ بين اثنين في تمرة قط» (٢) .

وهذا ما جعل بعض الفقهاء والعلماء في الأندلس لا ينظرون بعين الرضا إلى منصب القاضي ،وقد اختلف المسلمون في قبول القضاء ، فقبله بعضهم ورفضه بعضهم الآخر رفضاً قاطعاً رغم تمتعه بالصفات والقدرات التي تمكنه من مزاولة هذه المهنة وهذا ما فعله القاضي علي بن أحمد بن إسحاق بن أمية بن عبد الله بن عبد الرحمن بن معاوية ... بن عبد شمس بن عبد مناف الأموي : استقضي في شريش فتقلد القضاء مكرهاً وكان من أفاضل قضاة زمنه صدعاً للحق في قضائه وقياماً بالعدل في أحكامه لا تأخذه في الله لومة لائم ، ثم تخلى عن منصبه وتجرد لما كان بصدده من التدريس ونشر العلم مولده عام ٥٠٨هـ ــ ١١١٤م توفي سنة ٥٨٣هـ ــ ١١٨٧م (٣) . هذا وعلى الرغم من أهمية منصب القاضي فهو في النهاية مثل أي موظف يعينه الخليفة عندما يكون راضياً عنه ، ويعزله عندما يغضب منه بل على القاضي أن يكون دقيقاً جداً في مواقفه وآرائه حتى لا يتعرض للتشهير والأذى أو

---

(١) نفح الطيب ، ج٤ ، ص٦٨ .

(٢) النويري : نهاة الأرب في فنون الأدب ، دار الكتب ــ القاهرة ، م٦ ، ص٢٦٣-٢٦٤ .

(٣) الذيل والتكملة ، القسم الأول ، السفر الخامس ، ص١٦٩-١٧١ .

العقـــاب . ولعل قصة القاضي أبي الوليد بن رشد خير دليل على ذلك . فقد كان ابن رشـــد بـــلا ريب أعظم فلاسفة الإسلام ومفكريه في ذلك العصر ، ولد بقرطبة سنة ٥٢٠هـــ ـــ ١١٢٦م ، تولى قضاء إشبيلية سنة ٥٦٥هـــ ـــ ١١٦٩م ، ثم ولي قضاء قرطـــبة واســـتمر زهـــاء خمســـة وعشـــرين عامـــاً يتقلـــب في مناصـــب القضاء والإدارة في ظـــل الموحديـــن بالأندلس والمغرب ، و تولى أثناء ذلك منصب الطبيب الخاص للخليفة أبي يعقوب يوسف ثم لولده الخليفة يعقوب المنصور بعد وفاته . اتهمه بعـــض خصومه بالزندقة والخروج على شريعة الإسلام ، فأمر الخليفة المنصور بنفيه إلى بلـــده إليســـانة عـــلى مقربة من غرناطة ، وفرضت عليه رقابة شديدة ، ثم عفا عنه واســـترد مكانـــته في أواخـــر حياته ، واستدعي ثانية إلى مراكش ، وهناك توفي عام ٥٩٥هـــ ـــ ١١٩٨م [١] .

هـــذا مـــا كان شأن منصب القاضي وأهم أعماله ، أما بالنسبة للخطط التابعة للقضاء ، فهناك عدة خطط منها خطة الشورى ، ويبدو من مختلف الإشارات الخاصة بهـــا ، أنها أقل في الرتبة من القضاء ، ويختص صاحبها بإبداء الرأي والفتوى في مسائل الأحكام ، ويشغلها على الأغلب أحد الفقهاء ، وفي مواضع كثيرة من التكملة وغيرها مـــن المصـــادر ، يوصف صاحب هذه الوظيفة بأنه كان «فقيهاً مشاوراً» أو أنه كان فقـــيهاً يشـــاور في الأحكام ، أو أنه ولي «خطة الشورى» ، وممن ولي خطة الشورى محمـــد بن يوسف بن سعادة ، أو عبد الله ، أصله من بلنسية ، ولي قضاءها بعد انهيار الدولـــة المرابطية ، وكان قد ولي بها خطة الشورى ثم نقل إلى قضاء شاطبة توفي عام ٥٦٦هـــ ـــ ١١٧٠م [٢] . ومنهم عتيق بن محمد بن عطاف الأنصاري : بلنسي أو مرسي لاردي الأصل ، كان فقيهاً للمسائل ، تولى خطة الشورى ، ثم استقضاه الأمير

---

(١) الاستقصاء ، ج٢ ، ص١٩٣ ، نهاية الأندلس ، ص٤٣٧-٤٣٨ .

(٢) المعجم ، ص١٨٣-١٨٤ .

محمد بن سعد بن مردنيش على لرية ، توفي ببلنسية عام ٥٥٦هـ ـ ١١٦٠م [١] .

يستنتج مما سبق أن كل من يعين في خطة الشورى تنحصر مهمته في إفتاء الناس فيما يشكلُ عليهم في أمور الدين ، ومن هنا كان صاحب الشورى على اتصال دائم بالجماهير ، مما جعل القاضي أعظم منه هيبة [٢] . أما فيما يتعلق بخطة الأحكام فهي كما يبدو من خلال شرح صاحب التكملة وظيفة تابعة للقضاء شبيهة بخطة الشورى، وكان صاحبها يضطلع بالفتيا وإبداء الرأي في الأحكام الشرعية [٣] ، بل يعتبر صاحب الأحكام معاوناً لصاحب الشورى وممن تولى خطة الأحكام أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الصقر الأنصاري الخزرجي ، من سرقسطة ، كان محدثاً ، مقرئاً مجوداً ، حافظاً للفقه ذاكراً للمسائل ، عارفاً بأصولها ، متقدماً في علم الكلام ، عاقداً للشروط بصيراً بعللها ، حاذقاً بالأحكام ... هذا وما صار الأمر إلى الموحدين ، قدمه عبد المؤمن إلى الأحكام بحضرة مراكش ، فقام بها مدة ، ثم ولاه قضاء غرناطة ، ثم إشبيلية ، وكان قد ولي قبل ذلك خطة الأحكام في وادي آش ، مولده بالمرية سنة ٥٠٢هـ ـ ١١٠٨م وفاته بمراكش عام ٥٥٩هـ ـ ١١٦٣م [٤] . ومنهم أحمد بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبي أبو العباس من أهل المرسية ، وصاحب الأحكام بها ، سمع من أبي علي موطأ مالك ، وصحيحي البخاري ومسلم ، وجامع الترمذي ، والشمائل له ، وغير ذلك ، وتوفي سنة ٥٦٣هـ ـ ١١٦٧م [٥] .

---

[١] الذيل والتكملة ،القسم الأول ، السفر الخامس ، ص١٢٨-١٢٩ .

[٢] التكملة ، ج٢ ، ص٥٦٢ . التكملة ، ج١ ، ص٣٤ ، ٤٤ ، ٦٦ ، ٧١ ، ٨٦ ، ١٤٩ ، ٢٠٩ : ٢٤٣ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٦٢٨-٦٢٩ .

[٣] التكملة ، ج١ ، ص٧١ ، ٢٢٨ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٦٢٩ .

[٤] الإحاطة ، ج١ ، ص١٨٢-١٨٦ .

[٥] المعجم ، ص٤٥ .

ومنهم علي بن محمد بن عبد الودود ، كان شيخاً صالحاً عاقداً للشروط ، ولي الأحكام ، وخطبة الصلاة ببلده ، توفي سنة ٦٣٣هـ ـ ١٢٣٥م [١] . أما خطة المواريث فقد كانت خطة قائمة بذاتها بالرغم من كونها داخلة في اختصاص القضاء العام ، وهذا ما يشير إليه ابن الآبار في عدة مواضع من التكملة ، وهو ما يدل على أهمية المواريث ، والعناية في تطبيقها وإعطاء كل ذي حق حقه ، بل هذا يشير إلى أي مدى حرصت الدولة على إقامة العدل وإحقاق الحق بين مواطنيها منعاً للتشاحن والبغضاء [٢] . وممن تولى خطة المواريث علي بن محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن علي القضاعي ثم البلوي ، إشبيلي قرطبي الأصل ، كان كبير عاقدي الشروط بإشبيلية ، كامل المعرفة بالفقه وفرائض المواريث والحساب والعروض ولد سنة ٥٥٤هـ ـ ١١٥٩م ، توفي سنة ٦٢٣هـ ـ ١٢٢٦م [٣] .

ويلحق بتلك المناصب منصب الخطابة بجوامع المدن الكبرى ، وكان لا يلي هذا المنصب إلا الفقهاء والمبرزون في فن الخطابة ، ولا سيما في جوامع قواعد كإشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة وبلنسية ، وممن تولى منصب الخطابة محمد بن أحمد بن عبد الملك ، إشبيلي ، كان من سادات بيته الأفاضل ببلده ، جيد الخط والضبط ذاكراً للفقه ، خطب بجامع بلده دهراً طويلاً ، توفي عام ٦٣٥هـ ـ ١٢٣٧م ومولده ٥٦٤هـ ـ ١١٦٨م [٤] . ومنهم عتيق بن علي بن سعيد بن عبد الملك بن موسى بن عبد الله بن يعقوب بن أيوب بن شريح بن الحسن بن رزين العبدري ، كان مقرئاً

---

(١) الذيل ، القسم الأول ، السفر الخامس ، ص٣١٣ . انظر تاريخ الدولتين ، ص١٥ ، عن القاضي أبو محمد عبد الحق الإشبيلي.

(٢) التكملة ، ج١ ، ص٦٧ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٦٢٩ .

(٣) الذيل والتكملة ، السفر الأول ، القسم الخامس ، ص٣١٠-٣١١ .

(٤) الذيل والتكملة ، القسم الأول ، السفر الخامس ، ص٦٨٧-٦٨٩ ، ٦٤٩-٦٩٥ .

محموداً، مستحققاً بالأداء متقدماً في صناعة الإقراء ، فقيهاً حافظاً ذاكراً للمسائل ، خطب بجامع بلنسية توفي سنة ٦٠٠هـ ــ ١٢٠٣م ، مولده سنة ٥٣٣هـ ــ ١١٣٨م [١] .
ومنهم أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة المرسي ، سكن شاطبة ، وكان مشاركاً في علم القرآن وتفسيره ، وأديباً بليغاً وخطيباً فصيحاً ، ولي خطة الشورى بمرسية مضافة إلى الخطبة بجامعها ، وأخذ في إسماع الحديث وتدريس الفقه ثم ولي القضاء بها بعد انقراض دولة الملثمين ، ونقل إلى قضاء شاطبة فاتخذها وطناً ، وكان يسمع الحديث بها وبمرسية وبلنسية ، ويقيم الخطب أيام الجمع في جوامع هذه الأمصار الثلاثة متعاقبة مولده عام ٤٩٦هـ ــ ١١٠٣م ، توفي عام ٥٥٥هـ ــ ١١٦٠م [٢] ، كذلك كان يؤم الصلوات بجوامع المدن الكبرى «صاحب الصلاة» وكان منصبه يُعدّ من المناصب الدينية الكبيرة ، بل إنه يماثل منصب قاضي الجماعة في الأهمية ، حتى أنه كثيراً ما يلاحظ تولي بعض القضاة لهذه المهمة أو لهذا المنصب إلى جانب عملهم كقضاة وكان صاحب الصلاة يقوم بتعيين أئمة المساجد ، ويمدهم بإرشاداته وتوجيهاته ويفتش على أعمالهم ، وينظر في شكاياهم ويقضي في جميع مطالبهم ، وفي العادة كان صاحب الصلاة يختار من الفقهاء الخطباء ذوي الثقافة العالية وكثيراً ما كان يتقدم بنفسه لإلقاء الخطب في الجمع والأعياد بالمساجد الكبرى . مثل مسجد قرطبة ومسجد إشبيلية [٣] .

وممن تولى منصب صاحب الصلاة القاضي محمد بن حسن بن صاحب الصلاة الأنصاري المالقي استقضي بالحصون الغربية من بلده ، ثم ولي الصلاة والخطبة بالمسجد

---

(١) المصدر نفسه ، ص١٢٤ .

(٢) نفح الطيب ، ج٢ ، ص٣٥٧-٣٥٩ .

(٣) البيان المغرب ، ص١٩٣ .

الجـــامع داخل مالقة ،عن رغبة فيه وإجماع عليه ، توفي سنة ٦٠٩هـــ ـــ ١٢١٢م [١] ومـــن الجدير بالذكر أن القضاء كان يجري في عصر الموحدين وفق مذهب الإمام مالك بن أنس وهو مذهب الأندلس المفضل منذ أواخر القرن الثاني الهجري [٢] . بل إن جميع النصـــوص في المصـــادر تؤكد على أن مدار الفتيا ومصدر الأحكام عند الموحدين هو مذهـــب الإمام مالك [٣] . كما كان عليه الحال في عصر المرابطين ، ومن أهم القضاة الذيـــن شغلوا منصب القضاء في عصر الموحدين بالأندلس ، الاخوان عبد الله وداود ابنا حوط الله الأنصار الحارثي ، وأكبرهما عبد الله وهو عبد الله بن سليمان بن داود بن عبد الـــرحمن بـــن سليمان بن عمرو بن خلف بن حوط الله الأنصاري الحارثي ، ولد عام ٥٤٨هــــــ ـــ ١١٥٣م ، درس ببلنسية ومرسية وقرطبة وتجول في سائر قواعد الأندلس الأخـــرى ، وبـــرز في الحديث والقراءات ، وأخذ عن جمهرة من أقطاب العصر، منهم بمرسية أبو القاسم بن حبيش ، وبقرطبة أبو القاسم بن بشكوال ، وأبو العباس المجريطي، وأبـــو الوليد بن رشد وإشبيلية أبو بكر بن الجد ، وغير هؤلاء . وكان إماماً في صناعة الحديـــث ، مـــتفوقاً في الـــرواية والضبط ، حافظاً لأسماء الرجال متمكناً من التعديل والـــتجريح ، ولم يكن في وقته أبعد صيتاً منه ، وكان بالإضافة إلى ذلك متفوقاً في علم العربـــية كاتباً بليغاً ، تولى في أوقات مختلفة قضاء قرطبة وإشبيلية ومرسية وسبتة وسلا وغيرهـــا ، وألـــف كـــتاباً في «تســـمية شيوخ البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي والـــترمذي» ولكـــنه لم يكمـــل ، ووضـــع فهرساً حافلاً لشيوخه ،حدث وسمع منه الكـــثيرون مـــن اعلام عصره ، وتوفي بغرناطة ، وهو في طريقه إلى مرسية ، وذلك عام

---

(١) المرقبة العليا ، ص١١٥ .

(٢) الزهرات المنثورة ، ص١٢٩-١٣٠ .

(٣) الإحاطـــة ، ج٣ ، ص٤١٧-٤١٨ . الذيل والتكملة ـــ السفر الخامس ، القسم الثاني ، ص٦٣٥-٦٣٦ ، عن القضاة الذين عملوا وفق المذهب المالكي .

٦١٢هـ ـ ١٢١٥م ثم نقل إلى مالقة ودفن بها [١] ، وأما أخوه داود بن سليمان ابن داود ، فقد ولد باندة سنة ٥٦٠هـ ـ ١١٦٤م ودرس الحديث على أبيه وأخيه عبد الله ، وبرع مثله في الحديث ، وطاف بقواعد الأندلس طلباً للعلم، ورحل كذلك إلى سبتة وغيرها من بلاد العدوة ، وكان خبيراً بعقد الشروط . وممن أخذ عنهم أبو العباس المجريطي ، وابن بشكوال وأبو العباس بن مضاء ، وابن الفرس ، وأبو بكر بن زمنين وغيرهم . تولى قضاء سبتة وألمرية والجزيرة الخضراء ، ثم تولى قضاء بلنسية ، ومالقة [٢] وعرف أينما حل بالعلم والحلم والنَّزاهة ، وكان ورعاً متواضعاً ، لين الجانب يشاطره أخاه الشهرة وعلو المكانة ، وتوفي بمالقة سنة ٦٢١هـ ـ ١٢٢٤م [٣] .

والقاضي الفيلسوف أبو الوليد محمد بن احمد بن الإمام الفقيه القاضي أبي الوليد محمد بن أحمد بن رشد ،كان من أهل العلم والتفنن في المعارف ولي قضاء الجماعة بقرطبة ، وله تصانيف ومؤلفات كثيرة في الفروع والأصول والنحو والفلسفة ومن أهمها كتاب «البداية والنهاية» وكتاب «مناهج الأدلة في الكشف عن عقائد الملة» ، و«شرح الحمدانية» في الأصول . والكليات في الطب ، و«شرح رجز ابن سينا» ، و«كتاب فضل المقال ، فيما بين الفلسفة والشريعة من الاتصال» وغير ذلك . توفي في حدود سنة ٥٩٨هـ ـ ١٢٠١م [٤] .

عبد الله بن يحيى بن عبد الرحمن بن أحمد بن عبد الرحمن بن ربيع الأشعري .

---

[١] المرقبة العليا ، ص١١٢ . الإحاطة ، ج٣ ، ص٤١٦-٤١٧ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٦٥٦-٦٥٧ .

[٢] مالقة : مدينة بالأندلس من أعمال رية سورها على شاطئ البحر بين الجزيرة الخضراء وألمرية . معجم البلدان ، ج٥ ، ص٤٣ .

[٣] الإحاطة ، ج١ ، ص٥٠٣-٥٠٦ .

[٤] المرقبة العليا ، ص١١١ ، المغرب في حلى المغرب ، ج١ ، ص١٠٤-١٠٥ .

مـــن أهل قرطبة ، يكنى أبا القاسم ويعرف بابن ربيع كان كاتباً شاعراً ، نحوياً فقيهاً ، أصـــولياً ، ولي قضاء عدة مواضع من الأندلس ، منها مدينة شريش ورندة ومالقة ، ثم ولي قضـــاء الجماعـــة بغرناطة ، واستمر في ولايته غرناطة نحواً من سبعة أعوام توفي ٦٦٦هـــ ــ ١٢٦٧م [١] ، هذا ما كان بشأن القضاة والقضاء على عصر الموحدين في الأندلس [٢] .

---

[١] الإحاطة ، ج٣ ، ص٤١٧-٤١٨ .

[٢] من خلال استقراء المصادر ، لم أعثر على أية إشارة لمقر القاضي والعطاء وكيفية تنفيذ الأحكام وأنواع المشاكل المعروضة في هذا المجال .

ج- الثورات ضد الموحدين

انطلقت الثورات في الأندلس ضد الحكم الموحدي ، واختلفت نوعية هذه الثورات باختلاف الزمان والمكان ، بل إن بعضها كان استمراراً للمقاومة منذ نهاية المرابطين وكان هذا الاتجاه يدعو إلى تحرير الأندلس كلها من حكم المغاربة ، ويسعى إلى إعادة وحدتها الوطنية التي كانت عليها أيام الخلافة الأموية ، ويلاحظ ذلك الاتجاه في تلك الثورات والانتفاضات التي انبثقت هنا وهناك في أرجاء البلاد ، وقد تزعَّم هذا التيار أخيراً محمد بن سعد بن مردنيش في شرقي الأندلس ، فقد بقي وضع هذه المنطقة مختلفاً نوعاً ما عن غيرها من المناطق الأندلسية ، والسبب في ذلك يعود إلى تعدد القوى التي شاركت في دعم هذه الثورة ،والعامل الثاني هو وقوع الأمر بيد القوة الأكثر تماسكاً وترابطاً وتنظيماً ، وهي قوة محمد بن سعد بن مردنيش ، فقد استطاع النصارى أن يصطفوا محمد بن سعد بن مردنيش وصهره إبراهيم بن همشك وجعلوها أداة طيعة أقلقوا بها أمن الموحدين وراحتهم فكانا بحق حرباً ضد المسلمين ووجهاً من وجوه الحروب الصليبية أو ما يسمى بحرب الاستغلاب التي قامت بالأندلس ضد الوجود الإسلامي بشكل عام ، والمغربي بشكل خاص . فقد آل إلى ابن مردنيش حكم بلنسية ومرسية بشرق الأندلس بعد وفاة سيده عبد الرحمن بن عياض [1] ، كما

---

(1) المعجب ، ص٢٠٨-٢٠٩ .

استعان بجند من الأسبان وهيأ لهم جواً يتمتعون فيه بممارسة نمط الحياة الذي كان لهم ببلادهم ، ويبدو أنه كان يهدف من وراء جلب الجند واستكثارهم دعم جيشه ودولته وتقويتهما ضد الموحدين ، كما أصبح تابعاً لملكين إسبانيين مجاورين له ، وهما صاحب برشلونة رامون بيرنغوير ، وألفونسو السابع ملك قشتالة وعبر عن التبعية لهما بدفع أتاوة سنوية [1] لا بل أخذ النصارى يسخرون ابن مردنيش في تنفيذ خططهم ضد الموحدين ، دون أن يصطدموا بهم مباشرة ، فعندما استولى الخليفة عبد المؤمن على مدينة بجاية التي كانت على وشك السقوط بأيدي النورمان عام ٥٤٧هـ ـــ ١١٥٢م [2] ، كانت ردة فعل الأسبان دفع ابن مردنيش وتحريضه على حرب الموحدين بجنوب الأندلس فاستطاع ابن مردنيش الاستيلاء على وادي آش وبسطة التابعين للموحدين في سنة ٥٤٦هـ ـــ ١١٥١م .

وهكذا أصبح ابن مردنيش يواجه قواعد الموحدين في الجنوب والشرق [3] بعد ذلك تابع ابن مردنيش غزو بلاد الأندلس الخاضعة للموحدين بغية الاستيلاء عليها ، ففي سنة ٥٥٤هـ ـــ ١١٦٠م سار بقواته من مرسية ، وسارت معه قوات نصرانية للاستيلاء على مدينة جيان منتهزاً انشغال عبد المؤمن بفتح إفريقية ، لا بل كان موقفه هذا ردة فعل لقيام عبد المؤمن بضرب الحصار على مدينة المهدية وتضييق الخناق على الصليبيين فيها [4] ، وبعد أن استولى على جيان ، تمادى (ابن مردنيش) في طغيانه حيث سار من جيان للاستيلاء على مدينة قرطبة فضرب الحصار عليها ثم تركها واتجه بجيشه

---

(1) الإحاطة ، ج٢ ، ص١٤١-١٤٧ . تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٦٠-٢٦١ . الكامل ، ج١١ ، ص١٥٦ . عصر المرابطين والموحدين ، ج١ ، ص٣٦٧ .

(2) المعجب ، ص٢٠٦-٢٠٧ . الدولة الموحدية بالمغرب ، ص١٨٩ .

(3) نفح الطيب ، ج٦ ، ص٢٠٥ . الكامل ، ج١١ ، ص٤٦ ، ١٥٦-١٥٧ .

(4) المن بالإمامة ، ص١١٥-١١٦ .

إلى مديـــنة إشبيلية فحاصرها مدة ثلاثة أيام دون جدوى ، حيث أدرك مدى حصانتها فأقلع عنها [1] .

هذا ولا بد من الإشارة أن الذي ساعد على بقاء حكم ابن مردنيش واستمرارية ثورتـــه ضـــد الموحدين أكثر من ربع قرن ، عوامل متنوعة ، منها ــــ كما أشرنا من قـــبل ــــ علاقات الود والصداقة التي كانت تربطه بالأسبان ، بالإضافة إلى تبعيته لهم، كذلـــك بعـــد منطقته عن قاعدة الموحدين في مراكش التي وقعت في أقصى الغرب ، بالإضـــافة إلى استعانة واستيعابه للثوار في القواعد المجاورة للشرق عن طريق التحالف والتصـــاهر ، واتحـــاد قواهم مع قواته ، ومن أشهر هؤلاء وأكثرهم نشاطاً حربياً ضد الموحديـــن كان إبراهيم ابن همشك الذي قام في عام ٥٥٥هـــ ــــ ١١٦٠م بالخروج من جيان على رأس جيش كبير قاصداً مدينة قرطبة حيث هاجم سكانها [2] ثم حاصر المديـــنة ولكنه لم يستطع أن يحقق هدفه فانسحب واتجه إلى إشبيلية وبسبب حصانتها اتجـــه بقواتـــه إلى مديـــنة قرمونة ، وهي حصن إشبيلية من الشمال الشرقي فهاجمها واستولى عليها ما عدا قصبتها عام ٥٥٥هـــ ــــ ١١٦٠م ، هذا وذكر أن الخطيب أن ابن همشك بقي يحاصر الموحدين بقصبة قرمونة حتى استنزلهم على حكمه [3] بعد ذلك حـــاول ابـــن همشك الاستيلاء على مدينة إشبيلية ظل يهاجمها ويغزوها دون جدوى فأســـرع السيد أبو يعقوب يوسف واليها الموحدي إلى إنقاذها حيث أرسل جيشاً قوياً اتبعه بآخر واستطاعت القوتان أن تعيدا قرمونة التي بقيت تحت سيطرة ابن همشك مدة ســـنة تقريـــباً في النصـــف الأول من عام ٥٥٦هـــ ــــ ١١٦٠م [4] . وهكذا أخفق

---

[1] المصدر السابق ، ص١١٥-١٢٠ . عصر المرابطين والموحدين ، ج١ ، ص٣٧٤ .

[2] المن بالإمامة ، ص١٢٦-١٢٧ .

[3] البيان المغرب ، ص٥٧ . المن بالإمامة ، ص١٤٥-١٤٦ . تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٦١ .

[4] المـــن بالإمامـــة ، ص١٢٧-١٢٩ ، ١٨١-١٨٢ . انظر البيان المغرب ، ص٤٩ عن تاريخ استعادة قرمونة ، وهو مخالف لتاريخ المن بالإمامة .

الأســبان في محاولتهم زعزعة قوة الموحدين بغربي الأندلس ووسطه بل أخفق سعيهم لإنهـــاء الوجود الموحدي في الأندلس سواء عن طريق ابن مردنيش أو في شخص ابن همشك ، ولكن إخفاقهم هذا لم يحبط خططهم ومناوراتهم ضد الموحدين ، فقد دفعوا مجـــدداً ابن همشك إلى الهجوم على مدينة غرناطة حاضرة جنوب غربي الأندلس عام ٥٥٧هــ ـــ ١١٦١م التي استطاع أن يدخلها بخدعة حربية ساعده فيها بعض اليهود الـــناقمين عـــلى الحكم الموحدي ، ولكنه لم يتمكن من اقتحام القصبة ، وعندما علم الخلـــيفة عبد المؤمن بأمر هجوم ابن همشك على غرناطة أمر ابنه أبا سعيد بالعبور إلى الأندلس لإنقاذ غرناطة ، وعندئذ سارع ابن مردنيش إلى قتال الموحدين في حشد عظم مـــن جيان ومرسية إضافة إلى قوات النصارى المتحالفين ، ويبدو أن استعداد الموحدين جاء سريعاً و لم يكن كافياً لمجابهة القوات المتحالفة لذلك انهزموا أمامهم في موقع يدعى بمرج الرقاد عام ٥٥٧هــ ـــ ١١٦١م [1] .

وأثـــرت هذه الهزيمة في نفس الخليفة عبد المؤمن ، فجهز جيشاً كبيراً ، عبر إلى شـــبه الجزيـــرة بقـــيادة ابنه يوسف بن عبد المؤمن حيث نشبت بين الفريقين معركة فاصـــلة فـــوق جـــبل السبيكة المطل على غرناطة ، كان النصر فيها للموحدين عام ٥٥٧هـــــ ـــ ١١٦١م وكان لهذا الانتصار آثاره البعيدة في تحطيم آمال الصليبيين أو الأسـبان في دفع كل من ابن مردنيش وابن همشك ودعمهم ضد الموحدين من أجل اســتعادة الأندلـــس الإسلامية ، كما أعطت هذه المعركة مكانة ومركزاً مميزاً لمدينة غـــرناطة حيث أصدر الخليفة عبد المؤمن أوامره بتحصين المدينة وجعلها مقراً للجيوش الموحدية بالإضافة إلى نقل مركز الحكم الموحدي من إشبيلية إلى قرطبة [2] .

بعـــد الذي حدث انتقلت منطقة الصراع بين الموحدين وابن مردنيش إلى قطاع

---

(1) المن بالإمامة ، ص١٨٦-١٩٣ .

(2) المن بالإمامة ، ص١٨٦-١٩٣ .

قرطبة حيث كانت حملات ابن مردنيش المتكررة والمتوالية تهدد سلطان الموحدين في عاصمة الخلافة بالأندلس وفي إثر ذلك نشبت بين الفريقين معارك متوالية كان فيها التفوق للقوات الموحدية ، وتبعاً لذلك استمرت الجيوش الموحدية بالزحف نحو الجنوب الشرقي ، أي عبر المنطقة التي كان يسيطر عليها ابن مردنيش ، حيث وصلت إلى فحص مرسية ، وفي عام ٥٦٠هـ ـ ١١٦٤م عسكرت القوات الموحدية في منطقة تعرف باسم فحص الجلاب بالقرب من معسكر ابن مردنيش حيث نشبت بين الفريقين معركة طاحنة هزم فيها ابن مردنيش ، فانطلق بعدها فاراً إلى مرسية حيث امتنع بها ، وتعدّ هذه المعركة بداية النهاية بالنسبة لثورة ابن مردنيش وصراعه ضد الموحدين ، والذي زاد في ضعف ابن مردنيش هو خروج أتباعه عليه وانفصالهم عنه ، ومن أهمهم إبراهيم بن همشك الذي كان يعد أقوى قادة الأندلس في ذلك العصر [1] .

وفي تلك الظروف الخانقة لابن مردنيش وضع الموحدون الخطط اللازمة للقضاء نهائياً على ثورته ، فأعدت حملة كبيرة لهذا الغرض ، وقد رافق ابن همشك القوات الموحدية في حملتهم هذه ، وأخذ يرشدهم إلى الطرقات لتسهيل مهمتهم ، وضرب الموحدون الحصار حول مرسية ، وكان ابن مردنيش يخرج منها بقواته بين آونة وأخرى ويشتبك بين الموحدين في معارك طاحنة ، هذا ولم تمضِ عدة شهور حتى توفي ابن مردنيش وهو محاصر في مرسية آخر رجب عام ٥٦٧هـ ـ ١١٧٢م وفي أول رمضان قدم ابنه هلال إلى إشبيلية حيث نزل الخليفة أبو يعقوب مع عائلته وكبار حاشيته ، وأعلن عن الدخول في طاعة الموحدين [2] ، لقد كان ابن مردنيش يمثل ثورته ضد الموحدين كل

---

[1] المصدر السابق ، ص٢٧٠-٢٧٤ ، ٢٩٢-٢٩٣ ، ٣٧٥ ، ٣٨٨-٣٩٠ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ ، ٣٩٨-٤٠٢ . البيان المغرب ، ص٩٥-٩٦ .

[2] المن بالإمامة ، ص٤٠٢-٤٠٦ ، ٤٧٢-٤٧٤ . البيان المغرب ، ص٩٥-٩٦ . نفح الطيب ، ج٦ ، ص٢٢٢ . المعجب ، ص٢٥٠ . تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٧٠-٢٧١ .

مـــا كانـــت تشعر به الأندلس وتبطنه من آلام وآمال ، وتبعاً لذلك لا يسع المرء على ضـــوء هـــذه الأحـــداث إلا أن يصف ابن مردنيش بزعيم التيار الأندلسي الذي هب وسعى لتوحيد الأندلس تحت سيادته ، هذا وبانتهاء هذه الثورة لم تستتب الأمور تماماً بـــل انطلقـــت الثورات مجدداً ، فقد كان للنّزاع على الخلافة أثره الكبير في انطلاق الثورات في الأندلس مستغلة انقسامات الموحدين وضعفهم ، ومن تلك الثورات ثورة البياسي ، فبوفاة الخليفة يوسف المستنصر بالله عام ٦٢٠هـــ ـــ ١٢٢٣م اجتمع رأي أشياخ الموحدين على أن يقدموا مكانه للخلافة السيد أبا محمد عبد الواحد ابن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، ويرجع هذا الاختيار إلى حكمة مزدوجة أولاً لكي يكون أداة طـــيعة للزعماء الذين يقبضون ناصية الحكم ، وثانياً لكي تكون خلافته قصيرة الأمد ، أي حقـــبة انـــتقال يتمكن الأشياخ فيها أو خلالها من حسم خلافاتهم والاتفاق على الخلـــيفة الحقيقي وهكذا تمت البيعة ، ولكن لم تبقَ الأمور على حالها [(١)] ، ذلك أنه لم يمـــض شـــهران على بيعته في المغرب وجميع أنحاء الأندلس حتى ارتفعت المعارضة ضد بيعته في شرقي الأندلس ، وكان المعارض الآن هو بن أخيه السيد أبي محمد عبد الله بن يعقـــوب المنصور ، الذي كان والياً على مرسية ، كما كان للوزير أبا زيد بن يوجان دوراً كـــبيراً في إثارة تلك الانتفاضة حيث تقدم إلى السيد أبي محمد عبد الله ، وحذره من المبايعة للخليفة الجديد ، وقال له : إنهم بتنصيبهم عبد الواحد ، قد أخرجوا الإمامة عن عقب سيدنا المنصور [(٢)] .

وهكـــذا نهـــض السيد أبو محمد واستدعى أشياخ الموحدين والفقهاء والأعيان بمرســـية ودعاهم إلى مبايعته فلبوا دعوته وتسمى بالعادل ، عام ٦٢١هـــ ـــ ١٢٢٤م

---

(١) الحلـــل الموشية ، ص١٦٢ . المعجب ، ص٣٢٩-٣٣٠ . روض القرطاس ، ص٢٤٣ ، العبر ، م٦ ، ص٥٢٥ .

(٢) روض القرطاس ، ص٢٤٤ .

كما بايعه أخوته ولاة قرطبة وغرناطة ومالقة ، إضافة للسيد أبو محمد عبد الله بن أبي عبد الله محمد بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب جيان ، وهو الذي عرف فيما بعد باسم البياسي ، لقيامه ضد العادل ببياسة ، وكان سبب انضمامه للعادل ما قرره الخليفة عبد الواحد من عزله ، بعمه أبي الربيع بن أبي حفص ، لذلك انقض عليه وبايع العادل [1] . وبذلك استطاع العادل أن يحصل على تأييد سائر القواعد بالأندلس ، عدا بلنسية ، ودانية ، وشاطبة ، وهكذا خرج العادل من مرسية حيث سار إلى إشبيلية وكتب إلى أشياخ الموحدين بحضرة مراكش يدعوهم إلى بيعته وخلع عبد الواحد ، فلبوا مطلبه ، ودخلوا على الخليفة عبد الواحد وأرغموه على أن يعلن خلع نفسه عام ٦٢١هـ ـ ١٢٢٤م ، ثم قاموا بخنقه فكان بذلك أول من خلع وقتل من بني عبد المؤمن [2] من جهة أخرى لما بلغ أشياخ الموحدين بمراكش بيعة العادل [3] بالأندلس اختلفوا فيما بينهم أولاً ، ثم قرروا أمرهم فيما بعد وبعثوا ببيعتهم إلى العادل ، وفي تلك الأثناء اتخذت الأحداث بالأندلس وجهة أخرى لم تكن في الحسبان ، وكان لبيعة العادل أكبر الأثر في تطورها على هذا النحو ، ذلك أن السيد أبا محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن صاحب جيان ، لما رأى رفض أخيه أبي زيد والي بلنسية ودانية وشاطبة ، بيعة العادل واعتصامه بهذه القواعد الشرقية ، عاد بدوره فأعلن خلعه لطاعة ابن عمه العادل ودعا لنفسه وتلقب بالظافر ، وأطاعته جيان وبياسة وسائر أراضي تلك المنطقة ، فبادر العادل ، وبعث من إشبيلية أخاه أبا العلاء إدريس بن المنصور ، في قوة كبيرة من الموحدين لقتال السيد أبي محمد عبد الله وإخماد ثورته ، وهكذا حشد الموحدون جيوشهم بقيادة أبي العلاء واتجهوا إلى بياسة في أواخر

---

[1] العبر ، م٦ ، ص٥٢٦ . انظر البيان المغرب ، ص٢٤٨ في رواية أخرى أن عبد الله البياسي كان عند قيام العادل والياً على إشبيلية .

[2] البيان المغرب ، ص٢٤٧ . روض القرطاس ، ص٢٤٤ .

[3] العبر ، م٦ ، ص٥٢٦ .

عام ٦٢٠هـ ــ ١١٢٣م حيث حاصروها ، ولكن أبو العلاء خشي أن يباغته القشتاليون حلفاء البياسي ، لذلك ارتد بقواته إلى إشبيلية دون أن يحقق شيئاً من مهمته [١] ، وبعد ذلك بادر العادل إلى تجهيز جيش موحدي آخر أسندت قيادته إلى عثمان بن أبي حفص فسار هذا الجيش إلى بياسة ونزل على بعد خمسة أميال من جنوبي المدينة على مقربة من شمال الوادي الكبير فخرج إلى قتاله نحو مائة فارس من أصحاب البياسي إلى جانب قوة حلفائه من القشتاليين فسرى الرعب بين الموحدين عند رؤيتهم ، وبادروا إلى الفرار دون قتال وارتدوا إلى إشبيلية وبقي البياسي في بياسة دون منازع ، وقد احتل حلفاؤه القشتاليون قصبتها [٢] وهنا تبدو الأمور غير واضحة حول موقف البياسي وتحركاته ، ويبدو من مختلف الروايات أنه استطاع في تلك الآونة أن يمد سيطرته فتجاوزا منطقة بياسة إلى مدينة قرطبة [٣] وعلى أي حال فقد كان من الواضح أن البياسي كان يحتل في الأندلس الوسطى مركزاً له خطره وكان منافساً قوياً للعادل يكاد ينتزع الأمر منه وزاد من ضعف مركز العادل غزوة قام بها النصارى في أراضي الشرق الواقعة بغربي إشبيلية ، فاجتمع الناس وطالبوا العادل وأشياخ الموحدين بجمع الصفوف للقاء العدو ، فاستنفر العادل الناس واحتشدت منهم جموع كبيرة ومعظمهم من غير سلاح ، واجتمع من الفرسان نحو مائة وسارت هذه الجموع إلى حيث قوات النصارى على مقربة من طليطلة ، وكان النصارى في قوة كبيرة كاملة الأهبة والسلاح فانقضوا على هذه الجموع الهزيلة ، المفككة من المسلمين عام ٦٢٢هـ ــ ١٢٢٤م ففتكوا بها وأوسعوها قتلاً وأسراً [٤] هذا ولم يمض شهران على ذلك حتى وقع في شرقي الأندلس اعتداء صليبي آخر في مكان يعرف بعفص هزم فيه

---

(١) البيان المغرب ، ص٢٤٨ . روض القرطاس ، ص٢٤٦ . الروض المعطار ، ص١٢١ .

(٢) الروض المعطار ، ص١٢١ .

(٣) البيان المغرب ، ص٢٤٩ . روض القرطاس ، ص٢٤٦ . الروض المعطار ، ص١٢١ .

(٤) الروض المعطار ، ص١٢١-١٢٢ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٣٤٥ .

المسلمون مرة أخرى ، عام ٦٢٢هـ ـ ١٢٢٤م [١] في تلك الأثناء ، كانت بيعات الموحدين بمراكش والمغرب ، قد وصلت إلى العادل بإشبيلية وكان الخليفة عبد الواحد قد خلع ولقي مصرعه ، وأصبح عرش الخلافة الموحدية خالياً ، فرأى العادل أن الوقت قد حان لكي يعبر إلى المغرب خصوصاً وقد أخذت الحوادث تتعقد في الأندلس، على أثر إخفاقه في التغلب على البياسي ، وفي رد الأسبان عن أراضي إشبيلية ، فندب أخاه أبا العلاء إدريس للنظر في شؤون الأندلس وغادر إشبيلية وعبر البحر إلى المغرب في شهر ذي القعدة من عام ٦٢١هـ ـ ١٢٢٤م [٢]، وهكذا غادر العادل الأندلس ، بعد أن ترك أخاه أبا العلاء إدريس في إشبيلية يواجه المشكلات والاضطرابات هناك .

وكانت الأندلس قد غدت كما مر آنفاً ، مذ أعلن العادل دعوته بالخلافة ، مسرحاً لصراع المتنافسين . وكانت حركة البياسي أبي محمد عبد الله بن محمد بن يوسف بن عبد المؤمن ، في أواسط الأندلس ، قد اتسع نطاقها ، وكادت تمتد بعد الأندلس الوسطى ، إلى إشبيلية ، والأندلس الغربية ، وكان البياسي قد لجأ كما سلف إلى ملك قشتالة يستنصره ، ويطلب عونه ضد أعدائه ، وبالمقابل كان فرناندو ، أي ملك قشتالة ، يدرك تماماً مزايا هذا التدخل في حوادث الأندلس ، وفي حروبها الأهلية ، وما يترتب عليه من مكاسب سياسية ، وإقليمية كبيرة ، لذلك لبى طلب البياسي وأرسل إليه بالإمداد ، وامتنع البياسي بمدينة بياسة ثم خرج مع حليفه ملك قشتالة ليساعده على الاستيلاء على أول قاعدة أندلسية من قواعد هذه المنطقة ، وهي مدينة قيجاطة الواقعة جنوب شرق بياسة ، وكان فرناندو الثالث قد خرج بجيشه في أواخر عام ٦٢٢هـ ـ ١٢٢٤م واخترق أراضي أبذة قاصداً إلى قيجاطة ، فاقتحمها، وهدم معظم أسوارها ، كما قتل الألوف من أهلها إضافة إلى قتل معظم حاميتها الموحدية

---

(١) الروض المعطار ، ص٤١٥ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٣٥٥ .

(٢) روض القرطاس ، ص٢٤٦-٢٤٧ . العبر ، م٦ ، ص٥٢٧ .

وأسرهم ، كما استطاع الاستيلاء على عدد من حصون المنطقة ثم سار بعد ذلك ومعه حليفه البياسي فعاث في أراضي جيان وقتل من أهلها ما يقدر بألف وخمسمائة ، وبعد ذلــك عــاد ملك قشتالة في قواته مثقلاً بالغنائم والأسرى عند اقتراب فصل الشتاء ، حيث عبر نهر الوادي الكبير عائداً إلى بلاده ، ثم أعاد الكرة عام ٦٢٣هـــ ـــ ١٢٢٥م حيــث خــرج في جــيش ضــخم من قشتالة ، وعبر ممر موردادال بجبال سييرامورنيا (جــبل الشارات) ونزل في سهل العقاب وعلى مقربة من شمالي بياسة ، حيث أرسل إلى البياســي يســتدعيه للانضــمام إليه ، فهرع إلى لقائه ، وقدم إليه الطاعة بصفة رسمــية [1] وعــلى إثــر ذلك اتجه ملك قشتالة البياسي إلى مدينة جيان وهو يخرب الأراضــي التي يمر بها ، ما عدا تلك التي يسيطر البياسي عليها ، ولما وصل إلى جيان ضــرب حولها الحصار ، وأخذ القشتاليون بمهاجمتها دون جدوى ، وكرر القشتاليون هجماتهم على المدينة وهم في كل مرة يرتدون عنها خائبين وأخيراً اضطر ملك قشتالة أن يــرفع الحصــار عن المدينة ويرحل عنها [2] ، وبعد ذلك سار ملك قشتالة ومعه البياســي إلى القــبذاق فاستولى عليها وسلمها لحليفه إذ كانت من أملاكه ، ثم سار جــنوباً واســتولى عــلى عــدة مناطق ، بعدها تابع سيره إلى الشمال باتجاه غرناطة وحاصــرها ، ففاوضه أهلها على فك الحصار مقابل أن يسلموه ألفاً وثلاثمائة أسير من الأســبان كانوا لديهم ، وبعد أن تم الاتفاق انسحب ملك قشتالة مع قواته شمالاً حتى اقترب من بياسة وهنالك قام البياسي بتسليمه حصن مرتش وأندوجر وفقاً لعهده الذي أخذه على نفسه [3] .

بعــد الذي حصل شعر البياسي بقوة نفوذه وتوطد مركزه ، لذلك سار بقواته

---

(1) البيان المغرب ، ص٢٤٩ . الروض المعطار ، ص١٢١ ، ٤٨٨ . روض القرطاس ، ص٢٤٩ .

(2) عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٣٥٨ .

(3) الروض المعطار ، ص١٢٢ ، ٤٨٨ ، ٥١٣ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٣٥٩ .

ومعـــه جيش من الأسبان تقدره الرواية بعشرة آلاف [1] باتجاه إشبيلية حيث عبر نهر الوادي الكبير فخرجت القوات الموحدية لصد الهجوم حيث التقى الفريقان على مقربة من طليطلة فهزم الموحدون وأهل إشبيلية هزيمة ساحقة [2] ، وكانت نتيجة هذا النصر أن خضـــعت معظم البلاد والحصون الواقعة شرقاً بين إشبيلية وقرطبة لنفوذ البياسي ، بـــل إن أهـــل مدينة قرطبة ، حينما رأوا تفوق البياسي على هذا النحو خلعوا طاعة حـــاكمهم الموحدي ، وأعلنوا طاعتهم للبياسي ، أثناء ذلك عاد فرناندو الثالث فعبر بقواته إلى أراضي الأندلس مرة أخرى ، واستدعى إلياس وطلب إليه أن يسلمه مجموعة مـــن الحصون التي يرغب الاستيلاء عليها في منطقة قرطبة ، فوعد البياسي بأن يسلمه إياهـــا [3] . هذا ومن الملاحظ أن البياسي لم يقنع بالمكاسب التي حصل عليها متمثلة باســـتقراره بقرطـــبة وسيطرته على معظم نواحي الأندلس الوسطى ، ولكنه طمح أن يســـتولي عـــلى إشبيلية ذاتها ، بالإضافة إلى رغبته في القضاء نهائياً على نفوذ منافسه العـــادل وأخيه أبي العلاء ، لذلك سار بقواته مجدداً باتجاه إشبيلية وحاول أن يضرب حولهـــا الحصـــار ، حيث خرج واليها أبو العلاء مع حشود الموحدين وأهل المدينة ، ونشـــبت بـــين الفـــريقين معركة عنيفة هزم فيها البياسي ، فارتد خائباً باتجاه قرطبة عام ٦٢٣هـــ ــ ١٢٢٦م .

مما تقدم يتضح أنه كان لهذا النصر الذي أحرزته القوات الموحدية على البياسي نتائج هامة ،فقد ارتدت طلياطة وحصن القصر ، وبقية الحصون والبلاد الممتدة شرقي إشـــبيلية عن طاعة البياسي ، وعادت إلى طاعة الخليفة العادل [4] ، وبعد الذي حدث

---

(1) روض القرطاس ، ص٢٤٦ .

(2) الروض المعطار ، ص١٢١ ، ٣٩٥ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٣٥٩ .

(3) الروض المعطار ، ص١٢١ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٣٦٠ .

(4) البيان المغرب ، ص٢٥٢ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٣٦٠ .

خـــرج فرناندو الثالث في قواته مرة أخرى ، وكان هدفه الاستيلاء على حصن قبالة ، وهـــو مـــن حصون الحدود الواقعة في شمالي قرطبة ، وكان البياسي قد وصل في ذلك الوقـــت إلى قرطـــبة منهزماً ، وكان أهل قرطبة لما رأوا تماديه في محالفة النصارى وقد خشـــوا أن يقوم بتسليم قرطبة للنصارى ، لذلك ثاروا عليها ففر من المدينة ولحقوا به وطـــاردوه وحاصروه في الحصن ، ثم اقتحموه ، وقتلوه وأرسلوا برأسه إلى السيد أبي العلاء بإشبيلية فأرسله بدوره مع كتاب إلى أخيه العادل بمراكش ، فرد العادل بكتاب تضـــمن تعيين أخيه أبي العلاء والياً على قرطبة بالإضافة إلى إشبيلية [1] وهكذا انهارت ثـــورة البياسي بعد أن استمرت ثلاثة أعوام تبث عوامل الاضطراب والدمار في شرقي قرطـــبة وفي شمالهـــا ، وقـــد اقتطعوا منها بالفعل بمجموعة كبيرة كان ضياعها سبباً في إضـــعاف خطوط الدفاع عن قرطبة والتمهيد لسقوطها [2] ، بعد القضاء على هاتين الـــثورتين لم تستقر الأمور في الأندلس كما يفترض بل حدثت تطورات جديدة على الصـــعيدين الأندلسي والإسباني أدت إلى انتفاض الثورات مجدداً ، ويمكن تفصيل هذه الأحـــداث بعدة نواحي ، منها موقعة العقاب [3] التي هزم فيها الموحدون هزيمة شنيعة أمـــام الأســـبان ، ولكن آثارها لم تظهر مباشرة لانشغال كل من الموحدين والأسبان بانقســـاماتهم الداخلـــية ، إنما بعد مضي حوالي ثلاثة عشرة عاما ، تمخضت أوضاع الأســـبان عن تمكن دولتين لهم من الاستعداد والقوة لمتابعة حرب الاستغلاب ، وبينما كـــان اتجـــاه سير الأحداث في الطرف الموحدي ، يؤدي إلى زيادة ضعف الموحدين وإغراقهم في خضم موجة الانقسام الداخلي ، ظهرت في الجانب الإسباني دولة أراغون في ظـــل خـــايمي الأول ، كقـــوة مستعدة لالتهام الأندلس ، وفي وسط شبه الجزيرة

---

(1) البيان المغرب ، ص٢٥٢ . الروض المعطار ، ص١٢١ .

(2) البيان المغرب ، ص٢٤٩-٢٥٠ . الروض المعطار ، ص١٢١ .

(3) روض القرطاس ، ص٢٧٢ .

اندفعت دولة قشتالة بقيادة فرناندو الثالث لتحول ما تبقى من الأندلس إلى أراضٍ خاضعة لها [١] .

وهكذا اهتزت الأندلس نتيجة لذلك بسلسلة متواصلة من الأحداث والثورات ، ولكنها كانت متناثرة ، متنافسة ، متخاصمة ، تفرق بينها الأطماع الخاصة ، وإن كانت تجمع بينها رابطة الغرض المشترك ، وهو تحرير الأندلس من حكم الموحدين ، وحمايتها من عدوان الأسبان ، وهكذا انطلقت الثورات من منطقة التخوم ، التي كانت تتلقى ضربات الأسبان دون أن تجد من الموحدين ناصراً أو مدافعاً ، وانبعثت الشرارة الأولى من بلنسية في الشرق ، بزعامة أبو جميل زيان بن مردنيش ، سليل الأسرة التي قاومت فيما مضى دخول الموحدين إلى شرق الأندلس أكثر من ربع قرن من الزمان [٢] حيث ثار عام ٦٢٥هـ ـ ١٢٢٨م واعتصم ببلدة أبذة ثم احتل بلنسية داعياً للعباسيين [٣] .

ومن الجدير بالذكر أن معظم المصادر تشير إلى أن سبب ثورة زيان بن مردنيش هو تخاذل والي بلنسية الموحدي السيد أبو زيد وضعفه أمام ملك قشتالة ، وهكذا ثار عليه ثم قام بطرده من المدينة [٤] بعد ذلك أخذ زيان يسير بقواته للاستيلاء على بعض الجهات والقواعد القريبة لدعم ثورته ، فاستولى على العديد من المناطق [٥] ، وهكذا عمت الثورة بل الفتنة شرقي الأندلس وسرى الاضطراب إلى سائر أنحاء البلاد ، فاستغل السيد أبو زيد الفرصة وسار إلى ملك أرغونة ليستعين به على استرداد بلنسية،

---

(١) Conzalez. Les Conquistas de Fernando III en Andalucia, Madrid 1946, p.6-7 .

(٢) المن بالإمامة ، ص٤٧١-٤٧٣ ، المعجب ، ص٢٥٠ .

(٣) تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٧٢ .

(٤) الحلة السيراء ، ج٢ ، حاشية ص٣٠٤ .

(٥) الحلة السيراء ، ج٢ ، حاشية ص٣٠٤ .

فأحسن ملك أرغونة استقباله واجتمعا في قلعة أيوب عام ٦٢٧هـ ـــ ١٢٢٩م حيث عقـــدت بين الفريقين اتفاقية نص فيها على أن يعطي السيد أبو زيد من سائر الأراضي والأماكن والحصون التي سيغنمها سواء بالقوة أو الرضى ، مقدار الربع إلى الملك خايمة الأول ، وأن يقـــوم الملك خايمة تأكيداً لعهوده بحماية السيد أبي زيد ضد أعدائه [١] .

بعد ذلك سار السيد أبو زيد مع القوات الصليبية لاسترداد مدينتي بلنسية ومرسية ، ثم لقتال أبي جمال زيان ، لكنه وجد أن الأمور في الأندلس قد تطورت بسرعة لغير صالح الموحديـــن وأدرك استحالة تنفيذ اتفاقه مع ملك أرغون ، فعاد وشرح للملك أحوال البلاد وعرض عليه أن يقبله تابعاً له على بعض الحصون ، فوافق الملك وعينه على أحد الحصـــون التابعة لـــه ، وإن دل هذا على شيء فهو يشير إلى مدى الضعف الذي بلغه ولاة الموحديـــن ومدى تهاونهم وعدم تقديرهم لعواقب الأمور ، وما كانت تجره عبرة هذه الاتفاقيات والتنازلات من أخطار على الوجود الإسلامي في الأندلس بشكل عام، وعـــلى ملكية الأراضي الأندلسية بشكل خاص . في تلك الأثناء كان ابن الآبار يعمل كاتباً للسيد أبي زيد منذ أن كان والياً على بلنسية ، فلما أقام السيد أبو زيد عند ملك أرغون تخلى عنه بسبب إقدامه على هذا العمل وعاد إلى بلنسية حيث عمل كاتباً لأبي جميل زيان [٢] . بعد الذي حدث رأى ملك أرغون خايمة الأول أن ينتهز فرصة لجوء السـيد أبي زيـــد إليه ، فسار للاستيلاء على بلنسية وحصونها عام ٦٣٠-٦٣١هـــ / ١٢٣٣م حيـــث استولى على العديد من الحصون ، ثم عاد في العام التالي فاستولى على مصارة بلنسية وعلى حصني منكادة ومشروس [٣] ، ولم يستطع الأمير زيان منع ملك أرغونـــة من الاستيلاء على هذه الحصون ، لكنه خشي أن يستولي على حصن أنيشة

---

(١) الحلة السيراء ، ج٢ ، ص٢٠٥ ، حاشية . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٣٩٧ .

(٢) الحلة السيراء ، ج١ ، ص٣٠-٣١ ، ج٢ ، ص٣٠٥ .

(٣) عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٤٤٠-٤٤٢ .

الواقـــع عـــلى مقربة من شمالي بلنسية ، وهو من أهم حصونها الأمامية ، فأمر بهدمه ، ولكـــن ملك أرغونة أدرك معنى هدم الحصن ، لذلك أصر على احتلال موقعه وسار بقواتـــه ومعه والي بلنسية السالف السيد أبو زيد واحتل الملك مكان الحصن وبنى عليه حصناً جديداً ووضع فيه حامية صليبية [1] حيث أخذت تهاجم المسلمين وتغزو بلنسية، بعدهـــا ســـار ملك أرغونة بقواته للاستيلاء على بلنسية حيث حاصرها فاستنجد أبو جمـــيل زيان بالأمير أبي زكريا الحفصي في تونس فبعث إليه أسطولاً ولكن لم يستطع مســـاعدته بســـبب الحصـــار والمحكم عليه . وتبعاً لذلك استسلمت بلنسية في سنة ٦٣٦هـــ ـــ ١٢٣٨م [2] . وهكـــذا ســـقطت في أيدي الصليبيين بعد أن حكمها المسلمون منذ الفتح مدة خمسة قرون وربع القرن . سطعت خلالها في شرقي الأندلس وتزعمت قواعده ، وشغلت أعظم دور في أحداثه وكانت أعظم مركز للعلوم والآداب في شـــرقي شبه الجزيرة ، وبعدها سار أبو جميل زيان بأهله إلى جزيرة شقر فنَزل بها ، واتخذها مركزاً له لكنه لم يبقَ بها حيث سار إليه أحد قواد ملك أرغونة فأخرجه منها، فسار إلى مدينة دانية فاتخذها مركزاً له [3] .

كما فرض سيطرته على مدينة مرسية حيث سار إليها بقواته عام ٦٣٦هـــ ـــ ١٢٣٩م واســـتولى عليها بمساعدة أهلها كما تمكن من القبض على حاكمها ، ثم أخذ بـــيعة أهـــل مرســـية للحفصيين بإفريقية [4] ورداً على ذلك قام الأمير أبو زكريا عام

---

(١) المصدر السابق ، ج١ ، ص٣٣-٣٤ .

(٢) الإحاطـــة ، ج٢ ، ص٩٨ . الحلـــة الســـيراء ، ج٢ ، ص٣٠٥-٣٠٦ . تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٣٣٧، العبر ، م٦ ، ص٦٠١-٦٠٤ .

(٣) العبر ، م٦ ، ص٦٠٤-٦٠٥ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٤٥٦-٤٥٧ .

(٤) البـــيان المغرب ، ص٣٥٤ . الحلة السيراء ، ج٢ ، ص٣٠٨، ٣١٠ ، العبر ، م٤ ، ص٣٦١ ، م٦ ، ص٦٠٥ .

٦٣٧هـ ـــ ١٢٤٠م بإرسال مرسوم إلى أبي جميل زيان يتضمن تقليده ولاية شرقي الأندلس ، ولكن ولايته عليه لم تستمر طويلاً فقد خلعه أواخر العام المذكور الواثق بالله محمد بن هود الذي ثار على سياسة إعلان الولاء والطاعة للحفصيين في إفريقية [١] ، هذا ما كان بشأن ثورة أبي جميل زيان بن مردنيش .

● ثورة ابن هود :

إلى الجنوب من بلنسية وفي منطقة مرسية بالتحديد قامت ثورة أخرى على الموحدين . كان صاحبها المقدم الغشتي الذي تحالف مع محمد بن يوسف بن هود أحد كبار الجند في منطقة مرسية ، ولم تلبث جميع عصابات المنطقة أن انضوت تحت لواء هاتين الشخصيتين . ومما يجب الإشارة إليه أنه كان لتحالف الخليفة المأمون مع ملك قشتالة ، وتنازله له عن عدد من الحصون الأندلسية بالإضافة إلى دفعه مبلغاً من المال ، وتعهده أن يمنح النصارى في مراكش امتيازات خاصة وعديدة ، مقابل تقديم المساعدة له من أجل محاربة خصومه [٢] أثراً كبيراً في إثارة الدافع الوطني في نفوس الأندلسيين كما استغل ابن هود هذا الموقف لصالحه ،وأعطى دعوته دفعاً وقوة استطاع من خلالها أن يدفع الأندلسيين إلى الانضواء تحت لوائه وسيطرته [٣] ، وتبعاً لذلك نهض مع رجاله إلى موقع يعرف بالصخيرات بالقرب من مرسية وهنالك بايعه أنصاره بالإمارة فذاع أمره وسارع كثير من الفرسان والجند بالانضمام إليه ، فسارع بالزحف إلى مرسية فهزم واليها واعتقله في رجب عام ٦٢٥هـ ـــ ١٢٢٧م وعلى إثر ذلك خرج إليه السيد أبو زيد والي بلنسية بقواته فهزمه ابن هود واستولى على محلته ، ولكنه لم

---

(١) العبر ، م٦ ، ص٦٠٥ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٤٥٨ .

(٢) البيان المغرب ، ص٢٥٥-٢٥٧ . الإحاطة ، ج٢ ، ص١٢٨-١٢٩ . تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٧٨-٢٧٩ .

(٣) نفح الطيب ، ج١ ، ص٤٢٠-٤٢١ .

يحـــاول دخول بلنسية حيث عاد إلى مرسية ، ودخلها وهو يرفع راية سوداء عباسية ، كمـــا قـــبض على واليها [1] بعد الذي حدث بويع ابن هود بمرسية في رمضان سنة ٦٢٥هـــ ـــ ١٢٢٨م وتلقـــب بأمير المسلمين ومعز الدين ، ودعا للخليفة العباسي المستنصر بالله [2] ويبدو أن ابن هود آثر الانضواء تحت راية الخلافة العباسية للاتشاح بـــثوب الشرعية في انتحال الولاية وفي محاربة الموحدين وهو قد أعلن أنه سوف يعمل عـــلى تحرير الأندلس من نير الموحدين ومن عدوان الصليبيين معاً ، وسرعان ما قوي أمـــره وخضعت لسيطرته من قواعد الشرق كل من شاطبة وجزيرة شقر وما والاها ، وأعلنـــت عن طاعته عدة من قواعد الأندلس الوسطى والجنوبية مثل جيان وقرطبة ، وكذلك أطاعته غرناطة ومالقة والمرية ، ولما ذاع أمر ابن هود ووقف السيد أبو العلاء بإشبيلية ـــ وكان يومئذ قد غدا الخليفة المأمون ـــ على ما حدث في الشرق من هزيمة الموحدين وضياع مرسية أهمه ذلك ، وكان على وشك العبور إلى العدوة فآثر ألا يبادر إلى الشرق لحسم الأمر قبل استفحاله ، فغادر إشبيلية وسار في بعض قواته نحو مرسية، وهنا تختلف الروايات حول ما حدث بينه وبين ابن هود ، فهناك قول بأنه اشتبك مع ابن هود على مقربة من مرسية في معركة هزم فيها ابن هود ، وارتد إلى مرسية فامتنع بهـــا ، وذلك في أواخر عام ٦٢٥هـــ ـــ ١٢٢٨م وعاد المأمون ظافراً إلى إشبيلية [3] ، وفي روايـــة أخرى أنه لم يقع قتال ، ولكن المأمون حاصر مرسية حيناً فامتنعت عليه ، فكـــر عنها إلى إشبيلية ، وذلك في أوائل عام ٦٢٦هـــ ـــ ١٢٢٩م [4] هذا وما كاد أبو العـــلاء المـــأمون يغـــادر إشـــبيلية ليعـــبر البحر إلى العدوة حتى اجتمع أهل إشبيلية عام

---

[1] الحلة السيراء ، ج٢ ، ص٢٤٩ . العبر ، م٦ ، ص٣٦٠-٣٦٣ .

[2] البيان المغرب ، ص٢٥٧-٢٥٨ . العبر ، م٤ ، ص٣٦٤ . روض القرطاس ، ص٢٧٤ .

[3] البيان المغرب ، ص٢٥٨ ، ٢٧٠ ، العبر ، م٤ ، ص٣٦٢ .

[4] عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٣٩٢ .

٦٢٦هـ ــ ١٢٢٨م وأعلنوا خلع طاعة الدولة الموحدية والاعتراف بطاعة ابن هود في ظل الخلافة العباسية [١] ، و تبعاً لذلك سار ابن هود بقواته في إثر الخليفة المأمون ، فلقيه في جزيرة طريف يهم بالعبور إلى المغرب ، فنشبت بينهما معركة عام ٦٢٦هـ ــ ١٢٢٩م عرفت بموقعة طريف أسفرت عن هزيمة الخليفة المأمون وعبوره البحر إلى المغرب ، ونتيجة لذلك استولى ابن هود على جبل الفتح والجزيرة الخضراء [٢] كما استطاع تملك إشبيلية ورجعت قرطبة إلى طاعته ، وتملك غرناطة ومالقة ودانت له البلاد حيث عين عليها ولاة من قبله [٣] وهكذا اتسع نطاق الدعوة الهودية ، وشملت أواسط الأندلس وغربيها ، وأخذت الأندلس كلها تتطلع إلى لواء هذا الزعيم الأندلسي الجديد ، وتأمل أن يكون حاميها وقائدها ، ونتيجة لذلك لم يبقَ للموحدين سلطان على معظم مناطق الأندلس ، أما بقايا جند الموحدين فقد اعتدى عليهم أهل الأندلس بالقتل وأجلوهم واستأصلوهم إلاّ من استطاع الهروب للنجاة بنفسه [٤] ، وبذلك أصبح ابن هود يملك بلاد الأندلس كلها ما عدا بلنسية ومدينة لبلة، فقد استبد أبو جميل زيان بمدينة بلنسية ، وسرعان ما اضطرمت الفتنة بين بني زيان وابن هود وزحف ابن هود على بلنسية فخرج زيان للقائه فكانت عليه الهزيمة وتبعه ابن هود إلى بلنسية فامتنعت عليه [٥] أما بالنسبة لابن محفوظ صاحب لبلة فقد رفض هو الآخر إعلان الولاء والطاعة لابن هود ، فاستمر على ولائه للموحدين ، لذلك سار ابن هود بقواته وحاصر ابن محفوظ في مدينة لبلة ، لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها ، فقد

---

(١) البيان المغرب ، ص٢٦٩-٢٧٠ . الاستقصاء ، ج٢ ، ص٢١٠ .

(٢) الحلة السيراء ، ج٢ ، ص٣٠٣-٣٠٤ . الإحاطة ، ج٢ ، ص١٣١ .

(٣) الإحاطة ، ج٢ ، ص١٢٩-١٣٠ . تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٧٧، ٢٧٩-٢٨٠ .

(٤) البيان المغرب ، ص٢٦٩ .

(٥) البيان المغرب ، ص٢٦٩-٢٧٠ . العبر ، م٤ ، ص٣٦٣ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٣٩٥ .

وصـــل ملك قشتالة بقواته لنجدة ابن محفوظ ، فتراجع ابن هود عن حصار لبلة وعاد بقواته [١] ، وفي تلك الآونة قامت بعض بلاد المغرب بإعلان الولاء والطاعة لابن هود، ففــي عــام ٦٢٩هـــ ـــ ١١٣٢م ثار والي سبتة السيد أبو موسى عمران على أخيه الخلــيفة المــأمون وطلب معونة ابن هود ، ثم سار إلى الأندلس حيث قدم لابن هود فــروض الطاعة والولاء كما تنازل له عن مدينة سبتة [٢] ، وأيضاً أعلنت مدينة رباط الفتح بسلا الولاء والطاعة [٣] وبذلك استطاع ابن هود إقامة دولة شملت معظم مناطق الأندلــس بالإضافة إلى بعض مناطق المغرب حيث أقام لها جهازاً إدارياً ، بالإضافة إلى أســطول ســلم قــيادته للفشتي ، ولكن الإخفاق سرعان ما لحق بزعامة هذه الدولة فالفشتي احتل سبتة بالأسطول ، وما لبثت أن ثارت عليه فهرب ، وكانت نهايته . أما ابن هود الذي تمكن من تحقيق الانتصارات على الموحدين فقد لقي هزائم متوالية أمام الأسبان ، وتبين أن قواته العسكرية لم تكن كافية ، أو لم يكن لديه هو من الحكمة ما يلــزم لتوجــيهها بالشــكل الملائم لتأمين الحماية للناس ، الذين انضموا إليه أملاً في الحصــول عليها ، أضف إلى ذلك أن جهازه الإداري لم يكن كفئاً ولا نزيهاً ، وعجز عــن التوفــيق بين حاجات الدولة ونفقاتها من جهة ، وتطلعات الناس المنكوبين إلى تخفــيف الأعباء الضريبية ، لذلك فقد ابن هود شعبيته التي لم تنفعه في استعادة شيء مــنها عــلى الأقل محاولاته لكسب ودِّ الناس بالتواضع لهم ، كما لم تحل بينهم وبين الــتطلع نحو ثائر آخر يحقق لهم ما أخفق ابن هود في تحقيقه [٤] توفي ابن هود في مدينة المــرية ســنة ٦٣٥هـــ ـــ ١٢٣٧م ، واختلفت المصادر في سبب وفاته فاتهمت واليه

---

[١] البيان المغرب ، ص٣٢٢-٣٢٣ .

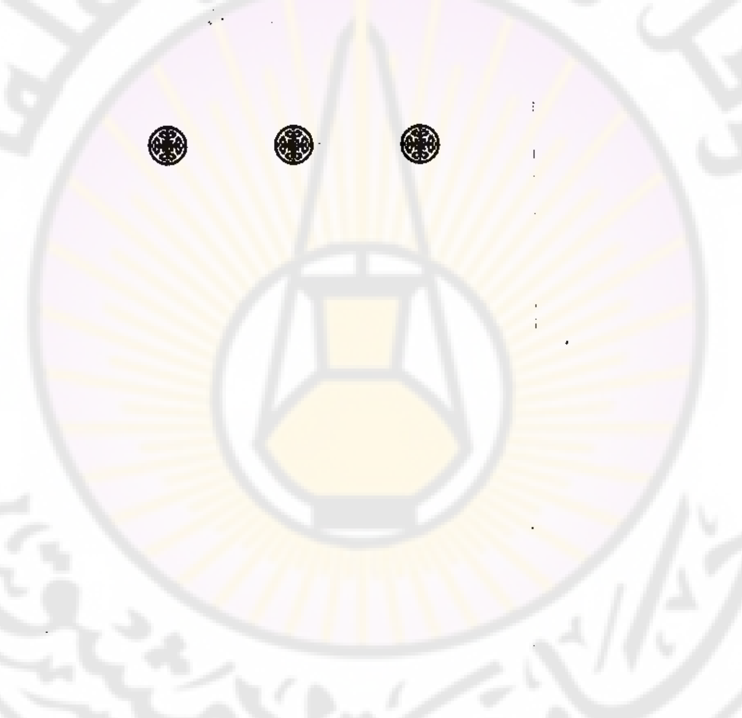
[٢] تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٨٠ ، العبر ، م٦ ، ص٥٣١-٥٣٢ .

[٣] تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٨٠ .

[٤] البــيان المغرب ، ص٢٨٨ ، ٣٢٢-٣٢٣ ، ٣٣٢-٣٣٥ . الإحاطة ، ج٢ ، ص١٢٩ .تاريخ إسبانيا الإسلامية ، ص٢٧٩-٢٨٦ .

عـــلى ألمرية أبا عبد الله الرميمي بقتله [1] ، ثم خلف ابن هود في الحكم ابنه الواثق بالله أبـــو بكر محمد بن محمد بن يوسف بن هود ، لكنه خلع بعد مدة ، ثم عاد مرة أخرى أواخـــر سنة ٦٣٧هــ ـــ ١٢٣٩م حيث قطع الواثق بالله بن هود الدعوة للعباسيين ، وخطب للحفصيين بإفريقية [2] .

هذا ما كان بشأن ثورة ابن هود ثم انهيارها فيما بعد . مما تقدم يتضح مدى ما ســـببته تلك الثورات في الإسراع بالقضاء على النفوذ الموحدي بالأندلس بل أدت إلى تجزئة الأندلس وضعفها ثم سقوطها فيما بعد أمام القوات المعادية من الأسبان .



(1) البيان المغرب ، ص٢٣٥ . الإحاطة ، ج٢ ، ص١٣٢ . عصر المرابطين والموحدين ، ج٢ ، ص٤٢٧.
(2) البيان المغرب ، ص٣٣٧-٣٣٨ ، ٣٥٤ . العبر ، م٤ ، ص٣٦١ .

د. نهاية دولة الموحدين

ولي بعد وفاة المنصور ابنه محمد الناصر لدين الله ٥٩٥-٦١٠هـ / ١١٩٩-١٢١٤م حيث امتدت خلافته أمداً يقارب من مدة خلافة أبيه ، لكنها اختلفت عنها من حيث طبيعة المرحلة في حياة الدولة الموحدية ، فبينما مثلت خلافة أبيه الذروة في العصر الموحدي سياسياً وحضارياً شكلت خلافة الناصر ميلا نحو الانحدار ، وأهم أعماله كانت عدا عن إخماده الثورات التقليدية المتكررة في عهد كل خليفة ، موجهة نحو العملين الكبيرين اللذين شغلا والده قبله ، وهما توطيد سلطان الموحدين في أفريقيا ضد عصيان بني غانية ، وكذلك محاربة الأسبان في شبه الجزيرة الأيبيرية . وقد أحرز نجاحاً ملحوظاً في المجال الأول بالمقارنة مع الكارثة التي حلت به وبدولته في المجال الثاني. حيث استغلت الدولة المسيحية الإسبانية غياب الخليفة في أفريقيا لتهاجم الأراضي الإسلامية ، وقد بدأت أراغون بإظهار العداء وتلتها قشتالة فرد الناصر على ذلك وهو في مراكش إثر دعوته من إفريقيا بإعلان الجهاد وجمع جيشاً ضخماً عبر به المضيق ، ثم حاصر شلبطرة الحصنية مدة تقرب من ثمانية أشهر حتى فتحها ، بينما احتل القشتاليون قلعة رباح ، ولم يتقدم جيش الناصر إثر ذلك بل تحصن بشعاب سييرا مورينا في موقع العقاب ووضعت الحراسة على الطريق الرئيسية المؤدية لمكان تحصنه ، وتركت المبادهة للجيش الإسباني الذي لم يقتصر على القشتاليين والأرغونيين فقط بل انضم إليه جند من وراء البيرنيه ، ثم انفصلوا عنه بعد خلاف مع الملك القشتالي ، وقام

هـــذا بمفاجئة المسلمين بعد العبور من ممر غير محروس ، ولا يتوقع سلوكه بعد أن دله علـــيه أحـــد الرعاة وقد احتدم أوار المعركة واشتد أول الأمر بين الطرفين ، ثم دارت الدائرة على المسلمين وأصبحوا بين هارب ومقتول ، ومن جملة من هربوا أخيراً الخليفة ذاته على فرس أحد العرب [1] ، وقد حدثت هذه المعركة في ١٥ صفر سنة ٦٠٩هــ / ١٦ تمـــوز ١٢١٢م ويجمع المؤرخون على أن هذه المعركة كانت كارثة كبيرة حلت بالمســـلمين ويبالغون في أعداد القتلى وكميات الخسائر ، وفي الواقع كان لهذه الهزيمة مغزاها الكبير إذ كانت أول انتصار يحرزه الأسبان المسيحيون على المسلمين الأندلسيين ومعهم المغاربة بقيادة الخليفة ، لذا كانت الهزيمة هزيمة للدولة بكاملها ، ولكن يجب ألا تعطي الأهمية والخطر للهزيمة بحد ذاتها ، بل إن الخطر يبدو في عوامل عدة منها وأهمها مـــا ذكـــره المـــؤرخ الإنكلـــيزي روجر أوف وندوفر (ت١٢٣٧م) حيث ذكر في كتابه ورود التاريخ (المنشور في الموسوعة الشافية للأستاذ الدكتور سهيل زكار ، الجزء ٤٥ ، ص٦١٧-٦١٨) أن ملـــك إنكلترا جون الذي خلف ريتشارد قلب الأسد قد راسل الخليفة الناصر وعرض عليه التحالف ، لا بل عرض عليه أن يجعل إنكلترا تدخل في الإســـلام وتصبح تابعة للدولة الموحدية ، وهكذا تورط الناصر وزحف بقواته إلى الأندلس ، لكن الملك جون تخلى عن وعوده وبذلك انفرد الأسبان به مما جعله يتعرض لهـــزيمة ماحقة وقد تعرض لهذا الموضوع حالياً الكاتب الإنكليزي كابرييل روناي في الفصل الثالث من كتابه «The tartar Khan's Englishman». Pages 28-34 .

وبعـــد أن تعـــرض لهـــذا الموضوع وعالجه بشكل علمي ، عارضه المتعصبون الإنكليز وردوا عليه ، وحاولوا تفنيد الروايات حول هذا الموضوع .

أمـــا فـــيما يـــتعلق بالعوامل الأخرى فقد تجلت بفساد الإدارة كلها في الدولة

---

(١) الحميري ، الروض المعطار ، ص١٣٧-١٣٨ .

Huici Miranda. Las Grandes Batalls de la Recn Quista p.219-327.

واضطراب الشؤون المالية فيها ، وقد لاحظ ذلك صاحب المعجب بقوله : «وأكبر أسباب هذه الهزيمة اختلاف قلوب الموحدين ، وذلك أنهم كانوا على عهد أبي يوسف يعقوب يأخذون العطاء ، وفي كل أربعة أشهر ، لا يخل ذلك من أمرهم . فأبطأ في مدة عبد الله هذا عنهم العطاء ، وخصوصاً في هذه السفرة ، فنسبوا ذلك إلى الوزراء»[1] . وقد يؤيد ذلك أيضاً ، حركة التطير الشاملة التي أجراها الناصر قبيل هذه المعركة ضد الفساد وسوء الإدارة في جميع أنحاء مملكته ، وقد نكب في هذه الحركة عدد غير قليل من كبار عمال الدولة وشيوخها [2] .

يضاف إلى ذلك قيام ملوك إسبانيا بتوحيد جبهتهم أمام المسلمين [3] . بالإضافة إلى أن صناعة السلاح والدروع وفن الحرب بصفة عامة كان قد تقدم تقدماً كبيراً في غرب أوروبا في ذلك الوقت ، هذا ولم يعش الخليفة محمد الناصر بعد هذه الكارثة سوى مدة قصيرة حيث توفي في شعبان سنة ٦١٠هـ وقد علق ابن الخطيب على وفاته بقوله : ولم يعد بعده إلى الأندلس أحد من ملوك الموحدين إلى أن انقرضت أيامهم [4] . على هذا إن دولة الموحدين في الواقع كانت بعد هذه الكارثة قد ذهب ريحها وتهدم صرحها : ففي الأندلس أخذت معاقل المسلمين تتساقط في يد الأسبان في كل جهة ، وفي المغرب ظهرت قوة زناتية فتية كانت تسكن صحراء فجيج [5] في منطقة وجدة بشرقي المغرب الأقصى على حدود الجزائر ، وهم بنو مرين الذين اقتحموا المغرب في عهد هذا الخليفة وأغاروا على مختلف نواحيه في تازا وفاس وبلاد

---

(١) المعجب ، ص٣٢٢ .

(٢) ابن عذاري : البيان المغرب ، ج٤ ، ص٢٢٦-٢٢٧ .

(٣) المصدر نفسه ، ج٤ ، ص٢٤١-٢٤٣ .

(٤) ابن الخطيب : أعمال الأعلام ، ص٢٧٠ .

(٥) السلاوي ، الاستقصا ، ج٢ ، ص٢٠٢ . ابن أبي دينار : المؤنس ، ص١٢٩ .

الـــريف ، وهـــزموا الجيوش الموحدية التي تعرضت لهم . وتركوا جنودها عراة يخفون أجســـادهم بأوراق نبات هناك يعرف بالمشعلة ، فسميت تلكُ السنة ٦١٣هـــ بسنة المشـــعلة [1] ، وحدث كل هذا بينما كان الخليفة المستنصر الموحدي قابعاً في قصره ، لاهـــياً بترويض أبقاره التي كان يستوردها من إسبانيا ، ولم تلبث حياته أن انتهت بين ثيرانـــه ، إذ طعنته بقرة شرود في صدره فقتلته في حينه سنة ٦٢٠هـــ ـــ ١٢٢٤م ، وكانـــت وفاة المستنصر الفجائية دون أن يخلف عقباً ، سبباً في إثارة المنازعات بين بني عـــبد المؤمن حول العرش ، واستبداد الأشياخ والوزراء بنواحيهم مما أدى إلى اضطرام فتن وحروب أهلية عجلت بسقوط دولة الموحدين ولقد قامت على أنقاض هذه الدولة الموحدية العظمى عدة دول مستقلة هي :

١- مملكة غرناطة وهي آخر ما تبقى للمسلمين من ممتلكات في إسبانيا وقد استقل بها بنو الأحمر أو بنو نصر سنة ٦٣٥هـــ ـــ ١٢٣٨م .
٢- الدولة الحفصية في تونس سنة ٦٢٧هـــ ـــ ١٢٣٠م .
٣- دولـــة بـــني مـــرين أو بـــني عبد الحق في فاس وهي الدولة التي استقلت بالمغرب الأقصى بعد أن قضت على خلافة الموحدين نهائياً سنة ٦٦٨هـــ ـــ ١٢٦٩م .
٤- دولـــة بني عبد الواد في تلمسان ونواحيها بالمغرب الأوسط سنة ٦٣٣هـــ ـــ ١٢٣٥م .



---

[1] السلاوي ، الاستقصا ، ج٢ ، ص٢٠٣-٢٠٤ .

الفصل الخامس

العرب والصراع للسيطرة على البحر المتوسط


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

امــتلك الوطــن العــربي شواطئ طويلة جداً على سواحل البحر المتوسط ، وأبحر العــرب منذ أقدم العصور في داخل هذا البحر ، ووصلوا بين أطرافه ، فقد أبحر الفينيقيون بــين سواحل الشام وسواحل المغرب وأسسوا المدن والمراسي والمحطات التجارية ومسألة تأســيس قرطاج معروفة ، وكذلك حروب قرطاج مع روما ، وقامت هذه الحروب من أجل السيطرة على البحر المتوسط ، وانطلقت شرارالها الأولى من صقلية .

وكــان عرب شبه الجزيرة قبل الإسلام يعرفون البحر المتوسط ويدركون مدى أهميــته خاصــة بالنسبة للتجارة ، فقد اعتاد أهل مكة على رحلتي الشتاء والصيف ، وأوصــلتهم رحلاقم التجارية أحياناً إلى سواحل الشام ، فهاشم جد النبي (ﷺ) توفي في غزة .

واهــتم النبي (ﷺ) ببلاد الشام ومصر ، وفي أيامه راسل عليه الصلاة والسلام هرقل وملوك الغساسنة ومقوقس مصر ، ووجه أكثر من حملة عسكرية ضد بلاد الشام وكانت آخر حملة جندها بقيادة أسامة بن زيد صمّمت لترسل ضدّ بلاد الشام ، وهذا ما كان بعد وفاته .

وفي أيــام أبي بكــر بعثت الجيوش لفتح بلاد الشام ، فور الفراغ من حروب الــردة، ورسمــت خطة فتوح الشام على أساس اهتم بشواطئ المتوسط أولاً ثم بداخل البلاد ثانية ، فجيش يزيد بن أبي سفيان تكلف بالشواطئ الشمالية ، وجيش عمرو بن العــاص تكلف بالجنوب ثم بفتح مصر ، ومن ثم توبعت أعمال الفتوح حتى الأندلس فجنوب فرنسا وشواطئها المتوسطية .

وشرع العرب منذ العصر الراشدي بالاهتمام بركوب البحر المتوسط والمرابطة علـى شـواطئه ، ومـن مزايا البحر المتوسط كثرة الجزر فيه ، وللسيطرة على هذه الجـزر فوائد جمة ، تتخذ قواعد للملاحة ومحطات للتجارة وللتزود بالمؤون ولأعمال عسكرية وسواها .

ففـي ولاية معاوية على الشام لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب جرت المحاولات الأولى لركوب البحر المتوسط ، أو ربما لتصنيع أسطول عربي يدافع عن شواطئ الشام ومصـر ويحول دون أية عمليات إنزال بيزنطية ، وفي أيام عثمان بن عفان ، أذن هذا الخلـيفة الراشدي لمعاوية سنة ٢٨هـ ـ ٦٤٩م بركوب البحر لغزو جزيرة قبرص ، وبـالفعل قاد معاوية أسطولاً تألف من عدة مئات من السفن بني بعضها في بلاد الشام وبعضـها الآخر في مصر ، ووصل الأسطول قبرص ، وتمكن من فرض الصلح عليها دون قتال ، تبعاً لشروط خاصة بأن يدفع القبارصة للمسلمين جزية سنوية قدرها سبعة آلاف ديـنار ، وأن يـنذروا المسلمين بمسير عدوهم من الروم إليهم ، وأن يقوم إمام المسـلمين بتعيين البطريرك على قبرص ، وليس للمسلمين حق طلب النصرة العسكرية مـن القبارصـة ، وعلـيهم أن يسـمحوا لهـم بدفع مبلغ سبعة آلاف دينار سنوياً للإمـبراطورية البيزنطـية ، وفي مرحلة تالية من حكم معاوية وضعت حامية عسكرية مسلمة في قبرص ظلت فيها حتى أيام يزيد بن معاوية [١].

وفي أيـام معاوية بعدما آلت إليه الخلافة ، استؤنفت حركة الفتوح العربية في الشمال الأفريقي ، وامتلك العرب استراتيجية متوسطية ، استهدفت تحويل هذا البحر إلى بحـيرة شـامية ، وهكـذا ربـح العرب الحرب ضد الأساطيل البيزنطية في ذات الصواري ، ثم حاصروا القسطنطينية في محاولة لفتحها .

---

(١) انظر كتابي التاريخ عند العرب ، ط. دمشق ١٩٧٤ ، ص١٦٠-١٨٨ .

وفي أيـام الولـيد بن عبد الملك أكمل العرب فتح الشمال الأفريقي ثم فتحوا الأندلـس فسيطروا على أحد منفذي البحر المتوسط ، وفي أيام سليمان بن عبد الملك خلـيفة الولـيد حوصرت القسطنطينية مجدداً براً وبحراً لمدة سبع سنوات ، ولم يفلح العرب في الاستيلاء عليها .

وحكي الكثير عن نتائج هذا الإخفاق ، وأنه حمى أوروبا النصرانية وحضارتها ، وتحـدث أميل لودفيغ في كتابه البحر المتوسط عن هذه المسألة بقوله : «وإذا ما تركنا جانـباً حروب الإسلام ضد فارس ومصر لعدم وجود علاقة مباشرة لهما بحياة البحر المتوسط ، وجدنا العرب يحاربون فريقين من الدول فيما بين القرنين السابع والتاسع ، يحاربون بيزنطة والجرمان ، وما اتفق لسلطان أبناء الصحراء من سرعة نشوء في قوتهم الـبحرية يقضـي بالعجب ، ومن قول محمد (ﷺ) : «نصر فوق البحر يعدل عشرة انتصارات فوق البر» ومن الواقع أن العرب غلبوا أسطول بيزنطة عدة مرات ، فتقدموا حـتى رودس وقبرص ، ووجدوا بيزنطة مفتوحة أمامهم ، وهم لم يوقفوا إلا أمام هذه المديـنة نتـيجة لمقاومة أسوار ثيودور ، وبفعل النار اليونانية ، التي اخترعت حديثاً ، وكـان حصار العرب لبيزنطة الذي دام سبع سنين أطول حصار تم في تلك الزاوية من العالم منذ عسكر أشيك أمام طروادة ، أي أطول من حصار صور وكورنثة وقرطاجة وسرقوسة ، ومع ذلك فإن بيزنطة قاومت ، فأنقذت أوربة كما يقال عادة ، ومن أي شـيء أنقذت في العادة ؟ لو صارت أوربة مسلمة منذ اثني عشر قرناً ما أصبحت أقل حضـارة ولا أقل سعادة ... وذلك أن جميع البحر المتوسط كان يحيى بحركة ثقافية ، ومـا كـادت مئتا سنة تمران حتى كانت الأمم المسنة قد تلقت من العرب علم الجبر والحسـاب العشري والرقاص ، واستعمال الآلات الفلكية والأدوية المخدرة ، وكما تعلمـت منهم الصباغة والدباغة والوشي وصنع الزجاج والخزف والبسط والورق ، كما تعلمت منهم البستنة والري وزراعة الأثمار الجديدة ، وفي فن البناء اقتبست أوربة

من العرب الأقواس المصنوعة على شكل نعل الفرس ، والنقوش على هيئة النباتات والحيوانات وفن الترصيع ، ثم إن العرب فجروا الماء داخل البيوت وفي الساحات والحدائق وفي كل مكان» [1] .

وكان العرب بعدما أسسوا مدينة القيروان في داخل إفريقية وتقدموا في فتوحاتهم عادوا نحو ساحل المتوسط حيث أعادوا تأسيس مدينة تونس في موقع قرطاج، واتخذوا هناك دار صناعة ، وامتلكوا أساطيل خاصة بهم نشطت ضد الشواطئ الإيطالية وضد صقلية وغيرها من جزر المتوسط وكانت أهم النشاطات حسبما يلي :

- حملة سنة (٨٤هـ ــ ٧٠٣م) بناء على أوامر عبد العزيز بن مروان والي مصر ، وقد قادها ابن رافع الهذلي ،وقدمت الحملة من مصر إلى سوسة ، وكان والي إفريقية موسى بن نصير ، ومن سوسة توجهت ضد سردينية ، على الرغم من تحذيرات موسى بن نصير ، فقد كان الموسم خريفاً ، ولهذا تدمرت السفن أثناء العودة نتيجة لتعرضها للعواصف ، وحاول موسى استرداد بعض السفن المدمرة .
- حملة سنة ٨٥هـ ــ ٧٠٤م أرسلها موسى بن نصير وقادها ابنه عبد الله ، وسميت غزوة الأشراف ، لكثرة الشخصيات العربية التي شاركت فيها ، وقد تكللت هذه الحملة بنجاح كبير .
- حملة سنة ٨٦هـ ــ ٧٠٥م أرسلها موسى بن نصير وقادها عياش بن أخيل ، وسارت ضد سرقوسة .
- حملة سنة ٨٩هـ ــ ٧٠٧م بعث بها موسى بن نصير ضد سردينية ، وقادها عبد الله بن مرة ، وقد عادت بأعداد كبيرة من الأسرى وكميات من الغنائم.

---

(1) البحر المتوسط لأميل لودفيغ ــ ترجمة عربية ، ط. القاهرة ١٩٥٢ ، ص٤٢٢-٤٢٤ .

- حملة سنة ٩٢هـ ــ ٧١٠م بناء على أوامر موسى بن نصير توجهت أيضاً ضد سردينية ، وقد غرقت في طريق العودة .

وتوقفت الحملات اعتباراً من هذا التاريخ ضد صقلية وسردينية ، لانشغال الأساطيل في عمليات فتح الأندلس .

- حملة سنة ١٠٢هـ ــ ٧٢٠م وقادها محمد بن أوس الأنصاري ضد صقلية ، وعاد محملاً بالغنائم إلى إفريقية فوجد والي البلاد يزيد بن أبي مسلم الأنصاري قد قتله حرسه ، فعرضت عليه أعمال الولاية ريثما يعين الخليفة والياً جديداً .
- حملة سنة ١٠٩هـ ــ ٧٢٧م قادها والي إفريقية بشر بن صفوان نفسه .
- حملة سنة ١١٠هـ ــ ٧٢٨م ، وجهها والي إفريقية الجديد عبيدة بن عبد الرحمن السلمي ضد صقلية فاصطدمت بالقوات البيزنطية وهزمتها .
- حملة سنة ١١١هـ ــ ٧٢٩م ، وجهها الوالي نفسه ، شاركت بها مائة وثمانون سفينة ضد صقلية ، لكنها تعرضت لكارثة بسبب العواصف وقلة احتياط قائدها .
- حملة سنة ١١٢هـ ــ ٧٣٠م ، وجهها الوالي نفسه ضد صقلية وعادت مظفرة.
- حملة سنة ١١٤هـ ــ ٧٣٢م ، وجهها أيضاً الوالي نفسه ضد سردينية وكانت أيضاً مظفرة .
- حملة سنة ١١٥هـ ــ ٧٣٣م ، وجهها مجدداً الوالي نفسه ، واصطدمت مع القوات البيزنطية ففقدت عدداً من السفن .
- حملة سنة ١١٦هـ ــ ٧٣٤م ، وجهها والي إفريقية الجديد عبيد الله ابن الحبحاب ضد صقلية فاصطدمت بالأسطول البيزنطي ونشبت معركة غير حاسمة .

- حملة سنة ١١٧هـ ـ ٧٣٥م ، وجهها عبيد الله بن الحبحاب ضد سردينية .
- حملة سنة ١١٩هـ ـ ٧٣٧م ، وجهها الوالي نفسه واستهدفت سردينية .
- حملة سنة ١٢٢هـ ـ ٧٣٩م ، وجهها الوالي نفسه واستهدفت فتح صقلية ، وبعدما حققت بعض النجاحات استدعيت للعودة بسبب ثورات الخوارج التي تفجرت .
- حملة سنة ١٣٠هـ ـ ٧٤٧م ، أمر بها عبد الرحمن بن حبيب الفهري المتغلب على المغرب ، فتوجهت ضد صقلية .
- حملتان سنة ١٣٥هـ ـ ٧٥٢م ، بعث بهما عبد الرحمن بن حبيب ضد كل من سردينية وصقلية ، وفي هذه الآونة سقطت دولة بني أمية [1] ، وشهدت بلدان المغرب مرحلة تاريخية جديدة ، ولم تعرف البلاد الاستقرار حتى تأسيس دولة الأغالبة ، وفي عصر الأغالبة في القيروان ورقاد تمت عملية فتح صقلية ولم يقد جيوش الفتح إلى صقلية قائد عسكري بل قادها قاضي المسلمين أسد بن الفرات ، وهاكم الحكاية :

نقرأ في كتب الأخبار التي أتت على ذكر الإمام أسد بن الفرات وفتح صقلية أنه في أحد أيام سنة ٢١٢هـ ـ ٨٢٧م تجمهر أهالي مدينة سوسة في تونس يتقدمهم أمير البلاد زيادة الله بن الأغلب ومعه أركان دولته ، تجمهروا قرب مرسى المدينة لوداع الإمام أسد بن الفرات ، الذي كان متوجهاً على رأس أسطول كبير لفتح جزيرة صقلية .

وخاطب أسد المتجمهرين قائلاً : «والله يا معشر المسلمين ما ولي لي أب ولا

---

(١) ابن عذاري ، ج١ ، ص١٠٦١ . الدولة الأغلبية لمحمد الطالبي ، ترجمة عربية ، ط. بيروت ١٩٨٥ ، ص٤٢٢-٤٢٥ . المسلمون في جزيرة صقلية لأحمد توفيق المدني ، ط. الجزائر ١٣٦٥ ، ص٥٢-٥٦ .

جد ولاية قط ، ولا أرى أحد من سلفي مثل هذا قط ، وما رأيت ما ترون إلا بالأقلام، فأجهدوا أنفسكم ، وأتعبوا أبدانكم في طلب العلم وتدوينه ، وكاثروا عليه واصبروا على شدته ، فإنكم تنالون به الدنيا والآخرة» . ودلالات هذه العبارات وإن قيلت بمناسبة عسكرية ، وهي غير عسكرية ، ومرد هذا إلى طبيعة اختصاص قائلها ، فأسد بن الفرات كان قبل أن يكلف بقيادة حملة صقلية يشغل وظيفة قاضي المسلمين في إفريقية ، وعد أول علماء الغرب الإسلامي وأكثرهم فقهاً ، والبحث في سيرة أسد بن الفرات وأعماله يقتضي لأهميته إثارة عدد من القضايا البالغة الخطورة ، وذلك أنه على كثرة عدد العلماء والفاتحين في التاريخ الإسلامي ، يكاد أسد بن الفرات أن يكون وحيداً ، وفي تفرده بالجمع بين الفقه والاجتهاد والقضاء ، والإمارة ، وحياته على هذا مرتبطة وثيق الارتباط بتاريخ دولة الأغالبة في تونس ، وبمسألة انتشار فقه المالكية في الغرب الإسلامي ، وبالصراع للسيطرة على البحر المتوسط وفتح جزيرة صقلية .

وعلى الرغم من جلالة هذه الأمور وأهميتها القصوى ، فإن المصادر العربية شحيحة المعلومات حولها ، ومن المثير للدهشة أن مصنفات التاريخ الإسلامي العامة لم تتعرض بشكل يشفي الغليل لهذه الأحداث الجسام ، فقد اهتمت بشكل مكثف بأحداث الأقاليم المركزية لديار الخلافة ، ولم تحفل كثيراً بسرد تفاصيل أخبار ما جرى في الأقاليم النائية عن بغداد ، كإفريقية مثلاً ، حتى وإن وقعت هنالك أحداث على درجة عالية من الخطورة وعميق الأثر مثل فتح صقلية .

وهنا نفزع إلى كتب التاريخ المحلية مع مصنفات التراجم ــ إن وجدت ــ لنحصل منها على ما نحن بحاجة إليه من معلومات ، ومعلوم أن الغرب الإسلامي عرف حركات تأريخ نشطة وتدويناً غنياً نسبياً للأخبار ، ولكن المشكلة هنا أن هذه الحركة ولدت متأخرة عن وقت الحوادث المبكرة ، ثم إن عدداً من المدونات المبكرة ما

زالت محجوبة عنا ، لم تصلنا كاملة أو لم تصلنا بالكلية .

ولحسن الحظ أن كتاب البيان المغرب لابن عذاري المراكشي قد وصلنا كاملاً ، ومع أن صاحبه صنفه في مطلع القرن الثامن للهجرة (٧١٢هـ) فإنه اعتمد بتفاصيله الهامة على كتابات المؤرخين الذين سبقوه مثل إبراهيم الرقيق القيرواني وغيره ، ومعلومات ابن عذاري عن دولة الأغالبة في القيراون وفتح صقلية على درجة عالية من الأهمية والفائدة ، ومثل ابن عذارى يأتي بعده ابن خلدون ، فالذي أودعه في مقدمته ومتن كتابه العبر عن الغرب الإسلامي في عظيم الفائدة ، بسبب اطلاعه الواسع على مؤلفات مؤرخي المغرب والأندلس الذين تقدموا على عصره ، ثم بسبب اشتغاله بالسياسة وتقلبه في عدد من الوظائف إضافة لرحلاته الواسعة .

وقد قام في القرن الماضي العالم الإيطالي ميكائيل عماري بنشر (سنة ١٨٥٨) كتابه الحافل «المكتبة العربية الصقلية» وفيه جمع أغلب ما تناثر في كتب العرب من أخبار عن صقلية والصقليين أيام دولة المسلمين ، وألف كتاباً آخر بالإيطالية بعنوان «تاريخ العرب بصقلية» جاء في خمسة أجزاء ضخمة ، ومن بين العرب يأتي المؤرخ الجزائري الأستاذ أحمد توفيق المدني على رأس الذين كتبوا عن صقلية وخاصة كتابه «المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا» ثم الدكتور إحسان عباس الذي كتب أطروحة عن صقلية اهتم بها بالجوانب الأدبية والحياة الثقافية للعرب فيها ، وجاء بعدهما عزيز أحمد فكتب تاريخ صقلية الإسلامية ، هذا وأولت بعض الدراسات حول الدولة الأغلبية مثل كتاب محمد الطالبي موضوع صقلية أهمية خاصة .

ولدت الخلافة العباسية ولادة خراسانية مشرقية ، وقد ظلت هذه الخلافة طيلة حياتها غارقة في بؤرة مشاكل المشرق ، ولذلك يلاحظ أن اهتمام هذه الخلافة بالجناح الغربي من ديار الخلافة كان من الدرجة الثانية ، كما أنها عجزت منذ أيام ولادتها عن مد سيطرتها عليه جميعاً ، يضاف إلى هذا كانت الدولة العباسية دولة قارية نادراً ما

اهتمت بالبحر المتوسط أو فكرت ببناء أساطيل للنشاط فيه .

وفي العصـــر العباسي المبكر أرسلت بغداد عدة حملات نحو الشمال الأفريقي ، وقامت بمحاولات متعددة للحيلولة دون استقلال جميع بلدانه ، ولكنها أخفقت ونجح الأمـــير الأموي عبد الرحمن بن معاوية في تأسيس حكمه في الأندلس ، كما نجح عبد الـــرحمن بن رستم في إمامة تيهرت الإباضية (في عمالة وهران جزائر اليوم) ونجح بنو مـــدرار الصـــفرية في تأسيس إمارتهم في سجلماسة على طرف الصحراء ، ونال آل ســـليمان بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب التوفيق في تأسيس دويلة لهم في مـــنطقة تلمسان ، وتمكن إدريس أخو سليمان من تأسيس دولته في المغرب الأقصى ، وكانت هناك من قبل دولة برغواطة على الساحل المغربي في بلاد تامسنا .

وإدراكـــاً مـــن بغداد لهذا كله وخشية أن تمتد الحركات الاستقلالية إلى بلدان المغـــرب الأدنى ومصـــر ساعدت على قيام دولة الأغالبة وذلك في أواخر القرن الثاني لـــلهجرة ، ولقـــد حازت دولة الأغالبة على استقلالها ، لكنها لم تقطع قط وشائجها بالولاء للخلافة العباسية .

ولم تـــنعم دولة الأغالبة بصداقة أيٍّ من دول الشمال الأفريقي ، وكان نفوذها الفعـــلي عـــلى القبائل البربرية في الداخل غير قائم عملياً ، ثم إنها لم تنعم بالاستقرار الداخـــلي إلا بشـــكل نسـبي ، فقـــد عانـــت دومـــاً مـــن الاضطرابات الداخلية والضـــغوط الخارجـــية ، وحفـــل تاريخها بفتن الجند ، وهكذا عندما وجدت نفسها محاصـــرة مـــن الداخـــل انشدت نحو سواحل البحر المتوسط ، وتورطت في صراعاته السياسية والتجارية .

وكما سلفت الإشارة شغل البحر المتوسط منذ فجر التاريخ دور القلب النابض بالنسبة للحضارات ، فعلى شواطئه قامت ثم تطورت الديانات السماوية والفلسفات، ومن بلدانه انتشرت إلى بقية أجزاء العالم ، وكان هناك صراع دائم بين القوى المختلفة

حوله للتحكم بشؤون الملاحة فيه وللسيطرة عليه وتحصيل الثروة .

ورأينا بعد قيام الإسلام ، ومع انتشاره في المشرق والمغرب باتت أوروبا محاصرة مـــن قـــبل العرب ، وخاصة أوروبا الغربية ، ونطاق الحصار الذي فرضه العرب كان جديـــداً كلـــياً : لغويـــاً وقانونياً وحضارياً ودينياً ، مما أدى إلى تغيير جذري للنظم الاقتصادية والقانونية والحضارية العامة والدينية في أراضي روما الغربية ، ذلك أن جميع الطرق لم تعد تقود إلى روما بل إلى حواضر الإسلام ، وتعطلت سياسة استيراد القمح وســـواه إلى أوروبا . فوجدت أوروبا الغربية نفسها مضطرة إلى الاعتماد على الذات بالإنـــتاج المحـــلي ، ومن ثم اكتشاف الأجزاء الشمالية منها ، وإزالة الغابات لزراعة الحبوب مكان الأشجار ، وهكذا قيل انتهت فعلياً العصور الكلاسيكية القديمة وبدأت العصـــور الوســـطى ، فحلـــت اللهجات ذات الجذور الجرمانية محل اللغة اللاتينية ، وأخـــذت النظم الإقطاعية بالظهور ، وهذا موضوع سنعود إليه في الجزء الثالث المقبل من كتاب المدخل .

ولم يقتصـــر عمـــل العـــرب في ســـبيل السيطرة على المتوسط بالاعتماد على الأســـاطيل بـــل اهـــتموا بتحصين شواطئ بلادهم ، فأقاموا المواقع الدفاعية ، ومنائر الإنـــذار، وبعد سقوط الخلافة الأموية وحلول الخلافة العباسية محلها ، ولعدم اهتمام هـــذه الدولة القارية بالبحر والسفن ضعفت السيطرة العربية على شواطئ المتوسط ، وزاد الاعـــتماد عـــلى أنظمة الدفاع ، مما أدى إلى تطور كبير في قواعد هذا النظام ، وأخـــذت أعداد كبيرة من العلماء والزهاد بالالتجاء إلى مواقع الدفاع والمرابطة فيها ، وهكـــذا بدأت مواقع الدفاع هذه تعرف باسم الرباطات ــ جمع رباط ــ ومع الأيام أخذت الرباطات تؤدي وظائف دينية وثقافية ، وذلك بالإضافة إلى مقاصدها الحربية ، وصـــارت الـــرباطات مراكز للعلم أقبل عليها الطلاب ، وحوت المكتبات ، وشغل رجالاتهـــا أنفسهم بالتعليم والتثقيف والنسخ وغير ذلك ، ونجم عن هذا تأثير مزدوج

داخـــلي وخارجي ، بحيث صار بإمكان أصحاب الرباطات التأثير بالرأي العام ، وفي رسم السياسة العامة واتخاذ القرارات الهامة [1] .

ولقد كان لنظام الرباطات دوره الأهم على شواطئ الشمال الأفريقي ، خاصة في أرجـــاء سواحل دولة الأغالبة ، ولقد ازدهر هذا النظام بشكل رائع ومعطاء خلال القـــرنين الـــثاني والثالـــث لـــلهجرة ، وما زالت شواطئ تونس تحوي آثار عدد من الرباطات مثل رباط المستير وسواه .

واهتمت دولة الأغالبة بتأمين موارد اقتصادية كافية ، وملكت جيشها الخاص، ورعـــت الحركات الثقافية في القيروان ، واعتنت بالعلم والعلماء ، وقلدت السياسات الدينـــية لـــلخلافة العباسية في المركز ، وكانت حركة المواصلات بين بلدان المغرب والمشرق نشطة جداً ، حيث تدفق التجار والحجاج وطلاب العلم من الشمال الأفريقي عـــلى بلدان المشرق ، وكان لهذا أعظم الآثار على مستقبل الغرب الإسلامي وأفريقيا وحتى على أوروبا .

وحينما يعرض المرء تاريخ قيام الإسلام يلاحظ أن موقع مكة على طرق قوافل التجارة العالمية قبل الإسلام مع وجود الكعبة فيها دفعها نحو تزعم شبه جزيرة العرب ، ثم هيأها لتكون مركز قيام الإسلام ، ومرة ثانية بعد قيام الإسلام وانتشاره في الشمال الأفـــريقي والأندلـــس وجـــد المسافرون من الغرب نحو الشرق أن المدينة المنورة هي محطتهم الأولى والعظمى قبل التوجه نحو العراق .

وهكـــذا نـــال القادمون للتعلم والفقه دروسهم الإسلامية الأولى في المدينة ، ثم ذهبوا نحو استكمال التعليم في العراق ، وكثير منهم لم يذهب ، بل اكتفى بما نهله من دار هجرة الرسول (ﷺ) .

---

[1] جمـــع المـــرحوم الأســـتاذ حســـن حســـني عبد الوهاب مادة جيدة حول هذا الموضوع في كتابه أوراق فليراجع .

ومعروف أن المدينة كانت عاصمة الإسلام الأولى ، فيها عاش كبار الصحابة ، وفيها تأصلت معارف الشريعة الإسلامية ، وفي المدينة نشطت الأعمال الفكرية في القرن الأول للهجرة ، وأثمرت في القرن الثاني بقيام مدرسة أهل المدينة في الفقه على يد الإمام مالك بن أنس ، وحين جاءت هذه المدرسة إلى الوجود ، كانت مدرسة أخرى كبيرة قد قامت بالكوفة في العراق على يد الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت .

ومن الملاحظ أن الخلافة العباسية كان لها سياسة دينية خاصة ، فأبو جعفر المنصور ، هو المؤسس الفعلي للخلافة العباسية ، أدرك بفكره المخطط مكانة الأداة الدينية في خدمة المقاصد السياسية ، والمصالح الاستراتيجية للدولة ، لذلك اهتم بالدين وبرجاله ، يضاف إلى هذا أن عالم القرنين الثاني والثالث للهجرة (الثامن والتاسع للميلاد) قد عرف تيارات فكرية سياسية نادت بوحدة المذهب العقائدي للدولة ، وهذا ما نراه في الإمبراطورية البيزنطية في حركة عبادة الصور ، وفي حياة شارلمان وتأسيسه للإمبراطورية الكارلونجية في الغرب الأوروبي وعلاقته بالبابوية .

وطبيعي أن تجد لدى العباسيين الاهتمام بالدين ، فهم قد وصلوا إلى السلطة بوساطة ثورة انطلقت من مفاهيم الإسلام القائمة على المزج بين العمل الديني والدنيوي ، واختلف حالهم عن بني أمية ، فمعاوية نال الخلافة اغتصاباً بقوة السلاح، بينما نالوها عن طريق شرعية الثورة وحق الوراثة .

وبعد شيء من التردد اعتمد العباسيون على مدرسة العراق الفقهية التي أسسها أبو حنيفة ، وفي الغرب الإسلامي ، خاصة في الأندلس والدول المستقلة ، وجد الأمراء والحكام أنفسهم بحاجة إلى تقليد طرائق العباسيين ، أو لنقل إن الحكم الذي تم نيله ــ هنا وهناك ــ بالاعتماد على الصراع بين العصبيات القبلية وسواها وجد نفسه بحاجة إلى دعائم لسلطته غير عمليات التوازن ين القوى القبلية ، فكان أن لجأ إلى اعتماد سياسة دينية خاصة ، وطبعاً إن هذا العمل أمر لا بد منه في أية دولة إسلامية وخاصة

لـدى دول المواجهة مع أعداء الإسلام ، ولا بد من القول هنا أن الدين بكل تأكيد لم يكـن قط أفيون الشعوب فالأفيون يخدر ، بل كان محركاً للشعوب ، وكان بلا شك أخطر الأدوات الاستراتيجية في التاريخ وما زال كذلك .

وفرضـت ظـروف المواجهة في الغرب الإسلامي التشدد والتعصب والتظاهر بالمثالـية ، ومثالية الإسلام كانت تؤخذ من مدينة النبي (ﷺ) لا من كوفة أبي حنيفة ، وتلمـيذ المديـنة ظهيره أعلى وأمتن من ظهير تلميذ الكوفة ، يضاف إلى هذا إن تبني الخلفـاء العباسـيين لفقـه أهل العراق قد جعلا القائمين على مدرسة المدينة يفتشون على مناطق نفوذ لهم ، ويمكن أن نجد شواهد على هذا في حياة الإمام مالك بن أنس ، فهـو قـد أظهـر أكـثر مـن مـرة المعارضة للسلطة العباسية والتحبيذ لأمراء من الغرب الإسلامي .

من هذا كله نخلص إلى القول بأن العالم الإسلامي عاش بعد قيام الثورة العباسية مباشرة وطوال سنين عديدة في القرن الثاني للهجرة في ظل مدرستين للفقه والتشريع ، وهمـا مدرسة المدينة ، ومدرسة الكوفة (أو العراق) ومن الملاحظ أنه بعد وقت ليس بالطويل بذلت محاولات لدمج المدرستين في مدرسة جديدة واحدة .

واسـتهدفت عملـية المزج الوصول إلى حل وسط بين الطرفين بشكل منطقي مؤصل ، وهذا ما نشهده في سيرة كل من الإمامين الشافعي وأسد بن الفرات ، وكما هو مشهور نجح الإمام الشافعي في عمله ، وأخفق ــ كما سنرى ــ أسد بن الفرات، لأن الشـافعي نجـا من ظلمة الوظيفة ، ولم يعش في دياجير الولاية إلا لوقت قصير ، وهكـذا أوقف حياته على العلم ، وأما ابن الفرات فإنه في الوقت الذي كان عليه فيه العطـاء تـولى وظيفة القضاء أولاً ، ثم جمع إلى القضاء إمارة الجيش الذي توجه إلى صـقلية لفتحها ، وقد توفي أثناء تأدية هذه المهمة ، فهل يا ترى جاء تعيينه في وظائفه بناء على خطة مسبقة ، أم أن ذلك جاء بالصدفة ؟ .

وفي سبيل الحصول على الإجابة لنبدأ أولاً بالتعرف إلى سيرة حياة الإمام أسد ابن الفرات : ولد الإمام أسد في مدينة حران الشامية ، التي كان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية ، قد اتخذها مقراً له ، وحدثت ولادته كما هو مرجح سنة اثنتين وأربعين ومائة للهجرة (٧٥٩م) ، وكان والده جندياً من جنود العباسيين أصله من خراسان ، وقد ترك هذا الجندي مدينة حران إلى أفريقية في حملة عسكرية وجهتها بغداد ضد خوارج المغرب من الأباضية الذين كانوا مسيطرين آنئذ على أجزاء كبيرة من المغربين الأدنى والأوسط ، ودخل أسد بن الفرات مدينة القيروان وله من العمر عامين ، وقد أقام فيها مع أسرته خمس سنوات ، ثم تحولت أسرته إلى مدينة تونس ، فأقامت بها نحو تسع سنين ، وخلال هذه السنين تعلم القرآن ، وأخذ يختلف إلى حلقات مشاهير علماء تونس ، وفي مطلع سن الشباب يمم أسد وجهه نحو المشرق ، فحل بالمدينة المنورة ، والتحق بحلقة الإمام مالك بن أنس ، فأخذ عنه علوم أهل الحجاز ، وروى عنه كتاب الموطأ ، وكان ابن الفرات كثير السؤال ، شديد الإلحاح يلتهم العلم التهاماً ، ويود لو أن الإمام مالكاً أوقف وقته كله عليه ، ولما تعذر هذا نصحه الإمام مالك بالذهاب إلى العراق للالتحاق بالإمام محمد بن الحسن الشيباني ، صاحب الإمام أبي حنيفة وخليفته .

وبالفعل توجَّه ابن الفرات نحو العراق ، والتحق بالإمام محمد بن الحسن ، وأكمل على يديه تحصيله لعلوم الإمام مالك بحكم أنه كان من تلاميذه السالفين ، كما أخذ عنه علوم مدرسة أهل العراق ، ومكث ابن الفرات في العراق مدة لا بأس بها ، ولقد أولى الإمام الشيباني ابن الفرات عظيم عنايته ، فقد عرف فقره ، لذلك أسكنه معه في دار واحدة ، وقام بتأمين نفقته ، وخصه بمجالس للتدريس خاصة ، وتحدث ابن الفرات عن علاقته بالإمام الشيباني ووصف حاله معه بأنه قال له : «إنني غريب ، قليل النفقة ، والسماع منك نزر ، والطلب عندك كثير ، فما حيلتي ؟

فقال لي : اسمع مع العراقيين بالنهار ، وقد جعلت لك الليل وحدك ، فتأتي فتبيت عندي وأسمعك ، قال ابن الفرات : فكنت أبيت عنده ، وكنت في بيت في سقيفة ، وكان يسكن العلو ، فكان ينزل إلي ويجعل بين يدي قدحاً فيه ماء ، ثم يأخذ في القراءة ، فإذا طال الليل رآني نعست ، ملأ بيده منه ونفخ به في وجهي فأنتبه ، وكان ذلك دأبي ودأبه حتى أتيت على ما أريد من السماع عليه» .

ولقد زقّ الإمام الشيباني ابن الفرات بالعلم زقّاً ، ورعاه طوال إقامته في العراق، وعندما أكمل ابن الفرات تحصيله ، كان الإمام مالك بن أنس قد توفي ، أخذ ابن الفرات الطريق نحو المغرب ، فحط رحاله في مصر ، والتحق بالإمام عبد الرحمن بن القاسم ، أحد كبار تلاميذ الإمام مالك ورواة علمه القدماء ، ولازمه ابن الفرات «فكان يغدو إليه كل يوم ويسأله ويجيبه ابن القاسم ، حتى دوّن ستين كتاباً وسماها الأسدية» وقد حوت هذه المدونة الأسدية رأي مدرسة أهل المدينة حول جميع المسائل التي تعلمها ابن الفرات في العراق .

وعاد ابن الفرات إلى القيروان يحمل معه علوم مدارس الإسلام ، ويروى أنه «لما عزم على الرحيل من مصر وجه معه ابن القاسم بضاعة وقال له : إذا قدمت إفريقية فبعها واشتر بثمنها رقوقاً ، وانسخ الكتب» ، ولما حل أسد بن الفرات في القيروان ، أظهر ما كان لديه من أسديته وأسمعها الناس ، وانتشرت العلوم التي حملها أسد إلى القيروان ، وانتشر معها صيت أسد بن الفرات ، وذاعت شهرته ، ولعل أهم الذين سمعوا الأسدية منه هو الإمام سحنون ، فبعدما مضى أسد بن الفرات إلى صقلية قام الإمام سحنون باستخراج مواد مدوّنته من أسدية بن الفرات ، ومعروف أن مدونة الإمام سحنون هي أعظم كتب المالكية في الغرب ، وأنه إلى الإمام سحنون يعود الفضل في توطيد أقدام المالكية في الشمال الأفريقي ، فبعدما تغيب أسد بن الفرات غدا الإمام سحنون أعظم علماء إفريقية مكانة ، وأكثرهم نفوذاً وشعبية وشهرة .

وأثناء عمل ابن الفرات في القيروان سعى نحو وضع قواعد مدرسة للفقه جديدة قوامها مبادئ مدرستي العراق والحجاز ، لكن النجاح لم يتحقق له لأسباب منها أنه لم يملك الوقت الكافي للتفرغ لمهمته ، فقد كلف سنة أربع ومائتين (٨١٩م) بمهمة القضاء من قبل الأمير زيادة الله بن الأغلب ، ثم إنه في هذه الفترة وسنوات عدة مقبلة عانت إمارة الأغالبة من اضطرابات للجند كادت أن تؤدي بالحكم الأغلبي ، ونجا ابن الفرات خلال سنوات الفتنة من التورط فيها ، وكان دائماً مع ما تمليه عليه الشريعة لا أهواء القوى المتصارعة ، وعندما قضي على اضطرابات الجند رأت الإدارة الأغلبية أنه من الأسلم للمستقبل إشغال الجند بنشاط حربي خارجي ، وفي هذا نرى إحدى خلفيات حملة ضد صقلية [(١)] .

شكّلت جزيرة صقلية بموقعها الجغرافي مكاناً استراتيجياً هاما ، وحصناً منيعاً وسط البحر هيمن على حركة الملاحة بين شرقي البحر المتوسط وغربيه ، كما كانت بمثابة جسر انتقلت عبره الحضارات ، وعنت السيطرة على صقلية دائماً القدرة على مراقبة كل السواحل الأفريقية والإيطالية ، كل هذا بالإضافة لما تنعم به صقلية ذاتها من ثروات ، وما تدره أراضيها من خيرات ، وصقلية كانت دائماً موضع صراع بين قوى إيطاليا وأفريقيا .

لقد رغب العرب دوماً في فتح صقلية وانتزاعها من الإمبراطورية البيزنطية ، وتحين الأغالبة فرصهم لفتحها عام ٢١٢هـ ــ ٨٢٧م ، وساعدهم على الشروع في قهر أراضيها وما وصلت إليه أحوالها آنذاك من اضطراب وتدهور وفساد ، ذلك أن الولاة البيزنطيين كانوا قد أسرفوا في استغلال مواردها دون عناية بأحوال السكان ، لذلك أجدبت الأراضي الزراعية وهجرها الفلاحون ،واشتغلوا بالرعي ، كما كسدت التجارة

---

(١) رياض النفوس للمالكي ، ط. بيروت ١٩٨٣ ، ج١ ، ص٢٥٤-٢٧٣ ، المقفى للمقريزي ، ط. بيروت ١٩٩١ ، ج٢ ، ص٥٩-٦٢ . البيان المغرب ، ج١ ، ص١٠٢-١٠٣ .

والصناعة بسبب الضرائب الباهظة ، لذلك انهارت الأحوال عامة ، واضطربت أمور المجتمع بسبب ما اعتادت بيزنطة عليه من نفي المجرمين والخارجين على القانون إليها من جموع المنبوذين وأعداد كبيرة من العبيد ، وكانت أحوال الكنيسة سيئة ، ومكانتها متداعية لتخليها عن مهامها الأساسية وانصراف رجالاتها والقائمين عليها إلى مباهجهم الدنيوية .

ولا شك أن هذه الأحوال قد شجعت الأغالبة على التخطيط لفتح صقلية ، حيث يتحدث المؤرخون عن انفجار العديد من الاضطرابات في الجزيرة في مطلع القرن الثالث للهجرة ، وكان أهمها حركة أوفيماس (فيمي في المصادر العربية) ، فقد ذكر ابن الأثير في تاريخه الكامل «أن ملك الروم بالقسطنطينية استعمل على جزيرة صقلية بطريقاً اسمه قسطنطين سنة إحدى عشرة ومائتين ، فلما وصل إليها استعمل على جيش الأسطول إنساناً رومياً اسمه فيمي ، كان حازماً شجاعاً ، فعزا إفريقية ، وأخذ من سواحلها تجاراً ونهب ، وبقي هناك مديدة ، ثم إن ملك الروم كتب إلى قسطنطين يأمره بالقبض على فيمي مقدم الأسطول وتعذيبه ، فبلغ الخبر إلى فيمي ، فأعلم أصحابه فغضبوا له ، وأعانوه على المخالفة ، فسار في مراكبه إلى صقلية واستولى على مدينة سرقوسة ، فسار إليه قسطنطين ، فالتقوا واقتتلوا فانهزم قسطنطين وعاد إلى مدينة قطانية ، فسير إليه فيمي جيشاً ، فهرب منهم فأخذ وقتل ، وخوطب فيمي بالملك ، واستعمل على ناحية من الجزيرة رجلاً اسمه بلاطة ، فخالف على فيمي وعصى ، واتفق هو وابن عم له اسمه ميخائيل ــ وهو والي مدينة بلرم ــ وجمعا عسكراً كثيراً فقاتلا فيمي وانهزم فاستولى بلاطة على مدينة سرقوسة ، وركب فيمي ومن معه في مراكبهم إلى أفريقية ، وأرسل إلى الأمير زيادة الله يستنجده ويعده بملك جزيرة صقلية، فسير معه جيشاً في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة ومائتين» [1] .

---

(1) الكامل لابن الأثير ، ج٥ ، ص١٨٦-١٨٧ .

في الحقيقـــية كـــان بلاطة قد راسل الأمير زيادة الله ، بعد التجاء فيمي إليه : وعــرض عليه طلباً فيه عدم مساعدة فيمي والوقوف على الحياد ، ولم يعلم زيادة الله عـــن قـــراره في الوقـــوف إلى جانـــب واحد من الطرفين ، فهو بالأصل كان يريد الاستيلاء على الجزيرة ، والآن تهيأت الفرصة ، لكن الحملة تحتاج إلى نفقات كبيرة ، وإعـــداد للرأي العام في دولته ، ولم يكن يطمع بالحصول على مساعدات من الخلافة العباســية ، ومع أن هذه الخلافة كانت الآن في ظل حكم المأمون نشطة عسكرياً في منطقة الثغور مع بيزنطة ، ولذلك التفت الأمير زيادة الله نحو الفقهاء ، وعلماء الدين ، فعن طريقهم كان من الممكن إعلان الجهاد ، وتجنيد العساكر ، وجمع الأموال اللازمة، لهذا عقد مجلساً لبحث مسألة صقلية والصراع فيها ، وحضر المجلس إلى جانب رجال الدولة عدد من الفقهاء مع القاضي الإمام أسد بن الفرات ، وقام المجتمعون بفتح ملف العلاقـــات الإســـلامية الصـــقلية ، فذكر بعض الفقهاء بأنه توجد معاهدة للهدنة بين المســـلمين والبيزنطيين قديمة ، ينبغي التمسك بها ، وقام الإمام أسد بن الفرات برفض هـــذا الموقف ، وأفتى بأن المعاهدة هي بحكم الملغاة ، لأن الجانب البيزنطي خرقها أكثر من مرة ، ولم يتمسك بشروطها ، وأنه من واجبات الأمير إعلان الجهاد ، ونفذ الأمير الأغلـــبي قـــرار قاضي المسلمين ، فأعد أسطولاً كبيراً من سبعين سفينة شحنها بعشرة آلاف مقـــاتل مـــن الرجالة ، وسبعمائة من الفرسان ، وببراعة متناهية وفهم سياسي عمـــيق أســـندت قيادة هذه الحملة إلى القاضي أسد بن الفرات ،فاجتمعت له بذلك الإمارة والإدارة والقضاء في آن واحد .

وفي ربـــيع شهر ربيع الأول من عام ٢١٢هـــ ـــ حزيران ٨٢٧م أقلعت الحملة العربـــية من ميناء سوسة تريد جزيرة صقلية ،وتوقفت أولاً أمام مدينة مازر ، وهناك التقـــت بالأســـطول البيزنطي للجزيرة فسحقته ، ودخل المسلمون الجزيرة ، وأخذوا يحـــتلون من مواقعها الواحد تلو الآخر ، وشرع ابن الفرات بحصار مدينة سرقوسة براً

وبحـــراً ، وبعدمـــا أتاه المدد من القيروان ، ومن المفيد هنا ملاحظته أن قاضي إفريقية رفض حين توجهه لغزو صقلية أن يصطحب فيمي وأعوانه .

وأثـــناء حصار سرقوسة وصل أسطول بيزنطي كبير لفك الحصار عنها ، وأمده أســـطول مـــن البندقية ، وبسبب ذلك ولتأخر النجدات من القيروان ، أصيب جيش الأغالبة بانتكاسة ، لكن على الرغم من ذلك لم يتوقف عن متابعة الجهاد ، ثم أصيب بانتكاســـة ثانية ، حيث انتشر الطاعون بين صفوفه ، وأثناء هذا مات أسد بن الفرات قائد الحملة ، وكان ذلك سنة ٢١٣هـــ ـــ ٨٢٩م [١] .

لقـــد اســـتغرقت أعمال فتح صقلية أكثر من سبعين سنة خاض العرب خلالها ملاحـــم رائعة حتى خلصت الجزيرة لهم ، وأخفقت جميع جهود الإمبراطورية البيزنطية في الحفاظ عليها ، وقبل الحديث عن مراحل الفتح ثم تاريخ الجزيرة ومحاولات التوسع من هناك في إيطاليا مفيد أن نقدم وصفاً موجزاً لجغرافية هذه الجزيرة .

قـــام عمـــاري في كتابه «المكتبة الصقلية» بجمع ما جاء في المكتبة العربية عن جغرافية صقلية في قرابة ١٦٠ صفحة ، ومن هذه المواد :

قول ابن حوقل : «وأما صقلية فجزيرة طولها سبعة أيام في أربعة أيام ، والغالب عليها الجبال والقلاع والحصون ، وليس لها مدينة مسكنة ، معروفة غير المدينة المعروفة ببلرم ، وهي قصبة صقلية على نحر البحر من الشمال ... عليها سور من حجارة مانع شامخ ، يسكنها التجار ، وفيها المسجد الجامع» .

---

(١) ريـــاض الـــنفوس ، ج١ ، ص٢٥٤-٢٧٣ . أعمـــال الأعلام ، ج٣ ، ص١٠٩-١١١ . والمقفى المقريزي، ط. بيروت ١٩٩١ ، ج٢ ، ص٥٩-٦٢ ، البيان المغرب ، ج١ ، ص١٠٢-١٠٣ . الكامل لابـــن الأثير ، ج٥ ، ص١٨٦-١٨٨ . المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا لأحمد توفيق المدني ص٥٧-٦٣ . تـــاريخ صقلية الإسلامية لعزيز أحمد ، ترجمة عربية ، ط. ليبيا ١٩٨٠ ، ص١٣-١٥ . الدولة الأغلبية لمحمد الطالبي ، ط. بيروت ١٩٨٥ ، ص٤٣١-٤٦٧ .

وتحـــدث الشريف الإدريسي عن صقلية بإسهاب ، ومن ذلك قوله : «جزيرة صـــقلية فريدة الزمان فضلاً ومحاسن ، ووحيدة البلدان طيباً ومساكن ، وقديماً دخلها المـــستجولون من سائر الأقطار ، والمترددون بين المدن والأمصار ، وكلهم أجمعوا على تفضـــيلها وشـــرف مقدارها ، وأعجبوا بزاهر حسنها ، ونطقوا بفضائل ما بها ، وما جمعته من متفرق المحاسن ، وضمته من خيرات سائر المواطن ...

فأمـــا صقلية المقدم ذكرها ، فأقدارها خطيرة ، وأعمالها كبيرة ، وبلادها كثيرة ، ومحاســـنها جمة ، ومناقبها ضخمة ، فإنا نحن حاولنا إحصاء فضائلها عدداً وذكرنا أحوالها بلـــداً بلداً ، عز في ذلك المطلب ، وضاق فيه المسلك ، لكننا نورد منها جملاً يستدل بها ، ويحصـــل عـــلى الغرض في المقصود فيها إن شاء الله تعالى ، فنقول : إن هذه الجزيرة ... مائة بلد وثلاثون بلداً بين مدينة وقلعة ، غير ما بها من الضياع والمنازل والبقاع» [(١)] .

ووصـــف أبو حامد الغرناطي جزيرة صقلية وقد لفت انتباهه بركانها المشهور فقال : «وفي بحر الروم جزيرة يقال لها صقلية فيها جبل قريب من البحر تخرج منه نار تضـــيء بالليل إلى عشرة فراسخ ... لا يحتاج معها أحد في تلك المواضع إلى ضوء ولا ســـراج في طريق ،ولا في قرية لكثرة الضوء ، ويخرج من تلك النار جمر كبار كأعدال القطـــن يتقطع ، فيقع بعضها في البر فيصير حجراً أبيض خفيفاً يطفو على الماء لخفته ، والذي يقع في البحر يصير حجراً أسود مثقباً تحك به الأرجل في الحمام ، ويطفو على المـــاء أيضاً ، وإن وقع جمر من تلك النار على حجر أو رمل احترق الحجر ، واشتعل كما يشتعل القطن حتى يقع ذلك الحجر ويصير غباراً كالكحل» [(٢)] .

ومن أشهر مدن صقلية :

- بلرم : هي من أهم مدن الجزيرة قديماً وحديثاً ، جميلة الموقع والمنظر معتدلة المناخ ،

---

(١) المكتبة الصقلية ، ص٤ ، ٢٥-٢٧ .

(٢) المكتبة الصقلية ، ص٧٤-٧٥ .

مياهها متدفقة ، وهي فينيقية التأسيس ، اتخذها العرب حاضرة لحكمهم في صقلية ، وغدت مركزاً حضارياً هاماً خاصة في ظل الكلبيين في العصر الفاطمي ، وما تزال بعض مواقعها تحمل الطابع العربي الإسلامي من ذلك :

قصر الفوارة : ويقع فوق جزيرة تحيط به بركة صناعية من جهاته الثلاث ، وقد بني أيام حكم الأسرة الكلبية واتخذه فيما بعد الملوك النورمانديين مكاناً للهوهم وخلاعاتهم ، وما تزال خرائبه ماثلة حتى الآن ، ونضيف إلى هذا القصر قصر العزيز ثم قصر القبة والقصر الملكي ، وهو آية من آيات الفن والجمال ، كان مقر الدولة والأمراء العرب .

وفي ضواحي بلرم العديد من الأبنية العربية والآثار الهامة .

- **مسينا** : وهي أيضاً مدينة جميلة الموقع ، وذات أهمية عالية ، لها ميناء واسع النشاط، أتى زلزال مطلع هذا القرن على مبانيها وسكانها .
- **ترميني** : هي مدينة تكاد أن تكون إسلامية خالصة بحاراتها وأزقتها ودورها ، وطرائق العيش فيها ، وهي نشطة الحياة فيها الكثير من الحمامات الحارة .
- **مازره** : وكانت مدينة إسلامية حافلة الشهرة والنشاط ، وما تزال تحتوي على بعض المؤثرات الإسلامية .
- **مرسى علي** : وكانت هذه المدينة من أكثر الموانئ نشاطاً وحركة ، لأنها ربطت صقلية بإفريقية .
- **أطرابنش** : من مشاهير المدن أيام المسلمين بها مرسى على شكل هلال كان نشطاً وله علاقات مع إفريقية .
- **طبرمين** : وكانت أهم المعاقل البيزنطية ، قاومت العرب طويلاً ، وبعدما افتتحوها دكوها دكاً ، وعلى مقربة منها قرية القنطرة العربية ثم قرية الزعفرانة ، وما تزالان تحتفظان بهذين الاسمين .

- **سرقوســـة** : وكانت قبل الفتح العربي أشهر مدن صقلية ، تعرضت دوماً لغاراتهم ، وهي مدينة ذات جمال رائع وبهاء وجلال .
- **نوطـــس** : كانت أيام المسلمين مركز ولاية ، وذات أهمية عالية وظلت هكذا حتى القرن السابع عشر [1] .

وســـارت عملـيات فـــتح صقلية في البداية بنجاح كبير ، فبعد ثلاثة أيام من الإقـــلاع من سوسة وصلت القوات العربية إلى مرسى مازره ، وبذلك قطعت في كل يوم مسافة مائة كيلو متر ، ونزل العرب في مازره وفتحوها ، وذلك أنهم لم يجدوا من يدافع عنها ، وهكذا أتيح لهم إنزال معداتهم وما حملوه معهم .

في هـــذا الوقت بلغت الأخبار بلاطة فخف نحوهم على رأس قوات عملاقة ، قيل بلغـــت عشـــرة أضـــعاف القوات العربية ، وأعلن بلاطة أنه سيقذف بالعرب إلى البحر، وتصـــدى له العـــرب واعترضوا سبيله خارج مازره ، وتقدم أسد بن الفرات على رأس القـــوات العربية وبيده اللواء ، وهو يتلو آيات من القرآن الكريم ، وشجع جنده ورفع من معنوياتهم ، وحمل المسلمون معه بصدق وعزيمة ، فهزموا عدوهم هزيمة ساحقة .

وفرّت فلول قوات بلاطة نحو سرقوسة ، ولاحقها المسلمون بدون تمهل وبذلك اســـتولوا على جنوب صقلية ، ووقفوا أمام أسوار هذه المدينة ، وأخفق المسلمون في اقتحام هذه المدينة الحصينة ، وطال الحصار وقلت المؤن لدى المسلمين ، وطالب بعض الجـــند أســـد بـــن الفرات بالعودة إلى تونس ، فأدبهم وتابع الحصار ، وأخذت المؤن والمساعدات تصل إلى داخل سرقوسة وكذلك وصلت بعض المساعدات إلى العرب ، واســـتمر أســـد بـــن الفـــرات يناضل حتى أجهده القتال فتوفي شهيداً ، ودفن تحت أسوار سرقوسة .

---

[1] المكتبة الصقلية ، ص٢٥-٧٤ .

واختار المسلمون أميراً جديداً اسمه محمد بن أبي الجواري ، وكانت معنوياتهم قد تدنت فاتخذ الأمير الجديد قراراً بالانسحاب وإخلاء الجزيرة والعودة إلى أفريقية ، وفيما هم منسحبين واجههم أسطول كبير قدم من القسطنطينية بنجدة لسرقوسة ، وسد الأسطول البيزنطي الطريق أمام المسلمين ، فعادوا مضطرين إلى الجزيرة ، وعزموا على الجهاد والصبر حتى الشهادة ، ووصلت في ساعات الشدة هذه بعض الإمدادات من إفريقية ، والأهم أنه وصل إلى الجزيرة أسطول أندلسي قوي بقيادة أصبغ بن وكيل الذي اشتهر باسم «ابن فرغلوش» .

واتفق المسلمون معاً على متابعة الجهاد في الجزيرة وصد الروم عنها ، على أن تكون الإمارة عند تحقيق النصر لابن فرغلوش ، وحقق العرب عدة انتصارات وتوجهوا الآن لفتح مدينة قصر يانة ، فحاصروها ، وفي سنة ٢١٦هـ ــ ٨٣١م حل الوباء بين صفوف المسلمين فمات بسببه ابن فرغلوش ، ثم مات محمد بن أبي الجواري، فولى المسلمون أمورهم أميراً جديداً ، اسمه عثمان بن قهرب . في هذه الأثناء انسحب الأندلسيون إلى بلادهم فبادر زيادة الله ابن الأغلب بإرسال جيش جديد إلى صقلية قوامه ثلاثين ألفاً بقيادة أمير عرف باسم زهير بن عوف ، فاشتد ساعد المسلمين واستؤنف حركة الفتوح ، وسار العرب من نصر إلى نصر .

وتوجه العرب الآن ضد مدينة بلرم ، وقاومهم الروم من داخلها مقاومة شديدة، وحدث أثناء الحصار أن تمكنت قوة عربية سنة ٢١٩هـ ــ ٨٣٤م من فتح مدينة مسينا ، مما كان له أكبر الآثار على الوضع في بلرم ، وهكذا في سنة ٢٢٠هـ ــ ٨٣٥م تفاوض الروم مع العرب على أن يسلموهم بلرم شريطة السماح لهم بالانسحاب بحراً إلى القسطنطينية ، وهذا ما كان واتخذ العرب بلرم عاصمة لهم في الجزيرة ومنها أخذوا يتابعون أعمال الفتح .

وبات الروم الآن والقوات المسيحية محصورين في مثلث من صقلية يمتد من

الشـــرق نحو الجنوب الغربي من مسينا إلى قصر يانة ثم يرجع من قصر يانة نحو الجنوب الشـــرقي إلى مدينة نوتو ، وحاول المسلمون خرق هذا المثلث أولاً باحتلال قصر يانة فـــأخفقوا ، ثم باحـــتلال سرقوســـة فأخفقوا أيضاً ، وفي سنة ٢٢١هـــ ـــ ٨٣٦م تـــوفي الأمير زهير بن عوف ، فولى أمر الجزيرة أغلبي هو أبو الأغلب إبراهيم بن عبد الله بن الأغلب .

رأى الأمير الجديد أن وضع المسلمين وقواهم في نمو مضطرد ، لكن المساعدات البيزنطـــية لم تـــنقطع عن الجزيرة فقرر عزلها بحرياً ، وحقق الأسطول العربي نجاحات واســـعة حيث دمر السفائن البيزنطية واستولى على بعض منها ونشر الرعب في قلوب جمع الأعداء .

وتمكـــن المســـلمون سنة ٢٢٣هـــ ـــ ٨٣٨م من احتلال جزء من قصر يانة ثم انســـحبوا منها ، وفي هذه الآونة وزع العرب نشاطاهم بين إكمال فتح صقلية وفتح الجنوب الإيطالي ، وبالفعل تدخل العرب في إيطاليا أولاً لصالح مملكة نابولي واستطاعوا احتلال أجزاء واسعة من إيطاليا واستولوا على مدينة باري الساحلية ، ووصلت قواهم إلى أرباض روما لاحتلالها ، لكن نشوب بعض الخلافات الداخلية بين صفوفهم ردهم.

ومـــنذ سنة ٢٣٨هـــ ـــ ٨٥٣م غدت مدينة باري مقراً لإمارة عربية مستقلة تحكـــم الجنوب الإيطالي ، وإليه نقلت المعارف العربية والفنون على اختلاف ألوانها ، وهكـــذا عـــبرت الحضارة العربية عبر صقلية والجنوب الإيطالي إلى داخل أوروبا مما سيكون له فيما بعد أبعد الآثار وأهمها .

وفي ســـنة ٢٣٩هـــ ـــ ٨٥٤م حاول العرب مجدداً فتح روما والاستيلاء أيضاً عـــلى جميع سواحل إيطاليا ، وفتح جزيرة كريت ـــ وهذا موضوع سنعود لـــه بعد قلـــيل ـــ وحقق العرب نجاحات كبيرة في البحر ضد الأساطيل الأوروبية ، ومجدداً بدا الـــبحر المتوســـط يتحول إلى بحيرة عربية ، وتوالت النجاحات داخل صقلية ، وتمكن

العرب أيضاً من فتح جزيرة مالطة ، لكن المؤسف أن إمكانات دولة الأغالبة كانت لا تسمح بمتابعة الاتفاق على مشاريع الجهاد البحرية والبرية ، ولنتذكر أن فتح صقلية احتاج سبعين سنة ، وقد نجم عن النفقات الكبيرة وسواها أزمات خانقة داخل أوساط الأغالبة وفي أفريقية عامة ، وفيما جهود الأغالبة منصرفة إلى إيجاد الحلول للمشاكل الداخلية ولمتابعة الجهاد في صقلية وفي الجنوب الإيطالي [1] استغل دعاة الدعوة الإسماعيلية هذا الوضع ، فنشطوا في ديار كتامة وسواها ، وأخيراً تمكن أبو عبد الله من الإطاحة بالحكم الأغلبي وإقامة الخلافة الفاطمية في المغرب .

إنه قدر لا يعرف الرحمة ، كيف أطيح هكذا بدولة الأغالبة العربية وجبهات الجهاد بالمتوسط بأمس الحاجة إليها وإلى قواها ، والشيء نفسه تكرر فيما بعد على أرض المغرب العربي ، فعندما تفرغت دولة المرابطين لاسترداد الأراضي العربية ، تعرضت هي الأخرى لما نجم عن دعوة المهدي بن تومرت ، وسقطت دولة المرابطين للموحدين ، وذهبت بعض الآراء حديثاً إلى ابن تومرت كان باطنياً ؟ [2] .

لقد بحثنا في تاريخ قيام الدولة الفاطمية في أكثر من كتاب ، وليس بودنا البحث في هذا الموضوع مجدداً الآن ، بل الذي نبتغي تبيانه أن عبد الله المهدي ، أول خلفاء الدولة الفاطمية لم يستقر طويلاً في مدينة القيروان ، ولم يتخذ مدينة تونس عاصمة له، بل أنشأ مدينة المهدية على ساحل المتوسط ، ولقد كان للفاطميين سياسة بحرية خاصة بهم وامتلكوا أساطيلهم ، لكنهم لم ينشطوا مثل الأغالبة ، ذلك أن أعينهم كانت ترنو

---

(١) أعمال الأعلام ، ج٣ ، ص١٠٩-١٢١ . المكتبة الصقلية، ص١٦٣-٥٤٥ . المدني ، ص٦١-١٠٠. عزيز أحمد ، ص١٣-٣١ . العرب في صقلية ، ص٣١-٥٧ . تاريخ المسلمين في البحر المتوسط لحسين مؤنس ، ط. القاهرة ١٩٩١ ، ص٦٦-٧٦ . بيزنطة ومسلمو جنوب إيطاليا وصقلية لوديع فتحي عبد الله ، ط. الإسكندرية ١٩٩٢ ، ص٧-٢٨ . الدولة الأغلبية ٤٤٩-٥٩٩ .

(٢) أضواء جديدة على المرابطين لعصمت عبد اللطيف دندش ، ط. بيروت ١٩٩١ ، ص١١-٣٦ .

نحـــو المشرق للانتقال إليه ، ومع ذلك لم يقصروا في الحفاظ على هيبة ملكهم ، وقد انعكس هذا كله على أوضاع صقلية .

بعــيد دخول أبي عبد الله الداعي إلى رقاد ، وإزالته لملك بني الأغلب ، راسله بعــض المتنفذين في صقلية بالاعتراف بالسلطة الجديدة ، وكانت الأوضاع في الجزيرة آنـــذاك عـــلى درجـــة عالية من الاضطراب ، واستمرت كذلك ، وزاد الفاطميون بسياســـتهم الاســـتبدادية الخـــرقاء في اضطراب الأحوال فيها وإضعافها ، ففي سنة ٢٩٧هـــــ ــ ٩١٠م بعث المهدي الفاطمي الحسن بن أحمد أبي خنْزير والياً من قبله على صقلية ، وكان ابن أبي خنْزير هذا من زعماء كتامة ، فيه جفاء وجهل وعصبية ، أراد تغليـــب العنصر البربري على الجزيرة فقاومه أهلها وطردوه ، وعين المهدي والياً جديـــداً عـــلى الجزيرة ، لكن الأمور لم تعرف الاستقرار ، وأعلنت صقلية استقلالها وسلمت الحكم لأحمد بن زيادة الله بن قرهب ، وكان من أقرباء الأغالبة ، وانتمى ابن قرهـــب بـــالولاء إلى الخلافـــة العباســـية مما أثار خوف المهدي الفاطمي ، وفي سنة ٣٠١هـــــ ــ ٩١٣م بعـــث المهدي بأسطوله وجيشه ضد صقلية ، فرده أهل صقلية بعدمـــا دمروا بعض سفنه ، وفي سنة ٣٠٣هـــ ــ ٩١٥م ، أرسل المهدي حملة ثانية ضـــد صقلية ، واستخدم رسائل الإرهاب وجيش دعاته ، فكان لذلك آثاره ، حيث دانت الجزيرة مجدداً للفاطميين واعتقل ابن قرهب وحمل إلى أفريقية حيث أعدم، ومع هذا ما لبثت الأمور أن عادت إلى الاضطراب في الجزيرة ، وكان لهذا تأثيرات مدمرة ، وقـــد تزامن ذلك مع بدايات نشاطات شعوب النورمان ، فأخذ هؤلاء ينشطون قرب صـــقلية ويســـعون للتعاون مع مسيحييها لكسب قاعدة في أطراف الجزيرة ، وكان المسلمون قد شغلتهم شؤونهم الداخلية وصراعاتهم عما سوى ذلك .

استمرت الأحوال المتردية في صقلية حتى سنة ٣٣٥هـــ ــ ٩٤٦م ، ففي هذه الســـنة عين الخليفة الفاطمي الثالث ، المنصور إسماعيل الحسن بن علي بن أبي الحسين

الكلبي الكتامي أميراً على صقلية ، فأسس فيها حكم أسرة وراثية استمرت تحكم الجزيرة حتى تاريخ سقوطها للنورمان ،وعرفت هذه الأسرة بالأسرة الكلبية ، وقد استمر حكم هذه الأسرة أكثر من قرن ، وخلال ذلك عاشت الجزيرة خيرة أيامها، فقد تعربت ، وازدهرت فيها الثقافة العربية ، واستطاع أمراء الكلبيين الدفاع عن صقلية ضد محاولات القوى البيزنطية والأوروبية وهزموها في عدة معارك مشرفة ، وهكذا ظل الجنوب الإيطالي بأيدي المسلمين ، لا بل حاولوا فتح روما .

لقد أرسل الحسن بن علي عدة حملات ضد الجنوب الإيطالي ، وفي سنة ٣٥٤هـ ـ ٩٦٥م خاض ضد الجيوش البيزنطية معركة المجاز التي عدت من أعظم معارك التاريخ الإسلامي ، فيها دمر القوات البيزنطية ، فقد التقت هذه القوات بشرذمة قليلة من المسلمين ، صمدت أمام تفوق العدو العددي فانتصرت ، وقتل المسلمون من البيزنطيين «خلقاً عظيماً حزت منهم رؤوس عشرة آلاف» والطريف في خبر هذه المعركة أن الحسن بن علي «اعتل ... لفرط الفرح بما أنعم الله به عليه ، فكانت وفاته من حمى حادة لسبعة أيام [1] ، وهكذا أعيقت أعمال استثمار نتائجها الكبيرة ، وليت الأمر اقتصر على هذا ! .

حدثت هذه المعركة أيام المعز لدين الله الفاطمي ، وكانت الخلافة الفاطمية مشغولة بمد سلطانها على جميع بلدان المغرب ، استعداداً لتوجيه جيوشها ضد مصر ، لذلك عندما وصل إلى المهدية وفد بيزنطي للتفاوض على الصلح استقبل بالترحاب ، وتعاقد البيزنطيون مع المعز لدين الله على عدم معاودة الهجوم على صقلية ، وذلك مقابل أن يخلي المسلمون لهم طبرمين ورمطة التي كان سكانها من المسيحيين ، أي أن ما أخفقت بيزنطة في الحصول عليه في معركة المجاز بقوة السلاح نالته بالمفاوضات ،

---

(١) أعمال الأعلام ، ج٣ ، ص١٢٣ .

وهكـــذا نـــال العـــدو قـــاعدة على أرض صقلية ، كانت نقطة الانطلاق لإسقاط هذه الجزيرة .

فبعد معركة المجاز بأمد قصير تمكنت جيوش الفاطميين من الاستيلاء على مصر، وإلى مصـــر ارتحـــل المعـــز لدين الله الفاطمي ، وهناك تورطت الخلافة بالصراع ضد القرامطة من أجل السيطرة على بلاد الشام ، وتركت صقلية بإمكاناها لوحدها لتواجه قـــوى أوربـــا المتنامـــية خاصـــة في المجال البحري لدى النورمان ولدى جمهوريات إيطاليا الناشئة .

وتأثرت صقلية بتردي أحوال الخلافة الفاطمية ، وبتمزق الأندلس وبقيام حكم دول الطوائـــف ، ثم بمـــا شهدته ساحات المغرب من رفض للولاء الفاطمي ، وهجرة قـــبائل هـــلال وسليم وقيام دعوة الرباط ، ورسم صورة ملخصة للأحوال في صقلية لسان الدين بـــن الخطيب بقوله : «ثم تداول ولاية صقلية أمراء من هذا البيت إلى أن انقطـــع عـــنهم إمـــداد المســـلمين ، لاشتغال كل جهة بما يخصها من الفتن ، فكان استخلاص العدو لها في سنة خمس وثمانين وأربعمائة (١٠٩٢م) .

وكـــان عدو الله الذي تغلب عليه الملك رجار ، وهو الداهية ، العديم النظير في أبناء جنسه : حزماً ودهاء وسياسة» [١] .

وتحـــدث الشـــريف الإدريسي عن سقوط صقلية في كتابه نزهة المشتاق الذي قدمه لروجر الثاني بن قاهر صقلية فقال : «ولما كان في سنة أربعمائة وثلاث وخمسين سنة من سني الهجرة افتتح غرر بلادها وقهر بمن معه طغاة ولاها وأجنادها الملك الأجل والهمام الأفضل المعظم القدر ، السامي الفخر رجا بن تنقريد ، خيرة ملوك الأفرنجيين، ولم يـــزل يفـــرق جموع ولاها ، ويقهر طغاة حماها ، ويشن عليهم الغارات في الليل

---

(١) أعمـــال الأعلام ، ج٣ ، ص١٢٩-١٣٠ . المكتبة الصقلية ، ص٤٧٩-٤٨٥ . المدني ، ص١٢٣-١٦٤ . عزيز أحمد ، ص٣٧-٤٨ . العرب في صقلية ، ص٤٤-٤٩ .

والـــنهار ، ويرمـــيهم بصـــنوف من الحتوف والبوار ، ويعمل فيهم ماضي الشفار ، وعوامـــل القـــنا الخطار إلى أن استولى على جميعها غلبة وقهراً وفتحها قطراً فقطراً ، وملكها ثغراً فثغراً ، وذلك في مدة ثلاثين عاماً .

وأقـــرهم عـــلى أديـــالهم وشـــرائعهم ، وأمنهم في أنفسهم وأموالهم وأهليهم وذراريهم، ثم أقام على ذلك مدة حياته إلى أن وافاه الأجل المحتوم» [1] .

لقـــد قاومـــت صـــقلية مدة ثلاثين سنة لوحدها ، وحين سقطت ، سقطت عســـكرياً ، ولم تســـقط مـــن جوانـــب الحضارة والنظم ، ولم تقم محاولات جادة لاســـتردادها ، وقـــد ورث النورمان أملاكها في إيطاليا ، ولم يكتفوا بهذا بل احتلوا مالطـــة وهاجموا سواحل الشمال الأفريقي فاحتلوا المهدية وغيرها ، ولا شك أن هذا التراجع العربي كان لـــه أبعد الآثار في أحداث الحروب الصليبية ، ولقد أعطى الحكام الـــنورمان لجمهوريـــات إيطالـــية البحرية امتيازات تجارية واسعة في جزيرة صقلية ، وسمحـــوا لهـــم باســـتثمار مؤسســـات التجارة والصناعة التي كان العرب قد شيدوا صروحها بكل عناية وبراعة ، وفي المحصلة «إن اعتداءات النورمان على إيطاليا وصقلية وشـــواطئ الأدرياتـــيكي ، وهجمـــات جنوى وبيزا في المياه الغربية للبحر المتوسط وهجمـــات الإقطاعيين الفرنسيين في الأندلس ، وحركات البنادقة في المياه البيزنطية ، بالإضافة إلى التشجيع القوي الذي بذلته البابوية واتباع الإصلاح الكلوني للقيام بهجوم عـــام على المسلمين من أجل دوافع دينية ، ثم العاطفة الدينية التي دفعت بالآلاف من مســـيحيي غرب أوروبا لزيارة الأماكن المقدسة ، هذه الاتجاهات كلها تفاعلت فيما بيـــنها لإنـــتاج ما نسميه بالحرب الصليبية الأولى . ويمكن القول بعبارة أخرى : إن الحـــرب الصـــليبية الأولى تمثل خليطاً مركباً من عدة عناصر كانت تعمل منذ أمد في

---

[1] المكتبة الصقلية ، ص٢٥-٢٦ .

أحداث غرب البحر المتوسط ، وتتلخص في العاطفة الدينية ، وجشع البحارة الإيطاليين والمغامرين الإقطاعيين للحصول على السلب والنهب ، والرغبة في كسب الامتيازات في ميداني النقل والتجارة» [١] .

ولم ينتزع العرب من الإمبراطورية البيزنطية جزيرة صقلية فقط بل فتحوا أيضاً جزيرة كريت (أقريطش) وحولوها إلى قاعدة بحرية عربية متقدمة وظلوا محتفظين بها لفترة طويلة ، بالإضافة إلى كريت امتلكوا جزر الأندلس الشرقية ــ البليار ــ ومن المفيد أن نختم هذا الفصل بالحديث عن كريت ، ذلك أن الحديث عن جزر البليار هو مرتبط بتاريخ الأندلس والمغرب ، ولا يعنينا هذا المدخل مباشرة [٢] .

وتعدّ جزيرة كريت بين أهم جزر المتوسط عرفت الحضارة قبل أن تعرفها بلاد الإغريق ، وكانت لها عبر التاريخ علاقات مع مصر والشام وسواها ، وبعد قيام الإسلام ونجاح حركة الفتوحات حاول العرب أكثر من مرة فتح هذه الجزيرة ، لكن بيزنطة دافعت عنها وحالت بينهم وبين ذلك حتى مطلع القرن الثالث للهجرة .

واختلفت حكاية هذا الفتح عن غيرها من الفتوحات البحرية ، فقد كان فتحاً «شعبياً» ــ إذا جاز التعبير ــ ولم يكن فتحاً رسمياً ، وراءه دولة أو نظام حاكم ، ونحن نذكر أن فتح الأندلس كان بحرياً من بعض الجوانب ، وقد امتلك أهل الأندلس أساطيلهم منذ فترة مبكرة ، ولا صحة لما ذهبت إليه بعض الآراء من أن الأندلس صار لديها أساطيلها بعدما تعرضت لمخاطر الفيكونكغ ، وجابت السفن والأساطيل الأندلسية جميع بقاع المتوسط للتجارة والنقل والأغراض الأخرى ، وجرت العادة في

---

(١) القوى البحرية والتجارة في حوض البحر المتوسط لآرشيد بالدواويس ، ترجمة عربية ، ط. القاهرة ، ص٣٧٩-٣٨٠ .

(٢) درس تاريخ جزر البليار بشكل جيد في كتاب جزر الأندلس المنسية للدكتور عصام سالم سيسالم ، ط. بيروت ١٩٨٤ .

الأندلـــس أن «كـــل بلد يتخذ فيه السفن أسطول ، ويرجع نظره إلى قائد من النواتية يدبر أمر حربه وسلاحه ومقاتلته ، ورئيس يدبر أمر جريه بالريح أو بالمجاذيف ، وأمر إرسائه في مرفئه» [1] .

وبمـــا أن الأســـاطيل العربية قد ملكت السيطرة على البحر المتوسط ولامتداد الشـــواطئ العربية شرقا وغرباً ، فقد اعتادت السفن الأندلسية على الرسو في أي بلد إسلامي . أرادت ، يقول ابن خلدون : «والساكنون بسيف هذا البحر وسواحله من عدوتـــيه يعانون من أحواله ما لا تعانيه أمة من أمم البحار ، فقد كان الروم والأفرنجة والقوط بالعدوة الشمالية من هذا البحر الرومي ، وكانت أكثر حروبهم ومتاجرهم في السفن ، فكانوا مهرة في ركوبه والحرب في أساطيله ...

فلما استقر الملك للعرب وشمخ سلطانهم ، وصارت أمم العجم خولاً لهم وتحت أيديهـــم ، وتقـــرب كـــل ذي صنعة إليهم بمبلغ صناعته ، واستخدموا من النواتية في حاجـــاتهم الـــبحرية أممـــاً وتكررت ممارستهم للبحر وثقافته ، استحدثوا بصراء بها ، فشـــرهوا إلى الجهـــاد فيه ، وأنشؤوا السفن فيه والشواني وشحنوا الأساطيل بالرجال والسلاح ، وأمطوها العساكر والمقاتلة لمن وراء البحر من أمم الكفر ، واختصوا بذلك مـــن ممـــالكهم وثغورهم ما كان أقرب لهذا البحر ، وعلى حافته مثل الشام وإفريقية والمغرب والأندلس ...

وكـــان المســـلمون لعهـــد الدولة الإسلامية قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانـــبه ، وعظمت صولتهم وسلطانهم فيه فلم يكن للأمم النصرانية قبل بأساطيلهم بشـــيء من جوانبه ، وامتطوا ظهره للفتح سائر أيامهم ، فكانت لهم المقامات المعلومة من الفتح والغنائم ، وملكوا سائر الجزائر المنقطعة عن السواحل فيه» [2] .

---

[1] مقدمة ابن خلدون ، ص٤٤٩-٤٥٠ .

[2] مقدمة ابن خلدون ، ص٤٤٧-٤٥٠ .

وكانت بعض الأساطيل الأندلسية قد اعتادت على الرسو أمام ميناء الإسكندرية عند قفولها من الغزو «ليبتاعوا ما يصلحهم ، وكذلك كانوا على الزمان ، وكانت الأمراء لا تمكنهم من دخول الإسكندرية ، إنما كان الناس يخرجون إليهم فيبايعونهم» [1] . لقد روى هذا الكندي في كتابه ولاة مصر ، وعرض ذلك لدى الحديث عن وقائع سنة ١٩٩هـ ـ ٨١٤م ، وكانت أوضاع مصر آنذاك مضطربة بدأت المشاكل فيها منذ أواخر أيام الرشيد واشتدت أثناء الصراع على الخلافة بين الأمين والمأمون ، واضطرمت في الفترة التي مكث فيها المأمون في مدينة مرو ، واستولى أثناء بعضها إبراهيم بن المهدي على عرش الخلافة في بغداد .

وكان والي مصر المطلب بن عبد الله الخزاعي ، وعهد هذا الوالي إلى محمد بن هبيرة بن هاشم بن حديج بولاية الإسكندرية ، واستخلف هذا الوالي عمر بن عبد الملك (ويقال له أيضاً عمر بن هلال) على ولاية الإسكندرية التي لم تنعم بالاستقرار ، ووجد فيها عدة قوى تصارعت من أجل السلطة في الإسكندرية .

وقام والي الفسطاط المطلب بن عبد الله بعزل عمر بن عبد الملك عن الإسكندرية وعين بدلاً عنه أخاه الفضل بن عبد الله ، وغضب عمر بن عبد الملك من عزله وتعيين المطلب لأخيه بدلاً عنه وأراد الاستيلاء على السلطة في الإسكندرية والخروج على والي مصر المقيم في الفسطاط .

في هذه الآونة كان تغلب على بلدة تنيس القريبة أحد قادة الجند واسمه عبد العزيز الجروي ، وطمع بالاستيلاء على مصر ، وعندما سير والي الفسطاط ضده حملة نهرية هزمها عند شطنوف على النيل وأسر أميرها السري بن الحكم ، ودعا الجروي عمر بن عبد الملك للتحالف ، فاستجاب وقرر الثورة بالفضل بن عبد الله وطرده من الإسكندرية ، ولكي يحقق هدفه رأى أن يستعين بالأندلسيين المرابطين أمام ميناء

---

[1] الولاة والقضاة للكندي ، ط. بيروت ١٩٠٨ ، ص١٥٨ .

الإسكندرية ، وكان عدد هؤلاء الأندلسيين يتراوح ما بين الأربعة آلاف إلى الخمسة ، وكان قوام أسطولهم أربعين سفينة ، ويرجح أنهم لجؤوا إلى الإسكندرية في مطلع الخريف لذلك العام ، واستجاب هؤلاء لطلب عمر بن عبد الملك فاستولوا معه على الإسكندرية ، ونادى عمر بن عبد الملك الآن بالجروي واليا على مصر ، ولكن أهل الإسكندرية غضبوا من تدخل الأندلسيين في شؤونهم فثاروا بهم وأخرجوهم من المدينة بعدما قتلوا عدداً منهم ، وهكذا عاد الفضل بن عبد الله إلى عمله .

ولم يجلب هذا الأمن والاستقرار إلى الإسكندرية ، حيث قام المطلب بن عبد الله بعزل أخيه الفضل وعين بدلاً عنه إسحاق بن أبرهة بن الصباح ، ثم ما لبث أن عزله وعين بدلاً عنه أبا بكر بن جنادة بن عيسى المعافري ، الذي انتمى إلى عشيرة قوية ، ومع هذا لم يعد الاستقرار إلى الإسكندرية لأن الأوضاع اضطربت بشدة في الفسطاط حيث تحالف الجروي مع أسيره السري بن الحكم ضد المطلب واجتذبا بعض جند الفسطاط إليهما مما اضطر الفضل إلى مغادرة مصر إلى الحجاز بحراً، وتسلم الولاية في الفسطاط السري ابن الحكم بناء على إجماع الجند وكان ذلك في رمضان سنة ٢٠٠هـ ـ ٨١٥م .

وفي هذه الأثناء تمكن عمر بن عبد الملك من طرد المعافري من الإسكندرية واستولى على مقاليد الأمور فيها من جديد ، وبذلك أتاح مجدداً السبيل للأندلسيين للنزول في بر الإسكندرية ودخول المدينة ، والتسلط على أهلها ، الذين كانوا قد أخرجوهم من قبل ونقموا عليهم سلوكهم ونسبوا إليهم مفاسد كثيرة .

وظلت خواطر أهل الإسكندرية غير مرتاحة لتسلط الأندلسيين ،ولهذا قرر عمر بن عبد الملك إخراجهم إلى سفنهم ، وهكذا فسدت العلاقة بين الطرفين ، وتربص الأندلسيون شراً بعمر بن عبد الملك .

وساعدت أوضاع الإسكندرية الأندلسيين على إحكام قبضتهم عليها ففي ظل

الأوضاع المضطربة والنِّزاعات على السلطة خرج من بين صفوف أهل المدينة حركات شعبية كان أبرزها واحدة عرفت بالصوفية ، تبنى أفرادها الأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر ، وصاروا يسيرون في المدينة وقد علقوا على أعناقهم المصاحف «ويعارضون السلطان في أمره ، فترأس عليهم رجل منهم يقال له أبو عبد الرحمن الصوفي ، فصاروا مع الأندلسيين يداً واحدة ، واعتضدوا بلخم ، وكانت لخم أعز من في ناحية الإسكندرية ، فخوصم أبو عبد الرحمن الصوفي إلى عمر بن هلال في امرأة ، فقضى على أبي عبد الرحمن ، فوجد في نفسه من ذلك ، وخرج إلى الأندلسيين ، وألف بينهم وبين لخم ، ورجا أهل الأندلس أن يدركوا من عمر بن هلال ، فساروا إلى عمر وهم زهاء عشرة آلاف من لخم ومن الأندلسيين ، ومن ضوى إليهم فحصروه في قصره ، فعلم عمر أن القصر لا يمنعه منهم ، وخاف أن يدخل عليه عنوة، فيفضح في حرمه ، فاغتسل وتحنط وتكفن ، وأمر أهله أن يدلوه إليهم فدلي ، فأخذته السيوف فقتل ، ثم دلي إليهم أخوه محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن معاوية بن حديج فقتل ، ثم دلي إليهم ابن عمه أبو هبيرة الحارث بن عبد الواحد فقتل، ما دلي إليهم حديج بن عبد الواحد فقتل وانصرف القوم ...

وكان مقتل عمر بن هلال وأهله في ذي القعدة سنة مائتين ، ثم فسد أمر لخم والأندلسيين عند مقتل عمر بن هلال ، وقام بأمر لخم رباح بن قرة ، وسار إلى الأندلسيين فحاربهم فانهزمت لخم ، وظهر الأندلسيون بالإسكندرية عنوة ف ذي الحجة سنة مائتين ، فولوها أبا عبد الرحمن الصوفي ، فبلغ من الفساد بالإسكندرية والقتل والنهب ما لم يسمع بمثله ، فعزله الأندلسيون عنها ، وولوا رجلاً منهم يعرف بالكناني ، ثم حاربت بنو مدلج أهل الأندلس ، فظفر بهم الأندلسيون فنفوهم عن البلاد» [1] .

---

(1) الكندي ، ص١٥٤-١٦٤ .

وكانـــت أنـبـاء تغلب الأندلسيين على الإسكندرية قد وصلت إلى عبد العزيز الجـــروي المتغلـــب عـــلى تنيس ، ولم يرضه ما حدث لحليفه عمر بن هلال ، وقرر اســترجاع الإسكندرية من الأندلسيين ، وقام بعدة حملات ضد هذه المدينة وحاصرها أكثر من مرة فأخفق ، ثم إنه «سار إلى الإسكندرية مسيره الرابع ، فأغلق الأندلسيون حصـــنها ، فحاصرهم لجروي أشد الحصار ، ونصب عليهم المنجنيقات ، وأقام على ذلـــك ســبعة أشهر من مستهل شعبان سنة أربع ومائتين إلى سلخ صفر سنة خمس ، فأصـــاب الجـــروي فلقة من حجر منجنيق ، فمات سلخ صفر سنة خمس ومائتين ، ومات السري بن الحكم بالفسطاط بعده بثلاثة أشهر»[(١)].

لقد مكث الأندلسيون يتحكمون بالإسكندرية أكثر من عشر سنوات ، حيث ظلـــت الأمـــور مضـــطربة في مصر وفي المشرق أيضاً ، ويبدو أن عند الأندلسيين في الإسكندرية ازداد كثيراً بوصول أندلسيين جدد إليها ، لا سيما من سكان ربض قرطبة الذيـــن ثـــاروا ضد الأمير الحكم بن هشام في سنة ٢٠٢هـــ ـــ ٨١٧م فبطش بهم ، وهدم الربض وأجلى أهله[(٢)] ، فجاء بعضهم إلى المغرب الأقصى «فصعدوا إلى مدينة فـــاس ، وكـــانوا ثمانية آلاف بيت ، فنَزلوا عدوة الأندلس وشرعوا بها في البناء يميناً وشمالاً ... فسميت عدوة الأندلسيين»[(٣)].

وتـــرجم ابـــن الآبار في الحلة السيراء للحكم بن هشام فتحدث عن فتنة ربض قرطـــبة ووصـــف تدمير الربض وشتات سكانه حيث ساروا «كل بحسب ما أمكنه ، واستمروا ظاعنين على الصعب والذلول ... متفرقين في قصي الكور وأطراف الثغور ، ولحق جمهورهم بطليطلة لمخالفة أهلها الحكم ، ولجأ آخرون إلى سواحل بلاد البربر ،

---

(١) الكندي ، ص١٦٥-١٧٢ .
(٢) كتابي تاريخ العرب والإسلام ، ط. بيروت ١٩٧٥ ، ص٤٦٦ .
(٣) روض القرطاس ، ص٤٧ .

وأصعدت منهم طائفة عظيمة ــ نحو الخمسة عشر ألفاً ــ في البحر نحو المشرق ، حتى انتهوا إلى الإسكندرية» [1] .

وفي المشرق ترك المأمون مرو وجاء إلى بغداد ، وأعاد هيبة الدولة العباسية واستقرارها في المركز ، واهتم بشؤون مصر ، فوجه عبد الله بن طاهر بن الحسين إلى مصر ، فأقبل على رأس قوة برية بحرية ، وتمكن من الاستيلاء على مدينة الفسطاط ودخل إليها «يوم الثلاثاء لليلتين خلتا من ربيع الأول سنة إحدى عشرة» ثم قرر الزحف ضد الإسكندرية ، ونزل عليها «في ربيع الأول سنة اثنتي عشرة ، وحصرها بضع عشرة ليلة ، فخرج إليه أهلها بأمان وصالح الأندلسيين على أن يسيرهم من الإسكندرية حيث أحبوا ، على أن لا يخرجوا في مراكبهم أحداً من مصر ، ولا عبداً ولا أبقاً ، فإن فعلوا فقد حلت له دماؤهم ، ونكث عهدهم ، وتوجهوا ، فبعث ابن طاهر من يفتش عليهم مراكبهم ، فوجد فيها جمعاً من الذين اشترط عليهم أن لا يخرجوهم ، فأمر ابن طاهر بإحراق مراكبهم ، فسألوه أن يردهم إلى شرطهم ففعل» [2] .

وسار الأندلسيون نحو جزيرة كريت حيث تمكنوا من فتحها ، لكن لماذا نحو كريت، ومن أين ولدت هذه الفكرة لديهم ؟ يبدو أن الأندلسيين كانوا أثناء سيطرتهم على الإسكندرية قد تابعوا نشاطاتهم داخل البحر المتوسط ، وقد اضطروا لذلك لتأمين المؤن وأسباب الاستمرار ، وهكذا أغاروا على كريت عدة مرات ، ولربما أغاروا على صقلية أيضاً ، وفي السنة التي نزل فيها عبد الله بن طاهر الفسطاط بعثوا ضد كريت «عشر سفن أو عشرين ، عادت بكثير من الأسرى والغنائم ، بعد أن عرفت المكان معرفة دقيقة» [3] .

---

(1) الحلة السيراء ، ط. القاهرة ١٩٦٣ ، ج١ ، ص٤٥ .

(2) الكندي ، ص١٨٣-١٨٤ .

(3) العرب والروم لفازلييف : ترجمة عربية ، ط. القاهرة ، ص٥٥ . الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية لإسمت غنيم ، ط. جدة ١٩٧٧ ، ص٤١-٤٢ .

ولعلهم قصدوا كريت بعد مغادرهم الإسكندرية لأهم عرفوا أخبار مشروع الأغالبة لفتح صقلية الذي شرع في تنفيذه في العام نفسه ، وكان الأندلسيون حين قصدوا كريت تحت لواء قائد منهم اسمه أبو حفص عمر بن عيسى البلوطي ، ونزلوا على شاطئ كريت دون أن يلقوا مقاومة ، ولا نعرف هل نزلوها للإغارة فقط أم للفتح ، وينقل فازلييف عن المصادر البيزنطية أنه «لم يكد جند العرب يبتعدون عن الشاطئ إلى الداخل قليلاً حتى أمر أبو حفص بحرق السفن ، فلما رجع العرب إلى الشاطئ كادوا يثورون لما أحسوا من يأس خوفاً على نسائهم وأطفالهم ، فهدأهم أبو حفص حينئذ وامتدح لهم غنى الجزيرة ، وجمال الكريتيات وصلاحهن للزواج .

فلما استقر العرب في الجزيرة ابتنوا حصناً حصيناً أحاطوه بخندق عميق ، فسمي لهذا بالخندق ، ومن هنا جاء كما نعرف الاسم الحديث كاندي»[1] . وإذا صحت هذه الرواية لم تكن فكرة الاستقرار في كريت موجدة إلا في رأس البلوطي ، ومهما يك من أمر أكمل العرب في فتح كريت ، ويقول فازلييف «وأخذ العرب تسعاً وعشرين مدينة لم تحفظ لنا أسماؤها ، واسترقوا سكانها و لم يسمحوا للمسيحيين بالاحتفاظ بدينهم إلا في مدينة واحدة» وانتمى الأندلسيون بعد استقرارهم في كريت إلى الخلافة العباسية[2] .

وكان على عرش القسطنطينية الإمبراطور ميخائيل الثاني من الأسرة العمورية (٨٢٠-٨٢٩م) وحاول هذا الإمبراطور الحيلولة بين العرب وبين فتح صقلية ، كما جهد في سبيل استرداد كريت فأرسل لهذا الغرض ثلاث حملات بحرية باءت جميعها بالإخفاق[3] ، وكانت في هذه الآونة جبهة الثغور العربية البيزنطية مشتعلة ، ففي

---

(١) العرب والروم ، ص٧٥ . غنيم ، ص٤٣ .

(٢) العرب والروم ، ص٥٨ . غنيم ، ص٤٥-٤٦ .

(٣) فازلييف ، ص٦٠-٦١ . غنيم ، ص٤٩-٥٧ .

منطقة الثغور أقام الخليفة المأمون وهناك قضى ، وبعد المأمون قام المعتصم بحملة عمورية الشهيرة ، ولا شك أن هذه الضغوط الشديدة على بيزنطة قد أرغمتها على توزيع إمكاناتها العسكرية ، وهذا قد سهل بعض الشيء فتح كل من صقلية وكريت .

لقد احتفظ العرب بجزيرة كريت مدة تبلغ قرناً ونصف القرن خاضوا خلالها معارك شديدة ضد الأساطيل البيزنطية ،واستطاع البيزنطيون استرداد كريت في الفترة التي تلاشت بها قوى الدولة العباسية ، وفي المقابل عاشت الإمبراطورية البيزنطية في ظل حكم الأسرة المقدونية فترة ازدهار وقوة عسكرية ، وأنجبت هذه الأسرة واستخدمت عدداً من كبار القادة العسكريين كان من أشهرهم نقفور فوقاس ، واستطاع نقفور أن يجتاح منطقة الثغور الشامية ، ولم تثمر جهود سيف الدولة الحمداني في التصدي له حيث اقتحم على رأس قواته مدينة حلب وأحدث فيها مذبحة مهولة ودماراً مروعاً وساق منها قطاراً من الأسرى فيه أكثر من عشرين ألف فتى وفتاة .

ونقفور هذا نفسه استغل الضعف العربي فقام بحملة كبيرة ضد كريت في سنة ٣٥٠هـ ــ ٩٦١م واستطاع الاستيلاء عليها بعد ما واجه مقاومة هائلة ، وعندما وصل خبر سقوطها إلى القسطنطينية تقبله شعبها بفرح عظيم ، وعلى العكس شعر المسلمون بحزن عميق وأسى كبير ، ومع أهم في إفريقية وفي مصر ملكوا ما يكفي من الإمكانات لاسترداد الجزيرة تواكلوا وأهملوا الأمر ، واكتفى المعز بكتابة رسالة تهديد إلى بيزنطة وتقريع إلى كافور الإخشيدي ، لكن ذلك لم يجد ، والمشكلة هنا أن هموم المعز كانت منصرفة نحو احتلال مصر ، وهموم كافور كانت مستقطبة حول الدفاع عن ملكه [1] ، وكانت الأندلس منصرفة نحو همومها مع أعداء الشمال والصراع أيضاً مع الفاطميين في بر المغرب الأقصى والبحر مع مشاكل أخرى .

---

(1) غنيم ، ص١٩٤-٢٠٦ .

لقـــد توالت الانتكاسات العربية في البحر المتوسط ، ومن الجانب الآخر كانت قوى أوروبا تتصاعد ، وقد أثر هذا تأثيراً كبيراً على مسار أحداث الحروب الصليبية ، وتعاظم التدهور في هذا المجال في المشرق أكثر منه في المغرب ، وقد أجمل ابن خلدون حكايـــة العرب والبحر المتوسط بقوله : «والمسلمون ... قد تغلبوا على كثير من لجة هـــذا البحر ، وسارت أساطيلهم فيهم جائية وذاهبة ، والعساكر الإسلامية تجيز البحر في الأســـاطيل مـــن صقلية إلى البر الكبير المقابل لها من العدوة الشمالية ، فتوقع بملوك الأفـــرنج ، وتـــثخن في ممـــالكهم ... وانحازت أمم النصرانية بأساطيلهم إلى الجانب الشـــمالي الشرقي منه ، من سواحل الأفرنجة والصقالبة وجزائر الرومانية لا يعدوها ، وأســـاطيل المسلمين قد ضربت عليهم ضراء الأسد على فريسته ، وقد ملأت الأكثر مـــن بســـط هـــذا البحر عدة وعدداً ، واختلفت في طرقه سلماً وحربا ، فلم تسبح للنصرانية فيه ألواح .

حـــتى إذا أدرك الدولة العبيدية والأموية الفشل والوهن ، وطرقها الاعتلال مد النصارى أيدهم إلى جزائر البحر الشرقية مثل صقلية واقريطش ومالطة ، فملوكها ، ثم ألحـــوا على سواحل الشام في تلك الفترة ، وملكوا طرابلس وعسقلان وصور عكا ، واســـتلوا عـــلى جميع الثغور بسواحل الشام ، وغلبوا على بيت المقدس ، وبنوا عليه كنيســـة لإظهـــار دينهم وعبادتهم ، وغلبوا بني خرزون على طرابلس ، ثم على قابس وصفاقس ، ووضعوا عليهم الجزية ، ثم ملكوا المهدية مقر ملوك العبيدين من يد أعقاب بلكـــين بـــن زيري ، وكانت لهم في المائة الخامسة الكرة بهذا البحر ، وضعف شأن الأساطيل في دولة مصر والشام إلى أن انقطع ، ولم يعتنوا بشيء من أمره لهذا العهد ، بعد أن كان لهم به في الدولة العبيدية عناية تجاوزت الحد كما هو معروف في أخبارهم فبطل رسم هذه الوظيفة هنالك ، وبقيت بإفريقية والمغرب فصارت مختصة بها ...

ثم تراجعـــت عن ذلك قوة المسلمين في الأساطيل لضعف الدولة ونسيان عوائد

البحر ، بكثرة العوائد البدوية بالمغرب ، وانقطاع العوائد الأندلسية ، ورجع النصارى فـــيه إلى دينهم المعروف من الدربة فيه ، والمران عليه ، والبصر بأحواله ، وغلب الأمم في لجـــته وعـــلى أعـــواده ، وصار المسلمون فيه كالأجانب إلا قليلاً من أهل البلاد الســـاحلية لهم المران عليه لو وجدوا كثرة من الأمصار والأعوان ، أو قوة من الدولة تستجيش لهم أعواناً ، وتوضح لهم في هذا الغرض مسلكاً» [١] .



[١] مقدمة ابن خلدون ، ص٤٥٠-٤٥٤ .

الفصل السادس

عصر بني مرين وغرناطة
حتى سقوط الأندلس


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

بعد سقوط دولة الموحدين ظهر بنو مرين في المغرب الأقصى وقبل ذلك استقبل بنو حفص في تونس ومع أن المرينيين والحفصيين بذلوا جهوداً للدفاع عن بقايا الأندلس فإن ثمار أعمالهم كانت متواضعة جداً ، وفي الحقيقة تاريخ الأندلس بعد الموحدين هو تاريخ دولة بني نصر أو بني الأحمر في غرناطة .

الدولة الحفصية

بعد زوال دولة الموحدين بالمغرب والأندلس ، ظلت دعوتهم مستمرة في المغرب على أيدي أقربائهم الحفصيين حكام أفريقيا أو البلاد التونسية .

والحفصيون فرع من الموحدين ، وينتسبون إلى الشيخ أبي حفص عمر بن يحيى النهتاتي شيخ قبيلة هنتاته إحدى بطون مصمودة التي قامت على أكتافها دولة الموحدين. وكان هذاالشيخ من كبار القائمين بدعوة المهدي بن تومرت ومن كبار المشدين لسلطان الموحدين في المغرب والأندلس .

وعلاقة الحفصيين بإفريقية ترجع إلى سنة ٦٠٣هـ ــ ١٢٠٦م حينما فوض الخليفة الموحدي محمد الناصر أمر إفريقية إلى وزيره وصهره الشيخ أبي محمد عبد الواحد بن أبي حفص النهتاني ، ومنحه جميع السلطات التي تخول له حكما مستقلاً

بهـذه الولايـة [1] ، ويعـد هذا الحدث في الواقع إيذانا بانفصال إفريقية عن الدولة الموحديـة في مراكش ، ثم حدث الانفصال الرسمي النهائي على يد أبي زكريا بن عبد الواحد الحفصي سنة ٦٢٦هـ ـ ١٢٢٩م [2] .

والسـبب الحقيقي الذي شجع هذا الأمير على الاستقلال بولايته هو انهيار دولة بني عـبد المؤمـن في المغرب والأندلس عقب الهزيمة التي حاقت بجيوشها في موقعة العقاب سنة ١٢١٢م ، أمـا السـبب المباشـر لهذا الاستقلال فهو الإعلان [3] ، الذي أصدره الخليفة الموحـدي إدريـس المأمون في مراكش سنة ٦٢٦هـ ـ ١٢٢٩م والذي رفض فيه تعاليم المهـدي ابـن تومرت ، ثم أزال اسمه من السكة والخطبة كما قتل المعارضين لسياسته من أشـياخ الموحديـن ، ومعظمهم من هنتاته ، قبيلة الحفصيين ، عندئذ ثار الأمير أبو زكريا الحفصـي على المأمون ، ورفض مبايعته ، واتخذ من هذا الإعلان ذريعة للخروج عن طاعة بني عبد المؤمن والاستقلال بولايته ، كما عدَّ نفسه أحقَّ بميراث المهدي بن تومرت منهم .

ولهذا حرص الحفصيون منذ بداية دولتهم على التمسك بتعاليم إمامهم المهدي ، وذكـر اسمه في الخبطة والسكة ، كما طبقوا رسوم الموحدين واسمهم وتقاليدهم على دولـتهم الناشئة ، وإذا استثنينا بعض التعديلات التي اقتضتها ظروف الزمان والمكان ، فإن ما ورد في تاريخ الدولة الحفصية من أنظمة وتقاليد ، يعدّ استمراراً للدولة المؤمنية لأن كلاهما من الموحدين .

وبدأت هذه الدولة كإمارة مستقلة في عهد أبي زكريا يحيى الأول ثم تحولت إلى خلافـة في عهد ولده أبي عبد الله محمد المستنصر بالله أمير المؤمنين ، ولقد جاء إعلان الخلافة الحفصية في ظروف سياسية مناسبة ، إذ لم تمض سنوات قليلة على قيامها حتى

---

[1] السلاوي : الاستقصا ، ج٢ ، ص١٩٣ . رحلة التجاني ، ص٣٦٢ .

[2] راجع الأحداث الخاصة بهذا الانفصال ، ابن عذاري : البيان المغرب ، ج٤ ، ص٢٦٧ ، ٢٧٥ .

[3] المصدر المتقدم نفسه .

سقطت الخلافة العباسية في بغداد على أيدي المغول وقتل آخر خلفائها المستعصم بالله سنة ٦٥٦هـ ـ ١٢٥٨م وعقب ذلك أرسل شريف مكة وأهل الحجاز بيعتهم بالخلافة للخليفة الحفصي المستنصر بالله ، وعدّوه وريثاً للخلافة العباسية المنهارة [١] ، هذا ولم يقتصر نفوذ الحفصين على الأراضي الحجازية ، بل نجد أن الدعاء للخليفة الحفصي قد عم مساجد المغرب والأندلس حقبة من الزمان ، فالأندلس بعد كارثة العقاب قد سقط معظمها في يد الأسبان ولم يبقَ للمسلمين منها سوى منطقة غرناطة الجبلية في الركن الجنوبي الشرقي لإسبانيا ، حيث قامت هناك مملكة بني نصر أو بني الأحمر . وقد رأى سلطانها أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر (الغالب بالله) أن يعمل على تدعيم دولته الناشئة بمبايعة السلطان الحفصي أقوى ملك في المغرب في ذلك الوقت [٢] . هذا واستمرت دولة الحفصيين مدة طويلة إلى أن سقطت على يد العثمانيين نهائياً سنة ٩٨١هـ ـ ١٥٧٤م ، وكان نظام الملك فيها وراثياً ، وغالباً ما كان العهد من السلطان السابق ، وكان أحياناً بالغلبة والقهر من قبل أحد القرابة .

أما عن حدود هذه الدولة ، فقد كانت تشتمل على الأراضي التي تقابلها اليوم طرابلس الغرب في ليبيا ، والجمهورية التونسية ، وجزء كبير من الجمهورية الجزائرية الذي يشمل ولايات بونة (عنابة) وقسنطينة ، وبجاية وتدلس غرباً ، وما بعد ورقلة في الصحراء الجزائرية جنوباً [٣] . وكانت مدينة تونس هي عاصمة المملكة الحفصية ، بينما كانت بجاية وأحياناً قسنطينة هي قاعدة المنطقة الغربية منها ، أي الجزائر الحفصية التي كثيراً ما استقل ولاتها عن تونس واتخذوا الوزراء والحجاب والكتاب مثل سلاطين تونس ، وكان يساعد السلطان في الحكم ، أقاربه وأشياخ الموحدين الذين كانوا

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص٢٢٧ .

(٢) المقري : نفح الطيب ، ج٦ ، ص١١٩ .

(٣) العمري : مسالك الأبصار ، ص٢ . عبد الرحمن الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ، ج٢ ، ص١١ .

ينــتمون إلى القبائل الموحدية التي قامت على أكتافها دولة الموحدين من قبل ، وكان لكــل قبــيلة مــزوار أو أمزوار ، وهي كلمة أمازيغيه تعني الابن البكر ، ثم صارت تســتعمل في معــانٍ كثيرة مثل كبير القبيلة ، ورئيس الجند ، ونقيب الأشراف [1] ، والمعــنى المقصود هنا هو شيخ القبيلة . وهؤلاء الأشياخ كانوا يكونون مجالس العشرة والخمســين التي كانت تحيط بالسلطان وتكون مشورته ، وكان يرأسهم واحد منهم يسمى شيخ الموحدين أو الشيخ المعظم لسمو مكانته وارتفاع شأنه ، وهو وزير الرأي والمشــورة عــند السلطان [2] . ولهذا كان يختاره السلطان بنفسه ، من بين قرابته في أغلــب الأحيان ، وكثيراً ما كان يعهد إليه بمهام خطيرة في الدولة مثل وزارة الجند أو الحــرب أو خطة الحجابة أو هما معاً ، هكذا نجد أن شيخ الموحدين كان بمثابة رئيس الــوزراء في الدولة [3] وإلى جانب طبقات الموحدين ، كانت هناك الجاليات الأندلسية الــتي هاجرت إلى تونس عقب سقوط بلادها في يد الأسبان . وقد أحسن الحفصيون استقبال المهاجرين الأندلسيين ، واستعانوا بهم في إدارة الدولة التي كانت ما تزال ناشئة وفي حاجة إلى رجال من ذوي الخبرة والاختصاص في مختلف الميادين .

وقــد أشار ابن خلدون إلىأن هجرة الأندلسيين إلى البلاد التونسية كانت أكثر من هجراتهم نحو البلدان الإسلامية الأخرى . وعلّل ذلك باستفحال الدولة الحفصية . وربمــا يرجع ذلك إلى العلاقة التي كانت موجودة من قبل بين الأندلسيين وبين أمراء الحفصــيين الذيــن سلف لبعضهم أن باشروا الحكم في الأندلس في عصر الموحدين ، وكــيفما كان الأمر ، فإن هجرة الأندلسيين إلى الدولة الحفصية كان من أكبر العوامل الــتي ساعدت على تقدمها وازدهارها ، إذ إنهم أدخلوا فيها أساليب زراعية جديدة ،

---

(١) محمد بن جعفر الكتاني : سلوة الأنفاس ، ج١ ، ص٩٣ .

(٢) العمري : مسالك الأبصار ، ص١٤ ، ١٧ . القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص١٣٩ .

(٣) الزركشي : تاريخ الدولتين ، ص٢٦ .

وأسهموا بقسط وافر في تدعيم الحياة الإدارية ، فشاركوا في مناصب أخرى من القضاء والوزارة والحجابة ، كما شاركوا في نشر الحركة العلمية والأدبية ، مما أعطى هذه البلاد لوناً من الحضارة والتقاليد الأندلسية [١] ، ويكفي هنا أن نشير إلى كتاب عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية ، لنرى مدى إسهام الأندلسيين في نشر الثقافة والحضارة في مدينة بجاية وحدها ، وقس على ذلك بقية المدن الأخرى [٢] ، ومن المناصب الهامة التي شارك الأندلسيون فيها إلى جانب الحفصيين هي خطة الوزارة وكان وزراء السلطان الحفصي ثلاثة وهم : وزير الجند وهو بمثابة الحاجب في مصر ، ووزير المال وهو المعروف بصاحب الأشغال ، ووزير الفضل وهو كاتب السر [٣] . وكانت علامة الحفصيين التي اختارها خليفتهم الأول المستنصر بالله «الحمد لله والشكر لله» ، وكتابة العلامة هي جملة أو عبارة التوقيع التي تضاف إلى المكاتبات التي ترفع إلى السلطان ليضع ختمه عليها [٤] ، ولقد شغل هذه الخطة عدد كبير من الأندلسيين الذين كانوا يجيدون هذا الفن من الكتابة ، ومن أبرز الكتّاب الأندلسيين الذين تولوا هذه الخطة على عهد المستنصر الحفصي أبا عبد الله محمد بن أبي بكر القضاعي البلنسي المعروف بابن الآبار (٥٩٥-٦٥٨هـ) [٥] ، وإلى جانب هذه الأعمال ظهرت خطة الحجابة في أيام السلطان أبي إسحاق إبراهيم الأول (٦٧٨-٦٨٣هـ) الذي عاش في الأندلس مده قبل اعتلائه العرش ، فتأثر بهذه الخطة التي كانت شائعة هناك ، واتخذ في خلافته حاجباً أندلسياً ، هو أبو القاسم بن الشيخ تلميذ الكاتب الأندلسي المعروف ابن عميرة إلا أنه يبدو أن هذه الخطة كانت قائمة في

---

(١) محمد بن شريفة ـــ أبو المطرف ، أحمد بن عميرة المخزومي ، ص١٤١-١٥٤ .

(٢) أبو العباس ـــ أحمد الغبريني : عنوان الدراية ، الجزائر ١٣٢٨هـ .

(٣) العمري : مسالك الأبصار ، ص١٣ .

(٤) ابن خلدون : المقدمة ، ص٢٤١ . العمري : مسالك الأبصار ، ص١٧-١٨ .

(٥) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج١ ، ص٣٩-٤٥ .

تونس قبل ذلك التاريخ إذ يروى أن أبا القاسم بن الشيخ كان حاجباً للخليفة المستنصر الحفصي جد أبي إسحاق المذكور [١] .

وهكذا شغلت الدولة الحفصية دوراً كبيراً في المنطقة ، ولكن بعد انقضاء القرن السابع الهجري ضعف أمرها وتوقف الدعاء لها في المغرب والأندلس ثم لم تلبث أن دبت فيها الحروب الأهلية واستقلت بجاية عن تونس عدة مرات إلى أن قضى عليها الأتراك العثمانيون في القرن العاشر الهجري / السادس عشر الميلادي [٢] .

■ ■ ■

دولة بني مرين

كان بنو مرين من القبائل الزناتية التي لم تشأ الخضوع لنفوذ الموحدين ، ولهذا آثروا الهجرة إلى الصحراء جنوباً على الدخول في طاعة الموحدين وحياة الصحراء كانت توافقهم لأنهم من البدو الرحل . وكانوا في فصل الربيع يرحلون إلى شمال المغرب الأقصى لرعي إبلهم ومواشيهم ، فيقضون شهوراً من السنة نزلين بين فجيج (فكيك) وملوية ، حتى إذا اقترب فصل الشتاء رجعوا إلى بلادهم [٣] .

وقد لاحظ بنو مرين أثناء ذلك ما بدأ يطرأ على دولة الموحدين من ضعف واختلال بعد هزيمة العقاب ، فشجعهم ذلك على الطموح للملك والاستيلاء على البلاد وخيراتها [٤] وكان أول قيان بني مرين في سنة ٦١٣هـ ـ ١٢١٦م على عهد

---

(١) العبادي : دراسات في تاريخ المغرب والأندلس ، ص١٩٣ .

(٢) Robert Brunschvig: la Barberie oriental sous les Hafsides, Tome I, p.178.

(٣-٤) محمد الفاسي : نشأة الدولة المرينية ، ومميزات العصر المرين الأدبية ، مجلة البينة ، ديسمبر ١٩٦٦ .

أميرهم أبي محمد عبد الحق بن محيو الذي احتل مكناسة وتازا وأخذ يغير غرباً على بلاد الهبط في شمال المغرب ، ثم تدعمت أركان هذه الدولة في عهد عثمان بن عبد الحق سنة ٦١٦هـ ـ ١٢١٩م ، وأخيراً جاء أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني وقضى على آخر خلفاء الموحدين ، أبي دبوس ، واستولى على عاصمتهم مراكش سنة ٦٦٨هـ ـ ١٢٦٩م فانقرضت بذلك دولة الموحدين ، وقد تلقب يعقوب بعد ذلك بلقب أمير المسلمين بدلاً من لقب الأمير الذي كان يدعى به ، كما قطع الدعاء للخلافة الحفصية بتونس ، وبنى في الناحية الغربية من مدينة فاس ، عاصمة للدولة الجديدة سنة ٦٧٤هـ ـ ١٢٧٥م صارت تسمى بالمدينة البيضاء وبالبلد الجديد وفاس الجديدة ، تميزاً لها عن جارتها فاس البالية أو القديمة التي بناها الأدارسة من قبل [(١)] .

هذا وقد توالى على هذه الدولة أربعة عشر ملكاً من ملوك مراكش أولهم السلطان أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق [(٢)] ويلاحظ أن هذه الدولة المرينية لم تستند في قيامها إلى دعوة إصلاحية دينية خاصة كما فعلت الدول التي تقدمت عليها ، بل قامت نتيجة للاضطراب والفساد الذي حل بالمغرب عقب كارثة العقاب ، فاتخذت من ذلك مسوغاً كافياً لقيامها . على أن هذا لا يمنع القول بأن هذه الدولة كانت مثل سالفاتها ، دولة عسكرية مجاهدة ، جعلت من الجهاد في الأندلس هدفاً مباشراً لقيامها. ولقد حاولت هذه الدولة أن تجمع كلمة المغرب العربي وتعمل على توحيده كما كان الحال في عصر الموحدين ، ونجحت فعلاً في بعض حقب قوتها ، أن تمد نفوذها إلى نواحي كثيرة من الجزائر وتونس أيضاً ، إلا أنها اصطدمت هناك بمقاومة عنيفة من جانب بني عبد الواد والحفصيين ، واقتصر نفوذها آخر الأمر على بلاد المغرب بين نهر

---

(١) ابن خلدون ، العبر ، ج٨ ، ص١٩٥ .

(٢) مؤلف مجهول : الحلل الموشية ، في ذكر الأخبار المراكشية ، حققه د. سهيل زكار ، أ. عبد القادر زمامة ، الدار البيضاء ١٩٧٩ ، ص١٨٧ .

ملوية شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً ، وسجلماسة جنوباً .

أمـــا في الشمال فقد حرص المرينيون على الجهاد في إسبانيا ، ومساعدة مملكة غرناطة الإسلامية واقتضت منهم هذه السياسة العمل على الاحتفاظ بقواعد عسكرية في جـــنوب الأندلـــس مثل رندة وجبل طارق ، والجزيرة الخضراء ،وطريف ومربلة ، لـــتكون بمثابة رأس جسر لهم هناك عند القيام بهذا الواجب المقدس إلا أنه يلاحظ في الوقت نفسه ، أن اهتمام المرينيين بهذه القواعد الأندلسية ، لا يرجع فقط إلى الرغبة في مســـاعدة إخوانهم في الدين سكان غرناطة ، بل يرجع أيضاً إلى الدفاع عن نفوذهم في مضيق جبل طارق ، ومنع أي خطر يهدد المغرب من هذه الناحية الشمالية .

وكانت قبائل بني مرين كثيرة العدد ، نذكر منها : هوارة ، ومغيلة ، وضريسة، ومعـــزاوة ، وبنو يفرن ، وبنو دمر ريغ ، وسدراته ، ومسطاسة ، وملزوزة ، ونفزة ، وبـــنو غجدامة ، ولواتة ، ومطماطة ، ومكناسة ، وغمارة ، وبنو زروال ، وبنو سعيد وغـــير هؤلاء وهم بطون كثيرة ... الخ ، وكلها كانت تنتمي إلى زناتة ، إلا أن نظام الملـــك فـــيها انحصـــر في بيت بني عبد الحق [1] ، وكان العظماء من ملوك بني مرين يباشـــرون القضايا المهمة بأنفسهم في القصر الملكي بفاس الجديدة ، ويحيط بهم مجلس مـــن الخاصة وأهل الشورى من أشياخ بني مرين الذين كان يرأسهم كبير منهم يدعى بشـــيخ بـــني مـــرين [2] ، وهذا المجلس يذكرنا بمشيخة الموحدين أيام بني عبد المؤمن والحفصيين . وإذا كانت السلطة في دولة بني مرين قد انحصرت في بيت بني عبد الحق، فإن خطة الوزارة أو رئاسة الوزراء قد استأثرت به عائلات من القبائل المرينية المعروفة،

---

[1] الحلل الموشية ، ص١٨٦-١٨٧ .

[2] العمـــري : مسالك الأبصار ، القسم الخاص بالمغرب الأقصى نشر محمد المنوني ، مجلة البحث العلمي ١٩٦٤ ، ص١٤٩ . صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٢٠٣-٢٠٤ .

حيث نسمع من عدد كبير من الوزراء باسم الفو دو دي أو اليرنياني أو العسكري أو الوطاسي ، بل إن بعضهم كانت تربطه بملوك بني مرين روابط المصاهرة ولهذا فإن الوزير في عهد الدولة كان يعدّ من أرباب السيف ، ومن أشياخ بن مرين ، وقد شرح ابن خلدون اختصاصه بقوله : «وأما رئاسة الحرب والعساكر فهي للوزير» (١) ، وبطبيعة الحال كان هؤلاء الوزراء ، ولكونهم من القادة العسكريين ، يرافقون السلاطين في غزواتهم سواء في المغرب أو الأندلس لا بل كان من اختصاص الوزير أيضاً الإشراف على الجبايات والنظر في الولاة ، ورفع الشكايات للسلطان ومباشرة الحكم في بعضها (٢) . أما من ناحية الشؤون المالية ،فقد كانت في يد كاتب يعمل تحت إدارة الوزير ، ويعرف بصاحب الأشغال أو كاتب الأشغال ، ويتولى حسابات العطاء والخراج ، كما يتولى ديوان الجيش فيشرف على إحصاء الجنود بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم ، وهو مسؤول أمام السلطان أو الوزير ، وخطه معتمد في صحة الحسابات في الجباية والعطاء (٣) وديوان هذه الخطة كان يشتمل على كتاب الخراج ، وأهل الحساب والمساحة ، وأن من ملحقاته شهود بيت المال الذين كانوا يشهدون على الحاصل في بيوت الأموال دخلاً وخرجاً ، وترجع إليهم سائر الأعمال ، وترفع لهم جرائد الحسابات وهي أشرف خطط العدالة (٤) .

ومن توابع هذه الخطة أيضاً عمال الزكاة وهم الذين يخرجون للنواحي لاقتضاء

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ص٢٤٢ .

(٢) Hesperis, Tome V, 1925, p.18-39.

(٣) ابن خلدون : المقدمة ، ص٢٤٢ .

(٤) ابن مرزوق : المسند ، ص٢٩ .

ضـــرائب ســـكان البادية [1] أما صاحب خطة الكتابة والإنشاء فقد ورد ذكره بصيغ مختلفة مثل شيخ الكتاب [2] ورئيس الكتاب [3] وكاتب السر أو كاتب الإنشاء [4] ، وواضح من هذه التسمية واختصاصها أن هذه الوظيفة تعادل مرتبة الوزارة وإن كانت المراجع المرينية لم تشر بشكل صريح إلى أن صاحبها كان يسمى بالوزير ، هذا ويشير ابـــن خلدون إلى أن هذه الخطة كانت أحياناً تجمع في شخص واحد وأحيانا تفرق في عـــدة أشـــخاص [5] ، وكيفما كان الأمر ، فإن هذه الخطة كانت تعدّ من المناصب المـــرموقة في الدولة ، وكان صاحبها من المقربين للسلطان حيث كان يقابل السلطان كـــل ويـــوم لـــيعرض عليه الرسائل المختلفة ، وقصص أصحاب المظالم ، وقد يأمره الســـلطان بالمبيت عنده في الحالات الهامة [6] ، ولم يشترط في صاحب هذه الخطة أن يكـــون مـــن بـــني مـــرين ، بل كانت تستند إلى من يحسنها من أهل أرباب الفكر والقـــلم [7] ، ولهذا شغلها عدد كبير من الأندلسيين إلى جانب المغاربة وبعض حجاب السلطان الذي كانت لهم دراية بهذا الفن [8] .

ويلاحـــظ في هـــذا الصـــدد أن الدولة المرينية كانت دولة خرجت من بداوة

---

(1) ابن مرزوق : المسند ، ص٢٩-٣٠.

(2) ابن مرزوق : المسند ، ص٢٩ .

(3) ابـــن خلدون : التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً . نشر محمد بن تاويت الطنجي ، القاهرة ١٩٥١م ، ص٤٠ .

(4) القلقشندي : صبح الأعشى ، ج٥ ، ص٢٠٥-٢٠٦ . ابن خلدون ، التعريف ، ص٧٠ .

(5) ابن خلدون : المقدمة ، ص٢٤٢ .

(6) القلقشندي : صبح الأعشى ،ج٥ ، ص٢٠٦ .

(7) ابن خلدون : المقدمة ، ص٢٤٢ .

(8) أبو الوليد بن الأحمر : روضة النسرين ، ص٢١ ، ٢٨ .

الصحراء إلى حياة المدنية والحضارة ، ولهذا عملت لسد هذا النقص على تشجيع العلم وإكبار العلماء وبناء المدارس مما كان له أثر كبير في اجتذاب عدد كبير من علماء أفريقيا الشمالية ، وغرناطة إلى بلادهم واستيطانهم فيها حتى صاروا يعدون من أبنائها، وكان علماء غرناطة أي الأندلس في ذلك الوقت من أكثر العلماء إقبالاً على الهجرة سواء إلى المغرب أو المشرق ، وقد علل ابن خلدون ذلك بغلاء المعيشة وقسوة الحياة في هذه المملكة نتيجة لصعوبة أرضها الجبلية وكثرة ما يبذل من جهد وأموال وعناية لإصلاحها . ولهذا اضطر عدد كبير من أهلها إلى الرحيل عنها إلى مصر والمغرب حيث كانت فرص العمل أيسر ، ووسائل المعيشة أسهل وأرخص [1] .

ولقد بلغ من كثرة عدد المسافرين من مدينة غرناطة ، أن سمى أحد أرباضها الخارجية باسم «حوز الوداع» وهو المكان الذي اعتاد فيه الغرناطيون توديع أهلهم وأحبابهم قبل رحيلهم [2] . والمهم أن عدداً كبيراً من أهالي غرناطة ، قد رحل إلى فاس، إما لطلب العلم فيها أو التدريس في جامعتها ومعاهدها العلمية ، وإما للاشتغال في البلاط المريني ككتاب ، وفي المستشفيات المغربية كأطباء [3] .

ولا يتسع المجال هنا لحصر جميع الغرناطيين الذين عملوا في بلاط بني مرين ولكن يمكن أن نذكر بعضاً منهم على سبيل المثال فقط . فهناك مثلاً الكاتب المالقي أبو القاسم عبد الله بن يوسف بن رضوان النجاري الخزرجي الذي شغل منصب الكتابة وائتمن على خطة العلامة أيام السلاطين أبي الحسن ، وأبي عنان ، وأبي سالم ، ولهذا الكاتب مراسلات عديدة مع صديقه الوزير الغرناطي لسان الدين بن

---

(1) ابن خلدون : المقدمة ، ص٣٦٤ ، ٤٣٢ .

(2) المقري : نفح الطيب ، ج١٠ ، ص٢٣٠ .

(3) أحمد مختار العبادي ، العلاقات الثقافية بين غرناطة وفاس في القرن الثامن الهجري ، الكتاب الذهبي لجامعة القرويين بمناسبة ذكراها المئة بعد الألف ، فاس ١٩٦٠ ، ص١٩٨ .

الخطيب [1]. كما يوجد له كتاب في السياسة ونظم الحكم، ألفه للسلطان أبي عنان وبأمر منه، وهو كتاب «الشهب اللامعة في السياسة النافعة»، ويتضمن شذرات من كتاب السياسة لابن حزم، وقد توفي سنة ٧٨٣هـ [2]، وهناك أيضاً الكاتب الأديب الغرناطي أبو عبد الله بن جزي على عهد السلطان أبي عنان الذي أثارت مآثره العلمية إعجاب معاصريه من أهل المشرق والمغرب. فمن ضمن أعماله المشهورة، كتاب رحلة ابن بطوطة المسمى بتحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار. فابن جزي هو الذي قام بصياغة هذه الرحلة مستعيناً في ذلك بمسودات صديقه الرحالة الطنجي ابن بطوطة. ويقال أنه قام بهذا العمل بناء على طلب السلطان أبي عنان، وأنه أتمه في ثلاثة أشهر فقط [3]. كذلك كتب ابن جزي أثناء مقامه بمدينة فاس تاريخاً عاماً لبلده غرناطة، ولكنه مات قبل أن يتمه. وقد صرح لسان الدين بن الخطيب بأنه قابل ابن جزي بمدينة فاس أثناء سفارته بالمغرب عام ٧٥٥هـ وأنه قرأ كتابه وسار على منهاجه عند تأليفه كتابه الإحاطة في أخبار غرناطة كذلك ذهب الملك الشاعر يوسف الثالث ملك غرناطة إلى أن ابن الخطيب قد نقل كثيراً في إحاطته من تاريخ ابن جزي [4]. وهذا يشير إلى مدى قيمة وأهمية هذا الكتاب المفقود.

مما تقدم نلاحظ أهمية الدور الذي شغلته دولة بني مرين في المنطقة. ومن العجيب أن تنتهي هذه الدولة على أيدي وزرائها وأبناء عمومتها الوطاسيين حينما أعلن محمد الشيخ الوطاسي نفسه سلطاناً على المغرب سنة ٨٧٧هـ — ١٤٧٢م مؤسساً بذلك الدولة الوطاسية.

---

[1] نفح الطيب، ج٨، ص٢١٣-٢١٧.

[2] محمد إبراهيم الكتاني: شذرات من كتاب السياسة لابن حزم، مجلة تطوان ١٩٦٠م، ص٥١-٥٣.

[3] نفح الطيب، ج١، ص١٦٦.

[4] ابن الخطيب: الإحاطة، ج٢، ص١٨٧. المقري: نفح الطيب، ج٩، ص٣١٣-٣١٤.

دولة بني الأحمر (بني نصر) في غرناطة

● قيام دولة بني الأحمر:

في غمـرة الأحداث والاضطرابات التي عمّت الأندلس بعد معركة العقاب عام (٦٠٩هـ) برز ابن الأحمر وهو أبو عبد الله الغالب بالله محمد بن يوسف ابن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي سليل أسرة أبي نصر الذي يرجع نسبه إلى سعد بن عبادة الصحابي المشهور. بدأ ابن الأحمر حياته محارباً في الثغور واستطاع أن يبسط سلطانه بباسة ووادي آش وما حولهما من الحصون ثم اتخذ من القواعد والثغور الجنوبـية ميداناً لنشاطه داعياً للأمير أبي زكريا الحفصي صاحب تونس، وعندما نجح ابـن هود في الاستيلاء على غرناطة صانعه ابن الأحمر ودخل في طاعته واستمر على ذلـك حتى وفاة ابن هود عام ٦٣٥هـ ـ ١٢٣٨م، فعمل عندها على تصفية تركته فدخل غرناطة في أواخر رمضان من العام نفسه واتخذها حاضرة لدولته [1] وتمثل هذه الدولة آخر عهد المسلمين بإسبانيا وقد انحصر ملكها في الركن الجنوبي الشرقي من شبه الجزيـرة الإيـبيرية جنوب نهر الوادي الكبير حتى شاطئ البحر المتوسط ومضيق جبل طـارق، وضمت ثلاث ولايات كبيرة هي ولاية غرناطة في الوسط، وولاية المرية، وولايـة مالقة، وبذلك استمدت هذه المملكة من مواردها الطبيعية كالأنهار والوديان

---

[1] نفح الطيب، ج١، ص٢٠١.

الخصبة أسباب القوة والرخاء بالإضافة إلى جبال شلير أو جبال الثلج التي كونت منها قلعة حصينة يسهل الدفاع عنها .

هـذا وأخـذت غرناطة تموج منذ أواسط القرن السابع الهجري بالوافدين عليها من المسـلمين في القواعـد الأندلسـية المسـلوبة . حتى قدّر عدد سكانها بحوالي ستة ملايين نسـمة [١] . وكانت هذه القوة البشرية تصبّ في ميزان القوة لصالح الجانب الإسلامي ضد العـدو . ومـن المعـروف أن قلعة مدينة غرناطة كانت مقر الحكم والسلطان ، وتعرف بالحمـراء وهـو اسـم قـديم ورد ذكره لأول مرة أيام ثورة المولّدين التي قام بها عمر بن حفصون في القرن الثالث الهجري [٢] ، وواضح أن هذا الاسم راجع إلى لون تربة الهضاب الـتي بنيـت عليها [٣] وفي هذا يلاحظ أنه ليس هناك ثمة علاقة بين اسم الحمراء واسم بني الأحمـر الذين حكموها بعد ذلك ، ومن الطريف أن هؤلاء الملوك قد اتخذوا اللون الأحمر شـعاراً لهم في قصورهم بالحمراء ، وأعلامهم وقبابهم ، وبل وفي لون الورق الذي يكتبون فـيه رسائلهم السلطانية [٤] . ولقد استمر ملك غرناطة في بيت بني الأحمر حتى نهاية هذه الدولة وسقوط غرناطة آخر معقل الإسلام في يد الأسبان عام ٨٩٧هـ ـ ١٤٩٢م .

● أسباب بقاء دولة غرناطة :

يتسـاءل الكـثير من المؤرخين عن أسباب بقاء دولة غرناطة في ظل الظروف الصـعبة خاصة بعد أن بلغ الأسبان من القوة العسكرية والسياسية مبلغاً كبيراً يسمح لهـم بالقضاء على غرناطة ، وسنحاول أن نتبين الأسباب والعوامل التي ساعدت على

---

(١) محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين . القاهرة ١٤٠٨ ، ص٥٥-٧٠ . نفح الطيب ، ج٦ ، ص٢٥٧ .

(٢) Emilio la fuente Al cantara : Inscrp cines arabes de Granada, p.18-19.

(٣) نفح الطيب ، ج١ ، ص١٦٥ .

(٤) نفح الطيب ، ج١ ، ص٧٦ ، ٤٦ ، ٧١ .

بقاء تلك الدولة وثباتها مدة طويلة من الزمن .

١- كـــان هـــدف حرب الاستغلاب الإسبانية بلا شك استعادة الأراضي كافة التي سيطر عليها المسلمون في شبه الجزيرة ، وهاهي دولة غرناطة لقمة سائغة ، فلماذا لم يســـتمر الأســـبان في زحفهم نحو الجنوب ليبتلعوا تلك الدولة ويضموها إلى ملكهـــم ؟ ، وتبدو الإجابة عن هذا السؤال سهلة لا تحتاج إلى البحث الكثير ، وذلـــك لأن الأســـبان استولوا خلال حرب الاستغلاب على مساحات واسعة وشاسعة من الأراضي في وقت قصير نسبياً مما جعلهم عاجزين عن استيعاب تلك الأراضـــي مـــن الـــنواحي الإداريـــة والتنظيمية ، بالإضافة إلى بعد هذه المناطق وحصانتها واتصالها بالمغرب ، لذلك قنع الأسبان في هذه الآونة ببقاء هذه الدولة حتى تحين الفرصة المناسبة لابتلاعها .

٢- إن هجـــرة الأعداد الكبيرة من المسلمين والمدجنين من الأراضي التي سقطت بيد الأسبان إلى غرناطة قد ساعد على انتعاش غرناطة اقتصادياً خاصة وأن معظمهم كـــان يملك خبرات عظيمة في مجال الزراعة والصناعة ، وكذلك في ميدان الخبرة العســـكرية القتالـــية ، فكان لهذا الرفد من الطاقات البشرية أكبر الأثر في توفير أسباب البقاء لهذه الدولة .

٣- أيضـــاً اســـتطاعت دولة غرناطة أن تحافظ على وجودها مستندة على رغبة الدول القويـــة المحيطة بها بحفظ التوازن فيما بينها . وهذه القوى هي دولة قشتالة المسيطرة عـــلى القسم الأعظم من إسبانيا ، ثم دولة أراغون صاحبة السيادة على شرق إسبانيا وشمالهـــا الشرقي ، والدولة الثالثة هي دولة بني مرين التي خلفت الموحدين في المغرب الأقصـــى ، فكانـــت تطلب عون دولة عندما تهاجمها دولة أخرى وخاصة دولة بني مـــرين وقشـــتالة ، إذ أن احـــتلال القشتاليين لهذه الدولة كان يجعلهم متاخمين لبني مـــرين ، الأمر الذي يهددهم ، ولذا كانوا يهبون لنجدتها والعكس بالعكس . على

أنها حاولت أيضاً أن تعتمد على سياسة أخرى هي سياسة التوازن.

٤- إقناع الدول المهددة لها بعدم وجود مصلحة لها في زوالها ، فقد كانت تقدم الجزية لملك قشتالة بانتظام وتقدم الهدايا لنبلائه ، وبالنسبة لأراغون التجارية حفظت لها مصالحها التجارية وحمت الأساطيل الأرغوانية على شواطئها . أما بنو مرين فكان يصعب إرضاؤهم ، وما من مرة دخل جندهم الأندلس لمعونة إخوانهم في الدين إلا وحاولوا أن يضموا دولة بني نصر إليهم ، لذا استعاض النصريون عن معونة المرينيين الحكومية بالاستعانة بالجماعات التي يقودها أمراء مرينيون أخفقوا في الحصول على الحكم في بلدهم ، فكانوا يأتون إلى غرناطة ليعملوا فيها كجند ذوي امتيازات معينة ، وأطلقت عليهم اسم الغزاة وعلى قائدهم شيخ الغزاة ، ولم تلبث مشيخة الغزاة أن أصبحت منصباً مستقراً وبارزاً في الدولة النصرية وغالباً ما كانت الجزيرة الخضراء ملكاً له خلال حقبة تبعيتها للدولة النصرية [١] .

٥- أيضاً حصّن النصريون جبهتهم الداخلية ، بإحلال الوئام بين الحكام والمحكومين ، ومما ساعدهم على ذلك ندرة الأقليات الدينة عندهم ، واستطاعوا اجتذاب العواطف الدينية إليهم فأعطوا مناصب الإدارة العليا للفقهاء ، وقربوا إليهم المتصوفة وأقاموا الأربطة على الحدود ، فكانت نقاط تجمع لأناس كثيرين من خارج الأندلس يقيمون فيها أمداً قد يطول وقد يكبر لنوال ثواب الرباط بها ، وقد ذكر ابن بطوطة في رحلته أنه شاهد هناك أناساً من الفرس وآخرين من الجند [٢] .

٦- أيضاً حاول ملوك غرناطة تعبئة جميع الناس للحرب وتعليم الضروري من

---

[١] ابن خلدون : العبر ، ج٧ ، ص٣٦٦-٣٧٨ .

[٢] ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ص٦٧٠ .

استخدام السلاح للصبية ، ويشير إلى ذلك ابن الخطيب بقوله : «والصبيان تدرب على العمل بالسلاح وتعلم المنافعة كما يعلم القرآن في الألواح» ، كما أثنى الكتاب الأسبان المعاصرين على المهارة في استخدام الغرناطيين للسلاح وخاصة الرماية التي كانوا يتعلمونها في صغرهم . لكن محاولة صبغ المجتمع بالصبغة الدينية وتعبئته تعبئة عسكرية لم تحل دون تسرب الآفات الاجتماعية المخالفة للدين إلى المجتمع الغرناطي من الغرب والشرق على حد سواء ، فقد كان الغرناطيون يتعاطون النبيذ ، من ناحية أخرى تسرب الحشيش من المشرق وانتشر بين صفوف الطبقة العليا ومن حولها ، ولكن السلطة التي قامت بمكافحة الآفة الأخيرة ، وبالتالي لجأ متعاطيها إلى السرية كما نستدل من نص يعود للقرن السابع الهجري / الثالث عشر الميلادي عندما زار ابن سعيد الأندلسي مصر فعاب على المصريين تعاطيهم الحشيشة مبيناً أن أمثال هذه العادات القبيحة لا توجد في بلاده (١) .

في ظل هذه الأوضاع عاشت دولة غرناطة قرابة قرنين ونصف القرن تقف في وجه ملوك إسبانيا الذين كانوا يتصرفون بطاقات شبه الجزيرة كلها ، ولكن الأحوال العامة لم تسر على وتيرة واحدة ، بل تقلبت الأحوال بهذه الدولة بين صعود وهبوط نتيجة التغيرات التي كانت تطرأ على العالم من حولها ، وكانت تحدث في غرناطة آثار بعيدة على أوضاعها في الداخل وعلى صعيد علاقاتها بالقوى الإسبانية . وهكذا مرت لها منذ النصف الثاني للقرن الثامن الهجري / الثالث عشر الميلادي ، وتلتها ظروف معاكسة في منتصف القرن التالي ، فلم تستطع هذه الدولة الصغيرة أن تحمل نتائجها فسقطت في نهاية القرن .

---

(١) ابن الخطيب : نفاضة الجراب ، تحقيق العبادي ، ص٢٠ ، ٢١ ، ١٨٣ . المقري : النفح ، ج٣ ، ص١١١.

● سقوط غرناطة ونهاية الوجود العربي في إسبانيا :

تضـــافرت عوامل خارجية ودولية وداخلية محلية في سقوط آخر معقل عربي في شبه الجزيرة الإيبيرية :

١- تمثلـــت الظـــروف الخارجية باتحاد عرشي آراغون وقشتالة بزواج فرناندو ملك آراغون من إيزابيلا ملكة قشتالة عام ٨٧٤هـ ـ ١٤٦٩م وقد ترتب على هذا الزواج الملكي مولد إسبانيا الموحدة كدولة أوروبية عظمى قوية في البر والبحر ؛ ذلـــك أن قـــوة آراغـــون البحرية ونشاطها في البحر المتوسط وامتلاكها صقلية ونـــابولي قد امتزج بالقوة العسكرية لمملكة قشتالة [1] ، أيضاً بهذا الزواج فقدت غرناطة إمكانات المناورة التي اتبعتها من قبل سابقاً حيث كانت تلجأ إلى طرف عندما كان يهددها الطرف الآخر .

٢- لا شك في أن موقف مسلمي غرناطة صار حرجاً بعد زواج فرناندو من إيزابيلا، وقـــد تكاتف الاثنان في حصار غرناطة والضغط عليها لإرغامها على التسليم ، فاستنجدت بالسلطان العثماني محمد الثاني (٨٥٥-٨٨١هـ /١٤٥١-١٤٨١م) وذلك في عام ٨٢٢هـ ـ ١٤٧٧م وبخلفائه من بعده ، ولكن السلطان محمد لم يســتطع الاستجابة إلى استغاثتهم في ذلك الوقت ، لأنه كان يواجه تحالفاً صليبياً قويـــا وحـــرباً لم ينـــته إلا عـــام ٨٨٤هـــــ ـ ١٤٧٩م . كذلك استنجدوا بالســـلطان بايــزيد الثاني العثماني (٨٨٥-٩١٧هـ ـ ١٤٨١-١٥١٢م) فلم يســـتطع نجدقم بســـبب صراعه مع أخيه جم علي السلطة والعرش ، ولهجوم البولـــنديين عـــلى مولدافـــيا ، وتكوين حلف صليبي من البابوية والبندقية والمجر

---

[1] هربرت فيشر : أصول التاريخ الأوروبي الحديث ، دار المعارف بمصر ١٩٧٠ ، ص٧٤ .

وفرنسا ضده [1]، وكان أن اتجهوا بعد ذلك إلى الملك الأشرف قاتيباي (٨٧٣-٩٠١هـ / ١٤٦٨-١٤٩٦م) سلطان المماليك في مصر مستنجدين به، فلم يستطع اتخاذ أي إجراء لظروف دولته آنئذ، واكتفى بإرسال بعوث لمقابلة البابا وملوك أوروبا مهدداً إياهم بأنه إذا لم يكف حكام قشتالة وأراغون عن اضطهاد المسلمين فسيضطر إلى معاملة المسيحيين المقيمين بمصر المعاملة نفسها، ولكن هذه التهديدات لم تؤد إلى شيء [2]، وعندما لجؤوا إلى حكام المغرب لاستنهاضهم، لم يحصلوا على شيء، وذلك لسوء الأوضاع الداخلية هناك، ولخضوع ابن وطاس للنفوذ الإسباني بمقتضى معاهدة ٩٤٥هـ ـ ١٥٣٨م، ولسيرة الأسبان على سواحل المغرب، مما حال دون إنقاذ مسلمي الأندلس، ومنع سقوط غرناطة [3].

أيضاً سببت الظروف الداخلية والمحلية عوامل كبيرة في إضعاف دولة غرناطة بل أصبح سقوطها أمراً محتوماً بعد الانقسام والتناحر بين العرب والبربر، إضافة إلى الانقسام الذي حدث في صفوف الحكام وانغماسهم في الملذات [4] ومن الملاحظ أن بوادر الخلاف على السلطة قد بدأت منذ تولي السلطان أبو الحسن النصري العرش بعد وفاة أبيه عام ٨٦٨هـ ـ ١٤٦٣م، إذ نازعه الملك أخواه يوسف أبو الحجاج، وأبو عبد الله محمد المعروف بالزغل، واستقل الأخير بمدينة مالقة وما جاورها مما كان

---

[1] المقري التلمساني: أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق مصطفى السقا، وإبراهيم الإيباري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م، ص١٠٩-١١٥.

[2] عبد العزيز الشناوي: الدولة العثمانية، دولة إسلامية مفترى عليها، القاهرة ١٩٨٠م، ص٩٠٣، ٩٠٤.

[3] الشناوي: الدولة العثمانية، ص٩٠٣.

[4] علي مظهر: محاكم التفتيش بإسبانيا والبرتغال وفرنسا وغيرها، القاهرة ١٣٦٦هـ ـ ١٩٤٧م، ص٢١.

معناه انقسام المملكة إلى شطرين . هذا وكان للسلطان أبي الحسن زوجتان الأولى ابنة عمـه واسمهـا عائشة والأخرى إسبانية ابنة أحد قادة إسبانيا المشهورين وأصبح اسمها بعـد إسلامها ثريا ، وأنجبت كل واحدة منهما اثنين من الأمراء ، فثارت مسألة ولاية العهـد بين الجانبين تحت تأثير هاتين الزوجتين . وتبعاً لذلك انقسم الزعماء والوجهاء إلى فـريقين ، فريق يؤيد الأميرة عائشة وولديها أبو عبد الله محمد المعروف بالصغير ، وأبـو الحجاج يوسف ، وفريق يؤيد السلطان وخطيبته ثريا وابنيها ، سعد ، ونصر ، وانـتهى الأمر بالثورة على السلطان وجلوس أبي عبد الله محمد الصغير مكان أبيه على عـرش غرناطة عام ٨٨٧هـ ـ ١٤٨٢م . بيد أن الأسبان أسروا أبا عبد الله الصغير في إحـدى معاركه معهم فآل حكم غرناطة إلى والده أبي الحسن مرة أخرى ثم إلى أبي عـبد الله محمد الزغل ، فاستغل الأسبان أسر أبي عبد الله الصغير بإطلاق سراحه نظير عهود ومواثيق تكفل تفوق الأسبان وانتصارهم في النهاية إذ اضطرمت الفتنة والحرب الأهلـية بـين الصغير وعمه الزغل ، واستولى الأسبان على مدينة مالقة وعلى القلاع والحصـون الهامـة ، ارتقى أبو عبد الله الصغير عرش غرناطة للمرة الثانية تحت حماية ملـك إسبانيا على الرغم من بقاء عمه الزغل حاكماً للأنحاء الشرقية من البلاد . فتم تضـييق الحصـار على الزغل الذي اضطر في النهاية للخضوع والاستسلام ، ومن ثم مغـادرة الأندلـس إلى المغـرب ، فلم يبقَ أمام الأسبان سوى الاستيلاء على غرناطة حاضرة المملكة فحاصروها وبنوا مدينة بجوارها لتعزيز الحصار اسمها سانتافه أي الإيمان المقـدس تنويهاً بالمغزى الديني الصليبي لهذه لحروب [1] ، ورغبة من الملك فرديناندو في الاستيلاء على غرناطة سلمياً ، أو بأقل الخسائر الممكنة لجأ إلى طريقين: الأول تشديد الحصـار على المدينة لإرهاق أهلها ، والثاني استخدام الرشوة مع بعض قادة المسلمين ووزراء الملك عبد الله لإقناعه بتسليم المدينة سلمياً ، وأخيراً وقعت معاهدة التسليم بين

---

[1] عبد اللطيف بن محمد الحميد : موقف الدولة العثمانية تجاه مأساة المسلمين في الأندلس . جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٣م ، ص٢٦-٢٧ .

مندوبي الطرفين في ٢١ محرم ٨٩٧هـ ــ ٢٥ نوفمبر ١٤٩١م ، وتقع في ستة وخمسين مادة ، ألحق بها ملحق سري يشتمل على الحقوق والامتيازات والمنح التي تعطى للملك أبي عبد الله وأفراد أسرته وحاشيته عندما تم تنفيذ المعاهدة وتسليم غرناطة والحمراء وحصونهما [1] وعلى الرغم من أن المعاهدة نصت على تسليم غرناطة بعد ستين يوماً ، فقد خشي أبو عبد الله غضب الأهالي ، فأرسل مندوباً عنه إلى ملك قشتالة يستعجله في تسلم المدينة وتم تسليم ذلك بالفعل في ٢ ربيع الأول ٨٩٧هـ ــ ٢ يناير ١٤٩٢م أي بعد تسعة وثلاثين يوماً من توقيع معاهدة التسليم [2] ، بعد يوم من الاستلام صدر أمر بإحراق كتب ومخطوطات ووثائق تتعلق بالإسلام وحضارته بلغ عددها نحو مليون وخمسمائة ألف [3] ، وكانت تلك بداية لسياسة وضعها فردينادو وحاشيته من رجال الدين المسيحي محو كل أثر للإسلام في الأندلس. والحقيقة أن سقوط غرناطة يعد حداً فاصلاً بين حضارتين في إسبانيا ، حضارة عربية إسلامية ظلت تصارع الموت لسنوات ، وحضارة غربية مسيحية تكتسح ما عدته دخيلاً ، وقذفت به خارج شبه الجزيرة الإيبيرية .

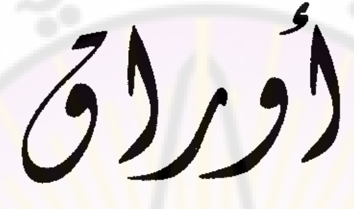
---

(١) محمد عبد الله عنان : نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين ، العصر الرابع ، ط٣ ، القاهرة ١٣٨٦هـ / ١٩٦٦م ، ص٢٤٤-٢٤٥ ، ٢٥٤ .

(٢) المرجع السابق ، ٢٥٧ .

(٣) الشناوي : المرجع السابق ، ص٩٥ .


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University



عن الحضارة الأندلسية


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

لم يقتصر إشعاع الثقافة الأندلسية على المناطق القريبة المقابلة للعدوة الأندلسية من أرض المغرب بل تجاوزها إلى حواف الصحراء في أقصى الجنوب . وكان هذا الإشعاع الذي وصل المغرب جزء من إشعاع الأندلس الثقافي العام الذي وصل إلى المشرق أيضاً .. ومن هنا نلاحظ أنه كان للأندلس دوراً كبيراً في تطور العلوم التي تميزت بطابعها الخاص على امتداد ثمانية قرون ونيف ٩٢-٨٩٧هـ / ٧١١-١٤٩٢م من حكم العرب لتلك البلاد ، لقد ساد العلم مختلف ميادين المعرفة في الأندلس ، وصنف فيه الأندلسيون مؤلفات لا تعد ولا تحصى ، ولعل أهمها «رسالة مراتب العلوم» [١] التي كتبها ابن حزم القرطبي (ت.٤٥٦هـ ـ ١٠٦٣م) حيث تجاوز فيها أهل عصره من الأندلسيين وعدد فيها علوم المعرفة وهي : علم القرآن ، وعلم الحديث، وعلم المذاهب ، وعلم الفتيا ، وعلم المنطق ، وعلم النحو ، وعلم اللغة ، وعلم الشعر ، وعلم الخبر ، وعلم الطب ، وعلم الهندسة ، وعلم النجوم [٢] ، كما أضاف إلى العلوم التي عددها في رسالته علوماً أخرى هي : علم التجارة ، والخياطة ، والحياكة ، وتدبير السفن ، وفلاحة الأرض ، وتدبير الشجر ومعاناتها وغرسها ، والبناء، وغير ذلك [٣] وأخيراً رأى ابن حزم في رسالته المذكورة أن العلوم ترتبط

---

(١) ابن حزم الأندلسي : رسائل ابن حزم الأندلسي ـ تحقيق الدكتور إحسان عباس ، المؤسسة العربية للدارسات والنشر ، بيروت ١٩٨٣ ، ج٤ ، ص٢٨٥، ٣٤٨ .

(٢) المصدر السابق ، ج٤ ، ص٧٨-٨١ .

(٣) المصدر السابق ، ج٤ ، ص٨١ .

ببعضـــها فيقول : «فالعلوم كلها متعلق بعضها ببعض ، ... محتاج بعضها إلى بعض ، ولا غـــرض لها إلا معرفة ما أدى إلى الفوز في الآخرة فقط ، وهو علم الشريعة» [١] ، وهكذا كان شعب الأندلس كثير الإقبال على العلم ، سباقاً في ميدان المعرفة ، حريصاً على التمييز واكتساب المعارف .

وذكـــر المقـــري نقلاً عن ابن سعيد ، إن أهل الأندلس كانوا كثيري الرغبة في طلب العلم ، وأن العالم كان عندهم معظماً من الخاصة والعامة ، ولعدم وجود مدارس تعيـــنهم على طلب العلم ، فقد كانوا يقرؤون جميع العلوم في المساجد بأجرة ، وكل العلـــوم لهـــا عـــندهم حظ واعتناء إلا الفلسفة والتنجيم ، فإن لهما حظاً عظيماً عند خواصـــهم ، ولا يتظاهر بهما فوق العامة ، ومن كان يشتغل بهما أطلقت عليه العامة اســـم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه ، وكثيراً ما كان ملوكهم يأمرون بإحراق كتب الفلســـفة [٢] ، وقد كان للحكم المستنصر (٣٥٠-٣٦٦هـــ / ٩٦١-٩٧٦م) الفضل في تنشـــيط الحركة العلمية في الأندلس ، إذ تميز عن غيره من الحكام بشغفه بالعلوم ، فقد جاب رسله البلاد للحصول على المعرفة الموسوعية ، واستقبل العلماء القادمين من الشرق والذين أرادوا تعليم أنفسهم ، وجمع في مكتبته كتباً وصل عددها إلى أربعمائة ألـــف كـــتاب مـــع نهاية أيام حكمه ، لدرجة أن حاجبه المنصور المتسلط المقبل أراد حضور مجلسه الأدبي ، وقام بتأسيس مدرسة شعرية في قرطبة ، وهذا ما منعه بعد ذلك من تنقيح مكتبة الحكم بمؤلفات شكك في صحتها وشرعية وجودها والتعامل معها [٣]

---

(١) المصدر السابق ، ج٤ ، ص٨١ .

(٢) المقـــري : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ـــ تحقيق د. مريم قاسم ، ود. يوسف طويل ، دار الكتب العلمية ، بيروت ١٩٩٥ ، ج١ ، ص٢١١ .

(٣) جوزيـــف بورلـــو ، الحضارة الإسلامية ، نقله إلى العربية ريمة الفوال ، راجعه وقدم لـــه أ.د. سهيل زكار ، ص١٩٦ .

قال ابن حزم : «كان الحكم المستنصر من أشد الناس صبابة بالعلوم ، لا سيما بالأخبار والمقالات» [١] ، وأضاف : «كان الحكم جامعاً للعلوم محباً لها ، مكرماً لأهلها ، جمع من الكتب في أنواعها ما لم يجمعه أحد من الملوك قبله ، وأنفق في ذلك أموالا طائلة» [٢] . وترجم له ابن الآبار قائلاً : «كان الحكم المستنصر مشغوفاً بالعلوم، حريصاً على اقتناء دواوينها ، يبعث فيها إلى البلدان ، فيبذل في ذلك أنفس الأثمان . وكان يرغب في جميع العلوم الشرعية من الفقه والحديث وفنون العلم ، وكان بعث إلى أبي الفرج الأصفهاني ألف دينار عيناً وذهباً ثمن نسخة من كتاب «الأغاني» فأرسل إليه منه نسخة حسنة منقحة قبل أن يظهر الكتاب لأهل العراق» [٣] ، ولم تكن المرأة الأندلسية بمعزل عن ذلك النشاط العلمي الذي قام به الرجل الأندلسي ، فقد عدد ابن حزم وظائف النساء ،فكان منهن الطبيبة ، والحجامة ، والمغنية ، والمعلمة ، والعاملة في الغزل والنسيج ، وما شابه ذلك [٤] . وذكر غوستاف لوبون أن النسوة الأندلسيات اشتهرن بالمعرفة العلمية والأدبية وكنَّ محبات للدرس [٥] . أما فيما يتعلق بالحركة اللغوية والنحوية فقد ذكر المقري إن علم الأدب المنثور من حفظ التاريخ والنظم والنثر أنبل علم عند أهل الأندلس [٦] وأضاف قائلاً : كان النحو عند أهل الأندلس في نهاية من علو الطبقة ، فكانوا كثيري البحث فيه . وكل عالم لا يكون متمكناً منه فليس عندهم مستحق للتمييز [٧] ، وقد تحدث ألبير مطلق بإسهاب عن

---

[١] ابن حزم : رسائل ابن حزم الأندلسي ، ج٢ ، ص٧٥ .

[٢] المصدر السابق : ج٢ ، ص١٩٤ .

[٣] ابن الآبار : الحلة السيراء ، ج١ ، ص٢٠٠-٢٠٢ .

[٤] ابن حزم : رسائل ابن حزم الأندلسي ، ج١ ، ص١٤٢ .

[٥] لوبون : حضارة العرب ، نقله إلى العربية الأستاذ عادل زعيتر ، بيروت ١٩٧٩ ، ص٤٨٩ .

[٦] المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص٢١٢ .

[٧] المصدر السابق .

النشاط اللغوي والنحوي في الأندلس في عصري الدولة الأموية وملوك الطوائف ، وذكر العوامل التي ساعدت الحركة اللغوية والنحوية في مختلف المدن الأندلسية في هذين العصرين [١] .

ففي عصر الإمارة برز في حفظ اللغة ورواية الحديث محمد بن عبد السلام الخشني القرطبي ، فقد دخل العراق وأخذ من علمائها كثيراً من كتب اللغة ، وعاد إلى الأندلس وأدخل معه كثيراً من حديث الأئمة وكتب اللغة والشعر الجاهلي ، توفي في ٢٨٦هـ ـ ٨٨٩م [٢] ، أما في عصر الخلافة فقد برز أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي ، الذي ترجم له الحميدي ، وقال إنه كان إماماً في علم اللغة في عهد الحكم المستنصر ، متقدماً فيها ، متقناً لها ، فاستفاد الناس منه ، وعولوا عليه ، واتخذوه حجة، وكانت كتبه على غاية الضبط والإتقان ، منها كتاب «النوادر» وكتاب «البارع» وكتاب «المقصور والممدود والمهموز» ت. سنة ٣٥٦هـ ـ ٩٦٦م [٣] .

أيضاً كان أبو بكر محمد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي إماماً في النحو واللغة ، ألف في النحو كتاب «الواضح» واختصر كتاب «العين» للخليل بن أحمد ت. ٣٨٠هـ ـ ٩٩٠م [٤] . ومن أشهر النحويين المصروفين في عصر ملوك الطوائف أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز بن محمد بن أيوب بن عمرو البكري عاش في قرطبة في ظل بني جهور ثم انتقل إلى مدينة المرية ومنها رحل إلى إشبيلية ، وظل فيها

---

(١) مطلق : الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربي حتى نهاية عصر ملوك الطوائف ، بيروت ١٩٦٧ ص٢٥٨-٢٧٢ .

(٢) السيوطي : بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة ، دار المعرفة ، بيروت ، ص٦٧ .

(٣) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص١٦٤-١٦٦ ، رقم الترجمة ٥٤٧ .

(٤) المصدر السابق : ص٤٦-٤٨ . رقم الترجمة ، ص٣٤ . الضبي : بغية الملتمس ، ص٦٦-٦٧ رقم الترجمة ٨٠ .

إلى أن توفي سنة ٤٨٩هـ ــ ١٠٩٥م . كان إماماً لغوياً ، امتاز على أهل عصره بثقافته اللغوية العالية حتى عد مفخرة الأندلس وآخر علمائها في عصره ، من مصنفاته في اللغة : اللآلي في شرح أمال القالي (مطبوع) ، وكتاب «التنبيه على أغلاط أبي علي القالي في أماليه» (مطبوع) ، و«فصل المقال في شرح كتاب الأمثال لابن سلام» (مطبوع) ، و«معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» (مطبوع) [1] . ويعد أبو علي عمر بن محمد الشلوبيني الإشبيلي ت.سنة ٦٤٥هـ ــ ١٢٤٧م إماماً في علم النحو في عصر الموحدين ، ألف كتاباً سماه «التوطئة» [2] ، وقد ذكره المقري وسجل عليه عيباً ، وهو أنه كان كثير التحريف في لسانه ، جارياً في ذلك مجرى أهل الأندلس، إذ أن كلامهم الشائع في الخواص والعوام كان كثير الانحراف عما تقتضيه أوضاع اللغة العربية [3] . ويعد جمال الدين محمد بن عبد الله بن مالك بن الجياني العلامة الأوحد في النحو والتصريف واللغة ، وله «الألفية» والتسهيل ت.سنة ٦٧٢هـ ــ ١٢٧٣م [4] ، هذا ما كان بشأن النحو واللغة ، أما فيما يتعلق بالشعر فقد ازدهر مع ابن عبد ربه (ت. ٨٦٠-٩٣٩) الذي ألف ديواناً شعرياً شرقياً تماماً ومع ابن هاني (ت. ٩٣٤-٩٧٣) الذي ولد بالأندلس وترك الأندلس متوجهاً إلى إفريقية ليصبح شاعراً في بلاط المعز ، رابع الخلفاء الفاطميين ، ولوحظ أن الشعر الأندلسي تناول خلال القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي أفكاراً مختلفة ، خاصة بوصف المناظر الطبيعية والحدائق والنساء لدرجة تذكرنا معها بشعر ما قبل

---

(1) ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثاني ، ص٢٣٢ . ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب ، تحقيق د. شوقي ضيف ، مصر ١٩٦٤ ، ج١ ، ص٣٤٧ . ابن الآبار : الحلة السيراء ، ج٢ ، ص١٨٠ .

(2) ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج٣ ، ص٣٩٥-٣٩٦ .

(3) المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص٢١٢ .

(4) ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج٣ ، ص٤٠٧ . ابن الخطيب : الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء ، المائة الثامنة ، تحقيق د. إحسان عباس ،بيروت ١٩٦٣ ، ص٨١ .

الإسلام . ثم هاهو ابن زيدون (١٠٠٣-١٠٧١م) يتغنى بحبه لشاعرته وحبيبته ولادة . أما ابن حزم (٩٩٤-١٠٦٤م) فيعد من كبار مفكري الأندلس من خلال رسالته «طوق الحمامة» الذي تحدث فيها عن الغزل والعشاق ، واعترف من خلالها بحبه لابنة والديه بالتبني ، هذا وقد كتب ابن حزم أيضاً رسائل كلامية جدلية . وكان ابن وزير بل وأصبح هو نفسه وزيراً «وكان واحداً من أكبر عقول الحضارة العربية الإسلامية» لم يكن ابن حزم شاعراً فقط بل مؤرخاً وقاضياً وفيلسوفاً كما سنرى فما بعد ، ومن الملاحظ ارتفاع مكانة الشعر في ظل بني عباد ، فالمعتضد والمعتمد كانا من كبار الشعراء ، وكان بلاطهم مقصداً للشعراء من كل أرجاء البلاد أمثال ابن اللبانة وأبي بكر ، وابن حمديس الصقلي ، وغيرهم [١] . كما قصد مدينة المرية عدد كبير من الشعراء والكتاب ، لأن بلاط بني صمادح ضم في أول عهدهم الوزير أحمد بن عباس [٢] الذي ضمت مكتبته ألوف الكتب ، واشتهر برعايته وتشجيعه للعلوم والآداب ، ويعدّ عصر المرابطين امتداداً لعصر دول الطوائف من هذه الناحية ، فقد ظهر فيهم عدد كبير من الشعراء أمثال ابن خفاجة أبو إسحاق إبراهيم بن خفاجة ت.سنة ٥٣٣هـ [٣] الذي عد من فحول الشعراء في العصر المرابطي ، لا بل أديب الأندلس وشاعرها الكبير ، وكان قد صمت في عهد ملوك الطوائف ، وعاد إلى الانطلاق من جديد في ظل المرابطين ومدحهم وشجعهم على إلغاء دول الطوائف ومحاربتهم الشرك وإحياء بواعث الجهاد . كما حفل عهدهم بالشاعر ابن الزقاق [٤] ابن أخت الشاعر الكبير ابن خفاجة ، وهو صاحب الخمريات البديعة التي

---

[١] الشنتريني : الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ٢ ، ص١٣-٧٧ ، ٣٦٨-٤٣٢ ، المصدر نفسه ، قسم ٤ ، مجلد ١ ص٣٢٠-٣٣٦ . المراكشي . المعجب ، ص٦٣ .

[٢] الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، قسم٣ ، مجلد ٢ ، ص٥٤١-٦٤٨ .

[٣] المصدر السابق .

[٤] Encyclopedie de, l'Islam (1971) Tom, p.995-996.

شـاعت في الأندلـس وفي المغرب ، هذا ويعدّ ابن خفاجة وابن الزقاق [1] القمة في الشعـر الأندلسي المحدث آنذاك ، أما الموشح فقد بلغ في عصر المرابطين القمة على يد الأعمـى التطيلي ت. ٥٢٥هـ الشاعر الوشاح الذي يمثل دون سواه عصر المرابطين لأن نشـاطه الشعري يتحدد بعهد علي بن يوسف الذي كان أميراً للأندلس منذ عام ٥٠٠هـ [2] . ولم يقتصـر عصر المرابطين في مجال الشعر على كل من ابن خفاجة والتطيـلي بل ضم أيضاً الشاعر الوشاح أبو بكر يحيى بن محمد (ابن بقي) ت. بوادي آش سنة ٥٤٠هـ أو سنة ٥٤٥هـ حيث ألف ما يزيد على ثلاثة آلاف موشحة [3]، وبفضل الأعمى التطيلي وابن تقي وغيرهم من الشعراء ارتفعت مكانة الموشحة وسمت إلى مكانـة القصـيدة التقليدية وابتدأ العصر الذهبي للموشحات في الأندلس بعد أن كانـت أول الأمر قاصرة على الغزل والخمر والمديح . أما الزجل فقد خطا خطوات واسعة نحو الكمال صورة وموضوعاً على يد ابن قزمان [4] الذي يعد إمام الزجالين في الأندلـس دون مـنازع بل يعد ابن قزمان من أجرأ شعراء الأندلس والذي لم يتفرد وحـده بـتلك الجرأة بل كان له تلاميذ وأتباع عديدون . وبذلك بلغ الشعر على يد هـؤلاء الشـعراء مراتـب عالـية في طريق الكمال ، ومن جهة أخرى كان اهتمام الأندلسـيين بعلوم الدين كبيراً ، فقراءة القرآن بالسبع ورواية الحديث عندهم رفيعة ، وللفقـه رونـق ووجاهة ، فكانت سمة الفقيه عندهم جليلة ، حتى إن المرابطين كانوا يسـمون الأمير العظيم الذي يريدون تنويهه بالفقيه ، وقد يقولون للكاتب والنحوي

---

(1) التكملة ، ترجمة رقم ١٨٤٤ . أبو الذهب : شذرات الذهب ، ج٤ ، ص٨٩ .

(2) الشنتريني : الذخيرة ، قسم ٢ ، مجلد ٢ ، ص٧٣٢-٧٥٢ ، ص٧٢٨ ، هامش رقم (١) .

(3) المصدر السابق ، قسم ٢ ، مجلد ٢ ، ص٦١٦-٦٣٦ .

(4) ابن خلدون : المقدمة ، ص٥٢٤ .

Encyclopedie de L'Islam, Tom III, P.873-875 .

واللغوي فقيه ، لأنها عندهم أرفع السمات ، وعلم الأصول عندهم متوسط الحال [1] .

وفي رسالة مراتب العلوم «وضع ابن حزم الأندلسي علم شريعة الإسلام في أول العلوم فقال : «فأفضل العلوم ما أدى إلى الخلاص في دار الخلود ، ووصل إلى الفوز في دار البقاء»[2] ، وبعد أن بين ابن حزم أن كل علم شريعة سوى الإسلام باطل ، قسّم شريعة الإسلام أقساماً أربعة هي : علم القرآن وعلم الحديث ، وعلم الفقه ، وعلم الكلام [3] ، وكان الأغلب عند أهل الأندلس إقامة الحدود ، وإنكار التهاون بتعطيلها، وإذا تهاون فيه الحاكم دخل العامة قصره ولا يعبؤون بخيله ورَجْله حتى يخرجوه من بلدهم [4] . وقد بلغ علماء الأندلس في عصر ملوك الطوائف الغاية في علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات ، وقد أشار إلى ذلك الأمير عبد الله بن بلقين في مذكراته قائلاً : «ولم تزل الأندلس قديماً وحديثاً عامرة بالعلماء والفقهاء وأهل الدين، وإليهم كانت الأمور مصروفة» [5] وكان مذهب أهل الأندلس مذهب أهل السنة ، إذ كانوا منذ أول الفتح العربي على مذهب عبد الرحمن بن عمرو الأوزاعي الشامي ، الذي كان يهتم بأحكام الحرب والجهاد ، وما يوافق حياتهم القائمة آنذاك على الغزاوت والحروب في عصر الولاة وصدر عصر الدولة الأموية . وفي عهد الحكم الربضي حل محله مذهب مالك بن أنس وذلك بسبب رحلة علماء الأندلس إلى المدينة وأخذهم الكثير من فضائل مالك ، وظل هذا المذهب يسود كل العصور [6] .

هذا ومن العلماء الذين ظهروا في الحديث وتفسير القرآن نَجْم بقي بن مخلد ،

---

(1) المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص٢١١-٢١٢ .

(2) ابن حزم : رسائل ابن حزم الأندلسي ، ج٤ ، ص٦٤ .

(3) ابن حزم : رسائل ابن حزم الأندلسي ، ج٤ ، ص٧٨-٧٩ .

(4) المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص٢١٠ .

(5) ابن بلقين : مذكرات الأمير عبد الله .

(6) المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص٢١٠ .

كان من حفاظ المحدثين ، وأئمة الدين من أهل قرطبة رحل إلى المشرق فروى عن أحمد بن حنبل ، وعبد الله بن أبي شيبة وغيرهما من الأئمة المشاهير ، ورجع إلى الأندلس فملأها علماً جماً ، وكتب المصنفات الكبار ، منها «تفسير القرآن» ، ومصنف كبير من الحديث ، ومصنف آخر في فتاوى الصحابة والتابعين ، توفي بقرطبة سنة ٢٧٦هـ ـ ٨٨٩م [1] . ويعد محمد بن وضاح من الرواة المكثرين والأئمة المشهورين في قرطبة . حدث في الأندلس مدة طويلة وانتشر بها عنه علم جم حتى صارت الأندلس ف أيامه دار حديث وإسناد ، توفي سنة ٢٨٦هـ ـ ٨٩٩م [2] ، وكان أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر المتوفى عام ٤٦٣هـ ـ ١٠٧٠م ، عالماً بالقراءات ، والخلاف في الفقه ، وعلوم الحديث ، وله كتاب «التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد» وهو في عشرة أسفار [3] . وذكر ابن حزم هذا الكتاب ، وقال إنه لا يعلم في الكلام على فقه الحديث مثله ، ولا أحسن منه [4] . هذا ما كان بشأن علوم الدين، أما فيما يتعلق بعلم التاريخ فقد ازدهر متأثراً بالمشرق ولكن الجديد هو بروز التأثير المحلي اللاتيني في بعض المؤلفات التي وضعت نتيجة لاطلاع الأندلسيين على مؤلفات المؤرخ الإسباني هيروشيش ، ومنها كتب التاريخ السبعة في الرد على الوثنيين ، ولكن أنماط التأليف ظلت مشرقية كالحوليات وكتب رجال الدين والطبقات ، مثل تكملة تاريخ الطبري للمؤرخ عريب بن سعد ، وأيضاً برزت عائلة

---

(1) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص١٧٧-١٧٩.

(2) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، تحقيق إبراهيم الأبياري ، بيروت ١٩٨٣-١٩٨٤ ، ص١٧١ . الحميدي : جذوة المقتبس ، ص٩٣-٩٤ ، رقم الترجمة ١٥٢ .

(3) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص٣٦٧-٣٦٨ ، رقم الترجمة ٧٧٤ . الضبي : بغية الملتمس ، ص٤٨٩-٤٩٠ ، رقم الترجمة ١٤٤٣ .

(4) بن حزم : رسائل ابن حزم الأندلسي ، ج٢ ، ص١٧٩ . المقري : نفح الطيب ، ج٤ ، ص١٤٩ .

الرازي التي قدمت العديد من المؤلفات التاريخية القيمة مثل أنساب مشاهير الأندلس ، ويقـــع في خمـــس مجلـــدات للمؤرخ أحمد الرازي ، أيضاً كتاب حجاب الخلفاء في الأندلـــس، وكتاب تاريخ الأندلس للمؤلف عيسى الرازي ، ويعد هذا الكتاب مرجعاً هاماً لتاريخ الأندلس في عصري الإمارة والخلافة [1] . ولقد نظم ابن عبد ربه أرجوزة شـــهيرة تحـــدث فـــيها عن الغزوات السنوية التي قام بها عبد الرحمن الناصر من سنة ٣٠٠هـــــ ـــ ٩١٢م حتى سنة ٣٢٢هــ ـــ ٩٣٣م ، وقد نظمها على بحر الرجز ، وتـــتألف مـــن (٤٤٥) بيـــتاً من الشعر ، وتمثل وثيقة في موضوع الحماسة العربية في الأندلس حيث اعتمد فيها على التاريخ كقاعدة لعمله الأدبي [2] ولأبي الوليد عبد الله بـــن محمد بن يوسف بن الفرضي ت. سنة ٤٠٣هــ ـــ ١٠١٢م كتاب تاريخ علماء الأندلس، وهو مطبوع ، ويعدّ أبو مروان حيان بن خلف بن حيان القرطبي من أعظم المؤرخـــين الذين أنجبتهم قرطبة في عصر الخلافة وعصر ملوك الطوائف ، ومن مؤلفاته «المقتـــبس في تـــاريخ الأندلـــس» وهو في عشر مجلدات ، وكتاب «المتين» في ستين مجلداً [3] ، أيضاً له كتاب «البطشة الكبرى» خصصه عن نكبة الجهاورة بقرطبة [4] .

هـــذا وحظيـــت الدراسات التاريخية في عصر المرابطين بخطوات واسعة بقيت آثارهـــا حتى الآن ، حيث ظهرت مؤلفات ابن بشكوال ، وهو عالم أندلسي من أصل

---

(١) تفاصيل أوسع عن ازدهار الحضارة في المصادر والمراجع التالية :

المســعودي : كتاب التنبيه والأشراف ، ط. ليدن ١٨٩٣ ، ص٦٨ وما بعدها . ابن سعيد المغربي : المغرب ، تحقـيق شـوقي ضيف ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص٤٥ و١٨١ . وتاريخ الفكر الأندلسي ، بالنثيا ، تحقيق حسين مؤنس وإحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي ، ج٢ ، من المكتبة الأندلسية (بيروت) ، ص٥٢-٥٨ . .

(٢) طويل : ابن عبد ربه ، ص٢٢ .

(٣) ابن خلكان : وفيت الأعيان ، ج٢ ، ص١٨٧ .

(٤) ابـــن الخطيـــب : أعمـــال الأعلام فيمن بويع قبل الإسلام ، القسم الثاني ، تحقيق ليفي بروفنسال ، بيروت، لبنان ١٩٠٧ ، ص١٥١ .

إسبـاني ، لـــه كتاب الصلة ، وهو مجموعة تراجم لكبار الأئمة والمحدثين والفقهاء وأهل الأدب في الأندلس . أكمل به تاريخ ابن الفرضي [1] كما ألّف ابن الصيرفي وهو أبـو بكـر يحيى بن محمد بن يوسف الأنصاري كتاباً في تاريخ الأندلس سماه «الأنوار الجليلة في أخبار الدولة المرابطية» [2] ، وفي تلك الآونة وضع الحجار في كتابه المشهور «المسـهب في فضـائل العرب» وهو مجموعة تراجم لرجال الأندلس منذ فتحها حتى مطلـع القـرن السـادس الهجري [3] . ويعدّ هذا الكتاب من المصادر الهامة التي نقل عـنها أبـو سـعيد في كتابهم «المغرب» ، كما نقل عنه المري في عدة مواضع ، وفي عصـر الموحديـن ظهـر المـؤرخ أبي العـباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي ت نحـو ٦٩٥هـ ــ ١٢٩٥م ، حيث ألف كتاب «البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغـرب» ، وتـرجم لـــه خير الدين الزركلي باسم أبي عبد الله محمد بن محمد المراكشـي [4] واعـتمد ابن عذاري في تدوين كتابه على مصادر معاصرة للموحدين كمؤلفـات ابن صاحب الصلاة مثلاً ، وتميز بإسناد الروايااة أحياناً ، وعلق على بعض الحـوادث وأبدى رأيه أحياناً أخرى ، وهو من أهم مؤرخ تاريخ الأندلس والمغرب في تلك الحقبة .

ويعدّ ابن خلدون (أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون الإشبيلي) ت. ٨٠٨هـــــ ــ ١٤٠٦م من كبار المؤرخين ، وهو من أسرة عربية أندلسية ، تلقى علومـه في جـامع الزيتونة ، وقد احتل أعلى المناصب السياسية في إشبيلية وتلمسان وبجايـة وفـاس ، ثم لجأ إلى مصر حيث عمل مفتياً للمالكية ، ثم اعتزل بعد سنين في

---

(١) Encyclopedie de Islam, Tom III, P.730 .

(٢) خطوط الأسكوريال لوحة ٤١٥ .

(٣) نفح الطيب . ج٢ ، ص٤٠٦ ، ابن سعيد ، المغرب ، ج٣ ، ص٣٥-٣٦ .

(٤) الزركلي ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، بيروت ١٩٨٠ ، ج٧ ، ص٩٥ .

الفيوم عكف خلالها على تنظيم المادة التي جمعها خلال سنوات تجوله المتعددة، وخرج علينا بكتابه المشهور «العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم والبربر» (١)، هذا وقد حدد رسالة المؤرخ بأن على المؤرخ أن يقدم لنا بادئ الأمر مفاهيم عامة لكل بلد تتناول كل أمة وكل قرن ، في حال رغبته إسناد المواد التي يعالجها إلى قاعدة متينة، وبحث ابن خلدون في قوانين تطور المجتمعات الإنسانية والدول ، حيث حدد مفهومه لهذا الأمر بالتأكيد على «وجود حلقة صاعدة للسلطة وللتزايد ، يليها حلقة هابطة من الفوضى والتدرج» . وبدا فكره المتقدم جداً عن عصره ، وهو يعاني من سوء فهم عام، وهذا ما استوجب الانتظار حتى القرن التاسع عشر الميلادي ريثما تعرف عليها الأوروبيون (٢) .

واهتم الأندلسيون اهتماماً كبيراً بعلم الجغرافية وأحرز هذا العلم تقدماً ملحوظاً في عصر الخلافة متأثراً بالترجمة والاطلاع على المؤلفات المحلية ونتيجة للازدهار التجاري والنشاط الملاحي التجاري والعسكري ، إذ ألف أبو عبد الله محمد بن الوراق ت. ٣٦٢هـ ــ ٩٧٣م كتاباً ضخماً في «مسالك إفريقية وممالكها» (٣) ولأحمد بن محمد التاريخي ف مآثر الأندلس والمغرب كتباً جمة ، منها كتاب ضخم ذكر فيه مسالك الأندلس ومراسيها وأمهات مدنها ، وأجنادها الستة ، وخواص كل بلد منها (٤) ، وألف أحمد بن موسى الرازي كتاب في «صفة قرطبة وخططها ومنازل العظماء بها ، سار فيه

---

(١) المقري : نفح الطيب ، ج٧ ، ص٧٩ . السخاوي : الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، مصر ١٣٥٣-١٣٥٥هـ ، ج٤ ، ص١٤٥ .

(٢) جوزيف بورلو : الحضارة الإسلامية .

(٣) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص٩٧ ، رقم الترجمة ، ١٦٠ . الضبي : بغية الملتمس ، ص١٤١ ، رقم ٣٠٤ .

(٤) الضبي : بغية الملتمس ، ص١٥١ ، رقم ٣٢٩ . الحميدي : جذوة المقتبس ، ص١٠٤، ١٧٤ .

علــى نحــو ما بدأ به طاهر في أخبار بغداد [1] وبرز في هذا المجال إبراهيم بن يعقوب الطرطوشــي الــرحالة الأندلسي الذي جاب أوروبة وعاد إلى موطنه عام ٣٥٧هـــ ووضــع مؤلفاً عن مشاهداته في أقطارها المختلفة ، ونبغ في هذا العلم في عصر ملوك الطوائــف أبــو العباس أحمد بن عمر بن أنس بن دلات الزغبي الفدري المعروف بابن الدلائــي [2] ومن مصنفاته «نظام المرجان في المسالك والممالك» ، وقد طبع منه جزء بعــنوان «نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار ، والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك» تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني . وفي هــذا الكتاب قام العذري بتفسير أسماء الكثير من المدن الأندلسية باللغة اللاتينية ت. ســنة ٤٧٨هـــ ـــ ١٠٨٥م . وكان من أكبر جغرافي الأندلس وأعظمهم أبو عبيد الله الــبكري ت. ٤٨٩هـــ ـــ١٠٩٥م من عائلة عربية كانت تعيش في الأندلس، كتب كتاباً من عدة مجلدات باسم «المسالك والممالك» معتمداً على وثائق الأرشيف الرسمي في قرطــبة ، وتعــد من المعلومات التي أوردها عن بلاد المغرب والسودان هامة ، وقد خصــص جــزءاً منها باسم تذكرة النسيان في أخبار ملوك السودان ، وله كتاب طبع بعــنوان جغرافية الأندلس وأوربا . وهو مستخرج من كتابه المسالك والممالك [3] .

ويعــدّ الإدريسي (محمد بن عبد الله بن إدريس) من كبار الجغرافيين ، وهو من عائلة عربــية في الأندلــس ، هاجرت إلى شمال أفريقية ولد بسبتة عام ١١٠٠م ، ودخل في

---

[1] الحمــيدي : جــذوة المقتبس ، ص١٠٤ ، رقم الترجمة ١٧٥ . الضبي : بغية الملتمس ، ص١٥١ ، رقم ٣٣٠ .

[2] الحميدي : جذوة المقتبس ، ص١٣٦ ، رقم الترجمة ، ٢٣٦ . الضبي : بغية الملتمس ، ص١٩٥ ، رقم الترجمة ٤٤٦ . ياقوت : معجم البلدان ، بيرت ١٩٨٤ ، ج٢ ، ص٤٦٠ ، مادة دلاية .

[3] المقــري : نفح الطيب ، ج٤ ، ص١٦٢ . أضواء جديدة على مصادر تاريخ العرب ، حصاد (٦) ، القاهرة ١٩٨٨ ، ص٣٧٨ .

خدمـــة الملك روجر الثاني ملك صقلية وقضى حياته بالتجوال، وقام بعدة رحلات في أفريقيا ، واستعان به روجر لجمع المعلومات الجغرافية والعلمية المعروفة في ذلك الوقت حيـــث قام بصنع خارطة لنصف الكرة الأرضية مصنوعة من الفضة رسم عليها جميع مـــدن العالم مصاحباً لملخص مفصل ، أيضاً لـــه كتاب مشهور بعنوان «نزهة المشتاق في اخـــتراق الآفاق» [١] وقد عدَّ الإدريسي استرابون العرب وأكبر جغرافيي العصور الوسطى ، وكان أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير البلنسي الشاطبي رحالة من علماء الأندلـــس في الفقه والحديث ، وضع كتابه «رحلة ابن جبير» وهو مطبوع بعد أن قام بـــثلاث رحـــلات إلى المشرق بين عامي ١١٨٢ ، ١١٨٥ ، وقد قدم لنا وصفاً شيقاً للطريق الذي سلكه وحالة الأهالي ومعيشتهم في المناطق التي زارها سنة ت. ٦١٤هـــ ـــ ١٢١٧م [٢] ويخـــتلف عن هؤلاء جميعاً رجل من مشاهير معاصري الإدريسي من الأندلســـيين ، وهـــو محمد بن عبد الرحيم بن سليمان بن أبي الربيع القيسي الغرناطي المعـــروف بأبي حامد الغرناطي ولد في غرناطة سنة ٤٧٣هـــ ـــ ١٠٨٠م [٣] . كان رحالـــة مشهور يدفعه إلى جوب الآفاق شوق لا يقارن إلا بهذا الذي دفع ابن بطوطة إلى رحلاتـــه ، وخلـــف لـــنا طائفة من كتب فريدة لم يصل إلينا منها إلا كتابان هما «المغرب عن بعض عجائب المغرب» وكتاب «تحفة الألباب ونجعة الإعجاب» ، ويعد الكتاب الأول صغير الحجم ، ولكنه حافل بالمادة الجيدة التي تلقي ضوءاً على معارف

---

[١] جوزيـــف بورلو : الحضارة الإسلامية ، نقله إلى العربية ريمه الفوال ، راجعه وقدم له الأستاذ الدكتور سهيل زكار ، دمشق ٢٠٠١م ، ص٢٠٤ . أضواء جديدة ، ص٣٧٨ .

[٢] ابـــن الخطيـــب : الإحاطة ، ج٢ ، ص٢٣٠-٢٣٤ . المراكشي : الذيل والتكملة للكتابي الموصول والصلة ، السفر السادس ، ص٥٩٥-٦٢١ .

[٣] الغرناطي : تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ، تحقيق د. إسماعيل العربي ، بيروت ١٩٩٣ ، ص٧ .

أبي حامد وتدل على توفر دراسة الفلك والتقاويم المختلفة كما يدخل في ذكر ووصف للمناطق الجغرافية وعجائب البلدان التي زارها ، ومن ضمنها وطنه الأندلس [١] أما كتاب «تحفة الألباب» فهو خليط عجيب بين الواقع والأسطورة مما يدخل في نطاق العلم وما يدخل في نطاق علم العوام والقصص الشعبي ، ولكنه في مجموعة كتاب كزموجرافية ، أي تصوير لعجائب الكون والأرض بصفة خاصة ، وهذه الصورة التي أعطاها لعلم الجغرافية ، وهو نفسه لم يدرك أنه يكتب في هذا العلم ولا ذكر اسمه إلا مرة واحدة ، ولكنه صاغ مادة كان يمكن أن تكون جغرافية في هذا الأسلوب ، ووضع بذلك نموذجاً سيحتذيه الكثيرون بعده وهذا يمكن بحق اعتبار أبي حامد مؤسساً لمدرسة تقف على الحدود بين أدب الرحلة والجغرافية ت. سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩-١١٧٠م [٢] .

أما الفلسفة فلم تنشط في بداية الأمر وظل أهل الأندلس يجهلونها حتى عهد عبد الرحمن الثاني (٢٠٦-٢٣٨هـ / ٨٢١-٨٥٢م) وأول من عمل بهذا العلم هو أبو عثمان سعيد بن فتحون السرقسطي إذ له رسائل مجموعة في الفلسفة تشير إلى تمكنه من هذه الصناعة [٣] . وترجم له ابن عبد الملك المراكشي وقال إنه كان ذا حظ من علوم القدماء الفلاسفة وأنه امتحن من قبل المنصور محمد بن أبي عامر محنة أدت إلى سجنه مدة ، ثم أطلق سراحه فاستوطن في صقلية إلى أن توفي بها [٤] . وفي عصر ملوك

---

[١] مؤنس (حسين مؤنس) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، ط٢ ، ١٩٨٦ ، ص٣٠٣-٣٠٤ ، ٣٢٦-٣٢٧ .

[٢] مؤنس : تاريخ الجغرافية ، ص٣٥٣ . الغرناطي : تحفة الألباب ، ص١٠ .

[٣] ابن حزم : رسائل ابن حزم ، ج٢ ، ص١٨٥ . المقري : نفح الطيب ، ج٤ ، ص١٥٤ .

[٤] ابن عبد الملك المراكشي : الذيل والتكملة ، ج٤ ، ص٤٠-٤١ .

الطوائف برع في هذا العلم أبو الفضل جعفر بن محمد بن أبي سعيد بن شرف ، وقد عرف بالحكيم الفيلسوف [1] ، واستمر التيار الفلسفي في عصر المرابطين وازدهر على يد عدد من الفلاسفة أمثال ابن باجة (أبو بكر محمد بن يحيى بن الصائغ) ت. سنة ٥٣٣هـ ــ ١١٣٨م الذي انصب عمله على الدراسات الفلسفية ، بالإضافة إلى كونه طبيباً ، ولقي الترحيب في بلاط المرابطين في سرقسطة ، كما استخدم في الكتابة لدى المرابطين في العدوة المغربية واستمر في عمله هذا حتى وفاته ، وهو متعدد الثقافات ألف في شتى فروع علوم الحكمة قرابة خمسة وعشرين كتاباً ذكر بعضها ابن أبي أصيبعة في كتابه طبقات الأطباء ، وكان ابن باجة قد ألم بالاطلاع على جميع علوم اليونان وكتب عدداً من ملخصات أرسطو ، واطلع على كتابات الفارابي وابن سينا والغزالي وغيرهم ، ولم يبقَ من مؤلفاته سوى كتاب «السماع الطبيعي» وهو شرح لكتاب أرسطو و«رسالة الوداع» التي احتوت على الكثير من آراء ابن باجة وفلسفته في ورسالة «تدبير الموحد» التي تعد من أهم كتبه ، ومن دراسة تلك الكتب يمكن القول أنه أول فيلسوف كبير جاوز أثره المغرب والأندلس والعالم الإسلامي إلى الغرب ليؤثر في الكتاب والفلاسفة الأوروبيين في أواخر العصور الوسطى، كما أنه يعد مجدداً لاتجاه الفلسفة في العصور التالية له [2] ، أيضاً لمع في مجال الفلسفة ابن السيد البطليوسي ، الذي ألف كتابه المشهور «الحدائق» في الوقت الذي كان فيه ابن باجة يضع مؤلفاته الفلسفية ، وقد أورد ابن السيد في كتابه فقرات لمؤلفين يونان أمثال

---

(١) المقري : نفح الطيب ، ج٤ ، ص٣٥٤ . ابن بسام : الذخيرة ، القسم الثالث ، ص٨٦٧ . ابن خاقان. قلائد العقيان . ص٢٥١ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء . تحقيق د. نزار رضا ، بيروت ١٩٦٥ ، ص٥١٥ . بدر : كتاب المغرب والأندلس . ص٧٤ .

أرسطو وأفلاطون [1] .

واستمر ازدهار الفلسفة في عصر الموحدين ، وبرز من أيامهم فلاسفة كبار أمثال ابن الطفيل وابن رشد الحفيد وغيرهم ، فقد استقدم الخليفة أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (٥٥٨-٥٨٠هـ / ١١٦٢-١١٨٤م) إلى بلاطه أبا بكر محمد بن عبد الملك بن الطفيل ، وأبا الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن رشد القرطبي ، وكان ابن الطفيل فيلسوف وطبيب الخليفة الخاص ، وكان عالماً موسوعياً اهتم بمشكلة وحدة وجود الإنسان مع الله بعيداً عن التجربة الصوفية التي لم تكفيه أبداً ، هذا وقام ابن الطفيل أيضاً بالتحدث في كتابه «حي بن يقظان» عن طفل عاش في جزيرة منعزلة ، ثم تطور فكره وعقله بشكل تدريجي ،.وبدأ بالتقدم شيئاً فشيئاً من خلال دراسة العلوم ورد الفعل الفلسفي ، حتى وصل إلى وحدانية الله عز وجل ، وبذلك استطاع ابن الطفيل تقديم نوع من الدين الطبيعي ، وارتفع بالعقل إلى الأعلى من حكايته تلك (ت ٥٨١هـ ـ ١١٨٥م) [2] . ويعد ابن رشد أكبر فيلسوف أندلسي عرفه الغرب باسم «أفيرويس» استطاع ممارسة عمله كقاضي في كل من إشبيلية وقرطبة ، وقد قدمه ابن الطفيل لأبي يعقوب يوسف ، الذي ما لبث أن أصبح طبيباً عنده ، هذا وقد اشتهرت رسالته «الكليات» خلال العصور الوسطى ، أما في مجال الفلسفة فقد برع في أن يكون ملخصاً لمؤلفات أرسطو ، كما وقام بالرد على كتاب الغزالي (تهافت الفلاسفة) بآخر يدعى (تهافت التهافت) ، وله أيضاً كتاب بعنوان «منهاج الأدلة في علوم الأصول» ومقاله في العقل ، ومقاله في القياس ، ومسائل في الحكمة ، ويمكن أن نرى في كتبه شيئاً من الجرأة بالنسبة للعالم الإسلامي ، وهذه الجرأة مع أفكاره بدت مستأثرة بالفلسفة الإغريقية ، وأخيراً عانى ابن رشد في نهاية حياته من حملات عدوانية

---

(١) بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، بعناية ، حسين مؤنس ، وإحسان عباس ، ص٣٣٤-٣٣٥ .

(٢) الزركلي : الأعلام ، ج٦ ، ص٢٤٩ . جوزيف بورلو : الحضارة الإسلامية ، ص١٩٩ .

شنَّها عليه علماء المالكية حتىتوفي في مراكش سنة ٥٩٥هـ ـــ ١١٩٨م [١] . وعاش في بـــلاد الأندلس خلال الحقبة نفسها الصوفي الكبير (أبو عبد الله الطائي الأندلسي) المعـــروف بمحـــي الدين بن عربي ، الذي كتب حوالي الألف كتاب ، أحدها تفسير ضـــخم للقرآن الكريم ، وله أيضاً كتاب (مشاهد الأسرار) و(رسالة الأنوار) ، ولعل أهـــم كتبه التي ألفها بدمشق كتابه المعروف بـــ (فصوص الحكم) وفيه يبرز بوضوح مذهـــبه المعـــروف في وحدة الوجود ، من مؤلفاته أيضاً (الجمع والتفصيل في حقائق التنزيل) ، وكتاب (المعارف الإلهية) ، وكتاب (ذخائر الأعلاق) وغير ذلك من الكتب الكـــثيرة الـــتي طـــبع قســـم كـــبير مـــنها ومـــا زال بعضها الآخر موجوداً على شكل مخطوطات [٢] .

هـــذا وقـــد ذكـــر عـــنه «فينســـان موفتايل» في كتابه «مفاتيح للفكر العربي» (الصـــفحة ٣٩) قائلاً : «هو مرتل لذكر الله والحب الإلهي ، عقل موفق ، مزج فيما بين الأفلاطونـــية المحدثة والإسماعيلية ومصادر فلسفية أخرى متنوعة» ، وظل ابن عربي محافظاً عـــلى تأثير واسع ، مع نظر العديد من الفقهاء المسلمين له على أنه رائد للعلم والأدب ، في حين ما زال ابن رشد يدرس وينتقد ، توفي عام ٦٣٨هـ ـــ ١٢٤١م [٣] .

ونظـــراً إلى اهتمام أمراء الأندلس بالموسيقى والغناء ، نشطت حركتها في مدن الأندلـــس على يدي زرياب (علي بن نافع) الذي كانت بداية حياته في بغداد حيث اســـتطاع الوصـــول إلى الخليفة المهدي ، وهو واحد من تلاميذ موسيقي بلاط بغداد

---

(١) ابـــن أبي أصـــيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص٥٣٠-٥٣٣ . جوزيف بورلو : الحضارة الإسلامية ، ص١٩٩-٢٠٠ .

(٢) العكـــري الدمشقي (عبد الحي بن أحمد) شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ج١ ، ص١٩٢ .

(٣) جوزيف بورلو : الحضارة الإسلامية ، ص٢٠٠-٢٠١ .

الكـــبير إسحاق الموصلي ليصبح التلميذ منافساً لأستاذه ، مما دفع الأول لنفي نفسه ، ووصـــل إلى قرطبة في بداية حكم الأمير عبد الرحمن الثاني في عام ٢٠٦هـــ ـــ ٨٢١م ، فقـــربه الأمـــير إلـــيه واشتهر في قصره ، وتمكن زرياب من إيجاد الوتر الخامس للعود وأسس معهداً للموسيقى استطاع من خلاله تثبيت دعائم الموسيقى الأصلية والموسيقى الأندلسية ، كما وأصبح خبيراً بالأناقة ومبتكراً لأحداث «الموضات» الجديدة ، وهذا مـــا دفعـــه لفتح معهد تجميلي وتأسيس تقويم خاص «بالموضة» ، وأخيراً برع زرياب أيضـــاً في فـــن الطبخ ، إذ نشر العديد من وجبات المطبخ البغدادي [١] . وأيضاً كان هناك ابن عبد ربه مشغوفاً بالموسيقى والغناء ، وقد أفرد في كتابه «العقد» باباً بعنوان «كـــتاب الياقوتة الثانية في الغناء واختلاف الناس في ذلك» ، قال فيه : «الغناء مراد السـمع ، ومـــرتع الأنفس ، وربيع القلب ، ومجال الهوى ، ومسلاة الكئيب ، وأنس الوحـــيد ، وزاد الراكـــب ، لعظـــم موقـــع الصـــوت الحسن من القلب ، وأخذه بمجامع النفس» [٢] .

وظلـــت الناحـــية الموسيقية ، كما يقول ابن سعيد ، قبل ظهور ابن باجة إمام الأندلس في الألحان في عصر المرابطين غير واضحة المعالم [٣] . وترجم ابن أبي أصيبعة لأبي بكـــر محمد بن يحيى ابن الصائغ المعروف بأبن باجة ، وقال إنه كان مُتْقناً لصناعة الموســـيقى ، جيد اللعب بالعود [٤] ، كما ترجم لأبي السلطت أمية بن عبد العزيز بن

---

[١] جوزيف بورلو : الحضارة الإسلامية ، ص١٩٥-١٩٦ .

[٢] ابـــن عبد ربه : العقد ، شرح الأساتذة أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري ، القاهرة ١٩٤٩-١٩٦٥ ، ج٦ ، ص٣ .

[٣] ابن سعيد : المغرب في حلي المغرب ، ج٢ ، ص١١٩-١٢٠ .

[٤] ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ص٥١٥ .

أبي السلط وقال إنه أتقن علم الموسيقا وأجاد اللعب بالعود [1] ، و لم تقتصر الموسيقى في الأندلس على طبقة خاصة كما في المشرق ، وإنما عمت الشعب كله [2] . ففي غرناطة أيام دولة بني نصر تفشى الغناء في كل زاوية وبخاصة في الدكاكين التي تجمع الكثير من الأحداث [3] .

وذهب أحمد مختار العبادي إلى أن الغناء والموسيقى في الأندلس كانت أكثر انتشاراً مما كان عليه في المشرق ، لأن أهل الأندلس كانوا كثيري التعلق بهما ، بحيث انتشروا في القصور والحقول ، وفي الأسواق والحوانيت والبيوت والمنتزهات [4] ، لا بل كان الغناء وسيلة من وسائل نقل الألحان العربية إلى ما وراء الحدود الإسلامية بالأندلس، وطريقاً إلى التأثير العربي كله [5] .

وفيما يتعلق بالطب ، فقد ذكر ابن جلجل أنه لم يكن في عهد الأمير عبد الرحمن الثاني (٢٠٦-٢٣٨هـ / ٨٢١-٨٥٢م) سوى أطباء نصارى ، لأن مسلمي الأندلس لم يكونوا بعد على اطلاع بتلك الصناعة ، وفي عهد محمد بن عبد الرحمن الثاني (٢٣٨-٢٧٣هـ / ٨٥٢-٨٨٦م) برع بعض الأطباء ، ولكن دون أن تعرف لهم مؤلفات ، ودخلت الكتب الطبية وجميع العلوم من المشرق إلى الأندلس في عهد عبد الرحمن الناصر ٣٠٠-٣٥٠هـ / ٩١٢-٩٦١م حيث ظهر أطباء مشهورون [6].

---

(١) المصدر السابق ، ص٥٠١-٥١٥ .

(٢) فارمر : تاريخ الموسيقى العربية ، تعريب د. حسين نصار ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص٢٢١ .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص١٣٧ . واللمحة البدرية في الدولة النصرية ، ص٤٠ .

(٤) العبادي : الإسلام في أرض الأندلس ، مجلة عالم الفكر ، المجلد العاشر ، العدد الثاني ١٩٧٩ ، ص١١٠

(٥) عباس : تاريخ الأدب الأندلسي ، عصر الطوائف والمرابطين ، دار الثقافة ، بيروت ١٩٧٤ ، ص٥٣ .

(٦) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق أ. فؤاد السيد ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ١٩٨٥ ، ص٩٢ ، ٩٧-٩٨ .

ويرتبط علما الطب والصيدلة ارتباطاً وثيقاً بالرياضيات والهندسة والفلك ، وكان من الصعب أن يفرقوا الرياضي من الطبيب أو الصيدلاني ، وكان من نتيجة ازدهار الطب بقرطبة أن دعا الحكم المستنصر ٣٥٠-٣٦٦هـ / ٦٩١-٩٧٦م إلى إنشاء «ديوان الأطباء» يسجل فيه اسم كل طبيب يحترف مهنتي الطب والصيدلة ويزاولهما ، فإذا ارتكب خطأ سقط اسمه من الديوان ، وقد جرى ذلك مع الطبيب أحمد بن حكيم بن حفصون ، إذ لما توفي الحاجب جعفر الصقلي أسقطه الحكم المستنصر من ديوان الأطباء [١] . وقد خصص ابن أبي أصيبعة فصلا بأطباء الأندلس ، فذكر أنه برع في الطب في عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الثاني يونس بن أحمد الحراني ، وولداه أحمد وعمر في عهدي عبد الرحمن الناصر والحكم المستنصر [٢]، وأضاف أن أبا عثمان سعيد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد ربه كان طبيباً فاضلاً ، له بصر بحركات الكواكب ، وله أرجوزة في الطب ، وكانت بينه وبين أبي عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه ، صاحب كتاب «العقد» مراسلات شعرية [٣] ، ويعد أبو القاسم الزهراوي (خلف بن عباس الزهراوي) (٩٣٦-١٠١٦م) واحداً من كبار الأطباء والجراحين في عصره ، وهو ـ بلا شك ـ من أكبر الجراحين العرب . يعد كتاب «التصريف لمن عجز عن التأليف» بمثابة موسوعة طبية حقيقية مؤلفة من ثلاثين مجلداً تحدث فيها عن الموازنة بين العمليات الجراحية ، وقد وصف ورسم فيها ما يزيد عن المئتي أداة جراحية استخدمها أو اكتشفها أو صنعها بنفسه . كما وقام أيضاً بوصف عدد من الأمراض منها النزف الدموي والعلاج بالكي ، إضافة إلى الإسعافات الخاصة بالجروح، وإعادة العظام المخلوعة إلى مكانها ، حيث قدم طريقته في التئام الجروح الباطنية ومادته الخاصة بتفتيت

---

(١) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٤٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص٤٨٦-٤٨٧ .

(٣) المصدر السابق ، ص٤٨٩-٤٩٠ .

حصى الكلية بواسطة مثقب، وتقنية استئصال الأعضاء ...

هذا وقد أكد على ضرورة دراسة جسم الإنسان وأعلن: «لا يعدو العقل الذي لا يعرف عصرنا عنه إلا القليل جداً من الجراحين البارعين إلا ممارسة لفعل معين يتطلب وجود مرضى ودراسات أولية مطولة لعلم جسم الإنسان، ويتطلب معرفة وظائف كل عضو فيه بشكل عميق ودقيق، وأشكال الأعضاء وتركيبها وعلاقتها المتبادلة ومعرفة العظام والشرايين والعضلات، وعددها ووظائفها»، ويذكر أنه تمت ترجمة كتاب الزهراوي إلى اللغة الاتينية عدة مرات نظراً لأهميته البالغة في الدراسات الطبية الأوروبية [(١)]. وكان الطبيب سليمان بن حسان، المعروف بابن جلجل طبيب الخليفة هشام المؤيد بالله، وكان خبيراً بالمعالجات، جيد التصرف في صناعة الطب، له بصيرة بقوى الأدوية المفردة، من كتبه تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس، ألفه سنة ٣٧٢هـ / ٩٨٢م بقرطبة، ومقالة في ذكر الأدوية التي لم يذكرها ديسقوريدس في كتابه [(٢)]، وله كتاب في أخبار أطباء الأندلس، ألفه سنة ٣٧٧هـ ـ ٩٨٧م [(٣)]. ولمع في علم الطب في عصر ملوك الطوائف نجم الجغرافي أبي عبيد البكري، قال عنه ابن أبي أصيبعة: «وهو أو عبيد الله بن عبد العزيز البكري، من مرسية، من أعيان أهل الأندلس وأكابرهم، فاضل في معرفة الأدوية المفردة وقواها، ومنافعها، وأسمائها، ونعوتها، وما يتعلق بها، وله من الكتب كتاب «أعيان النبات والشجريات الأندلسية» [(٤)].

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٥٠. ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي، ج٢، ص١٨٥. جوزيف بورلو: الحضارة الإسلامية، ص٢٠١-٢٠٢.

(٢) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٤٩٣-٤٩٥.

(٣) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ج٢، ص١٨٤. الحميدي: جذوة المقتبس، ص٢٢٥، رقم ٤٥٢. الضبي: بغية الملتمس، ص٣٠٠ رقم ٧٦٧.

(٤) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء، ص٥٠٠.

ومن الطبيعي أن تزدهر صناعة الطب في ظل المرابطين ، فقد تألق في بلاط علي ابن يوسف نجم علم من أعلام الطب وهو «أبو العلاء زهر بن عبد الملك بن زهر الإشبيلي» الذي يعد عميد الطب في عصر المرابطين وسليل أسرة بني زهر الشهيرة التي عقدت لها راية الطب في القرون الوسطى ، ألف العديد من الكتب أهمها كتاب «الطرر» وكتاب «الأدوية المفردة» وكتاب «الخواص» وكتاب «النكت الطبية» . وسبب تفوقه وبراعته في تلك الصنعة قربه من المرابطون وأجلوه وأغدقوا عليه من الأموال الشيء الكثير ، وبلغ من شدة اهتمامهم به وبمؤلفاته أن علياً بن يوسف أمر بجمع مصنفاته بعد وفاته ، فجمعت بمراكش وسائر بلاد العدوة والأندلس ونسخت [1] وكان معاصر أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت ت. سنة ٥٢٩هـ ـ ١١٣٤م ، من أكابر الفضلاء في صناعة الطب ، إذ بلغ فيها مبلغاً لم يصل إليه غيره من الأطباء ، ومن كتبه كتاب الأدوية المفردة على ترتيب الأعضاء المتشابهة والأجزاء والآلية [2] ، واشتهر في تلك الصناعة في عصري المرابطين والموحدين أبو بكر محمد بن عبد الملك بن أبي العلاء بن زهر المعروف بالحفيد ، إذ لم يكن في زمانه أعلم منه بصناعة الطب ، ألف الترياق الخمسيني للخليفة المنصور أبي يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الموحدي (٥٨٠-٥٩٥هـ / ١١٨٤-١١٩٩م) ، وكانت وفاته في سنة ٥٩٦هـ ـ ١١٩٩م [3] .

ومن الأطباء الذين اشتهروا في تلك الصنعة ابن باجة الذي عاش في بلاط حاكم سرقسطة المرابطي ، وفي شخصيته تمثلت الثقافة الموسوعية لمفكري تلك الحقبة ، فقد

---

(١) ابن جلجل : طبقات الأطباء والحكماء ، تحقيق فؤاد سيد ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص٥١٧-٥١٩ . ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٥١٩ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٥٠١ ، ٥١٤ .

(٣) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٥٢١-٥٢٢ .

انصب عمله على الدراسات الفلسفية والطبية والرياضية والموسيقية إلى جانب كونه شاعراً كبيراً ، ألف ابن باجة في العلوم الطبية كتباً ذاع صيتها في العالم الإسلامي منها كتاب «الأدوية المفردة» لجالينوس ، وكتاب «التجربتين على أدوية ابن وافد» ، وكتاب «اختصار الحاوي» للرازي ، و«تعليق على كتاب النبات» لأرسطوطاليس إلى جانب مؤلفاته في العلوم الأخرى [١] . وفي عصر الموحدين كان ضياء الدين أبو محمد عبد الله بن أحمد المالقي ، المعروف بابن البيطار أوحد زمانه في معرفة النبات ، فقد عمل على تطوير المنهج التجريبي ، وأرسى قواعده من خلال اعتماده على المشاهدة والنظر والخبرة ، كما جاء في مقدمة كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» ، وفي هذا الكتاب بين ابن البيطار الصحيح من الأدوية وما وقع الاشتباه به ، وله أيضاً كتاب «المُغْني» في الأدوية المفردة ، وكانت وفاته بدمشق سنة ٦٤٦هـ ـ ١٢٤٨م [٢] .

وفي علوم العدد والحساب والهندسة والفلك قيل لم يُقْسم لأهل الأندلس نفاذ ولا تحققوا بها ، إذ لا يثقون بأنفسهم في تمييز المحسن من المقصر في المؤلفين فيها ، وعلى الرغم من ذلك ظهر علماء كبار لهم مؤلفات مهمة من أمثال مسلمة بن أحمد ، وأصبغ بن محمد بن السمح ، وأحمد بن نصر وغيرهم [٣] ، ففي علم الفلك لمع أحمد بن أبان سيد ، إمام اللغة العربية في أيام الحكم المستنصر ، وله الكتاب المعروف بـ «كتاب العالم» نحو مائة مجلد ، مرتب على الأجناس ، بدأه بالفلك وختمه بالذرة [٤]

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص٤١٢-٤١٤ . ابن جلجل : طبقات الأطباء ، ص١٠٢ .

(٢) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٦٠١-٦٠٢ . ابن شاكر الكتبي : فوات الوفيات ، ج٢ ، ص١٥٩-١٦٠ . المقري : نفح الطيب ، ج٣ ، ص٤٢٩-٤٣٠ .

(٣) ابن حزم : رسائل ابن حزم ، ج٢ ، ص١٨٥-١٨٦ . المقري : نفح الطيب ، ج٣ ، ص١٥٤-١٥٥

(٤) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص٤٠٥ ، رقم الترجمة ٩٦٥ . الضبي : بغية الملتمس ، ص٥٣٨ ، رقم الترجمة ١٥٦٦ . المقري : نفح الطيب ، ج٤ ، ص١٥٢ .

وذكر ابن حزم أبا القاسم مسلمة بن أحمد المجريطي ، وقال إنه لم يؤلف في علم الفلك مثل زيجه [(1)] ، وترجم له ابن أبي أصيبعة فقال : كان مسلمة بن أحمد في زمن الحكم المستنصر إمام الرياضيين بالأندلس ، وأعلم من كان قبله بعلم الفلك وحركات النجوم ورصد الكواكب ، وكان يشغف بتفهم كتاب بطليموس ، المعروف بالمجسطي ، وله كتاب في تمام علم العدد ، وكتاب آخر اختصر فيه تعديل الكواكب ، وعني بزيج محمد بن موسى الخوارزمي ، وتميزت مؤلفاته بأنها أصبحت مرجعاً للمعارف الفلكية في أوروبا فيما بعد . ومن تلاميذه ابن السمح ، وابن الصغار ، والزهراوي ، وغيرهم (ت. سنة ٣٩٨هـ ـ ١٠٠٧م) [(2)] .

وظهر بغرناطة في عهد حبوس بن ماكس بن زيري أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح ، وقد ترجم له ابن الخطيب باسم : أصبغ بن محمد بن الشيخ المهدي الغرناطي، وقال إنه كان عالماً مشهوراً ، محققاً في العلوم من مؤلفاته «المدخل إلى الهندسة» في تفسير إقليدس ، وكتاب ثمار العدد المعرف بـ «المعاملات» ، وكتاب كبير ف الهندسة تقصى فيه أجزاءها [(3)] . وترجم له ابن أبي أصيبعة فقال : «كان ابن السمح في زمن الحكم المستنصر محققاً لعلم العدد والهندسة ، متقدماً في علم هيئة الأفلاك وحركات النجوم ، ومن مؤلفاته كتاب «المدخل إلى الهندسة» في تفسير كتاب إقليدس ، وكتاب «ثمار العدد» المعروف بـ «المعاملات» ، وكتاب «طبيعة العدد» ، وكتاب كبير في الهندسة ، وكتابان في الاسطرلاب ، وزيج ألفه على أحد مذاهب الهند وهو كتاب كبير» .. وتوفي بمدينة غرناطة سنة ٤٢٦هـ ـ ١٠٣٤م [(4)]

---

(1) ابن حزم : رسائل ابن حزم ، ج٢ ، ص١٨٥ . المقري : نفح الطيب ، ج٤ ، ص١٥٥ .

(2) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٤٨٢-٤٨٣ .

(3) ابن الخطيب : الإحاطة ، ج١ ، ص٤٢٨ .

(4) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٤٨٣ .

وقـــال عنه ابن حزم : لم يؤلّف مثل زيج أصبغ بن محمد بن السمح المهندس الغرناطي [١] وممـــن اشتهروا بعلم العدد أحمد بن نصر ، وقد ترجم له الحميدي وقال إن له كتاباً في المساحة المجهولة ، لم يُتقدَّمْ إلى مثله في معناه [٢] ، وعنه نقل الضبي الترجمة نفسها [٣] ، وكلاهمـــا نقـــل مـــا قاله ابن حزم : «... وكذلك كتاب لأحمد بن نصر في المساحة المجهولـــة ، فمـــا تقدَّم إلى مثله أحد في معناه [٤] ، وترجم ابن أبي أصيبعة لأبي القاسم أحمـــد بـــن عبد الله بن عمر ابن الصغار فقال إنه كان متحققاً بعلم العدد والهندسة ، وقعـــد بقرطبة لتعليم ذلك ، وكان من جملة تلامذة مسلمة بن أحمد ، وله من الكتب زيج مختصر على مذهب السند هند ، وكتاب في العمل بالإسطرلاب [٥] وترجم أيضاً لعـــلي بـــن سـليمان الزهراوي وقال إنه كان عالماً بالعدد والهندسة ، وله كتاب في المعـــاملات عـــلى طريق البرهان ويسمى بكتاب الأركان ، وكان قد أخذ كثيراً من العلـــوم الرياضـــية عن مسلمة ابن أحمد [٦] ، وذكر ابن باجة وقال إن لـــه تعاليق في الهندسة ، وعلم الهيئة تدل على براعته في هذا الفن [٧] .

هـــذا ويؤكد جميع الجغرافيين والرحالة المشارقة على ازدهار وتفتح الأندلس في جميع النواحي الاقتصادية ، ففي مجال الزراعات كانت لزراعات التقليدية المعروفة مثل الحبوب والزيتون والعنب هي السائدة ، حتى جاء العرب وبدؤوا بتحسين أنظمة الري في الوديـــان والمـــناطق الحدوديـــة ، لـــيطوروا فيها زراعة التين ، وقصب السكر ،

---

(١) ابن حزم : رسائل ابن حزم ، ج٢ ، ص١٨٥ . المقري : نفح الطيب ، ج٤ ، ص١٥٥ .

(٢) الحميدي : جذوة المقتبس ، ص١٤٨ ، رقم الترجمة ٢٥١ .

(٣) الضبي : بغية الملتمس ، ص٢٠٩ ، رقم الترجمة ٤٧٢ .

(٤) ابن حزم : رسائل ابن حزم ، ج٢ ، ص١٨٥-١٨٦ . المقري : نفح الطيب ، ج٤ ، ص١٥٥ .

(٥) ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ، ص٤٨٤ .

(٦) المصدر السابق : ص٤٨٤ .

(٧) المصدر السابق : ص٥١٥ .

والحمضيات والموز ، لا بل حتى البلح ، كما وقاموا أيضاً بتحسين زراعة النباتات المعطرة والمونة مثل الزعفران والحفة والكزبرة إضافة إلى المواد النسيجية ، القطن والكتان [1] . وظهرت كوكبة من المهندسين الزراعيين تفردوا عن غيرهم في ميدان الزراعة فطيلة عدة قرون ابتداء من القرن الرابع للهجرة / العاشر الميلادي ، يكاد يكون كل كتاب هام في الزراعة من إنتاج الأندلس [2] ، وعدد السويسي أهم مؤلفات الأندلسيين في الفلاحة وهي : كتاب «الأنواء» لأبي الحسن القرطبي ، وكتاب (الفلاحة) لأبي القاسم الزهراوي الطبيب ، وهما في القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي . وفي القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي كتاب الفلاحة لابن حجاج الإشبيلي وعبد الله بن بصال بطليطلة . وفي القرن الساس الهجري / الثان عشر الميلادي كتاب الفلاحة لأبي الخير الإشبيلي ، وكتاب الفلاحة لأبي زكريا بن العوام [3] وقد ذكر المقري ابن بصال وأثنى عليه في قوله : «ومنهم ابن بصال صاحب «كتاب الفلاحة» الذي شهدت له التجربة بفضله [4] .

هذا وقد اشتهرت الأندلس أيضاً بمصادرها الطبيعية المعروفة منذ زمن طويل أمثال : الذهب في مناطق «لاردة» وغرناطة ، والفضة في «مرسية» و«باجة» والحديد في مدينة الفرج ، والنحاس في طليطلة والبرة ، إضافة إلى الرصاص والمرمر من جبل شلير ، وأحجار الغرانيت في غرناطة ، كما وأشار الجغرافيون أيضاً إلى ثراء الأندلس بالأحجار الكريمة مثل الياقوت واللازورد ، أضف إلى ذلك أنه لا يمكن التغاضي عن

---

(١) جوزيف بورلو : الحضارة الإسلامية ، ص١٧٥ .

(٢) محمد السويسي : العلوم العربية في الأندلس ، مجلة الثقافة العربية ـ الإسبانية عبر التاريخ ، دمشق ١٩٩٠ ، ص٥١٦ .

(٣) السويسي : العلوم العربية بالأندلس ، ص٥١٦ .

(٤) المقري : نفح الطيب ، ج٤ ، ص١٣٤ .

شـــهرة طليطلة الواسعة وبراعتها في صناعة الأسلحة ، في حين تخصصت مدينة قرطبة بصناعة الزجاج والجلد .

أمـــا بالنســـبة للطـــرق الـــتجارية فقد كانت تمر من الأندلس التي تبيع زيوتها وأقمشتها مقابل شراء القمح ، كما وصل إليها العبيد القادمون من أوروبا الشرقية بعد نقلهم إليها من فيردون إما لاستخدامهم أو لإرسالهم إلى الشرق للعمل هناك . وكانت الأندلـــس البلد المتحضر القديم تضم عدداً من المدن الغنية بالأعمال اليدوية والتجارة ، وظلـــت العاصـــمة قرطبة من أكثر المدن أهمية ، كما وكان تكتل المدن خلال القرن العاشـــر المـــيلادي أوسع امتداداً من المدينة الحالية ، ويذكر ابن حوقل في هذا الإطار مؤكـــداً أنـــه لم تكن هناك مدينة باتساعها ولا حتى في المغرب أو سورية ومصر ، في حـــين يحدثنا البكري عن الإحصاء الذي قام به المنصور وقد وصل عدد المساجد فيها إلى ٤٧١ مســـجداً و٢١٣٠٧٧ منزلاً كان يسكنها عامة الشعب ، و٦٠٣٠٠ منزلاً يقطـــنها الموظفون وطائفة الأعيان ، إضافة إلى ٨٠٤٥٥ دكاناً .. وواقع الأمر أن تلك الأرقام مبالغ فيها ، لكنها تعطي فكرة هامة عن المدينة [١] .

● تأثير العرب على أوروبا خلال العصور الوسطى :

حدثـــت الاتصالات الواسعة بين الثقافة الإسلامية وأوروبا عن طريقي الأندلس أولاً وصقلية ثانياً ، إذ بدأت تلك الثقافة مع حلول القرن العاشر الميلادي بالتغلغل إلى مقاطعـــة «كاتالونيا» التي أخذ يؤمها رجال العلم والأدب لدراسة الكتب الإسلامية ، وهاهو نظام وحدانية «كلوني» يحاول المستحيل للتعرف على الفكر الإسلامي ، ويعد «جيربـــير» المولـــود عام ٩٣٨م واحداً من الذين تعلقوا بدراسة العلوم العربية ، وهو نفســـه أصـــبح بابـــا عام ٩٩٩م تحت اسم سيلفستر الثاني ، فقد قام بزيارة الأندلس

---

(١) جوزيف بورلو ، الحضارة الإسلامية ، ص١٧٥-١٧٦ .

ودرس علـــوم الرياضيات والفلك في مقاطعة ريبول بكاتالون ثم ما لبث أن انتقل إلى التدريس في ريمس ، وتتابعت النماذج من بعده وبدأت في إسبانيا خلال الحقبة الواقعة فـــيما بين القرن العاشر والقرن الثالث عشر الميلادي ظهور حركة نشيطة للترجمة عن اللغة العربية إلى اللاتينية ، فهاهو الإيطالي جيرارد الكريموني المولود عام ١١١٤م يستقر في طلـــيطلة ليتعـــلم اللغة العربية وليترجم ما يزيد عن سبعين كتاباً علمياً . بينما قام الـــبريطاني مايكل سكوت المولود عام ١٢٣٢م بترجمة كتب أرسطو وملخصات ابن سينا ، وهكذا تأسست مراكز ترجمة كبيرة في جميع أنحاء الأندلس المسيحية وخاصة في طلـــيطلة الـــتي كان يجتمع المسلمون والمسيحيون واليهود فيها حول الكاهن من أجل تـــرجمة انتقائـــية ، أما بالنسبة للعالم الأوروبي فقد كان يهتم آنذاك فقط بما يحدث في الجـــنوب ، أي أنه في الوقت الذي ازداد فيه فخر المسلمين بتفوقهم الثقافي وبازدهار بلادهـــم ، وفي الوقـــت نفسه الذي ابتعدوا فيه عن الاهتمام بأوروبا كان الأوربيون يحســـدون المســـلمين عـــلى ثقافـــتهم وعـــلى مستوى الحياة الرفيعة التي يعيشونها متمـــنين انتقالها إليهم . والدليل على ذلك روجر الثاني وفريدريك الثاني من صقلية ، اللذيـــن ســـحرهما فـــن الحـــياة الإســـلامية مما دفعهما لإحاطة بلاطيهما بموظفين ومثقفين مسلمين [1] .



[1] جوزيف بورلو : الحضارة الإسلامية ، ص٢١٢-٢١٣ .


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University

المصادر والمراجع

المصادر:

١- ابن الآبار : أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨هـ ـ ١٢٦٠م) .

- كتاب التكملة . القاهرة ١٩٥٦م .
- الحلة السيراء . جزءان . تحقيق د. حسين مؤنس . القاهرة ١٩٦٣م .
- المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصفدي . القاهرة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م .

٢- ابن الأثير : أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت. ٦٣٥هـ ـ ١٢٣٣م) .

- الكامل في التاريخ . بيروت ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م .
- ابن الأحمر (إسماعيل) بيوتات فاس الكبرى . الرباط ١٩٧٢ .

٣- ابن أبي أصيبعة :

- عيون الأنباء في طبقات الأطباء . ج٢ . ١٢٩٩هـ ـ ١٨٨٢م .

٤- الأصفهاني :

- خريدة القصر وجريدة العصر . قسم المغرب والأندلس . تحقيق محمد المرزوقي ـ محمد العمروسي المطوي ـ الجيلاني بن الحاج يحيى .

تونس ١٩٧١م .

٥- اماري ميشيل :

- المكتبة العربية الصقلية . ليبزغ ١٨٧٥م .

٦- البكري : عبد الله بن عبد العزيز المرسي (ت. ٤٨٧هـ ــ ١٠٨٤م) .

- المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب (نشره دي سلان وهو مأخوذ من كتاب المسالك والممالك . الجزائر ١٩١١م) .

٧- ابن بسام : أبو الحسن الشنتريني (ت. ٥٤٣هـ ــ ١١٤٧م) .

- الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة . تحقيق إحسان عباس . بيروت ١٣٩٩هـ ــ ١٩٧٩م .

٨- ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك (ت. ٥٧٨هـ ــ ١١٨٣م) .

- الصلة في تاريخ أئمة الأندلس . الدار المصرية للتأليف والنشر ١٩٦٦م .

٩- البيذق : أبو بكر الصنهاجي (القرن السادس الهجري) .

- أخبار المهدي بن تومرت وابتداء دولة الموحدين . تصحيح وترجمة لافي بروفنسال . باريس ١٩٢٨م .

١٠- التطيلي :

- ديوان الأعمى التطيلي . تحقيق إحسان عباس . بيروت ١٩٦٣م .

١١- ابن تغري بردي :

- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة . القاهرة ١٩٣٥م .

١٢- جان وجيروم طارو :

- أزهار البساتين في أخبار الأندلس والمغرب . ترجمة أحمد بلا فريج ومحمد الفاسي . الرباط ١٣٤٩هـ .

١٣- ابن جبير : محمد بن أحمد الأندلسي (ت. ٦١٤هـ ــ ١٢١٧م) .

- رحلة ابن جبير . القاهرة ١٩٥٥م .

١٤- الجزنائي : أبو الحسن علي .

- زهرة الآس في بناء مدينة فاس . نشر الفريد بيل . الجزائر ١٩٢٣م .

١٥- ابن الحداد الأندلسي :

- ديوان ابن الحداد الأندلسي . تحقيق يوسف علي طويل . بيروت ١٤١٠هـ ـ ١٩٩٠م .

١٦- الحموي : ياقوت الحموي (ت. ٦٢٦هـ ـ ١٢٩٩م) .

- معجم البلدان . دار صادر بيروت .

١٧- الحميدي : أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله (ت. ٤٨٨هـ ـ ١٠٩٥م).

- جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس . تحقيق محمد بن تاويت الطنجي القاهرة ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٢م .

١٨- الحميري : عبد المنعم السبتي (توفي أواخر القرن التاسع الهجري) .

- الروض المعطار في أخبار الأقطار . تحقيق إحسان عباس . بيروت ١٩٧٥م .

- صفة جزيرة الأندلس . تحقيق ليفي بروفنسال . القاهرة ١٩٦٢م .

١٩- ابن حوقل :

- صورة الأرض . ليدن ١٩٢٨م .

٢٠- ابن خاقان : أبو نصر الفتح محمد القيسي الإشبيلي (ت. ٥٣٥هـ ـ ١١٣٤م).

- قلائد العقيان في محاسن الأعيان . في طبعتين ، الطبعة الأولى صدرت بالقاهرة ١٣٢٠هـ ، الطبعة الثانية تصحيح عبد سليمان الحرايري ١٢٧٧هـ .

٢١- ابن الخطيب : لسان الدين محمد بن عبد الله (ت. ٧٧٦هـ ـ ١٣٧٤م) .

- أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام . نشر منه الجزء الخاص بتاريخ الأندلس في بيروت ١٩٥٦م ، تحقيق ليفي بروفنسال ، وبعنوان

«تاريخ إسبانيا الإسلامية» . ونشر الجزء الخاص بتاريخ المغرب وصقلية ، في الـدار البيضـاء عام ١٩٦٤م ، تحقيق أحمد مختار العبادي وإبراهيم الكتاني ، بعنوان «تاريخ المغرب في العصر الوسيط» .

- الإحاطـة في أخـبار غـرناطة . حققـه محمـد عـبد الله عنان . القاهرة ١٣٩٣هـ ـ ١٩٧٣م .

- رقم الحلل في نظم الدول . تونس ١٣١٧هـ .

٢٢- ابن خفاجة :

- ديوان ابن خفاجة . تحقيق السيد مصطفى غازي . الإسكندرية ١٩٦٠م .

٢٣- ابن خلدون : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت. ٨٠٨هـ ـ ١٤٠٥م) .

- العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ج١ ، ٤ ، ٦ . طبعة بيروت ١٩٥٩م ، ١٩٦١م

٢٤- ابن خلكان : شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد (ت. ٦٨١هـ ـ ١٢٨٢م) .

- وفـيات الأعـيان وأنـباء الزمان . تحقيق محيي الدين عبد الحميد . القاهرة ١٩٥٠م ، طبعة أخرى تحقيق إحسان عباس . بيروت ١٩٦٨م .

٢٥- ابـن أبي ديـنار : محمد بن أبي القاسم الرعيني القيراوني (أواخر القرن الحادي عشر الهجري) .

- المؤنس في أخبار إفريقية وتونس . تحقيق محمد شمام . تونس ١٩٦٧م .

٢٦- ابن دراج القسطلي :

- ديوان ابن دراج القسطلي . نشر محمود مكي . دمشق ١٩٦١م .

٢٧- ابن أبي زرع الفاسي :

- الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس . الرباط ١٩٧٣م .

٢٨- الزجالي :

- أمثال العوام في الأندلس . تحقيق محمد بن شريفة . فاس ــ المغرب ١٩٧١م.

٢٩- الزركشي : أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللؤلؤي (القرن التاسع عشر) .

- تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية . تحقيق محمد ماضور . تونس ١٩٦٦م .

٣٠- ابن زيدان :

- العــز والصولة في معالم نظام الدولة . نشر عبد الوهاب بن منصور . الرباط ١٩٦١م .

٣١- الزيري : الأمير عبد الله بن بلقين الزيري .

- مذكــرات الأمــير عبد الله المسماة بكتاب التبيان . تحقيق ليفي بروفنسال . مصر ١٩٥٥م .

- رسائل أندلسية . تحقيق د. فوزي عيسى . كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ١٩٨٩م .

- رسائل ومقامات أندلسية . تحقيق فوزي سعد عيسى .

٣٢- ابن رشد :

- مسائل أبي الوليد بن رشد . تحقيق ودراسة محمد بن الحبيب التجكاني . لنيل درجــة الماجستير . دار الحديث الحسنية . الرباط . مطبوعة على الآلة الكاتبة ١٩٧٧م .

٣٣- ابن رشد القرطبي :

- المقدمــات الممهدات . جزآن . تحقيق سعيد أعراب . بيروت ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م .

٣٤- ابن سعيد المغربي :

- بسط الأرض بالطول والعرض . تحقيق خوان قرنيط خينيس . تطوان ١٩٥٨م

- المغرب في حلى المغرب . جزآن . القاهرة ١٩٥٣م .

٣٥- السلاوي : أبو العباس أحمد بن خالد الناصري (ت. ١٣٥١هـ ـــ ١٨٩٧م).
- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى . الدار البيضاء ١٩٥٤م .
٣٦- ابن صاحب الصلاة : عبد الملك (ت. ٥٩٤هـ ـــ ١١٠٢م) .
- تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين . السفر الثاني . تحقيق عبد الهادي التازي.
٣٧- الضبي : أبو جعفر أحمد بن يحيى القرطبي (ت. ٥٩٩هـ ـــ ١٢٠٣م) .
- بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس . دار الكاتب العربي ١٩٦٧م .
٣٨- الطرطوشي : أبو بكر (ت. ٥٢٠هـ ـــ ١١٣٥م) .
- الحوادث والبدع . تحقيق محمد الطالبي . تونس ١٩٥٩م .
- سراج الملوك . تحقيق جعفر البياتي . لندن .
٣٩- العاملي :
- الزهرات المنثورة في نكت الأخبار المأثورة . تحقيق محمود علي مكي . ١٤٠٤هـ ـــ ١٩٨٤م . مصر الجديدة . نوفمبر ١٩٧٨م .
٤٠- ابن عبد ربه :
- العقد الفريد . تحقيق محمد سعيد العريان . القاهرة ١٩٥٣م .
٤١- ابن عبد الرفيع :
- معين الحكام على القضايا والأحكام . تحقيق محمد بن قاسم ابن عياد . بيروت ١٩٨٨م .
٤٢- ابن عبدون : محمد بن أحمد التجيبي .
- ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب . تحقيق ليفي بروفنسال . المعهد العلمي للآثار الشرقية . القاهرة ١٩٥٥م .
٤٣- ابن عذاري : أبو العباس أحمد بن محمد (كان حياً ٧١٢هـ ـــ ١٣١٢م) .

- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب . قطعة تتعلق بتاريخ المرابطين نشرها ويثي ميراندا في مجلسة هسبيرس ١٩٦١م .
- البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب . القسم الثالث . عني بنشره امبروسي هويس مراندة ــ محمد بن تاويت ــ محمد إبراهيم الكتاني . تطوان ١٩٦٠م .

٤٤- ابن العربي : أبو بكر (ت. بفاس ٥٤٣هـ ــ ١١٤٨م) .
- العواصم من القواصم في تحقيق مواقف الصحابة بعد وفاة النبي (ﷺ) . تحقيق محب الدين الخطيب . القاهرة ١٣٧١م .
- الغنـــية . فهرســـت الشيوخ القاضي عياض . ٤٧٦-٥٤٤هـــ / ١٠٨٣-١١٤٩م . تحقيق ماهر جرار . دار الغرب الإسلامي . بيروت ١٤١٢هـ ــ ١٩٨٢م .

٤٥- ابن قزمان :
- ديوان ابن قزمان . فكور نيطي . المعهد العربي للثقافة . مدريد ١٩٨٠م .

٤٦- القرشي :
- معالم القربة في أحكام الحسبة . تحقيق محمد محمود شعبان ــ صديق حمد ــ عيسى المطيعي . الهيئة العامة المصرية للكتاب سنة ١٩٧٦م .

٤٧- ابـــن القطـــان : أبو الحسن علي بن محمد الكناني الفاسي (ت. ٦٣٨هـــ ــ ١٢٣٠م) .
- نظم الجمان في أخبار الزمان . تحقيق محمود مكي . الرباط ١٩٦٤م . بيروت ١٩٩٠م .

٤٨- القفطي :
- أخبار العلماء بأخبار الحكام . القاهرة ١٣٢٦هـــ .

٤٩- ابن القلانسي :
- تاريخ دمشق . تحقيق د. سهيل زكار . دمشق ١٤٠٣هـ ـــ ١٩٨٣م .
٥٠- ابن الكردبوس :
- كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء ، القسم الخاص بالأندلس . نشر وتحقيق أحمد مختار العبادي . مدريد ١٩٧١م .
٥١- ليفي بروفنسال :
- مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية . الرباط ١٩٤١م .
٥٢- الماوردي : أبو الحسن علي بن محمد البصري البغدادي (ت. ٤٥٠هـ ـــ ١٩٥٧م) .
- الأحكام السلطانية والولايات الدينية . تصحيح الغساني . القاهرة ١٩٠٩م .
- تسهيل النظر وتعجيل الظفر في أخلاق الملك وسياسة الملك . تحقيق رضوان السيد . بيروت ١٩٨٧م .
٥٣- المجيلدي :
- كتاب التيسير في أحكام التسعير . تحقيق موسى لقبال . الجزائر ١٩٨٢م .
٥٤- المراكشي : ابن عبد الملك (ت. ٧٠٣هـ ـــ ١٣٠٤م) .
- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة . السفرين الرابع والخامس . تحقيق الدكتور إحسان عباس . بيروت ١٩٦٤م .
٥٥- المراكشي : عبد الواحد (كان حياً في الربع الأول من القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي) .
- المعجب في تلخيص أخبار المغرب . تحقيق محمد سعيد العريان ـــ محمد العربي العلمي . القاهرة ١٩٤٩م .
٥٦- مقديش :

- نـــزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار . تحقيق علي الزواوي ـــ محمد محفوظ . بيروت ١٩٨٨م .
٥٧- المقـــري : شهاب الدين أبو العباس أحمد بن محمد التلمساني (ت. ١٠٤١هـــ ـــ ١٦٣١م) .
- نفـــح الطيـــب مـــن غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب . تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد . بيروت .
- أزهـــار الرياض في أخبار القاضي عياض . تحقيق عبد السلام الهراس وسعيد أحمد أعراب . المحمدية ١٩٨٠م .
٥٨- المكناسي :
- جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام بمدينة فاس . الرباط ١٩٧٣م .
٥٩- الملزوزي : (عبد العزيز) .
- نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك . الرباط ١٩٦٣م .
٦٠- مؤلف مجهول :
- الحلـــل الموشـــية في ذكر الأخبار المراكشية . حققه د. سهيل زكار . أ. عبد القادر زمامة . الدار البيضاء ١٣٩٩هـــ ـــ ١٩٧٩م .
٦١- مؤلف مجهول :
- الذخيرة السنية تاريخ الدولة المرينية . الجزائر ١٩٢٠م .
٦٢- مؤلف مجهول :
- كـــتاب الطبيخ في المغرب والأندلس . تحقيق أمبروزيو أويثي ميراندا . مدريد ١٩٦٥م .
٦٣- مؤلف مجهول :
- مفاخر البربر . تحقيق ليفي بروفنسال . الرباط ١٩٣٤م .

٦٤- النباهي :

- المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا . القاهرة .

٦٥- النويري : شهاب (ت. ٧٣٢هـ ـــ ١٣٣٢م) .

- نهاية الأرب في فنون الأدب . دار الكتب . القاهرة .

٦٦- الونشريسي :

- المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل أفريقية والأندلس والمغرب . نشر وزارة الأوقاف . المملكة المغربية ١٤٠١هـ ـــ ١٩٨١م .

المراجع:

١- إبراهيم المفيفي محمود . بنوزيري وعلاقتهم السياسية بالقوى الإسلامية في حوض البحر المتوسط . القاهرة ١٩٨٩ .

٢- أحمد أمين . ظهر الإسلام . القاهرة ١٩٥٣م .

٣- أرسلان (شكيب) الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية . جزآن . القاهرة ١٩٣٦م .

٤- تاريخ غزوات العرب ف فرنسا وسيسرا وإيطاليا وجزر البحر المتوسط . القاهرة (عيسى البابي الحلبي وشركاه) .

٥- أرشيبالد لويس . القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط . ترجمة محمد أحمد عيسى .

٦- أرنست كونل . الفن الإسلامي . ترجمة أحمد موسى . بيروت ١٩٦٦م .

٧- إسرائيل ولفنسون . موسى بن ميمون . القاهرة ١٩٣٦م .

٨- إعراب (سعيد) مع القاضي أبي بكر بن العربي . بيروت ١٤٠٧هـ ـــ ١٩٨٧م .

٩- أشباخ . تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين . جزآن . ترجمة محمد عبد الله عنان . القاهرة ١٩٤٠-١٩٤١م .
١٠- الأصيبعي . الشرطة في النظم الإسلامية والقوانين الوضعية . دراسة مقارنة بين الشريعة والقانون . طرابلس ١٣٩٩هـ ــ ١٩٩٠م .
١١- البتنوني (محمد لبيب) . رحلة الأندلس . ترجمة محمود عبد العزيز سالم . القاهرة .
١٢- البعلي (فؤاد) . فلسفة إخوان الصفا الاجتماعية والأخلاقية . بغداد ١٩٥٨م .
١٣- بوز (فارس) . الأوضاع الداخلية للأندلس وعلاقاتها بالمغرب في ظل المرابطين . رسالة ماجستير . دمشق .
١٤- التازي . التاريخ الدبلوماسي للمغرب . المجلد الخامس . جزآن . ١٤٠٧هـ ــ ١٩٨٧م .
١٥- التليدي . المطرب في مشاهير أولياء المغرب . طنجة ١٩٨٧م .
١٦- الحجي . التاريخ الأندلسي من الفتح إلى سقوط غرناطة . بيروت ١٩٧٦م .
١٧- حسن إبراهيم حسن . تاريخ الإسلام السياسي . ج٤ . القاهرة ١٩٦٧م .
١٨- حسين . تاريخ المغرب والأندلس في عصر المرابطين دولة علي بن يوسف المرابطي . الاسكندرية ١٩٨٦م .
١٩- حمادة . الوثائق السياسية والإدارية . ١٤٠٠هـ ــ ١٩٨١م .
٢٠- دندش . أضواء جديدة على المرابطين . بيروت ١٩٩١م .
٢١- دندش . الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني . دار الغرب الإسلامي . بيروت ١٤٠٨هـ ــ ١٩٨٨م .
٢٢- دوزي . ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام . ترجمة كامل الكيلاني . القاهرة ١٣٤١هـ ــ ١٩٣٣م .

٢٣- ديورانت . قصة الحضارة . ج٤ . ترجمة محمد بدران . القاهرة .
٢٤- رينو (جوزيف) . الفتوحات الإسلامية في فرنسا وإيطاليا وسويسرا . بيروت ١٩٨٤ .
٢٥- زغلول . محمد بن تومرت وحركة التجديد في المغرب والأندلس . بيروت ١٩٨٤ .
٢٦- زكار . التاريخ العباسي والأندلسي . دمشق ١٤٠١هـ — ١٩٨٢م .
٢٧- سالم (سحر عبد العزيز سالم) . مدينة قادس ودورها في التاريخ السياسي والحضاري . كلية الآداب . جامعة الاسكندرية ١٩٩٠ .
٢٨- سالم (عبد العزيز السيد سالم) . محمد أبو الفضل . تاريخ مدينة ألمرية الأندلسية . الاسكندرية ١٩٨١م .
٢٩- شرارة (عبد اللطيف) . أبو الوليد ابن زيدون . بيروت ١٩٨٨م .
٣٠- الشكعة . الأدب الأندلسي . بيروت ١٩٧٢م .
٣١- الشيخ (محمد محمد موسى) . دولة الفرنجة وعلاقتها بالأمويين في الأندلس حتى أواخر القرن العاشر الميلادي . الاسكندرية ١٩٩٠ .
٣٢- طرخان . المسلمون في أوروبا العصور الوسطى . القاهرة ١٩٦٦م .
٣٣- العبادي . دراسات في تاريخ المغرب والأندلس . الاسكندرية ١٩٦٨م .
٣٤- العبادي . الصقالبة في إسبانيا . مدريد ١٣٧٣هـ — ١٩٥٣م .
٣٥- العبادي . صور وبحوث من التاريخ الإسلامي . القاهرة ١٩٥٣م .
٣٦- علام . دولة الموحدين بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي . القاهرة ١٩٧١م.
٣٧- عنان . أندلسيات . الكتاب العشرون . ١٩٨٨م .
٣٨- عنان . عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس ، وهو العصر الثالث من كتاب دولة الإسلام في الأندلس . القاهرة ١٣٨٣هـ — ١٩٦٤م .

٣٩- عنان . نهاية الأندلس وتاريخ العرب المنتصرين . العصر الرابع من كتاب دولة الإسلام في الأندلس . القاهرة ١٣٨٦هـ ــ ١٩٦٦م .

٤٠- غنيم (إسمت) . الإمبراطورية البيزنطية وكريت الإسلامية . جدة ١٩٧٧ .

٤١- فازلييف . العرب والروم . القاهرة (دار الفكر العربي) .

٤٢- قربه (صالح بن) . المسكوكات المغربية . الجزائر ١٩٨٦ .

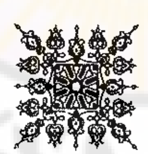
٤٣- كــول (ماك) . الروايات التاريخية في تأسيس سلجماسة وغانة . الدار البيضاء (دار الثقافة) .

٤٤- لقــبال (موسى) . الحسبة المذهبية في بلاد المغرب . نشأتها وتطورها . الجزائر ١٩٧١ .

٤٥- محمود (حسن أحمد محمود) . قيام دولة المرابطين . القاهرة ١٩٥٧م .

٤٦- محمــود (مــنى حســن) . المسلمون في الأندلس وعلاقتهم بالفرنجة . القاهرة ١٩٨٦م .

٤٧- مؤنس (حسين) . تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس . القاهرة ١٩٨٦م .





المصادر الأجنبية

١- Brunschvig, la Berberie oriental sous les Hafsides ٢tomes (Paris ١٩٤٠-١٩٤٧) .

٢- Gonzalez.las conquistas Fernands III en Andalucia, Madrid. ١٩٤٦.

٣- Hopkins. Medieval muslim goverment in Barbary until the sixth century of the Hijra (London ١٩٥٨) .

٤- Jan Read. The moors in Spain and Portugal, London ١٩٧٤.

٥- Jamil. M. Abun-Nasr-A history of the Maghrib, Gambridge university ١٩٧١.

٦- Menedez Pidal. Espana del cid. Madrid ١٩٥٦.

٧- Ocalloghan. F. J, A History of Medieval Spain. Cornel University, Ithaca, new York. ١٩٧٥.

٨- ROGER le TOURNEAU. The Almohed Movement in the north Africa.

٩- Torres Balleas, el art de la-Andalus Bajo el dominio Almoride, Al-Andalus, volx VI. ١٩٥٢.

المدقق اللغوي

د. فاديا المليح


وقل رب زدني علما
جامعة دمشق
Damascus University